



نساء
سليم

اسم الرواية: نساء سليم.
اسم المؤلفة: رشا شمس.
المدير العام: نهى محمود.
مدير التسويق والتوزيع: يوسف محمد ربيع.
تصميم وإخراج فني: همت العزب.
تصميم الغلاف: ميريهان عمر.
التصحيح اللغوي: «أولي النهى للتصحيح اللغوي»
(رشا شمس/نهى محمود/جهاد رشاد)

موديل الغلاف: David Gandy

الطبعة الأولى: ٢٠٢٠م

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٩/٢٨١٣٩.

الترقيم الدولي: ٥٩-٠-٦٦١٠-٩٧٧-٩٧٨.

كل الحقوق
محفوظة

١٧ ش حسن وهبة من شارع الهرم الرئيسي

خلف كايترو مول.

موبايل / ٠١٠٣٠٨٥٠٥١٢

البريد الإلكتروني:

للنشر والتوزيع
الشاهد

Nohamahmoud.171186@gmail.com
elshahdpublishing2016@gmail.com



قِسَاءٌ فِي سِلَيمٍ

(ملحمة إنسانية تبدو فيها الحقيقة مثل عكسها)

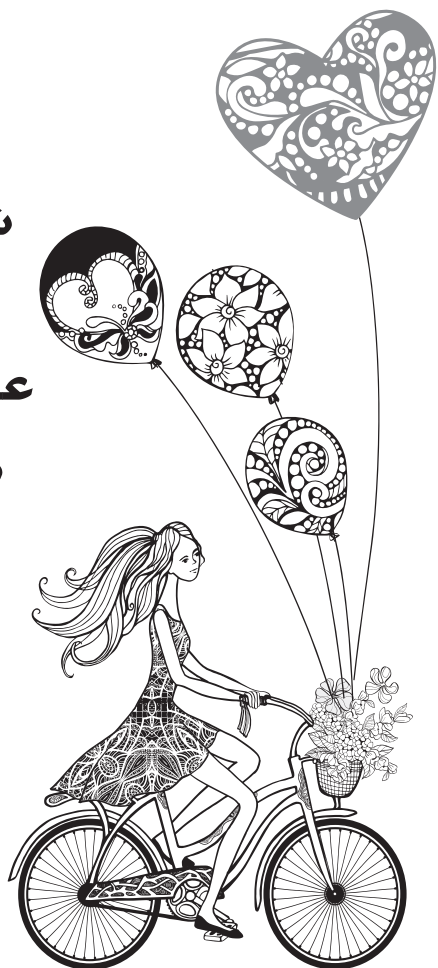
رشا شمس

الطبعة الأولى

٢٠٢٠م



شكر خاص للصغيرة
رؤى عمرو
على إبداعها في تصميم
هذه الصورة للرواية



دار الشهد للنشر و التوزيع

رشا شمس

نساء سليم

رواية 2020م



بعض اللحظات كانت
لنُعيد النظر في حياتنا بأسرها
وبعض الأشخاص هم لنا الحياة بأسرها
(رواية كُتِبَتْ من بين أعماق أعماق الواقع)



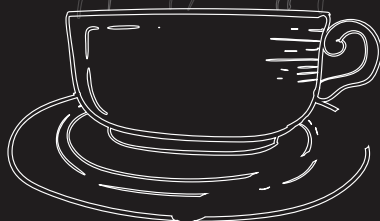
الإفترق

إلى رجلٍ لا يتكرر..
إلى رجلٍ اختصر كل الرجال في نظري..
إلى رجلٍ جعل لعمرى طعاماً ولوناً ورائحة..
إلى رجلٍ تعلقتُ به تعلقَ الماء باليابسة..
إلى رجلٍ يُجيد السيطرة على منافذ قلبي..
فأبجدية العالم أجمع لا تكفي للإخبارك كيف،
ولما، وإلى أي مدى غارقة أنا في بحر هواك..
يا مدي وجزري.. يا عمقي وموحي..
إلى رجلي الوحيد وحبّي الأكيد..
إلى عمرو.. زوجي.. وحببي.. وصديقي.. وابني..
طاب العمر بك وطبت أنت لي عمراً...

رشا شمس

أنصح بكوبٍ من مشروبك المفضل قبل أن
تشرع في قراءة هذه الرواية ، فربما بعد الانتهاء
منها ستطرح التساؤلات في رأسك وستصول
وتجول هل هذه الشخصيات والأحداث حقيقية ؟
هل الأبطال موجودون معنا فيقرؤونها يومًا ما ؟؟
في الحقيقة إنهم جميعًا أحياء في قلبي
يتجولون بحرية في وجداني..
والآن ها أنا مثلي مثلكم أقرأها وفي يدي
فجان قهوتي المضبوط..

رشا شمس
القاهرة ٢٠٢٠م





التهية

حينما شقَّ ضوء الفجر سكون الليل البهيم كان سليم مستلقيًا على ظهره فوق سطح السراي الكبير يُطالع نجومًا متلاألة متناثرة في كبد السماء، يتأمل بدهشة محطات عمره على تعددها واختلافها، وهو التَّوَّاق إلى كل تجربة، يفحص دهاليز عقله متسائلًا: كيف بقي حيًّا طوال تلك السنوات رغم كل ما عايشه ومرَّ به كارهاً أو راضياً؟ كيف نجا من غضبات والده الشرسة المتداخلة المقتحمة لشبابه دومًا ورجولته أحياناً؟ كيف نجا من تلك الحياة الصاخبة بأحداثها التي طالما تمنَّى أن يقفز منها قفزة واحدة فيغوص داخل حفرة عميقة ثم يهيلون عليه التراب بعدها؟، فقد كان خلال سنواته المنصرمة وكأن القذائف والمتفجرات والصواريخ تركض حوله أو كأن أحوال الطبيعة وظواهرها قد اعترها الجنون!

كان خوفه الوحيد في كل مرة من أن تؤثر تلك الغضبة الأبوية على قدرته اللامتناهية على الاستمتاع بفصول حياته ومواسمها كيفما يشاء، يقسو عليه لا كُرْهاً له ولا بُعْضاً فيه، بل إنها قسوة يريد له بها الأفضل فقط حسبما يترأى له، يتهرب سليم من تلك القبضة ويعتصم بقلبه المتقلب ومزاجه المتمرد، يضرب بالأعراف والتقاليد عرض الحائط، فقد اكتفى منها ولا حاجة للمزيد من التجارب،



يضرب بقدميه على الأرض كطبل إفريقي مجنون حين تردّد في ذهنه خاطر واحد: التخلص من قيود يريدون تكييله بها والعودة به إلى حيث يُفترض أن يكون، مثل دمية لا تؤدي سوى دورها على النحو المرسوم لسيرها دونما توقف ودون افتراض لجدلية رأيها ورغبتها فإنها على أية حال ستظل تتابع حركتها الآلية، لكن سليم ليس بدمية ولا هو ترس لا يعمل إلا بضغطة زر تصدر بطرف إبهام أبيه الحاج جعفر أبو ستين، لم يعد يمكنه الإنصات كثيراً فقد فات الأوان، في كل مرة يردد لنفسه عشرات المرات بصوت مسموع أحياناً مكتوم أحياناً أخرى، أنه قد استيقظ من غفوة استمرت سنواته المنصرمة واستهلكت مشاعره وإنسانيته وبعضاً من رجولته، أدرك أنه كان خلالها أعزلاً، محكوماً عليه بالإقامة الجبرية في ساحة معركة ليس هو بطلها ولا يملك فيها أي سلاح ولا يتقن استعمال شيء غير استدرار لعطف نحيل راكد في قلب أبيه، فكل صولاته وجولاته مجرد أساطير تحدث في ساحات فارغة دون أن يقع بعدها في أزمة ضمير؛ فالمهم أن يعيش ويستمر، فالحياة وحدها هي الضامن لتصحيح الأخطاء أو عدم تكرارها على أقل تقدير دون حوارات فلسفية أو محاكم لجلد الذات، فسنوات العمر تكرر وتفرّ، والواقع الملموس يفرض نفسه على كل حال..



كان من المدهش أن يظل حيًّا يقود سيارة حياته في طريقه أينما شاء؛ حتى لو عرجت به الطريق إلى الآخرة؛ فالدرب إلى هناك سالكة وآمنة وبلا حواجز، هناك لا يستوقفه أحد، ومَن عساه يفعل؟ فما عاد أحد يستطيع ذلك!

كم أراد سليم لسنوات طوال أن يهرب من عيون العالم إلى زاوية هادئة بسيطة يستطيع فيها أن يصير سيد نفسه ليفهم تلك المساحات الشاسعة من شخصيته التي لا يفهمها، وكلَّمَا اهتاجت عليه نفسه المتمردة ركن إلى حضن بنت من بنات حواء يقذف بخوفه أو رغبته نحوها، نحو مباحج يشواق إليها ومناح كاملة من كيانه يريد إدراكها، ربَّما كل ما أدركه طيلة سنوات عمره على سطح هذا الكوكب هو قدرته السحرية على الاقتراب من أي أنثى يريدُها، فسليم هو المخلوق الوحيد القادر على التجول في مُدن النساء، يفتش في خباياهن عن لذة مؤلمة أو سعادة لاذعة غريبة المذاق، يحظر الذكريات ويهاهبها، يفر دومًا من كل مكان على وجه الأرض إلى أي مكان على وجه الأرض!

تمنَّى دومًا أن تكون له طريقته في العيش ضمن ما يحب مع مَن يحب، لا أن يعش مُجبرًا مُقيّدًا بسلاسل الواجب ومحاذير المفروض وخواتيم المنطق، يدهشنا حينًا بفوضويته في الحياة



وجنوح مشاعره واللاشيء الذي يربطه بكل شيء، واللامنطق
الذي يحكم قلبه حيناً ثم يرفضه عقله حيناً آخر...
يجازف، يُراهن على مجهول لا يعرف عنه شيئاً، فقط يربطه
به إيمان عميق وشغف أعمق أن الله سيمنحه راحة يأملها وسعادة
يبتغيها ودفء يسعى إليه..

ولنقترب من بطلنا الهمام ونتعرف أكثر على شخصه المبهم
بل المعقد ولنسبح بانسيابية داخل أغواره المتكتلة كان لابد من
النفاذ إليه عبر مسارات مختلفة أو لنقل إنها ومضات شرارية
نعرفه من خلالها، إنها تلك الشخصيات النسائية التي لعبت
أدواراً غاية في الأهمية والخطورة في تكوين شخصية «سليم
جعفر عبد القادر جعفر أبو ستين» المولود في الخامس عشر من
مارس عام ١٩٨٤م وفقاً لعناوين وتواريخ ورود هؤلاء النسوة إلى
حياته المكهربة..

رشا شمس



(١)

آمنة فايق النابلسي

(المولودة في ٢٢ أكتوبر ١٩٢٠م)

لا مكان أفضل من حُجرة الحاجة آمنة ليُهرول إليه حفيدها
سليم إذا أراد التمتع بالحنان والعطف والاستجمام من صخب
الدوار الكبير الذي يقطنه بأدواره الثلاث، كثيرًا ما يقف على عتبة
جناحها الخاص الواقع في الناحية اليسرى من الدوّار منتظرًا
خروج النسوة اللاتي تعج بهن قاعتها، يقف مُقلّبًا صفحات كتاب
برسومات ملونة أو قصّة مرسومة من قصص الأطفال، طامعًا
في جلسة مطالعة يقضيها مستمتعًا يسرد جدته الرائع وقراءتها
الهادئة المتناغمة لتلك الصفحات بصوتها الدافئ جدًا، لكن
الزائرات لا ينقُصن ولا ينقطعن، فما أن تخرج واحدة أو اثنتان
حتى يدخل غيرهما؛ فيظل جالسًا مستندًا على الحائط المتاخم
لباب قاعتها بالساعة والساعتين إلى أن تسمح له خادمتها النبوية
الخاصة والمرأة القائمة على رعايتها «الست زمردة» بالدخول،
وإلى جدته المبروكة صاحبة الكرامات والأأيادي البيضاء والقلب
العامر بحب الله والناس بهرع وقد تهلّل وجهه البريء وتعبقت
نفسه بطيب رائحتها.



وما أن تراه الحاجة آمنة حتى تبسم ابتسامتها الصافية
كعينها الزرقاوتين المصبوغتين بلون السماء وتبادره متسائلة:
كيف كان يومك يا صغيري؟ يأتري صارت أمورك على خير؟

ثم تمنحه بعض بلورات من سُكر النبات التي تحتفظ بها
دوماً في جرابها؛ فارتبطت جدته في ذهنه بطعم السكر...

كانت تجربته دوماً وبصوتها الجبلي الرخيم أن جميع الناس
يبحثون عن السعادة حتى الذين يشنقون أنفسهم، وأنه ينبغي
عليه أن يفتش في أغواره عما يُحقِّق له سعادته ويضمن بقاءها،
تُغنيه بقصصها وحكاياتها التي كان سليم يقصدها للتسلية بالكثير
من الدفء الإنساني والأفكار العظيمة وتغذيه بحُب الحياة رغم
واقعتها الشديدة وصرامتها المعتدلة، يُردد لسانها المُطمئن
دوماً بذكر الله مقولةً باتت محفورة في قلب الفتى، منقوشة في
ضميره، يترحم على جدته الحلوة كلما ترددت مقولتها في أصداء
عقله: «كل ما انظفاً في عيونك حلم، الله بيخلق لك حلم أجمل
وأجمل وكل ما بهتت في قلبك ذكرى الله بيصنع لك ذكرى أروع
وأحلى، ولما الدنيا تعطيك زهرها، لفلها أنت وعطيها وجهك
وبتسم كثير تبسملك الدنيا غصب عنها»..

وفي شهورها الأخيرة وتحديداً في خريف عام ٢٠٠٠م
وقُبيل ذكرى ميلادها الثمانين داهمها المرض اللعين وأرقدها



في فراشها لا تقوى على الحركة، تُحضر لها «زمردة» ماء الوضوء، فتتوضأ وفي مكانها تُصلي، زارها سليم كثيرًا برفقة عمته رحمة التي كانت تجيء خصيصًا من «سوهاج» تاركة بيتها وزوجها والبنات حُبًّا في النابلسية الطاهرة، فتقيم في السراي الكبير أيامًا تُمرّض آمنة وتخدمها بنفسها، ثم لا تلبث أن تعود أدراجها إلى سوهاج على غير إرادتها، فقلبها متعلقٌ بزوجة أبيها تعلقه بالحياة، لكن واجباتها كزوجة وأم تقف حائلًا بينها وبين بقائها في «برخيل»، أما سليم فيرفض مغادرة جدته؛ فيبُت تحت قدميهما المتورمتين يدلكهما برفق وحذر..

أخبرته مرارًا عن رغبتها وأمنيتها الوحيدة في أن تعود إلى وطنها وأرض مهدها، تعود إلى مفاوز الماضي، كان يكفي أن تشم رائحة الحطب المحترق لتعود أدراجها إلى سنوات طفولتها وتعيش مجددًا في شتاء نابلس، تحنُّ إلى صداقاتها الضائعة مع فتيات «جبل النار»^(١)، تحلم بالشوارع نفسها والحرارات عينها، هناك في نابلس تريد أن تموت ولكنها للأسف ماتت دون حلمها، فللواقع قوانينه الصلبة وللمرض أحكامه الوقحة..

(١) جبل النار هو جبل عيبال المُطل على مدينة نابلس الفلسطينية وترتفع قامته المنبسطة ٩٥٠ مترًا فوق سطح البحر ويعرف بجبل النار نظرًا لما يروى عن إضرام النار بجنود نابليون في أحراش هذا الجبل خلال الحملة الفرنسية لاحتلال الشام.



ليلتها احتضنها الفتى ذو الستة عشر عاماً بعمقٍ بالغ
واحتواء أبلغ، وبات يُتمتم في أذنها بآيات من الذكر الحكيم،
تلك السور القصيرة التي لطالما ردّدها هي على مسامعه حين
كان صغيراً فحفظها بسرعة وسلاسة وعن ظهر قلب، الآن
تبدّلت الأدوار، هي من تحتاج وهو من يقدر، إنها طاقة الحب
العميق الذي به تنشق بداخلنا الأشياء الثمينة الباقية فلا يذوي
جمالها أبداً... نادى اسمه حين أتمّ قراءة آية الكرسي ثلاثاً،
فتحت عينها المرهقتين وسألته أن يضمها ضمة قوية، اقترب
أكثر ليحيطها بذراعيه الدافئتين؛ فاستقر رأسها المتعب على
قلبه تحرّسه ضلوعه، طبع قبلة حانية على جبينها، مازال مرمرياً
ندياً ذو جلاله مهيبه رغم تجاعيد الزمن، همست قائلة: الله أكبر
عليك حبيبي، عيونك شو حلوين..

مسح بكفه على رأسها وهمس قائلاً: عشان نفس عيونك
جدتي.. إنتِ إديتهو ملي..

ضحكت ضحكة متقطعة، لقد بلغ منها المرض مبلغه
وقالت: الله هو اللي عطاني وعطاك حبيبي.. قرّب مني أكثر..
التصق بها وقلبه يتضرع، يرجو لها الشفاء العاجل..
إنّ فكرة رحيلها عنه لم تتطرق لذهنه بعد، ليس جهلاً بحالتها



الصحية ولا رفضاً لِمَا هو حق.. لكنه الحب الذي يُعمي الأعين
عن رؤية قافلة الرحيل وهي تُعد رحالها..

وبضعف شديد تماكنت آمنة نفسها وقالت: سليم يا ولدي
افتكر دائماً أن الحياة بتبدأ كل يوم من جديد، تشرق زي ما الشمس
بتشرق، وما بتغربش إلا إذا توهنا نحنا وتاه نجمنا ومعرفناش نحنا
شوعايزين ولا على شو ناوين، ما تكونش إلا نفسك حبيبي واختار
اللي إنت بدك إياه لحالك، الله راح يحاسبك إنت ع اللي بتعمله وع
اللي بتختاره، والإنسان ما بيعيش إلا مرة واحدة بس ويتحاسب
عليها، كن كيف ما بتريد إنت تكون، وعليك بالخير يا ولدي
وجبر الخواطر.. الخير بس اللي الباقي وغيره بيروح حبيبي..



أما آمنة فقد نشأت في عائلة متدينة نوعاً ما، كان جدها
قاضي نابلس الأول وكذلك كان والدها، لكنه وحين بلغت العاشرة
استقال من عمله بمحض إرادته، فقد كشفت المصادفة عن براءة
أحد السجناء من تهمة قتل عمد وُجهت إليه ونُفذ فيه حكم
بالإعدام أصدره والدها ضده مقتنعاً بجريرته بناء على الأدلة
المثبتة والمقدمة من النيابة العامة والتي كانت تشير جميعها إلى
أنه المرتكب الفعلي لتلك الجريمة.. لم يتحمل والدها عذاب



الضمير وتأنبيه المستمر لذاته، راحت ذاكرته تنقض عليه كل ليلة تنهش عقله ووجدانه، تُفزع صرخات المتهم وتوسلاته ورجواته أن تُصدق المحكمة براءته فقد كان يُقسم على ذلك بينما يرتعد جسده وهو في قفص الاتهام... بعدها أصيب «السيد فايق» «بنوبة اكتئاب شديدة فقرّر الاستقالة من سلك القضاء وأشار الأطباء على زوجته بالسفر والابتعاد عن نابلس ولو لفترة، لعلّها تكون المُنجية وتحسن الحالة النفسية لسيادة القاضي، وبالفعل وصلت الأسرة إلى القاهرة إبان حكم الملك فؤاد الأول^(١)، وما لبثت أن استقرت في شقة استأجروها في شارع عابدين بالقاهرة أملاً في تحسّن الحال، إلا أن الأمور أخذت تزداد سوءاً وامتنع سيادته عن الطعام تماماً وحُقنت أوردته بالمحاليل المُغذية... حتى كانت الليلة الخامسة من يوليو ١٩٣١م حيث أصابته أزمة قلبية حادة لفظ أنفاسه على أثرها قبيل وصوله إلى المستشفى بدقائق..

فأدركت السيدة «بدور» والدة آمنة حجم المأساة التي ستعيشها في قادم سنواتها بحكم حياة الترمّل التي فُرضت عليها والثياب السوداء التي تكره أن تحيط بقوامها الممشوق، فهمت كم أنه من العسير عليها الاعتناء بوحيدها ورعايتها والوقوف

(١) فؤاد الأول سلطان مصر من ١٩١٧م إلى ١٩٢٢م، ثم غيّر اللقب وأصبح يُنادى بملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور حتى إبريل ١٩٣٦م



على تربيتها بما يُحقّق للصغيرة مستقبلاً أفضل، كانت العلاقات بينها وبين أسرة زوجها الراحل متوترة وعلى غير ما يرام، خاصةً أنه تزوّجها دون علمهم وضد رغبتهم؛ فقد كان والدها مدمناً للقمار فمات مقهوراً بعدما تكاثرت عليه الديون، وهكذا وجدت نفسها مضطرة إلى انتزاع نفسها وابنتها من جبال نابلس نهائياً والاستقرار بشكل تام في مصر المحروسة، وحين هاجم الصيف القاهرة؛ سافرت إلى الإسكندرية لبضعة أسابيع بغرض الاستجمام.. تعرفت هناك على سيدة يهودية أرمانية أقنعتها بالعمل معها في تصميم وحاكاة الملابس، فالسيدة بدور ذوق مميز بنزعة أرستقراطية راقية لاقت استحساناً كبيراً من زبائن بيت الأزياء الخاص بصديقتها «راشيل»... عادت «بدور» إلى القاهرة مع بدايات العام الجديد فتلقت عرضاً لا يمكنها رفضه من بيت أزياء عالمي بمرتب كبير، عمولة أيضاً فقبلت دون تردد، فقد أوشك ما معها من أموال على النفاد... اجتهدت كثيراً وتعودت على تلقي التقدير والمديح والثناء الشديد على كل ما تقدمه من تصميمات؛ فانطفأت تماماً كل فكرة راودتها خلسة في العودة إلى ديارها، وما لبثت أن تزوجت من جارها المصري ذي البنية القوية والقوام الرياضي.. «قايل الطرابيشي» تاجر



التحف والأنتيكات الشهير بخان الخليلي والذي تربط أسرته صداقة عميقة بإسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء آنذاك^(١)، وكان من المفترض أن يتزوج «التاجر الشاب» بابنة عم الباشا إلا أنه وقع في غرام السيدة النابلسية الشقراء وتزوجها فور مرور عام على وفاة زوجها الأول أبو طفلتها آمنة...

عانت بدور من متاعب نسائية عديدة لا تعرف لها سبباً، فقد كان حملها من زوجها الشاب لا يستقر في رحمها أكثر من شهرين أو ثلاث، حتى بات الرجل يتشاءم كثيراً حين يصل إلى علمه خبر حمل زوجته الجميلة، ثم شاءت الأقدار أن تضع له ابناً أسماه «حُسين» تيمناً برؤية مباركة رآها حين خطف النوم عينيه في مسجد سيدنا الحسين والذي بشره بوصول فلذة كبده... صبي رائع الجمال كأمه، بهي الطلعة كأبيه، صدق قابيل رؤياه تصديقاً عميقاً وراح يُبشر بدور بقرب تحقيق المراد كلما غزا الحزن قلبها وتجمّعت الدموع في مقلتيها رغبةً في وليد يربط بينها وبين زوجها الذي أحبّته بكامل قلبها، راح الرجل يُكثر من العطايا والهبات وينفق بملء يديه الصدقات ابتهاجاً إلى الله تعالى وأملًا في تحقيق رؤياه، وفي يناير ١٩٣٤م تحرّك حسين

(١) تولى رئاسة وزراء مصر مرتين، الأولى في عهد الملك فؤاد وفي المرة الثانية في عهد الملك فاروق الأول، توفي عام ١٩٥٠م.



في أحشاء بدور مُنبئاً عن وصوله الوشيك ممزقاً تلك الخيوط الوهمية التي علقت في قلب أمه باستحالة قدومه سابقاً..

ولِد حسين الصغير، الأخ الغير شقيق للجميلة آمنة في شقة مهندمة للغاية، مُتخمة بالتُّحف في شارع ابن خلدون حيث المقر الجديد للزوجين السعيدين.. تشرق الشمس كل صباح على الشقة وأنتيكاتها فتزيدها حسناً وبهاءً، لم يحمل قلب آمنة الأخضر غير الحب لأخيها حسين، غير أن الغيرة زارته كلما كبر الصغير وانشغلت به والدتها وزوجها وأحبّاء بشدة، وانغلق عالمهما دونه حتى عجزت آمنة عن التعامل معهما، وحدث أن سقط الصغير المدلل أرضاً وقد تصلب جسده تماماً وارتجفت أطرافه في حين راح فوه ينثر الزبد، طاف به الوالدان المنخلع قلبهما على أولياء الله الصالحين وهما عاجزان عن رؤية صغيرهما ينكمش أمامهما على هذا النحو، لم تفلح الأدعية والرقى الشرعية ولا العرائس الورقية التي أشار بها الجيران على بُدور وحثوها على تخريمها بإبرة الخياطة وهي تتمتم بالمُعوذتين مغرب كل جمعة على أن تكون طاهرة البدن، ولا فلتحت جرائمات البخور الغالي التي تنطلق من جوانب الشقة كل صباح ومساءً.. لا شيء كان مجدياً في شفاء حسين مما أصابه، هرع الوالدان إلى الأطباء هرباً



به من وصفات الدجل والشعوذة وطاعة الجن والعفاريت التي لم تثمر جميعها بل زادته ضعفاً، ثم جاء الطب ليركل بواقعيته كل أمل لهما، إنه الصرع^(١) الفتاك شديد العنف، هذا ما أكدّه الأطباء وأجمعوا عليه، مأساة حُفرت في وجدان الأسرة واستدعت مزيداً من الشفقة واللين والدلال تخص بها الأم صغيرها، دائرة مُحكمة من التقديس أحاطت به وهو مريض عليل ذو أربع أعوام، انقطعت كل آمال آمنة في التفاتة والدتها نحوها أو حتى معانقتها بين الحين والحين، وباتت تنتظر بكل شوق خروجها من بيت السيد قاييل إلى مأوٍ وملاذٍ آخر، في قلبها تمتنت العودة إلى نابلس حيث عمها ولتتزوج أحد آبائِه إن أراد أو تنتظر حُكم جدها فيها، لكنها لم تملك الجرأة اللازمة لمكاشفة أمها بما رغبت، فبدور بها ما يكفيها!



وفي إحدى أمسيات ١٩٣٩م وكان حُكم مصر قد آل إلى فاروق الأول^(٢) وعلى غير العادة عاد قاييل إلى بيته بصحبة زائر

(١) الصرع هو اختلال عصبي داخلي ينتج عن اضطراب الإشارات الكهربائية في خلايا المخ.

(٢) فاروق الأول، آخر ملوك المملكة المصرية وآخر من حكم مصر من الأسرة العلوية، استمر حكمه ستة عشر عاماً إلى أن أطاح به تنظيم الضباط الأحرار في

٢٣ يوليو ١٩٥٢م



غريب، ضيف جليل، رجل أربعيني العمر، ثري وقور، ليس قاهريًا ولا يعرف في القاهرة المُعز الكثيرين، كانت آمنة قد غطت في نوم عميق لكنها فوجئت بوالدها توقظها للترحيب بالزائر المهيّب بينما أصرَّ زوج أمها على أن تُدخل الصبية بنفسها للضيف صينية العشاء الفاخرة متعددة الأصناف رغم وجود الخادمة في الدار..

كانت آمنة قد أتمت التاسعة عشر، وخطت بقدميها المرمريتين عالم الشباب وجرت العذوبة في ملامحها والرشاقة في جسدها البض، يحيط بوجهها المليح المُشرب بحمرة الخجل هالة بيضاء تكسبها إثارة وكأنها أميرة هاربة من كتاب ألف ليلة وليلة، وفي تلك الليلة تحديداً لفتت بهدوءها العذب وابتسامتها الساحرة نظر الضيف الذي شكرها بشدة حين قدّمت له الشاي بعد العشاء وفي نفس الليلة تقدم لخطبتها السيد «عبد القادر أبو ستين».... لقد طار لُبه حين اصطدمت عيناه بالجنينة الصغيرة ذات الغمازتين اللؤلؤيتين، لم تُعارض بدور الزيجة كما لم تقبل بها أيضًا، ربّما توقعت أن يأتي الرفض من آمنة نفسها، فما الذي يُجبرها على الزواج برجل صعيدي يكبرها بأكثر من عشرين عامًا؟ وما الذي يُغريها في زيجة غير متكافئة كذلك؟ تعلم جيدًا أن ابنتها قد صارت في سن الزواج وترى بعينيها أن الكثيرات



من قريناتها من بنات الجيران قد تزوجن وبعضهن أنجن أيضاً إلا أنها غضبت من قابيل لأنه استمع لعرض الصعيدي الجلف بل ووعد به عرض الأمر على العروس، توقعت أن يعتذر ويصرفه دون الرجوع إليهما، وافقته أن تُقدم ابتهاج الطعام للضيف إيماناً منها برأيه وتصديقاً لرجائه حين سألها أن تهتم هي وابتهاج بذلك الثري الذي سيشتركه التجارة في افتتاح فرع جديد لمحله في الأزهر.. ولو كانت قد قرأت نيته وخطته لما وافقت على عرض وحيدتها على ذاك الرجل مهما بلغ ثراه... فاجأتها موافقة آمنة على عبد القادر، وتساءلت ما تلك التغيرات الغيبة التي طرأت على الصبية؟... رأت أنها تحاول إغراق نفسها لكنها ستمنعها وستعيدها إلى الطريق القويم، كم أرادت لها أن تصير عارضة أزياء شهيرة أو نجمة سينمائية تفتح لها أبواب السينما على مصراعيها، فآمنة لا تقل جمالاً ورشاقة عن تحية كاريوكا، ولا هي أقل وداعة وحضوراً من ليلي مراد.. تحدثت معها لمرة واحدة متسائلة عن دوافعها وأسباب قبولها للزواج على هذه الحال وبهذه السرعة، لم ترغب الفتاة في جرح أمها ولا في إزعاجها إن هي أفصحت عما يجول ويغلي بداخلها، فقط وقفت برهة صامتة، ثم أردفت بلهجة شامية وكأنها فجأة قد ارتدت إلى جذورها: وين أنا ماما؟



شو حققت بحياتي لَهَلَا؟ بدي حياة جديدة إلی وحدي، أعيشها
كيف ما بدي، بيكفي عليكِ هَم حسين ومرضه، الله يعينك ماما، لا
تصعبها عليّ، هي صعبة من حالها!

بعد تلك الليلة نقلت بدور بنفسها إلی زوجها موافقة آمنة
على الزواج من عبد القادر والرحيل معه إلی قريته «برخيل» التابعة
لمركز بلينا في سوهاج..

لم تتحدث بدور في أمور المهر والشبكة وما شابه من أمور
الزفاف، لكنها اشترطت أن يشتري عبد القادر لابنتها شقةً تليق بها
في عين سوهاج وأن يتم الزفاف في القاهرة حيث تسكن العروس
ليفرح بها الجيران والمعارف، لم يُعارض عبد القادر أن تكون
دُخلته على آمنة بجوار أمها؛ فبالتأكيد راغبة هي في الاطمئنان
عليها، استجاب للأمر واشترى لها شقة واسعة، أربع مطارح في
نفس الحي الذي تسكن فيه بدور، يبعد عنها فقط مسافة السير
على الأقدام لعشرة دقائق بدلاً من تلك الدار التي طالبت بها
حماته لابنتها في سوهاج، فلعلها بذلك تهدأ وتطمئن من ناحيته
ولا تعاود تُعرقل الزيجة.. فقد استنبط من «قابيل» معارضة بدور
في البداية ثم رضوخها لقرار ابنتها في النهاية..



وفي أوج صباها وبعد شهر واحد فقط من تلك الليلة تم الزفاف الميمون الذي وجدت أمنة نفسها عاجزة حيال رفضه، فلا مبرر للرفض ولا منطق للتهرب من زواج سيوفر لها بطاقة رحيل شرعي مضمون عن دنيا أمها التي باتت تتماذى وتسرف في مراعاة صغيرها حُسين على حساب الجميع حتى زوجها أُمَلتَه تمامًا وتناست وجوده لكنه قَبِلَ الإهمال وسكت عنه، كم تناقضت مشاعر أمنة حيال أخيها بين رحمة الحب وخشونة الغيرة، كم سخطت أمنة على وضعها رغم برود ظاهري تجلّت به أمامهم، كم وجدت نفسها ضائعة في دنيا أمها وأخيها، فلا هي أكملت تعليمهما والتحقت بجامعة فؤاد الأول^(١) ولا هي رحلت إلى نابلس حيث عمها وأهل أبيها، إذن فالتزوج عبد القادر الذي وجدت في صوته دسامة وفي هدوئه رزانة تُذكرها بأبيها الراحل، فلا قيمة لأحلامها ورغباتها المؤودة ولا معنى لاثنين وعشرين ربيعاً كاملة تفصلها عن رجل هو الأنسب لَمَن هي في مثل حالها وها هو قد أصبح زوجها، يرقد بجسده القوي بجوارها ليلتين أو ثلاثاً في الأسبوع، لا تنكر أن قلبها خفق بعاطفة رقيقة نحوه حين

(١) جامعة فؤاد الأول: هي ثاني أقدم الجامعات المصرية والثالثة عربياً بعد جامعة الأزهر وجامعة القرويين، تأسست في ٢١ ديسمبر ١٩٠٨م ثم تغير اسمها إلى جامعة القاهرة بعد عزل الملك في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.



عاشرته لكن قفصاً حديدياً ذي قضبان صلبة من المرارة والحسرة حالت دون أن يستقر حبها لزوجها في قلبها، فبعد شهرين من الزواج نقل لها استيائه من إقامتها الدائمة في القاهرة دونه، فعليه التواجد دوماً بالقرب من أعماله كما يتوجب عليه أيضاً تصريف شؤون قريته فهو «العمدة ابن العمدة» ولا يمكنه أن يكون متغيباً ليومين أو ثلاث أسبوعياً دون أسباب منطقية، كما أن للسفر مشقته ولا حاجة لكل منهما أن يفارق الآخر... رضخت آمنة لرغبته ولم تقاوم، ولم عساها تفعل؟ فلتكن معه أينما شاء، وحين سافرت إلى برخيل غرقت في بحرٍ من التعاسة؛ فقد انضمت إلى حريمه ووضعتها أسرته مع زوجتيه السابقتين في سلة واحدة، فهي الثالثة على أية حال، انكسر قلبها وأغلقت على نفسها همومها وباب قاعتها، ولزمت غرفتها وحيدةً مبتعدةً عن الجميع، تُعاونها خادمتها المخلصة «زمردة» على تصريف أمورها دون الاحتكاك بضريتها... فلا حاجة لها بهما ولا بخصوصيتهما.

لم ترغب في طلب الطلاق بل إنها لم تفكر به سوى مرة واحدة حين لطمها عبد القادر على وجهها فسال الدم من شفتيها إثر عتاب وجهته له لعدم إخباره لأحد عن أمر زوجته قبل زواجه بها، أقسم أنه قد أخبر «قابيل» بالأمر ولم يخفيه، ولما يخفيه؟ فهو



رجل، وللرجل مثنى وثلاث ورباع، وأقسمت هي بأنها لم تعرف بالأمر أبداً حتى وطأت قدماها أرض مركز بلينا حيث دار «أبو ستين» وأنها لو علمته سلفاً لما وافقت على الزواج به، اشتعل العتاب وتطايرت حمم الغضب من بين الحروف؛ فصارت مشادة كلامية انتهت باللطمة الغادرة على وجهها الملائكي، بعدها غادر عبد القادر قاعتها ولم يدخلها أسبوعين كاملين، جففت هي دماؤها وجلست تفكر في مصيرها ثم سرعان ما تراجعت عن فكرة الطلاق، فإلى أين تعود ولمن تعود؟ وهي هناك كالضيف المُنتظر رحيله في أقرب وقت، فلم ترُبداً من العودة إلى نقطة الصفر، إلى محطة الإنتظار، ولكن انتظار ماذا؟ وإلى متى؟ تلك أسئلة لا أجوبة لها، ربّما انتظار الفرج، ولكن أي فرج تريده؟، فالتكّتم مشاعرها إذن خوفاً من العواقب، انتبه زوجها عبد القادر لذلك الحزن الصامت في عينيها الزرقاوين حين دلف مخدعها بعد أسبوعين يحمل في قلبه اعتذاراً لكنه رأى الحزن أمراً مقبولاً مبرراً، إنه حزن مؤقت لن يدوم لمع في تلك العينين على وفاة حُسين الصغير والذي أعقبه بيوم واحد فقط وفاة السيدة بدور وهي نائمة في فراش ولدها الوثير.

هكذا وبعد تسعين يوماً فقط من زواج آمنة بعبد القادر



فقدت أخاها وأمها وأحاط بها المعزون يكون حالها وهي تحنق في باطنها على ذاك الصَّرع الذي حرَّمها حُسين وبدور في ليلتين متعاقبتين وباتت تردد: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رحمتك يا رحمن يا رحيم..



انكبت آمنة على نفسها أكثر وتوقعت داخل قاعتها الشرقية في دار زوجها، أصبح لا يشغلها شاغل عن القراءة والاطلاع، فكلَّمَا دخل عليها عبد القادر وجدها تحتضن كتابًا أو مُجلدًا، تنهل من العلم نهلاً، حاول معها ما استطاع حتى يصرفها عن ملهاتها الجديدة التي جعلت منها موضعاً للسخرية والتهكم من زوجتيه السابقتين «جليلة وبهيجة» لكنه لم يفلح، بل صار هو مَنْ يُحضر لها غايتها من أمهات الكتب والمجلدات كلَّما زار القاهرة، فعرفت آمنة أصول دينها، أتمت حفظ القرآن بعد عامين فقط من الزواج، صارت مرجعاً للأحاديث النبوية الشريفة، مُلمة برأي الأئمة الأربعة في مسائل شائكة، وغدت موسوعة في الطب النبوي والشعبي وطب الأعشاب، وكأن نيزكاً من السماء هبط على رأسها الصغير فحشره بكل الكرامات، فصارت قوية صلبة تخشأها صُرتهاا ويعملان لها ألف حساب، هرعاً إليها حين



أراد عبد القادر أن يملأ القاعة الجديدة بعروس رابعة، ابتسمت وقدرت لجوءهما إليها؛ فألقت عليه تعاويذها واستسلم لبخورها وما عاد يفكر في أمر الزواج أبداً، برهنت بعملها وحُجتها على ما اعتقده الجميع فيها، فاستجابت لها الزوجتان ومن ثم بقية النسوة في دار أبو ستين، أمه العجوز وأخته التي فاتها قطار الزواج وانحسر عنها.. كانت ذات قامة طويلة ولسان حاد كالمبرد، عنيفة إذا لزم الأمر رغم جمالها الهادئ، مُجادلة بسخف يُنْفَر عنها مَنْ حولها وبصوت جهوري يُربك مُحدثها، شاعت عنها تلك الصفات في قريتها حتى انصرف عنها الخطاب ولم تفلح سيرة أيها العطرة وكفاحه ضد الإنجليز ولا مكانة أخيها الرفيعة في اصطيد عريس لها بينما برعت آمنة في استيعاب «نفسية» وحظيت بحبها وقربها فصارت الأخيرة تُقدس معتقدات النابلسية لدرجة التصلب والتفاني لإرضائها والدفاع عنها والذود عن قاعتها التي صارت أكبر وأوسع لتستقبل الزائرات من القرية والقرى المجاورة، جمعت آمنة في سنوات قليلة تُعد على أصابع اليد الواحدة زمام كل مَنْ في الدوّار بالحب والتقوى تارة وبالقوة والهيمنة تارة أخرى. عشرة أشهر بالتمام والكمال من ليلة الدخلة ثم أنجبت العروس آمنة الابن المنتظر لزوجها عبد القادر المتلهف المشتاق



للأبوة، الباحث عنها مع كل زيجة جديدة؛ فمنحتها حمايتها
«لُبَّة»^(١) من الذهب البُنْدُقي» لم تر آمنة مثلها أبداً..

: ما يفك النحس إلا عروسة جديدة، اتجوز يا ولدي اللي
تطرح بذرتك وتجب لك الفرح لحديق، حريمك أراضٍ بور
مفيش منهم رجا!

كلمات سحرية ألقتهأ حماية آمنة في أذن ولدها حين
كشف لها عن رغبته في الزوجة الرابعة بعد خمسة أشهر فقط
من زواجه بالنابلسية، لكن الرغبة لم يكن مصدرها ولعه بالنساء
ولا شهوة تلبسته بالإقبال على افتراس المزيد منهن، لكنها
كانت آلية دفاعية يتحصن بها كلما أصابته أمه بنظراتها معاتبة له
على تأخر رؤيتها لحفيدها، لكنه ما لبث أن تراجع عن نيته حين
أعلمته آمنة بحملها، فقد انقطع عنها الطمث لأربع أشهر وأكدت
الداية صدق إحساسها، بكى بين يديها فرحاً وزهواً لكنه سرعان
ما جفف دمعاته وأقسم عليها ألا تُخبر أحداً حتى لا تكيد لها
ضرتها كيلاً أو يُحدثا بها مكروها، أخفى الخبر عن الجميع
حتى تمددت بطن آمنة وأعلن الحمل عن نفسه، فظن الجميع أن
بخور آمنة وتعويدتها منعاً عبد القادر عن تنفيذ زواجه الرابع، ثم ما

(١) لُبَّة: هي كردان عريض مُتعدد الأدوار يُهدى للعروس في الصعيد لإظهار
المحبة لها



أكثر ما رُوي بعد ذلك عن كرامات آمنة وبطولاتها وعنتريتها التي سيطرت بها على زوجها وآل البيت جميعاً، فأصبحت حماها الحاجة «سنية» لا تنام ولا يغمض لها جفن حتى ترقبها آمنة وتروح تمسح على رأسها متممة بتعاويذها فتذهب الحاجة في نوم عميق واختفى ما كانت تعانيه سابقاً من سهد وأرق!.



وفي أكتوبر ١٩٤٠م جاء الوليد المنتظر وأسماه عبد القادر «جعفرًا» على اسم أبيه والذي كان مؤمناً جلّ الإيمان بالزعيم أحمد عرابي ولكنه لقي حتفه أثناء مذبحة الإسكندرية في (١١ يونيو ١٨٨٢)^(١)... ترسب حب آمنة في أعماق زوجها وميزها عن غيرها من نساء أيما تمييز، فسجل لها عشرين من أفدنة الموالح بجانب شكومية كبيرة لم تحظ جليلة أو بهيجة بمثلها، ملأها على سعتها بالذهب والجواهر، ثم كتب لها نصف الدوار

(١) تمثلت مقدمات المذبحة في قيام رجل من مالطا من رعايا إنجلترا بقتل مصرى «صاحب حمار» بسبب خلاف على أجره الحمار، لأن المالطي بخسه الأجرة فنشب نزاع وسرعان ما تطور الأمر إلى أحداث عنف ضد الأوروبيين المقيمين في الإسكندرية قتل فيها حوالي خمسين أوروبياً و٢٥٠ مصرياً، فضلاً عن أعمال حرق ونهب وتدمير وترويع مع تزايد شعور السخط على الأوروبيين وشككت بريطانيا وفرنسا في قدرة الأمن المصرى على حماية رعاياهما ومصالحتهما وقاما بإجلاء رعاياهما وقصفا المدينة.



«السراي الكبيرة» بيعاً وشراءً وفي أقل من عام صارت الفتاة النابلسية سيدة الدار، تتمتع فيه بالسيادة الكاملة.

«غيرة الرحم» ظاهرة حركت المياة الراكدة في رحم جليلة فثار، هاج وماج وحوى جنيئاً، نفضت به عن نفسها تهمة العُقم، فرحت لها آمنة من قرير قلبها، وحقدت عليها بهيجة بكل نفسها، فها هو جعفر الصغير يتم عامه الأول يحتفل به والده أيما احتفال يعقر الذبائح ويكثر الهدايا والعطايا والمنح، وهما هي جليلة في داخل قاعتها تصرخ وتولول، تعاني آلام الوضع، يكاد الألم يشق جسدها شقاً، ترافقها آمنة تُهَوِّن عليها، ترقئها وتُبْسِم على بطنها المنتفخ بحجم غريب، بينما بهيجة تسعى مقهورة في غرفتها ذهاباً وإياباً تأكلها الحسرة وتقطعها الخيبة، ومع نسمات فجر اليوم الجديد انطلقت الزغاريد ترج أرجاء الدوار وتوقظ عبد القادر من نوم غشاه في قاعة آمنة والتي لم تبرح جليلة ولو لسويغات تنامها لترتاح، فقط كانت تستأذن منها إذا ما جاع جعفر وبكى معلناً عن حلول وقت رضاعته، ثم ما تلبث أن تهول لها لتشد من أزرها وتقوي عزيمتها وترقيها من جديد، كان الوضع مضطرباً حتى أن الحاجة الكبيرة «سَينِيَّة» أم عبد القادر أقسمت على الداية بالمبيت هناك في قاعة جليلة، التف الكل حولها ومالت كفتها، فكانت



بهيجة أتعس أهل الأرض وزادت تعاستها حين باركت آمنة لعبد
القادر وزفت إليه وصول توأم جليلة... «مصطفى ورحمة»، سرَّ
الرجل وابتهج لذلك ودلف الى جليلة يُهنأها ويبارك لها على ما
أنجبت، أسرعت بهيجة نحو باب قاعتها تختلس السمع لما يجري
في صحن الدوار، ثم رجعت بغصة تجتر همومها وأحزانها التي
لبستها وتلبست بها وما عادت تتخلى عنها إلا أوقات صلاتها،
فصياح الصبية في الدار يعكر لها زمانها ويجعل الهم يترام على
أكتافها والحسرة تنهش فؤادها، وحدها هي العاقر العقيم، جافة
الرحم، ذابلة الأنوثة، تستوطن الفراش كل ليلة باكية، يجافي النوم
عينها، تشعر أن الموت يقترب ويوشك أجلها على الانقضاء،
يتردد عليها زوجها فتُلقي عليه وصيتها الأخيرة: - أدفني جنب
أمي، أمانة عليك، اتوحشتها كثير!

وكان للقدر رأي آخر، لقد اقترب طائر الموت حقًا من دار
عبد القادر أبو ستين محلقة ليخطف روحًا من هناك، بيد أنه
لم يكن راغبًا بهيجة بل دنا واقترب وحلق فوق رأس ضرثها
«جليلة» أم التوأم، لقد اختطفها النفاس بمضاعفاته ونزيفه..
وفي احتضارها وثبت آمنة إلى جوارها في الفراش تحاول
إنقاذها قدر علمها واستطاعتها، لكن حالتها كانت على قدر



بالغ من السوء لم يُمكنها من الصمود حتى الصباح ليستطيع عبد القادر الإسراع بها إلى مستشفى المركز... بكت آمنة بكاءً صامتاً وأسندتها إلى رأسها وراحت تتلو ما تيسر لها من القرآن حتى لفظت جليلة أنفاسها الأخيرة وهي تشد على يد آمنة وتوصيها خيراً بتوأمها «مصطفى ورحمة» قائلة بصعوبة: اليتامى دول أمانة عنديك ربي هيسألك عنهم يوم اللُجأ..

رحيل جليلة نبّه حواس بهيجة؛ فأسرعت تهرول بعيداً عن شبح الموت، استردت عافيتها وكلها أمل في الحصول على التوأم الصغير، تتحسس كلماتها عنهما إذا ما حادثت عبد القادر في شأن رعايتهما، لكنه بدا متبلداً غير قابل للإنجذاب إلى ما تطلب، متردداً في قبوله بل يميل إلى رفضه، لقد سمع بأذنيه وصية المرحومة فكيف يُصارع ما أوصت به؟، كان يمكنه انتهاز الفرصة دون أن يُكلف نفسه مهمة الترطيب على قلب بهيجة كلما عنت عليها فكرة الإنجاب، كان يُمكنه وضع الصغيرين في حجرها فتصمّت وينطفأ شوقها للأومة ويهدأ حالها ويروق البال وينتهي حديثها عن العيل والسند، رأى ذلك جليلاً في عين الحاجة الكبيرة وإن لم تُصرح به، لكنه كان مفرطاً في كل شيء، في الطول والعرض والقوة والصلابة، لا عيب فيه سوى الإفراط، لم يلتفت إلى أملها ولم



يشفع عنده رجائها، أجاها بهدوء مفرط اختلط بحزم أيضاً: لكن المرحومة وصّت بهم لآمنة وكلنا شهد على اكده، وآني متأكد أنها مش هتمانع إنك تعاونيها وتساعديها في تربيتهم إن هي احتاجت معونتك، أو جالتلك تسوي لهم شي لكنهم في الأول والأخر صاروا تبعها، فهمتي؟ وبزيادة بجى حديث في الموضوع ده..

فاشتعلت غيرة بهيجة وقالت باندفاع لم تحسبه: دي مش وصية جليلة، دي آمنة سحرت للمرحومة وأجبرتها على اكده، آمنة طماعة وأنانية وجلبها عَفَش، غايتها تَكْوَش على كله..

فلطمها عبد القادر ودفعها أرضاً... أرسلها صبيحة تلك الليلة إلى دار والدها «إمام البلدة» مع زيارة ثمينة من الطيور واللحوم وخزين محترم من الحبوب والبقالة يكفي لشهور، وحين عاتبه حماه عمّا بدر منه استمع إليه ثم أجابه باقتضاب: آني بأدبها عشان أساءت الأدب، معنديش حريم يطولوا لسانتهم على بعضيهم، خليها عندك شهر بعدين تعاود لو حبيت أو تبجى هنه للأبد وابعثها ورقتها، على كيفها اياك، المهم تفهم الكلام وتوزنه بعد اكده، اللي أجوله يصير حتى لو شافت إني ظالمها متفتحش خشمها وتجبّل من راجلها الردي جبّل الزين..

امثلت بهيجة وعادت بعد شهر العقاب، إلا أن عبد القادر أهملها وتمادى في تجاهلها وما زار قاعتها لأكثر من شهرين



حتى أرسلت تطلبه وترجوه أن يدخل إليها، وأعلنت له أنها تابت عن الأمر وزهدت فيه وما عادت تطلبه أبدًا، لكنها لم تنج من عواقب الحزن وتوابع القهر، فأصابها السكري والضغط وتناوبت عليها الوعكات بالإضافة إلى التهاب حاد في الشعب الهوائية؛ فأصطحبها زوجها إلى أمهر أطباء القاهرة وأشهرهم، فما نالها من الزيارة سوى بتر لساقها اليمنى من أعلى الركبة؛ فعادت إلى الدار جليسة يدفعها عبد القادر على كرسي متحرك، عهد بها إلى أمانة لرعاها وتشرف على تناولها للأدوية اللازمة، ثم فرضت عليها حالتها العزلة وما عادت تُجالس أحدًا وبالكاد تخرج إلى صحن الدوار كلما أرادت الخادومات تنظيف قاعتها وتهويتها، ثم أرسلت إلى شقيقتها الصغرى «إحسان» تسألها الحضور وبنفس راجية طلبت من زوجها السماح لشقيقتها بالنزول في إحدى عُرف السراي وهي كثيرة.. استجاب الرجل لمطلبها دون مقاومة فقد أحزنه ما آلت إليه وأراد إدخال السرور على قلبها... أنقذها حالها من حدة لسان نفيسة وسكت تمامًا ما كان بينهما من مشاحنات، فقلما دخلت «نفيسة» إلى قاعتها وصارت تتبادل الشجار والمشاحنات مع «إحسان» الضيفة، تُشاكسها «نفيسة» فتُطيب «أمانة» والحاجة «سنية» خاطرها ويخفيان الأمر كليًا عن



حضرة العُمدة... وعقب عامين فقط من وفاة جلييلة لحقت بها بهيجة، فقد أصابها نزيف في المخ وراحت في غيبوبة أسبوعاً كاملاً ثم أسلمت روحها إلى بارئها بين يدي عبد القادر الذي بكأها كثيراً... تناوبت عليه هواجس محضة بأنه لولا حرمها «مصطفى ورحمة» لكانت على خير ما يرام لكنه حينها كان قانعاً أيضاً بموقفه الحازم، فوصية الميت واجبة.. وتلك كانت رغبة أم اليتيمين..

عادت «إحسان» إلى دار أبيها الإمام وقد حملت معها كل شِوار شقيقتها المتوفاة في نفس الصندوق الخشبي الذي دخل السراي يضم بين جوانبه ملابس العروس «بهيجة».. أما ذهبها فقد منح «عبد القادر» نصفه لإحسان والنصف الآخر صار لشقيقته «نفيسة»..



مرّت السنون ورحلت الحاجة الكبيرة «سنية» واستوت النابلسية آمنة متفردة على عرش السراي تشاركها «نفيسة» فيه، تُبث عنجهيتها وطبعها المحب للتسيّد والتحكم على خادومات الدوار، تشاكسهن وتتلمز وتتهمز مع بعضهن عن بعضهن؛ فتدخل آمنة وقت الزوم وتُردع نفيسة عن جُورها إن راحت تجور على إحداهن، ثم فرغ صبر نفيسة والتهمت العنوسة بقايا خجلها



واشتكت همها بصوت مهموس لزوجة أخيها التي أوتحت لعبد القادر أن يُزوج شقيقته لشريكه الجديد الحاج «مرزوق شحاته»، ولمّا لا والرجل مقتدر ميسور الحال ومقطوع من شجرة، فالحال من بعضه قائلة: كل فوله ولها كيال ولكل إنسان حظه فلا تهمل الفرصة واخطب الرجل لأختك قبل فوات الأوان.

: ديه سكير، أمه السيجارة وأبوه الكاس، وبعدين الراجل فرحان بالعزوبية بعد ما طلّج أم العيال وطلج معاها الحريم كلاتهم.. إيه العمل دلوك؟

: إنت شريكه وبقيت صاحبه اللي عارف عنه كل شي وسره معاك كمان، قوي الشراكة بالنسب وزودها بيه، تبغو على الحلوة والمرة سوا، بنيان واحد قوي يقف قدام الريح ويصدها عن حق، نفيسة كمان كبرت ومناها تلمح ضفر عيل، تشيله وترضعه لبنها، دي شورتي والرأي رأيك في الأول والأخر.

فطن عبد القادر أن شقيقته تريد زوجاً بأي ثمن، فلا صبر لها على الوحدة في قاعتها أكثر من ذلك وتمنى فعلياً لو استطاع تزويجها..

وفي عام ١٩٤٥م رُزقت آمنة بـ «يحيى» شقيقاً لجعفر وبعدها بشهر رُفّت نفيسة إلى مرزوق في بيت كبير يملكه في قرية مجاورة، بدت سعيدة بزواجها لبعض أشهر، ثم جاءت شاكية



تُعبّر عن محبتها، فالكأس لا يُفارق يد مرزوق بينما هي كقطعة
عفش في الدار، كنبه أو كرسي، فالرجل لا يكثر لها ولا يهمه
رضاها؛ فأوصتها آمنة بالهدوء والتحلي بالصبر..

قائلة: الرجل بطبعه عصي يحتاج ست تروض قسوته بحنانها،
عاملٍ رجلك على إنه ابنك، اشتره بالحنية والهددة يشيلك
جوا عينه، بلاشي تناطحيه وتوقفي له ع الواحدة كنك بتريه..
ساعتها يلين ويبقى كيف ما بدّك، الشدة ماتجيش مع الرجل،
الشدة تخليه يعند ويتكبر، بالطبطة والمداديه يرضخ الأسد!

زار عبد القادر مرزوقاً وحديثه بلطف لا يخلو من اللوم
عن شكوى نفيسة وأنها أمانة وضعها في عنقه، والرجل وحده هو
القادر على حماية بيته من شبح الطلاق والخراب، كان الحديث
موجزًا دون خوض في تفاصيل الخلاف أو أسبابه، لكنه كان كافيًا
لتنبية مرزوق بضرورة أخذ زوجته على عِلتها حتى لا يخسر شراكته
مع شقيقها، ليلتان بعد تلك الزيارة ثم أعاد عبد القادر شقيقته إلى
بيتها فما عادت تغادره لا شاكية ولا مادحة وتابعت حياتها في
كنف مرزوق شبه صامته تتسلى بمناكفة الجارات وبقية النسوة
من عائلة زوجها، وحينما واجهها «مرزوق» برغبته في الزواج
من أخرى لطمت وجهها بكفيها وراحت تصرخ وركضت نحو



النافذة تُريد أن تُشهد على زوجها الخلاق، لحق بها، أمسكها من ذراعها بقوة وجذبها بعيداً عن النافذة..

آخرستها كلماته: إنَّ كَبِيرَةَ وطَبْعِكَ صَعْبٌ واني بصراحة نفسي راحت للحريم، الحريم الصُّح اللي يعرفوا كيف يعاملوا راجلهم وكيف يروا بدُّنه.. بُهَّتْ نَفِيسَةً وانعقد لسانها.. سرته نظرة الدهول التي لاحت في عينيها.. مازال ممسكاً بذراعها، تابع قائلاً: وماتخافيش، آني راجل أعرف الأصول، ومش ممكن أطلحك ولا آجي على حَجِّك، البيت ده بيتك إنَّ.. آني أخذت للعروسة مُطرح تاني، كل واحدة فيكم هتبجى في حالها ولكل واحدة فيكم أسبوع أجضيه معاها..

أطلعت «نَفِيسَةً» أخاها على ما جرى، لم يستطع لوم شريكه ولا تأنيبه؛ فلا يُمكنه أن يُنكر على الرجل حقه، هو نفسه وإلى وقتٍ قريب كان زوجاً لثلاث نساء، فقط سأله حُسن معاشرة «نَفِيسَةً» والصبر على حدثها، وأن يُخفي عنها اسم عروسه الجديدة.. إنها «إحسان» شقيقة بهيجة، لكنها عرفت بكيونونة ضرتها، فمصصت شفيتها وقالت: ايش تاخذ الريح م البلاط، بلاهم، رجاله عندهم تندب فيها الرُصاص، يسيبوا الماس وياخدوا الحِزاز..

لم تحدث زوجها بعدها في شان زواجه، رأت أنها أكبر وأعظم شأنًا من ذلك.. أفرطت في تناول الطعام والسمن البلدي



والبط والحمام والحلويات تُفرغ همها في الأكل والشرب؛
تمادت في السمنة حتى بات من المُرهِق لها أن تتحرك، لازمتها
آلام ضارية في رُكبتها وظهرها، تجاوز وزنها مائة وثلاثين كيلو
جراماً، وللضرورة فقط تُغادر مجلسها على كنبه اسطنبولي كبيرة
بجوار نافذة الصالة، أمامها طاولة مستديرة عليها صينية البُن
والسبرتاية وفنجان القهوة، برطمان زجاجي به حببات الشاي
الجافة وصحن به بعض أوراق النعناع الطازجة، لم يُكدر معيشتها
إلا وفاة مرزوق في حادث تصادم قطارين عام ١٩٦٠م، وكان ما
بينها وبين أبناء مقطوع تماماً لكنها رفضت أن تعود مع شقيقها
إلى الدوار وتغادر بيت الزوجية؛ فاشترى عبد القادر لها من ورثة
مرزوق وأقامت فيه ترعاها خادمة مُسنة حتى ماتت عام ١٩٧٦م
بعد ستة أعوام فقط من وفاة أخيها عبد القادر وكانت آنذاك في
السادسة والسبعين من عمرها...



أمّا آمنة فقد عاشت في الصعيد ممتزجة بأهله مختلطة
بنسائه اللاتي أحبينها بصدق من أعماق قلوبهن، وقد حُسِب لها
أيضاً إضفاء لمسات من البهجة والدفء إلى سراي ابن أبي ستين،
كما أنها تميزت بجدية ناعمة وأمومة سخية وعطاء زائد، ولم



يكن أحد غيرها قادر على مناقشة الحاج عبد القادر أو مراجعته في أمر ما، بابتسامة هادئة تستقبل أمواجه العالية إذا غضب أو انفعل، تهضم ثورته في صبر ومودة دون عتاب أو جدال حتى يعود إلى هدوئه ويطلب بنفسه رأيها ومشورتها ويفكر بإمعان فيما تقول، بل وينصاع إلى نُصحها في معظم الأحيان..

وكانت آمنة صاحبة الأثر الأكبر في تربية أبنائها «جعفر ويحيى» فعرفا الدين والصلاة في أوقاتها وتلاوة القرآن والحرص على الصوم وحضور حلقات الذكر من حين إلى حين، عرفت مشاعر جعفر الحياء حيال والديه بينما مال يحيى نحو أمه كثيرًا وغزا حبها قلبه ونما حتى غشيه، فكان لا يقطع أمرًا إلا برضاها ولا يُقدم على خطوة قبل أن يُخبرها ويثق في موافقتها لما ينوي، لا يكف عن ممازحتها ثم يُسلم رأسه لها لترقيه، فيُقبل رأسها بحنان قائلاً: ادعي لي يا أمي، فتمطره بدعواتها الجميلة فيبتسم وينحني يُقبل يديها ثم يغادر إلى وجهته..

وفي الجامعة أحبَّ «ليلى» وتمناها دون غيرها عروسًا إلا أن والده قابل رغبته بالرفض القاطع وراح يسخر من مشاعره البلهاء، فكيف لمن هو مثله أن يُزوج ابنه من فتاة لا حسب لها ولا نسب، فالفرق شاسع والهوة كبيرة؛ ففي حين يرتع عبد القادر



يروح ويحيى بين أرجاء عزبته يمرح في فدادينه يكد والد «ليلى»
 ليل نهار، يعمل ويشقى في وظيفتين ليوفر لأبنائه لقمة العيش،
 فالرجل لم يكن أبداً سوى موظف بسيط في الوحدة الزراعية
 صباحاً وتمرّجاً في عيادة خاصة مساءً، ومع بساطة حاله كان
 شديد الحرص على أن تكمل بكريته تعليمها، لذا أرسلها
 لتلتحق بكلية التربية في سوهاج حيث التقت يحيى، غضب عبد
 القادر بشدة ولعن الحب وكرّر لعناته مراراً على مرأى ومسمع
 من آمنة والأبناء، إن فكرة «الحب» ليست مهمة، بل أنها عبثية
 إن تضخمت داخلنا وأفقدتنا هويتنا والقدرة على رؤية الأشياء
 من منظور صحيح، ملعونة تلك المشاعر التي تفصل حفيد أبو
 ستين عن مداراته وتلقيه في غياهب سحابة لأنثى فقيرة من أسرة
 متواضعة... ساندت آمنة يحيى وأقسمت له أنها ستزوجه بمن
 عشقها قلبه، ستقف معه وستعمل كل ما تستطيع لتقنع عبد
 القادر حتى وإن رمت نفسها في أتون نار مواجهته القاسية لتحقيق
 لولدها مأربه، لكنها فوجئت باستسلامه لإرادة أبيه الذي انصرف
 يهدد والد ليلى ويتوعده بالطرد من البلدة وتشريد أبناء الصغار،
 لقد تقبل الجميع قرار عبد القادر وانصاعوا لأمره ينفذوه بتلقائية
 سلسلة ونمطية مخزية، أثر يحيى السلامة ولم يرغب في إشعال



نيران الاحتجاج التي قد تأتي على الأخضر واليابس، أخبر آمنة أنه قد صرف النظر عن تلك الزيجة مادامت تُغضب والده وتُعكر مزاجه الأهم، طمأنها أنه بخير، فلا أحد يموت من الحب ولا أحد يقتله الشوق، إلا أنه لم يستطع حبس دمة حزينة فرت تجري على وجنته، مسحها بسرعة معلناً أن كل شيء تحت السيطرة وأنه على ما يُرام.. سينسى «ليلي»، بل أنه قد نسيها بالفعل..

وفي ١٩٦٧م كان يحيى قد تخرّج في كلية العلوم وانضم إلى قوات الجيش محارباً إسرائيل وقلبه مفعم بالوطنية، شاهداً بعينه على مآسي تلك النكسة وأوجاعها، مقاتلاً باسلاً مستبلاً وبشجاعة في الميدان يذود عن أرضه وعرضه حتى أصابته قذيفة العدو؛ فأسلم الروح شهيداً بينما ظلّ حيّاً يجري حبه في آمنة متجرى الدم، لا تفتأ تذكره بقلب واعٍ تخصص في عشقه..

وحين عبرت قوات جيشنا الباسل خط بارليف واستردت مصر كرامتها في حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣م (حرب العاشر من رمضان) راحت آمنة تهتف: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه... دَم ولدي ماراحش هَدَر..

ثم أطلقت الزغاريد وأغدقت عطاياها على الفقراء والمساكين وأمرت مخدوميها ألا يردوا سائلاً وزادت الذبائح



والمنح ابتهاجاً بالنصر وتخليداً للشهيد «يحيى عبد القادر أبو ستين» بينما شيد والده مسجداً كبيراً ومدرسة واسعة يحمل كل منهما اسم الشهيد..

فقط بعد النصر، زارتها ليلي لتعزيها تحمل على كتفها «يحيى الصغير» وليدها البكري وشهد أيامها، فحملته آمنة بحب وقبّله كثيراً وكأنها تُقبّل فيه يحياها الذي رحل، شعرت بفرحة في قلبها لا حدود لها، إن ملاسة ذلك الصغير منحتها سعادة لم تتوقعها، كانت تلك الزيارة المرة الأولى والأخيرة التي رأت فيها «ليلى بنت صالح السيد»، ليلي... «حبيبة قلب يحيى» الذي كان عمره قصيراً لا يحتمل المقامرة والتأرجح بين السعادة واللاسعادة؛ فرحل.. راحت تقلب أيامها بعد استشهاد فلذة كبدها تمنح الحب لمن حولها، فأمنة طاقة من الغفران والتسامح مصدره تصالح عقده مع نفسها، مع ألمها، وقوده حاجة تأصلت في ذاتها أن الحياة لا تمنحنا ما نريد، فعلينا أن نكتفي بما تمنحه لنا شريطة أن نغلفه بالرضا والقناعة مع اليقين أن الغد سيأتي حاملاً الخير، تمد آمنة يدها بالعون لمن حولها رجالاً ونساءً، لا ترى في ذلك فضلاً ولا منحة، بل تراه واجباً ومنهاجاً، كانت أنقى من قطرات الندى، صارت زوجةً وأم، ولم تفرح في حياتها كفرحتها يوم أن صارت جدةً، أحبتّ سليماً كما لم تحب أحداً من قبل، لم يكن لها يوماً



طفلاً كسائر الأطفال، كان هدية منحها الله لها استجابة لحاجتها إلى قلب بريء يُزين دنياها وتشرق معه شمسها كل صباح، تفتحت عيناه على آمنة، ورث عينيها وتنفس عشقها وخطى أولى خطواته مُمسكاً بيدها الملساء ذات العروق الزرقاء البارزة في زهو، يلهو حولها ثم يسرع إليها ملقياً بنفسه بين ذراعيها فترقيقه، يشد مسبحتها ذات الحَبَّات الثمينة من الياقوت الأحمر فتبتسم وتتركه يلهو بها رغم شدة حرصها على تلك المسبحة التي أحضرها جعفر لها من الحجاز حين زاره حاجاً، تمر السنوات ولا يشعر سليم بالدفع والأمان إلا في وجود جدته الراضية الحانية دوماً والتي لا ترد سائلاً أو طارقاً لباب السراي. علَّمته في طفولته أن الحب لغة لا يقاومها قلب مهما كانت غلظته، وعلَّمته في صباه أن القوة الحقيقية في علاقته بالناس وشعوره بما تحمله قلوبهم وليس ما تقوله ألسنتهم، علَّمته أن يحبَّ بإخلاص وأن يمنح بكرم، يُذكرها بعمه الشهيد كثيراً، فقد ورث عنه لين القلب ورحابة الصدر كما ورث عنه حبه الشديد لوطنه وآمنة، كلَّما زاد عمره عامًا ازداد ارتباطاً بها وازدادت هي ولعابه؛ فلم يجرؤ جعفر يوماً أن يُعنفه أمامها... وذات مرة غضب جعفر من سليم غضباً شديداً لأنه لم يربط فرسه الجامح بالسرّج الجديد كما أمره بل أنه غامر وامتطاه دون سرج، فما كاد يسير به لخطوات



حتى أسقطه الفرس ولولا كومة من القش التقفته لكانت إصابته بالغة، دلف جعفر وقد استشاط غيظًا من سوء تصرف سليم وراح يصرخ مناديًا على الفتى الذي ارتعدت فرائسه؛ فما كان من أمنة إلا أنها سارت ممسكة بيد سليم حتى وقفًا معًا أمام جعفر ذي العينين الثابتتين والنظرات الحادة فما كان منه إلا أنه تحاشى النظر إلى عينيها وانخفضت حدة صوته وصارت لهجته هادئة ذات وقار، اكتفى بكلمات موجزة يعاتب فيها سليمًا ويأمره بالإنصات لتعليماته وتنفيذ كلماته بالحرف دون خروج عن النص، ثم التفت إلى أمنة يسألها بأدبٍ أن تؤمّن على كلماته: مش الاحتياط واجب برضك يأمّه ولاّ أني غلطان؟.

وكان كلما ازداد سليم ارتباطًا بأمنة كلما ازدادت علاقته بأبيه توترًا وازدادت مساحة الصمت بينهما وحين تُنبهه أمنة إلى ذلك كان يُقبل يدها ويقول: أني بحب ضنايا يا أمي، ماتوصنيش عليه؛ وماتخافيش عليه مني، أني بس عايزه راجل له هيبة، جامد وعوده ناشف، ماتعصروش الأيام..

وحين مرضت أمنة مرضها الأخير وهنت وقلّ وزنها؛ فخصّص سليم لنفسه غرفة صغيرة تقع في نهاية الممر المؤدي إلى قاعة جدته الحبيبة وكان شديد الحرص على إتمام وضوءها بنفسه يجلس تحت قدميها بالساعات مهملاً دروسه، متغيباً عن



مدرسته على غير رغبة أبيه الذي رأى في تصرف ولده لئلا يتناسب مع بلوغه السادسة عشر إلا أنه لم يرغب في تأزيم الأمر ثم أبدى تفهما وراح يتحرى كل سبيل إلى طبيب ماهر يساهم علاجه في شفاء أمه، لكن ما كان بالإمكان أفضل مما كان..

وفي عشية رحيلها وقيل أن تودع آمنة الحياة زارها جعفر مطمئناً على أحوالها كعادته كل ليلة فسألته أن يقترب منها ففعل، فأمسكت يده قائلة: استلحفك بالله يا ابن عمري ماتأذنيس في اللي بحبهم، خلي بالك على سليم واحرص على اللي يقربك منه، ماتزردش نار الجفا بحطب القسوة يا جعفر، خليه يدور دنيته كيف ما بدّه هو، على هواه مش على هواك، هو اللي عايشها وهيتحاسب عليها، اللي تبلمعه إنت غيرك مايهواهوش، خليه يمشي في طريق هو اللي يختارها بكيفه، ما تسدش عليه منافذ الشمس لجل ماينكسرش قلبه ويشيب قبل الأوان.

خفق قلب جعفر ونظر نحو أمه نظرة مفعمة بالرجاء ألا تكون تلك كلماتها الأخيرة؛ سألها: أمي، إنت بخير؟ فابتسمت قائلة: لكل أجل كتاب يا ولدي، لكل نفس وقت معلوم ترحل فيه، اطمئن يا جعفر، ونادي لي على سليم أنام في حضنه الليلة..

وفي الساعات الأولى من النهار الجديد غابت آمنة عن دنيا سليم بينما ظلّت دوماً حاضرة في قلبه، شعر بعدها بالضيا



يجتاحه وظل يبكيها في غرفته ليلاً وحيداً بعيداً عن الأعين التي ترى في بكاء الرجل ضعفاً وخيبة وأولها أعين والده جعفر!

لكنه ظل يودها ويصلها في خادماتها «زمردة» التي سقطت في صحن دارها مشلولة حزناً على سيدتها وعشرة عمرها آمنة، ظلت متمددة في فراشها تخدمها جارة لها حتى رحلت بعد مخدومتها بثلاثة أعوام، ولطالما زارها سليم واطمئن عليها بنفسه مخالفاً أوامر والده بأن يخفف من زيارته للسيدة العجوز، ويكتفي بالسؤال عنها على فترات متباعدة بجانب ما يرسله جعفر لها من راتب شهري ثابت لم ينقطع بوفاة آمنة، فما من داع للزيارة إذن كلما خطت قدما سليم البلدة. فقد كانت «زمردة» خادمتهم فقط وليست فرداً من أفراد الأسرة، وتفاقم الأمر حين أصرَّ سليم على إقامة سرادق عزاء للخادمة بجوار الجامع الكبير الذي يحمل اسم عمه الشهيد يحيى، لكن سليم كان قد استوى شاباً تثير أقواله وأفعاله دهشة جعفر في معظم الأحوال، فلم يرغب في مشاجرته على أمر تافه، فتركه يفعل ما يريد وانصرف ساخطاً..

هكذا كانت آمنة في حياة حفيدها سليم، واحة غناء مثمرة يهرب إليها كلما تطرفت به الأيام، حاضرة تفاصيلها بقوة في ذاكرته، يتمسك بها ويرفض أن تنمحى...

امرأة فيها خريف لا ينام إذا بدت نذر الرحيل..



(٢)

رحمة عبد القادر جعفر أبو ستين

(المولودة في ٨ نوفمبر ١٩٤١م)

ولدت ونشأت في البيت الكبير، سراي عبد القادر أبو ستين، وهي أخت جعفر والد سليم، لكنها ليست شقيقته، إنها النصف الحلو من توأم زوجته الأولى «جلیلة»، لكن القدر لم يمهلهما هي وشقيقها «مصطفى» لينعما برؤية أمهما التي قضى النفاس والتيتانوس عليها ولم يتوقف نزيدها حتى لقت حتفها بعد أسبوع واحد من ولادة عسرة لتوأمها المنتظر، شملتها زوجة أبيها «آمنة» بالرعاية وتعهدت لها بحسن المعاملة ورفعة التربة كما لو كانت من لحمها ودمها، كم شهدت رحمة لأمها آمنة أنها لم تفرق قط بينها هي وشقيقها مصطفى وبين جعفر ابنها الفعلي، بل إنها وفي أحيان كثيرة كانت تُشعرها أنها الأقرب إلى قلبها الأبيض، وأنها فتاتها المحببة الأقرب إلى نفسها، مثلها مثل جميع نساء آل «أبو ستين» تعشق آمنة، تدور في فلكها كدُمية متحركة لا تملك إلا أن تُحب النابلسية الطيبة وتُدمن غرائبها وبخورها وخلطاتها الطيبة، خاصة أن آمنة لا تكف تنشر ثقافتها وعلمها وبعض كراماتها الفطرية على كل من في الدوار، فما جدوى الحب إذا لم يجعلنا نُحب الحياة ونروح نُشر السعادة هنا وهناك قدر استطاعتنا!!



لم يكن عبد القادر إلا صعيدي أصيل متشبع بتلك الثقافة المتطرفة المائلة كلياً نحو تفضيل الذكور، لم يكن له علاقة قوية بفتاته الصغيرة التي هربت من صلاية أبيها وألقت بنفسها في حضن زوجته تنهل من حنانها كما تنهل من لبنها وترى في وجودها في الدار خير تعويض لها ولشقيقها عن أم رحلت مبكراً جداً، لم يسمح عبد القادر لابنته وكما هو منتشر في جنوب مصر آنذاك بأكثر من عامين في الكتّاب، لكن دلال آمنة على زوجها وقوة تأثيرها عليه جعلت من العامين أربع ثم ألحقها والدها بالمدرسة الابتدائية مستجيباً لذات التأثير، بينما تولت آمنة تدريب الفتاة ومواصلة تعليمها وتثقيفها، فباتت مختلفة عمّن حولها ناصعة الفهم وكأنها قاهرية ذات نبرة صعيدية..

وفي ١٩٥٣م بلغت رحمة، زارها الفيض الأحمر لأول مرة، لم تكن مرعوبة أو ملتاعة كحال الفتيات هناك واللاتي يجهلن الكثير من حقائق عالمهن الأنثوي، فقد كانت آمنة قد زودتها بما يكفيها ويُسفي فضولها من معلومات تُهيأها نفسياً لما هي مُقدمة عليه، بيد أن مشكلة حقيقة لاحت في الأفق حين أصرت العمة «نفيسة» على ختان الفتاة وأسرعت توسوس لأبيها بالأمر وشدّدت عليه، بل أنها استدعت «أم شلبي» الداية لتُجهز على



الفتاة المسكينة التي أسرع بالفرار إلى قاعة أمانة واحتمت بها، ينتفض جسدها بشدة ويتصبب عرقاً، استوعبت أمانة عِظَم المسألة المُقدمة عليها وتصرفت بحكمتها المعهودة ورزانتها وهدوءها، لم ترغب في جدال مع «نفسية» قد يسمعه بعض مَنْ في الدوار، فكتمت غيظها وأنيها واستقبلت الداية وأكرمتها بمبلغ مناسب تهلّلت معه أسارير وجهها المكرمش وردتها متعللة بأن الوقت غير مناسب والفتاة تعاني بعض الحمى وحرارتها مرتفعة، احتوت غضب عبد القادر حين عاد وامتنعت ثورته على الصبية الوقحة، تعلم في قرارة نفسها أن ثمة لا شيء يمكنه تعطيل الأمر أو إلغائه، لكنها أرادت أن تديره بشكل أكثر آدمية وأقل رعباً للصغيرة، تألمت كثيراً بسبب عجزها عن إنقاذ رحمة من مقص أم شلبي لكنها ما لبثت أن استعادت شتات نفسها واستغلت هيمنتها على قلب زوجها، فأقنعتَه بضرورة إجراء الأمر كجراحة تستوجب زيارة طبيبة مختصة في سوهاج، التزمت رحمة الصمت ولم تنفوه بكلمة هي تُنصت بهدوء لحديث أمانة التي شرعت تُقنع فتاتها البريئة ذات الاثني عشر عاماً بضرورة الإنصياح الكامل لرغبة أبيها، فلا مفر منها، لكنها وعدتها أن الأمر لن يكون مؤلماً للحد الذي تخشاه، أما عمته «نفسية» فقد تدخلت في الحوار



وكادت تفسده حين فتحت فاهها لتقول بعصبيتها المعروفة:
عبد القادر أبوك، زمامك في يده، يتصرف فيك كيف ما بده، هو
أدرى منك بمصلحتك وباللي يناسبك، الله يسامحها آمنة هي اللي
دلعتك وخربتك علينا، يا رحمة، أفهمي يا بت، إنتِ بلغتِ صُح،
بس مش هتبجي حُرمة بحج وحجيج ولا تتعدي من الحريم إلا لما
يخرطك خراط البنات ويتم المُراد!

واستسلمت رحمة فدرّبُ خلاصها لم يولد بعد، واستلقت
على سرير غرفة الكشف في عيادة طبية المركز، فرجت عن ساقها
والقلق يمزق أعصابها، عيناها مثبتة على ساعة الحائط تعد الدقات
بحرقة مُحزنة، فهمت آمنة نظرتها الحائرة، فأمسكت يدها تَبْثُها
قوة بينما صمت رمادي كلون الحوائط يُخيم على روحها،
طمأنتها الطبية أنها لن تشعر بالألم غير وخزة إبرة التخدير التي
ستصيبها في بعض مواضع متفرقة من تلك المنطقة الحساسة ثم
لا شيء أكثر من ذلك، وستنسى تنغمس تنعم بمراحتها وتشاهد
المزيد من أفلام نجمتها الرقيقة «فاتن حمامة»..

تاقت نفسها لطمأنينة منبعها ابتسامة آمنة التي رافقتها في
رحلة تُخلصها من بعض أنوثتها عقابًا لها أنها ولدت بنهدين،
لم تعد رحمة من تلك الرحلة كما سافرت رغم كل جهود آمنة



المبدولة لتخفيف حدة الأمر ولتكن سحابة صيف وانتهت، بل عادت رحمة مكسورة النفس، هشة المشاعر، سريعة البكاء والانزواء على ذاتها، يزورها في أحلامها شبح يريد أن يقيد قدميها ويربطهما بذراعيها ثم يُلقيها من عربة قطار.. شبح أسود بعناد مزعج، يلاحقها، يكاد يغرس أظافره في جسدها فتسرع الخطى، يطاردها فتركض وتظل تركض حتى تسقط في بئر عميق وهي ترتعد خوفاً، تضيق أنفاسها ثم تستقيظ فزعاً..

سبع سنوات فقط تلت تلك الواقعة، وتحديداً في ربيع عام ١٩٦٠م وقبل شهور بسيطة من وفاة «مرزوق شحاته» زوج عمته نفيسة، ولأن بنات الصعيد يتزوجن في سن صغيرة فقد جاءها الخطاب من كل حذب وصوب والكل يأمل والبعض يطمع في مصاهرة الحاج عبد القادر «العمدة»، كبير آل أبو ستين وحاميها وعين أعيانها، إلا أن الرجل كان حريصاً أشد الحرص على اختيار أفضلهم وفق معاييرهم؛ ليجري النسب على صفحة أصفى ماء حتى لو تأخر زواج فتاته لبعض الوقت عمّا هو معتاد..

تقدم لرحمة «مسعد الزهراوي» تاجر شاب يملك أرضاً مجاورة لوالدها في مركز بلينا وبساتين مانجو وموالح في برخيل، كما أن له نصيباً وأسهما عديدة في مصنع للنسيج بالمحلة مع



أخواله، وبعد رؤية شرعية حرصت عليها آمنة فلا يمكن للفتاة أن تُزوّج دون أن ترى عريسها ولو مرة، وفي عرس كبير زُفت رحمة وطبقاً للعادات والتقاليد الصعيدية أيضاً كانت دخلتها البلدي حدثاً لم يُمح أبداً من ذاكرتها... مأساة حقيقية عاشتها الصبية على مدار نصف ساعة كانت أسود وأحلك ثلاثين دقيقة قضتها في حياتها، علا فيها صُراخها وبلغ عنان السماء، تنكمش خوفاً، يغشاها الرعب ويكويها الألم، كانت صرختها مؤلمة تُقطع قلب آمنة التي ولأول مرة تخونها شجاعتها في مواجهة عبد القادر وما يحمله رأسه الصلب من عَفَن... اهتزت قدماها فلم تستطع الوقوف مع «نفيسة» داخل غرفة العروس لتشهد على ذبحها، كم كانت صراخاتها شهية أثارت رجولة العريس وضخت الدماء في عروقه فأنهاى بأصبعه المهمة في حضور الست «أم شلبي الدايدة» و«نفيسة» عمة العروس وأمه وأخته، بعدها انفكت أيديهن عنها وأفرجن عن ساقها وذراعيها وهي تتحب بأهات خافتة، تتلوى زائغة النظرات بينما تصرخ مسامها ويفور الغضب والحقن في شرايينها، حاول العريس أن يهدأ من روعها، رآها جميلة نضرة رغم الإنهاك، لم يلمسها ذات الليلة؛ فلم تستقم بعد ردود فعلها تجاهه بعد ما فعله بها، انزلقت عيناه على مفاتن جسدها المُمد



أمامه هامدًا؛ فاعترته نشوة وغمره فرح عجيب، لكنه لمح حنقًا في عينيها الباكية، فأثر أن يتركها تستريح، فإن غداً لناظره قريب.. ولحُسن حظها وبعد أيام قليلة من الزواج استجاب مُسعد لرغبة عروسه ورحل بها عن تلك الدار التي كان قد اشتراها لها بجوار دوار أبيها... أرادت رحمة الفرار من دنيا «عبد القادر» آملة ألا تعود أدراجها، صادفت رغبتها هوى في نفس زوجها الذي أراد أن ينفرد بزوجه بعيداً عن سطوة أبيها ونفوذه وتحكمه الدائم فيمن حوله... استقر مُسعد مع عروسه في شقة واسعة استأجرها في عين سوهاج، واستقرت رحمة في قلبه، فقد كانت على قدر كبير من الجمال والرشاقة وحُسن الخُلق، هادئة الطباع، قليلة الكلام، لا تثرثر كعادة غالبية النسوة، واقعية تتسم بالتقوى والوقار دون تكلف، ذكية إلى حد بعيد، علّمتها آمنة اللبابة وحُسن الحديث فتهيأت لها علاقة ودودة مع أسرة زوجها وأهله... رآها امرأة مذهلة النضج والاكتمال رغم سنواتها التسعة عشر وهناك في تلك الدار الجديدة أنجبت له الولد والبنات اللاتي تشربن كلهن بسمرة أمهن الجميلة، لا تخلو وجوههن من براءة فطرية وجمال آخاذ وترسخ في نفس رحمة إصرارها على ألا تلقى بناتها نفس مصيرها، مارست دورها الفطري كأم رءوم



لهؤلاء الفتيات الجميلات؛ فازدهرن وأينعن وأثمرت شجيراتهن... وكانت السنوات قد خلقت مودةً حقيقية بينها وبين مُسعد الذي أحبَّ امرأته بصدق ومنحها حرية الحركة في الدخول والخروج لم تكن تُمنح لكثير من النساء حولها، تجلّى في نظره اطمئناناً لحسن تربيتها ولفطنتها وقدرتها على تصريف شؤونها راضياً بمهارتها الفائقة في إدارة الأمور، فلم يُعارض تعليم فتياته، ولم يُعارض رفضها القاطع لتزويجهن في سن صغيرة، فحين بلغت كبيرتها «هبة» الخامسة عشر ودق بابها موظف شاب من أسرة ميسورة، رفضه مسعد، بل أنه أظهر اقتناعاً بقولها: - معندناش بنات في سن الجواز، التعليم أهم..

وبمرور الزمن وبفعل العشرة والدفع الأسري جمعها برجلها تصورات متقاربة ورؤى متشابهة؛ فنبتت بينهما أحاديث هادئة ودودة وتفاهم دائم، كما وُحِدت المحن بين قلوبهما فتشابكت الشرايين واتحدت الأوردة؛ شق على رحمة أن تظل تُحاسبه كثيراً بينها وبين ذاتها على ما فعله بها في ليلة الدخلة حين وافق وشارك في امتهان كرامتها وتعريتها أمام الجميع وعدم مراعاتهم لحرمة جسدها، لكنها مضغت مرارتها في صمت وتظاهرت بنسيان تلك الليلة، لكنها لم تحتمل أحكاماً سلبية



كادت تطلقها عليه في دواخلها، فعاتبته على فجيعتها بعد عام من الزواج، جلس جانبها وقد لسعته كلماتها، تماسك ثم ربت على كتفها وقبّل جبينها في أسف واضح، أفهمها أنه أيضًا لم يكن له في الأمر حيلة، فالزفاف تم في قريتها وقد كان أبوها عمدة البلد يقف منتظرًا «المنديل الأبيض - الفلاح» حتى يُسارع رجاله في إطلاق الأعيرة النارية، لم يستطع أن يرفض أو يناقش ولم يرغب في أن تنعقد عكارة بينه وبين أبيها في أعماقه، لقد خيروه إما إن يقوم هو بالأمر أو تتممه «أم شلبي» بمعاونة نساء أسرته.. اعتذر لها ولاطفها بكلمات رقيقة أستشعرت فيها ندمه على تلك الفعلة، وبالأيام والمودة وحُسن المعشر خمدت شعلة الغضب في نفسها وأقسمت عليه إن كان محبًا لها كما يقول ألا يُعرّض بناتها (إن رُزقت بهن) لمثل تلك المهانة أبدًا، فأقسم الرجل على ذلك دون تردد وهو يقول: **إنّ ست الدار دي وتاج فوق رأسي واللي عيزاه يكون، صافي يا لَبَن؟**

أجابت في هدوء وقد استقرت الطمأنينة في نفسها: **حليب يا جِشْطَة.**
فقبّل جبينها ثانية بحبٍ ثم اسند رأسها إلى رأسه قائلاً: **ربي راضي علي كتير عشان اكده رزجني بيكي يا ست الناس..**

عاشرته بمعروف وعاشرها بإحسان وكأنهما قد تزوجا
عن قصة حب طالت سنواتها!!



أما ما كان بينها وبين آمنة فلم يضعف أبداً ولم تأكله الأيام بفعل البُعد والسفر، فلم تحب رحمة أحداً كما أحبت أمها، بل أنها وصلت حبها لها بعشق ملك قلبها نحو جعفر، وكيف لا وهو ابن آمنة، أخوها الذي سبقها إلى الدنيا بعام واحد، رغم ما تميز به من الجدية والصلابة إلا أنه كان ودوداً جداً معها، لا ينقطع عن زيارة بيتها حاملاً محملاً بالخيرات كلها، لطيفاً إذا ما حادثها، رغم قوته واستعداده الدائم للعنف الذي رباه عليه والدهما رغم كل تدليل آمنة له إلا أنه كان صلباً كالحديد لا يلين إلا إذا طوته النار، نار الود والحب المشتعلة دوماً بحطب الحنان والاهتمام... وما أشد ما جمعها بجعفر!

سنوات أربع فصلتها عن أخيها الأصغر «يحيى» لم تمنع قلبها أن يحمل له حباً عميقاً وتديلاً فائقاً وكأنه يصغرها بسنوات عشر، تعامله وكأنه طفلها الجميل وكثيراً ما كانت تضمه وتقبله؛ يدلف غرفتها ويقف وراءها ليحتضنها ودون أن يتكلم تعرف غايته وتشعر بحاجته، وحين وافقت رغبتها هوى زوجها ورحلا إلى سوهاج لم تنس أن طفلها الوديع وقف بسنواته الخمسة عشر يلوح لها بيديه مودعاً مباركاً لها تمردها وقرارها بالفرار، بكته كثيراً حين استشهد، شيء ما كاد ينفجر في رأسها لإدراكها أنه ثمة لا فرصة



لرؤيته ثانية، لضمه مجدداً؛ فقد حُرمت عينيه بكل ما فيهما من حنان وأحلام، تلعثت الحروف على شفيتها حين أرادت أن تُتبع اسمه بعبارة «الله يرحمه».. لقد خنقتها العبارة وارتجت لها أنفاسها..

أما توأمها «مصطفى» فكانت علاقتها به عن بُعد، وعلى فترات متقطعة يُنعم عليها بالزيارة استجابة لطلب آمنة أو تنفيذاً لأوامر عبد القادر التي لا قدرة لأحد على تجاهله أو مخالفته..

كان مصطفى وسيمًا، رياضي الجسم، عاشقاً للهو واللعب منذ صغره، مدمناً للمزاح والعريضة والتمرد، لا يُمكنك أن تأخذ كلامه على محمل الجد إلا نادراً، لا يعرف معناً للمذاكرة والاجتهاد إلا قليلاً، تعثراته الدراسية زادت عن حد احتمال أبيه الذي هدّده بإخراجه نهائياً من التعليم والاكتفاء بالثانوية العامة، فلا حاجة له بمزيد من الفضائح، لكنه لم يكثرث للتقريع ولم يشغله اللوم والعتاب، تابع شغفه بالصيد وركوب الخيل ومشاغلة الجميلات ولولا ثقل التقاليد وتحفظ الأسر في الصعيد لأقدم مصطفى على الزواج العرفي وأكثر منه دون ندم، وبمرور السنوات كبر أبوه عبد القادر وآلت كثيرٌ من الأمور إلى ابنه البكري «جعفر»، فقطّر على أخيه يبغى إصلاح ما فسد منه، إلا أن مصطفى لم يفهم غية أخيه؛ فأضمر له الحق والكراهية



وكثيراً من الغيرة التي تحرق أعواد المحبة، ولم تغلح تدخلات
آمنة للإصلاح بين الأخوين وكأنهما ليسا من صلب رجل واحد
ولا شرباً لبناً واحداً، تفاقت الأمور وتمادى مصطفى في غيِّه
وأعلن ازدراءه للصعيد والصعايدة... وفي ١٩٧٠م عقب وفاة عبد
القادر خرج عن الطور تماماً وسكن القاهرة في فيلا أنيقة في مصر
الجديدة، عرف الخمر وأتقن القمار ورافق الراقصات وخالط
بنات الليل، وكان أهون على نفسه التسكع في شوارع القاهرة
والشحاذة من أن يسأل جعفرًا مليماً، وبمرور الشهور عرض جزءاً
من أرض ورثها عن أبيه للبيع؛ فنهزه جعفر واحتد النقاش بينهما
فصفعه أخوه؛ فتهرر من خوفه نهائياً وأعلن كراهيته الشديدة له
وراح يدعو عليه بخرقة القلب، ثم خرج وقد تلبسته روح الشرر
بينما أسرع آمنة خلفه تسترضيه لكنه كان قد رحل ولسانه لا
يتوقف عن الدعاء على «جعفر» بالعوز والمرض..

فهاقت رحمة وأخبرتها بما كان بين أخويها، واستحلفتها
أن تزوره وتعتني به وتطمأنه بأن آمنة ستحقق له مراده، فقد
خسرت يحيى ولا حاجة لها بخسارة مصطفى وأن تحرم رؤياه،
بالفعل اشترت آمنة بمالها قطعة الأرض تلك وأرسلت إليه
الأموال عداً ونقداً مع مسعد زوج شقيقته، ثم هاتفته قائلة: خلي



بالك من نفسك يا ضنايا وماتزعلش حالك، أرجوك يا مصطفى
ماتزعلش من أخوك يا ولدي ولا تشيل له في قلبك كُره، وماتدعش
عليه ده أخوك سন্দك وضهرك، خُذ كل اللي إنت عايزه من مسعد
وأنا هحاسبه وأسدد عنك اللي تحتاجه، المال مالك يا نور عيني،
حقك على رأسي، تأبرني حبيبي.

«تأبرني» تلك كلمة لم يكن مصطفى قادرًا أبدًا على تخيلها،
فآمنة كانت ومازالت له ولتوأمتة أحن أم عرفاها في الوجود، كان
قادرًا على فصل مشاعره نهائيًا نحوها ونحو ابنها البكري، أخوه
جعفر المستبد لا يمكن أن يكون امتدادًا لذاك الكيان المُتقد
من المحبة!!



أما رحمة فقد آمنت أن الأسرة كالمؤسسة لا بد لها من مدير
يديرها ويقف على شئون الأفراد فيها، فكانت هي ذاك المدير
القائد حيث تفرغ مسعد لأعماله وأمور تجارته التي تكاثرت،
فقد كانت زوجته «وش السعد» عليه... خلقت رحمة امرأة عميقة
فجاءت روابطها بأسرتها راسخة تنبع من إحساسها الغريزي
بالحب والحنان نحو أبنائها رغم مصائب توالى عليهم..



ففي ١٩٦٢م وبعد عامين من الزواج رُزقت توأمًا من الإناث أطلقت عليهما (تهاني وأماني)، شاء المولى أن يأتي التوأم مصابًا بمرض وراثي خطير يُعرف بـ (ضمور العضلات الشوكي)، وهو من الأمراض التي تنتقل بالوراثة المتنحية، وفيه تكون أجسام المصابين ضعيفة ولا يمكنهم التحكم فيها مع وجود أزمات تنفسية شديدة وصعوبة في البلع... طاف «مسعد ورحمة» بتوأمهما الجميل على عدد لا بأس به من أطباء المخ والأعصاب، الكل أكد صعوبة الحالة وعدم استجابة التوأم للعلاج، كان الوضع مؤلمًا ومنهكًا للغاية، فالطفلتان تعتمدان بشكل كلي على ذويهما في الجلوس والقيام مع صعوبة تتزايد يوميًا بعد يوم في التنفس سببه ضعف عضلات القفص الصدري وصعوبة التحكم بها كذلك الحال مع مضغ الطعام وبلعه، شق الأمر على أمهما وصارت الدموع رفيقة دربها إلا أن حلَّت رحمة السماء على الجميع، وتوفيت «تهاني وأماني» في السنة الثانية من العمر..

سقطت «رحمة» من اللوعة والحزن مغشيًا عليها بينما كانت تُحكم إغلاق طرحتها السوداء على رأسها تستقبل أمانة التي جاءتها مسرعة لتشد أزرها، شهران مرًّا على الأم المسكينة لم تخرج خلالهما من الدار أبدًا تحاول أن تلملم أطراف حزنها



وتكنتم دموعها الساخنة، كان «مسعد» أكثر تماسكاً واستطاع بحكمته وصبره تضמיד جراح زوجته، فمضت الشهور بطيئة لكنها مضت وقد زادت المصيبة من تقارب الزوجين، وأصبحت رحمة لا ترى من الرجال أفضل وأطيب من «ابن الزهراوي»، فهو رجل حقيقي، فالرجل الحقيقي يُدلل قلب أنثاه ويسند ظهرها وهذا ما يفعله مُسعد بفطرة نظيفة.

عامان بعد كارثة التوأم ثم أشرق البيت بنور طفلة وديعة جميلة جاءتهما سليمة عفية، كانت لهما هبة من الله؛ فأسمياها «هبة»، ودون وعي من رحمة رفعت عينها إلى السماء تطلب المزيد من الأطفال، ليس تعويضاً عما فقدت، بل شوقاً إلى مَنْ يملأ الدار ويحرك الحياة بين جوانبه، فرزقها ربها بـ «أميرة» ثم «نصر» الذي كادت روحها تزهق وهي تضعه في نهار العاشر من رمضان عام ١٩٧٣م، فأسماه والده نصرًا أملًا في النصر واستراد الأرض وحفظ العرض؛ فاستعرت برحمة عاطفة الأمومة وغدا قلبها زاحراً عامراً بفيض من الحب والشوق والحنان على الأطفال... كذلك شاءت الظروف والأقدار أن يُصيب «سليم» شيئاً من هذا الحنان والاحتواء والرحمة من عمته رحمة، كاسمها تماماً، فقد سكن منها موطن الابن لا ابن الأخ..



فحين انهى سليم الإعدادية (١٩٩٩م) تلفت جعفر حوله باحثاً عن مدرسة ثانوية ذات شأن رفيع تليق بوحيدة فلم يجد، أشارت رحمة على أخيها أن يرسل سليم للإقامة عندها وتعهدت بحُسن رعايته والقيام على خدمته والتفاني في تحقيق راحته وإسعاده، صادف الأمر هوىً في نفس مُسعد الذي رغب في أن يشاركه جعفر بناءً وتأسيس مصنع للنسيج عوضاً عن ذاك المصنع الذي لهفه منه أخواله وأخرجوه منه خالي اليدين، فرأى أن سكة جعفر تبدأ من حيث سليم، الفتى ذو الخمسة عشر عاماً، قرة عين أبيه وفلذة كبده، فالتقت الأهواء واستقرت على انتقال الفتى للعيش لدى عمته والإلتحاق بمدرسة ذات سمعة وصيت، ولكل غايته من الأمر وإن اختلفت النوايا.

وهناك عرف سليم عن قُرب «هبة وأميرة ومنّة» بنات عمته، شغلته الصغرى «منّة» كثيراً، كانت آخر العنقود وسكره المعقود، حملت بها رحمة في نفس العام الذي توفي فيه «نصر - الولد الحيلة» إثر إصابته بتورم عام في الجسم، ونَفَسَ برائحة الأمونيا، وفي جُرح الليل هرع والده إلى المستشفى يحمله شاحب الجلد يعاني من حكة وتهيج شديدين، وفي غضون أيام قليلة أضحى ضعيف الجسم لا تُخطئ العين هزاله وقلة بنيانه، فيبدو في الخامسة أو السادسة



من العمر رغم بلوغه العاشرة... فقد توقفت الكلى عن العمل بشكل مفاجئ وطارت روحه إلى بارئها، بينما وقر في قلب رحمة أن عين «نعيمة» جارتها قد أصابت صغيرها بسهام الحسد حين دخلت صحن الدار فوقعت عينها على نصر يتناول غداءه بشهية وتتابع، لا يستطيع مقاومة غرامه بصحن الفتة الذي تصنعه أمه ببراعة وتفاني، تُزينه الصلصة وقطع اللحم المحمر المتراسة في شموخ وعلو وإلى جوارها أصابع الممبار المحشي بخلطة رحمة الشهية..
(فالعين تفلق الحجر) وقد فلقت عين «نعيمة» نصرًا فقتلته..

جاءت «منة» إلى الدنيا وقد اكتوى فؤاد والديها بفراق شقيقها وصار الألم محفوراً في الوجدان، تبكيه «رحمة» بدموع حارة تشتد حرارتها كلما وقعت عينها على غرض من أغراضه التي تركتها منتشرة في أرجاء الدار ورفضت رفضاً قاطعاً أن تجمعها أو تتبرع بها على روحه، إن كان القدر قد حرمها ولدها، دون إرادة منها، فلن تحرم هي نفسها من كل ما يحمل رائحته، بصمته، نداءه أو عبير أنفاسه..

وفي هدوء وعلى سرير نصر وضعت رحمة حملها بينما تستر ملابس الحداد جسدها حتى بعد أكثر من عشر سنوات، طبع «مُسعد» قبلة حانية على جبينها قائلاً: حمد الله على سلامتك،
البت جميلة جداً زي البدر ما شاء الله، هتسميها إيه؟.



استجمعت رحمة طاقتها وردت بضعف: سمَّيها إنت كيف
ما بدك.
أردف مسعد مبتهجاً: هي العوض والمنة من المولى، نسميها
«منة الله».



«منة الله»، لم تكن نحيلة القوام كأختيها بل كانت ممشوقة
ذات تعرجات أنثوية مغرية، بسيطة المظهر، مثيرة دون تهتك أو
ابتذال، تنطق الفرنسية ببراعة كأنها باريسية المولد والمنشأ،
فقد ألحقتها والدتها بالمدرسة الفرنسية حين أفتحت ولم
تكن شقيقتها قد لحقها، رآها «سليم» مخلوقاً جذاباً أدهشه
واستحوذ على تفكيره، كانت حقاً لذيذة كقطعة جاتوه، تختلف
تماماً عن كل ما وقعت عليه عيناه من فتيات في قريته وكذا في
سوهاج، فكلهن كطبق الفول، طبق شعبي شائع وإن تنوعت
مذاقاته بالطماطم والبصل أو بالزيت الحار والشطة، لم تكن
تشبه «ونيس» صديقة طفولته في شيء، كانت تطابقه تماماً في
العمر، مواليده ١٩٨٤م، أنجبتهَا رحمة وهي في الثالثة والأربعين
من العمر تفصلها أربعة عشر عاماً عن شقيقتها «أميرة» التي
تكبرها، وثمانية عشر عاماً عن البكرية «هبة»..



هام سليم بأخر العنقود، عرف قلبه الحب على عتبات
عينها، يطوف حولها يبحث عن دليل يُسرّع بخطواته نحو قلبها،
كانت مولعة بتربية القطط، فاشترى لها قطة شيرازي ربط حول
عنقها شريطاً أحمر اللون؛ فغدت كجنية تركض خلف منّة أو
تتوسد حِجرها طيلة اليوم ثم تنام تحت قدميها آخره، تلمس
برأسها كعبيها المتكورين..

منّة حقاً ذات جمال وعذوبة، عنيدة بصخب، متطرفة في
أحكامها وأهوائها، متعصبة لرأيها إلى حد بعيد، تكره أن تُجادل
أو تُنتقد، تُطابق كثيراً في هذا خالها جعفر وجدّها عبد القادر،
أكسبتها راهبات مدرستها الفرنسية أخلاقاً متينة وعادات مهذبة
رفيعة وسلوكاً منضبطاً، كانت عواطفها أكثر اتزاناً من عواطف
سليم في تلك الفترة، لقد أحبها وأحبّت هي حُبّه لها وإقباله
عليها ورغبته في إرضائها، شيءٌ فهمه هو متأخراً، لقد كانت على
استعداد لفتح قلبها له لولا أنها خشيت أن تكون عاطفته نحوها
عابرة فكلاهما مراهقٌ لا يملك أمر قلبه، تسمع عن غرام بنات
القرية به وعزوفه عنهم متمنعاً، ربما لهذا لم تستجب له، لكنها
استقبلت حبه بحماس واستمتعت به وأضافت إليه في خيالها الكثير
من الصفات ليناسبها، تمنته أكثر عناداً أو أكثر قسوة واتزاناً؛



فراحت تُقربه وتُبعده كيفما تشاء، تعطي دون ابتذال وتنهر دون كسر، وكلّما نظرت إليه طلت من عينيها بساتين شوق فلا يستطيع سليم أن يهرب، يكاد يهوى كلّما اقتربت منه أو لامست كفّها كفه، تُحبه ربما لكنها تخشى جنونه، ثم حدث أن فاض الطوفان في صدره، وأغراه وجودها بمفردها فوق سطوح المنزل، ترسم بالألوان الزيتية التي تحرمها أمها من استعمالها في البيت حتى لا تلوثه ولأن أبيها قد أصابته حساسية الصدر ورائحة الألوان الزيتية تتعبه كثيرًا، ثمل سليم بعطرها الفرنسي الذي تنشره على صدرها وكتفيها في كل حين، يحن إلى شفيتها يطوف به طيف مثير من عوالم العشق؛ فغازلها، فابتسمت، فران له أن يُقبلها، فانقض على شفيتها يعصر خمرهما بنهم واشتياق، فتمنعت، ظنها تهرب منه لتزيد حطبه اشتعالًا؛ فشق صدرية بلوزتها ففرّجت عن جمال ثدييها وبروزهما في كبرياء وإثارة، أسقطها أرضًا واستقام فوقها يُقبلها، فصارت تدفعه بقوة؛ فأفرط في التمسك بها غير راغبٍ في انفلاتها من تحته، فركلته بركلتها ركلة جعلته يتلوى من الألم وارتمى جانبها فانقضت عليه بوحشية تضربه بكلتا يديها، عضته في ساعده، ثم أسرع إلى ذويها تخبرهم بجُرمه وجريمته... اتصل مُسعد بجعفر وطالبه بالحضور فورًا لأمر لا



يحتمل التأجيل، وفي الفجر عُقدت جلسة سريعة لمحاكمة الفتى وغطى صوت مُسعد على صوت الآذان وعلا تويخًا وزجرًا للضيف الذي لم يُحسن الإقامة وأساء إلى الدار وأهله، لطمت رحمة سليمًا حين علمت بما جرى، ثم أسرعَت تحضنه وتربت على مكان لطمتها، كادت الحيرة تشطُرها، تكويها نار غضبها منه لخيانته الأمانة ويعصف بها حبها له وإيمانها بصغر سنه وقلة تجاربه وشعلة صباه وجذوتها...

فتحت تلك الليلة أبواب الجحيم على سليم حين عرف أبوه جعفر سبب غضب زوج عمته عليه، اعتذر للرجل وطلب منه يد منة عروسًا لولده سليم ولتكن له في الحلال ومن أفسد شيئًا فعليه إصلاحه، انفعَل مسعد من كلام جعفر الذي يحمل نتنا بين حروفه واستهزأ بعرض الزواج وأفرط في إهانة سليم، حزنَت رحمة لما صار إليه الأمر بين زوجها وأخيها، ولعنت إندفاع الشباب وتهوره قائلة: يعملوها الصغار ويُجع فيها الكبار!!

هكذا خرج سليم من بيت عمته رحمة ملعونًا مذموماً بعد عام ونصف قضاها في سعادة وبهجة، تمتع فيهما بحنان عمته التي لا مثيل لها في العطف والمودة غير جدته آمنة، حتى أنها صارت تشبهها، ففي تلك الشهور كانت رحمة قد كَرست وقتها للعناية



بسليم فعوضته عن غيابه عن داره وعن آمنة التي كانت قد فارقت الحياة قبل تلك الليلة المشؤمة بثلاثة أشهر فقط..



وعقب طرد سليم بفترة وجيزة بدأت سلسلة انهيار أسطورة مسعد الزهراوي في يناير ٢٠٠٢م حين وضعت الحكومة يدها على شركة المقاولات التي كانت بينه وبين أحد رجال الأعمال والذي ثبت تورطه في تجارة وتقسيم أراضي الدولة، فتحفظت نيابة الأموال العامة على كامل ممتلكات الرجل بما فيها شركته مع ابن الزهراوي الذي نجأ بأعجوبة وبراعة محاميه من الحبس لعدم ثبوت تورطه في عمليات البيع المخالفة، ثم تبعه حدوث حريق كبير وهائل أجهز بالكامل على محصول الموالح في أرض مسعد الذي بدا وكأن طائر الشؤم قد حلق فوق سماءه فخسر ما تبقى له من أموال في صفقات تجارية متتابعة مع شركاء فلسطينيين تعرف عليهم آنذاك، وأنذر الحال بكارثة سواد على كامل أسرته، وانقلب الوضع رأساً على عقب وطار النعيم واختفت الثروة، واضطر إلى بيع ما تبقى بين يديه من أراضٍ ففسدت صحته وهبطت أرصدته في البنوك وداهمه المرض، فزاره جعفر مواسياً وعرض عليه المساعدة وأن يسدد عنه بعض ديونه التي



تراكمت، شكره الرجل متعففًا وأخبره أنه لا خروج له من تلك الدوائر اللعينة المتشابكة، فأرقام ديونه تقفز مسعورة كل صباح بينما سُمعته في سوق التجارة تنحدر بسرعة الصاروخ، لم يكن هنالك متسع للكلام فقد ضاقت نفس مُسعد وخفت دقات قلبه وأسرعت المستشفى بوضعه على جهاز التنفس الصناعي، وفي أول فجر في عام ٢٠٠٣م فاضت روحه متأثرًا بجلطة في المخ..

وكانت «هبة» بكريته قد هاجرت مع زوجها الطبيب إلى أمريكا منذ سنوات، أما «أميرة» الوسطى فقد رافقت زوجها المهندس إلى حيث يعمل في شركة بتروول في السعودية قبل وفاة والدها بعام، وسكنت «منّة» بيت الطالبات المغتربات التابع لجامعة القاهرة، فقد التحقت بكلية الطب كما أراد لها أبوها قبيل وفاته وقد أقسمت على تحقيق حلمه ومبتغاه، وفي مستهل ٢٠١٠م وقبل تخرجها بعام ونصف تعرفت على طبيب مصري فرنسي كان في زيارة ضمن وفد بحثي لكليتها، تقاربا بشكل سريع وتقدم لعمها طالبًا الزواج منها، خاصمتها رحمة غاضبة لزهدها الزائد والمُعلن في إقامة أي علاقة مودة تجمعها بخالها جعفر، فمنّة تميل كل الميل ناحية أعمامها وجذرها «الزهاوي» متجنبة تمامًا أي قناة اتصال تجمعها بخالها على الرغم من إقامة والدتها



الكاملة والنهائية في بيته، فقاطعت رحمة ابنتها وقررت ألا تحضر كتب الكتاب، حاولت العروس استرضائها بمكالمة حملت كل رجاء وتوسل، لانت رحمة وانتصرت طيبتها على غضبها، وسافرت إلى القاهرة برفقة «سليم» حيث عُقد القران في مسجد الشرطة بصلاح سالم، ثم أصرّت رحمة على العودة إلى بر خيل في ذات الليلة رافضة المبيت في نفس الفندق حيث العروسين.. إلا أن «منة» لم تستطع السفر إلى «مارسيليا» دون توديع والدتها فزارتها بعد أسبوع من الزفاف، حدثتها بنبرة اختلطت فيها الواقعية بالحزن، صارحتها أنها اختارت الأفضل لها ولمستقبلها، رجت أمها ألا تخذلها في دعائها وألا تقسو عليها، فالحياة قاسية بما يكفي، وعدتها أن تكون دوماً سبباً يدعوها للتفاخر والعزة حين يتردد اسمها في جميع المحافل والدوائر العلمية كأحد أمهر وأشهر جهابذة الطب وسيُشار لها بالبنان، هذا هو الثراء الحقيقي وتلك هي الثروة الحقيقية التي ستهديها الفتاة إلى مُسعد الزهراوي، والدها الطيب..

تنبّهت حواس رحمة على تلك الحقيقة، فأخر العنقود راحلة لا محالة إلى أرض أحلامها مع مَنْ اختارته لنفسها؛ فابتلعت غصتها واحتضنت ابنتها حتى كادت تعصرها... كانت هذه هي



المرة الأخيرة التي تظالعه فيها... وأصبح كل أملها فيما بعد أن تُبقي طيف بناتها مضيئاً داخلها، تخشى أن يخونها الزمن وتبهت ذكرياتها معهن، ليتها تستطيع أن تغلق باب الذاكرة فلا تستقبل جديداً ولا تفقد قديماً، تُجمد مشاهداً جمعتها بزوجها وبناتها في بيتهم في سوهاج، تشد عليها بحزام الحنين فلا يسقط منها ملمحٌ، تطيل النظر إلى صورهم تسترجع دفء ماضٍ قريب راجية أن يعمل عقلها الباطن لصالحها فلا تغيب عنها ذكراهم فتلقيهم جميعاً في منامها، ويظل واقعها مليئاً بصورهم وأصواتهم وضحكاتهم وهزلهم وشاي الصباحات معهم وقهوة المغارب مع مسعد، الساكن في أعماقها دوماً..

لم تجد «رحمة» مفراً ولا مهرّباً لها من وحدة قاسية تأكل خلاياها إلا بالعودة الى سراي أبيها تسترجع عهداً مضى، تُنهك نفسها في الإشراف على الأعمال المنزلية لعلها تنسى أحزانها وغياب بناتها عنها، لا تكف عن تذكُّرهن والحديث عنهن، اقترب سليم منها كثيراً في تلك الآونة وأسهم في إدخال السرور على قلبها وانعاش عقلها بالذكريات الجميلة والأهداف النبيلة التي يجب عليها الانشغال بها، فالحياة لا يمكنها أن تتوقف على أحد ولا عند أحد... لقد آمن بها حد إيمانه بجذته آمنة، وكان يبحث في



أحاديثها عن كل ما يُذكره بالجنة النابلسية الجميلة خلقًا وخلقًا، قاسمها همومها رغم ثقلها، بل أنه حقق لها حلمًا راودها في شبابها بتأسيس مشغل صغير لتعليم الفتيات الخياطة والتطريز والتريكو، رغم معارضة جعفر في بداية الأمر لكنه ما لبث ونفذ اقتراح سليم خوفًا على رحمة من موت بطيء يتسرب داخلها، ارتاحت أخته كثيرًا واعتدلت أحوالها فور تنفيذ ذلك المشروع، أقبلت تتعهد كعادتها بالعناية والرعاية، وهبه لها جعفر وسجله باسمها وشاركها فيه سليم تبرُّكًا بها؛ فتوسعت فيه وصار المشغل مشغلين وثلاث ثم صار مصنعًا صغيرًا تُطلب منتجاته بالاسم والطلب.. فحياتنا لا تنتهي إلا إذا أردنا نحن إنهاؤها..

تبادلا سليم ورحمة علاقة قوية متينة مفعمة بالحب، شعر خلالها كلاهما أنه في حاجة متينة إلى الآخر، وكانت رحمة تظن إلى كل ما يجد في حياة ابن أخيها بفطرتها حتى وإن حرص على كتمان بخار أي غليان داخلي يعج به صدره، كانت تفهمه من نظرة عينه، تعرف تفاصيله من رعدة صوته..

فحين ضبطت رحمة الإشارات المتبادلة بين سليم و«سوسن» ابنة الخالة زكية إحدى مُريدات جدته آمنة رحمها الله، اشتعلت بها الحيرة وطار النوم من عينيها، فلا «سوسن»



بتلك الفاتنة التي تشغل سليم للحد الذي يدفعه للزواج بها، ولا سليم بذاك الذي يُقبل على الزواج من مطلقة مهما كان حُسنها فتكون هي أول بخته، ولا أخيها جعفر بالرجل الذي يقبل أن يزوج وحيدة لابنة الدلالة، فالأمر معقد وشائك، نعم سوسن طيبة وهادئة، رزينة عَشْرِيَّة، لكنها مُطلقة تحمل على كتفها طفلاً يرضع وسليم لم يدخل دنيا بعد، كما أنها تكبره بعشر سنوات أو يزيد، فأرسلت تطلب «سرور» طليق سوسن وشرعت تُرمم ما بينهما من صَدْع، بل إنها أزالَت فعلياً كل أسباب الخلاف، فعينت الرجل كاتباً ومحاسباً في ورشتها ومنحته مبلغاً محترماً يُمكنه من استئجار شقة محترمة في المركز ليكون بجوار الفرع الجديد من مشغلها والذي أُفتتح منذ شهر وأسَّرت تسد كل فجوات الفُرقة بين الرجل وزوجته، فعادت المياه إلى مجاريها وانتقلت سوسن مع زوجها إلى بلينا، ضحك سليم حتى بانت نواجذه حين أتمَّت رحمة مُرادها قائلاً: مكتتش أعرف إنك لئيمة أوي كده يا عمتي.

فأجابته مبتسمة وهي تغمز بعينيها: وآني كمان مكتتش أعرف إنك صايح أوي كده يا ابن أخويا!

لازمت رحمة دار أخيها متلحفة بحب سليم ومودته، وحينما أن لروعة ابنة توأمها أن تسكن السراي غمرتها عمتها بفيض من



الحنان والاحتواء، كانت كلماتها لها بلسماً وكأنها تبحث فيها عن بناتها اللاتي غبن عن عالمها، وحين شعرت بتدهور حالتها ودنو أجلها، كان ذلك في فبراير ٢٠١١م هاتفت سليم وطالته بالعودة حتى تتكحل عيناها برؤيته، ترك سليم ميدان التحرير مهرولاً نحوها، فقد أحدثت مكالمتها ثورة عارمة في صدره وشعر أنه يسابق الموت إليها فيا ترى من يصل أولاً؟

وحين وصل داهم غرفتها دون أن يطرق الباب، كانت «روعة» بجوارها تمسك بكفها، لكنها تنهت إلى ريح سليم ففتحت عينيها بصعوبة وأشارت إليه أن يجلس إلى جوارها، فجلس حيث أرادت مُمسكاً بكفها الآخر، فابتسمت وقالت: أول مرة أقولها لكم انتوا الاثنين، نفسي جداً تكونوا البعض، عارفة إن كل شيء قسمة ونصيب بس دي أمنيتي اللي مش هلحج أشوفها! صمتت مجدداً تحاول أن تلتقط قوتها مع أنفاسها بينما خيم الصمت على سليم وسبحت روعة في بحر دموعها، تحشرج صوتها وقد خنقتها غصة بينما مالت بنفسها على عمتها تحتضنها في حنان واقتربت تقول: عمتي إنت بخير، الدكتور طمناً والله..

شعرت رحمة أن مكوئها بين الأحياء مسألة وقت، فشددت



على كفيهما قائلة: خليكو جنبي لغاية ما يسترد الله وديعته، آني
مش هطوّل، أُمّي آمّنة بتناديني وهصلي معها الفجر..

ثم أغمضت عينيها وفاضت روحها إلى بارئها في الخامس
من فبراير ٢٠١١م، تاركة ثورة تفيض حزنًا وجزعًا في صدر ابن
أخيها سليم، وألمًا ووحدة في قلب أخيها جعفر، وندبة يُتم
جديدة في نفس روعة مصطفى أبو ستين..

إنها امرأة ترى في وجهها كل الفصول؛ فتتوه معها وفيها،
تُحبها بل تذوب فيها عشقًا..





(٣)

إلهام سعيد محبوب

(المولودة في ١٦ - مايو- ١٩٥٦م)

كانت بكريّة والدِيها، ولدت في أحد شوارع حي الضاهر وتحديدًا في بيت جدها لأُمها التي جاءت لزيارة عائلتها وذويها ففاجأها المخاض بضرباته الموحجة ولم يمهلها وقتًا للذهاب إلى أقرب مستشفى أو مستوصف، جاءت إلهام في ساعة سهلة رغم أنها أول العنقود، فكانت أجمل أخواتها ولكنها ليست أقواهن شخصية، متوسطة الذكاء لكنها ذات روح رقيقة، طويلة القامة، قوامها ممشوق وأنفها مستقيم ورثه عنها ولُدها، عينان لوزيتان بلون ثمرة جوز الهند وبشرة خمريّة، هادئة كنسمات الخريف، نادرًا ماتتباها نوبات من الغضب أو الحزن، كان الرضا عنوانها، أمّا جعفر زوجها فقد كان متقلبًا كالبحر، عصبي المزاج إلى حد بعيد، يمارس الحب والكراهية عشرات المرات في اليوم الواحد.. كان «سعيد أفندي» والدها موظفًا في قصر السكاكيني^(١)

(١) قصر السكاكيني: من أقدم قصور مصر. بُني عام ١٨٩٧ م على يد حبيب باشا السكاكيني. يقع القصر في ميدان السكاكيني في وسط القاهرة، وتحديدًا في منطقة الظاهر، تم البناء على يد معماريين إيطاليين جاؤوا خصيصًا للمشاركة في تنفيذ القصر، وتتداخل فيه الطرازات المختلفة من حول العالم، ويعتبر نموذج لفن الروكوكو..



باشا، رجل ذو سمعة طيبة وعلى قدر كبير من الوقار والأدب، حرص أشد الحرص على التعليم الجامعي لبناته رغم ضيق الحال، فالرجل موظف وراتبه معروف لا يتمدد إلا بالقدر الذي تمنحه إياه الحكومة عن طريق العلاوات والمكافآت، يُحارب الظروف بالقناعة حيناً وبالاستغناء حيناً، مؤمناً بأن السعادة تصبح جزءاً منا إذا عرفنا الرضا بالمكتوب وألّفنا التواضع، هكذا ربّى بناته أو هكذا أراد لهن..

كانت إلهام أكثر البنات شبيهاً بوالدتها لذا استقر حبها في قلب أبيها وتوطد لأنها كانت أحرص بناته على رضاه وأكثرهن استجابة لأوامره والابتعاد عن نواهيها، ألحقها بإحدى مدارس الراهبات في الضاهر فنشأت على الأدب والالتزام وحب الخير كما تدرّبت خير تدريب على فنون البيت وتصريف شؤون أختيها ومالت بطبعها الممتزج إلى التأثير بتدين والدتها، لكنها حين بلغت الخامسة عشر أصيبت والدتها بمرض عصبي نادر وتم إيداعها مستشفى الأمراض العقلية في العباسية ثم فجّعت الأسرة فيها حين غادرتهم إلى السماء مُحَلِّقة بروحها الطاهرة بعد عامين صارعت فيهما المرض فانتصر عليها..

كان الرجل يُلاحظ لوعة ابنته بقلق وترقب، حاول النفاذ



إلى أعماقها ليخفف عنها أزمته و حزنها لكنها كانت قد أغلقت دواخلها على نفسها بثبات وانكبت على بعض الأوراق تُفرغ مشاعرها وتسجل أحاسيسها حتى كادت تلتصق بأوراقها ودفاترها لا تفارقها إلا حين تنصرف تُحرك شؤون البيت، لا شيء في حياتها يرفه عنها إلا سطور تخطها يدها فتشعر أنها حرة سعيدة، أرهقتها المسؤولية المبكرة فتطبعت بالجدية وخاصة حين وقفت بنفسها على ضيق ذات يد أبيها وقله حيلته حين طالبته بمبلغ إضافي لشراء فساتين وأحذية جديدة لها ولشقيقتها عشية يوم الوقفة لكن الرجل اعتذر قائلاً: معلش يا إلهام يا بنتي اتصرفي وقضي العيد إنت وأخواتك بالهدوم اللي عندكم وإن شاء الله العيد الجاي يكون الحال أفضل وأجيب لكم اللي عاوزينه، أنا موظف غلبان على أد حالي والعين بصيرة والإيد قصيرة يا بنتي، ما حلتيش غير مرتبي اللي بيكفينا بالعافية، معلش، حقكم عليا..

كان «سعيد افندي» يؤمن بأن «النصيب غلاب» و«إن البنت مسيرها لبيت جوزها راحت ولأجت»، لكنه يؤمن أيضاً بحقوقها في التعليم وهو ضمانها، لذا فحين تقدم له «جعفر» وهو سليل آل أبو ستين، شاب ممتاز، ذو سمعة طيبة وميسور الحال لدرجة أربكت الرجل للحد الذي لم يجد معه عيباً في شخصه ولا في ظروفه، فلما



يرفضه ويُميل بخت البنت؟، ما الضير أن تتزوج بابن الحسب والنسب حتى وإن كان يكبرها بستة عشر عامًا، فالرجل لا يعيبه شيء بل يشفع له أنه دخل البيت من بابه، وجاء إلهام خاطبًا وهي في السنة الثالثة من كلية الآداب قسم تاريخ، وبحسابات المنطق والعقل ما الذي يُمكن للتاريخ أن يقدمه لإلهام أنفع وأفضل مما سيقدمه لها جعفر وهو من عائلة ذات مال وجاه وسمعة كالذهب، يتنسب إليها حيدر باشا أبو ستين، الذي نُفي للسودان لوقوفه ضد الاستعمار البريطاني، ونظرًا لأنه كان ضمن حكومة سعد زغلول وأحد أعضاء حزب الوفد، هذا ما أخبره به العريس عن عائلته حين زاره في مكتبه في قصر السكاكيني باشا..

رأى جعفر إلهامًا ووقعت عليها عيناه حين زار مكتب شؤون الطلاب في جامعة القاهرة حيث ذهب لاستلام المستند الرسمي من شهادته الجامعية التي كان قد نسيها أو أهمل استلامها حين أنهى دراسته، قبل لقاءه بإلهام ولسنوات طويلة كان مكتفيًا بالشهادة المؤقتة..

فقد حرص العمدة الكبير الحاج عبد القادر على أن يُكمل ولده البكري تعليمه في جامعة القاهرة، فأرسله هناك وابتاع له شقة سكنية فاخرة في ميدان النهضة، يخدمه فيها أحد أقاربه ويشاركه



سُكناها ابن شيخ البلد وابن إمام الجامع، ثم باع العمدة الشقة بضعف ثمنها حين أنهى ابنه تعليمه الجامعي وقفل عائداً إلى مسقط رأسه ليصير ولياً لعهد آل أبو ستين..

لا يدري «جعفر» لمَ شعر فجأة بضرورة استخراجِه لشهادة التخرج، كان الأمر مجرد حديث عابر مع «مسعد» زوج شقيقته رحمة، لكنه فؤجي بنفسه يستيقظ صباح اليوم التالي متوجّهاً إلى القاهرة وتحديدًا إلى جامعتها ليدخل شئون الطلاب مطالبًا بشهادته فيصادف فتاته هناك ويقع النصيب، فالنصيب غلابٌ..

رغب بها جعفر وتزوجها لأنها أعجبتَه وكان حينها قد طلق زوجته الأولى بعدما فرت من عِشرته عائدة إلى أهلها وفشلت كل محاولات الصلح بينهما، فقد ركبت رأسها وغازلها العرق التركي واشتد عليها، فهرولت عائدة إلى القاهرة ومنها إلى تركيا ولم يعرف لها جعفر مكانًا ولا مستقرًا بعدها، لم يكن راغبًا لها ولا طالبًا لودها، كل ما أَراده هو أن يتنزع طفليته «شهد» من بين أحضانها ويعود بها إلى قريته ولتربيتها أمه آمنة كما ربه هو وأخوته، كان جعفر كالطير الجريح الشارد لا يريد أن يستقر في ضاحية يعرفها، يبغي هربًا يتبعه نسيانًا، أسرته إلهام بجمالها الأخاذ وهدوء بالها ورفعة أخلاقها، لم تكن إلهام حينها ترتدي



الملابس القصيرة «المني جيب» ولا البواريك الثقيلة ذات الأدوار المتعددة من طبقات الشعر المتراسة في برجوازية زائفة كغيرها من فتيات السبعينات وكما كان سائداً حينها، لفتت نظره باستكانتها وأناقتها البسيطة ورقة حالها وهدوء ألوانها..

لم يُحدثها مباشرة لكنه تتبعها وعرف مسكنها وكل ما أراد أن يعرفه عنها من معلومات، ثم ذهب لخطبتها مباشرة من أبيها، وفي مكتبته في قصر السكاكيني قدّم له نفسه وأفصح له عن رغبته، لا يريد التسلي بالفتاة بل يريد لها زوجة وقد دخل البيت من بابه وتُسعده مصاهرة رجل مكافح نزيه اليد كأستاذ «سعيد محجوب»..

أقبلت آمنة لرؤية زوجة ابنها؛ فأحبته لشفافية قلبها وتوسمت فيها خيراً، ثم أقبلت ببقية نساء الأسرة من الصعيد للتعارف، عمدته نفيسة رغم صعوبة حركتها كما جاءت أخته رحمة أيضاً تسبقها سعادة وتشوق لرؤية عروس أخيها الجديدة..

لم تنل العروس إعجاب نفيسة «عمة جعفر»، والتي توفيت بعد شهرين فقط من زفاف جعفر وإلهام، تشاءمت الحاجة نفيسة من العروس حين علمت أن والدها كانت نزيلة في مستشفى الأمراض العقلية لعامين، ضربت على صدرها قائلة: الخانكة، يا حفيظ يارب، كيف يا آمنة تجبلي بالجوازة الغبره دي؟ إنت مش



بس موافجة، ده إنتِ فرحانه بالعروسة وبتباركي لابنك الحيلة اللي
عايز يتجوز بنت مجنونة!!

ورغم سنوات كهولتها الستة والسبعين إلا أنها انطلقت تلوم
آمنة كثيراً على قبولها لإلهام زوجة لجعفر ابن عبد القادر أبو
ستين ولولا خوفها من كرامات آمنة وغضبها لكانت قد أفسدت
الزيجة برمتها أو قلبت الفرح رأساً على عقب وهي قادرة على ذلك
بزفارة لسانها وحده طبعها وخشونة تعاملاتها، فقد ازداد لسانها
طوياً كلما ازداد عمرها وما من فرد ممن حولها إلا وقد ناله من
وقاحتها نصيب، ففي توبيخها للجميع تعيش نصراً عجيباً..

: مالنا ومال أمها يا نفيسة، البنت آية في الجمال والأدب
والطيبة، بنت في العشرين من عمرها لكن عقلها يوزن بلد،
تتصرف بحكمة وتكلم بهدوء ومدورة بيت أبوها وأخواتها
اليتامى، اللي متلها هي بس اللي تقدر تستوعب جعفر وتحمل
طبعه وتصبر على عصبيته.

تدخلت «رحمة» في الحوار تبدي رأيها وتُدافع عن العروس
الجميلة الهادئة التي اختارها أخوها بعد مقاطعة للنساء والزواج
دامت سنيًا منذ فرار زوجته التركية «شهربان خانوم»، اندفعت
رحمة قائلة: العروسة طيبة جوي يا عمتي وهادية ودمها خفيف،



الضحكة مابتفرقش وشها القمر، تتحط على الجرح يطيب، أبوها
كمان راجل طيب شريف، عينه مليانه، لسانه عفيف، وكفاية أنهم
ناس صادقين مابيكذبوش ولا يخدعوش، «سعيد أفندي» جالنا
على كُل حاجه بأمانة عن مرض مرته وكيف ماتت وكان ممكن
يداري أو على الأجل ميتكلمش في الموضوع واصل ويجول إنها
ماتت موة ربنا، يبجي ده جزاة الصدق، اللي زيهم ناسبهم واحنا
مغمضين، صدجهم يشفع لهم يا عمّة.

أردفت آمنة تعقب: جعفر عايزها يا نفيسة، دخلت عقله
وقلبه وحالف يتجوزها اليوم قبل بكره وأنا ماصدقت يهوى حُرمة
ويتمناها بعد اللي جرى..

ردت نفيسة بقوة: يعني ايه يا آمنة، بيعبها اياك؟ مش ممكن،
اللي زي جعفر مايعرفش يحب، قلبه مايمشهوش، زي أبوه تمام،
إنت جربتني الصنف ده من الرجاله وعرفتيهم زين يا مرت أخوي،
دول صنف مايعرفوش يحبوا من بابّه!!

ابتلعت آمنة التجريح والإشارة إلى سلوك عبد القادر معها
وما كان من عشرتها معه وأجابت: على مهلك يا نفيسة، مش بقول
أنه بيعبها، لكن حببتي يكفينّا أنه أخيراً قرر يصلح الدنيا ويفتح
معها صفحة جديدة، هيتجوز تاني، فعبد القادر «الله يسامحه» ربّاه



على جمودية القلب، ما يلينش بسهولة، كان عايظه دايمًا جبل
ماتهزوش ربح، وهو صار جامد زي النخل ماينحنش ولا يلين
أبدًا، وأنا خايفه عليه من قسوة القلب، وأخيرًا جت اللي تحركه،
اللي يهواها ويريدها، نرفض ونساعده يطفئ الشمس في قلبه
عشان عروسته مش زينا، هي بسيطة على باب الله؟ كلنا على باب
الله يا خيتي، وربنا قادر يطرح فيها البركة ويجعلها خير عوض للي
حرق قلبه زمان وزودته قسوة، ولا نسييتي؟!.



أما إلهام فقد أعجبت بجعفر الصعيدي القوي، طويل القامة،
مشدود القد، ذو الشارب الغزير والقسمات القوية الواضحة، فهو
فتوة حرفوش ببذلة عريس كرشدي أباطة، وفي سبتمبر ١٩٧٦م
تزوجت «إلهام محجوب» من جعفر أبو ستين في شقة واسعة
استأجرها لها في باب الشعرية، عاشت معه بما يُرضيه وكفّت
عن سعيها لتُرضي نفسها، فقد عرفت في زواجها بجعفر معنى أن
يحتضن الإنسان نفسه بنفسه ويردد «أنا بخير»..

أما ما كان بينها وبين حماتها فقد كان أدب «إلهام» ودمايتها
وهدوء طبعها جواز مرورها إلى قلب «آمنة» والتي نفذت
هي الأخرى إلى قلب كُتتها واعتبرتها ابنتها وعاملتها بحب



وود وإخلاص كما تعامل غاليتها «رحمة» ولطالما احترمتها وجاملتها وقدَّمتها في كثير من الأحيان على ابنها، وبغريزة الأم شعرت بجفاف جعفر مع زوجته وحادثته كثيراً عن ضرورة أخذ زوجته بالموددة واللين وإشعارها بالحنية والتقرب إلى قلبها قبل الاقتراب من جسدها لكنه جعفر ابن عبد القادر ولا فرق بينهما، نُسخ متكررة من العزة المغلفة بالعنجهية والاندفاع، يعانون من انتفاخ الأنا المصحوب بالتجبر..

بيد أن «جعفر» كان باراً بوعده لسعيد أفندي، فقد عاشت إلهام في شقة باب الشعرية عامًا كاملاً حتى أتمت دراستها الجامعية، كان زوجها يروح ويجيء عليها في زيارات متكررة أسبوعية، فإذا ما غادر إلى موطنه تجيء إحدى أختيها للمبيت معها فلم تُترك وحيدة أبداً لخوفها الشديد من المبيت بمفردها.. انتهى عامها الجامعي الأخير في أوائل يونيو، فإذا بزوجها يطالبها بالرحيل معه إلى السراي، فلا منطق من التكرار الشاق لزياراته بين برخيل والقاهرة، وما عادت هناك من حاجة لبقاءها في العاصمة، لم تعارضه لكنها خشيت مفارقة والدها وأختيها، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب، لكن ما باليد حيلة، فالزوجة تكون حيثما يكون زوجها، لا العكس..



هكذا أحضرها جعفر إلى قريته وحرّمها قُرب شقيقتها،
 أما «سعيد أفندي» والدها فقد كان شديد الحرص على زيارة ابنته
 في الصعيد كل فترة والمبيت في سراي آل أبو ستين ليلةً واحدة
 أو ليلتين على الأكثر يعود بعدها إلى القاهرة؛ فلا حاجة لمزيد
 من الحرج والمجاملات، فالضيف ثقيل مهما كان ولا يوجد ما
 يستدعي استمرار البقاء؛ فقد اطمئن على بكريته وعبر عن اهتمامه
 بها وانشغاله بأمرها ونفى عن نفسه نقيصة التخلي عنها وتهمة
 القذف بها إلى غيايب الصعيد، استمر يفعل ذلك بانتظام حتى
 وافته المنية ليلة زفاف توأمه «هيام وسهام» شقيقته إلهام، لكن
 سُكناها في برخيل لم يقطع الود بينها وبين أُختها وبقيت على
 صلةٍ بهما عبر الهاتف والمراسلات ومن خلال بعض الزيارات
 العائلية في العطلات حين تُخبر آمنة ولدها جعفر أنّها دعت هيام
 وسهام وأزواجهما وأبنائهما إلى قضاء بضعة أيام في العزبة،
 وعليه أن يُكرم الضيوف ويلاطفهم، فلا يمكن لجعفر أن يُراجع
 أمه في أمر أو يكسر لها رأي، فيجتمع شمل الأخوات ويفيض كرم
 الحاجة آمنة على الزائرتين، فتعودان إلى القاهرة وقد حملت
 كل منهما من خيرات الأرض صنوفاً من الفاكهة والخضروات،
 زلعتين من الجبن القديم «المش» والعسل الأسود، أزواج من
 الحمام وعشرات من الفطير المشلتت..



تذكر إلهام الليلة التي أعلن فيها جعفر غضبه الكريهة على إقامتها في القاهرة وعليه أغلق شقته في باب الشعرية وكان قراره حاسماً بالعودة إلى قريته في سوهاج، وهناك كان صالون الدار عامراً بالزائرات من النساء القاصدات للحاجة النابلسية المبروكة ورغم ما كان يختلج في صدر زوجته إلهام من ألم وحزن للقرار الجائر إلا أنها حين دلفت قاعتها القريبة من قاعة حماتها المبروكة لم تذرف سوى دموعات قليلة لكنها حارقة، ربما أرادت أن تنفس بها عن غضب يرج كيائها، أقبلت عليها «آمنة» بخطوات مهيبة مع رشاقة في المشية وبسمة ترحيب دافئة على الشفتين وستة أسوار ذهبية تلمع في بهاء... رحابة آمنة النابلسية أثلجت صدر الكُنة الملتاعة، فقد كان سحر آمنة أشد وأوقع، يخرج صوتها من فمها كما يخرج الماء من ينبوع، واضح النبرة جداً، صافياً جداً، وجدت إلهام نفسها تُصغي لكلمات حماتها اللدنة ووقعت في غرامها وتحت سيطرتها مُشتركة مع غيرها من نساء الدار في حُب آمنة، بل في طاعتها عن رضا وقناعة..



اعتادت إلهام جو الصعيد ولم تشك غربةً فيه، تحاول ألا تخالف زوجها أو تغضبه قدر استطاعتها تجنباً لعصبيته المريدة



إن غضب، تؤثر السلامة وتشترى راحة البال ببعض التنازلات التي لا تُضر، فاستوت لها الحياة في السراي وألفت وجودها فيها، لكنها لم تنس أبداً كيف عاملها برود وجفاء حين وضعت مولودتها الأولى بعد عام ونصف من الزواج، عابته؛ فجاءت إجابته بوقاحة، كان يريده صبيّاً، وريثاً لأموال وأمجاد أبو ستين، وريثاً شرعياً لعرش العائلة، حاملاً لشعلتها التي لا يريد لجمرها أن يخبو بعد وفاته، فقد استشهد شقيقه يحيى دون زواج، وأخوه مصطفى ذو دم زفر ومال حرام، فمن عساه يكون الساعد والعضد والوريث؟!

مسحت دموعها وكتمت حزنها ووعت جريماتها، عليها أن تكافح ضد أفكار جعفر الخشنة، عليها أن تتعلق بأذيال خيبتها تشدها بعيداً حتى لا تلتف حول رقبة صغيرتها فتخنقها، لم تتخيل يوماً أن يكون جعفر المتعلم كارهاً للإناث، لا، لا يمكن، فالكراهية اعتراف بوجود المكروه بينما هو لا يحس بوجودها ولا وجود مولودتها أصلاً، لم يُسمها، لم يهتم، لم يفكر، فالبنت تُسميها أمها، أما الولد فيُسميه أبوه!

أحزان مبهمة نمت بسرعة في دواخلها، أشجان كثيفة تغلغلت في هدوء صمتها، محا «جعفر» بغلظته تلك الابتسامة التي كانت لا تفارق شفيتها، حملت صغيرتها إلى قلبها، احتضنتها، ألقمتها



ثديها، وفي غمرة إحساسها القاتم راحت تهددها، تشفق عليها من مستقبل ينتظرها مع أب يريد لها أن تكون ذكراً لترضيه ولينتشي فخراً بعز عائلته وأمجادها..

«غادة» كذلك أطلقت على الصغيرة التي جاءت إلى الدنيا جميلة رغم ضعفٍ عام يعتريها وقلة وزن واضحة، هزيلة الجسد لا يكاد المرء يشعر بأي ثقل حين يحملها، وفي ليلة صيفية هاجمتها نزلة معوية شرسة لم تفلح معها رقية جدتها آمنة ولا رضعات الكراوية والشمز، أرسل جعفر سيارة خاصة تحضر طبيباً متخصصاً للأطفال من المركز ليفحص غادة، سويغات قليلة وعادت السيارة يركبها المرسال مع الطبيب الذي وقع شهادة وفاة الصغيرة بدلاً من إنقاذها، كان الموت أسرع إلى بدنها المتصدع بينما سقطت إلهام مغشياً عليها من هول الفقد ووقف جعفر صامتاً تأكله الصدمة رغم أنه لم يبك، لم يذرف دمعاً واحدة، هربت منه الكلمات بينما دفنت آمنة رأسها بين يديها وظلت تردد: إنا لله وإنا إليه راجعون..

حَمَلان بعد الراحلة غادة عرفا طريقهما إلى رحم إلهام لم يُكتب لهما الاستمرار، يصيبها مغص شديد يتبعه نزيف أشد رغم كل تعليمات الطبيب والاحتياطات المأخوذة بعين الاعتبار والتي



تتبعها المسكينة بانضباط والتزام خوفاً على جنينها الذي يلقي
نفس المصير الأسود كل مرة، يدخل جعفر بعدها إلى غرفتها
مواسياً فتدفن هي دمة لا تريده أن يراها، يفهمها هو؛ فيتجاهلها
ليس إهمالاً بل عجزاً..

لكن مساندة آمنة الحقيقية لإلهام ودعمها الكامل لها
جعلها تتماسك، كأن حماتها النابلسية سدّ تحتمي به، ترى
الأشياء بعينها في بعض الأحيان وفي البعض الآخر تعود إلى ذاتها
تحميها أوراقها ومذكراتها من الذوبان الكامل في كيان حماتها
التي ينصت لها الجميع بإجلال وإكبار يسبقهما حب ومودة..

لكن متاعب إلهام الحقيقية زادت مع وصول «سليم» إلى
الدنيا في مارس ١٩٨٤م، بعد ثمان سنوات من الزواج، حمدت
رهبها آلاف المرات حين مرّ شهرها الرابع من الحمل بسلام دون
نزيف، طمأنها الطبيب إلى صحة وضع الجنين وقوته وصلابة
المشيمة التي تحويه، يبدو أنه مكافح، عنيد ومثابر، بطل مغوار،
وُلِدَ ليكون مقاتلاً بالفطرة، أحبّه إلهام بقلبها قبل أن تراه عيناها
واستقبلته تتشمم أنفاسه بمجرد خروجه من رحمها وقطع الحبل
السري الذي جمعها به لثمانية أشهر ونصف بالتمام والكمال،
سألت الممرضة التي تحمله أن تضعه على صدرها ليلا مس



برأسه وجهها المبلل عرقاً، ثم غابت عن وعيها حتى أتمَّ الطبيب ما وجب إتمامه، وما إن أفأقت حتى أَرْضَعته وكانت كلَّما بشت فيه بعضاً من لينها وهدوئها وتواضعها كلَّما زاد غضب جعفر عليها وأصبح كل من هَبَّ ودَبَّ يسمع لومه وتقريعه لها، وفي إحدى المرات قام نزاع كبير بينهما أراد جعفر أن يُعيدَها على إثره إلى بيت والدها دون سليم، انتهج نفس مبدأ أبيه عبد القادر في تأديب زوجته «بهيجة» لكنَّها رفضت واستماتت في الرفض، لن تترك له فلذة كبدها، ستصحبها معها إن رحلت، وأسَّرعَت إلى جناح حماتها التي انضَمَّت إلى صَفِّها ونهرت ولدها واتهمته بالتعسف، واعتذرت أمانةً لإلهام نيابة عن جعفر وأمرته أن يعتذر لها، لم يستطع حينها أن يُنفذ ما أُمِر به على نفس النحو، لكنه تراجع في يمينه قائلاً: خلاص يا امه، كانت ساعة شيطان وراحت لحالها.. ثم وجه نظره إلى إلهام قائلاً: خلاص يا بنت الناس، ماتزعلش مني، روعي جاعتك وخدي ابنك في حضنك وماتشيلش هم..

وهكذا بقيت أمانة هي صمام الأمان في علاقة جعفر بزوجه إلهام فلم يظهر فوق السطح أثر قوي لاختلافاتهما، فقد كان إحساس أمانة يقظاً بالحد الذي تلملم به ظواهر أي خلاف أو بوادر أي معركة قد تطفو قبل أن تطفو، كل ذلك كان حتى حين!



كان زواج إلهام من جعفر قد تمَّ بعد رحيل عبد القادر إلى
 مثواه الأخير بست سنوات، فلم تكن لتجد مبرراً للفترات القاسية
 المتقلبة التي تداهم جعفرًا أحيانًا فيشرع يذكر والده كلَّما تحدث،
 ويشعر بالوحدة والكآبة ويكاد ينقطع عن زيارة عمته «نفيسة»
 وأخته «رحمة» لولا أن احتوته أمه وساندته زوجته فوجد فيهما
 السلوى والعوض وبرَّرت آمنة لكُتبتها الأمر على أنه قلق يتتاب
 جعفر على العز والجاه والسلطة التي ورثها عن أبيه، يريد أن
 يكون خير خلف لخير سلف، بالإضافة إلى قلق أعمق وأكبر على
 ابنته «شهد» وشوقه إليها ورغبته الطاغية في الوصول إلى مكانها..

وحين حدث ما حدث بين جعفر وأخيه الأصغر مصطفى
 لم تستغل إلهام الموقف وتسكب البنزين على الخلاف لتزيده
 اشتعالًا، كانت عند حسن ظن حماتها وكثيرًا ما رققت قلب زوجها
 على أخيه حتى اندفع الأخير وبكامل مزاجه نحو الانضمام للإخوان
 في تناقض ليس غريبًا على شخصه رغم شدة ارتباطه قبلها بالخمير
 والنساء، بعدها بسنوات كان الخلاف بين الإخوة قد اشتد حينها
 وفوجئ الجميع بنشاط مصطفى السياسي وهو الذي كان فيما سبق
 لا يقرأ جريدة ويعرف بالضالين اسم رئيس الحكومة فإذا به يردد
 كلام الإخوان عن مظلوميتهم منفعلًا ويصف ما تعرضوا له من



عذاب وهوان في سجون عبد الناصر وكأنه عايشه بنفسه واختبر ذاك الألم القابع في قلوبهم، وفي ١٩٨٦م أعلن مصطفى جهراً انضمامه السياسي والديني للإخوان وعمله المباشر في مكتب «محمد حامد أبو النصر» المرشد الرابع للجماعة^(١)، وفي صيف نفس العام فوجئ الجميع بزواجه من «لولا رمزي» الراقصة المعتزلة والتي تصغره بعشرين عاماً وأسسا معاً شركة كبيرة لتوظيف الأموال، وهكذا انقطعت العلاقة نهائياً بين جعفر ومصطفى ولم يعد لمحاولات أمّنة وإلهام طائلاً ولا نفعاً، بعدها بسنوات رشّح مصطفى نفسه لانتخابات مجلس الشعب حين علم بترشح جعفر لنفس الدورة البرلمانية، وفاز كلاهما عن دائرته، وأصبح مصطفى نائباً بجلباب وسبحة وذقن يردد كالبغاء كلاماً لا يعيه ولا يفقه فيه شيئاً حتى جاءت وفاته هو وزوجته قبل عام واحد من وفاة أمّه «أمّنة»، حيث لقي الزوجان مصرعهما في حادث سقوط طائرة مصر للطيران رحلة ٩٩٠ في ٣١ أكتوبر ١٩٩٩م قبالة ساحل ماساتشوستس الأمريكي بعد نحو ساعة من إقلاعها ولم ينبج في هذا الحادث

(١) المرشد العام الرابع للإخوان كان قد قبض عليه مع زملائه من مكتب الإرشاد وغيرهم من أفراد الجماعة في ١٩٥٤م عند اصطدامهم فكرياً مع ثورة يوليو وحكم عليه بالأشغال الشاقة لكنه خرج في عفو صدر من الرئيس الراحل محمد أنور السادات، وقد عاشت الجماعة في عصره أحداثاً بارزة أهمها تغلغلها داخل العديد من النقابات المهنية ونوادي التدريس الجامعي والجمعيات الأهلية



المؤسف أي من ركاب الطائرة، حينها فقط سقطت بضع دمعات من عيني جعفر على أخيه العنيد الأرعن ولم يتسلم له جثمان، فقد استقرت أشلاءه في المحيط الأطلنطي، وشرع جعفر يبحث عن ابنة أخيه ذات العشر سنوات والتي أكد الجميع أنها لم تكن على متن الطائرة، بينما تقوَّعت آمنة على حزنها وظلت تردد أن الحياة على الأرض رخيصة جداً، لا تساوي جناح بعوضة، تسأل جعفر ليل نهار أن يحضر لها ابنة مصطفى وألا يتوقف عن البحث عنها، تحثه أن يصل أخاه في صغيرته الغائبة.



وفي عام ١٩٨٦م متزامناً مع زواج «مصطفى» من لولا الراقصة المعتزلة وانضمامه للمكتب السياسي للإخوان، وفي الصالون الكبير في الدار سمعت إلهام مناقشات عدة تجري بين زوجها جعفر وضيوفه من أهالي قريته والقرى المجاورة لإقناعه بترشيح نفسه في انتخابات مجلس الشعب، فهو الأحق والأجدر بالكرسي بعد وفاة نائبهم في البرلمان الحاج «عطية» الذي رفض جعفر النزول أمامه في الانتخابات السابقة تقديراً واحتراماً للرجل رغم ضعف أدائه كنائب، ها هو المقعد أصبح شاغراً بوفاة الرجل، فلما لا؟!

ووسط كل هذه المسئولية والمشغوليات انصرف جعفر



عن إلهام وصغيرها سليم وانغمس تمامًا في الإعداد لحملته الانتخابية وتعرف على «عبد الحكيم اليكيلي»، محام شاب متفوق، من عائلة لها باع كبير في الأمور السياسية وله صلة ودراية بالعملية الانتخابية فتعاهد معه على الإشراف بنفسه على حملته الدعائية وقيادتها، ومع انشغال جعفر وجدت إلهام لنفسها متنفسًا في الكتابة؛ فوهبت لها سنوات من عمرها تاركة «سليم» إلى جدته آمنة وهي مطمئنة، هادئة البال، فطنة إلى حسن رعايتها للصغير وإيثارها له..

استجمعت إلهام همتها وخلاصة قراءاتها في التاريخ والعلوم الإنسانية بجانب اهتمامها الكبير بالفلسفة ومضت تجدد ثقافتها وتفرغ وقتها في قراءاتها العديدة المتتالية، باتت تقرأ أيضا في السياسة، وفي تكتم شديد وحذر تُسجل مفاهيمها وما تقف عليه أو ضده من أمور خاصة بالعمل السياسي وبطريقة منظمة وفلسفية، وتمخضت تجربتها عن كتاب بعنوان «لعنة السياسة ولعبتها»، فكان ثمرة جيدة جدًا، مرّرت إلهام الكتاب إلى شقيقتيها «هيام وسهام» وأزواجهما كما أرسلت منه نسخة إلى «عبد الحكيم» المحامي والذي صار صديقًا شخصيًا لزوجها جعفر طالبة رأيه بكل أمانة فيما كتبت وسجلت عبر سنوات ثلاث من الرصد



والتحليل والتدقيق، كما أهدت منه نسخة إلى زوجها آخذة برأيه ونصيحته، لم يهتم جعفر في البداية بالأمر ولم يقلقه، بل إنه لم يقرأه إلا حين أفصحت إلهام عن رغبتها في نشره، تحدّثت معه معلنة رغبتها في ذلك متمنية أن يسمح لها جعفر بتحقيق حلم يراودها بشغف، طمأنته أنه لا عواقب وخيمة ستأتيه من الكتاب لما آنست في حكم «مبارك» من مرونة وتقبُّل للتيارات السياسية المختلفة، صارت تُناقش ذاتها ليل نهار متسائلة: لم لا تُشق لنفسها مجرى جديد تحقق فيه دراستها وتعبر من خلاله عن ذاتها؟.

رفض جعفر الأمر كلياً وثار عليها ثورة عارمة لم تتوقعها وهو النائب الفذ الذي يقف في البرلمان مطالباً الحكومة ببناء عدد أكبر من المدارس والجامعات، يعلن وبفخر اهتمامه بالتعليم وقضاياها وخاصة تعليم الإناث في الصعيد، ما الضرر فيما لو نشرت زوجته كتاباً، فهما على أعتاب عام ١٩٩٠م والأمر لا عار فيه بل أنه صحوة قد تُضيف إلى رصيد جعفر وشعبيته، لكن رفضه الشديد وتجهمه وإعلانه الاحتقار لما كتبت واتهامه لها بأنها ستتسبب في فضيحة تلتصق باسمه إلى الأبد وستقضي على وضعه ومستقبله السياسي، كل ذلك بعث كل الخلافات القديمة التي كانت ساكنة بين الزوجين من مرقدها، فترأى لإلهام أن



علاقتهم الزوجية تمضي إلى المجهول، لاشيء من ذلك كله يهتمها أو يعينها إلا سليم، باتت تفكر فيمن اختارته وقيلت به أبًا لابنها الوحيد، فبعد إنجابها إياه بعام واحد أصيبت بورم في الرحم لزم معه استئصاله، واستعادت إلهام شريط حياتها مع جعفر فتلبس بها السخط والتمرد وزاد عنفوانها، وندمت على زواجها من صعيدي متحجر العقل ضيق الأفق، حاولت آمنة إقناع ولدها بقبول التجربة والتجاوب مع رغبة زوجته تمريرًا للعاصفة، فلم يقبل بل شدد على موقفه بضرورة توقف إلهام عن الكتابة من الأساس، حينها حاولت آمنة اقناع كُنتها بالتراجع عن خطوة النشر ولو لحين، لكنّها أيضًا لم تقبل وكأنّها أخيرًا وبعد خمسة عشر عامًا من زواجها بذلك الكيان الصلب قد وجدت نفسها واشتعل آتونها بعد أن خمدت ناره لسنوات تحت وطأة القهر والتعود المصبوغ بالإقناع السلبي وادعاء الرضا، أشار عليها زوج شقيقتها سهام أن تنشر الكتاب تحت اسم مستعار كحل وسط تلجأ إليه بعض الكاتبات في الوطن العربي، لكن «عبد الحكيم البيلي» كان له رأي آخر أسكبه في رسالة أرسلها إلى الكاتبة نفسها حيث شدد عليها ضرورة أن تظهر كلماتها إلى النور وأنه مقتنع جدًا بموهبتها الأدبية ونبوغها الفكري ويؤجزم



بنجاحها المؤكد ككاتبة حال صدور كتابها، ممّا أثار حفيظتها أكثر تجاه جعفر بعد أن كانت لسنوات مُحسنة الظن به رغم فظاظة بعض تصرفاته، فكيف يشجعها صديقه ويعرض مساندتها بينما يقف زوجها بنفسه حائلاً بينها وبين ما اختارته وتريده؟!..

كيف يُنكر عليها جعفر حقّها في نشر رأيها وخلاصة قراءاتها وبحثها لسنوات وهو مَنْ كان يستدعيها بنفسه لتُجالس مستشاره «عبد الحكيم» بالساعات لِيبحث ثلاثتهم عن كل ما قد يُساعد جعفرًا في تحقيق مبتغاه والفوز بمقعد الدائرة... لقد أخلص عبد الحكيم لجعفر كما أخلصت له إلهام، ألزما نفسيهما بمساعدته ومساندته وبنية كريمة وطريقة صائبة راحا يُجمّلان صورته حتى لا يقع فريسة لصورة أبية الراحل «عبد القادر» وما يغشاها من غلظة وقوة مقترنة بظلم وفتونة وجبروت..

بينما «سليم» كطفل صغير له من العمر سنوات ست يراقب ما يجري بين أبويه بكثير من القلق الممزوج بالحزن، ينظر في الآفاق ويشرد بتفكيره إلى ما وراء الأحداث، يهرع إلى حضن أمه ليلاً يبحث عن الحب والأمان فما أن يدخل جعفر إلى الغرفة حتى ينسحب الصغير خارجها، ثم يسمع شجارًا أصبح يوميًا يأتي من خلف الباب يتبعه صراخ أمه إذ لا يتوانى جعفر عن تأديبها بيده إذا انفرط عقد غضبها أو علا صوتها في وجهه..



مرّت شهور والخلاف يحتد ويحتد حتى أصيبت إلهام
بصداع شديد أصبحت لا تنام معه وأصبحت أيامها بطيئة ومؤلمة،
فأشارت حماها على ولدها أن يصحبها إلى طبيب مشهور في
القاهرة لعلّه يُريحها من عذابها، ففعل دون تردد..

كان سليم يبكي ويشتد بكاءه إذا رأى ذئاب الألم تنهش رأس
والدته في حين يقف هو عاجزاً عن تخفيف ألمها، حتى تعاوذكده
ورقيتها وأعشابها ووصفاتها لم تُجد، يسكن الألم معها سويعات
قليلة ثم ما يلبث أن ينفجر ثانيةً مُحتلاً رأس أمه المسكينة..

وَمِنْ قلبه الصافي المخلص، قلب طفل بريء يملؤه حب
فطري بلا حدود وبلا توقف لأمه، ظلّ سليم يدعو ويبتهل بدموع
عينيه راجياً المولى ﷻ أن يشفى إلهام ويهبها الراحة، دلف إلى
غرفة جدته آمنة باكياً سائلاً إياها أن تعلمه الوضوء والصلاة فربما
تصل حينها دعواته إلى السماء تحملها الملائكة فيستجيب
المولى وينعم على والدته بالشفاء المنتظر..

رأى أن أباه قاسٍ، مغلق الأذنين والعينين، لا يرى ولا يسمع
إلا ما يُصادف هواه، لم يفهم ما القضية ولمّا الخلاف سجال بين
والديه؟ فوالده جعفر يملك الدنيا وما فيها، خزائنه عامرة بمال
يغشى العين عند رؤيته فلمّا لا يحقق لزوجته ما تريد؟! وبراءة



طفل يحمل أعمامه الخضراء على كتفيه راح يتساءل: هل تكلفة نشر كتاب تحتاج إلى أموالٍ طائلة إلى الحد الذي يُعجز جعفر أبو ستين؟ أم أنه بخيل إلى الحد الذي يمنعه من تقديم الكتاب كهدية صغيرة إلى زوجته العليلة؟!

و ذات مساء بعد أن صَلَّى مع جدته صلاة الحاجة راجين الله تعالى أن يمن على المسكينة إلهام بالشفاء، أسرع إلى والده يحمل حصّالته، وضعها على الطاولة أمامه وفتحها قائلاً: أرجوك يا بوي، خذ كل اللي في الحصلة واعمل لماما الكتاب اللي نفسها فيه، بإيدك تخليها مبسوبة يمكن تخف عشان خاطري..

لطمه والده لطمّة لم ينسها عمره كله، وقع الفتى تحت طبع جعفر الخشن، من المحال أن ينسى مشاعره حينها ومع ذلك ظل نظره متعلقاً به راجياً قبول طلبه، ومع الزمن عرف وفهم أن جعفرًا لا يتراجع عن كلمة قالها ولا يخالف وعدًا قطعه حتى لو ثبت له خطأ ما يفعل، فليُشنق الكل أو يموت قبل أن يتراجع ابن عبد القادر أبو ستين عمّا يراه مناسبًا..

تعلم سليم أن القوة لا يوقفها إلا قوة أكبر، وأنه لبراعة أن تقاتل الشر بالشر من أجل الحياة، وأنه من الممكن أن يرتكب الإنسان أي جريمة لا يتخيلها تحت ظروف القهر والإحساس



بالظلم، فقد كان على استعداد أن يقتل أباه أو بالأحرى يقتل الشر داخل أبيه ليحقق العدل الذي رآه جلياً واضحاً متمثلاً في الرغبة الساذجة لأمه المريضة..

كانت مشكلته الثانية في رفض جعفر لمرافقة سليم لهما في زيارة إلهام للقاهرة إلى حيث الطبيب، فانقلبت عواطف الفتى تجاه أبيه من أقصى الحب إلى أقصى الكراهية وأسرت أمانة تشرح وتبرر له رفض جعفر قائلة: مصر بعيدة جداً يا سليم والسفر مُتعب حبيبي، أبوك ما يعرفش هيقعد فين بإلهام ولا هيدير باله عليها كيف وهي تعبانة كده، مش حابب يضايق عبد الحكيم ولا يزعجه معاه في اللف على الحُكما، كيف هيدير باله عليك إنت كمان وهو هيروح هنا وهناك لحد ما إلهام تبقى زي الحصان ويرجعلنا بيها وردة مفتحة، خليك هنا معايا يا ضنايا وأوعدك أخليه يكلمنا يطمنا عليها أول بأول، إنت حبيبي يا سليم، ماتفارقنيش إنت كمان يا قلبي..

أظهر الفتى قناعة منبعها الاستسلام للأمر الواقع، فلا حيلة له ولا لغيره في تغيير مقصد جعفر ونيته، قَبْلَ أمه وهي موضوعه على كرسي متحرك يدفعها أبوه، فقد استحوذ الألم عليها ولم تعد تقوى على الحركة، احتضنته إلهام ودفنت رأسها المتورم بالألم بين عنقه وترقوته، بينما غاص هو في حضنها وغفا لبرهة رآها فيها مرتدية



ثوباً أيضاً تجري به وسط مروج خضراء زاهية ونظرة ملائكية تشع
من عينيها اللوزيتين، يشرق ثغرها بابتسامة وكأنها الشمس تشرق
على الدنيا من جديد. استفاق سليم من رؤياه حين سمع صوت
والده ينهره عن ذاك التصرف الطفولي الأبله قائلاً: استرجل يا ولد،
كلها يومين ثلاثة بالكثير وأمك ترجعلك ماشية على رجليها..

تشبثت إلهام بولدها واحتضنته بقوة فلم يجرواً أحد على
انتزاعه منها، قبلته بين عينيها وأردفت تحدثه بصعوبة وبصوت
يمزقه الوجع: هتوحشني أوي يا حبيب قلبي، خلي بالك من
نفسك عشان خاطري، كل كويس وذاكر دروسك، عيزاك شاطر
يا سليم، اسمع كلام تيتا آمنة، وخليك عارف وفاهم دايماً إنك
جوايا وحبك بيجري في دمي من قبل ما أشوفك، أنا عمري ما
حييت حد أد ما حبيتك يا سليم..

لا يدري سليم لِمَا انشق قلبه قلقاً حين نفذت كلمات إلهام
إليه، تلفت إلى جدته آمنة التي أمسكت يمينه وقبلتها وودعت
إلهام بابتسامة كلها تفاؤل فأردفت الأخيرة قائلة: خلي بالك على
سليم يا نينا وراعيه، أرجوك ربّي على حنية القلب وحلاوة اللسان.
أسابيع تلت مغادرة إلهام برفقة جعفر إلى حيث الطبيب،
لعل الأمر يُجدي، وسليم تائه يتلفت حوله يبغي خبراً يؤكد رغبته



ويحقق رجاءه في شفاء تام يُبشر بعودة والدته، لقد اشتاق إليها كثيراً، إنه يفتقدها ويفتقد ريحها رغم الوداعة والحب والعطف الشديد الذي تغرقه به جدته آمنة، صار يجلس وحيداً منفرداً بنفسه يفكر ويفتش عن إجابة لأسئلة تحاصر عقله الصغير، ما هي الخطايا؟ وهل ارتكبت إلهام حقاً ما يستوجب معه أن تُعامل بهذا السخط؟ لا شك أنَّها أرادت أن تحقق لنفسها سعادة افتقدتها مع أبيه جعفر؟ وما الخطأ أن يقرأ الإنسان أو يكتب؟ أهو انحراف عن الطريق القويم، وإن كان انحرافاً فلِما يرسلونه إلى المدرسة إذن؟ هل يريدونه خطأً ثم يحاسبونه على خطئه؟!

ثم يتساءل الصبي يحمل سنواته القليلة على كاهله لِمَا لم تُجدي تعاويز جدته آمنة في دفع الألم عن رأس أمه المسكينة؟ هل ارتكبت أمه ذنباً يستوجب عقابها على هذا النحو القاس؟!

اقترب سليم من كتب جدته آمنة والمجلات التي تقتنيها والدته وفتش في أوراقها باحثاً عن إجابات منطقية لِمَا يدور في خلدته من استفسارات، ولعلَّه لهذا السبب ورث عن جميلتيه حب الإطلاع والفهم، وفي سنوات مراهقته وشبابه أضاف إلى معرفته الكثير من الأمور رغم أنه لم يحرز تفوقاً ملموساً في حياته الدراسية، فكان ذا مستوى متوسط اقتنع معه بالفرق الكبير بين



العلم والتعلم، بين الدراسة والثقافة، بين التقاليد والموروثات
وبين المنطق والمقبول، وفيما بعد أدرك أيضًا أن ثمة فرق كبير بين
الحب والزواج!

ما الذي يُجبر الإنسان على قبول الحزن والقناعة به؟
لا شيء أكثر من أن للحياة وجوه عدة، أشهرها الحزن، ولا
ضرورة لقبوله ولا ضرر من رفضه، فقضاء الله نافذ سواء قبلناه
أو رفضناه..



وفي أغسطس ١٩٩١م رحلت إلهام عن دنيا سليم وغابت
شمسها، قتلها الألم وافترسها المرض، تلك المسكينة غدا
رأسها مستقرًا ومستودعًا لورم كبير غائر متشابك الأطراف احتل
دماغها، خشي الأطباء عليها من أمر استئصاله، لم يكن الورم هينًا
كذلك الذي سبقه في رحمتها من سنوات قريبة، مرّت بها الليالي
وهي مستلقية في سريرها في «مستشفى الكاتب بالدقي» لا أمل لها
في نجاة قريبة ولم تمض بضعة أسابيع حتى رحلت هزيلة، منهكة
محطمة، ذهبت دون لقاء وداع يجمعها بسليم، لم ترغب في أن
تحتفظ ذاكرته لها بصورة كئيبة حالكة، ذهبت إلى مثواها تحمل
أحلامها هشيماً تذر الرياح وتركت في نفس ولدها ظلّمة أليمة



وحلقة معتمة.. حفرة غائرة عميقة يتصاعد منها دخان الوجود
كلما أحسَّ سليم حنيناً إلى أم رقيقة تمنى أن يغمرها الخلود!
أحسَّ الفتى بقلبه يدمي، وبقي مدة شارد الذهن، بلا شهية
ولا نشاط، محملاً في الظلمة، مستوطناً غرفة إلهام التي تركها له
أباه جعفر فيما بعد استجابته لأوامر آمنة، لم ينم سليم ليلته الأولى
في غرفة والدته بل استمر يحملق في سقف الغرفة يجاهد ذاكرته
ليحفر بها كل كلمة، كل همسة صدرت عن أمه، متسائلاً في مرارة:
ما الحكمة من أن يتزوج كائن رقيق كالإلهام بثورة عنيفة كجعفر؟
ما الذي تحقق لها من ذلك غير العبث؟ يشعر بسخط شديد على
والده وفي ذات الوقت يكره نفسه لأنها منبع ذاك السخط على أبيه،
فالكرهية تُعب، والتعود عليها يفسد العيشة ولا يحل الأمر، فهل
ياتراه كان قادراً على مسامحة مَنْ رأى أنَّه المسئول الأوحَد عمّا
جرى للريقة الراحلة؟!..

مرّت السنون فزادته حرماناً، وتأجّج شعوره بالظلم تجاه
والدته، وانتهى به التفكير إلى إهداءها كتابها وغاية حلمها
مطبوعاً ورقياً مزيناً باسمها محمولاً على غلاف قيّم دون أن
يستطع أحد كائنات من كان أن يقتلعه أو ينزعه..

لِمَ لا يهب أمه سعادتها وهي التي وهبته وجوده؟!



فبعد سبعة عشر عاماً من رحيل إلهام وتحديدًا قبيل معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠٠٨م طُرح كتابها في المكتبات وشارك سليم في حفل توقيعه يُحرّكه الشجن الممتزج بالعزة والشغف، لم يستطع أحد أن يقتل ذلك الحلم في نفس سليم أو يحرقه، فقد استطاع بتلك الطريقة أن يضمّد جرحًا غائرًا سكن قلبه لسنوات وأن يهيء لنفسه ظلالاً تقيه حُرقة الذكريات وألمها..

لم يكن سليم عابئاً أو مهتمّاً بمعرفة أبيه جعفر بأمر الكتاب وحفلة التوقيع، بل أنّه أراد مباغتته بالأمر كله، لن ينتظر سليم موافقة جعفر أو عدم موافقته، فهو شأن خاص بينه وبين أمه إلهام، لن يسمح له أن يتتهج ثانية بقهر حلمها، يكفيه ما أفسده من سنوات تلك المسكينة، ودون أدنى اهتمام تركه يعرف الأمر برمته ممن حوله، هكذا رأى سليم العدل وهكذا حققه دون الاضطرار إلى مواجهة عنيفة أو حرب شرسة ربّما تقضي على ما تبقى من برٍ يربطه بعصا والده على كل حال..

لقد كبر سليم ونضج وكبر جعفر أيضًا وصارت سنواته الثمان والستون تُقيد الكثير من قدرته على التنقل والانتقال من مكان إلى آخر، حتى وإن غالب سليم نفسه ودعا والده إلى حفل توقيع الكتاب فلن يحضر، فلما عساه يفعل؟! رسالة أراد سليم



إيصالها إلى أبيه، إن «كتاب إلهام» أمر ذاتي، خاص به وحده، لا يحق لغيره أن يشاركه فيه، لقد تدبر سليم الأمر كلياً كي لا يزعج جعفرًا أو يضايقه، فقد بات يمقت نفسه ويؤنبها إذا اشتد النقاش بينهما ثم أصيب والده بعدها بأزمة نفسية غالباً تلازمه حين يرتفع ضغط دمه..

سنوات مرّت تأكد معها سليم أن كل البيوت تكون مظلمة إلى أن تستيقظ الأم؛ لذا بقيت كل البيوت التي سكنها وعلى كثرتها وتعدد مواقعها كلها كانت مظلمة؛ فما عادت إلهام تستيقظ!

إلهام امرأة ظلّ وجعها حيّاً في قلب وحيدها، يعود لهيب شوقه إليها ينبعث ناراً كلّما خمد الرماد..



عامان ونصف بعد رحيل إلهام وجعفر يدور في فلك نفسه يفتش عن وسيلة يهرب بها من حزن دفين صامت انسكب داخله وفراغ خرب لا يستهان به، غادر جناحه الذهبي الفخيم الى قاعة بسيطة الأثاث في الطابق الأول من السراي، تقابل قاعة أمه الحاجة آمنة مُكرّساً نشاطه للعمل والتجارة وجنى الأموال وشراء أكبر مساحة ممكنة من الأراضي يقيناً منه أنه يكتنز المال والثروة لفتاه الوحيد وفرعه الذي يرحوه أصيلاً ثابتاً، سليم الغالي..



بينما استمرت محاولات رحمة بلا انقطاع تعرض على أخيها هذه العروس وتلك من خيرة نساء الصعيد وفتياته اللاتي لم يسبق لهن الزواج كما اتصلت محاولاتها بدعوات آمنة لولدها ليجد العوض والسكينة من جديد، فمن الجائر أن يختار الرجل شبابه وصحته ويظل عازفاً عن الأنس والونس.. فما زال أمامه العمر ليهنأ، إلا أن المحاولات كلها ذهبت سُدى..

حتى تنامي إليه العلم بأن «رشيدة بنت وهدان» قد ترملت عن زوجها واسع الثراء.. فهرع إليها راغباً في شراء أرضها التي ورثتها عن المرحوم، فليس لهما من الذكور من يمكنه الوقوف على الأرض لخدمتها والفناء فيها؛ فرفضت... فأعلن عن رغبته في الزواج منها غير ملق بالآ إلى جزع بناتها وأزواجهن وإخوة زوجها المرحوم.. فلم يكن هو بمن يلتفت إلى مثل هذه الترهات إن رغب شيئاً..

وفي إبريل ١٩٩٣م حقق جعفر رغبته وجاء بالست «رشيدة» إلى السراي وحملها إلى القاعة الذهبية في الطابق الثاني.. أقنعت رشيدة أنها امرأة طيبة هادئة المعشر لا تطمع في ميراث منه، فغايته أن تواصل حياتها تحت جناح رجل عظيم تتحاكى باسمه وسيرته البلد كلها وما يجاورها من كفور.. يحاصرهما شعوران فيستلطان عليها، الإعجاب به والرغبة منه... فمشياتهما من



السيدات يحسدونها على الفوز به.. ف «جعفر بيه» هو امتداد أصلي لكل ماهو كبير.. أصيل.. عريق.. فتنه رأيها فيه وسارع يُرضيها ويشتري خاطرها.. فصبر على امتعاض أزواج بناتها من زواجهما وقرب إليه أخاها وعينه كبير حرس السراي...

ورغم تجاوزها الخامسة والأربعين إلا أنها سارعت تمارس كل وصفة شعبية تضمن لها سرعة الحمل من سليل أبو ستين الذي لم يمانع رغبتها بل استجاب إليها بكل رجولته واتخذاً معاً كل الإجراءات اللازمة لذلك مقتنعاً بالفكرة مهرولاً إلى تطبيقها... ولمّا لا وهما يتمتعان بصحة جيدة وقوة تناسلية تؤهلهما لتحقيق المبتغى..

وعلى صعيد آخر لم تكن الست رشيدة تتسم بالنجابة والتهذيب اللائقان بمعاشرة مَنْ هم في السراي.. لم تُحسن التقرب لحمايتها الحاجة الكبيرة ولا لأخت زوجها وراحت تُشاكل الخادِمات لتُثبت للجميع سيطرتها المزعومة على السراي، جرت مشاحنة بينها وبين «زمردة» حين زارتها حفيدتها «ونيسة» تطلب بعض الطحين لزوم الخبز، تناولت «رشيدة» على الفتاة المسكينة وطردتها خارج السراي، اشتكت «زمردة» للحاجة آمنة، فتأزمت الأمور بين رشيدة وبين حمايتها وسارع جعفر يسترضي



أمه وعزل زوجته تمامًا عنها؛ فَمَا بينهما نفورٌ من الاختلاط وتجنب الجميع الإلتقاء بها وانعزلت في جناحها العلوي حين بشرتها الداية بالحمل الذي أكدته طبيبة الوحدة فيما بعد... لكنها طالبتها بالراحة التامة في السرير، فالحمل وقد تجاوزت صاحبه منتصف الأربعينات خطر ولا يقبل الإحتمالات..

اعتزلت رشيدة مَن في الدار وانضمت لها خادمتها التي احضرتها من بيتها الأول لتخدمها وتقف على شؤونها الخاصة... لم تحاول ولو لمرة جذب «سليم» إلى شاطئها، لم تكن تحتمل نظراته إليها، فقد تحفظ معها باعتبارها آخذةً لمكانة أمه ولولاها لانغلق الجناح الذهبي على ذكرى إلهام، فرغم كل شيء لم يتوقع الفتى أن يخيب رجاءه في أبيه بهذه السرعة!

وفي فبراير ١٩٩٤م وضعت «رشيدة» حملها الذي لم يكن قد اكتمل بعد في ساعة عسرة، كان الشتاء قارسًا والسيول التي مُنيت بها البلدة تحُول دون وصول سيارة الإسعاف في مواعدها؛ استمرت آلامها عنيفة وبقي مخاضها في مأزِمٍ ليلة كاملة، كانت فيها حياتها على الحافة، زاد نزيها ولم تتمكن من الحركة نهائيًا حتى حملها الإسعاف إلى مستشفى المركز في الصباح...



«نادر»، لم يكن بوسع أحد أن يتخيل فرحة جعفر بولیده الذي جاءه على درجة عالية من الوهن والضعف، فبعد أيام من ميلاده انفرد الطبيب بأبيه ليلبغه أمرًا ما أقساه على رجل انتظر سنوات حتى يكون لولده أخ يشاطره الاسم واللقب، يناصفه الميراث والجاه، يشاركه العز والسلطان..

فجهاز «نادر» العصبي لا يخلو من خلل دماغي نتيجة لعُسْر المخاض وطول فترته التي تزامنت مع ولادة مبكرة ولسوء الحظ اكتمل الخلل حين عانى المسكين من نقص الأكسجين فولد أزرق اللون، صغير الحجم، يعاني تضخمًا في الكبد والكلية، خمسة وخمسون يومًا قضاها الخديج في الحضّانة ليخرج بعدها إلى حضن أمه.. كانت رضاعته صعبة وحركته شبه منعدمة... إلى القاهرة حمله أبواه وقد غشاهما الخوف، فحوصات وأشعات وتحاليل أكدت جميعها إصابته بالتخلف العقلي..

عاصفة حزن وتهيج أصابت جعفر ورشيده... راح الرجل يتسائل عن أحقيته في وليدٍ من صلبه يأتي سليمًا معافًا يشاطر سليمه الثروة ويشد عضده ويشركه في أمره؛ فلا يواجه الحياة فردًا! أشقى الأمر رشيده تمامًا وبلغت علاقتها بزوجها أقصى مبلغ من السوء حين اتهمته بأنه السبب الرئيسي لما مُني به «نادر»



من عته، فلو أنه أدركها حين اشتد عليها الألم وغامر بتحريكها ونقلها بنفسه وفي سيارته إلى أقرب مستشفى لجاء الطفل معافى وفي أحسن حال.. ورغم كل تصريحات الأطباء التي عللت عدم صحة الحمل ولا سلامته منذ الشهور الأولى وكان من السهل الوقوف على تقلصات المشيمة لو خضعت رشيدة للأشعة والسونار ومتابعة الحمل أول بأول إلا أن خوفها الزائد على الجنين من الحركة والتزامها بالسريـر ورفضها التعرض للكشف والمتابعة المستمرة حال دون اكتشاف الأمر..

تبادل الزوجان الاتهامات واللوم والتقريع، ولم يعف أحدهما قط عن الآخر، وشعرا بالغربة وتمكن منهما الغضب ولم تقم رشيدة في السراي إلا خمسة أشهر بعد ميلاد «نادر» الذي تم إيداعه أحد المصححات، تزامن ذلك مع زواج صغرى بنات رشيدة بتاجر عطارة ميسور الحال وانتقالها للإقامة معه في قنا، استطاع التاجر اقناع جعفر بالسماح لرشيدة بالإقامة في قنا مع ابنتها العروس لبعض الوقت حتى يرتاح بالها ويهدأ حزنها على الصبي الذي انتظرته منذ عرفت بطنها الحمل والولادة، فلم تحظ به في زيجتها الأولى وظنّت أن الله استجاب دعاءها حين منحها صبياً من عائلة أبو ستين؛ فخاب ظنّها وجفّ أملها ولبنها، وتعكرت حياتها



بالحزن والخيبة، فافتنع جعفر برأي الرجل الذي رآه صائبًا مناسبًا لتلك الفترة الكالحة في زواجه لعل مزاج رشيدة يتحسن بابتعادها عن السراي لبعض حين ووافق على انتقالها الى قنا مؤقتًا..

لم ترض الحاجة آمنة عن هذا الانتقال الذي رآته بداية فُرقة بين ابنها وزوجته التي راحت تكشر عن أنيابها وتُسرف في الابتعاد عن زوجها وداره، إلا أنها اختارت السكوت وآثرت السلامة.. ففي رأس جعفر ما يكفيه من الأوجاع.. أعظمها نادر وأهونها رشيدة..

أما ما بين الزوجين فقد مضى في يأس، وبالأيام سلّم كل طرف بالمقدّر والمكتوب إلى أن استدعت رشيدة زوجها وفي بيت ابنتها طالبتَه أن يكتب شيئًا من أملاكه باسم وحيدهما «نادر»، تحديدًا أرادت الأفدنة الغربية من أرض أبو ستين لقربها من أرضها، فجريان الأحداث يصب كله في اتجاه سليم الذي كان ومازال الوريث الوحيد السليم الصحيح لآله ولا ضمان لحق نادر المسكين ذي العاهة!!

رفض جعفر المبدأ من أساسه، فلا مبرر لتخصيص جزء من الأرض لأحد الأبناء دون الآخر، وإن كانت رشيدة تؤمن بالمبدأ الذي قالته وتطالبه به، فلتبادر بنفسها وتكتب لوليدها بعض أرضها، ولما لا والفكرة فكرتها؟!



تبين لجعفر طمع رشيدة في ماله وأرضه وعِزه، في الحقيقة كان الطمع متبادلاً؛ فراحت الأحقاد تتضخم وانعزل كل طرف عن الآخر في انتظار انفراجة لم تأت... فقد رسخ في قلب جعفر أنه سيء الحظ في زيجته بينما أعلنت رشيدة ندمها على الزواج منه.. فعاشت في بيت ابنتها عامًا كاملاً دون أن تصطدم برؤية جعفر ودون أن تطلب الطلاق أيضًا حرصًا وانتظارًا لما سينالها منه كزوجة إن مات دونها لورثته، داومت على زيارة «نادر» في مواعيد تخالف زيارة والده له، فلم تجد تحسنًا في حالته وأيقنت أنه باق على حالته تلك طيلة عمره؛ فتملك منها القهر والأسى وانهرت على رأسها الخيبات ب وفاة ابنتها الكبرى وزوجها وابناؤهما في حادث سيارة، بيد أنها قد جُنَّ جنونها حين بلغتها وفاة وحيدها «نادر» قبل أن يبلغ الثالثة من عمره؛ فأكلتها الحسرة ولم تستطع المقاومة، نامت ليلتها ولم تقم تاركةً بيتها الملك وأراضيها لابنتها الأخرتين بيعًا وشراءً، لم ينل زوجها ولا أخاها من ميراثها مليمًا، حتى مصاغها كانت قد أهدته في حياة عينها إلى ابنتها بعد وفاة شقيقتيها الكبرى مباشرة... أعجب جعفر بحيلة المرحومة وإن كان بعض الحنق والغيط تسرب إلى نفسه حين حرمت رشيدة بذكاء من أرضها وبيتها وحليها،



كيف واتتها الشجاعة ومن أين لها بحسن التصرف لتمنعه حقه في مالها، لكنه لم يتوقف طويلاً عند ذاك المنعطف.. تَبّاً للحزن الذي يلازمه كلما تعلق الأمر بسلسال أبي ستين... لا شك أن وفاة وليده «نادر» أحدثت في نفسه جرحاً لم يندمل جعله يتعلق بوحيده «سليم» أكثر وأكثر ويبنى على أكتافه أحلام الزهو والرفعة لآل أبو ستين جميعهم ويسأله تحقيقها دون تهاون..

يتمناه رجلاً لم ترعيناه قط مثله في نجاحه وعقله وتميزه وحكمته.. وصلابته أيضاً.. يريد به رجلاً يبقى في قلب ذاكرته... لم يعد هناك شيءٌ في هذا الكون أقيم ولا أفضل ولا أحب إلى جعفر من سليم... وياليتَه يعرف..





(٤)

سهام سعيد محبوب

(المولودة في ٢٥ مايو ١٩٦٠م)

هي إحدى لؤلؤتي التوأم الذي رُزق به «سعيد أفندي» وزوجته «الست مفيدة» الخيَّاطة، بعد بكريتهما إلهام «والدة سليم» بأربع سنوات كاملة، فجاءت البنات كلهن مواليد مايو، حينذاك يكون الربيع قد لملم أزهاره ونسائمه استعداداً للرحيل، فالدنيا لا تبقى ولا تستمر على حالٍ واحد، وكل ربيع يعقبه صيف، ولدت ونشأت في بيت العائلة في أحد الشوارع الجانبية لحي الضاهر، كان ملعبها المفضل والذي شهد شهقات سعادتها وضحكاتها الرنانة، المدخل الرئيسي للعمارة الصغيرة التي تسكنها الأسرة دائماً ما جمعها بتوأمتهما «هيام» وشقيقتهم الكبرى «إلهام» قبل أن تنقطع نهائياً عن اللعب معهما لانصرافها التام وانشغالها في تصريف شؤون البيت حين تقمصت دور الأم بعد وفاة «ماما مفيدة» في الخانكة..

في البداية لم تستجب «سهام» لفكرة غياب أمها عن البيت واختفائها النهائي عن أعينهن، كانت دائمة السؤال والاستفهام عن أحوالها، وكلما اشتد بها الشوق إلى والدتها تهرول إلى بيت جدها القريب «الحاج فاروق» تتحسس أمها في جدها وحديثه،



تسأله أن يُجَهِّزَ لها «البليلة» و«مربى الجزر» و«شورية العدس»، إنها الصنوف التي تعلمتها أمها من الحاج فاروق... تُجالسه سهام وتحاوره وتسامره كثيراً عن ابنته «مفيدة» وتُنصت بحماسٍ وانتباه إلى حكاياه عن طفولة أمها وشبابها وقصة زواجها السريع من «سعيد أفندي» وغيرها من روايات تُثير الشجن داخل الفتاة الصغيرة، لكنها تروي ظمأها وما كان أشده نحو أمها الغائبة عنها الحاضرة جداً بداخلها..

كانت تطابق «هيام» جداً و كليهما يشبه «إلهام» جسماً مع وجه أكثر استدارة وأشد بياضاً، توفي والدها في ليلة زفافها هي وتوأمها وعقب انصراف المعازيم من صالة شقته، رفض الرجل مبيت بكريته «إلهام» معه وأصر على انصرافها مع زوجها «جعفر» فهو أولى وأحق بها، كان الرجل ذا صوتٍ عذبٍ، فجلس يؤنس نفسه بتلاوة القرآن منتظراً صلاة الفجر ليُدركها في وقتها وليدعو لبناته بالرفاء والبنين، فتوفي ساجداً وشيئاً إلى مثواه الأخير عقب صلاة الظهر وبحضور بناته الثلاث وأزواجهن في أحد أيام عام ١٩٨٥ م..



ارتبطت «سهام» كثيراً بزوجها وارتبط هو بها أكثر بعدما لمس معاناتها ومحتتها النفسية بعد رحيل أبيها ليلة زفافها



ومعرفتها بذلك الخبر البائس في صبحيتها، وخصَّها برعايته وعطفه بعد رحيل شقيقتها وأمها الثانية «إلهام» إلى حيث أرادها زوجها جعفر أن تكون؛ فصارت مئات الكيلومترات تفصل بينهما وتعسَّرت الزيارات نتيجة للبُعد إلا من لقاءٍ متباعدة تثير الشجن والدفع في آنٍ واحد..

كان «عصام» من أصل سوداني، قوي الجسم، حسن الملامح رغم سماره، هادئ الصوت، ذو ضمير ومبادئ، كافح ليبنى لنفسه مسكناً مستقلاً عن أبويه اللذين تمسكا أشد التمسك بنشاطهما في بيع «البوظة» والذي رآه مرفوضاً بل مكروهاً، أكبر حموه له هذا الأمر وزوجه «سهام» حين تقدَّم لها رغم قلة حيلته وضيق رزقه، فقد اطمأن خاطره نحو صلاحه كزوج لابنته الحبيبة، يكفيه أنه يتحرى الحلال ويطلبه وضيق الحال لا يُعيب المرء إن كانت رجولته حقيقية..

حصل «عصام» على شهادة متوسطة وعمل بإحدى الهيئات الحكومية قبل الزواج، لكنَّه بتشجيع من زوجته وإصرارها على أن يُكمل تعليمه، عاد إلى الدراسة من جديد وتقدَّم لامتحان الثانوية العامة «منازل» فحصل عليها، ثم التحق بكلية التجارة حينها كانت «سهام» الجميلة تحمل ثمرة زواجهما الهانئ في رحمها،



وفجأة تعرض الرجل وهو في عامه الجامعي الأول لحادث سير مروع أصيب فيه بإصابات بالغة وتحطمت سيارة نقل البضائع التي كان يعمل عليها لحساب أحد التجار، وفقدت الأسرة موردها الأساسي، واضطرت «سهام» للخروج للعمل ومواجهة الحياة ومازال وليدها يرضع، فساعدها «عدلي» زوج شقيقتها «هيام» على العمل بشهادتها، ولم لا وهي تحمل بكالريوساً للتمريض، وما أكثر المستشفيات التي تطلب من هن مثلها..

وبعد أربع أعوام فقط من الزواج وتحديداً في ١٩٨٩م وهي في التاسعة والعشرين من عمرها أصبح مرتبها الصغير هو مورد الدخل الوحيد لأسرتها، بجانب ما ترسله لها شقيقتها «إلهام» كحوالة بريدية شهرية تُعينها بها على تصريف أمورها وإجراء عمليات جراحية عديدة للمسكين «عصام»، خرج بعدها إلى البيت وبقي فيه شهوراً طويلة عاجزاً عن الخروج للعمل لكنه يقضي كامل وقته في حفظ القرآن وقراءة الشعر، كما شغلته إلهام بكتابها الذي عشقه حين أرسلت أوراقه إليه منذ سنوات تطلب رأيه وهو المهموم بالسياسة منذ نعومة أظفاره فقرأه مراراً وفي كل مرة يهاثفها ممتدحاً أو مناقشاً أو مجادلاً، وساعدها فعلياً في إعادة تحرير بعض فصول الكتاب... كان «عصام» مهتماً بصدق بأمـر



الكتاب واقترح على «إلهام» سابقاً طرحه يحمل اسماً مستعاراً كما فعلت من قبل الكاتبة «سميرة خاشقجي» تحت اسم «بنت الجزيرة» لكنها رفضت وأخبرته أن حلمها أن ترى اسمها على كتاب استغرق منها ثلاث سنوات كاملة من التحضير والكتابة وما يلزمهما من الفحص والتمحيص، ربما كان هو ثروتها الحقيقية وميراثها الذي ستركه يوماً ذكرى وقيمة لوحدها «سليم».. أكدت لعصام أنها تعي جيداً ما تستلزمه حربها ضد عناد جعفر حتى يخرج كتابها للنور.. سيمنح الرجل لولدها مالاً وجاهاً وثروة، عزبة وأرض واسم ولقب، أمور تُعد وتُحصى، لا تقدر هي أن تمنحه مثلها ولا حتى نصفها أو ربعها، لكنها ستمنحه ما هو أكبر وأعمق وأعلى.. ستمنحه ما لا يُقدر بثمن!

ثم جاءت وفاتها الدرامية عام ١٩٩١م بعد صراع لم يطل مع سرطان المخ معلناً نهاية صفحتها التي طويت مبكراً تاركة وجعاً وأنياباً في قلوب محبيها، حزن «عصام وسهام» كثيراً لما أصاب الرقيقة إلهام من غدر الدنيا، وهرعا رغم ما بهما وما يُقيدهما من ظروف صحية ومادية إلى رؤية «سليم الصغير» واحتضانه..

ضمّته «سهام» طويلاً إليها وغاصت روحه في عنقها المنبسط، اشتم بها عطر أمه، رحّبت بهما الحاجة آمنة أيما ترحيب



وشدّدت عليهما بضرورة البقاء في ضيافة ابنها جعفر وبالقرب من الصغير اليتيم الذي وجد في خالته ضالته فأسرع يبيت إلى جوارها دون علم والده جعفر خوفاً من رفضه للأمر أو إفساده عليه، ينعم أحياناً باللعب مع «الصغير فؤاد» بالكرة أو يركبه أمامه على مُهرة أو يركضاً سوياً خلف الفراشات في حقول الذرة..

بقي الضيفان شهراً كاملاً وكلّما همّا بالانصراف استبقتهما دموع سليم ورجاوات آمنة لهما بالبقاء، ثم ما لبثا أن عادا إلى القاهرة يتحسّسان قوت يومهما، فشمرت «سهام» عن ساعديها ولم تدع عملاً صغيراً إضافياً تستطيع القيام به لتوفير بضعة جنيهات دون أن تفعله، وكلّما أعوزتها الحاجة باعت شيئاً من أجهزة المنزل حتى أتت عليها جميعاً وعلى بعض الأثاث أيضاً حتى علمت الحاجة آمنة بالأمر من مصدر لا تعرفه «سهام العفيفة النفس»؛ فأرسلت إلى خالة سليم ماكينة خياطة تساعد بها على توفير دخل إضافي، ثم أسرع «عدلي - زوج شقيقتها هيام» بمكاتبة قريب له يعمل في السعودية لإيجاد فرصة عمل جادة لسهام في إحدى المستشفيات الخاصة حيث يعمل الرجل، صدّق «عدلي» وعده وبالفعل سافرت سهام للعمل في مستشفى خاص في الرياض، وقبيل السفر أقسمت على زوجها بأن لا يرهق نفسه بأي عمل خلال غربتها وألا يغادر



بيته حتى لا يتعرض لمكروه بعد العمليات الجراحية الأخيرة والتي تحسنت معها قدرته على الحركة وتعهدت أن تُرسل إليه من مقر عملها كل ما يزيد عن احتياجاتها الضرورية، وبالفعل حققت سهام كل ما قالته ولم تخلف وعدًا..

عام واحد من الغربة بعده استطاع عصام شراء أثاث جديد للبيت وكل الأجهزة التي باعتهها زوجته في المحنة السابقة، ثم عادت «سهام» بعد عامين كاملين من البُعد محمّلة بالهدايا له ولابنهما «فؤاد»، لكنّها وجدته مُرهقًا من أعمال البيت وخدمة ورعاية الصغير التي يقوم بها وحده، فملا بسهما ليست نظيفة وحياتهما ليست مرتبة وطعامهما أغلبه من خارج البيت، أحزنها جدًّا إصابة فؤاد وهو في الخامسة من عمره بالسكري وشغلها حاجته الدائمة إلى اهتمام ورعاية خاصة تُنظم له طعامه وجرات الإنسولين اللازمة والضرورية لحالته، ففتّشت عن ربة بيت محترمة تحتاج إلى زيادة دخلها عن طريق عمل شريف على أن تحضّر إلى «عصام وفؤاد» يوميًا فترعاهما وتشرف على كل ما يخصهما وتوفر كل احتياجاتهما كما حرصت على تدبير أمر ممرضة ماهرة تسكن في نفس الشارع لتتحمل مسؤولية انتظام مستوى السكر لدى فؤاد لتجنبه مضاعفات المرض، ووجدت سهام بالفعل ضالتها في



«مدام رحاب» ابنة عم عدلي، وهي أرملة تسكن في شارع مجاور ممّا سيُسهل عليها الانتظام في عملها، استراحت «سهام» لرحاب، فقد لاحظت عليها أمومة وحناناً وحسن الرعاية لفؤاد وعصام، واستقرت الأمور وعادت مطمئنة إلى غربتها ووحدتها وغايتها توفير مبلغ طائل من الأموال تضعه وديعة بين يديّ عصام ليؤسس مشروعاً خاصاً يختصر فترة غربتها وما أقساها!

ومضى عامان آخران أرسلت فيهما كل ما تحصلت عليه من أموال من مرتبها وحوافزها ومكافأتها كما عملت بالخياطة والتطريز هناك للزميلات والجارات وبعض السيدات اللاتي تعرفت عليهن ليزداد حجم مدخراتها التي ترسلها أولاً بأول إلى زوجها العزيز، ثم ظهر في الأفق فجأة ما يُعكر صفو الحليب، حين مرض صاحب المستشفى الخاص الذي تعمل به وتسلم ابنه الشاب العمل نيابة عنه ولم يعجبه تزمته الأخلاقي معه وصدها المؤدب لتلميحاته الخارجة، فحنق عليها واستصدر أمراً بترحيلها الفوري من الرياض، ساعدها قريب «عدلي» في استخلاص كل ما استطاعت الحصول عليه بالجهود الودية من مستحققاتها وجزءاً بسيطاً من مكافأة نهاية الخدمة..

شهر سبق حلول تلك الكارثة كانت قد تلقت خطاباً من ابن أختها «سليم» يحثها فيه على العودة فقد اشتاق إليها وإلى عقب



«إلهام» الذي يتنسمه في حضنها، ألمها شوقه إليها لكنها عالجت الأمر بأن أسرعت إلى مهاتفته غير آسفة على ثمن المكالمة الدولية وما أغلاه عليها، استمرت تستمع إلى حديثه، فلم تجد في عباراته ما يُقلقها عليه أو على فؤاد، فقد كانا على شبه اتصال، ودّعته بحنان وقد أبرمت له قسماً أن تزوره في أول أسبوع حين تطأ قدماها أرض الوطن..

وحين ركبت الطائرة جعلت تتخيل وقع المفاجأة السّارة الغير منتطرة على «عصام وفؤاد» فلم تشأ أن تقلقه بشأن مغادرتها الخليج على هذا النحو المفاجئ جداً، وضعت المفتاح في مزلاج باب شقتها لتقع عيناها المشتاقتان على مشهد سهرة عائلية سعيدة لبيتٍ مستقرٍ لا ينقصه شيء، بيد أن المشهد كان خارج النسق، فقد وقفت فيه الزوجة والأم كغريبة تتصدر موقعا ليس لها بينما أخرى تأخذ مكانها!!

أسرع «فؤاد» يحتضنها وتحتضنه وهي غائبة الفكر، شاردة الذهن، فقد تزوّج المخلص عصام بالأرملة الحنون «رحاب» منذ شهور..

صرخت به سهام وراحت تركل حقائبها التي ملأها بكل ما رأت أنه يحقق سعادةً لزوجها وابنها، اصطحبها «عصام» إلى غرفة النوم لا ليعتذر أو يُبرر ما حدث بل ليضع على عاتقها وبكل



جراً مسؤولية ما حدث، فقد تناست سهام احتياجاته الإنسانية وحقه عليها كزوج وركعت أمام حسابها في البنك!!

تنبهت، ليس لها حساب في البنك، المال كله بين يديه وقد اشترى بالفعل دكاناً صغيراً على ناصية شارع جانبي في منطقة غمرة وملاءه بضاعة وافتتحه كسوبر ماركت مقبول إلى حد كبير وكتب عليه «ميني ماركت عصام وولده فؤاد»، إنها أموال البترول التي يُحاسبها الآن على تفرغها لجمعها بينما هو يستطيع الآن الوقوف أمامها على قدميه ليُنَاطِئها ويُجادلها ويُذكرها أنه رجل وله حقوق يطلبها فلا داعي للتغابي، ولا مبررات تملكها زوجته المسكينة لتفرغ فيه شحنات غضبها ولا داع لترفع صوتها فتزعج الجيران بأمر لا يخص غيرها!!

بينما جلست «رحاب» وجته الجديدة في الأنتريه تتابع فيلم السهرة بنصف عقل، تنتظر ما سيُسفر عنه اللوم والمعاتبة، «رحاب» أنثى بمعنى الكلمة، ليست فائقة الجمال لكنّها عرفت كيف تحرك المياة الراكدة وتُصلح ما أفسده المرض والألم والغياب في «عصام السابق»..

تدخل «عدلي وهيام» لإصلاح ما يُمكن إصلاحه ورأب الصدع، أقسم «عدلي» بعدم معرفته أمر زواج ابنة عمه من عدليه،



كان الرجل خَجِلاً مما جرى وكأنه كان عنه مسئلاً، لكن يشفع له أن الود بينه وبين «رحاب» ليس متصلاً بالحد الذي يُمكنه من الوقوف على أخبارها أولاً بأول، ولا مساحة له عندها ليقبل أو يرفض أمراً خاصاً بها إن هي أرادته.. فالقراءة بينهما تسير في نهر ضيق يحكمه الواجب والسؤال عن الأحوال بين حينٍ وحين...

أمّا «هيام» فلم تربت على قلب توأمتها بل عاتبتها ولامتها كثيراً ليس فقط لبلاقتها وحُسن ظنها برحاب ولا لتفريطها في زوجها ومنحه لأخرى على طبقٍ من فضة، فالأخرى أرملة شابة تريد استعادة شعلة أنوثتها ولا لوم كبير يقع عليها؛ فكل اللوم على «سهام» فقد كانت ساذجة، مسالمة، حسنة النية، ترسل كل ملهم تحصل عليه لزوج اتّمتته على عمرها فخا الأمانة.. كل التقرير وهول الذنب حمّلت «هيام» لتوأمتها البلهاء وراحت تتفاخر بصحة وجهة نظرها ونظرها الثاقبة الصحيحة في الدنيا ومن فيها..

: هو فيه ست عاقلة تأمن لراجل، دول عقارب ما يصدقوا
الواحدة تلتفت من هنا ويلدغوها من هنا، كان فين عقلك؟ ده
أنا لساني نشف أنصحك وأقولك وإنت مفيش فايده فيك، كنت
مسلماله على طول واللي يقولُك قرآن وتقولِي بعده آمين..

ورغم مرارة الصدمة إلا أن سهام لم تنس وعدها لسليم وراحت تريح نفسها وتكحل عينها برؤيته، فإذا بها تجده قد



صار غلاماً ينتصب أمامها في قوة ممزوجة بالحيوية، لم يعد هو ذاك الصغير الذي تجلس على ركبتيها لتحتضنه، لقد عانقته وهي واقفة، دار بينهما حديث صامتٌ في غرفة آمنة، نظرته إليها ذكرتها بشقيقتها الراحلة «إلهام»، لقد ورث عنها التفاتها ونظرتها، رسمة عينيها وابتسامتها العميقة رغم بساطتها، جذبته إلى حضنها، قبّلت وجنته في شغف يُخالطه شوق ولوعة وصارت تبكي وتبكي في شجنٍ لم يستطع معه سليم شيئاً سوى أن احتضنها وظل يربت على كتفها مواسياً وبعضه يغلي بحقنٍ على زوجها النصاب وبعضه الآخر يتوعده بعقابٍ شديد!!

و بالمبلغ الصغير الذي حصلت عليه كجزءٍ من مكافأتها قبل ترحيلها وبمساعدة «جعفر» الذي لم تتوقع منه شيئاً استطاعت «سهام» الحصول على شقة صغيرة في روض الفرج، كما ساعدها الرجل بما له من علاقات بحكم منصبه كنائب في مجلس الشعب على العمل في مستشفى استثماري كبير في «المهندسين»، أما الألم الأكبر الذي لم تداوه الأيام وظلَّ يؤرق مضجعها كان ضم عصام لوحدهما «فؤاد» إلى حضناته حين بلغ الحادية عشر في ١٩٩٨م، كان الفتى أكثر ارتباطاً بأبيه الذي عاشه سنوات بعد الحادث في البيت متفرغاً تماماً له، صارت تراه حين يأتي لزيارتها آخر



الأسبوع، تلاحظ حبه الصادق لزوجة أبيه، حبٌ يتسرب من بين شفتيه حين يحدثها عن أخباره وما جرى وما يجري في دنياه، تحبه رحاب فعلاً ويحبها ولا تفرق بينه وبين وليدها الذي وضعته منذ شهر وأسمته «عصام» على اسم أبيه، يألفها ولا يشعر معها بغربة، سهام نفسها أفرّت ما قاله عصام لها في تلك الليلة المشئومة، نعم لقد أخطأت حين تركت كنزها ليدٍ أخرى تحميه، فمدّت كفها تربت على وجه فؤاد في اعتذار لم يفهمه هو أو يُقدّره..

وفي عام ٢٠٠٠م وقبيل وفاة الحاجة آمنة بأسابيع، كانت سهام قد بلغت الأربعين من عمرها وتقدّم إليها رجلٌ فاضل، مدير المشتريات في المستشفى حيث تعمل، كان ذو شأنٍ اجتماعي مقبول، طيب السمعة، ابتسامته لا تفارق وجهه، خدوم إلى حد بعيد، شجّعها شقيقتها «هيام» على القبول، عليها التمسك بفرصةٍ قد تكون الأخيرة لتسعد من جديد، وتركن إلى ظل رجل يحميها من غدر الزمن، كانت على استعداد وشيك لأن تقبل به، لكنّها أرادت مشورةً صادقةً تأتيها من قلب يرى ببصيرة ثاقبة، فزارت الحاجة المبروكة لتقف على رأيها في عرض الأستاذ «حمدي»، ورغم آلام المرض التي كبّلت جسد آمنة إلا أن روحها كانت منطلقة في برازخ أخرى تجعلها تقف على مسافة واحدة بين الدنيا



والآخرة، ابتسمت آمنة حين أنهت سهام حديثها وأردفت: بس ده راجل متجوز، صحيح مش مرتاح مع حُرْمته، لكن ده مِشفعلوش إنه يكسرها بيك يا بنتي، مش أنتِ يا غالية اللي تكسري قلب حُرْمه زيك مهما كانت..

وفي نفس اليوم عادت سهام إلى القاهرة بصحبة سليم والذي ذهب معها في الصباح الباكر إلى مقر عملها رغبةً منه في التعرف على مَنْ ظنَّ أنه سيكون زوجًا لخالته الطيبة، قليلة الحظ كما تصفها آمنة دومًا، لكنَّه جلس على طاولة أخرى في كافيتريا المستشفى يراقب الموقف من بعيد، اعتذرت سهام للأستاذ حمدي، فلقد سُرِق منها زوجها وعانت هي مرارة الإحساس بالخيبة والسلب، فكيف يُمكنها أن تكون سارقة لزوج امرأة أخرى مهما كانت العلة والسبب، حاول الرجل في هدوءٍ وثباتٍ إثباتها عن قرارها لكنه لم يفلح، فقد كان قرارها نهائيًا..

عاشت «سهام» سنواتها التالية في انتظار أن تشرق شمس فؤاد على حديقتهما من جديد لتفتح زهراتها، فقد كانت زيارته المتقطعة لها تقل كلما زاد عمره عامًا وكلما زاد ارتباطه بعصام الصغير، رغم ذلك لم تكن أبدًا في لقائه أقل حُبًا ولا أكثر جفافًا، لطالما حادثه سليم في الأمر بل إنها كانت تعلم أن وحدتها



وعزلتها هي ما تدفع سليماً إلى زيارتها حين يأتي إلى القاهرة فيحرص على المبيت عند خالته الحبيبة، تعرف خطته على الباب وتميزها، فسلیم لا یرن الجرس، لا یحبہ، كانت أصابعه تطرق بخفة على زجاج شُراعة باب شقتها لحن أغنيها المفضلة «إن راح منك يا عين» للجميلة شادية، يعلم كم تحب السمك البوري المشوي، فيفاجأها بأكلةٍ مُعتبرة، يتسكعان بعدها على الكورنيش في شبرايتسليان بالترمس صيفاً وبالذرة المشوي والحلبيسة الساخنة المشطشة شتاءً، أو يخطفها في نزهة نيلية بمركب شراعي يستمعان فيه معاً إلى أغان السّت وفنجان القهوة على السبرتاية، ثم منحها القدر ابتسامة وردية حين زارها جعفر راجياً موافقتها على الانتقال إلى حي المهندسين للسكنى مع ابن شقيقتها، كان ذلك في صيف ٢٠٠٤م حين قرر جعفر نقل وحيدته إلى القاهرة علّه يحصل على الثانوية العامة بمجموع يؤهله للالتحاق بالهندسة..

لم تتردد الخالة الطيبة في قبول عرض زوج شقيقتها، فكم من مرة تمت أن ينتقل سليم للعيش معها حيث تقطن، هاهي الفرصة تأتيها حتى عتبتها ليطلب منها جعفر ذلك بنفسه، وهكذا انتقلت «سهام» إلى المهندسين لتسكن شقة أنيقة رحبة ولتبتعد ولو لفترة عن شبرا وروض الفرج، فربّما أغرى ذاك الإنتقال فؤاداً فيأتي ساعياً للعيش



معها في المهندسين، لكنه لم يفعل، فراحت تُغرق نفسها بحب سليم وتفصيله، تستظل بظله منتظرة عودة فؤادها الغائب عنها!!

كان سليم أقرب إليها من فؤاد، أكثر رفقاً بها، وأكثر ودًا لها، لكن قلبها ظلَّ يتمنى فؤادًا وينتظره، فجاءت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م لتقضي على الأخضر واليابس، سقط ابن عمرها مع مَنْ سقطوا خلال أحداث «جمعة الغضب»، الضحية فؤاد والجاني قد يكون هذا أو ذاك، لم يكن هناك وجه للمقارنة بين ما تمتته وما حصلت عليه، ولولا قرب «سليم» منها وحمايته لها من اكتئاب شديد أصابها لكانت فارقت الحياة حزنًا على ابنٍ تمت له الرضا ليرضى لكنه أبدًا لم يرض!!

أمّا «سليم» فقد نزل إلى ميدان التحرير برفقة ابن خالته ذي الطموح الجامح والرغبة المغرورة، اندمج في مظاهرات الثلاثاء الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١م كغيره من جموع الشباب استجابة لدعوات التظاهر التي انطلقت على مواقع التواصل الاجتماعي، نزل تعبيرًا عن غضبه وأمله ولم يكن هو كشخصٍ يطمح في أكثر من التعبير لكنه وفي اليومين التاليين قرّر ألا يستمر في المشاركة، إنه إندفاع محموم غير محمود العواقب، تحرّكه أياد عابثة، إنها ثورة لم تقصد إلا تحسين الأوضاع فإذا بها تنقلب على



رؤوس أهلها، أحلام كُتب عليها الموت قبل الميلاد... أرواح استحقت الأفضل فحصدتها الشر، وفي عَشية وضحاها أصبح يناير موجةً يركبها المتسلقون والطامعون والشرهون ويُحركها النهمون غير آسفين على ما قد يعقبها..

كانت حركة شعبية جميلة فقط في بداياتها، جميلة كأول كل البدايات، ثم طفق الطمع منها وفيها تفسى... فاحت رائحة المؤامرة العفنة وتسرب الشر هنا وهناك؛ فلم يجد شباب يناير حضناً يناغي أحلامهم الصغيرة الطافرة، مات الحلم وانتصرت قوى الشر، هكذا كانت قناعاته ولهذا انسحب مغلقاً قلبه على كل لحظات ضعفه وجنونه، قسوته وأحلامه..



ستة أشهر أعقت وفاة فؤاد، قابل بعدها «سليم» الأستاذ حمدي مصادفة على مقهى الصحافة في شبرا فالرجل من ساكنيها، تصافحا وطلب الرجل التحدث معه لأمر هام، علم منه أن زوجته قد توفاه الله منذ عامين وأنه قبل وفاتها كان قد زوّج كريمتهما الوحيدة التي لحقت بعريسها في الغردقة حيث يعمل، وهما الرجل قد صار وحيداً واختفى تماماً من حياته كل ما قد يمنع زواجه من السيدة «سهام»، أقسم أنه يحبها وقد استمر يحبها



بنفس القوة والثبات لسنوات ويعتبر قبولها الزواج منه ميلاداً جديداً له، لعلها بهذه الصلة تطرح عن نفسها الأحزان والأعباء وتنطلق حرة من قيود ألم وذكرى تحيط بها من كل حذب، اقتنع سليم بموقف الرجل ومنطقه ووعدته أن يستمر يحاول ويحاول حتى يحقق له مراده ويزف إليه خالته الطيبة عروساً، وما أحلاها!. أمر واحد طلبه سليم من الأستاذ حمدي، وهو أن لا يستسلم لرفضها ويظل صابراً عليها مثابراً من أجلها..

جلس سليم في الشرفة بجوار خالته التي أكلها الحزن فصارت هزيلة، بارزة عظام الظهر والترقوة، نظرت إليه وقالت متسائلة: مالك؟ فيه إيه عايز تقولهلولي؟

: لو طلبت منك طلب تعملهلولي يا خالتي؟

قالت بتلقائية: أنت تؤمر يا قلب خالتك مش تطلب.

: اتجوزي استاذ حمدي لو بتحبيني وبتثقي في رأيي.

: اتجوز؟ اتجوز إزاي في السن ده؟ ده أنا اتكسف أوري الناس

وشي بعد كده!

واصل سليم الكلام قبل أن تقطع خالته الحديث وتُحرّم عليه الخوض فيه ثانية، يريد لها أن تسعد، أن تفرح، باختصار يريد لها أن تحيا من جديد، فأردف مازحاً:



سن ايه يا سوسو اللي بتكلمي عليه؟ إنت لسه في عزك يا قمر، عارفة لما بأنججك في الشارع ونمشي سوا، الناس بتفتكرك خطيبي، ده إنت موزة المُرزي يا سوسو.. عايز أحضر فرحك وأزفك بالعربية يا قلب سليم من جوا..

كانت حزينه، قلقه وحائرة، خوفها من الوحدة يخنقها، فلا بد أن سليم سيفارقها يوماً إلى شؤونه الخاصة وما أكثرها، تمت لو استطاعت الرفض لكن لا يمكنها أن تتجاهل مرارة حياتها وسخفها وفراغها وطول ساعات يومها وسهادها، تعرف أنها في الواحدة والخمسين لكنها إلى الآن تخشى المبيت بمفردها، تكره وقفة المطبخ لتطهو الطعام ثم تتناوله وحيدة، صارت تخاف الوحدة وتكرهها وكأنها صارت عاجزة..

وفي ٣٠ سبتمبر ٢٠١١م راحت سهام في سبات عميق إلى جوار حمدي على أن يسافرا في يومهما التالي إلى الإسكندرية فما أروعها في فصل الشتاء، فقد حجز لهما «سليم» غرفة فخمة في فندق المنتزه احتفالاً بزفافهما السعيد على أن يراهما فيما بعد ويتناولون جميعاً غدوة سمك وجمبري وشوربة سي فود ترم العضم..

طابت حياة سهام وصارت تسير سلسلة، هادئة، وطبيعية، تحس إعجاباً وتقديراً لما يشملها به حمدي من حب ومودة عطوفة،



وما يعاملها به من رأفة وصبر، أضحى قلبها يلين له وإن لم تتلهف عليه، تحن إليه وإن لم تُصرِّح له، إلا أنها وبشرته الطيبة معها وبحنانه عليها تناست تمامًا ما كان من أمر تجربة زواجها الأولى الصادمة وحمدت ربها على نعمة النسيان حين استقر حبها لرجل من نوع آخر في قلبها الظمآن، حين أحبتَّ مَنْ جفف نزيف حرمانها بحنانه، حين أحبتَّ حمدي الذي طالما تمنى أن يقتلع ضلعًا من أضلع سعادته ليزرعه في صدرها كَلِّمًا ضاق.. «ياله من عوض»، جملة كررتها كثيرًا في سجودها شاكرة، حامدة ربها، مُقِرّة بنعمته..

وفي صيف عام ٢٠١٥م ولسبب غير معلوم طلبت «رحاب» الطلاق من عصام وأصرّت عليه وباءت كل محاولاته لاسترضائها بالفشل، اصطحبت «عصام الصغير» وسافرت إلى أهلها في دمياط رافضة لأي صلح وتوفيت والدتها أثناء وجودها هناك، فبقيت بالدار لتسلم قطعة أرضٍ ورثتها عن أمها، شاركت خالها وأقامت على ميراثها مزرعة حديثة وزريرة لتسمين العجول والبهائم ومنحلاً للعسل، ازداد استياء «عصام» منها وزاره همٌّ وحزنٌ لموقفها المتشدد منه، الرافض لعشرته فجأة دون سبب جدي يُذكر، فطلّقها بهدوء وحاول ضم ولدهما إليه فلم يفلح، لقد تمسّك الولد بأمه وبأهلها وبالبقاء جانبها، فلم يُنازعها عصام وآثر السلامة، انزوى في بيته لا يبرحه إلا نادرًا خاصة بعد



أن هاجمت عينيه المياه البيضاء وضاعت إحداهما تماماً، فباع «الميني ماركت» الخاص به وعاش غير آسف على شيء في حياته سوى ما اقترفه في حق سهام حينما تنمرّد عليها وعلى تضحيتها من أجله لسنوات، وأخيراً مات عصام في حادث بشع، حين دلف لَصٍّ إلى شقته ليلاً وشرع يُفتش في دولابه عن تحويشة العمر وثمان بيع الميني ماركت، فالعجوز لا يخرج إلا نادراً ولا بد أنه يحتفظ بمبلغ لا بأس به في البيت ليُصَرِّف أموره، استفاق «عصام» على صوت أحدثه ارتطام اللص بكرسي التسريحة، ولأن نظره قد ضعُف وبالكاد يرى الأشياء، صاح رافعاً صوته، مستجيراً بالجيران؛ فهاجمه اللص وطعنه ثلاثة عشر طعنة غائرة في الصدر والبطن، فارق على إثرها الحياة، غارقاً في بركة من الدماء، ثم دُفِن في مدافن خيرية تابعة لوزارة الأوقاف بمعرفة أحد الجيران.

بكته سهام، لا لشيء سوى لفرط نقاء سريرتها ورقّة قلبها، أحزنتها ميتته على هذا النحو، ميتة لم يعرف بها أحد حتى فاحت رائحة بشعة تنّنة من الشقة، فأبلغ الجيران قسم الشرطة الذي حضر ليكسر باب الشقة ليُفاجئ الجميع بذلك المنظر البشع..

قدَّر «حمدي» مشاعرها واحترمها وسافر بها لآداء العمرة وزيارة الأراضي المقدسة حتى يتسنى لهما أداء فريضة الحج، وفي الجمعة ١١ سبتمبر ٢٠١٥م وقعت حادثة سقوط آلة رافعة في الحرم



المكي في مشروع توسعة المسجد، كانت «سهام» وزوجها المحب «حمدي» من ضمن المائة وثمانية قتيل الذين شرفوا بالإستشهاد في أطهر بقاع الأرض، تواصلت السفارة المصرية مع شقيقتها «هيام» لتسلم الجثمان، فاستشارت زوجها فلم يُحرها جواباً؛ فهاتف «سليم» تسأله التصرف، فقد كبر عدلي في العمر وصار حديثه مقتضباً، يخشى اتخاذ قرار في أي شيء وكل شيء بعدما هجره ابنه إلى أمريكا متزوجاً من عجوز شمطاء ليدرك الجنسية، تبعته أخته بعدها بعامين وخت الدار عليه هو وزوجته، يتناغشان، يتشاغبان صباح مساء ثم أصابته المرارة فتخلص منها، تبعها تدهور عام في صحته فأصبح لا يغادر البيت إلا ليتسلم معاشه يعود بعدها إلى غية الحمام خاصته ويقضي ساعات يومه بين طواره على سطح البيت.. وضعت «هيام» أمر جثمانها توأمتها وزوجها على عاتق سليم، الذي اتخذ قراراً بدفن خالته الطيبة في أطهر البقاع، في مكة.. تذكر حديثاً عابراً دار بينهما في أحد الأيام، بدايته حين سأله «سهام» أن يرافقها لزيارة قبر «إلهام» فقد زارتها الأخيرة في المنام، كما أن الشوق نحو شقيقتها قد استوحش بها، ورغم إصابة عينيها الجميلتين بالتهاب مؤقت ناتج عن حساسية مفرطة لديها ضد حبوب اللقاح التي ينشط انتقالها في الربيع إلا أن «سليم» وافقها راضياً مرحباً، فيا أحب ما تسأله خالته وما أقرب به إلى قلبه!!



فأي عذاب يُقارن بعذاب شوقٍ إلى مَنْ يستوطن القلب ويغيب عن العين، وهناك أمام قبر الحبيبة «إلهام» بعدما انتهت الزيارة، وبدون سابق إنذار التفتت إليه سهام قائلة: حلمت إمبراح إنني مُت في الحرم. انقبض قلب سليم ممّا قالته خالته خاصة وهما يقفان في المدافن، فالتفت إليها يقول: ليه كده يا خالتي، إيه الكلام الوحش ده؟، هتقفليني من الزيارة يا سوسو.

فابتسمت ابتسامة خفيفة تقاوم بها ارتجافة إصابتها واستدركت قائلة: تعرف يا سليم الحاجة الوحيدة اللي كسبتها من الفترة اللي عشتها في السعودية واللي مقدرش عصام ياخذها مني إيه؟ فأجاب سليم بفضول: إيه يا سوسو يا قمر إنت؟

: العُمَرتين اللي عملتهم لما رُحت في أول أجازة ليا مكة مع زميلة ليا وجوزها، الأجازة كانت أسبوع قضيناه كله هناك، عملت عمرتين ليا وعمرة لأبويا وعمرة لأمي وعمرة لإلهام الله يرحمهم كلهم ويجمعني بيهم على خير.

: يرحمهم آه، يارب اللهم آمين، لكن يجمعك بيهم لأ، عازية تسيبيني إنت كمان يا خالتي، ليه كده؟ ده أنا بحبك. الموت علينا حق يابن أختي، حق وشر لا بد منه، طال العمر وألا قصر.



: طيّب بلاش السيرة دي وحياتك.

: ماشي يا سولي، بس قبل ما أسكت عايزة أقولك إن مكة وحشتني جدًّا ونفسي أعمل عمرة تاني... ثم أمسكت بيده ووضعت المصحف في راحة يده قائلة: أمانة عليك يا سليم لو مُت وعرفت تدفني هناك ادفني يا ابن أغلى الناس.

وعليه تواصل «سليم» عن طريق السفارة مع السلطات السعودية مخبراً إياهم أنه لا رغبة لأهل المتوفية «سهام سعيد محبوب» وزوجها «حمدي محمود سليمان» في عودة الجثمانين إلى القاهرة، وقد تم دفن الشهيدین معاً في «مدافن الحجون» في مكة لتتحقق نبوءة سهام بعد سنوات، أراد «سليم» أن يكمل مراسم النبوءة؛ فقد صدقت، أنزل الله عليها شآبيب رحمته وغمرها بعفوه، ودُفِنَت تلك الطيبة حيث تمنَّت..



كانت سهام الوحيدة التي أخبرها عن «نؤارة» وعن طبيعة علاقته بها، كيف عرفها وكيف صار مشغولاً بها، مشدوداً إليها دون أن يستطيع تحديد مشاعره نحوها ولا حصرها وتعريفها في إطار محدد، وقبل أن تطلب نؤارة من سليم الزواج، أشارت عليه سهام أن يتزوجها، فنؤارة امرأة خُذلت كثيراً وسألته ألا يخذلها مجدداً... فما أفضع الخذلان وما أشد وجعه!



دعتهما ذات مساء على العشاء في شقتها في روض الفرج، فرأت نؤارة امرأة لطيفة، مندفة نوعاً، ثرثرة إلى حد ما إذا تعلّق الأمر بسليم، لكنّها لم تنكر أنّها طيبة، جميلة، ذات حضور ودعة... ثم دعتهما مرة أخرى بعد زواجهما من الأستاذ حمدي، حينها رأت سهام نؤارة كائنًا عفويًا منطلقًا محبًا للحياة، لا لطبيعة فيها بل لأنها تحب سليم حتى النخاع..

وفي المرة الثانية، كانت ليلة عيد الفطر عام ٢٠١٢م وقفت سهام منشغلة بطهو «الفريكة»^(١) التي يفضلها سليم ولا أحد غيرها يطهوها له، دلفت نؤارة إليها ترجوها أن تقبل مساعدتها، على الأقل ستُعد طبق السلطة الكبير الذي طلبه «سولي»، طال الحديث بينهما في المطبخ عن أمور شتى كلّها بعنوان واحد رئيسي؛ «سليم جعفر أبو ستين»، ماذا يحب؟ ماذا يكره؟ كيف كانت طفولته، مَنْ هي ونيسة التي يحادثها بين الحين والحين، ولِمَا استدعته يوم عقد قرانها على الأستاذ «كمال»، لِمَا سألته أن يكون شاهداً على قسيمة زواجهما؟ وهل هي فعلاً ليست أكثر من حفيدة «الست زمردة» خادمة جدته وصديقة الطفولة التي تربت معه؟ وما طبيعة العلاقة التي تربط بين سليم وبنت عمه روعة؟ وهل يمكن للحاج جعفر

(١) برام أرز وفريك محشو بقطع الدجاج أو البط يطهو بالشوربة ويُزين بالصنوبر أو اللوز المحمص.



أن يتدخل في اختيار سليم لمن يتزوجها؟ تحدّثت نواره كثيرًا عن سليم واستمعت أكثر لحكايات خالته عنه، ثم سألتها في اهتمام كيف تُعدّ الفريكة حتى يتشنى لها طهوها لسليم إذا ما اشتهاها!! وفي وقت لاحق تحدّثت سهام مع سليم عن نؤارة، أخبرته أنه يحتل قلبها ويلوّن أيامها، أنثى ممتلئة به، متخمة بشغفٍ تحمله له بين نياط قلبها، كل موهبتها أنها لا تجيد سوى الحديث عنه والتلذذ بالنظر إليه؛ تشعر بالانتصار إذا تلاقت عيناها بعينيه الزرقاوتين صدفة!!

لكن عليه أن يحترس ويفكر ويخطط مليًا فلم يكن جعفر ليقبل بنؤارة زوجة لوحيدته وخليفته وحامل رايته، عليه أن يحارب معركته ضد رغبة جعفر ورؤيته وقراراته، يواجهه وحيدًا دون أن يُقحم «نوري» في المعركة..

تفهم جيدًا أن الحاج الكبير متحمس كل الحماس لرغبة زرعته فيها المرحومة رحمة من قبل، زواج سليم بروعة ليست مجرد وسوسة ألقته رحمة في عقل أخيها وقلبه، لكنّها غاية وهدف، أمل ورجاء، حلم يجوب سماء آل ستين على بساط الخيال سيحققه سليم، حلم بقاء زرعته رحمة في جنبات روعة وتحت أوردتها تركته يتنفس، حلم سيساعدها جعفر بكل قوته على تحقيقه بعد أن أوشكت شجرة عمره أن تتجمد!!



رحمة أرادت روعة لسليم...
 وسهام تسأله أن ينتصر لنوارة داخله...
 وجعفر لن يقف على الحيادة!
 بينما ماتت أوراق سليم دون أن تزهر في حديقة أخرى
 ثالثة، تدعى ميرال!!



سهام امرأة كانت تقطع أميال عمرها وهي ملطخة بدماء
 الفراغ، ماتت كثيرًا في غربتها وماتت أكثر حين لم يعد لها مكان في
 أعمار من ماتت لأجلهم، ولو أنها كانت شاعرة لكتبت عشرات
 القصائد ومئات الأبيات لتحتج على جفاف أعوام عمرها عامًا
 بعد عام... أحبها سليم بإخلاص وهي نفسها ليكون بقرها وفي
 خدمتها، عزَّ عليه أن يراها عجوزًا في سنوات كثيرة كان يفترض
 أن تحيا فيها خالته وهي غضة، يانعة الزهر..

تنتمي له ويتتمي لها ضمن وثيقة حب وانتماء، شوق وفقد.
 لم ينس عينها يومًا حين كانت تطلب منه أن يحضر لها فؤادًا
 لتراه، فقد عاشت لسنوات طويلة تسد فاتورة غياب لم تختره،
 غياب فرض عليها وكأنها مجرمة تُعاقب..

أزمتها تلخّصت في أن الذين بهتوا في عينها كان يجب أن



ييهتوا بل يتلاشوا من زمن فاتها، فقد كان لمعانهم طبقة صنعتها هي بتوهمها، وما أن لمستهم المواقف حتى صدأت معادهم، فالبشر يبرقون والمواقف وحدها تكشفهم وتختبر حقيقتهم..

لم يرها سليم أبداً امرأة سطحية أو طائشة أو مادية، فاقدة للبصيرة، كانت في رأيه امرأة عذبة هادئة، طيبة القلب، يضاء السريرة، تغلب التضحية طبعها حين يتعلق الأمر بمن تحبهم، تنتصر لمصلحتهم على مصلحتها وتؤثرهم على نفسها ولو كان بها خصاصة، ربما لم تنهأ في سنوات زواجها بعصام؛ فقد حملت عنه ما تنوء بحمله الجبال، حُرمت أمومتها وبُترت علاقتها بوحيدها رغماً عنها، ومع عظيم مصابها ذاك إلا أنها ظلت تحاول أن تقتنص السعادة من فك المعاناة، تخشى أن تتفاقم الخيبة داخلها ويتعاضم الخذلان فيقهرها الحزن ويركبها الهم والغم..

فجاءت نهايتها مُسالمة مثلها تماماً فأدركت في موتها أمنية سألت الله أن يمنحها إياها في حياتها، فاستجاب لها سبحانه..

كانت امرأة كالفراشة تُحلق بالقلب، تضم حزنه وحزنها ثم تطير لتتجاوز أزقة الألم عبر ابتسامتها الدافئة..





(٥)

شهد جعفر عبد القادر أبو ستين

(المولودة في ١٩ يونيو ١٩٦١ م)

في عام ١٩٦٠م تزوّجت أمها «شهربان خانوم» كما تتزوج الفتيات الصغيرات في عصرها آنذاك، لم تكن تعرف زوجها «جعفر أبو ستين» أو قابلته من قبل، كل ما عرفته عنه أنه شاب صعيدي ذو سعة وجاه رغم سنوات عمره التي لا تتجاوز العشرين، إلا أنّها وقبل عقد القران حظيت برؤيته لمرة واحدة في غرفة الصالون ولدقائقٍ عشر فقط، تزوجته بعدها طامعة في أن يُطوقها بذراعيه فلا تكاد تفلت من بينهما، تندس بجواره ليلاً في نفس الفراش فيضمهما وتضمه يتحدان ويلتحمان ويتناغمان معاً لتبدأ حياتها معه كل يوم من جديد وكأنها بدأت للتو، فإذا بها تجد نفسها تعيش معه كعيشة عموم النساء مع رجالهن دون اختلاف يُذكر، فزهدت موطنه وأهله منذ زواجها به، ثمّ اتسع زُهداها ليشمله هو أيضاً، لكنّها استسلمت لأمرها فكيف لفتاة مثلها في السادسة عشر من عمرها تحمل ابنتها رضيعة على كتفها أن تقاوم وضعها وترحف ضد التيار؟



تنخرط عائلتها من التركمان الذين جاءوا إلى مصر منذ عصر الدولة «الطولونية» عام ٨٦٨ ميلادية كفرسان وجنود مُستجلبين من أجل المشاركة في ولايه بعض المناطق التابعة لخلافة الدولة العباسية وقتها. فكانت الدولة تستعين بهم في تسيير أمورها وقيادة جيوشها. وبعد انتهاء الدولة الأيوبية بدأ حكم «المماليك الترك» فتزايد وفود العائلات التركية العثمانية إلى مصر وخاصة بعد الفتح العثماني ومن أشهر هذه العائلات عائلة «درويش يلماز» والتي تنحدر منها العروس «شهربان» وهي من أصول العائلة المالكة..

تعرف والدها «نوزت درويش» على الحاج «عبد القادر» التاجر الكبير عميد آل أبو ستين حين أراد الطرفان توسيع تجارتها من الأخشاب والزجاج ليقتفيا معاً في مواجهة عائلة «الكومي» والتي تسيطر منذ أمد بعيد على هذا النوع من التجارة، وخاصة بعد فشل آل أبو ستين في مصاهرة آل كومي نظراً لعجرفتهم المبالغ فيها واقتصارهم في مسألة النسب على بعضهم البعض؛ فرأى الطرفان ضرورة الامتزاج والانصهار للوقوف بقوة على قمة هرم تلك التجارة والهيمنة على السوق، وأرادا تقوية هذه الرابطة والاندماج بعلاقة مصاهرة لتعزيز الترابط وتعميق التواصل، فتقدم «جعفر» للزواج من «شهربان» ذات الخمسة عشر عاماً يحركه إيمانٌ كامل



برأي والده ويُقيده التزامٌ مطلق بتنفيذ واجبٍ لرغبة أبيه وما عقد عليه الإتفاق مع شريكه التركي دون أن يلتفت هو ذاته إلى ما يريد وما يرغب، فرغبات والده أمر لا يقبل المناقشة، وأحلامه وأوامر، يحبه جداً ويُجل كل معتقداته وينفذها عن قناعة وبإيثار متين..

تزوج «جعفر» من «شهربان» في نفس العام الذي تزوجت فيه «رحمة» من «مسعد الزهراوي»، دخل جعفر بعروسه في القاهرة لدى أسرتها التركية التي كانت تسكن شارع قصر النيل في وسط البلد حيث تجارثهم الحاضرة في يد أبيها «السيد نوزت درويش»، ثم رحل بها إلى بلدته في سوهاج بعد شهر من الزفاف..

وفي عام ١٩٦١م وضعت له كريمة الأولى «شهد» والتي جاءتته تحمل كل ملامح وقسمات أمها الجميلة، عيناها في خضرة الزرع، وجهها مليح ملائكي ذو نمش أحمر يُضفي عليها إجلالاً وبهاء، أما شعرها فكان في لون خيوط الذهب..

ولكن أية حياة فارغة عاشتها شهربان في تلك الدار، إن ذلك الكائن الصغير الذي خرج منها هناك على سريرها في القاعة المخصصة لها حين شقّها الألم نصفين لم يمنعها من الوقوع في حب «سادن الوسيم»، ذاك الذي غاص فيها وغاصت فيه من قمة رأسها حتى أخمص قدميها حين ذهبت لزيارة جدّتها في اسطنبول



بعد إلحاح أقرب للرجاء صَبَّه والدها صَبًّا في أذن زوجها وحماها
ليسمحا لها بتلك السفرية وهي تحمل معها رضيعتها «شهد» لا
عمر لها في الدنيا سوى أربعين يومًا فقط..

وكان الدنيا تدخر لها من السعادة نصيبًا آخر، إذا بشاب
وسيم يخترق عالمها الصامت، إنه على درجة عالية من الثقافة
والرقي المصحوبان بالهندام واللباقة، السيد «سادن آيدمير»، طيار
شاب وسيم، جار جدتها العجوز، أحبَّها بغرام عميق وتلاقت
أرواحهما أثناء غيابها الذي طال لرفقة جدتها ورعايتها، فاتفقت
القلوب وتوافقت الرغبات ووجدت «شهربان» في «سادن» كل
ما كانت تحلم به، فاستسلمت لحبه وسأيرته دون ابتذال، راحت
تسأل: كيف وصلت إلى هنا؟ مَنْ أنا قبل أن أَلْقَاكَ؟!

أكان بوسعها أن تقاوم؟ أن تمتنع؟ أكانت تملك القوة
والشجاعة في ألا تستسلم؟ لا، ليس لشيء سوى أنها هي أيضًا وقعت
في غرامه، فالحياة بدأت للتو وحسبها ما فقدته من عمرها الأخضر
مع ذاك الصعيدي الصامت معظم الوقت، قصَّت عليه أمرها كله
رغم ضجيج يملؤ نفسها وتردد يسكن قلبها، إلا أن همسات الحب
القادمة من خليج البسفور شقَّت طريقها بقوة نحو قلبيهما، فتعاهدا
معًا على الزواج حين تحصل على طلاقها من زوجها الكدير لتعود



مسرعة تحملها أجنحة الحمام الزاجل إلى حبيبها «سادن» الذي ملك عليها قلبها لينعما معاً بمستقبل زاهٍ موفور السعادة..

كان «جعفر» مفرط القسوة معها حين طلبت الطلاق، أراد أسباباً يقتنع هو بها، فكل ما تقوله عن إختلاف الطبع والذوق هراء لا معنى ولا قيمة له... كانت تتألم ألماً أكبر وأوجع من ألم امرأة يُغالبها زوجها على أن تُعاشره وهي كارهة، ما أشد خُبث الحياة وأكثرها احتيالاً، أيمن لا امرأة صغيرة محرومة من الحب والحنان أن تقاوم الحب وروعته وبهجته وزهاء ألوانه؟ كيف يمكنها أن تهرب من ضياء الشمس لتحيا في ركود الظلام حتى الموت؟ إنه «العُهر» الذي يوجب عليها أن تمنح جسدها كارهة كل ليلة إلى رجل ليعبث به دون أن يستشعر حاجة قلبها، ثم تحظى في الصباح بما تمنحه لها أسرته من فُتات الحياة ولذتها، زوج يحاورها بلغة لا تفهمها بينما تربكه لغتها العربية المكسرة؛ يضحك ساخراً كلما تلعثت الكلمات على شفثتها في محاولة لاستجماع الكلمة مبتغاه؛ فيحمر وجهها غضباً، فيخفف من ضحكته قائلاً: إنت جميلة لكنك بلا روح، تمثال باهر الجمال، لكنه تمثال شمع!

يتهمها بفضاظة أنَّها فارغة الروح أول النهار ثم يضاجعها بنهم آخره!!



خمسة شهور وأكثر و«شهربان» تستमित لتحصل على حريتها وجعفر يُصر على معرفة دوافعها الحقيقية وأسبابها لتأتي بمثل هذا الطلب الفاجر، فما زالت زوجته عروسًا وما زالت ابنته منها رضيعة في مهدها لا حول لها ولا قوة، تلتزم شهربان الصمت وتلوذ بالفرار إلى حجرتها ولا تفلح معها محاولات آمنة لاحتوائها ولا رجاءات رحمة لها بأن تفتح باب قاعتها لتزود ببعض الطعام وليتحدثا معًا ولو لبعض الوقت كلما آتت رحمة لزيارة البيت الكبير..

أيام الانتظار مُعذبة، مُفزعة، كم تأوهت وكم صرخت كلما أرغمها جعفر على ما لا تطيق، فبينما يلتهمها جعفر متلذذًا ترى وجه «سادن» وهو يُقبل يدها في كل دقيقة فتنتفض وتسرع مبتعدة عن جعفر، تجاهد لتُخلّص نفسها وجسدها من بين ذراعيه، والرجل يجهل ما يدور داخلها ولا يرى منها سوى صد ونفور يترجمه بغروره ومكابرتة إلى دلالٍ زائد وتمنّع مصطنع لن يقضي عليه سوى بمزيدٍ من التجبر والقوة ليكسر لها بدل الضلع ضلعين وثلاث حتى تركز له وتركع وتستكين تحت جناحه كما تفعل الزوجات مع أزواجهن من حوله، يشفع لها عنده صغر سنّها وحداثة عهدها بالزواج وشؤونه!

كيف لها أن تواجه طوفان مشاعر متأججة مكبوتة داخلها، لا قدرة لها على المراوغة أكثر؛ فأرسلت رسالةً إلى عشيقها قالت



فيها: «ما عدت أقوى على الاضطبار، لا أحدهنا يشعربي ولا جدوى من انتظار الفرج، أنا هنا اقترب من الموت، فهل لك أن تدركني».. أيام متكررة من العذاب والانتظار، ثم حدث أن أفضت شهربان بشيء من ضيقها وجزعها إلى حماها الرؤوم أمنة، بالطبع لم تخبرها أمر «سادن» لكنها فقط بثت إليها كربها ولوعتها وشعورها بالاختناق هنا في جو البلدة التي لم تعتده وهي ربيبة الأستانه والقاهرة والفرق كبير بين العاصمة وهذه الضاحية التي تسكنها الآن، كما أن آلاما شديدة باتت تسكن صدرها وسعالها صار يشتد يوما بعد يوم، أقنعت النابلسية الطيبة ولدها «جعفر» بضرورة عرض زوجته الشابة على طبيب متخصص في الأمراض الصدرية وليتركها لدى أسرته في القاهرة لبعض الوقت فربما قربها من والدتها يساعدها على تجاوز أزمة مرضها ويُعجل لها بالشفاء..

وفي القاهرة تلقت «شهربان» رسالة انتظرتها كما ينتظر الصائم مدفع الافطار: «تمالكي نفسك حبيتي حتى لا تفضحين أمرك، حاولي السيطرة على ذاتك، أعلم أنك قادرة وتأكدي أنك لي في النهاية، فأنا أعمل كل ما في وسعي وأرتب ظروفي حتى تجمعنا الأيام القليلة القادمة في لقاء لا فراق بعده، فتماسكي شهربان قدر استطاعتك، تماسكي من أجلي»..



لم تعد العروس من القاهرة واختفت «شهربان درويش» بعدها من حياة «جعفر» ورحلت نهائياً واستأنفت حياتها كما أرادت دون اكتراث بالفضيحة وما سببته له ولأهلها من تبعات، لم تحصل على الطلاق الذي راوغها جعفر كثيراً فيه، لم تعد تهتم، رحلت حاملة معها ابنتها الوحيدة، ثمرتها الحمراء المدورة، الحلوة التي ما كان يمكنها أبداً أن ترحل دونها، «شهد» هي الشيء الوحيد الذي حرصت «شهربان» على حمله معها من مصر والاحتفاظ به دون غيره إلى الأبد..

هزّة مدويةٌ بل هو زلزالٌ قوي عصف بعلاقة أبو ستين بال دراويش، فمجرد الإقتراب ولو قليلاً من المشهد كان كافياً ليُصيب الجميع بالغثيان، انفضت التجارة وراح كل منهما في طريق لا يتقاطع مع الآخر..

لم يتوصل أحد إلى مكان العروس الفارة ولم يُعرف لها طريقٌ لا في القاهرة ولا في اسطنبول أيضاً، ولفترة ظل الأمر مبهماً حتى كان عام ١٩٦٣م حين وصلت إلى جعفر معلومة كاملة عن «شهربان» عن طريق أحد رموز النظام الذي تعرّف عليه بالصدفة، بالطبع كانت للرجل علاقات واسعة وسلطات أوسع خوّلته إلى التوصل إلى ما أراده «جعفر» لقد استقرت زوجته الحسناء مع



سادن في مدينة «طرابزون» الواقعة على ساحل البحر الأسود، فالمدينة سياحية مزدحمة وتستقطب آلاف الزوار سنوياً من كل أنحاء العالم ومن اليسير الاختباء بها والتلاحم مع سكانها وزوارها دون ريب، وما أن وصلت تلك المعلومة أيضاً إلى عائلة «درويش» في تركيا آنذاك حتّى رحل سادن مجدداً بشهربان وابنتها إلى وجهة غير معلومة عُرف فيما بعد أنها «المانيا» حيث استقرا هناك وتزوجا، فلم تُظهر شهربان للسلطات هناك أنّها متزوجة من «جعفر» ولم تكن أبداً لتفعل، فلقد حصلت على جواز سفر جديد وهوية جديدة، أسقطت بإرادتها زواجها الذي رفضته وزهدته، أسقطته من سجلات عمرها وأيامها وتزوجت بمن أحبته، ربّما لم يكونا أيضاً في حاجة لورقة الزواج ليظلاً معاً العمر كله لكنّها كانت رغبة «سادن» فوافقته شهربان على الفور وجدّدت من أجله سجل حياتها ومحت منه كل ما يربطها بماضي رفضته، كان الرجل كريماً معها وكيف لا؟ وهو محب عاشق منحته لها الأيام في غفلة من القيود والمنطق والعُرف، وجود بغرامه وحنانه وعطفه على سيدة أحلامه والذي لم يكن أبداً ليدعها تسقط منه تحت عجلات قطار الزمن، لقد استصدر لها هوية جديدة باسم جديد وصفةً أجدد، لقد صارت زوجته وصارت ابنتها ابنته وبات لا ينفك ولا ينقطع



عن حمايتهما والفرار بهما من وجهة إلى أخرى كلما استشعر خطراً يُفِيد بقرب التوصل إليهما!

أمّا «جعفر» فقد آلمه فرار زوجته أشد الألم وأبكاها رحيلها مراراً، لا حباً لها ولا رغبةً فيها، بل كان يبكي نفسه وينعي حظّه بكاءً مكتوماً لا يصل به إلى شيء، حَقَدَ على شهربان وكرهها، لقد أهانتها، لقد كسرتة وحطّمت تمثالها، وصمت اسمه بالعار، جعلته أضحوكة البلدة وإن أخفى الضاحكون ضحكاتهم وتهامسوا بها سرّاً خشية بطش آل ستين بهم، لقد حرّمته لذة أن يكون رجلاً، وياله من حرمان كبير!

حاولت «آمنة» كثيراً في تلك الأيام أن تستعيد ولدها وتعيد إليه اتزانها، ماذا لو أصابه لا قدر الله مرض؟ لقد قهرته عروسه التركية حين ركبت قطاراً غير قطاره، لامت آمنة نفسها كثيراً على رجاءاتها له أن يُرسل «شهربان» إلى القاهرة، لقد استخدمتها خنجراً أجهزت به على رجولة ابنها البكري، كيف جرّوت على استغلال عاطفتها نحوها لتحرّكها كما تشاء وتجعلها جزءاً من خطة الفرار؟! لِمَا اختارت شهربان الصعب وغاصت فيه، إنَّها طريق وعرة محفوفة بالمخاطر ولكن لا حيلة لجعفر سوى الانتظار المحموم ولعلّه يكون صبوراً، قادراً عليه ولتُدركه رحمة من المولى ترجوها له أمه الجميلة «آمنة النابلسي»..



منذ ذلك الحين كانت حياة جعفر حياة فارغة، طويلة رغم حداثة عمره، يكره النساء بل أنه يخشاهن حتى طَلَّت عليه شمس «إلهام» ليتزوجها بعد عشرين عامًا من الجفاف والزهد في الحريم وسيرتهم ليصعد معها ثانية سُلم السراي حيث قاعته الكبيرة ذات الأثاث المذهب الفاخر «قاعة العرسان» ليستأنف طريقه بعد أن خبي ظله لسنواتٍ ردم فيها على نفسه..

وفي سبتمبر من عام ١٩٧٠م توفي جمال عبد الناصر والذي آمن به الحاج عبد القادر إيمانًا عميقًا وكأمثاله كثيرون رأوا فيه زعيمًا وأيقونة للحلم العربي، وما أشد وأعماق حزنه على رئيس أحبه حتى أنه لحق به بعد أسبوعين فقط، وهكذا أصبح جعفر رسميًا رأس آلِه وعميد عائلته، صاروا لا يقطعون رأيًا ولا يطحنون طحينًا دون مشورته ورضاه..



مرَّت السنون تركلها الشهور وأمور شهربان وسادن والصغيرة شهد على خير ما يُرام، أسرة صغيرة لاتعرف للحزن أو للضجر معنى حتى كان صيف ١٩٧٥م حين انتزع الموت «شهربان» أمام عيني وحيدتها وزوجها في حادث سير بشع سقطت على أثره جثة هامدة لا حراك فيها، نظرة وداع خاطفة طَلَّت من عينيها نحوهما، نظرة تحمل الكثير من الكلام، والكثير من المعاني..



: لا أحد يستطيع اقتلاعها من قلوبنا، نحن نُحبها، وسنظل نُحبها مادُمنا أحياء.

كانت تلك الكلمات التي غمغم بها سادن وهو يحتضن الصغيرة «بَرْن» - شهد سابقاً - بعد عودتهما من دفن «أليف»، تلك المرأة الجميلة الساحرة التي خطفت قلبه منذ أربعة عشر عاماً، فأحسَّ نفسه قادراً على كل شيء يُقَرِّبه منها، كانت نظرتها تُشعل النار في عروقه، معها ومن أجلها كان قادراً على أن يُصارع، أن يُقاتل، أن يُحطم كل الأسوار، ففي حب شهربان، أقصد «أليف» كان «سادن» أبسل الرجال وأخلصهم!

لم تفتقد «بَرْن» شيئاً في عمرها كله كما افتقدت أمها الحنون، لكنَّها وبمجرد أن تلفحها رياح الفقد والوحشة تهرول مسرعةً إلى عيني والدها تطالعهما، تنظر إليهما بعمق وتغوص فيهما فتري والدتها هناك تبتسم، كانت تُقسم على ذلك، فيحتضنها سادن ليُحاصر همها ولوعتها وهو عاجز عن الكلام، فقلبه مُضنى من الألم..

أحبت «بَرْن» والدها حباً عميقاً وأحاطته برعايتها وحنانها فصارت وكأنَّها زوجته لا ابنته، تنظم له أموره وترتب له حاجاته، كانت ترى غموضاً في عينيه وكأنه يريد أن يفضي إليها بحديث خاص أو يخصَّها بسر عظيم لكنَّه سرعان ما كان يتدارك الأمر



فيُغلف حديثه بنبرة مازحة ويقول بالألمانية: دعينا نصنع بعض الحلوى يا حلوتي..

سنوات ثلاث أعقبت وفاة «أليف» فوجئت بعدها «برن» وقد استوت أنسة جميلة شديدة الشبة بأُمها الراحلة برغبة والدها «سادن» في الرحيل من «برلين»، لا ليست رغبة، إنه قرار اتخذه بجسارة وحزم، ولم تناقشه فيه كعادتها في كل أمر، نفذته برن وهي تستشعر دافعاً غريباً يحرك والدها نحو الرحيل وهو الذي لم يكن ليبرح بيتهم والذي يحمل كل ركن فيه ذكريات غالية كاللؤلؤ والمرجان، تلك الجدران كانت حاضرة شاهدة على أحلى سنوات في عمره كله، سنوات عاشها سعيداً وقلبه في صدر «أليف»..

إلى «كونستانس» رحلا واستقر بهما الحال في فيلا صغيرة أنيقة وانغمس «سادن» بكل جوارحه في العمل في مزرعة عنب اشتراها في مقره الجديد، انخرطت برن في عملها كمعلمة موسيقى في مدرسة لرياض الأطفال بينما تواصل دراسة الموسيقى في جامعتها، هدوءٌ ترافقه دعة يسيطران على المنزل الصغير حيث يستقر الأب مساءً بجوار المدفأة يقرأ كتاباً بينما تشغل ابنته بعزف بعض المقطوعات الموسيقية على البيانو ترافقهما روح «أليف» حاضرة تحلق حولهما فيشعران بالسلام..



ورغم مرور السنوات وتعاقبها إلا أن الرجل لم يجرؤ أبداً على إخبار فتاته بذلك السر الذي استقر عميقاً في جمجمته وقلبه، ولا استطاع أن يُجيبها على سؤال كرّره عليه مراراً: لِمَا انتقلوا إلى كونستانس منفصلين عن أرض امتد بها جذورهما مستقرين هنا بعيداً عن ماضيهما وذكرياتهما؟!!

لم يجرؤ أن يخبرها أنه رحل بها فاراً، صعد سلم الطائرة حيث لا عنوان، فقط لأن خبراً وصله أن الدراويش قد عرفوا مكانه مجدداً، لم يكن الخبر مؤكداً أو منفيّاً، مجرد الخبر كان كافياً ليُحرّكه بعيداً، ليست لديه أي رغبة لفقد «بَرْن» كما فقد «أليف»..



وفي شتاء قارس تعرّفت «بَرْن» إلى أحمد قاسم، طالب مصري انضم إلى جامعتها ليدرس الطب في كونستانس، شعرت بفضول يدفعها إلى معرفته والقرب منه، إنها بحاجة إلى أن تحدّثه بطريقة ما، طريقه أخرى لم تعرفها مع غيره، أدركه هو أيضاً ذاك الحب فلم يتردد لحظة وفي ذكرى ميلادها العشرين اقترب منها لعلّه يسمع منها ما تتوق نفسه إلى سماعه..

: أنا وحيدة، وحيدة، وحيدة جداً.. قالتها بالألمانية وقد تركت رأسها تسقط على ركبتيه وسط مروج خضراء في ليلة قمرية..



تحسّس رقبتها، رفع رأسها نحوه، امتدت أنامله تداعب شفتيها، كان يموت شوقاً إلى تقبيلها وهي أيضاً؛ فتركته يفعل..
 اقترب منها، فأحسّ برغبتها في أن تلتقي به بطريقةٍ ما، طريقه تكف بها عن أن تكون وحيدة، تمتزج به، فيتعمق اللقاء، وتكثف المشاعر، ويتصاعد الحوار، أحبّته براءة، وبلا تحفظ أو تخطيط، لذا حين شدّها إلى صدره، لم تتمنع ولم تشأ أن تفتعل التمنع، لامس كفه صدرها واشتعلت النيران في جسده، فكّ الأزارار العلوية لقميصها ودفن رأسه بين نهديهما، مرّرت أناملها الرقيقة في خصلات شعره المجعد بينما راح هو يُقبّلها برعونة، استرخت على المروج فتوسد رأسه صدرها، علت ابتسامتها تزين وجهها، استسلمت لإرادة الهوى، إنّها رغبتهما، إنّها بالفعل طرفاً مسؤولاً عمّا يدور بينهما، ليست دمية بريئة ولم تمنح ذاتها بمقابل غير الحب، والعشق..

وفي غمرة اللقاء، نظر إليها أحمد بعينين حاقدين قائلاً
 بالمانية ركيكة: لَمَّا إِنْتِ رخيصة إلى هذا الحد؟ كيف أثق بك بعد ذلك وأضمن إخلاصك؟

صدمتها كلماته وقذفت بها أفكاره إلى العراء، إلى الفراغ الرمادي، لمّلت ثيابها وهرعت تسأل أباهها: لماذا يكون الزيف هو ما يطالب به الرجل الشرقي امرأته؟ أي ميزة تلك التي يملكها ذاك الشرقي ليحاسبها على صدقها معه؟!



أَحَسَّتْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنَّ الْحَوَارِ قَدْ مَاتَ، فَلَا كَلِمَاتَ يُمَكِّنُ أَنْ تَضْمَدَ جِرَاحَهَا، أَسْرَعَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا وَصَفَعَتْ الْبَابَ خَلْفَهَا، سَمِعَهَا «سَادَن» تَنُّ فِي حَجَرِهَا أُنَيْنًا يَشْبَهُ عَوَاءَ ذُبَّةٍ صَغِيرَةٍ وَحِيدَةٍ فِي صَحْرَاءٍ شَاسِعَةٍ. لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى الْإِقْتِرَابِ مِنْهَا وَلَا ضَمِّهَا، حِينَهَا أَرَادَ أَنْ يَخْبِرَهَا حَقِيقَتَهَا، هِيَ أَيْضًا شَرْقِيَّةٌ، شَرْقِيَّةٌ جَدًّا بَلْ إِنَّهَا ذَاتَ لَحْمٍ وَدَمٍ صَعِيدِي رَغْمَ كُلِّ الْفِرَارِ وَرَغْمَ كُلِّ الْمَسَافَاتِ الَّتِي قَطَعَهَا سَادَنُ لِيَنْجُو بِهَا مِنْ صَعِيدِيَّتِهَا الَّتِي تَرْفُضُهَا فِي «أَحْمَدِ قَاسِمٍ» ابْنِ أَسِيوْطٍ..

مِنْذَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَادَتْ كُلُّ الْحَقَائِقِ لِتُطْفَوَ عَلَى السُّطْحِ وَتُفَرِّضَ نَفْسَهَا حُضُورًا وَأَلَمًا فِي عَقْلِ «سَادَنِ آيْدَمِيرٍ»، أَدْرَكَ أَنَّ الْحَقِيقَةَ هَرْمٌ كَبِيرٌ يَقِفُ خَلْفَ جِدْرَانِ الزَّمَنِ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَجَاهَلَهَا مَهْمَا حَاوَلَ.. رَاحَ يَفْكُرُ بِجَدِيدَةٍ، يَشُقُّ عَلَيْهِ إِخْبَارُ «بَرْنٍ» بِكُلِّ مَا كَانَ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِ أَكْثَرَ أَنْ يَتَجَاهَلَ الْأَمْرَ وَيُوَاصِلَ مَا بَدَأَهُ مِنْذَ عَشْرِينَ عَامًا، لَكِنْ إِصَابَتُهُ بِالزَّهَائِمِ حَسَمَتْ حَيْرَتَهُ، فَقَدْ لَاحَظَتْ عَلَيْهِ «بَرْنُ» فِي الْبَدَايَةِ فَقْدَانًا طَفِيفًا لِلذَّكْرَةِ مَعَ حَالَاتٍ مِنَ الْارْتِبَاكِ وَالتَّشْوِشِ تَصِيْبِهِ، فَيَنْسَى تَمَامًا أَيْنَ وَضَعَ مِفَاتِيحَهُ، هَلْ تَنَاوَلَ دَوَاءَ الضَّغْطِ فِي الصَّبَاحِ؟ هَلْ وَضَعَ طَعَامًا لِكَلْبِهِ أَمْ لَا؟ كُلُّهَا أُمُورٌ أَقْلَقَتْ الْفَتَاةَ فَأَصْرَّتْ عَلَى أَنْ يَزُورَ وَالِدُهَا طَبِيبًا مُتَخَصِّصًا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَا هِيَ الْمَشْكَلَةُ..



كانت إجابة الطبيب حاسمة رغم قسوتها، إنه يعاني من فقدان الذاكرة، وهو من أبرز الأعراض التي تظهر على مرضى الزهايمر، مما يُصعب عليهم القيام بالأنشطة اليومية والمهام الحياتية، ويظهر ذلك جلياً في المعلومات والأحداث القريبة وذلك في المراحل الأولى من المرض، مثل نسيان المواعيد والأحداث الهامة وأسماء الأشخاص المقربين إليه، ومسميات الأشياء، وقد يتذكرها المريض في وقت لاحق أو لا يتذكرها نهائياً، ويزداد فقدان الذاكرة تدريجياً، فهو عرضٌ لمرض متنامي، شاسع الدروب..

حزنت «برن» حزناً شديداً وراحت تبكي في غرفتها بحرقه، حزنها كان أكبر من حزن أبيها على نفسه، راحت تفكر كثيراً حتى أنهكها التفكير، كيف تساعد ليسترد قوته، ذاكرته، تفاصيله، إنه إرثها الثمين، كل ما تبقى لها، كل ما تملكه، كل ما تنتمي إليه!!

وفي سخرية ابتسم سادن منهيًا حديث طال بينه وبين نفسه، لطالما عاش أسابيع وشهور يحاول نسيان بعض تفاصيل قصته مع شهربان، وهاهو الآن يجاهد ليتذكرها بحذافيرها، حقاً ما أغرب الذاكرة وما أجملها وأقساها في ذات الوقت!!

وفي أحد الصباحات اتخذ قراراً، جلس على كرسيه الخشبي الهزاز وسألها أن تُخالف روتينها اليومي وتظل معه، أخذ نفساً



مِنْ غُلْيُونِهِ الْقَدِيمِ، أَرَّاحَ رَأْسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ مَغْمُضَ الْعَيْنَيْنِ وَفِي دَاخِلِهِ مِائَاتُ بِلِّ آلَافِ الْوُجُوهِ تَتَحَدَّثُ، تَصْرُخُ، كُلُّهَا شَاحِبَةٌ، جَفُونُهَا حُمْرَاءُ مَرِيضَةٍ، ثُمَّ انْشَقَّتْ تِلْكَ الْوُجُوهُ الْكَرِيهَةُ عَنْ وَجْهِ كَالْقَمَرِ السَّاطِعِ، بُعِثَتْ صُورَتُهَا فِي عَيْنَيْهِ خَشْيَ أَنْ يُضْيِعَهَا، مَلَأَتْهُ لَذَّةٌ حِينَ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ «شَهْرَبَانُ»، تِلْكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَمْ يُخَطِّطْ أَبَدًا لِلْقَاءِهَا، فَإِذَا بَتَوْقٍ عَجِيبٍ يَحْتَلُهُ، يُحَرِّكُهُ نَحْوَهَا، كَانَ مُتَعَبًّا مِنَ السَّفَرِ فِي وَجُوهِ الْفَتَيَاتِ حَوْلَهُ وَالتَّجُولِ فِي عَقُولِهِنَّ وَالتَّرَبُّعِ عَلَى عُرُوشِ قُلُوبِهِنَّ، وَكَانَتْ هِيَ مُتَعَبَةً، حَزِينَةً، مُشْتَتَةً، تَدْعِي الْفَرَحَ وَالرِّضَا بِزَوَاجِهَا مِنْ رَجُلٍ لَا يَجْمَعُهَا بِهِ إِلَّا الْفَرَّاشُ، كَبُرَ عَمَرُهَا أَعْوَامًا مِذْ أَنْ قَيَّدَتْ دَبْلَتَهُ إِصْبَعَهَا، وَدُونَ إِرَادَتِهَا وَقَعَا فِي الْغَرَامِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُحَرِّرَهَا مِنْ ذَاكَ الْقَيْدِ؛ فَيَجْتَمِعَانِ مَعًا حَتَّى نِهَايَةِ الْعَمْرِ، طَرِيقَ أَرَادَ أَنْ يَمْشِيهِ فَفَعَلَ مُرَحَبًا..

فَتَحَ سَادَنَ آخِرَ بَابٍ فِي دِهَالِيزِ الذَّاكِرَةِ وَرَاحَ يَتَحَدَّثُ بِاسْتِفَاضَةٍ عَنْ كُلِّ مَا كَانَ، اسْمُ وَالِدِ بَرْنِ، عُنْوَانُهُ، «الدَّرَاوِيشُ» عَائِلَةٌ شَهْرَبَانُ، الْوُثَائِقُ وَالْمُسْتَنْدَاتُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي تَسْكُنُ خَزْنَتَهُ الْحَدِيدِيَّةُ، الْغَرِيبُ وَالْمَدْهَشُ فَعَلًّا أَنَّهُ كَانَ فِي غَايَةِ التَّرْكِيزِ، فَوَجِئَ أَنَّهُ لَمْ يَنْسَ شَيْئًا، لَمْ يَسْقُطْ مِنْهُ شَيْءٌ، لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِهِ أَبَدًا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ!! وَحِينَ أَنْهَى حَدِيثَهُ، رَفَعَتْ «بَرْنُ» وَجْهَهَا وَالتَقَّتْ نَظْرَاتِهَا..



«شهد» اسمها شهد جعفر عبد القادر، كانت عيناها بركتي غربة وحزن دامع، لم تقل شيئاً لكنها غابت في غرفتها لأيام، وطوال تلك الفترة كان والدها يسمع تنهّدت حيرتها، لم تكن تنام، ظلّت ليالٍ متتابعة مذهولة، تتفحص الأوراق، لا تجد ما تقوله؛ فتصرخ أعماقها بينما ظلّت هي صامته..

صار «سادن» منزعاً رغم راحة شعر بها بعدما أفضى بما كتمه لسنوات، قلقاً من أن تلومه «شهد»، أن تحتقره، أن تهجره، كتم همه في صدره، سكب ماءً على جمر ألمه، وانتظر قرارها.. ولم يطل انتظاره، فقد أثرته «شهد» على ماضيها، جذورها، هويتها.. لقد اختارته واختارت البقاء معه، لم تعرف أباً غيره، لم يضمها صدر كصدره، منحتة بُنوتها راضية، فارقٌ كبير بين أن تمنح وأنت تعرف، وأن تمنح وأنت لا تعرف، لقد عرفت واختارت أن تظل «برن» ولتظل «شهد» مجرد طيف لا بريق له..

سنوات عشر توالى، لم تكن «برن» قد تزوجت، ليس عزوفاً عن الرجال بل إخلاصاً وتفانياً في خدمة أبيها الذي أغلقت عالمها دونه، تنامي إلى علمها زواج «أحمد قاسم» من إحداهن ثم عودته بها إلى ألمانيا لاستكمال دراساته العليا، حاول الاتصال بها قبل سفره للزفاف لكنها لم تمنحه أي فرصة لابتزاز عواطفها وإحياء ما كان بينهما يوماً..



تعرفت «برن» على «أريج الصافي»، شابة سورية مرحة على قدر كبير من الجمال والثقافة، سكنت إلى الجوار برفقة زوجها «زين زيدان» مهندس مصري نابغة من الصعيد، تبنّت الحكومة الألمانية مشروعه لإنتاج سيارات ذات استخدام أقل للوقود، أغرم بزميلته السورية وتزوجها واستقرا معاً في كونستانس..

أحبت برن جارتها السورية التي أحاطتها وأحاطت والدها السيد «سادن» بعناية فائقة وحنان دافق، أخبرته أنه يذكرها كثيراً بوالدها الذي استشهد عام ١٩٩٠م خلال انضمامه للانتفاضة الفلسطينية الاولى، تختبئ خلف ملامحه المنمقة المنحوتة عواطف جيّاشة لا أحد يستطيع مقاومتها..

وبحكم العشرة والألفة اعتادت على سماع اللغة العربية في بيت صديقتها، ورويداً رويداً صارت تحس بالسرور حين يصدف أن تشاهد أحد الفضائيات العربية التي يُصر «زين» على متابعتها حين تزورهما برن في المساء، تبتسم بسعادة بينما يترعرع داخلها إحساس بالغ بدسامة تلك اللغة وثرائها وغنا مفرداتها..

توقن أنّها تسكن كونستانس فتختبئ فيها عن أصولها، ساعية دومًا إلى إثبات كينونتها هي، فالماضي لا يشغلها كثيراً، فلم تكن أبداً أحد صانعيه..



ثم بدأ هيامها باللغة العربية يطاردها حين وضعت «أريج» صغيرها «ياسين»، كائن رقيق، مفعم بالحركة والمرح، جاء ليعلن تمام الاندماج بين عرقه، فشعره أسود فاحم كأبيه الصعيدي بينما جاءت عيناه زيتونيتان، تمامًا كأشجار غوطة دمشق^(١)..

أحبت «برن» الصغير ياسين وأحبت مُلازمته، لم تكن تفهم لغته ومفرداته، تلاعبه كثيرًا، تذكر معه صخب الصغار وعفويتهم المطلقة، تسترجع بسهولة تفاصيل صغيرة من طفولتها فيرفرف قلبها من السعادة وتسارع تحمل «ياسين» تقبله مرارًا وتضمه إلى صدرها بحنان..

نطق ياسين العربية بطلاقة بينما كانت ألمانيتها ركيكة، تحشرها «أريج» في أغلب الأحاديث رغبةً منها في أن يتعلمها الصغير بالفطرة، فعليه أن يلتحق بالمدرسة بعد عام على الأكثر، لا تريده أن يتأرجح في الهواء بين هويته العربية ومنشأه ومستقره الألماني..

: في كونستانس كان مولده، وفي مدارسها سيتعلم.. عبارة تُكررها أريج بنمطية كلما عارضها زين في ضرورة إتقان الصغير للألمانية..

(١) سهل ممتد من بساتين غناء من أشجار الفاكهة تعد من أخصب بقاع العالم، وهي كثيرة المياه نضرة الأشجار متجاوبة الأطياف موفقة الأزهار ملتفة الأغصان خضرة الجنان تحيط بها الجبال من جميع جهاتها ومياها خارجة من تلك الجبال.



تَطَوَّعَتْ «بَرْن» لتُعلِّم «ياسين» الألمانية فكان طيعاً نبيهاً، التقم اللغة بسهولة وبراعة وبدت «أريج» سعيدة جداً بذلك، فتطوعت هي الأخرى وألقت جارتها الحنون العربية على مهل ودون إجبار..

لم تكن بَرْن تُجاهد لتتعلم اللغة، بل بدت العربية وكأنها تطاردها، تلاحقها بمفرداتها ومعانيها، لم تكره الأمر ولم تنفر منه رغم صعوبة البداية، بل أقبلت عليه بشغف وتسرَّب عشق اللغة إليها وتطورت شيئاً فشيئاً، كبرت اللغة معها وصارت تطلب من أريج وزين أن يُحدثاها بالعربية، بعد شهور قليلة سجَّلت نفسها في أحد المعاهد الدولية التي تُدرِّس اللغة الفصحى تحدثاً وكتابة..

وفي صيف ١٩٩٨م خطت «بَرْن» أرض القاهرة، كان ذلك بعد شهور قليلة مضت على وفاة «سادن آيدمير» الرجل الذي تنتمي إليه، لا يهم اسمها الحقيقي، ولا اسم أبيها ولا حتى جدها «أبوستين» بكل ثروته ونفوذه، فبالنسبة لها كلُّها أسماء عادية، أسماء فارغة، بلا مضمون، بلا محتوى، بلا ذكريات..

أسماء ستمُر، لن تستقر في الذاكرة، أسماء ليس لها سحر، أو جاذبية، أو كيان..

تعرف أن أسماء الأُسْر تعني في الشرق الكثير، لكنَّها لا تنتمي إليهم، لا تشعر بهم، قصتها بدونهم كاملة، ذاتية، ببساطة هم ليسوا مثلها، وهي ليست مثلهم..



أسماء ستقابل أصحابها لمرة واحدة فقط، من باب الفضول،
أو من باب المعاقبة..

تريد أن تُري نفسها لجعفر ابن أبي ستين، تريد أن تُنصف
«شهران» أمامه، لم تعدد في نفسها حب الانتقام، لكنها رغبة محمومة
نمت دواخلها وتزايدت منذ أن نطقت العربية وكتبتها وقرأتها!

تسألت كثيرًا: هل كان واقعها مفتقرًا إلى الصلابة للحد
الذي يجعلها تتعلق بهوية ترفضها بمجرد أن وضعت يدها على
لغتها الأم؟!

عجيبة هي النفس البشرية، تكره أمرًا ما لكنها لا تستطيع أن
ترفضه كليًا!!..

لم تكن تلك هي زياتها الأولى لبلد عربي، ففي الصيف
الماضي رافقت «أريج» إلى دمشق حين قرّرت صديقتها أن يلتقي
صغيرها بجذوره، لطالما سمعتها تكرر على مسامعه وهم في
الطائرة: سترى بلدي يا ياسين، دمشق الجميلة، بلدك فاغنم منها
قدر استطاعتك لتسجل ذكرياتك عنها بنفسك..

فلما لا تلتقي هي الأخرى بجذورها لقاءً وحيداً، بعده تقطع
كل الجذور وتجتثها إن هي أرادت..

هبطت الطائرة إلى أرض الكنانة، نفذت رائحة القاهرة
وعبقها إلى أنفها؛ فانتشت.. وفي مساء ذات اليوم ركبت القطار



نحو الصعيد.. شعرت أن يوم وصولها إلى جذورها لهو يوم فاصل في حياتها..

ومع نسائم الصباح الأولى وبمساعدة عائلة «زين» وصلت «برخيل».. سألت عن دار جعفر، بالأحرى سراي «آل أبو ستين»، تطوَّع العديد من رجال القرية وشبابها لإيصالها للسرايا، يسبقهم فضولهم لمعرفة هوية السيدة الجميلة الأنيقة، ذات النمش البرتقالي الشهي والنظارة السوداء الغامضة والثوب الأسود الفضفاض الذي ينتهي عند ركبتها الشاهقة البياض..

في الحقيقة لم يكن يشغلها انبهارهم بها بقدر ما شغلها الفرجة على قرية يُفترض أنَّها بلدتها..

وصلت السرايا الفخمة، ذات السقف العالي والأبواب المنيعـة والنوافذ الكبيرة، قادها رجل خمسيني صغير الجسم، أجش الصوت إلى قاعة كبيرة بجوار باب السرايا ثم غادرها مُغلِّقاً الباب خلفه..

عشر دقائق من الانتظار كادت تحرق أعصابها، مجرد التفكير في مقابلة «جعفر» أشعرتها بالقلق والتوتر، كادت تغادر، لولا أن الباب قد انفرج عن رجل ضخم الجثة، حاد الملامح، أخبرها أنَّه كبير حُرَّاس السراي، وأن الحاج «جعفر» ذهب في مأمورية عمل إلى القاهرة ولن يعود قبل أسبوعين على الأقل..



سألها الرجل بصرامة عن كيونتها، لم يُصدقها حين أخبرته
أنّها ابنة السيد جعفر، فرغ فوهه وحدث بها، ثم طأطأ رأسه وسألها
أن تنتظر لدقائق، انصرف مُسرّعاً ليخبر الحاجة الكبيرة عن الزائرة
التي يجهلها، فلم يكن الرجل قد سمع أبداً بالأمر من قبل، لكن
ثقة الزائرة بنفسها وسيطرتها على الموقف وقوة شخصيتها تؤكد
بأنّها لا تكذب!!

دقائق ووضع الخادم كوباً من الشاي وكأساً كبيراً من الماء
أمام برن، فإذا بسيدة عجوز بسومة ذات حبور وإجلال تُقبل مُسرعة
نحوها، تُكبّل سنوات عمرها الثماني والسبعون حركتها، لم تصغ
«آمنة» لحديثٍ أرادت «برن» أن تبدأه.. أسرعَت تلهف إلى ضمها
بشوق متأجج بنيران الدفء وكأنها كانت على موعدٍ بلقاء..

ورغم ضعف قدرتها على الحركة إلا أنها كانت في غاية
الرشاقة حيث اختفت المسافة التي كانت تفصلها عن الزائرة ذات
الوجه المشرق وارتمت نحوها تحتضنها بفرح جارف..

تحدّثت «آمنة» بصوتها العذب المفعم بالحنين ووجهها
الأسر: شهد... حمد الله على سلامتك يا نور عيني، أنا جدتك
«آمنة» أم أبوك..

تسمعها «برن - شهد» بينما هي تتفحصها، للجدّة أجمل عيون
في الوجود، لآلى فيروزيّة، أنف فريد يُميزها عن سائر النساء..



لـ«بَرْن» نفس الأنف ذو المنخرين الرقيقين، نفس العينين،
سحتتها البيضاء الملساء رغم التجاعيد، عرفت بَرْن أو شهد
الآن أَنَّها تشبه جدتها الطيبة كثيراً، ربما هي امتزاج فريد بين أمها
التركية وجدتها النابلسية.. وياله من امتزاج ثري تُرفع له القبعات
إجلالاً وانبهاراً..

كُل الحيرة، كُل القلق، كُل الإجراءات الاحترازية وكُل
الإحباطات كادت تذوب في ذاك اللقاء المخملي، أخذت «آمنة»
تربت على كتف «شهد» التي أوسدت رأسها في حجر جدتها
الطيبة ذات السحر الآخاذ، أخبرتها «آمنة» أن أباه لم يُفرط فيها
يوماً، لم يتهاون في البحث عنها وغايته أن يلقاها، يشق فراقها
صدره رغم صلابته، يخشى جداً أن يموت دون لقاء..

انتفضت «بَرْن» من حجر جدتها حينها، لم تكن ترغب في
الاستماع إلى ذلك الحنين، لن تحتل هذا الحب الذي يدعوها
إلى التراخي..

أدركت شهد أن الحياة مهما كثرت آلامها وتفاصيلها الصغيرة
المُحزنة، الراقدة في ذاكرتنا، لا يمكننا أبداً أن نتغافل عنها وأن
جسراً إلى حياة جديدة يمكننا أن نعبره حين نستمع إلى مَنْ عذبونا
وعذبناهم، نسامحهم آنذاك أو لا، لا يهم، يكفيننا أن نلتقيهم في
المنتصف ربما في اللقاء فرصة تجمع بين توقيتين مختلفين..



في ذلك الحين كان السيد جعفر يطوي الأرض في شوارع القاهرة متخبطاً في خيبة يكرهها، فيمشي ويمشي إلى أن يُضنيه السير ويأخذ منه التعب مأخذه ويكاد يشد رحاله عائداً إلى بلدته فيتذكر ما مُني به من خسارة حين وثق في رجل ذي وقار وفصاحة كان قد توسط له من قبل في صفقة ناجحة جداً لشراء أرض زراعية ثمينة بثمان بخس شرق سوهاج، تبعها بمساعدته في شراء جنية موالح في نجع حمادي بثمان زهيد، ثم مناه الرجل بشراكة يُمكنه تدبيرها له مع أحد رجال الأعمال القرييين من دائرة النفوذ وحصل منه على مائتي وخمسين ألفاً من الجنيهات ثمن الشراكة وخمسين أخرى مقابل خدماته، سلّمه جعفر المبلغ كاملاً وحين حضر إلى مقر عمل رجل الأعمال ليوقع عقد الصفقة فإذا به يُفاجئ بأن الأمر كله سراب، وأن أمواله أصبحت في خبر كان، وأن «السيد عصمت» ما هو إلا نصّاب حذق ييسط أجنته على الأثرياء يُطمعهم ورويداً رويداً يستدرجهم ويستولي منهم على مبالغ ضخمة بحجة العمل والمشاركة، لم يحزن سليل أبي ستين على المبلغ المنهوب قدر حزنه على استعباط الرجل له، شغلته حسرته على نفسه وهو أكثر الخلق رفضاً للخسارة، وراح يتحمل المتاعب والمشقّات في سبيل الوصول إلى عصمت النصّاب واسترداد المال منه؛ بل وتلقينه درساً لن ينساه، لقد أقسم أن ينتف



له شاربہ شعرة شعرة، فكيف لمتشرد مثله أن يستغفل «جعفر آل أبو ستين»؟!.. وبينما هو غارق في هواجسه وأفكاره غير مبالٍ بما يلقاه من تخطيط وعذاب في سبيل الإمساك بالنصاب كانت بذور الود والمحبة تنمو في السراي بين ابنته المنشودة «شهد» وأخيها «سليم» الفتى ذو الوجه النضر، تظللها شجيرات الدفء النامية حولهما من قلب الجدة النابلسية الطيبة..

عشرة أيام قضتها شهد مع سليم الذي استقبلها بحب كبير زرعه فيه جدته النقية وكأنه يعرفها منذ الأزل، استمع لحكايتها وقدر حبها العميق لوالدها ولأبيها سادن، لم يسء إليهما ولم يتهمهما بالفحش كما توقعت شهد، على العكس لقد أبدى تفهما كبيرا لما كان منهما، وبتمهل وروية تغلغل سليم إلى نفسها، غلبها لين قلبها وسبقها سليم إلى نفسها يدفعها نحوه سلامة قلبه وصفاء نفسه، ظل يحيطها بتدفق الشباب وحيوته متحديا خشيتها من الوقوع في حب أخ تصادفه بعد كل تلك السنوات حتى غلب رجاء قلبها واستجاب لنداء مشاعره المتدفقة، يترقق ماء الحياة في وجهها أكثر ما يترقق حين يربت بسنواته الأربعة عشر على كتفها محتضناً كفها بين كفيه الفتية يمنحها فراشات ملونة عرف أنها تعشقها... أي قوة تلك التي يتمتع بها ذاك النجيب؟!!



يركض خلفها بين حقول الذرة رافلاً في حلق النضارة مكتسباً ثياب
البهجة والشباب، إنه وسيم قسيم، أبلج الوجه، في عينية الزرقاوتين
دعج، وفي صوته الرخيم بحة حُسن، لا تجسُر التخوفات والترقبات
مما هو آت على تغيير صوته أو الإقلال من عبير رائحته التي
تتخللها حين يُحادثها حتى وإن كان حديثه عن أبيهما جعفر
وعلاقته المتواترة معه والتي تسير على سطر من المودة المجللة
بالاحترام والهيبة وسطر آخر من حزن يشوبه كثير من اللوم على
جمود القلب وصلد المشاعر، قصَّ عليها ما كان من أمر جعفر
مع إلهام، كل قوة في هذا الزمان قد تتول إلى ضعف إلا قوة عشق
وارتباط جمعت بين الفتى وأمه، آلمه جداً فقدّها، كانت خسارته
لها كبيرة، عميقة بعمق جرح غائر في صدره، رحيلها فعل به ما لا
تفعله أشد المدمرات والمُهلِكَات، فقد حذف رحيلها من قلبه قدر
كبير من حب كان يحمله لأبيه، ولولا ما أحاطته به جدته من حنان
بالغ وما وجدته في خالته سهام رغم غُرْبَتها، وعمَّته رحمة رغم
انشغالها بشئون أسرتها لشقَّ عليه أن يُطالع وجه أبيه ثانية..

: شيء ما سيحدث هذا الصباح. هكذا تحدثت شهد إلى سليم
أثناء تناولهما الفطور في شُرْفَةِ السراي الكبيرة.. حدَّثته بعربية
فصحى أحبَّ سماعها منها..



صباح يومها العاشر في بر خيل كان صباحًا مختلفًا، الحاج جعفر وصل بيته عند الظهر، لا يُفاجئ أحدٌ بحضوره كما لا يفاجئون عند ذهابه، هكذا عودهم وهكذا تعودوا، لا أحد يجرو ليتساءل متى يذهب ومتى يعود؟ رأت سليم يقف في ساحة الدار بسكونٍ ووجوم بينما رفعت جدتها أمانة وجهها الجميل لتنظر في وجه ابنها العائد لتوه من رحلةٍ تركت أثرها على وجهه المُجهد.. أصرّت أمانة أن تلتقي شهد والدها في نفس ساعة وصوله، ربّما خشيت أن تترك الفتاة إلى نفسها فيغالبها قلقها وتوجسها فترحل دون أن تلتقى أباهَا، لا تدري أن شهدًا أيضًا أرادت ذاك اللقاء في ساعته لتُريح قلبها وتلقي عن كاهلها عبء الانتظار..

وفي القاعة الشرقية، قاعة الحاجة أمانة التقت الوجوه، كانت شهد باردة، قابلت جعفر بوجه خالي من التعابير بينما حاول هو جاهدًا أن يسيطر على اضطرابه وحِدته وعصبيته، حاول أن يُريح عن وجهه ذاك الغلاف الذي يضعه غالبًا ليلعب دومًا دور الأب والقائد الأمر النهائي خوفًا من أن ينفرط العقد، أو ربما صار الجمود والحدة مظهر من مظاهر تعبيره عن حزن وضعف يسكنان قلبه رغم كل ذلك الجبروت الطاغوي على السطح.. ربما كان «جعفر» ذاته أكثر الناس حاجة إلى العطف.. إلى الحب.. إلى العناق!



بدت «بِرَن - شهد» أمام والدها امرأة جميلة، تشد العيون وتجذب الانتباه، قفزت صورة شهربان واضحة أمامه، إنها هنا.. تقف على بُعد نصف متر منه، يفوح شذاها من عالم جديد، عالم يملؤه حضور شهد..

لم تتخيل بِرَن أو لنقل شهد الآن أن يكون جعفر وسيماً، بشرته قمحية صافية رغم اقترابه من الستين، ربّما ورث صفاء البشرة من أمه النابلسية، فهل تراه ورث منها صفاء القلب أيضاً؟! شفتاه مستديرتان وأنفه مستقيم لا يشبه أنوف الرجال التي رأتها في بر خيل، عيناه سوداويتان عميقتان كعمق المحيط، حاجبان كثيفان يقفان في شموخ كحارسين على اتساع عينيه وعمقهما. اقترب منها جعفر، هاهو اليوم الذي طال انتظاره، تتنازعه رغبتان، رغبة اللقاء، يريد أن يخطفها إلى صدره، ورغبة الفوران تدفعه أن يثور في وجهها معاتباً على طول الغياب، فياترى أيهما ستنتصر؟

شقّت كلمات سليم سكون الصمت قائلاً: شهد أهيه يا والدي، جت بنفسها..

وقبل أن ينطق جعفر تحركت شهد نحوه تمد يدها لتصافحه، فخطفها محتضناً.. ثم رفع عينيه إلى عينيها الخضراويتين، إنها



هي، «شهربان»، بشفافِها المكتظة الملونة كحبة فراولة، شعرها الذهبي القصير كخيوط الذهب:

وقبل أن يغلبها شوق لا تعرف مصدره، ابتعدت شهد عن صدر أبيها وهي تهمس: أهلاً يا...

ابتعد جعفر قائلاً: يا إيه؟؟ مش راضية تجولي يا والدي!!
هو ده اللي علمتهولك شهربان، القسوة و....

وقبل أن يُكمل، أرادت شهد أن تغلق باباً لا تريده أن يُفتح..
: ماما ماتت من زمان، ومش هسمح بكلمة في حقها. (شعرت
وكأنّ نفسها تغلي لكنّها حافظت على هدوءها)..

صُدِم جعفر لكنّه تماسك قائلاً: حَبَّهَا، أَنهِي حَج؟ حبها
إنها تخطفك من بيتك زي الحرامية وتبعدك عن أبوك وعزوتك
وتحرمك من بلدك وتهرب بيك على برا، إنتِ جايه بعد السنين دي
كلها تدافعي عنها!!..

بكت شهد وهي تدافع عن شهربان، بكت وهي تخبره أنه لم
يحب أمها يوماً لتحبه، تزوجها رقيقة فكسر رقبتها بقسوته مرّات
وبتجاهله مرّات، ألم يتركها ذات ليلة تتألم من وجع مفاجئ
أصاب ضرسها وتورّم وجهها جرائه ليخرُج لبعض أعماله، ألم
ينهرها يوماً حين أحضرت هرة صغيرة التقطتها من أمام الدوار،



كانت المسكينة مُتسخة، شعرها مهوش ترتجف من البرد والمطر،
لقد قبض على الهرة ممسكاً بها من رقبتها، أمرها أن تخرجها
فوراً أو سيقذف هو بها من النافذة فربّما تكون مصابة بالجرب،
ولم يهدأ له بال حتى أخرجتها من قاعتها ودموعها تجري على
وجنتيها الورديتين بينما هو يتسم منتصراً وكأنه تخلص من قطعة
لحم فاسد تفوح منه رائحة نتنة!!

: الله وحده يعرف عدد المرات التي تفتت فيها روحها ولم تدرك
أنت.. الله وحده يعرف كيف كان شعورها حين كان قلبها يبكي وجعاً
بينما أنت تضحك ساخراً من وجعها، الله وحده كان يعرف، ومن أجل
ذلك كافأها برجل كان لها حباً وسنداً ورزقاً، وكان لابتها أباً محباً
صادقاً في محبته، إنه «سادن آيدمير» رآته ملكاً ورأها الدنيا بأكملها،
لذا رحلت إلى حيث كان تاركة عزك ومالك وسرياك..

رفع جعفر يده يريد أن يخرسها، يخرس ابنته التي فتش عنها
كثيراً، ولولا صرخة آمنة لما انتبه أن يده كادت تصفع وجهها اشتاق
إليه كثيراً... انزلق سليم بين والده وأخته ممسكاً لكف أبيه، لا
يريده أن يفعلها، لا يريد أن يسقط من عيني شهد إلى الأبد، ليته
كان صدرًا يضمّ، ليته فهم تلك العبارة التي تكررهما أمه آمنة على
مسامعه ليل نهار: الأسد يزأر لكنه أبداً ما يأكل صغاره يا جعفر..



وفي تلك الليلة بات الجميع مُتَقَلِّبًا على جمر القلق، جعفر يلوم نفسه على ما كان، أمانة تفرعه وتستنكر فعله، كيف دفعه غروره أن يصب غضبه المكبوت من شهربان فوق رأس ابنته العائدة لتراه؟! لامته عيون سليم وراح ينظر لأبيه في مرارة وقسوة، وفي قسوة أكبر دخل عليه قاعته صباحًا ليخبره رحيل شهد التي لم تنم في سريرها وقضت ليلتها جالسة على الأريكة الكبيرة بجوار النافذة، كانت مستيقظة حين دلفت جدتها الغرفة لتطمئن عليها، وبصوتها الحاني الهادئ دومًا قالت: جعفر ما قصدش يا بنتي، هو بس ما بيعرفش كيف يعبر عن اللي جواه..

ابتسمت الفتاة ابتسامة صغيرة لركة جدتها وفرط اهتمامها، ظهرت غمازاتها العميقة فترأى لآمنة أنها تُحادث شهربان، كانت شهد ساكنة لكنه سكونٌ يستغيث، كبرياؤها عنيد يقيد صرخاتها، لا تعلم ماذا يمكنها أن تقول، لكن كل وريد في جسدها يرفض أن تظل هنا، كل شريان يجري داخلها يتمسك بالرحيل عن هذه السراي السامة التي يحكمها جعفر ذاك الرجل الذي رآته ينتفض من الغضب كلما سمع اسم شهربان أو نطقه، لم تُخطئ أمها حين فرّت إلى صدر سادن الرحب، لم تخطئ أبدًا..

الآن صار جليًا ما عانته شهربان مع جعفر بينما عيون سادن ورسائله تقتلها حبًا..



حملت شهد حقيبتها على ظهرها حين شق الصبح جلاباب
الظلام وبرشاقة وخفة سارعت تغادر السراي بوجه مشرق مُفعمٍ
بالبثبات، هكذا عادت أدراجها إلى القاهرة ومنها إلى ألمانيا فوراً
بينما ظلت تسمع في نفسها رنين صوت سليم العذب، المفعم
بالباهة، وظل وجهه الأسر محفوراً في ذاكرتها..

ولسنوات أربع بعدها حافظت على تواصلها مع أخيها
سليم، تواصل جعل صلتها به أكبر وأعمق، تعجبت أن تحزنها
وفاة جدتها الطيبة إلى هذا الحد، لم تعلم تحديداً ما الذي ورثته
عنها، عفويتها أم ثباتها الرزين؟ يا ترى هل شابه قلبها قلب
النابلسية الراحلة أم أن ما جمعهما هو حب صادق عميق نبت في
قلبيهما لذلك الفتى الوسيم، سليم..

وفي ٢٠٠٤م حصل سليم على الثانوية العامة للعام الثاني
على التوالي وبمجموع لا يؤهله لدراسة الهندسة كما أراد والده،
كانت معاناته أليمة مع الثانوية اللعينة، ففي المرة الأولى لم يتمكن
من الحصول على مجموع الهندسة بعد عام دراسي قضاه متميماً
إلى مدرسة حكومية في المركز، لم يبل خلاله حسناً وحصل على
مجموع هزيل يلحقه بكلية الآداب أو الحقوق على الأكثر، ثار
جعفر على ولده وتمددت عروقه وراح يهزأ بالفتى وبذكائه بينما



تعتصر قلبه ثورة داخلية من الحزن عليه والغضب من أجله،
يصول ويجول متعجباً، كيف تحصل منّة بنت أخته رحمة ومسعد
الزهر اوي على مجموع يُدخلها بكل سهولة ويُسر كلية الطب
رغم وفاة والدها في بداية ذلك العام، فنقل الرجل ولده إلى القاهرة
وألحقه بمدرسة خاصة في المهندسين ذات سمعة تعليمية رائجة
وشأن صارم واستأجر له سكناً مناسباً بجوار مدرسته، وعيّن له
غفيراً أميناً يقوم على مراعاة شؤونه وتنفيذ أوامر «سليم بيه» آناء
الليل وأطراف النهار، وانتقلت خالته سهام للعيش معه وتولّت
رعايته، ونزولاً على رغبة سليم أرسل جعفر إليهما «ونيسّة»
حفيدة السيدة زمردة خادمة جدته آمنة، فقد توفي والدها وطردها
شقيقها من داره فهرعت إلى منزل سيدها جعفر حيث قضت
أمرها سنوات شبابه وشيخوختها، جاءت ونيسة إلى القاهرة
لتخدم «سيدي سليم» -هكذا كانت تناديه، ولتحمل عن خالته هم
شغل البيت حتى لا تُكلف السيدة سهام نفسها أي عبء، كفأها
ما عانته في سنوات وحدتها وشقاءها في الخليج..

ورغم كل ما كان وللمرة الثانية لم يحصل سليم على
مجموع الهندسة، وقف معه الأمر على نصف درجة، ففاجئ والده
برغبته الشديدة في السفر إلى ألمانيا ليدرس الهندسة هناك على
أصولها ومن منابعها الغنية..



لم يُعارض جعفر رغبة ولده على عكس التوقعات، أعجبه حماس سليم وإصراره على تحقيقه لرغبة أبيه، راقى له فكرة سفره إلى ألمانيا علّه يُقنع شَهد بالحضور إلى مصر مرة أخرى، مرة قد تكون فرصة حقيقية لتعرف ابنته كم يُحبها أبوها..

هكذا جمعت الأقدار بين سليم وشهد، كذلك خدمتهما الظروف، وهناك التحق سليم بجامعة «لودفيج ماكسيميليانس»، وهي من أكبر وأعرق الجامعات في ألمانيا وأوروبا وتقع في مدينة ميونيخ، قدّم أوراقه ليدرس إدارة الأعمال لا الهندسة!

كونستانس وما أدراك ما كونستانس!!

بحيرة كونستانس أو البعض يسميها بحيرة ليندوا، أكبر بحيرة في أوروبا تطل عليها ثلاث دول، ألمانيا وسويسرا والنمسا، وقع حبها في قلب سليم، شيءٌ سحري لا يقاوم وخاصة عند الغروب، بحيرة عجيبة للغاية تقف عند أحد أطرافها فلا ترى الجانب الآخر لاتساعها وشمولها، تغزوها السفن والقوارب والعبّارات، إنها قريبة من كل مكان ورغم ذلك تتميز بهدوء تام، حالة فريدة توحى بالخيال، بالمغامرة، تجعلك تنفصل عن كل ما حولك، عالمٌ قائم بذاته، إن عشقته قد لا تعود منه أبداً.. من هناك ولأن لها موقعا متميزا، وفي صحبة «برن» زار سليم زيورخ، بادن بادن وملاهي



يوروب بارك، واستمتعا معاً بزيارة لأرياف سويسرا الساحرة،
وزيارة أخرى لمدينة ستراسبيرغ الفرنسية، هكذا وجد سليم نفسه
يتجول بارتياحية في أرجاء أوروبا..

يظل سليم في كونستانس مع أخته طوال شهور الصيف
ويعود إلى ميونيخ حين تبدأ الدراسة، هكذا تعرّف على زين زيدان
وأريج الصافي، وبفضل ذاك المهندس الصعيدي واظب سليم
على الصلاة التي كانت يؤديها في السابق لإرضاء جدته النابلسية
وعلى فترات متقطعة رغم إيمانه بوجوبها، وتعلّق بالفتى «ياسين»
أيما تعلق.. كما صارت البقلاوة السورية والتي تُجيدها أريج
طبق الحلوى المفضل لديه..

وفي إبريل ٢٠٠٦م زار زين وزوجته الجميلة مصر في رحلة
رومانتيكية احتفالاً بذكرى زواجهما الخامسة عشر وقد تركا
ياسين في رعاية صديقتهم بَرْن لارتباطه بموسم الامتحانات في
مدرسته حينها.. وعشيّة احتفال مصر بعيد تحرير سيناء هزّت
ثلاثة انفجارات متزامنة منتجع دهب جنوب سيناء مما أدى إلى
سقوط ٣٠ قتيلاً من بينهم «أريج الصافي» وإصابة ١٥٠ جريحاً من
بينهم المهندس المصري الشهير زين زيدان^(١)..

(١) وقعت التفجيرات في ٢٤ أبريل ٢٠٠٦م، تبنت التفجيرات جماعة التوحيد
والجهاد الإرهابية عن طريق ثلاثة انتحاريين من عناصرها لقوا مصرعهم
جميعاً في الحادث.



كره سليم الإرهاب وراح يتعجب من تلك الأفكار المسمومة التي استشرت في عقول شباب كالورد، زادت شفقة برن واهتمامها بياسين بعد أن صار يتيم الأم، غابت أريج عن المشهد لكنها ظلت حاضرة وبقوة تسكن قلب كل من عرفها..

تأمل سليم الموقف وانطلقت من جوفه شرارة تشجع أخته على قبول طلب زين بالزواج منها، إن ياسين في حاجة ماسة لها ولقد تشرب قلبها بحبه وزين لن يستطع الاستمرار في تربية ورعاية ياسين الذي استوى مراهقاً دون زوجة تُعينه على ذلك، فما زال الرجل في ريعان الشباب وقد أخلص لفرائض دينه منذ الصغر فلم تعرف الرذيلة طريقها إليه ولن تستقم له الحياة دون ونيس، شريك حقيقي في كل نواحيها، فربما إن لم تقبله برن زوجاً سيعود الطير المهاجر إلى وطنه وستحرم ياسين إلى الأبد.. في الحقيقة لقد سعى إليها زين وبذل أقصى ما يمكنه لإقناعها واستعان عليها بسليم وياسين حتى قبلت، فزفت إليه في شتاء نفس العام وسكننا بيتاً حديث البناء على مشارف البحيرة واستهلا حياة زوجية مثمرة دون أية نية للإنجاب..

كان زين حكيماً عاقلاً، هادئ الطبع رغم خفة ظل يتمتع بها، حليماً ذو مشاعر حيّة.. مضت السنوات بالزوجين ففعلت العشرة فعلتها وجمعت بين قلوبهما، فكانت حواراتهما راقية يسودها



الإيثار والبساطة، يبتهما مستقر ممتلئ بالرحمة والمودة، فلم يسمح زين لأي خلاف عابر أو سوء تفاهم بينهما أن يستمر لأكثر من ساعات، يُسارع بعده لإرضاء زوجته العنيدة نوعاً، الطيبة عمقاً والتي كانت له نعم الزوجة وكانت لولده نعم الأم..

استمرت علاقة برن وأسرتهما بأخيها سليم قوية حتى بعدما أنهى دراسته وعاد إلى مسقط رأسه في صيف ٢٠٠٩م..

وفي ٢٠١٧م كان ياسين قد أنهى دراسة طب الأسنان وتزوج من «لمار»، مهاجرة ليبية فرّت إلى ألمانيا بعد الأوضاع المتردية في موطنها وانفصل نهائياً عن والديه واستقر مع زوجته في برلين؛ فقرر زين زيدان العودة نهائياً إلى مصر واستغلال مناخ التنمية والاستثمار في مشروعات البنية التحتية المطروحة على الساحة، أسّس شركة هندسية كبيرة بشراكة بعض الشخصيات الأجنبية الثرية واستطاع الفوز بفرصة المشاركة في أحد المشروعات القومية ذات التمويل الضخم، اشترى فيلا حديثة ذات طراز معماري متميز في أحد المدن الجديدة وعلا نجمه وطالت شهرته عنان السماء وأُتيحت له فرصة الترشح في مجلس النواب والظهور الإعلامي لكنّه تجنّب الشهرة والجهر بآرائه السياسية وظلّ متفرغاً لمشاريعه وزادت ثروته زيادةً هائلة، كما كانت برن قد حصلت



على الدكتورة في الموسيقى قبل حضورها إلى القاهرة، وفي مصر الجديدة أسست أكاديمية حديثة جداً لتعليم الموسيقى والبالية ومختلف فنون الرقص الاستعراضى، وأحرزت منزلة فريدة في هذا المجال لكنّها وفيما بعد انشغلت بالعمل التطوعي فأنشئت مركزاً طبياً على مستوى رفيع لعلاج المرضى غير القادرين، أقسم عليها سليم أن يشاركها في مصاريفه وفي شراء وتوفير ما يحتاجه المركز من أجهزة ومعدات بجزء أقطعه من ميراث كبير ورثه عن جدته أمّنة النابلسي.. وليكن هذا الجزء وقفاً باسمها إلى أبد الأبدين؛ فقبلت بترحاب شديد، بل إنها خصصت جناحاً طبياً فخيماً وعلى أعلى مستوى لعلاج المعدمين أسمته «جناح أمّنة»..

وبعد كل تلك السنوات وبعد كل ما كان وما صار زارت شهد- برن والدها جعفرًا حين اشتد عليه المرض وكان قد تجاوز السابعة والسبعين من عمره، وبدا لها ولأول مرة أباً ودوداً رغم قوته وجموده فيما مضى، فقد لمست منه ترحيماً وقبولاً، بل وإقبالاً عليها، فقد كان حريصاً على ألا يثير حفيظتها متغاضياً عن مرارة الماضي متعففاً عن الخوض فيه، فالزمن كفيل بردم حفر الخلاف وسد منافذ الشقاق..

ظلت شهد تزور والدها بدافع من الواجب والشفقة في البداية ثم صارت الزيارة بدافع الحب والرحمة، وفي ٢٠١٨م



داهمته أزمة مرضية حادة؛ فاقنعت به ضرورة الحضور إلى القاهرة بل وبالإقامة فيها؛ وفي فيلتها الفارحة أثت له جناحاً فخيماً مريح وممرضة مرافقة له على درجة عالية من المهنية والمهارة وخصّصت لخدمته «ونيسة» التي صارت لا تفارقه أبداً غرفة راقية واسعة إلى جوار جناح أبيها، مازحته ذات مرة قائلة: والله أنا خايفة تطلع متجوز ونيسة في الآخر يا والدي!!... فضحك ضحكة عالية واستمر يضحك حتى كادت روحه تفارقه.. ولم تأخذ منه إجابة شافية.. لا بالسلب ولا بالإيجاب!!

ورغم نشأتها الأفرنجية إلا أن «برن» لم تكن تتذمر حين يُصر والدها على تناول الفسيخ والبصل الأخضر في شم النسيم، وشوربة العدس والقرنبيط المحمر والبصارة في الشتاء، وكثيراً ما اشتهي طبق «شلولو» فتسارع «ونيسة» الفتاة الصعيدية الطيبة بتحضيره بقلبٍ مُخلص ونفسٍ سمحة، أعجبت برن بوفاء ونيسة لمخدومها وفتنّها إجتهد الفتاة وإخلاصها؛ فسمحت لو نيسة أن تصبح مسئولة وبمفردها عن طهي وجبات جعفر، وحين تعجّب سليم من غرابة المأكولات التي يطلبها أبيه أجابته شهد مبتسمة: هنعمل إيه؟ هو نفسه في الأكل ده رغم إنه بيتعب بعده، خليه على راحته يا سليم، مش عيزاه يمشي من عندي.



هكذا حلَّ جعفر في قلب ابنته بعد سنوات من الجفاء والقطيعة، وصار يُمطرها بالدعوات كلما رآها، لم تُعد ذكرى شهر بان تؤلمه نفس ذات الألم، فالزمن كفيل بأن نراجع أنفسنا فربما نقبل اليوم ما رفضناه بالأمس..

إن جعفر ابن عبد القادر أبو ستين رجلٌ خبزه السنون، مرَّ عليه الشهد واستطعم حلاوته، ومرَّ عليه العلقم واستنكر مرارته.. صال وجال، ذهب وجاء، رأى وعامل الكريم والوضع؛ فأنضجت الخبرة حكمته وبات لكل سؤال عنده إجابة.. ففي سنواته الأخيرة وخاصةً بعدما تكالبت عليه أعراض الشيخوخة صارت قضيته أن ينصر الضعفاء نصرَةً تُنشيه، أنفار بسطاء على شاكلة ونيسة التي أعياء مرضها ودمعت عيناه حينما عجز عن زيارتها في أيامها الأخيرة التي لم تطل.. كبَلَّته صحته التي وهنت وعافيته التي غابت، وراح يردد لآبائِه: إخص على العُمَر لَمَّا يطول من غير عافية تشيلُه.

وفي صبيحة الآخر من أغسطس ٢٠١٩م وبعد أسبوع واحد من وفاة «ونيسة» وفي نفس الشهر الذي توفت فيه زوجته «إلهام» من سنوات بعيدة وافى جعفر الأجل رغم أنه لم يكن يعان مرضاً، إنه «أغسطس الحزين»... كان سليم في زيارة والده الليلة التي



سبقت وفاته، حظيا بمناقشة ودودة حول أحوال سليم ونواياه المستقبلية بينما كان جعفر يتناول طبقاً معتبراً من الأرز بلبن بالقشطة والمكسرات والذي يحضره سليم له خصيصاً من حلواني هو الأول في ذاك الصنف، كانت محاولة منه للترويح عن أبيه وإطعامه ما يُحب؛ فقد اختفت شهيته واحتله الحزن لوفاة خادمته المخلصة، سهر سليم ليلته مع أبيه الذي بدا متبهاً إلى حد كبير وقد نشطت ذاكرته جداً فراح يتحدث عن أمه آمنة ويقص بعض الحكايات التي سمعها منها ومن عمته «نفيسة» عن زواجها بأبيه العمدة، انتقل بعدها للحديث عن زوجته إلهام وكيف أنه أحبها يقيناً لكنه لم يدرك ذلك الحب ولم يفهمه في حينه، تحدث كذلك عن بعض خفايا كواليس زواجه بفاطيما وخلفية علاقتهم، ثم تطرق حديثه نحو «روعة»، أقسم أنها ورغم كل شيء تسكن أعماقه، دائماً يشعر أنها جزء منه، لا يفصلها عنه فاصل، كثيراً ما جاهد ليسد أي فجوة تنبثق بينهما لأي سبب، لم يحمل لها ضغينة يوماً وما كان يستطيع، إنها ابنته التي لم تُخلق من صلبه لكنها خُلقت من روحه، قابضة هي وراء ستار قلبه، ربّما منحها كل حب أراد أن يمنحه لأخيه ولم يقدر، ثم راح يسرد على مسامع ابنه حكايات وحكايات عن شقاوة عمه مصطفى وعربدته وعن الليلة



المشئومة التي كادت روحه تُزف فيها إلى السماء بفضيحة، كان مخموراً وفي طريق عودته إلى الدوار الكبير استوقفه عاطلانِ طَلاً عليه من سيارة كانت تُشاغله وتشاغبه في وسط الطريق، فاضطر إلى إيقاف سيارته ونزل إليهما معاتباً؛ فانقضَّ عليه الرجلان وأوسعا ضرباً بعصيّ غليظة ثم قيّدها وجرداه من ملابسه، فلم يُعد يرتدي غير سرواله الداخلي يستر عورته، استوليا على كل ما كان معه من أموال، حتى ساعة يده لم تنجو من السطو، وقذفاه في وسط الحقول وهربا بسيارته، ولولا رجل شهم تهادى إلى سمعه أنين قادم من الزراعات فهرع ينقذ ذاك المُقيد المسكين مكمم الفم لما نجى مصطفى، طالت الحكاوي واستمرت حتى أوشك الفجر فاستأذن سليم منصرفاً وظلَّ جعفر مستيقظاً ليصلي؛ فقد أمست تلك عاداته منذ أوصته أمه بذلك ليلة احتضارها، ألا ينقطع عن صلاة الفجر حاضرًا وألاً يفارق التسبيح والاستغفار، عادة تغافل عنها طويلاً ثم استدركها حين بلغ السبعين، رقد بدنه في سريره وفي يده اليمنى استوطنت مسبحة أمه آمنة التي ورثها عنها بينما انثنت يده اليسرى بين رأسه والوسادة، وحين انقشع الليل وبدا الصباح صافياً دلفت «شهد» غرفة والدها لتوقظه، فلم يستيقظ، فقد راح في سبات لا إفاقة منه... وقد حُلِّدت في ذاكرة أبنائه تلك الأعوام السعيدة رغم



قَلْبَهَا، تِلْكَ الْأَعْوَامُ الَّتِي عَاشَوْهَا مَعَهُ حِينَ تَخْلَى طَائِعًا أَوْ مُجْبِرًا
عَنْ كَثِيرٍ مِنْ طَبْعِهِ الْجَافِ وَعَصَبِيَّتِهِ الْمَفْرُطَةِ، حِينَ انْتَصَرَتْ فِطْرَتُهُ
عَلَى مَزَاجِيَّتِهِ، فَانْبَسَطَ جِثْمَانُهُ أَمَامَهُمَا تَحِيْطُ بِهِ هَالَةً مِنَ الْعَوَاطِفِ
الدَّافِئَةِ نَحْوَ أَبِيهِمَا فُودَعَاهُ بَعْيُونَ دَامِعَةً وَبَصْدُقَ بِالْغ..



وَعَبْرَ كُلِّ تِلْكَ السَّنَوَاتِ صَارَتْ شَهِدَ أَقْرَبِ النَّاسِ لِقَلْبِ
أَخِيهَا؛ فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعَ عَمَّتِهَا «رَحْمَةً» فِي قَلْبِ «جَعْفَرٍ»..
لَكِنَّ الصَّلَةَ وَالْحُبَّ وَالْمُودَةَ أَخَذُوا شَكْلًا آخَرَ أَكْثَرَ عَمَقًا وَارْتِبَاطًا
مَا أَنْ تُوْفِيَ وَالدَّهْمَا.. فَصَارَتْ لِقَاءَاتُهَا بِأَخِيهَا لَا تَنْقَطِعُ، وَزِيَارَاتُهُ
لَهَا لَا تَهْدَأُ... فطَيْبَتِهَا وَرَقَّةٌ قَلْبُهَا أَغْرَتَاهُ عَلَى الْاقْتِرَابِ أَكْثَرَ،
وَاسْتَجَابَتْ «شَهِدَ» بِقَلْبٍ صَادِقٍ لِمَحَاوَلَاتِ «نُورِي» لِلْقُرْبِ
وَالْتَوُدِّ وَزَادَتْ الْأَوَاصِرَ مَتَانَةً.. وَبِحُكْمِ فَارِقِ السَّنِ مَارَسَتْ
أُمُومَتُهَا عَلَى أَخِيهَا وَعَلَى زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ..

كَرَّسَتْ «شَهِدَ» حَيَاتَهَا لِلْإِهْتِمَامِ بِعَمَلِهَا وَنَجَحَتْ فِيهِ
نَجَاحًا مَرْمُوقًا، نَفْسُ ذَلِكَ النِّجَاحِ وَجَدَهُ زَوْجَهَا فِي امْبِرَاطُورِيَّتِهِ
الْهِندُسِيَّةِ، فَلَمْ تَجِدْهُ هِيَ بِأَسَا فِي انْشِغَالِهِ عَنْهَا وَرَاحَتْ الْفَرَحَةُ
تَشَعُّ فِي قَلْبِهَا وَعَيْنَيْهَا الْخَضِرَاوَتِينَ كُلَّمَا وَرَدَ اسْمُ «زَيْن» عَلَى
أَلْسِنَةِ النَّاسِ... تَفَاقَمَتْ شَهْرَتُهُ وَرَاجَتْ مَشْرُوعَاتُهُ فِي السُّوقِ



وصار غيابه أمراً لا جدال فيه، فوجدت في «نؤارة» خير صديقة لها، شعرت كلتاهما أنّها في حاجة متينة للأخرى، وعلى حُب سليم اجتمعتا، فكانتا في ذاك الشأن قلباً واحداً رغم اختلاف طبيعتهما... فأصبحت علاقتهما مضرب المثل..

وفي ٢٠٤١م توفى «زين» في حادث مؤلم بعدما انقلبت سيارته عدة مرات، وقد عُثر بجواره على امرأة شابة، لا يتجاوز عمرها الأربعين عاماً، مجهولة الهوية، ولم يتم الاستدلال على صلة القرابة التي تجمعها بالمهندس المرموق ولا سبب وجودها معه، كانت جثتها متفحمة، مطموسة المعالم نتيجة احتراق السيارة إثر الانقلاب المتكرر.. أكد الطب الشرعي أن الضحية كانت تحمل جنيناً في بداية شهره الثالث..

لم ينسق «سليم» إلى أي أقوال مشينة طالت زوج أخته، بل راح يدافع عنه مفاخراً الجميع بأخلاقه المستقيمة وسيرته الحسنة، لكن شهداً وبفطرتها الغريزية فطنت إلى ما أوجع رأسها وقلبها، وقالت لأخيها وزوجته: المدام اللي معاه دي أكيد كانت مراته.

فأجابها أخاها نافيّاً: ليه تظلمي المرحوم وإنّ مشوفتيش منه غير كل خير.

فقالت وكلّها قناعة: تسمح تفهمني مين الست دي؟ وليه



وازاى كانت راكبه معاه العربية في عز الليل؟ إلا لو كانت مراته أو حبيبته أو واحدة على علاقة بيه ودول كلهم معانهم واحد عندي.. إنه خاين.. قالت نواره: طيب مش يمكن أبيه زين الله يغحمه وقف لها على الطريق لَمَّا لقاها لوحدها أو يمكن كانت في غُطّة؟؟ وببالغ الاستنكار أجابت شهد: مدام توقف لوحدها على طريق شرم-القاهرة وفي نص الليل!!

فأجاب سليم: الله وحده يعلم باللي كان.. همّا الاثنين متجوزش عليهم دلوقت إلا الرحمة..

الواقع لم يُثبت صدق ظنها ولم يُكذبه لكن الأمر جعلها تتجاوز فجعيتها ولم تتوقف كثيرًا عند أزمة رحيل زوجها.. وبطلب منها حضر «ياسين وكمار» للقاهرة وبمساعدة «سليم» وبقرار من «شهد» تمت تصفية كافة مشروعات شركة «زيدان» للهندسة والإنشاءات» وبيعت جميع الأسهم والسندات... واستشعر «ياسين» حزنًا لم يعتده غلب على طبع أمه شهد؛ فسألها العودة معه إلى حيث عاشت ولو مؤقتًا.. فأغلقت فيلتها وسلّمت إدارة أكاديميتها إلى «نواره» وغادرت إلى «برلين» حيث يُقيم «ياسين» مع زوجته والأبناء، ثم ما لبثت أن أعلنت عودتها إلى «كونستانس».. تلك البلدة التي شهدت أزهى سنوات



عمرها، تستنشق ذكريات أبيها «سادن وأمها أليف»، تردد الأغنيات التي كانت تدندنها مع صديقتها السورية الراحلة، أم ذلك الرجل القوي اليافع الذي منحها حبًا وأحفادًا كحبات اللؤلؤ، بدا لها أنها ترى «أريج» في ملامح وحيدها «ياسين».. تود أن تبكي.. فلا تستطيع..

ثم ساءت صحتها ولم تستطع مقاومة قرار أخيها الذي جاءها خصيلًا من القاهرة على عجل ليصحبها إلى حيث يجب أن تكون.. فلم تُخب رجاء ولم تُرد طلبه.. وعادت لتشاركه بيته، متباهية بحبها لسليم، فخورة بعواطفه تجاهها..

فتمت بذلك سعادة «سليم أبو ستين» واطمأن إلى حُسن رعاية «نوري» لأخته وإقبالها عليها.. فتضاعف حبه لنوري وحمل لها جميلها فوق رأسه..

حضرت «شهد» زواج أبناء أخيها.. ولم تكن أبدًا مجرد ضيفة في بيته.. راضية جدًا عن علاقتها الوطيدة بنوارة وعلاقتها المُسالمة بروعة، ابنة عمها التي لم تفتك تسأل عن شهد وتتواصل معها..

طال عمر «شهد» واستقبلت حياة الكبر بهدوء وبنفس راضية بينما راح «سليم» و«نوارة» يُقدمان لها العون ويشرفان بنفسيهما على خدمتها وعلاجها.. وفي عامها الأخير كان أخوها



شديد الالتصاق بها.. يُمشط شعيراتُها البيضاء التي بقيت متعلقة برأسها وإلى حديقة الفيلا يدفعها أمامه على كرسي متحرك يُسهل حركتها وانتقالها، يتناولان الفطور ويحتسيان القهوة ثم يرجع بها إلى غرفتها، فيتركها في رعاية «نؤارة» وممرضة خاصة جِيء بها لضمان أقصى عناية طبية ممكنة للحبيبة «شهد»..

وذات صباح، استيقظت «شهد» في موعدها وإلى الحديقة اصطحبها أخوها لتنفيذ برنامجهما اليومي، وقبل الظهيرة عاد بها إلى غرفتها وانصرف يرتدي ملابسه ليلحق بعمله.. بينما استلقت أخته على ظهرها لتستريح، طلبت من الممرضة أن تغلق ستائر الغرفة لتغفو قليلاً، فهي ليست على ما يُرام وتحتاج لبعض الراحة.. سألتها أيضاً أن تعتذر لنوري هانم عن موعد كان مقرراً بينهما للذهاب إلى طبيب الأسنان الخاص بها، وإلى أحلامها ذهبت ولم تُعد... فقد فارقت الدنيا في سلام وهدوء يتفق مع طبيعتها. كان ذاك في السادس من أكتوبر لعام ٢٠٤٦م وقد أتمت عامها الخامس والثمانين..

بكتها «نؤارة» كما لم تبك أحداً، فقد كانت صديقة روحها وعشرتها الحلوة، أمّا «سليم» فقد صدمته وفاة أخته كأنه لم يتوقعها يوماً ولولا اقتحمت «وعد» عزلته وتوغلت فيها تمسح حزنه لأكله الاكتئاب وأنهى حياته..



(٦)

فاطيمة تمام حنفي

(المولودة في ١٤-مارس ١٩٦٨م)

ربّما لم تعرف كرموز بشوارعها وبيوتها أجمل من «طمطم حنفي»، إنَّها فتنة متحركة لا تقل عن عشر درجات ريختر... فقد وهبتها أمها السيناوية الأصل بشرة عاجية وعيون نعساء دعجاء وشعر طويل منسدل تجمّع فيه سواد الليل وضياءه؛ فاستوت كمّهرة عربية أصيلة بجمالها الدافق، تموج روحها بحيوية وخفة اكتسبتها من مخالطتها لزوج خالتها والذي يمشي مختالاً متفاخراً ينسب يجمعه من بعيد بالأُميرة فاطمة حيدر^(١)، تفتّحت

(١) يوجد متحف المجوهرات الملكية في مبنى قصر فاطمة الزهراء بجليم، وقد أسّس هذا القصر زينب هانم فهمي عام ١٩١٩ م وأكملت بناءه وأقامت به ابنتها الأميرة فاطمة الزهراء عام ١٩٢٣ م. والأميرة فاطمة الزهراء التي يحمل القصر اسمها من أميرات الأسرة العلوية وقد ولدت عام ١٩٠٣ م. والدتها هي السيدة / زينب فهمي، أخت المعماري علي فهمي - الذي اشترك في تصميم هذا القصر، أمّا والدها فهو الأمير علي حيدر بن الأمير أحمد رشدي بن الأمير مصطفى بهجت بن فاضل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر وباعث نهضتها الحديثة أي أن محمد علي هو جدها الخامس.

وكانت والدتها الأميرة فاطمة الزهراء قد أنمت بناء الجناح الغربي قبل وفاتها وكانت ابنتها قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها، وقد أضافت الأميرة فاطمة الزهراء جناحاً شرقياً للقصر وربطت بين الجناحين بممر، وقد ظلّ هذا القصر مستخدماً للإقامة الصيفيّة حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ م... وعندما صودرت



أزهارها على عشق وتقدير كل ثمين ونادر؛ فتعددت زياراتها لمتحف المجوهرات الملكية في ذات منطقتها، تقف هناك وقد تسمّرت عيناها على فاترينة الزجاج التي تحتضن بداخلها قلادة محمد علي المصنوعة من الذهب الخالص المُرصع بالماس وقد نُقش عليها اسمه، لم تهو التعليم فروتين الدراسة يؤرقها، فلم يجاوز نصيبها منه دبلوم التجارة، ثم أجهضت وفاة أبيها بقية رغبتها الضعيفة في استكمال الدراسة وتقااست عن حُلُمٍ ضعيفٍ كان يُخايلها أحياناً وهو أن تصير طبيبة أو مهندسة، وراحت تتحرر تلقائياً من قيود والدها وانطلقت مدفوعة بقوة إحساسها بجمالها وأنوثتها تبحث عن فرصتها في السينما؛ فالتصقت بزواج خالتها عصمت موصيري وتعلّقت بانفتاحيته على العالم وحديثه الدائم عن الثراء والثروة، هالها سلوكه الأفرنجي وإتقانه للفرنسية والإنجليزية ومعرفته بخطوط الموضة وتفاصيل الحياة المودرن، ثم انضمت إلى عائلته تاركة أمّها بصحبة شقيقها الأكبر وشقيقتها الصغرى تأمل في أن تعرف وتتعلم كل تلك الأمور التي تُدهشها، فتأكل بالشوكة والسكين،

أملاك الأميرة سُوح لها بالإقامة في القصر. كان ذلك حتى عام ١٩٦٤م حين تنازلت الأميرة فاطمة الزهراء عن القصر للحكومة المصرية، وغادرت إلى القاهرة، وقد توفيت الأميرة فاطمة الزهراء عام ١٩٨٣م.



وترطن باللغات، وترقص السلو والتانجو. وتقضي الصيف في
«العجمي»، والشتاء في «حلوان»..

وفي بيت ابن الموصيري ودّعت براءة طفولتها تمامًا وراحت
تكتشف عالمها الأثوي الخالص، تسير بغرور مجدول بسموٍ في
الحي، تروح وتجيء تقول في نفسها: يا أرض اتهدي ما عليك أدي.
ورغم تطلعاتها الفائرة إلا أنها رفضت الزواج من مليونير
متوسط العمر مارست مشيتها السيطرة على قلبه؛ فوقع صريع
خطوتها وهواها وهي مازالت ابنة السابعة عشر..

أُغرم بها «باهر حنا» جار خالتها، وارتحل قلبه ذو الستة
عشر عامًا نحوها، وتحت بئر السلم لمست أنامله المضطربة
شفتيها وتمددت راحة يده المحمومة بفضول الاكتشاف، المُقيدة
بحرج العفة لتُصافح صدرها المضطرم فلم ترفض أو تمنع،
وصارا يتخيران كل فرصة لاكتشاف جواهرهما ويتذوقان معًا
جمالاً لم يعرفاه من قبل، لكن رعونتهما تلك لم تسحبهما إلى
أغوار عميقة تنطمس فيها براءتهما وعفوية مشاعرهما، فبقيا على
الشط دون إبحار عميق ودون عزوفٍ نبيل..

ومضت شمس المراهقة تُشرق وتُغرب دون جديد يُذكر،
ودون حديث عن إلى أي مدى وإليما سستهي علاقتها كفتاة



مسلمة بجارها المسيحي الولهان؛ فالعشق سلطان، حتى طاق
نفس «طمطم» إلى السينما وراحت تفتش بجديّة عن كل فرصة
تُقرّبها من تحقيق أمنيتها الغالية، مؤهلاتها جمال وافر وغايتها
الشهرة والمال.. وكانت الشهرة أهم عندها من المال..

أمّا زوج خالتها عصمت ولأنه كان رجلاً انتهازياً، متعدد
العلاقات يميل إلى توطيد صلته بكل معرفة يصل إليها؛ فقد
توسّط لها لدى «هاني الصياد» أشهر مخرج إعلانات في تلك
الفترة، زارته في مكتبه؛ فانبهر بجمالها واتخذها وجّهاً إعلانياً
لحملة دعائية كبيرة لترويج الصابون والشامبو المستورد، ومن
هنا انطلقت تحقق إعلاناً خلف إعلان وعرفت رُزمة الألف جنيه،
فراحت تنفق يميناً ويساراً على الملابس والاكسسورات والفُسح
والنزّهات، وصارت فاطيماً بضاعة رائجة يستغلها عصمت
بموافقة ومباركة زوجته وبسكوت وتغافل والدتها التي انصرفت
إلى رعاية ابنها المعاق وشقيقته الصغرى، حدّرها باهر كثيراً من
استغلال خالتها لها وانشغال والدتها عنها فكانت تطمئنه، فلم
يخطر في بالها يوماً أن يتفق عصمت وزوجته على تزويجها من
«هاني الصياد»، مكتشفها وصانع نجوميتها..

لم يكن هاني أبداً الرجل الذي تريده، لكنّها تزوجته في ليلة



رأس السنة عام ١٩٨٨ م، جمعتهما الجدران بقرار عقلا في بحث
بينما يسكن بينهما اختلافٌ كبير..

اكتشفت منذ الليلة الأولى أن صورة زوجته الراحلة رابضة
بجوار السرير، بينما تسكن صاحبة الصورة نفسه وتحتل مشاعره،
احتلّها غضب حاولت أن تخفيه، فهي أيضًا ليست خالصة له، فقد
سكن فؤادها حب دافئ لفتاها الأول باهر، يربطها به خيط لا يراه
غيرهما، خيط يتشابك، ينعقد، لكنه لا ينقطع، كم تمت أن يكون
هو رجلها الأول والأخير؛ لكن الدين وقف بينهما فلم يرغب أن
يكبر ذنبهما، وفي زاوية من قلبها ظلت شجيرة مشاعرها تورق
على استحياء؛ فلمّا تحاسب زوجها على براءة مشاعره وانغلاق
قلبه على زوجته المتوفية؟، نعم لقد تزوّجها لأنها صنيعته، تمثال
العاج خاصته، وتزوجته هي ليرفعها أعلى وأعلى ويحقق لها
وتحقق به أغلى الأحلام وأثمنها، السينما..

ضاجعت هاني، بالأحرى تركته يضاجعها ثم نامت، وفي
منامها زارها باهر، لامسها ولا مسته، واقعها لأول مرة، لكنّها
مواقعة في الخيال، واقعة لم تتحقّق في الواقع أبدًا!!

ولأسباب لم تقبلها رفض هاني عملها في السينما، وراح
يقطع عنها كل سبيل إلى تحقيق مبتغائها، فقد نبض جنينه داخلها



ولن يسمح لها بأي إجهاد قد يكون فيه إيذاء للجنين الذي ينتظره بشغف، طالبت عصمت بالتدخل في الأمر، فعنّفه هاني وطرده شر طرده فما عاد يستطيع أن يُحدثه في شيء، فصار الزواج بالنسبة لها لا معنى له ولا غاية، فلم تُحقق منه سوى الخسارة... لم يتحمّل باهر حقارتها، فحمل سنواته الثلاثة والعشرين وهاجر إلى أخواله في فرنسا، وفي قلبه جبالٌ من الإهزامية والانتها، يعرف يقيناً أنّ اختلاف الديانة كان وسيزال عائقاً منيعاً بينه وبين مَنْ عشقها، حاول أن يبرأ منها؛ فلم يستطع، إيمانه بها كبير وحبّه لها عميق لكن إيمانه بيسوع أكبر وحبّه له أعمق.... وفي مدينة النور تابع مساره ومشى عكس قلبه وركع للعقل والمنطق؛ فتزوج ابنة خاله الوحيدة ثم جرفه نهر الواقع حين توفي والدها وأصبح هو القائم على مصنعه الخاص بالملابس الرياضية، فتعاظمت أرباحه من الزواج والتجارة ورُزق بتوأمٍ احتلاً وجدانه تماماً بينما ظلت طمطم تزوره في أحلامه بين فينة وأخرى..

خمس وعشرون شهراً وفاطيمة في انتظار خلاصٍ يليق بحجم سخطها، وحين مرّ شهر على وضعها لمولودتهما الجميلة؛ فوجئت بأن زوجها يستجيب لرغبتها في الانفصال، يوافق على الطلاق شريطة أن تترك له «روز»، فجاءتها الانفراجة مُوقعة بقسيمة الطلاق في فبراير ١٩٩٠م..



كانت فاطيما صغيرة، لا تعرف من أيّامها مع زوجها غير مُرها، إنه رجل له لغة خاصة، صَعِبَ عليها فهمه وشقَّ عليه فهمها، تشعر أنّها عاشت معه قرناً من الزمان لم تره خلاله إلا وهو يأكل، ينام، يدخل الحمام أو يُمارس معها حقارة تكرهه بعدها وتكره نفسها أكثر، تشعر أنّها عاهرة فاشلة تتعري أمام الزبون؛ فإذا ما انقضت المهمة يتركها دون أجر فتغرق أكثر وأكثر في بئر خستها القذرة..

وفي حُضن خالتها «علوية» غسلت همها وبكت، فقد تركت وليدتها «روز» لهاني الصياد وحملت حقيبة ملابسها وغادرت شقته، لم يزعجها الفشل في الزواج قدر ما أزعجها انصرام عامين من عمرها دون أي تحقيقٍ لغايتها فصارت عصبية، تتضايق من منظرها في المرأة وقد غدر الحمل والولادة ببعض مواطن أنوثتها، كادت تهرب إلى العزلة لولا تلك الدفعات المعنوية التي تبثّها فيها خالتها «علوية»، ثم ألزمت نفسها بالخضوع إلى حمية غذائية قاسية وتمارين رياضية مُنهكة حتى استعادت رشاقتها وليونتها في ستة أشهر فقط..

وفي أغسطس من نفس العام سافر بها عصمت إلى القاهرة لمقابلة مخرج كبير، يحمل في جيبه بطاقة توصية له منحه إياها



مهندس صوت تعرّف عليه في نادي سموحة بينما كان يمارس لعبته الدائمة للإيقاع بأحدهم، تلك اللعبة التي تبدأ بكلام عن البنزنس والتجارة وتنتهي بهروب عصمت بمبلغ كبير من المال يسلمه من الضحية..

وفي شوارع وسط البلد سارت فاطيما هائمة على وجهها يتتابها غضب وحنق على الدنيا كلها، فقد أجرى لها المخرج «تيست كاميرا» ولم تنجح، صارحها بأنّها لا تملك موهبة التمثيل ولا تصلح له، إنّها وجه جميل وجسد بديع فقط دون أدنى علاقة بالسينما، لا موهبة لديها ولا حضور يفرض على المشاهدين متابعتها..

لم تكن فاطيما فتاة مسالمة في قرارة نفسها، كانت رغبتهما الأولى أن تصير ممثلة كليلى علوي وبوسي ونورا. لكن جزءاً منها شاخ حين صدمها ذاك المخرج المتعجرف برأيه الخشن..

نصحتها «علوية» بالتغافل عن تلك التجربة، وبعد فترة وجيزة عرضها عصمت الموصيري على منتج أفلام تجارية، لاقت فاطيما استحسان الرجل ووقّعت معه فيلمين قدمتهما في ١٩٩٢م، وللأسف لاقى العملاق فشلاً ذريعاً وتعثرت معهما أحلام فاطيما وانتهت الى أن تتحول إلى امرأة حادة سيئة الطباع، فساءت علاقتها بخالتها التي لم تحتمل عصبيتها وعجرفتها



الزائدة وطالبت زوجها أن يُعيد تلك الغيبة إلى الإسكندرية،
فأمها أولى بها وبخيتها؛ فقد صارت عبئاً على الجميع..
وبالفعل عادت «طمطم» إلى كرموز تحمل معها خيبتها
واستقبلت حياتها العملية وهي ابنة الخامسة والعشرين كسكرتيرة
في إحدى الشركات التجارية في محطة الرمل، لاحت لها فكرة
العودة إلى «هاني الصياد» تسترضيه ولتُعد المياه إلى مجاريها
وتعود هي إلى عصمته لتنعّم بأمومتها، لكن الأمور صدمتها، فقد
انتقل هاني إلى القاهرة بحثاً عن نجاح أكبر لنفسه كمخرج، وهناك
تزوّج من فتاة مثقفة من أسرة غنية، أحبها وأحبته وانتقل لينعم
معها بحياة كريمة في فيلتها بجاردن سيتي حيث الهدوء والسكينة
والرُقي، وبات من الصعب بل من المستحيل أن يعود ابن الصياد
لمن تركته وتركت له طفلتهما الرضيعة لتحقيق ذاتها ومآربها،
فأغلقت فاطيما باب قلبها وعقلها واكتفت بمحاولاتها التقرب
من والدتها ومشاركتها في تحمل مسؤولية شقيقها المصاب
بالشلل الدماغي والذي يمنعه عن الحركة..



لم تكن فاطيما تعرف من شجرة عائلتها إلا فرع أمها، فقد
حضر «تمّام حفني» من الصعيد إلى الإسكندرية بحثاً عن عمل



مناسب وللنجاة بنفسه من ثأر يستوجب عليه قتل نفسٍ وازهاق روح لا إثم لها غير خلاف أسري قديم بين عائلتين لم تترتويا بعد من نهر دم جارٍ بينهما لا يتوقف؛ فهجر الصعيد، لا رغبة له في القتل وبالطبع لا أمل له في النجاة من سلسال دم لا ينضب، وتحت سماء الإسكندرية استكمل تعليمه الجامعي وعُيِّن في مصلحة الجمارك ثم وبإمكانات هزيلة استكمل نصف دينه وتزوج مِمَّن شغلت قلبه وعاشا معاً أحلى سنوات عمره الذي لم يكن طويلاً للأسف..

قضت فاطيما أعواماً ثلاث في شركتها دون أن تدخل في علاقة غرامية مع أحد، كانت كلما تقرب منها أحدهم عاملته بنفور شديد فيبتعد، صارت تُدرك أن لا أحد يمنح دون أن يأخذ، أخلصت لعملها فأخلص لها، وهكذا انتقلت إلى وظيفة السكرتيرية المباشرة لنائب المدير..

تُرأسل على فترات متباعدة حب المراهقة بدافع من الحنين الذي لم ينضب، ألمها أنه تزوج فقد كان سرور خفي يسير في نفسها ويُرضى غرورها أن قلبه لم يعرف غيرها لكنّها تداركت ألمها وقبضت عليه داخل نفسها، أسعدها نجاح باهر وهزتها لمسة الشجن التي لا تفتأ تغلف خطباته لها، لم ينس ما كان، وليته ينسى حتى تتحرر علاقتهما من عبث المراهقة، لقد درّبت ذاتها



على التعود والتقبل وهو حل مثالي يُتيح لها الاستمرار؛ فلما يُصر ابن عم حنا على الضرب على عود الذكريات رغم علمه أن لا أمل كان بانتظارهما ويقينه أنها لم تخذعه، فلم تكن له من الإساس!! وفي شركتها كان السيد «جلال» نائب المدير دائم الحديث عن العدالة الاجتماعية وإزالة الفوارق بين المديرين والعُمال، رآته فاطيما مختلفاً عمّن حولها، بشوشاً، متواضعاً، كلما سألته شيئاً رفض أن يُجيبها حتى تجلس أمامه، فمن غير اللائق أن تقف سيدة جميلة مهذبة مثلها تحادثه بينما يجلس هو ينفث دخان سيجارة.. وكلما ضاقت الدنيا عليها أو اعترهاها حزن أغمضت عينها تحاول أن تسترجع صوراً من زمن فات، حين كانت أحلامها أكبر وأحلى وأكثر بهجة وإشراقاً من حاضرها الجاف، ثم تلعن حظها العثر؛ فلم تجن من أحلامها إلا سراباً!!

وتكونت في الشركة لجنة ثورية برئاسة الأستاذ جلال وانضمت فاطيما إليها تعمل بجهد ليل نهار إيماناً بمبادئ اللجنة أو إيماناً بجلال نفسه، مهمتها الأساسية إقناع وحشد أكبر عدد من الموظفين المؤمنين بنظريات الأستاذ الأنيق اللبّق حتى يتسنى له الولوج إلى مجلس الإدارة عبر أصواتهم الانتخابية..

وذات مرة رآها تجري خلف الأتوبيس؛ فأوقف سيّارته



الصغيرة وناداهما، ركبت إلى جواره، فإذا به يقول: أنا معجب بيكي يا فاطيما وعائز أتقدم لك، عندك مانع؟

وقبل أن يزورها في البيت طالباً يدها أخبرته كل حكايتها، زواجها وطلاقها، أحلامها المستحيلة التي تركت ابنتها من أجلها ثم فشلت في تحقيقها، عائلتها، مرض شقيقها الذي يستولي على دخل الأسرة وينهش صحة والدتها، فابتسم قائلاً: ميهمنيش اللي فات إنتِ اللي تهمني وبس.

بعد شهر واحد وفي بدايات عام ١٩٩٧ م انتقلت فاطيما إلى شقة في الإبراهيمية، استأجرها جلال لتكون عشاءاً للزوجة بعيداً عن أعين أسرته ذات الأصول الأرستقراطية، وهناك احتواها واحتوته وأصبحت كمن أمسك الدنيا بقبضة يده، واتسع العالم أمام عينيها وتوهجت الشمس وتألقت كل الأشياء بضوء بهيج، وما عاد «باهر حنّا» يزورها في الأحلام، فقد أضحى واقعها أجمل وأكثر بهاءً، ولأول مرة وجدت نفسها تتوق إلى الأمومة وتشتهي طفلاً من الرجل الذي تُحب، ودون مجهودٍ يُذكر أقنعها «جلال» أن تُمهّل زواجهما بعض الوقت قبل الوقوع في دوامة المسؤولية المُضنية، يريد أن يحقق مركزاً أكبر وأعظم في الشركة، حاجته أن يرفع مقامه ومقامها معه بلا وساطة أو محسوبة،



تعاطفت «طمطم» معه وفهمت غايته واحترمتها، فانصرفت
تتجرع حبوب منع الحمل بانتظام حَقَّق لزوجها الأمان..
بيد أن زواجهما لم يدم غير تسعة أشهر، فقد علمت أسرة
جلال بأمرهما؛ فتبدَّل حاله معها ولمعت في عينيه لمعة غريبة
جديدة عليها، كأنما هما عينا رجل آخر وراح يتعلل لعدم المبيت
معها كما قلَّت زيارته لها وقل ما يمنحها إياه من مصروفٍ للبيت
ألزم به نفسه أول زواجهما!

وذاث صباح وفي فناء الشركة تكالب عليه الموظفون
يصافحونه ويهتئونه، لقد خطب الأستاذ جلال ابنة رئيس مجلس
الإدارة، شابٌّ ذكي وطموح يستحق كل خير، عائلته كريمة
ومستقبله مشرق، انسحبت فاطيما بهدوء، تركت الجمهرة حوله
وخرجت من باب الشركة، وفي الإبراهيمية كانت ورقة طلاقها في
انتظارها، فجمعت أغراضها عائدة إلى كرموز!!

في تلك الأثناء توفَّت والدتها؛ فوجدت نفسها فجأة مسئولة
وبشكل كامل عن شقيقها المعاق وشقيقتها الصغرى «جميلة»،
فهاتفت خالتها علوية تُطالبها بالعودة إلى الإسكندرية لتُعاونها؛
فرفضت ونصحت «فاطيما» بالحضور إلى القاهرة، فما عاد هناك
ما يربطها بكرموز والإسكندرية كلها..



هكذا تخلصت «طمطم» مؤقتاً من مسؤوليات خشيت عدم قدرتها على القيام بها، لم يكن هروباً مما وقع على عاتقها بل كان عجزاً وعدم قدرة على التعامل مع ما فرض عليها..

وفي القاهرة استجمعت شجاعته واتخذت قرارها بزيارة فيلا «الصيد» لعلها تقابل «روز» ولو لمرة واحدة، صدمها لقاء هاني، كان جافاً معها، شديد الجفاء، ودون أدنى اهتمام أخبرها بأن روز لا تعرف أمّا غير زوجته وحذرّها ألا تُفسد حياة ابنتها بظهورها الغير مبرر بعد كل تلك السنوات، وأمرها أن تُسقطها من حساباتها كما اسقطتها بادئ الأمر حين تركتها قطعة لحم حمراء.. ابنة ثلاثين يوماً فقط!

وفي ١٩٩٨م استطاع عصمت تزويج «جميلة حفني» من ثري كويتي كان في زيارة للقاهرة، وتسلم نصيبه من الزيجة شقة واسعة في عمارة حديثه في شارع جامعة الدول العربية، شقة تمليك وهبها العريس الشيخ ذو السنوات السبعين لعصمت بعد أن وقّع كشاهد على قسيمة زواجه بالعروس «جوجو» التي أشرقت بجمالها وبكارة سنواتها الأربعة والعشرين على حياة الشيخ العتمة، وبرحيل «جميلة» مع زوجها إلى موطنه وسكنها في قصره مع زوجاته الثلاث انفراد عصمت وعلوية تماماً بفاطيما؛



فأقنعها بضرورة إيداع شقيقها في أحد دور الرعاية المتخصصة
لمَن هم على شاكلته حتى لا يهزمها مرضه ويقف حائلاً أمام
استمتاعها بحياتها وشبابها علَّها تجد فرصة ثمينة تليق بجمالها..
يا فاطيما صدقيني ارتباطك بـ «وحيد» وهو على الحالة
دي هيزيع كل فرصك في جواز كويصة زي جواز جميلة أختك،
فوقي كده وخلينا نخطه في مكان كويس يراعيه، دول فاهمين
حالته ويعرفوا يتعاملوا معاه، إزاي لو حدك هتفضلني تشيله وتطحيه
وتأكله وتحميه، المصحة أفضل، ده أحسن له يا حبيبتى.

وجدت فاطيما نفسها عاجزة عن رعاية «وحيد» وحدها
وحمايته من مضاعفات قد تصيبه إن هي أهملت علاجه وتحريكه؛
فرضخت لخالتها ونقذت اقتراحها وخلت دنياها ممن حولها
عدا عصمت وعلوية..



وفي صيف ١٩٩٨م كانت علاقات عصمت قد تشعبت
وتداخلت خيوطها وتشابكت مع عدد من رجال الأعمال، كما
تقاربت المسافات بينه وبين بعض من هم في دائرة النفوذ والسلطة،
فهو رجل ذو وجه قمحي مستدير، جذاب الملامح، ذو وقار لا يخفى
على الناظرين، وضعت الصدفة في طريقه الحاج «جعفر أبو ستين»



واستطاع مساعدته بالفعل في شراء عددٍ من الأراضي وجناين الفاكهة، فأثبت له أنه تاجر ماهر ووسيط رائع ستزدهر به تجارة آل ستين وتربو، بينما يحنق «عصمت» عليه في باطنه ويتهمه بالغباء والعجرفة الزائدة التي بلا شك سيستخدمها عصمت يوماً ضده ويلف بها الحبل حول رقبة ذاك المغرور ليُجهز عليه ويصيبه في مقتل، ويقول لزوجته: جعفر ده لا بيه ولا حاجه، ده راجل غبي مغرور، وغروره ده هيخليني أُخذ منه هبرة كبيره تتعبه في يوم من الأيام، وهتشوفي.

استطاع «عصمت» بدهاءه أن يتغلغل في نفس جعفر، فقد أصبح ملازمًا للرجل الصعيدي الثري يُمهّد له طريقه إذا اتّوى شراء شيء، يتفاوض باسمه حتى يصل إلى أكبر مبلغ ممكن إذا أراد بيع شيء، وهكذا نصب عصمت لجعفر شرًا كبيرًا حين أوهمه أن صفوت البرنس -وهو أحد أباطرة البيزنس الغير مُسلط عليهم الأضواء صار صديقًا له ويسهر يوميًا معه قد وافق على عقد شراكة يجمعه بجعفر الذي سلّم نصيبه من المبلغ المراد إلى عصمت ليوصلها إلى البرنس قبل التوقيع على العقد ليثبت حُسن نيته وفرحته بالشراكة التي كانت واهية ولا أساس لها من الصحة، انغمس عصمت في نشوة انتصاره على ضحيته حتى وقع في شرّ أعماله حين تدخّل نائب الدائرة في برخيل في الأمر وتواصل مع



عدد من رجال الأمن السابقين، وأحكم الجميع حصارهم لعصمت وبمساعدة صفوت البرنس استطاعوا الإيقاع بعصمت موصيري الذي لم تنقذه توسلاته ولا دموع زوجته من قبضة من أرادوا تأديبه والفتك به، فأجبر على إعادة المبلغ الذي استولى عليه من جعفر مع مائة ألف من الجنيهات غرامة كعقاب وتأديب له على لعبه القذر مع الكبار، ثم عقدت جلسة صلح بين جعفر بيه وعصمت في مكتب البرنس وهكذا انتهى هذا الفصل السخيف في علاقة الرجلين، لكن قلب عصمت لم يبرد تجاه جعفر وراح يدبر له ما هو أدهى..

وفي شقة جامعة الدول أضحى من الطبيعي أن يزور جعفر عصمتاً كلما حضر إلى القاهرة، خاصة حين شارك صفوت البرنس بالفعل جعفرًا في تأسيس شركة كبيرة للمقاولات والإنشاءات الهندسية، واتخذ البرنس عصمتاً ممثلاً له في تلك الشراكة مقابل راتب كبير ونسبة معقولة من الأرباح، وفي تلك الفترة تعرّف جعفر على فاطيما، ولأشد ما انتابه الذهول حين عرف أنّها ابنة «حامد حفني»، ابن بلدته الشاعر الرومانسي الذي كثيراً ما جالسه على شط الترعة يدندن على الربابة، صديقه وزميل دراسته في الإعدادية والثانوية، ما أصغر الدنيا على اتساعها... انشغل عقله بفاطيما التي راحت تتسرب ببطء داخل نفسه، راقته له كثيراً بخفة دمها



وحيويتها رغم قلة حديثها إلا أن عيونها تقول أحلى كلام؛
فدعاها لزيارة بلدته والتعرّف على والدته وابنه..

كان جعفرًا مُبادرًا أكثر مما توقع عصمت وأكثر مما أرادت
علوية، فأخبرهما وهم جلوس في حديقة السراي بأنه يريد فاطيما
زوجة له، يعرف أنها تصغره بأعوام كثيرة لكنّه سيعوضها عن تلك
السنوات بكل ما يستطيع..

لم تتخل علوية عن زنها المتواصل على أذني ابنة شقيقتها
التي وجدت نفسها وحيدة أمام ضغط وإلحاح خالتها وزوجها،
عليها أن تُدير حياتها وتعرف ما تنوي أن يؤول حالها إليه،
فزواجهما من جعفر سيضمن لها حاضرًا رغدًا ومستقبلًا موفورًا،
فقد عرض الرجل على السنيورة مائة فدان موالح مهر، بالإضافة إلى
مائة أخرى كمؤخر صداق، فكيف لعاقلة ناضجة كفاطيما أن ترفض
تلك الزيجة التي ستؤمن لها مستقبلها ومستقبل شقيقها «وحيد»..

وفي منتصف ١٩٩٩م زُفت طمطم إلى جعفر بيه في
حضور وحيدة سليم الذي امتنع من فكرة زواج أبيه من تلك
الإسكندرانية الطامعة، لكنّه لم يجرؤ على مصارحة والده بشعوره
واكتفى بالصمت حين أبلغه أبوه بالأمر، جعفر أيضًا لم يجرؤ
على الدخول بالعروس في السراي إذ أن الحاجة آمنة ولأول مرة



في عمرها ترفض لولدها طلباً وتُعلن رفضها علانية، لم تترج الحاجة للعروس، فثمة فرص كثيرة لمستقبل أفضل متاحة لصغيرة جميلة كطمطم على جانب كبير من الذكاء فلما ترضى بزواجها من رجل يكبرها بثمانية وعشرين عاماً يشترط عليها ألا تلد له أبناءً، إلا أن تكون لئيمة تضمّر شيئاً، راغبة في المال أكثر من رغبتها في جعفر كزوج وبحسب ابنها من عاناه سابقاً في زيجته برشيده بنت وهدان..

لم تخف أمانة شعورها وكانت حالتها الصحية قد أخذت في الانحدار؛ فلم يرغب ولدها في مجادلتها، كما لم يستطع أن يجبرها على قبول العروس في السراي؛ فاشترى جعفر شقة تمليك في «كفر عبده» أرقى مناطق الإسكندرية لفاطيمة وحاول أن يُذيب الجليد تدريجياً بين والدته وزوجته الشابة، والواقع أن فاطيمة نفسها أرادت ذلك وألحّت على جعفر وأقنعتة أنها هكذا تحافظ على صحة زواجهما؛ فلا تريده أن يستوي حائراً بينها وبين الحاجة الكبيرة؛ فاصطحبها جعفر معه إلى بر خيل بعد أربع أسابيع من الزواج وقابلتها أمانة بهدوء وتحفظ، لم تغمرها بالقبلات ولم تمنحها «ليدة ذهبية» كما فعلت مع إلهام قبل سنوات، لكنها أيضاً لم تقابلها بجفاءٍ وفتور كحالها مع رشيدة



سابقاً، حالة من الترقب باتت بين فاطيما وحماها، استبقتها آمنة في ضيافتها شهراً كاملاً حتى عودة سليم في إجازة سريعة من عند عمته رحمة حيث يدرس في مدرسته الثانوية، وهكذا وجد سليم نفسه أعجز من جدته حيال فاطيما التي لم تُظهر تصرفاً واحداً سيئاً تجاههما ولم تتعمد أبداً أن تأت ما يثيرهما ضدها؛ فانتهى بها الحال إلى إقامة نصف كاملة في السراي، تأتي وتروح مع جعفر بين برخيل والإسكندرية والقاهرة، وفي عام ٢٠٠٠م وبعد وفاة الحاجة آمنة استقرت فاطيما في الدار كسيدة أولى وصار جعفر يروح ويجيء عليها، ثم جاءت ثورة جعفر الكبرى على سليم حين طرده زوج خالته مسعد الزهراوي من داره عقب تهجم سليم على ابنته منة، أحسنت فاطيما التعامل مع أزمة سليم ولم تستغل الموقف وتزيد النار حطباً، وراحت تبرر فعلة سليم وترجعها إلى صغر سنه وحادثة عهده بالفتيات، بل أنها بالغت أكثر حين أقسمت لجعفر قائلة: اقطع دراعي إن ما كانت البت منة دي هي اللي استدرجت سليم اسم الله عليه، أصلك يا جعفر متعرفش حركات البنات دي، وأختك طيبة صدقت كُهن بنتها، الواد معذور والله..

وبعد ما هدأت العاصفة علم سليم بموقف فاطيما وخيّل له أن يراها من زاوية أخرى، وتناقضت عواطفه تجاهها بين القبول



والرفض، تدور بينهما أحداث خفيفة فيراها رقيقة المزاج، مرحلة، يتعاطف معها أحياناً وينفر من ثورات جعفر ضدها وخسروته معها إذا أغضبه، يبتعد سليم ولا يتدخل محاولاً الإصلاح لكنه يتبته جيداً لفاطيمة ويقرأ في عينيها الناعستين صمتاً مشوباً بالهم وربما ندم على تلك الزيجة، يعرف أن والده يدفع شهرياً مبلغاً محترماً لدار الرعاية التي يرقد فيها شقيقها «وحيد»، ربّما تكون زوجة أبيه سجيناً داخل قفص من الحاجة والعوز، وربما يتخيل هو ذلك، على كل حال ابتعد سليم عن السراي حين ألحقه والده بمدرسة ثانوية في المركز وخصص له خادمين مخلصين للقيام على طلباته، حتى إجازات نهاية الأسبوع ونصف العام غالباً ما كان الفتى يزور فيهما حالته سهام في روض الفرج، وحين عادت عمته رحمة إلى بر خيل صار يعرج على البلدة لرؤيتها، فبيت معها في قاعتها الكبرى ثم يأفل عائداً صباحاً، قد تلتقي عيناه بـ «ونيس» إذا ما عرج إلى المطبخ ليحضر شيئاً أو تمر زيارته دون أن يراها بينما تسكن «فاطيمة» قاعتها العلوية لا تغادرها إلا نادراً، وحين أراد جعفر نقل سليم إلى المهندسين في عامه الثاني من الثانوية العامة عرضت عليه زوجته خدماتها، اقترحت أن تسكن هي المهندسين مع سليم بدلاً من إنتقال سهام للسكنى معه، لكن



اقترحها قُوبل بالرفض القاطع من جعفر كما شجعتة رحمة على الرفض؛ فاستمر على موقفه ورفض عرض «طمطم» لكنه شكر إهتمامها على كل حال..

ودارت الأيام والحياة هادئة بين الزوجين لا يعكرها إلا بعض المناوشات التافهة التي لا تخلو منها زيجة، أغلبها حين تطول إقامة فاطيما في شقتها في كفر عبده، أو حين تُعلن عن مللها وسأمها من العيش في الدوّار الكبير، فالسنون لم تفلح في خلق صداقة بينها وبين رحمة التي تسيّدت السراي منذ أن عادت إليها بشكل نهائي في ٢٠٠٣م بعد وفاة مسعد الزهراوي، فرحمة عين أخيها ودرة قلبه، يعتبرها جعفر سيدة الدار الحقيقية خلفاً للحاجة آمنة، فلا يُقطع في السراي أمر دون رأيها ومشورتها، بل أنّه طالب فاطيما بالرضوخ لرحمة واستئذنها في الخروج والدخول، أو إذا ما رغبت في تغيير أو تعديل أمر ما يخص الدوّار، استمرت فاطيما تلح على زوجها ضرورة عودتها إلى الإسكندرية أو إلى القاهرة حيث خالتها ولتكن بالقرب من دار الرعاية التي أودعت فيها شقيقها، فقبل جعفر على مضض بعودتها إلى قرب علوية، فذاك أفضل أو أقل ضرراً من سكناها بمفردها في الإسكندرية..

فحملت حقيبتها ونزلت في شقة استأجرها لها جعفر في



الطابق الثاني من نفس العمارة التي يسكنها عصمت وعلوية في شارع جامعة الدول العربية وصار يزورها بانتظام، أمّا شقة كفر عبده فباعها وألقى بثمنها في المقاولات مع البرنس، لامته فاطيما على تصرفه في شقة الزوجية، كما أنها أولى بثمان الشقة من البرنس، توقّعت أن يودّعه باسمها في البنك، فخاب ظنها، لكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً فلا أحد يمكنه أن يأخذ من جعفر ما لا يريد هو أن يمنحه إياه؛ فسكتت وابتلعت دموعها آملة أن يعوضها ببعض الذهب فكان لها ما أرادت..

حاولت أن تتواصل مع ابنتها وتستشف أخبارها فقوبلت بالرفض الشديد من هاني الصياد الذي أحكم غلق كل قناة قد تصل بين فاطيما وابنتها، وتأكد ظنّها حين قابلت روزا في حديقة النادي الأهلي وحادثتها فوجدتها لا تعلم عنها شيئاً ولا ترى غير ماما «هايدي» -زوجة هاني الصياد- أمّا لها، فحافظت بعد ذلك اللقاء على جمودها وتظاهرت بعدم الاكتراث الذي غالباً ما يفيد بالخيبة أكثر من البرود وعدم الاهتمام..

وفي ٢٠٠٥م أطلّت أزمة جديدة على حياتها الزوجية، اكتشفت أن كائناً رقيقاً سكن داخلها ضد رغبتها ورغبة أبيه، تذكّرت كيف شدّد عليها جعفر ألا تلد؛ فقد اختمرت في عقله



تجربته المرة مع ابنه «نادر»؛ لقد دفعه الحزن ليُعلن بكل قسوة رفضه لأي حدث سعيد قد يستقر في رحم «طمطم» التي اتفقت رؤيتها مع رؤيته بعدم الإنجاب، ربّما استقر في قلبها عدم استمرارية زواجهما مهما طال وربّما لإيمانها بأن أمومتها متناهية الضلالة، كما اتفق ذاك أيضًا مع خوفها الشديد أن يأتي جنينها إلى الدنيا معاقًا كخاله «وحيد»، المُهم أن كل الرؤى تجلّت أمامها أنّ حرمانها لنفسها من الأمومة أفضل من تعاسة جبرية ستعيشها إن صارت أمًا، رَوّعها فعليًا مجرد التفكير في كلمة «ماما»..

شنت فاطيما حربًا ضروس ضد ما استقر في باطنها، كانت تقاتل بضراوة ضده دون أن تُخبر جعفر بالأمر، فبدأت المعركة مُنفردة، وراحت تتخير الطرق التقليدية المُتبعة في ذاك النوع من المعارك، واطبت على اجتراع منقوع بذور السمسم المخلوط بالقرفة المغلية صباح مساء، انتظمت في تناول خمس أقراص إسبرين يوميًا ثم زادت الجرعة لعشر أقراص، راحت تضرب بطنها بقوة، مُقتنعة بسهولة تخلصها من الحمل دون حاجة إلى زيارة الطبيب وإجراء الإجهاض الذي تخشى جدًّا توابعه.. ثم أعيتهما الحيل؛ فقد رفض الجنين مغادرتها؛ فهاتفت زوجها تسأله زيارتها في أسرع وقت... أخبرته أنها سمعت خالتها صدفة



تتحدث مع زوجها تدفعه لشراء قطعة أرض «لُقطة» في «الهانوفيل» ستدخل كردون المباني خلال أشهر قليلة، والأولى أن يشتريها جعفر ليضمها إلى أراضيه التي كثر في «العجمي» وترامت أطرافها، ابتلع «جعفر» الطُّعم وجاءها على عجل يشكرها على إخلاصها وتفضيلها له على خالتها، برهن على امتنانه فأودع في حسابها البنكي خمسين ألفاً من الجنيهات كعمولة لها، فقد خطف الأرض قبل أن يعرضها «عصمت» على أحد زبائنه طامعاً في شراكة كبيرة أو عمولة محترمة... ليلتها تخلّت «طمطم» عن كل ما أزعجها في جعفر سابقاً وكل ما يزعجها منه حينها واستدعت أنوثتها الصارخة وأقنعتة بتناول قُبَّاءٍ من «الترمادول» وبكل طاقتها أَعَوَّتْه، سألته أن يقسو عليها في السرير، فقد قتلها الشوق إلى ساديته، فليأخذ جسدها بلا رحمة... ثلاث ليالٍ متتالية تربع فيها «جعفر» على عرش «سي السيد» منتشياً فرحاً بسطوته عليها، محاولات مُجَهَّدة تكللت بالنجاح واستطاعت الليال القاسية إرغام الجنين على ترك مسكنه الدافئ..

لم يُخبر «جعفر» بما كان... ومرة أخرى ودون علمه أو مشورته واستغلالاً لمساحة من الحرية ظفرت بها «طمطم» بعيداً عنه أجرت عملية «ربط نهائي للرحم» لتهني المسألة بشكل قاطع..



وفي أحد صباحات ديسمبر ٢٠٠٦م تلّقت فاطيما اتصالاً هاتفياً من دار الرعاية يفيدها بوفاة شقيقها «وحيد» بأزمة قلبية مفاجئة، فصدمتها الوفاة وغرقت أياماً في بحر دموعها، وأحسّت بشوقٍ شديد لأختها «جميلة» ولأيام كرموز ولمة العائلة، راحت تلوم نفسها كثيراً، ليتها تزوجت وأنجبت ولدين وبنتين أو أكثر، ليتها كوّنت عائلة تتحول معها الحياة إلى معادلة بسيطة ممتعة دون شقاء الأحلام وخيباتها!!

انزوت في غرفتها تحكم غلقها على نفسها، رأت أنّها بالقطع مجنونة حين أقدمت على كل ما فعلت سابقاً، حين تزوجت هاني الصياد وحين تركت له ابنتها الوحيدة، حين غرّتها لباقة «جلال النمر» فتزوجته، وحين انسحبت من دائرته دون أن تفضح للعامة كذبه وخداعه، وأخيراً حين أقدمت على زواجها من جعفر وقبولها شرط عدم الإنجاب، غيبة بل شديدة الغباء لأنّها رغم فشلها الواضح في خوض كل تجربة مرّت بها راحت تتشبث بالحياة رغم سخافاتهما... أقبلت على المهدئات تتناولها بإفراط وعرفت الخمر وشربته تجاري خالتها علوية وعزوماتها وشلة التريزة منذ أن ينتصف الليل وحتى الصباح الباكر..

: البزنس عايز كده، جاري الجو وبلاش عُقد.



: بس الخمره حرام، بابا كان دائماً يقولى كده لَمَّا نشوف بطل
فيلم ييشرب.

: أبوكِ كان معقد، كان قافل دماغه وقافل عليكم بالضَّبة
والمفتاح، شغلته في الجمارك كانت تعيشكم في نعيم، لكن الله
يرحمه كان قفل ودماغه أنشف من الحَجَر عشان كده مات
ومحلتكوش اللضا.. فُكي... فُكي وسيبك من الهبل ده.

كلمات عصمت وتبريرات علوية يختلطان في رأسها فتشعر
بدووار يبدأ لذيذاً ثم ما يلبث أن يستشرس ليُدهم بقايا ضمير
ينتفض داخلها فتُسارع الى وأده بتناول المزيد من الكؤوس..

وما أن انتصف عام ٢٠٠٧م حتى صارت تلك هي حياتها،
وتيرة واحدة، تنام في سريرها طوال النهار وتسهر على البارتية
طوال الليل، استطاعت أن تفهم اللعبة وتفهم كيف يسير البنس
جنباً إلى جنب مع ورق الكوتشينة وكيف يتزوج المال من الحظ
كلَّمَا تقابلا، لكن قلبها أصبح ذابلاً حتى خطابات باهر لم تعد
تهمها أو تُحدث في نفسها ذلك الأثر المفعم، تكتب له الخطابات
رداً على مراسلاته لكنها ما أن تفيق من نومها عصرًا حت تُمزقها!

لم يعد في حياتها ما يقنعها بأنَّها أقل من جعفر أو ما يُبقيها عليه،
صارت فترات لقاءهما متباعدة خاصة حين انضم إلى شلة البارتية



فتى عشريني، عيناه واسعتان ينطلق من سوادهما شعاعٌ يخلع القلب،
وجهه أسمر نحيل قوي، أنفه أشم ولحيته صغيرة مهذبة، إنه أمير
يسير في عباءة من شباب فجّ، فتى الحلم الوردى والفرص الضائعة!
لم يكن «عمران» سوى زائر جديد لقلبها التوّاق دوماً إلى
الحب، فكان حبه عنيفاً تكشفته معه أمامها حقائق جمّة، إذ لم يكن
حبها لباهر أكثر من شقاوة مراهقة تغلب بها على فوران جسدها
بوهمٍ أخرق، أمّا جلال فلم يكن أكثر من فرصة وهبتها لها الحياة
كهُدنة تهرب بها من كهف ضياع كادت أن تُحبس فيه، أما جعفر
فُسُكوت أحرص ما عادت تُطيقه، غيمة سوداء لا بد أن تُمح!

ثارت في وجه زوجها حين جاءها زائراً، كانت محبطة
يدفعها حبها الجديد لمقاومة يأسٍ تغلغل داخلها، سألتها الطلاق
دون إبداء أسباب، فتجاهل طلبها في البداية ظناً منه أنّها تتدلل
كعادتها، ثم ما لبث أن انتبه إلى جديتها وإصرارها، فتجمع
السخط في عينيها قائلة: انا زهقت من الجوازة دي، رواية بايخة
لأنا ولا أنت عارفين نمثلها كويس ولا بتنسبط واحنا بنأديها،
وكفاية أفكرك إنك كنت صاحب أبويا الله يرحمه!

: فيه إيه جديد جد عليكِ وافكرتي دلوكِ إني كُت صاحب
أبوكِ الله يرحمه؟!



ما كان جعفر بالرجل الذي يمتص ثورة امرأته ولا هو بالذي يقطع من وقته الثمين ليُهددها، ولا هو من يؤمر فيُطاع، أدركه حزن مما طلبت فاطيما، بيد أنه لم ينصع لمطلبها، شجَّعه على ذلك رفض عصمت وعلوية لتهور تلك البلهاء المغفلة... ستقضي الغيبة على مستقبلها وتفرغ حصتها من ميراث ستحملة عن جعفر الثري، الشيخ الذي لن يعيش أكثر مما عاش، تركاها تتنعم بمغازلة فتاها الأسمر وتُنزه نفسها بمشاعره المتدفقة وتُسلي خاطرها بتغزلاته ليس أكثر! إنما أن يبلغ بها العشق مبلغه وتنخرط بكيانها كله في حب ذلك الفتى العربي الذي ينتهي نسبه إلى قبيلة الأوس الحجازية فلا بد أنها واهمة لا محالة، لقد خان فاطيما ذكاؤها وساءت تقديراتها، أترك عصفوراً في اليد من أجل آخر على الشجرة؟ فشجَّعا جعفر بيه على عدم الانصياع لتلك البلهاء، أوهماه أن تصرفاتها لم تعد محسوبة من كثرة ما تتناول من مهدئات ومنومات، نصحاه أن يتركها لتهدأ؛ فتركها جعفر مُعلقة لا هي زوجة ولا هي مُطلقة..

فانغمست في غرامياتها مع «عمران بن معاوية الأوسي»، تتحسس أنوثتها في عينيه وبين أبيات شعره، يزورها باستمرار في بيت خالتها علوية، فهو زبون بارتيته دائم، وفرس شهير من فرسان



السهرة، حاول عصمت استدراجه في أمور البننس؛ فكان عمران يُلقي للرجل عظمة يُلهيه بها عن غرضه الحقيقي ونَيْتَه الدفينة، تكبره فاطيما باثني عشر عامًا، يعرف ذلك، لكنّه أحبها وصار يُدمن لقاءها، فلا حيلة للمرء في العمر، ولا في الرزق، ولا في الحب أيضًا.. فلما يئست فاطيما من رضوخ جعفر لطلبها بالطلاق، وآلمها تجاهل خالتها وزوجها لمطلبها هاتفت سليمًا وطلبت لقاءه بمجرد أن عرفت بعودته من ألمانيا، ترى لها أنه نافذتها الوحيدة على الحرية..

كان ذلك في يونيو ٢٠٠٩م استجاب سليم لطلبها وزارها في شقتها، دخلت عليه الصالون وهي مصممة على أن تطلعه الأمر كله، لا تريد أن تخون جعفرًا ويُميتها أن تستمر في عصمته، صارحته أنها تحمّلت أنفاس زوجها الكريهة وتحمّلت عذابها معه وفارق السن مضطرة، فقد عرفته وهي يائسة يكبلها العوز ويحيط بها الضياع، تدفعها مسئوليتها تجاه شقيقها إلى قبول ما ترفضه، فقد تخلّت شقيقتها جميلة عنها وما عادت تُرسل ما يسد رمقها ولا ما تُطالبها به المستشفى شهريًا، لا تُنكر أنّها تزوجت جعفرًا طامعة لكنّها الآن وحين أدركتها فرصتها الحقيقية لتكون مع رجل تحبه ويحبها ما عاد بها عوزٌ ولا حاجة لجعفر أو لغيره، لم يعد بإمكانها



أن تقدم شيئاً لزوجها ولم تعد ترغب منه شيئاً، فليُساعدوها سليم في استرداد حريتها والحفاظ على اسم أبيه طاهراً نظيفاً، فبطلاقة لها يحمي جعفر اسمه وعرضه وشرفه، ليتَّه يفهم!

استعان سليم على والده بعمته رحمة، لم يطلعها على ما دار بينه وبين زوجة أبيه كاملاً، استطاع أن يبدو أمامها متماسكاً رغم ألسنة لهب تستعر داخله؛ فلم يفش سر فاطيما، وسُرَّ أيما سرور حين استمع مبهور الأنفاس إلى حديث عمته رحمة إلى أخيها حول طلاقه من الاسكندرانية الطامعة، وكأنه يستمع إلى حكمة أفلاطون ومنطق سقراط، فقد فطن سليم إلى تأثير رحمة على أبيه والتي راحت تستغل ذاك التأثير فأخذت علاقة الأخوين تتطور إلى نوعٍ لذيذٍ من الصداقة الحاضرة؛ فاستوى لرحمة نوعٌ من السيطرة الحميمة على جعفر، وفي يديها استقرت مفاتيح شخصيته..

لم يدر جعفر أبداً ببقاء سليم  فاطيما التي أكبرت للشباب معروفه حين حصلت على ورقة الطلاق التي راودتها في أحلامها عامّاً كاملاً، وتنازلت مقابل حريتها ومن أجل عيون عمران عن جنية الموالح مهرها وشكومية ذهبها ومجوهراتها بل أنها بالغت وقبّلت التنازل عن مؤخرها أيضاً، لطمت خالتها خديها حين بلغها الخبر وظلت تولول وتبكي وتقسم أن مسّاً شيطانياً



أصاب فاطيما، لقد جُنّت الملعونة بذاك العربي وأهدرت من أجله كل فرصها في حياة كريمة عنوانها الثراء..

بعدها حدث انقلاب عنيف في علاقتها بفاطيما؛ فما عادت تطيقها، بل صارت تكرهها وتتجنب لقاءها، خشي عصمت على علاقته بجعفر وعلى ما بينهما من تجارةٍ ومصالح، وقد صدق حدسه فقد خفف جعفر مما يربطه بعصمت وأطلع صفوت البرنس على رغبته النهائية في استبدال عصمت بغيره أو إنهاء ما بينهما من مصالح بشكل ودي، فاختر البرنس جعفرًا وتحررت علاقتهما التجارية تمامًا من ابن موصيري؛ فجُنَّ جنونه وكاد يقتل فاطيما لولا أنها هددته بعمران وما يمكنه أن يفعله به بعلاقاته وأمواله إذا ما تطاول عليها مرة أخرى!!

انتهت عدّة فاطيما ومَرَّ بعدها شهران آخران تُقابل عمران في بيتها، تطورت العلاقة بينهما ولم يعد لقاؤهما عفاً ولا شريفاً، وهي راضية، قانعة، آملة في الفوز به زوجاً عمّاً قريب، ثم سافر الحبيب لأمرٍ عائلي طارئ، غاب وطال غيابه، تهاتفه فلا يُجيب وتراسله فلا يرد، فعادت تحلم وتقبض على أحلامها كأنّها آخر ما تملك..

وزارتها ذات ليلة إحدى جوارى عائلته، تهمس في أذنيها أنه يحبها ويريد لقاءها في قصره في المقطم بعيداً عن الأعين؛



فأسرعت وَلِهْه الى لقاءه، وهناك أقسمت له أنها شريفة، عفيفة،
لم تسمح له أن يلمسها إلا لأنَّها أحبته وأخلصت له وخلَّصت
نفسها من زيجة تمنعها عنه، فهو حُلْمها الذي ارتفع بها إلى
السماء، تنتظره أن يتزوجها وتنتقل معه إلى قصره أو إلى أي عُشٍ
يجمعهما حتى وإن كان من قشٍ!

أطلعها أنه يحبها وما عاد يطيق فراقها لكنه فراق كُتب
عليهما، أنه شريف عربي لا يتزوج من غير دمه..

خرست فاطيما ساهمة، ما هذا الخنوع الذي يبدو على
عمران، بل ما هذا التعالي الذي يعاملها به؟! اعترف لها باكيًا أنه
أحبَّها ولم ينتبه لفرط ما بينهما من اختلافات تُحيل زواجهما
مستحيلًا، ضمَّها إلى صدره فسمعت دقات قلبه تدق بعنف كأنها
زلزال، مست شفتاه شفتيها باضطرابٍ، ثم رفع إليها عينيه كأنه
يودعها، لقد علمت عائلته بأمرهما وخيَّروه بين زواجه ممن
أرادوها له أو قتل فاطيما وقتله معها، هكذا هي تقاليدهم وهذا
هو العُرف السائد عندهم، لقد اشترى عُمرها ببعده عنها، لقد
تزوج وما عاد بإمكانه لقاءها..

: مئات السنين بيني وبينك، إنَّ ماتعرفيهم، حكموا علينا
خلاص والحكم اتنفذ..



عادت إلى بيتها ثائرة، يائسة، أقدمت على الانتحار؛ فأُنقذتها خادمتها، ومنذ تلك الليلة لم تر عمران ولم تقابله ولم تتزوج غيره..
تدريجياً نفذ ما معها من مال ومُدخرات، انتابها إحساس غريب بالغرق، فعادت تطرق باب علوية وتجالس زبائن البارتيتة تتكسب رزقها من نسبةٍ تتحصل عليها من خالتها كلما أوقعت بزبون غشيم لا يعرف أصول اللعب، تضحك علوية بشدة وترتبت على كتف فاطيما تهنتها بالمكسب..

وفي ٢٠١٠م تعرّف سليم على روزا في النادي الأهلي، فالفتاة بطلة النادي في السباحة ومرشحة بقوة للفوز ببطولة الجمهورية، كانت فاطيما فيما سبق قد أطلعته على اسم ابنتها كاملاً، فعرف أنّها ابنة هاني الصياد المخرج المعروف، وبدافع إنساني بحث زار فاطيما وأخبرها بالصدفة العجيبة التي وضعت في طريق روزا، فطار قلبها من السعادة، وبصحبة سليم دخلت النادي الأهلي ورأتها من بعيد، غادتها الجميلة تقف ها هنا، تجمعها بها وحدة المكان...
تحرّكت نحوها تريد ضمها إلى صدرها، إلى قلبها، ولو لمرة واحدة، انتفضت كمن مسّته الكهرباء حين رأت روزا تهرع إلى والدتها، مدام هايدي، تحتضنها السيدة الأنيقة وتُلفّ البشكير حول خصرها تجففها فور خروجها من حمام السباحة، فانسحبت فاطيما خارجة من النادي، فلا مفر من الوداع قبل اللقاء..



طوال الطريق إلى شقتها كانت تحكي لسليم حكايتها دون أن تُنقص حرفاً، دون أدنى محاولة منها لتجميل نفسها أو تهذيب صورتها، ارتجف جسدها حين تذكّرت عمران الأوسي وسقطت في بئر من دموع مُرّة..

منذ ذلك الحين وُلدت علاقة إنسانية عنوانها الرحمة والشفقة بينها وبين ابن زوجها السابق، منذ ذلك الحين وُلدت علاقة إنسانية عنوانها الرحمة والشفقة بينها وبين ابن زوجها السابق، لم يرد أبداً أن يحاكمها أو يحكم عليها رغم كل ما أطلعته عليه من ماضٍ لا يُشرفها أن تتذكره، فكيف يحكم ويُحاكم البشر بقلبه وهو ذات القلب الذي خدعه قبل أعوام وأخبره نابضاً أن ميرال تحبه بل أنها تعشقه، فاستيقظ يوماً ليجدها زوجة لغيره بقرارها واختيارها؟! أيحكم على فاطيما ويحاسبها بعقله وهو ذات العقل الذي راح يكرّر له أننا نحب من ليس لنا ونظّل نجه ثم ببساطة نتزوج غيره، فالحب شيء والزواج شيء آخر، كلنا كاذبون موهومون، نرى الشمس ولا نشعر دفئها، فمن ذا الذي يحكم على من ومن يُحاكم من؟! سيرها بإنسانيته وذاك أسمى... ومضى يزورها على فترات يقص عليها أخبار روزا وما صارت إليه أمورها، فأصبحت تراها في النادي من بعيد برفقة سليم



الذي يذهب ليقف مع روزا محادثاً أو ملاطفاً، وذات مرة ناداها سليم وقَدَّمها إلى الفتاة الشابة بصفتها صديقة لوالدته المرحومة، هاهي فاطيما تفتح عينيها على اتساعهما لترى ابتتها، صافحتها فلمستها بيدها وغدا ذاك حقيقياً، فكأنها تولد من جديد، تتنفس بعمق، تملأ صدرها بالهواء النظيف في حضرة روزا، تلك التي يشع من عينيها ضوء أخضر قوي بلون أوراق الشجر، وذات يوم جرّوت أن تحوطها بذراعيها قائلة: ممكن أبوسك؟. فأجابتها ابتتها في أدب: ممكن طبعاً يا طنط..



لم يُطلع سليم أباه على صلته بفاطيما، لم يرغب في إغضابه، يؤمن داخلياً أن جعفر لن يفهم ابداً، إذن لا حاجة إلى مزيد من المشاحنات والمشاجرات والأخذ والرد والتوتر.. يرى جعفر الحياة قاسية، ولا يعيش إلا مَنْ هو أقسى منها، ويراهها سليم رقيقة ناعمة لا تبسط ذراعيها إلا لمن يعرف كيف يعيشها، ينتهى التناقض بين الأصل وفرعه..

وفي ٢٠١١م تَمَّت مداهمة شقة عصمت الموصيري والقبض على الحاضرين جميعاً حول بارتيتة القمار، واعترف المتهمون بأن السيد عصمت وحرمة المصون يديران شقتيها للقمار



وأعمال أخرى منافية للآداب ويتحصلون على مبالغ وعمولات من أصحاب الترابيزة؛ فعُوقِب الرجل وزوجته بالسجن ثلاث سنوات لكليهما؛ فسقطت علوية في قفص الاتهام عند سماعها للحُكم إثر إصابتها بنوبة قلبية مفاجئة ثم تُوفيت في مستشفى السجن بعدها بيومين، ولم تكن فاطيما قد زارتها بعد..

هكذا وجدت طمطم نفسها وحيدة من جديد، عليها أن تجد عملاً تتكسب منه رزقها، فهاتفَت صفوت البرنس بحق العيش والملح تسأله عملاً، فلم تجد لديه ما يُمكنها القيام به، لكنّه أرسلها إلى السيدة «نازلي» صاحبة نادي صحي وصالون تجميل في الزمالك علّها تجد عندها غايتها. وهناك استقبلتها السيدة الأنيقة بترحاب شديد، واصططحبتها إلى الجاكوزي والساونا وجلسة التدليك، فوجدت نفسها تعود عشرة أعوام إلى الوراء، ها قد أصبح جسدها ناعماً كجسد طفل وُلد منذ لحظات، ألقمتها نازلي حكمتها وسر السعادة الأبدية، «لا وقت للحب؛ فلا شيء يدوم، الحب امتلاك نصبح معه عبيداً لمن تهوهم قلوبنا، لا نملك معهم حرية الاختيار، القبول والرفض، أمّا في حياتها الجديدة ستملك حريّتها الكاملة في اختيار من يرافقها، والحرية سر السعادة؛ فالإيجار خيرٌ من الإمتلاك؛ إنّه يمنحنا حرية التغيير والتبديل والانطلاق والتخلص ممّا نرفض!».



وأصبحت فاطيما تلميذة صغيرة بين يدي نازلي، فتحت عينيها على الحياة من زاوية أخرى، تغيّرت طمطم وتبدّلت، فطنت أنّها مازالت جميلة، بل باهرة الجمال، جسدها ممشوق، فخذها مشدودتان وردفاها ممتلئان في تكور مثير، نظرتها مغرية وشفتها مكتظتان في شهوة حادة قادرة على النهم، ربت نازلي على فخذها ذات ليلة قائلة: إنّ مش عارفة قيمة نفسك، يوم ما تعرفي إنّ إيه هتعرفي تحددِي قيمتك كويس يا طمطم.

: هو أنا عاد ليا قيمة يا نازلي؟ قالتها فاطيما بتشكّك.

: طبعًا، إنّ أصغر مني وأحلى كمان، الدنيا مبتديش حد، احنا اللي لازم نخطف من الدنيا اللي احنا عايزينه، افهميها صح بقي عشان تعرفي تعيشي.

تغيّرت فاطيما، تركت شقتها الإيجار في جامعة الدول، سكنت على النيل، تفتح نافذة غرفتها كل صباح فتراه قويًا يافعًا سخيا؛ فتشعر بقوة الحياة وقوة جسدها وقوة الدم الساخن داخل عروقها، رافقت صفوت البرنس وغيره، ينهل الرجال من أنوثتها وتنهل هي من أموالهم وثرواتهم وصفقاتهم ملء كفيها ويزيد..

انقطعت صلتها بسليم منذ سكنت على النيل، خشيت على علاقتها البريئة به أن تشوبها شائبة أو تخالطها رديئة، إلّا



أنَّها في يوليو ٢٠١٤م اكتشفت إصابته بورم خبيث في القولون فتم استئصال جزء كبير منه، خضعت بعده إلى جلسات العلاج الكيماوي وتمثلت فعلياً للشفاء، فطارت إلى الحجاز وأقامت هناك شهراً كاملاً لازمت فيه الصلاة في الحرمين قدر استطاعتها، تعلَّقت بأستار الكعبة، انهمرت عبَّراتها تغسل وجهها ورقبتها معلنة توبتها النصوح، قفلت بعدها عائدة إلى القاهرة، تحاول جاهدة تطهير مالها من كل تلوث طاله، باعت شقَّتها ومساغها واكتفت بتأجير شقة صغيرة من غرفتين في السيدة زينب وأغلقت بابها عليها تصلي وتصوم؛ هاتفَت سليم تطلبه بصوتٍ ضعيفٍ يملؤه الرجاء، جاءها مسرعاً، صدمته أخبارها لكنَّه تماسك، سألتَه المساعدة فأشار عليها بإيداع ماتبقَّى معها في مشروعه التجاري «المشغل» الذي تركه لبنات رحمة المَاهرات ليُدْرنه بعد وفاة عمتِه، على أن يصير لها نسبة من الأرباح تصرفها كل ستة أشهر، فوافقت على الفور مبتهجة برأيه ومشورته، قبَّلت جبهته وربَّتت على كتفه تدعو: ربنا يكفك شر الغفلة يا سليم.

عامانٍ ونصف بعدها وداهمها المرض معاوداً التكرار على نطاقٍ أوسع وانتشارٍ أعمق، فطارت روحها إلى بارئها صباح عيد ميلادها التاسع والأربعين، تاركة توكيلاً ووصيةً لسليم، «أن



يتبرع بكل ما تملك لصالح معهد الأورام» تركتها أمانة في عنق الرجل الوحيد الذي احترم إنسانيتها وعاملها بآدمية وذوق؛ فلم يطالبها يوماً بمقابل، ولم يجرح إحساسها بكلمة أو يخذش أنوثتها بنظرة، إنه سليم، ذلك الفتى الذي رآته بريئاً طازجاً يوم تزوّجت أباه من ثمانية عشر عاماً وظلّ على برأته وعلى عهدّها به حتى توفّاها المولى، تحتاجه فيظهر، تسأله فيجيب، كم تمنّت أن يكون لها أخ أو ابن مثله، بل رآته بقلبها ابناً، الوحيد الذي أئتمنته على نسخةٍ من مفتاح شقتها، يزورها متى يشاء فيجدها جالسة على أريكة منخفضة في ركن الصالة وقد ارتدت إسدال الصلاة، فما أن تُنهي صلواتها حتى يجلس بجوارها متكئاً برأسه على كتفها مُمدّداً ساقيه على الأريكة؛ فيحس بأصابعها تعبت في شعره وأنفها وشفتيها تمس رأسه هامة: بحب ريحة شعرك يا ابن جعفر.

فيضحك قائلاً: مالك ومال أبوي باقى دلوقتي ولاهي تماحيك يا طمطم؟!.. فتضحك حتى تظهر نواجذها..

في إحدى زياراته أخبرها أن روزا الصياد قد حُطبت إلى صديقه أسامة البرنس، رجل ثلاثيني يحبها كثيراً ويرغب بها جداً، لكنّه وبكل تأكيد لن يتغير من أجلها، فابن البرنس كأبيه، يشرب ويُعربد ويعاشر النساء، قد تكون لحظة صادمة حين تكتشف روزا



ذلك، وقد يخونها الحظ فتظل في غفلتها عن حقيقة خطيئها حتى تقع الفاس في الراس فيصير الأمر أكثر إيلاماً..

صمتت فاطيما برهة سرحت خلالها في فضاء الكون، ثم أجابت سليماً: قلبي يقولني إن ربنا مش هيقذلني في بنتي، روزا بنت قوية وبطلة رياضية، الخسارة ماتكسر هاش وربنا أكيد هينور لها بصيرتها.

أسابيع بعدها وعاد سليم يخبرها أن الخطوبة انتهت، فقد اكتشفت روزا حقيقة أسامة، ولم تسمح لرجل مثله أن يُسممها، فاعترفت له فاطيما أنّها باتت ليالٍ تتضرع إلى الله مبتهلة أن ينقذ وحيدتها، لقد زارت السيدة نفيسة وسيدنا الحسين، تبرعت بغسل سجاجيد المسجد المجاور لبيتها وانكبت على الأرضية تمسحها رغم حالتها الصحية، أطلقت النذور وعجلت في تنفيذها من أجل عيون روزا..

أمسك سليم يدها يُقبلها قائلاً: ياريتها تعرف إنك مامتها.
: إوعى.. إوعى يا سليم تقولها، أرجوك.. ماتأذنيش فيها.



قبيل وفاتها رافقها سليم ذات مرة للطبيب المشرف على حالتها، كانت زيارة دورية يُحدّد على أساسها استمرارها في



جلسات العلاج الكيماوي من عدمه، كانت قلقة وكان سليم أكثر قلقاً منها، فالتفت نحوه تربت بيدها على كتفه تقول: إن شاء الله خير، الدكتور لمّا يشوف التحاليل الأخيرة دي هيقولي أوقف جلسات العذاب، متقلقش عليا.

رفع سليم يده ومرّر سبابته على جبينها يرفع خصلة انفلتت خارج حجابها دون إرادتها قائلاً: أنا مطمئن طول ما أنت مطمئة يا طمطومتي. آه.. الفرق كبير بين ما يتمناه المرء وما يُقدّر عليه الخوض فيه... فاقتراب سليم منها أتاح له مشاهدة حقيقتها الهشة، فصار يقابلها بغصة لهفة ويفارقها بغصة خشية، في كل مرة يخاف أن يكون لقاءه بها هو الأخير..

وفي ضعفها ضبّطت فاطيما نفسها متلبسة بترقب رقيق حنان يضعه سليم في فمها الجائع لكل حب واهتمام كصبيّة تتسكع أمام باب الرحمة دون أن يلتفت أحدهم إلى حاجتها سوى ابن زوجها السابق!! سألته ذات مرة: إنّت حبيت يا سليم؟ فأجابها: بحب اللي بتبقى معايا.

: بس ده ماييقاش حب.

:يمكن، بس ده أحسنلي من الحب، ده إجراء احترازي يا طمطم، الحب بهدلة، ميناخذش منه غير وجع القلب والحسرة اللي بتفضل تنخر في الضلوع لغاية ما تخلعها من مكانها.



: يعني بدمتك عمرك ما حيت ؟

: إنت مالك النهاردة يا طمطم ؟

: عايزة أعرفك أكثر يا سليم .. والواحد منا مايبقاش على طبيعته إلا لما يحب .

: حبيت مرة .. وبدا وكأنه ينفض عن نفسه شبحاً جثم عليه ، وقف ، ثم مدّ يده يوقفها قائلاً : تعالي نخرج نتعشى برا ، مليش مزاج أقعد النهاردة في البيت .

: بتهرب يا ابن جعفر ؟

: بصراحة آه ، مبحبش أكذب عليك وإنت عارفة كده كويس ومش عايز أتألم قدامك ..

ترقرقت عيناه بستار من دمعات غالية ، فرأت فاطيما أن تُغير مجرى الحديث رافةً بقلب جميل لا تتمنى له إلا كل جميل .
فقالَت مَمازحة : طيب ، هتعشيني في الحُسَيْن ؟

فأجاب وقد ارتسمت ابتسامة شقاوة على شفّتيه : وهقععدك على الفيشاوي كمان ، مبسوطه ؟ بس نتفق من دلوقت ، مفيش شيشة عشان صحتك يا قمر .

: مبسوطه ، مبسوطه لإني معاك يا أحسن راجل شوفته في حياتي ، وكلامك يمشي عليا وعلى اللي خلفوني كمان .



: يا سلام.. يا سلام.. ده حب بقى؟ أنا كده هتغر؟

: يجبر بخاطرك ربنا يا سيسو، أتغر براحتك يا قلبي..

ثم أحاطته بذراعيها في حنانٍ أخت كبيرة، فقبلها بين ناظريها..

هكذا كان عهدا بسليم ابن جعفر عبد القادر أبو ستين فقد هيات لهما الظروف فرصةً حقيقية طيبة يتبادلان من خلالها علاقة صداقة بريئة وأخوة متينة، تلك الصلات الروحية التي تُحدث في نفوسنا البشرية تغييرات قيمة لا تذوب مع الزمن..

ربّما جمع بين قلبيهما مصابهما الجلل في العشق وتجاربهما المنهكة فيه، ألمهما العنيف فيمن عشقتهما القلوب وتمردُهما الجسور على خسارتهما الصارمة في الحياة وزيجاتهما التي كانت دوماً تعرج كفرسٍ مصابة في سباق أصيل!

طمطم وسليم، سليم وطمطم كلاهما من مواليد مارس، كلاهما يعشق القهوة ويكره الشاي، كلاهما لا يحب النوم مبكراً، وكلاهما قد مسّه الغرام فأكل فؤاده، كلاهما «حَبٌ ولا طَالَش»..

بكاها سليم واستأذن والده في أن يدفنها إلى جوار أمه إلهام، وجدته آمنة، وعمته رحمة، في مدافن العائلة، فقد كانت في يومٍ من الأيام من نساء آل أبو ستين وليس من الإنسانية أن يتركها لتُدفن



في مدافن الصدقة، وافق جعفر في سكون وصمت، وفي قرارة
نفسه حمد لسليم موقفه ورجولته، وقد أطلع جعفر قبلها على
علاقة ولده بزوجة أبيه السابقة، أخبره سليم بالأمر كله حين داهم
المرض فاطيما في المرة الثانية بشراسة وراحت هي تقاتله بضراوة
ثم سقطت خائفة مهزومة... كان ذلك قبيل رحيلها بفترة وجيزة
في مارس ٢٠١٧م..

رحلت طمطم وفي قلبها مستعمرة عشق لرجل وقف معها
ومسح دموعها، ساعدها مرارًا للتضحك، حكّت له كل وجعها
فساندها.. قبلها كما هي، بذنوبها وتوبتها ودومًا كان متواجداً
كلّما احتاجته، في وقت الفرح ووقت الحزن..





(٧)

ونيساء بيومى السيد

(المولودة في ١٢ سبتمبر ١٩٨٥م)

حفيدة الست زمردة النوبية، وصيفة الحاجة أمنة النابلسية وخادمتها الأمانة، جاءت إلى الدنيا بعد تسعة أشهر فقط من زواج والديها، «بيومى» الكلاف والفلاح الأجير في أرض آل أبو ستين والذي تزوج بالقسط والسلف من «صابحة»، الابنة الوحيدة لأُمها زمردة خادمة سيده السراي..

نبتت بذرة أبيها في رحم أمها في ليلة الدخلة أو في أي من الليال الأولى التي تلتها، ولدت لتتبع لسفلة القوم وأشدّهم حاجة وأعمقهم جهلاً، بيومى لا يقرأ ولا يكتب، لا يعرف من الحياة إلا أن يزرع الأرض ويحراثها، يضع العلف للبهائم ويعتني بهم أكثر ممّا يعتني بزوجته وصغاره، يلهث خلف عربة سيده مهلهلاً بقدومه أو مودّعاً لرحيله، يأكل ما يجِد، يشرب الكثير من الشاي المغلي ويتعاطى الحشيش، يُجامع صابحة أو يضربها لافرق، يتجشأ ثم ينام، ورغم فقره فقد كان شديد الحرص على أن يكون جلبابه نظيفاً كل جمعة، يُسرّع إلى الزاوية، يستمع لخطبة الإمام، يصلي خلفه ثم يعود يردد ما سمعه سواء فهمه أم لا، يعلم جيداً



أن السرقة حرام، الظلم حرام والكذب أيضًا حرام، وأن الطاعة لأولي الأمر واجبة، وأن الرجال قوامون على النساء، وأنهن خلقتن من ضلع أعوج، وأن للرجل منهن مثني وثلاث ورُباع... لا يُحب زوجته ولا يكرهها، ولا ضرورة للحب مادامت المرأة تخدمه وتطيعه وتُتجنب له البنين والبنات، وحين يقرصه الجوع وتجف منابع الرزق ترع «صابحة» إلى أمها زمردة أو مخدومتها الحاجة الكبيرة، تغيب ساعة ثم تعود تحمل من الخيرات ما يكفي الأسرة لأيام أو لأسابيع، «فطير مشلتت، بط وحمّام وبيض، وبعض الحبوب»، فيبيع بعض ما تحصلت عليه زوجته ليشتري بثمنه المزاج والدخان ثم يعود ليأكل البقية، شرة ذو فم كبير وبلعوم واسع، لا يتوقف عن مضغ الطعام وسب زوجته ومص القصب..

أما ونيسة فجاءت إلى الدنيا في دار يغلب على ساكنيها الصمت، كل نصيبها منها حصيرة ووسادة وكوز ماء وضعت أمها في يدها حين أتمت التاسعة وعلمتها كيف تغسل قدمي أبيها عند عودته من الغيط، وكيف ترتق ثوبه إن تمزق..

تسحبها صابحة معها أحيانًا إلى سراي جعفر بيه فيملؤها العجب من فخامة وجمال ما ترى، ويملؤها الزهو لأنها الوحيدة من بين قريناتهما من فتيات البلدة التي تدخل السراي وتشاهد



«سليم البيه» وجهًا لوجه، بل وتُحدّثه ويُحدّثها حينًا وتجالسه ويجالسها حينًا آخر حين تسرد الحاجة آمنة على مسامعهما حكاياتها الثرية الآخاذة..

ورغم جسد نحيل ورثته عن أمّها إلا أنه كان يتوجب عليها دومًا أن تحمل فوق رأسها «زُلْعَة» ثقيلة مملوءة يتلوى عنقها تحتها، تجتهد لتحفظ توازنها وهي تسير بينما تستقر الزلعة فوق رأسها بطريقة درّبتها عليها جدتها لتساعد أمها صابحة في شغل الدار؛ فشغل الدار لا ينفّض، وأخوتها صغار كُثُر تأكلهم الأمراض ويصطادهم الموت كما تصطاد الحِدَايَة الكتاكيت، يعانون من ضعف البنية وسوء التغذية، فلا يتجاوز عمر أحدهم السنتين أو الثلاث حتى يخطفه القدر بعيدًا، لم ينجو من ذلك المصير الأسود إلّاها وشقيقها «شعبان» الذي يصغرها بعام..

كانت صغيرة، لم يكتمل بروز ثدييها بعد حين خرجت إلى الحقل تحمل السّباح فوق رأسها ثم شغلها اللعب مع الماعز، رآها سليم، الفتى الوسيم، عميق العينين، سيدها وربيب نعمتها، أهداها حلوى لذيذة لم تتذوقها من قبل، سألته بعفوية: ايه دي يا سيدي؟ أجابها مبتسمًا: ملبن بالمكسرات، هيعجبك أوي.. راق لها كثيرًا طعم الملبن، حلاوته والسكر الأبيض الناعم



الذي يغطيه، راقّت لها أكثر طيبة «الييه الصغير» ورقته معها... سألته أن ينزل معها التربة؛ فرفض، فتعليمات جدته آمنة واضحة بخصوص التربة، وفي اليوم التالي سألتها أن تتركب معه الساقية، ففعلت وقلبها يرفرف سعادة..

صار من المؤلف أن يلتقيا في الحقل قبيل المغيب، يُحضر لها «الملبن أبو سكر» أو «أقراص السمسمية والفول السوداني المُحلى بعسل النحل».. يقرأ لها سليم كتاباً أو يقص عليها قصة، يُمازحها أو يعدو خلفها، فلا تفلت منه، يتبعها داخل حُصّ بعيد عن الأعين، وتحت القش يرقدان ويلعبان معاً لعبة «عريس وعروسة»... تلك اللعبة التي تسمع أو ترى والديها يلعبانها في الليل البهيم حين يظنان أنها وشعبان قد غلبهما النوم، يركبان فوق بعضهما البعض فيُصْدر سريرهما النحاسي صريراً مزعجاً تنفتح معه عيون صغارهما فيتابعانها بحرصٍ من خلال شقوق أحدثها الزمن في الغطاء..

مع سليم كانت تشعر بلذةٍ شديدةٍ تنبعث من مكان فيها لا تعرفه تحديداً، لكنّها تغمض عينيها فيُخيل لها أنها تطير معه إلى سماوات ملونة؛ فتنتشي ويرتجف بدنهما من فرط اللذة والسعادة.. لم تكن يد سليم فقط هي التي تتحرك فوق جسدها، ففي بعض الليالي وحين يغرق والديها في سباتٍ عميق، يُجاورها



شعبان ويلتصق بها بشدة وبعنف، يرفع جلبابها عن ساقها، يفعل ما يفعله سليم وأكثر، لكنَّها معه لا تشعر بتلك اللذة التي تنبعث من مكان مجهول من كيانها ومعلوم من جسدها، تغمض عينيها تبحث عن لذتها فلا تجدها وكأن تلك اللذة والرجفة جزء من «سليم بيه»، وتختفي معه حين يفارقها..

لم تكن سوى طفلة تقف بسنواتها الاثني عشر على أعتاب المراهقة، يُخايلها سيدها ذو الثلاثة عشر ربيعاً يُغني لها بصوتٍ عذب، صوتٌ نُحت من بئر رجولة فتية تسبق آوانها بكثير..

يصورها بكاميرته التي لا تفارقه، يدلِّلها ويفرك لها جلدها بنعومة داخل مغطس حمامه المملوء بالماء الدافئ وزيت اللافندر، وفوق كُتبه يضع لها وردة، وحين تنتهي أجازته يعود أدراجه إلى المركز حيث يدرس بينما هي تحمل فوق رأسها «السَّبت» الكبير مُكدِّساً بالفطير والبط والوز والحمام المحشي بالفريك والذي سهرت تعاون أمها في تحضيره وحَشِيَّه دون أن تذوقه، ثم تضعه في السيارة التي يستقلها البيه الصغير إلى حيث يذهب..

تتحرك السيارة، يتعد «سليم بيه» عن ناظرها وتبتعد معه روحها عن جسدها، تعود أدراجها مُطرقة الرأس، لا يفارق خيالها صورته، صوته، أصابعه، لمسته وما أحلاها، وما أعمقها!!



لا تنفك تسأل نفسها: أنا مين؟ لكنّها تعترف داخلها أنّها تُحبّ اليه، لكن ما جدوى الحب إن كانت ستقضي بقية عمرها تكنس الروث تحت البهائم، تُقرّص الجِلّة، تعجن وتخبز، ثم تفرسها أصابع شعبان ليلاً تعبث بها بعنفٍ وغلظة ولا تستطيع أن تفتح فاهها وإلا لأوسعها أبوها ضرباً وربّما قتلها!!

وحين زاد ما يفعله شعبان عن الحد وما عادت تحتل سخافته ولزجه، أفضت إلى أمها بالأمر وهي ترتجف، طالبتها أن تحميها وتخلصها من سخف شعبان ووقاحته؛ فضربتها صابحة بعصا غليظة ضرباً مبرحاً وحبستها في الزريبة مع البهائم يوماً وليلة دون طعام، لم تخبر أباهما بما جرى، لم تعاقب شعبان أو حتى تعاتبه، وفي الصباح أتت بـ «سكينة» بنت «أم شلبي» التي ورثت عن أمها تكشيرتها وكارها، رقدت صابحة بفخذها فوق ونيسة بينما مدت المرأة يدها تحت ملابس الفتاة تنزعها بجرأة وخشونة وبشفرة موس حادة قطعت قطعةً من اللحم بين فخذيها، ثم كبست الجرح بتراب الفرن المُبلل بقطراتٍ من عصير الليمون تطهره، كادت تموت وتعالّت صرخاتها وصارت تتلوى من الألم بينما تلكرها أمها وتقرصها في فخذها قائلة: الأدب للبت حلو مفيش كلام، حِسْكِ عينك تفتحني خشمك تاني بالعفش اللي جولتيه عشيّة.



قالت ما قالت وغابت عنها ساعة، ثم عادت تحمل كوبًا من «الحلبة الساخنة» و«فطيرة وقطعة جبن»، وضعتهم جميعًا أمامها وأمرتها أن تأكل وتشرب لتعوّض ما فقدت من دماء، أخبرتها أن «سكينة الداية» ستأتيها صباحًا لتطمئن على الجرح بنفسها، فقد منحتها جدتها زُمردة خمسين جنيهًا زيادة عن أجرها لتُعاود تفحص ما صنعت، ظلت «ونيس» تبكي طوال الليل تعتصرها الحسرة ويغشاها الخزي، يعبث شعبان بها ويجسدها، فتُعاقب هي ويجلس هو أمام الدار يمضغ العسلية!! جاءتها «سكينة» صباحًا بذات الوجه وبنفس التكشيرة، وعلى حصيرتها أمرتها أن تتمدد، ولتنزع ما يستر عورتها، وجلّت الفتاة المسكينة ونحو أمها نظرت، فأسرعت صابحة إليها وأمسكت بمعصمها وجعلتها تستلقي على ظهرها ويديها فتحت ما بين ساقَي الفتاة وراحت سكينة تُمعن النظر وتُقلّب بيدها قطعة الشاش المتروكة هناك منذ الأمس، ثم نزعها قائلة: الجرح زي الفُل، هنغير عليه النهاردة وبكرا تبجوا تشيلوا الغيار.

ومنذ ذلك اليوم لم تُعد صابحة تُرسلها إلى الحقل، لقد استوت صبية وعليها تحمّل أعباء الدار كاملة، تَلّت وتعجن، تلسع حرارة الفرن وجهها ويحرق وهجُه أطراف شعرها بينما يحرق الحزن أخضر سنواتها..



عاد سليم من دراسته، أهداها عُقدًا وكاسيتًا صغيرًا وشرائط تحمل أغاني «سميرة سعيد» و«لطيفة»، حاولت أمامه أن تتماسك، كل شيء كان يدفعها لأن تقع في غرامه، قاومت، تأرجحت، غاصت فلم يمسكها إلا هاتان العينان العميقتان، فتمسكت بهما وانهرمت أمامهما فرحة بهزيمتها..

لكن أصابع سليم بيه تاهت عنها، لم تعد أنامله مُهتمة بالعزف على جسدها، ما عاد يدعوها لتستلقي تحته في الخص، لا تدري، هل عرف أنهم اقتصوا من لحمها شيئًا فعَفَّت نفسه عنها بعد نُقصانها، تمت أن تتحلى بالجرأة لتسأله، لتدعوه إلى الخُص والقش، تشعر بالغيظ حين يذهب بها إلى الحقل والساقية دون أن يدعوها لتدخل مخبأهما السري جدًا... لقد ازدراها وامتنع عنها، وعلى وسادتها ليلاً انفرطت دمعاتها، تأسف على كيانٍ فقدته وفقدت معه تلك اللذة الشديدة والرغبة اللذيذة..

لم تكن تعلم أنه امتنع عنها ليس نفورًا منها بل احترامًا لآدميتها وإجلالًا لحرمة جسدها؛ فقد سألته جدته آمنة حين رآته يُدلك كَتِف ونيصة ثم نزل بأسفنجته المملوءة بالرغوة فوق ظهرها بينما هي تجلس مستمتعة، مستسلمة للمساة داخل حوض الاستحمام، هالها ما رأت من فتحة ضيقة في باب حمام غرفته الذي لم يوصده جيدًا، لكنّها تمالكت صدمتها بسرعة؛ فأغلقت



عليهما باب الحمام جيداً خشية أن يراها غيرهما، حينها لن يحميها أحد من بطش جعفر ولن يستطع أحد التنبؤ بتصرف «بيومي» حينها مع ابنته. ثوان ثم طرقت الباب طرقات متتابة وانصرفت، تنبه سليم للطرقات وفزعت ونيسة فقفزت من المسبح والتقطت ملابسها الرثة تسارع في ارتدائها بينما جسدها مازال مكسياً بفقاغات الشامبو وشعرها الأسود الطويل منسدلاً على ظهرها تتساقط منه قطرات الماء... وفي المساء عاتبت أمانة الفتى الصغير وبنبرة رحيمة حازمة قالت: ونيسة أمانة عندنا يا سليم ولازم نحافظ عليها لصاحب نصيبها، هي فقيرة يا ولدي وماحليتهاش غير شرفها تتسند عليه، إوعاك تاخذ شيء مش من حقك يا نور عيني، رسولنا الكريم ﷺ قال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

غمغم الفتى وهو يخفض رأسه متحاشياً النظر في عيني جدته: حاضر، أوعدك إني مش هخون الأمانة.. ومن النهاردة مش هلمس ونيسة تاني يا جدتي..



مرّت السنوات، كبرت ونيسة وكبر سليم بيه، وانتقل ليدرس الثانوي في سوهاج وهناك سكن مع عمته رحمة وشغلته ابنتها «منّة» وما عاد يفكر في ونيسة ولا غيرها؛ فانصرف عنها ولم



يُعدُّ يشاغلها، بالأحرى لم يُعدُّ يمرر أصابعه الطويلة الممشوقة ذات الأظافر النظيفة المنمقة على جسدها الذي قتله الشوق إلى بصمات سيدها سليم..

وفي ٢٠٠٢م وحين أتمَّت ونيسة السابعة عشر توفيت «صابحة» بعد أن أصابتها نوبة حمى صاحبها نزيف شديد لم يُعرف له سبب، أصبح بيومي بعدها رجلاً آخر، يخرج كثيراً وينام كثيراً، لم يعد يضحك أو حتى يبتسم، عرف بالتجربة والبيان كم كان يحب زوجته، وكم احتملته هي واحتملت عصبيته وأنانيته وعلقاته الساخنة التي ينهال بها على جسدها كلما مات له ولد أو بنت، فإذا أفرغ بها غضبه مسحت دموعها، وفي صمت وآلية تنهض لتُعد له العشاء، فييومي لا ينام أبداً دون أن يشبع مهما كانت الظروف والأحوال!

وبعد الأربعين تزوج بيومي «لواحظ»، مطلقة بيضاء ممثلة القوام، بطيئة الحركة، باردة القلب، وبسهولة ويُسر أقنعت أن يُزوَّج ابنته من خالها «الحاج فضل»، موظف حكومي خرج على المعاش منذ بضعة أشهر، أرمل وحيد بعدما تزوج ابنه وغادره ليقطن مع عروسه في قرية مجاورة، أقنعت أن ونيسة لم تعد صغيرة، فقد تأخر زواجهما، فمثيلاً من بنات البلدة قد تزوجن وانجن، كما أنَّها فقيرة وجاهلة لا تُفك الخط ولا تعرف الألف من كوز الذرة، فهل



سيتزوجها موظف أو مدرس؟ مَنْ تراه سيطلع فيها أو في مصاهرة
بيومي الفلاح الأجير، دعتَه أن يزوجه لرجل يصونها ويتكفل بعناء
لقمتها.. أفكارٌ ملحة صارت لوحظ تَدْسهَا في جمجمة زوجها كلما
جلس إليها، اعترضت ونيسة على زواجها من الحاج فضل، فالرجل
يكبرها بثلاث وأربعين عامًا، لكن شقيقها شعبان أقنعها أن تقبل،
فالزواج سُترة وهو فرصتها الوحيدة لتخرج من الدار ذات الجدران
الطينية إلى شقة مريحة وأثاث محترم، استعان عليها بجدها زمردة
التي ربت على كتفها وبطيبة وهدوء أخبرتها أن الرجل الكبير
المعروف أصله وفَصْله أفضل من شابٍ أرعن ربما يُهينها ويضربها،
وأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه، والحاج فضل ميسور الحال ومعه
ستأكل حتى تشبع وسيعرف جسدها الفساتين والعبايا المُنطرزة
بدلاً من الجلابيب وهلاهيل بيومي الكُحيت وبقايا طعامه..

تزوَّجت ونيسة الحاج فضل دون عُرس ولا حِنَّة، أصبح لها
غرفة نوم وتسريحة وزجاجة عطر وعباءة مطرزة، وفي بيتها طقم
صالون وكراسي وتلفزيون ملون ومروحة... يتركها زوجها
طوال النهار بمفردها فهو دائم الانشغال بتجارته، فمنذ المعاش
صار يبيع كل شيء ويشترى كل شيء، وفي مقهى البلدة عصرًا يجلس
على ذات الطاولة كل يوم، لا تفارق الشيشة يده، وسرعان ما



يتحولق حوله رواد المقهى طامعين راغبين في استشاراته القانونية ورأيه السديد، فالرجل كان مُحَضَّر محكمة لسنوات طويلة، وفي الليل يلف ذراعيه وساقيه حولها عابثاً بجسدها في نهم يُصاحبه تيه، فيستوى كلباً ينيح دون أن يَعُض، فلا تجد معه لذة إنما ألم يتبعه قرف وغثيان... وحين ترتخي عضلاته ويفك حصاره عنها تسحب نفسها بهدوء من تحته وتسير على أطراف أصابعها تغسل جسدها كله بالماء والصابون عدة مرات ثم تعود إلى جوار زوجها، تتكور على طرف السرير تحتضن وسادتها تبكي حظها..

شهران ثم تزوج شقيقها شعبان من «سعاد» ابنة زوجة أبيه، هكذا أطبقت لواحد قبضتها على الدار وصاحبها وابنه في آن واحد..

كان للحاج فضل معاشاً ميسوراً إذا ما قُورن بما يكسبه أبوها بيومي، لكنه رجل بخيل لحدٍ كبير، يترك لوليسة مصروف البيت على التلفزيون اليوم بيومه ثم يحاسبها مساءً فيما صرفت المبلغ، يُحاسبها بالمليم ويسألها أن تُحسن إنفاق ما يمنحه لها، فالسما لا تمطر جنيتها والدنيا غلا نار، وفي عطلة يُلَازمها في البيت مراقباً وهي تطبخ، وهي تغسل، يُعاقبها إذا ما بُلِيت صابونة الحوض قبل انتهاء الشهر، يصيح بها إذا ما أسرفت في وضع السمن أو طبخت أكثر من كوب أرز، يسمح لها بطهو اللحم مرتين



شهريًا، يفتش القمامة قبل أن تُخرجها ونيسة فإذا وجد فيها بقايا طعام يصيح بصوت يسمعه الجيران يسبها بأبشع الألفاظ ثم ينهال عليها ضربًا حتى يتعب... وذات يوم فلتت من يدها علبة السمن وسقط نصفها على الأرض، ضربها يومها بالحذاء حتى تورم وجهها وجسدها، فذهبت تشتكي لأبيها ودموعها تسبقها، لم يستمع بيومي لشكواها فقد انشغل عن همها بسيجارته المحشوة بالحشيش، أخبرها أن كل الأزواج يضربون زوجاتهم، هو نفسه كان يضرب أمها إذا ما وجب تأديبها، والحاج فضل رجل على بئنه؛ فالدين يُسحّض ضرب الزوجة إن أخطأت، فسألته منفعة: طَبَّ إِنْتَ يابا ما بتضربش لوا حظ ليه؟!

فأجابها مزمجراً: عشان هي ما تستحجش الضرب، هي مريحاني وشايفه مزاجي، يبجى أضربها ليه؟؟ ولا هو افتر يا بنت صابحة، غوري من وشي الساعة دي، جاك خابط..

ليس جديداً أن يهينها والدها وما عساه يتوقف، فالمرأة أقل شأنًا من الرجل، هو يُخطئ وهي تُعاقب، سؤال مباغت قفز في وجدانها، ياترى كيف سيُعامل سليم بيه امرأته؟ ثم أطلقت ونيسة لعينها العنان فانهمرت شلالات دموعها تحرق وجتيها الرقيقتين... وقبل أن يحل المساء أعادها بيومي إلى بيت فضل واعتذر له عمًا بدر منها..



لم يُحدثها زوجها في تلك الليلة، بل إنه أمرها أن تبيت على الكنبه في الصلاة، وفي الصباح أعدت الفطور، وحين جلس فضل على مقعده ليأكل جلست هي أيضًا وقبل أن يضع لقمة في فمه رفع بصره نحوها قائلاً: إيه اللي جابك؟ أبوك ماستحملش يوكلك كام يوم فرماك عليّ، عشان تعرفي إن ملكيش غيري يا بنت الوس.....

لم تكن المرة الأولى التي يسبها فيها بذاك اللفظ الفاحش، لكنّها لم تستطع هذه المرة أن تحتمل، أن تكتم غيظها وأن تجمع قهرها، فانفجرت باكية وبصوت عال قالت: وإنّ مين غيري يستحملك يا راجل يا عجوز يا شايب، ابنك ومَرّته ماطلّوش في وشك من ساعة ماتعجوزوا، سابوك هنا وفروا بجلدهم.

: انا هوريكي العجوز ده هيعمل فيك إيه يا فاجرة... انقض عليها كالكلب المسعور، مزّق ملابسها، ربط ضفيريها في رجل طاولة الطعام وكتّم أنفاسها، وبغير إرادة منها اقتحمها فلم تتحرك، لم تبد مقاومة كأنها جسد ميت لا روح فيه، تركها بعدها على الأرض تنن حيث كانت كفردة حذاء خلعتها أو سقطت منه.. تكرّر المشهد كثيرًا، بات فضل يضرها بسبب وبدون سبب، يتركها في البيت دون طعام ودون مصروف، هرعت إلى جدتها زُمردة تستنجد بها، فوجدتها مريضة وحالتها يرثى لها؛ فعادت



منكسرة دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة، تغسل وتطبخ وتقوم على خدمة بيتها وزوجها، تتحرك في أرجاء الدار كقطعة حجر أصم قُذِف من السماء، ثم ترمي جسدها ليلاً وقد سكنته التعاسة على السرير تدعو الله أن يرحمها برحمته..

لم تعد ترفع عينها في وجه فضل، يسحبها إلى السرير متى شاء، ثم يغادرها لينام على كنبه في الصالة بجوار النافذة، يتركها عاجزة عن الحركة، إحساسها أثقل من أن تحتمله أو تُعبر عنه.. ولأن ربك رحيم، فلم تطل معاناتها أكثر من سبعة أشهر، توفي «فضل» ولم يترك لها مليمًا أحمر، كتب الشقة لولده وأوصى له بكل ما كان يملك، وعادت ونيسة بحقيبة ملابس صغيرة إلى دار أبيها أرملة في الثامنة عشر من العمر، تنام على مرتبة خلف باب الدار، تأكل ما يتركوه لها من طعام في طبق المونيا وحيد بينما تنفرد كل حُرمة من حريم الدار بزوجها في غرفتهما... ليتها تعلّمت لكانت اليوم طبيبة أو معلمة، محامية أو مهندسة، ياله من حلم لن يتحقق أبدًا، وفي خيالاتها البعيدة كثيرًا ما زارها حبها الأول، سليم بيه، تستعيد صورته حين تحمق في الظلام، تراه راقداً إلى جوارها في الخصى، تشم رائحة القش تملئ أنفها؛ فتفتح رثيها وتطلق تنهيدة حارة بوسعها أن تحرق فضاء



المجرة... تستعيد ملمس أصابعه فوق جسدها، فيتنفّض كيائها
مفعماً بلذة قديمة تفتقد لها.. تعيش عالماً قاسياً يلفظها كل مرة
بعيداً عن مدارات السعادة لكنها تعود كَهَرَةٍ صغيرةٍ تتمسح به..
فقط تتمنى أن تلقاه يوماً على ذاك النحو، إنها تشتعل
داخلياً كأعواد كبريتٍ ولن يطفئها سوى أن تسبح في تلك الزُرقة
الطاغية في عينيه..



وفي ٢٠٠٤م قرّر «جعفر بيه» أن يستأجر شقة كبيرة في القاهرة
للبه الصغير، سيتنقل إلى هناك وسيُعيد الثانوية العامة أملاً في
الحصول على مجموع الهندسة، فمَن غيره سيدير نصيبه في
شركة المقاولات بالقاهرة؟ هو الأجدد والأحق بإدارة ورعاية
أموال أبيه وهو الخليفة المستخلف على عرش آل ستين... كانت
ونيسة في هذه الأثناء قد انضمت إلى خدم دار أبو ستين خلفاً عن
جدها زمردة التي توفيت في بيتها ولم يعلم أحد بوفاها إلا حين
فتحت عليها جارها الباب بعد يومين من الوفاة، ولأنَّ «الست
رحمة» كانت قد انشغلت في مشروع المشغل وصارت لا تفارق
المَكَنَ والبنات، كما أنَّها ليست قاهرية ولا تهوى المدن الكبيرة
وصخبها؛ فاقترحت على أخيها جعفر أن يعهد إلى سهام حالة



سليم بتلك المهمة، لن تمنع سهام أن تترك روض الفرج لتُقيم مع ابن أختها في المهندسين، ستقطن بجوار عملها، وسيوفر لهما جعفر ونيسة، فهي شابة حُرَّكَه، حركتها خفيفة، تقدر على خدمتهما والقيام بكل ما يطلبانه، فليس من الأدب أن تقع خدمة سليم على خالته سهام بطولها..

وهكذا ابتسم القدر لونيصة من جديد وعادت تفتح عينها كل صباح على سيد قلبها «سليم بيه»، ما غدت تجوع ولا تُضرب، ما عادت تحمل الكوز وتغسل قدم أحدهم، ما عادت تُسحب عنوة إلى السرير لتُمتهن ثم تُركل، كم تمت أن تأتي إلى القاهرة مع سليم بيه وها هي السماء تستجيب..

وفي شقة المهندسين بات لها غرفة نظيفة خالية من العناكب والفئران تُطل على مدرسة إعدادية للبنات، تُحيهن كل صباح بابتسامة خجولة فصرن يُبادلنهن التحية والابتسامات... اعتنت بها الست سهام جدًا، عاملتها بلطف وبطيبة، ولم تعد تلك الفتاة التي لا تفك الخط؛ فقد وضع سليم بين أصابعها قلمًا وجعلها تكتب، علّمها القراءة والكتابة في تحدٍ عقده مع نفسه واتفاق عقده معها، وها هي شمسها تسطع وكأنها تولد من جديد، صارت تجلس إلى جواره وتنظر في كُتبه وتقرأ، اشترى لها طاولة صغيرة مستديرة



توسط غرفتها تجلس إليها تكتب واجباتها ودروسها، تشعر بالفرح لمجرد أن يمتدح سليم ذكاءها وسرعة تعلّمها، سألتها أن يزيد فروضها فما زال لديها متسع من الوقت لتقرأ أكثر وتعرف أكثر، عمّ النور غرفتها وتزايدت تدريجياً أعداد الكتب والروايات التي يهديها لها، أحبّت قلم إحسان عبد القدوس وإحساسه، عشقت يوسف السباعي ورهافة كتاباته، استهوتها كتابات د. أحمد خالد توفيق وأعجبها «العَرَّاب» لقباً له..

اشترت لها «سهام هانم» فساتين ملونة وحذاء أسوداً وحقيبة جلدية، واشترى لها سليم ساعة يد أنيقة ومحمولاً صغيراً حين حصلت على شهادة محو الأمية، يومها اصطحبها في نزهة نيلية بهرتها، وفي المساء أخذها إلى السينما، ولأول مرة ترى محمد هندي، قتلها فيلمه ضحكاً، وسافرت من خلاله إلى الصين، وفي طريق عودتهما ابتاعها كوزاً من الذرة المشوي وعُقدًا من الفل... وفي سريرها ليلاً كانت ترتجف فرحاً كلما أحست أن سليم سيقرب منها، وأن شفّتيه الدافئتين ستلامس وجهها وشفّتيها، انتظرت أن تمشي أصابعه القوية الناعمة على فخذيها ببطء لكنه لم يفعل..

اقتربت من مخدومتها الست سهام وبفعل العشرة صار بينهما كثير من الألفة والود، سألتها السيدة يوماً: حبّيتي قبل كدة؟



فأجابتها: لا، محبتش حد واصل. فأردفت سهام مُندهشة: غريبة،
مع إن شكلك بتحيي..

: هو اللي يحب بيان في شكله يا ست؟

: طبعًا، اللي يحب بيان في عينيه.. وإنّ بتحيي وبتحيي أوي
كمان ويابخته اللي يحبه قلب زي قلبك يا ونيسة..

لم تنم ونيسة ليلتها، كان ليلها في القاهرة طويلاً وسهادها
غالب تحاول أن تمسك خيطاً يقربها من قلب سليم، تشعر أن قلبه
يحمل لها شيئاً فلما يفلت منها كالزئبق؟!!

وبالصدفة اكتشفت مكتبة الأسرة، أحبت القراءة وفي كل كتاب
عرفت أشياء جديدة، قرأت عن الحروب والثورات وعن أدب
الرحلات، قرأت «دعاء الكروان» مرارًا، فتنتها الرواية، تعاطفت
مع آمنة وتوحدت مع شخصيتها، بكت هنادي وظل طيفها يزورها
في الأحلام ليلاياتٍ متتالية، قرأت أكثر وأكثر عن الحب وعذابه
وروعته ولوعته، وكلّما قرأت كلّما أحبت سليمًا أكثر وأعماق..

تعرف سليم حينها على «ضياء الشويكي» شاب فلسطيني
يسكن في نفس الطابق، يكبره بثلاثة أعوام ويدرس الحقوق في
جامعة القاهرة، وما صار غريباً أن يتردد ضياء على بيت صديقه
وجاره، كان ذكيًا ذا حس فكاهي رائع، سريع البديهة ومثقف،



فَطَنَ أَنْ وَنِيسَةَ تَحَبَّ سَلِيمًا، غَارِقَةٌ هِيَ فِيهِ مِنْ رَأْسِهَا إِلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهَا، نَبَّهَ إِلَى الْأَمْرِ، نَفَى سَلِيمَ ذَلِكَ وَاسْتَنْكَرَهُ، جُلَّ مَا يَحْمِلُهُ لَلْفَتَاةِ هُوَ عَطْفُ إِنْسَانِيٍّ وَمَحَبَّةُ بَرِيَّةٍ، يُشْفِقُ عَلَيْهَا مِنْ عَيْشَةٍ جَافَةٍ فُرِضَتْ عَلَيْهَا وَظُرُوفٍ قَاسِيَةٍ عَاشَتْهَا وَلَا ذَنْبَ لَهَا فِيهَا، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ الْأَمْرُ عَنْ ذَلِكَ الْإِطَارِ، وَقَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى أُذُنِهِ كَلِمَةٌ أُخْرَى قَالَ وَقَدْ حَمَلَ صَوْتَهُ جَدِيدَةً: أَعْطَفَ عَلَيْهَا آهَ، أَحَبَّهَا لَأَ، فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ دِي بِتَخْدَمُ عِنْدَنَا.

سَمِعْتَهُ وَنِيسَةَ، رَفَعَتْ يَدَيْهَا الْاِثْنَتَيْنِ وَغَطَّتْ أُذُنَيْهَا، لَكِنْ حَدِيثَ سَلِيمٍ كَانَ قَدْ نَفَذَ كَالسَّهْمِ إِلَى فَوَادِهَا، ظَلَّتْ كَلِمَاتُهُ بَاقِيَةً تَتَرَدَّدُ فِي أُذُنَيْهَا وَفِي أَعْمَاقِ عَقْلِهَا، مَحْفُورَةٌ عَلَى جِدَارِ قَلْبِهَا، وَفِي فِرَاشِهَا أَحْسَتْ أَلَمًا رَهِيًّا يَعْتَصِرُ قَفْصَهَا الصَّدْرِي وَتَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ غَفْوَتَهَا أَبَدِيَةً..

وَفِي الصَّبَاحِ أَرْسَلَتْهَا السَّتْ سَهَامَ بِحَلَّةٍ مَلُوخِيَّةٍ بِالْأَرَانِبِ وَصَيْنِيَّةٍ جَلَّاشٍ إِلَى الْجَارِ الشَّابِّ الَّذِي مَا إِنْ فَتَحَ الْبَابَ لِلصَّعِيدِيَّةِ ذَاتِ الْبَشْرَةِ الْخَمْرِيَّةِ وَالْعُنُقِ الطَّوِيلِ حَتَّى خَطَفَهَا إِلَى صَدْرِهِ فِي عَنَاقٍ مَحْمُومٍ، تَكَلَّمَ ضِيَاءً وَتَكَلَّمَ لَكِنَّهَا لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ، وَكَأَنَّهَا صُمَّتْ، قَرَّبَ شَفَتَيْهِ يَلْمَسُ شَفَتَيْهَا، رَأَتْهُ سَلِيمًا فَلَمْ تَقَاوَمَ، فَأَغْرَقَهَا بِقَبْلَةٍ مَحْمُومَةٍ، مَا مِنْ قُوَّةٍ فِي الْعَالَمِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيدَ الزَّمْنَ



إلى الورا للحدة واحدة، كم تمت أن تعود إلى الخُص، إلى القش، إلى سليم..

انفجرت شفتها تقول شيئاً لكن ضياء كان أقرب إليها من نفسها، عرف ضعفها ولمس يأسها، التهمتها قبلته القوية الساخنة، في قبضته قوة ولهفة، لا قوة يُمكنها إخراجها من أحضانها..

في كل مرة تلقاه تنفرج شفتها تريد إخباره أنها تحب مخدومها، فيمنحها قبلة عميقة ساخنة تزداد عمقاً وسخونة يوماً بعد يوم، حكّت له طفولتها وحياتها وتجربة زواجها لكنها لم تحك أمر الخُص والقش، كان غريباً عنها لكنها ألفتته تدريجياً واعتادت اهتمامه... احتواها بجسده فمنحته جسدها، يضعها بين فخذه ويمسك خصلات شعرها الفاحم يسمعها مُصغياً تحكي ذكرياتها بينما هو منهمك في صنع جديلتها، لم تعد بشرتها صفراء باهتة إنّما صارت متألقة متشربة بحمرة، أصبح جسدها خفيفاً كالريشة، تعمل طوال اليوم دون أن تشعر بتعب، وفي الليل البهيم تهرع إلى الشقة المقابلة راجية أن تنسى سليماً... وفي أحضان ضياء صارت ترتجف من جديد!!

وذات يوم ناداها سليم في غرفته، سألها بحزم أن تخفف من علاقتها بضياء وألا تسمح له أن ينفرد بها أبداً، نظر في عينيها مباشرة



قائلاً: ماتسمحيلوش يخدعك ولا يستغلك، ضياء من عيلة غنية
ومش ممكن يتجوزك، ضياء مبيحبكيش، هو بس بيتسلى شوية..
أجابته بتهدج: هُو أنا ممكن أتحب يا بيه؟ قوَس سليم
حاجبيه قائلاً: إيه اللي خلاك تسألِي سؤال زي ده؟ وليه بتسأليني
أنا بالذات؟

جاهدت تمسك دموعها وبصعوبة قالت: مش مهم لو الدنيا
كلها كرهتني، لكن حد واحد بس هو اللي يهمني، هو عندي
بالدنيا بحالها..

صمت برهة بينما عيناها تعلقت به تنتظر كلماته، نظر إليها قائلاً:
الدنيا مبتديش الواحد كل اللي هو عايزه، لازم تتعودي على كده..
بدت في عينيه لمعة غريبة جديدة عليها، كانت نظراته حادة،
كأنما هما عينا رجل آخر، فرّت دموعها على وجتها، فمسحتها
وغادرت إلى غرفتها وقلبها يتمزق..

وفي الليل زارها سليم متسللاً، تمدد بجوارها، ألهمتها
أنفاسه، ودون أن تفتح عينيها استنشقت عيره فابتسمت، قبل
سليم ما بين عينيها ففتحتهما، توقفت لحظة كأنما توقع شيئاً،
فانفتحت ذراعيها واتسع حضنها، أرادت أن تُخبئه، تخفيه عن
العالم أجمع... في الحب أعطت ونيسة كل نفسها بغير مقابل،



دون شروط أو تحفظات، دون وعود ولا آمنيات، بذلت للحب كل ما عندها، تمتّ لو أن الزمن يتوقف عند تلك اللحظة التي اتحدت فيها مع سليم، مع الرجل الذي سكنها وتغلغل داخلها!! ومنذ تلك الليلة لم يعرف ضياء طريقه إليها أبداً، فلا يُمكن للجسد الذي يلمسه سليم أن يكون لغيره..

بيد أن جنيناً كان قد اشتعل ينمو داخلها، فأسرعت تُخبر ضياء بالأمر ليُنقذها، رأى كلامها تهديداً وهو رجل لا يُهدد، وكيف له أن ينقذها وكيف تسأله ذلك وهي تنام كل ليلة في أحضان حبيب القلب سليم بيه؟! هل شربت اليوم جرعة مضاعفة من الشرف أم أنها تبتزّه لتحصل على مبلغ كبير من المال؟

أقسمت له بدموعها أن الجنين له، لقد تزوجا عرفياً وعمر الجنين في أحشائها من عمر زواجهما، لم يكن سليم ينالها آنذاك، فالطفل طفله وعليه التصرف، تسأله أن يزور معها طبيياً مختصاً يخلصها ممّا نبت بها، ضحك ضياء ضحكة تراها في الأفلام، ضحكة قواد عاهر، طردها خارج شقته قائلاً: لو كنت عايز أنجوزك كنت عملتها من أول يوم يا شريفة الشريفات.

وفي انهيار تام أخبرت سليما بمأساتها ووضعت في يده ورقة زواجها العرفي من ضياء، لم تكن أبداً لتمنح جسدها لرجل دون



زواج، ما عاداه، هو فقط، سليم فقط الذي منحته كلها دون أن تسأله شيئاً، دون أن تطلب شيئاً، فما عساها فاعلة اليوم؟

أدركت أنها ليست حرة، تمنح وتمنع، تعطي وتأخذ، جريرتها أنها أحبّت وبغواء شديد تخيّلت أن بإمكانها أن تحب، انفجر سليم غاضباً يلومها ويقرعها، لا يصدق أنها منحت نفسها لضياء راضية، لا يمكن أن يُصدق أنه من دفعها بتجاهله إلى أحضان ذاك الفاسد!

لقد أخبرته أنها أحبته ولم تحب أحداً غيره من الرجال فكيف إذن طالها ضياء، لمّا لم تُخلص له ولحبه وتُحرّم على نفسها وجسدها رجلاً غيره؟

تبدّل سليم معها منذ تلك اللحظة، لم يعد يكلمها أو ينظر نحوها وكأنّها صارت هواء لا يراه ولا يسمعه ولا يُعيّره انتباهاً!

سارعت تُخبر الست سهام بمصيّبتها، لامتها لكنّها لم تُعنفها، فونيسة فتاة طيبة مسكينة، تصل بها طبيبتها إلى حد السذاجة، ليست مجرمة، فالإجرام يحتاج إلى ذكورة، كتلك التي مارسها عصام معها، اصطحبت ونيسة إلى طبيب شهير لأمراض النساء ليُجهّضها، تريد مساعدتها لتزيح عنها جبال الحزن الشاهقة المستقرة على أكتافها.. استسلمت ونيسة وتمددت فوق



سرير الفحص تتطلع بعينين زائغتين إلى سقف الغرفة مشفقة على جنين يرفضه أبوه ولا تستطيع أمه الاحتفاظ به... رفض الطبيب إجراء الإجهاض بل حذّرهما من خطورته وعواقبه الوخيمة، فعمر الجنين قد تجاوز الثلاثة أشهر ونصف، وصحة ونيسة على قدها ولا تسمح بإجراء العملية، احتارت سهام وصارت في غرفتها تروح وتجيء، ثم هاتفت رحمة وأخبرتها بالحكاية كلها، فإذا بالحاج جعفر يأتي في اليوم التالي إلى القاهرة وبرفقته أربعة نفر من رجاله الأشداء، وفي شقة سهام في روض الفرج تبادل رجاله ضرب ضياء باللكمات والركلات، لقد أحضره مقيداً في شِوَال إلى سيدهم جعفر أبو ستين.. كان الرجل مخلصاً في حماية ابنة خادمة أمه، لم يتهاون في إنهاء أزمته، حين قابلها في شقة المهندسين لطمها لطمه سال معها الدم من فمها ثم رمقها بنظرة خشنة غاضبة تجسد لها في نظراته رفض العالم كله لشخصها واحتقاره لها، لكنّه الوحيد الذي استطاع إنقاذها، وفي قرارة نفسه يتهل إلى الله شاكرًا أن وحيدَه ليس ذلك الشيطان الأشر..

وفي روض الفرج وبحضور سليم وخالته سهام كتب المأذون الكتاب وتزوج ضياء من ونيسة شرعاً، وقفت على باب المطبخ تبكي بحرقة، لقد أصبحت سماؤها سوداء كالأرض، لا



يعنيها العالم كله إن رفضها أو قبلها، وحده سليم رفضه لها أكبر وأوجع وأشرس..

انتقلت ونيسة إلى شقة زوجها الكائنة في نفس الطابق، لم تعد تخدم في شقة سليم بيه، بالكاد تراه كلما زارت خالته الطيبة «الست سهام» فيهرع إلى غرفته لا يبرحها حتى تغادر ونيسة إلى شقة زوجها... وحيدة هي معظم ساعات اليوم، يخرج ضياء في العاشرة صباحًا ولا يعود قبل منتصف الليل ليلقي بجسده بجوارها أو عليها لا فرق، فالأمر متروك لرغبته ثم يستدير لينام.. انتهى العام الدراسي وحصل سليم على مجموع كبير، ليلتها تعالت صرخات ونيسة وتُرولي المستشفى يجري بها إلى غرفة الولادة، وبينما تنتظرها الست سهام خارجها كانت طائرة ضياء تُحلّق به إلى أمريكا حيث أسرته تاركًا ورقة طلاقها بحوزة بواب العقار الذي يسكنان فيه..

وفي الصباح سرت في بدنها رجفة باردة كرجفة الموت، عجزت عن ابتلاع ريقها حين أخبرها سليم برحيل ضياء النهائي عن القاهرة، وقبل أن تسترد صحتها عاد كل كوكب إلى مساره.. لا تدري كيف تحمّلت الحياة بعد ذلك في برخيل، لقد رجعت الست سهام إلى روض الفرج ورحل سليم إلى ألمانيا



ليُدْرُس، تَفَرَّقَ عَالَمُهَا الَّذِي عَاشَتْهُ عَامًّا كَامِلًا، فَعَادَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ بِنَفْسٍ غَيْرِ الَّتِي كَانَتْ..

بَعْدَ أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ مِّنْ عَوْدَتِهَا إِلَى الْقَرْيَةِ تُوْفِي بِيَوْمِي بِذُبْحَةِ صَدْرِيَّةٍ وَاسْتَوَلَى شَقِيقُهَا شُعْبَانُ وَزَوْجَتُهُ سَعَادٌ عَلَى الدَّارِ وَمَادَتْ بِهَا الدُّنْيَا؛ فَوَجَدَتْ نَفْسَهَا تَحْمِلُ صَغِيرَتَهَا «حُسْنَةَ» وَتَسِيرُ فِي بَطْءِ كَعْبُوزٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعُمَرِ أَرْذَلَهُ، تَطْرُقُ بَابَ السَّرَايِ الْكَبِيرِ حَيْثُ آلُ أَبُو سَتِينَ.. وَهَنَّاكَ خَصَّصْتُ لَهَا الْحَاجَةَ رَحْمَةً قَاعَةً وَاسِعَةً تَطْلُ نَافِذَتَهَا عَلَى حَدِيقَةِ الدَّوَّارِ، عَاوَنْتَهَا «رَحْمَةً» كَثِيرًا فِي رِعَايَةِ وَتَرِييَةِ «حُسْنَةَ» الَّتِي صَارَتْ تَلْمِيزَةً صَغِيرَةً فِي يَدٍ أَمِينَةٍ حَنُونَةٍ، يَدُ السَّتِّ رَحْمَةً وَأَخِيهَا جَعْفَرُ بِيهِ الرَّجُلُ الَّذِي وَلَدَ كَبِيرًا وَسَيَظُلُّ كَبِيرًا... وَانْضَمَّتْ وَنَيْسَةَ إِلَى قَافِلَةِ فِتْيَاتِ رَحْمَةٍ وَصَارَتْ تَتَكَسَّبُ رِزْقَهَا مِنَ الْعَمَلِ فِي الْمَشْغَلِ، تَعَيَّرَتْ وَنَيْسَةَ وَنَضَجَتْ، شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ لَمْ يَتَغَيَّرْ دَاخِلُهَا، عَشَقَهَا لِسْلِيمٌ.. عَشَقَ مَضْنِ مَخِيبٍ لِلْأَمَالِ، لَا تَتَوَقَّعُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا تَتَنَظَّرُ فِيهِ غَدًا أَفْضَلَ، وَرَغْمَ ذَلِكَ ظَلَّتْ مُتَعَلِّقَةً بِهِ لِلْغَايَةِ..

انْتَظَرَتْ عَوْدَتَهُ لِسَنَوَاتٍ أَرْبَعَ يَابَسَاتٍ تَعُودُ بِذَاكِرَتِهَا إِلَى أَيَّامِ جَمْعَتِهِمَا فِي حُبٍّ مَعَ سَبْقِ الْإِصْرَارِ وَالتَّرْصُدِ، لَكِنْ يَا وَيْلَتَهَا أَيْنَ هِيَ مِنْ سُلَيْمٍ وَأَيْنَ هُوَ مِنْهَا، لَقَدْ اسْتَقَرَّتْ سَفِينَتُهُ فِي الْقَاهِرَةِ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ أَلْمَانِيَا، يَرُوحُ وَيَجِيءُ عَلَى بَرِّخِيلِ كَزَائِرِ مَغْتَرَبٍ، سَائِحٌ يَرْتَدِي



قبعة مصنوعة من الخيزران حين يتجول في أرضه وحقول بلدته، بينما هي وحيدة داخل شرنقة صنعتها هي بنفسها ولنفسها، وما أشد ضعف الإنسان حين يكون وحيداً، فالوحدة تدفعنا لنفكر فيمن لا يفترض بنا أن نفكر فيهم، الوحدة تُعري أوجاعنا، وفي الوحدة تتجلى همومنا وتستعر رغباتنا، لنتيه أَلَمًا في غيابات الوجود..

وفي ٢٠١٢م بلغت ونيسة السابعة والعشرين، وتقدم لها الأستاذ «كمال النجار»، مدرس اللغة الانجليزية في مدرسة القرية، شاب عملاق بين أقرانه من رجال البلدة، أسمر البشرة، مليح الوجه، مفتول العضلات، صورة خيالية لحكايات البطل الشعبي، أكمل عامه الخامس والثلاثين وما يزال عازباً، كان ودوداً يلاطف الجميع، رأى ونيسة وحدثها حين ذهبت تسأله أن يعطي ابنتها حُسنة درساً خصوصياً يُعالج ضعفها في لغة الأجانب، تريدها أن ترطن كالخواجات، وجد في طبيعتها وهدوء ملامحها عالماً مطمئناً، رأى في عينيها السوداوتين سحرًا يفوق سحر الأميرات، توقف الهينة عند كونها امرأة فقيرة تخدم في سراي آل أبو ستين، لكن سرعان ما تغافل عقله عن تلك النقطة، فالعمل الشريف لا يُخجل صاحبه، وحين عاتبته أمه على اختياره لونيصة وهي التي جربت حظها في الزواج مرتين، لِمَا هي بالذات؟، فمثيلات ونيسة والأفضل منها كثيرات



يتمنيـه وهو الذي لم يدخل دنيا بعد، لم يعرف كيف يُجيب على تساؤلاتها، شيء خفي في عيني ونيسة يشده نحوها، أيضًا حسنة، تلك الصغيرة ذات الأعوام السبع لقد احتلت مكانة كبيرة في قلبه دون غيرها من تلميذاته، وسارع يناقش نفسه علنًا وبصوت مسموع، لِمَا لا تتغير عادات المجتمع البالية، لقد جرت العادة أن يُفَضِّل الرجل الزواج من بكر، لقد صار عرفًا باليًا وعلى أمثاله من المتعلمين دحر تلك الأحجار العثرة والسير بالصعيد نحو الأفضل..

كان قد مرَّ عام على وفاة الست رحمة وقد خلى الدار على جعفر بيه فتحرجت ونيسة من أن تُغادر سيدها وحيدًا، فرفع كمال الحرج عنها وتقدَّم إلى جعفر يطلب يدها، وافق البيه على زواج مخدومه وأثر لها أن أكبرته، فأهداها عشرة آلاف من الجنيهات لتبتاع ما تحتاج، أوصاها أن تكون في طوع كمال، فالرجل مؤدب وكريم وعلى خلق، فوعده أن تكون لزوجها نعم الزوجة..

لم تطلب من كمال شيئًا، لا مهرًا ولا شبكة، فقط سألته أن يتواصل مع سليم بيه ويجعله شاهدًا على عقد الزواج، هذا هو طلبها الوحيد، للبيه مكانة خاصة في قلبها فقد نشأ معًا..

وفي حضور سليم وفي الدوَّار الكبير تم الاتفاق مع العريس على كل شيء، واشترى كمال للعروس شبكة محترمة وأثاثًا جديدًا حظي



برضاها وغبطتها، واستقرَّ الزوجان في شقة إيجار بالقرب من مدرسة
حُسنه، فلقد نأى الرجل بزوجه أن تسكن مع أمه وشقيقته الصغرى؛
أراد أن يترك بيت العائلة لشقيقته لتتزوج فيه، فقد أضنى البحث عن
مسكن مناسب خطيبها أمين الشرطة وطالت خطوبتهما ولا أمل
لهما في العثور على شقة مناسبة، لا إيجار جديد ولا قديم؛ فخرج
كمال بعروسه إلى شقة أخرى ليُفسح المجال لشقيقته وعريسها..

تمَّ الزواج واستقرت ونيسة في بيتها ترعاه وترعى كمال بكل ود
وإخلاص وعلى فترات تزور السراي الكبيرة، وقليلًا ما كانت تلتقي
سليم بيه حين يأتي للزيارة فيسألها عن حُسنه وكمال وأحوالها
معه؛ فتطمئنه، كمال طيب ويحبها، فيعود يسألها: وإنّ حبيته؟

: كبرت يا بيه وعرفت إن الحب مش لكل الناس.



أظّل التفاهم الزوجين في أول الأمر، لكن التفاهم شيء
والحب شيء آخر، شهدت ونيسة لزوجها برجولته وحكمته
وقدرته على حمايتها ضد الهجمات الشرسة التي تشنها حماتها
عليها كلما أتت للزيارة، لكنه كان شديد التعصب لرأيه فلا يدع أمرًا
يقع على غير هواه حتى وإن كان هينًا، وكان لا يخفي احتقارًا لبعض
تصرفات آل أبو ستين رغم مرور سنوات على بعضها، خاصة حين



يتطرق الحديث لزواج البية الكبير من الدلوعة الإسكندرية وطلاقه لها بعد سنوات دون أسباب تُذكر، لا أحد يعلم لِمَا تزوج ولِمَا طَلَّق!! بالغ كمال في تهكمه على تصرفات الرجل الذي كَبُرَ وخَرَفَ وأظهر تعجباً من استهتار سليم بحماقات أبيه وتغاضيه عن صده، ثم يعود ويمس سليم بكلمات جارحة، يراه فارغاً متحذلقاً، مغروراً بوسامته وبشبابه، ولا عجب في ذلك «فمن شابه أباه فما ظلم»، تؤلم كلماته ونيسة وتخزُّ صدرها خزاً، فإذا راجعته وناقشته فيما يقول يثور ويستمر يسرد فضائح آل أبو ستين كما يُسميها، لم يكن يراهم ملائكة ولا بشر، بل أنَّهم أهل للظلم والعجرفة، ويمضي يحكي تاريخهم وتجبرهم كما سمعه من أبيه وجده، فأصولهم الإقطاعية تطل برأسها في كل تصرف، وتكبرهم على الخلق لا ينكره عاقل يُبصر، تحاول زوجته فرملته وتسأله أن يحكم عليهم بما يراه منهم معها ومعه الآن لا بما يسمعه عنهم دون أن يراه ويعايشه، فيبتسم متهمكماً: اشتروكي بالعشر تلاف جنيه يا ونيسة، مَرَّ عليكِ الزمن وعاشتريهم ولسه بتدخلِي السراي من الباب الوراني؟ بذمتك ودينك عمرك في يوم من الايام أكلتي مع ستاتهم على تربية واحدة؟ دخلتي السراي وخرجتي ودايما بتاكلي في الرحاية^(١) أو في مقعد جدتك زمردة الله يرحمها.

(١) مطبخ كبير بمساحة واسعة كان موجود في السرايات والبيوت الكبيرة حيث يقوم الخدم بالطهو فيه ثم يتناولون طعامهم فيه .



طعنتها كلماته بخنجر قاس فأصابها ألم مقيم لا يبرأ؛
فما عادت تناقشه والتزمت الصمت مكتفية بمشاعره النبيلة تجاه
حُسنه وحرصه الشديد على تعليميها وتربيتها. مرَّت السنون
وأثبت معها أنه مربٍّ ماهر لا يعرف من شئون الدنيا إلَّا التدريس
ولا يتمي إلَّا لمدرسته وقريته وتلاميذه..

حتى ٢٠١٣م لم يكن كمال النجار قريبًا من السياسة ولا
بعيدًا عنها، كان على مسافة متساوية من الجميع لكنه آمن
بثلاثين يونيو ورآها ثورة شعبية ضد حكم الإخوان، فلا يُمكن
أن يُوصف خروج أربعة عشر مليون مصريًا في كافة مدن مصر
انقلابًا، تعرّف خلال تلك الأحداث على «وجيه العوضي» تاجر
في منتصف الأربعينات يعمل منذ زمن طويل في استيراد الأجهزة
والأدوات الكهربائية وبيعها للجمهور بالتقسيط، اقترب الرجلان
من بعضهما البعض وتوافقت رؤيتهما لكثير من الأمور الحياتية،
أفصح ووجيه لصديقه كمال عن حاجته الشديدة إلى مدير أعمال
أمين يساعده في إدارة تجارته وأمواله ومتابعة المديونية والإشراف
على كشوف الحسابات وغيره، تردّد الأستاذ كمال كثيرًا في قبول
عرض صديقه التاجر لكنّه سرعان ما بدّل رأيه حين مرضت والدته
بالفشل الكلوي وصار لزامًا عليها أن تُجري غسيلًا للكلّي ثلاثة



مرات أسبوعياً، راتبه كمدرس لا يمكنه أن يتمدد فيتسع لكل ذاك الحَزَنَ وَمِنَ العَبَثِ أن يترك حياة أمه مرتبطة بالاحتمالات والإمكانات، حام وجيه حوله حتى قَبْلَ العرض من فرط ما وجد فيه مِن صدق وأمانة، وهكذا انتقلت ونيسة وابنتها حُسنة للسكنى في «المنيا» حيث عمل كمال، فالمرأة تكون حيث يكون زوجها. ودَعَت بلدتها والسراي الكبير بعيون دامعة لا حول لها ولا قوة..

شعرت ونيسة بالتعاسة وغرقت فيها حتى قمة رأسها حين أرسل كمال الصغيرة حُسنة لتدرس في مدرسة داخلية أشاد بها كثيرون مِمَّن استشارهم حين وصل إلى محل إقامته الجديد، وبالطبع لم يركن إلى رأيها ولم يستشرها فقد صار هو المسئول الأول والأخير عن مستقبل حُسنة، فلا يُمكن لونيصة أن تفهم أو أن تعي ما فيه مصلحة الفتاة أكثر مِن أستاذها، فالصغيرة ذكية فطنة ومثال رائع للأخلاق، فَلِمَا لا تُهيأ لها كل الظروف المناسبة لتحصل على تعليم أفضل وتتربى على يد راهبات كريمات مهذبات؟

وفي غضون سنوات قليلة وكأن كمال كان تيممة الحظ ووش السعد على تجارة وجيه العوضي؛ فزادت وربّت وامتناناً وتقديرًا لأمانة كمال وبعين التاجر الفاحصة جعل منه وجيه شريكاً له بالثلث بينما تحرّج كمال مِن كرم الرجل وتصرفه وصار أشد التصاقاً به وأكثر حرصاً على إرضائه..



هكذا ارتاحت حياة كمال وونيسة مادياً، لكن زوجها صار منغمساً في عمله أكثر وأكثر؛ فراحت تحاول شغل أوقاتها بالعودة إلى هوايتها الأولى وانصرفت تقضي ساعات النهار في القراءة، واطَّلعت على كتاب إلهام محجوب «لعنة السياسة ولعبتها» قرأته مراراً وكتبت عنه مُراجعة تشرح فيها رأيها في محتوى الكتاب والغاية منه وأرسلت إلى سليم رسالة على تطبيق الواتس آب تمدح كتاب والدته وتدعوه ألا يكتفي بقراءته مرة واحدة، وصارت تناقشه على فترات حول بعض فقرات الكتاب مناقشة حصيفة، لم يرد سليم على مراسلاتها في البداية، لم يشأ أن ينجرّف نحوها أو أن تتخيل هي ذلك، لكنّه استجاب فيما بعد لرسائل الواتس دون أن يفلت الزمام من يده، وهكذا بقيت شعرة الود موصولة على استحياء.

ثم حدث أن تعرّف كمال على «إسراء العوضي» شقيقة شريكه، كانت كالخوفاية بين أسرتهما، فهي الوحيدة بين شقيقاتها التي أتمّت دراستها الجامعية وتخرّجت في كلية الآداب قسم فلسفة، تجاوزت التاسعة والعشرين ولم تتزوج بعد، يتقدم لها الخطّاب من أبناء المنيا وما حولها فترفضهم جميعاً، فإمّا أن تستشعر في بعضهم الطمع في مالها ومال أخيها أو أنّها تغض الطرف عن البعض الآخر لسطحية تفكيرهم أو لسخافة تجدها فيهم، كانت



«إسراء» هي مأساة وجيه التي حُفرت في وجدانه؛ فكثيراً ما لامته والدته لأنه أسرف في تدليل شقيقته وساندها حتى أتمت تعليمها فتكَبَّرت عمَّن حولها وصارت عينها قوية جريئة، لا تنقطع عن مناقشة أخيها ومجادلة أمِّها إذا ما تقدَّم أحدهم للزواج منها، ولا تألى جهداً حتى تقنعهم برفضها للعريس، تقف تتفلسف بنظرياتها عن هذا وذاك، تلاشى تدريجياً الحوار بينها وبين أمها وحلَّ محله شجار دائم وراحت الأم تستغيث بوجيه ليفك عقدة إسراء ويبحث لها عن عريس مناسب لا تستطيع رفضه..

فتح وجيه صدره لصديقه وشريكه وأطلععه على وجيعته، وأخذاً بمنطق «أخطبُ لبتك»... زَيَّن له أمر زواجه من شقيقته وقد حدث ذلك في أواخر عام ٢٠١٧م، غضبت ونيسة لهذا الأمر المُحِبِّ ورأت فيه إهانة لها، فأطلق كمال لسانه فيها كالخنجر بلا خجل ولا رحمة، ذكَّرها كيف تزوجها وهي التي لم تكن بكرًا، ذكَّرها كيف لامته أمه على اختياره الذي أتعسها وخاصمته شهوياً حين منح اسمه لامرأة مطلَّقة تحمل على كتفها طفلة رضيعة، قَبَّلها كانت أرملة تخدم في سرايا مَنْ استعبدوها من آل أبو ستين، لا حق لها في القبول ولا الرفض؛ فمعه عرفت الاستقرار والأمان، لبست الذهب وصار في بيتها صالوناً ذهبياً وفي دولاها ما لا يقل عن الألفين جنيه مصروفاً لبيتها، فماذا تريد أكثر من ذلك؟!



تزوّج كمال من إسرائ وانصرف إلى زوجته وعمله ومسئولياته التي زادت بعد أن وضعت زوجته تجارتها بين يديه بدلاً عن شقيقها وجيه، وبمرور الأيام أصبح من المألوف أن يبيت كمال عند إسرائ خمسة ليالٍ في الأسبوع بينما يخص ونيسة بليتين فقط حين تأتي «حُسنه» من مدرستها الداخلية في عطلة نهاية الأسبوع..

لم تكثرث ونيسة لضياح كمال فقد صارت تنفر من تعصبه لرأيه وإيمانه بنفسه الذي تفلطح وتجاوز الحد، تجاهله لها يوجعها؛ راحت تنتظر خلاصها من ذلك القفص ذي القضبان الصلبة، لكنها لم تسع إليه بجدية وإصرار، من مبدأ الرضا بالمقسوم عبادة..

وحين اقتربت ونيسة من الثالثة والثلاثين وفجأة دون أية مقدمات توفي كمال النجار في فراشه عند زوجته الثانية بعد تناوله وجبة عشاء دسمة، وهو الذي امتعض فيما سبق عندما أخبرته عن عادات أبيها الغذائية وأنه الله يرحمه كان لا ينام قبل أن يملأ معدته بالطعام، زوجها الذي كان يكتفي بعلبة زبادي وبعض ثمار الفاكهة فلمّا تزوج من غيرها ألف طبع زوجته وتطبع به، تناول كباب حلة وحمّام محشي ومكرونة بالبشاميل وعند الفجر تبعهم ببرام «أم علي» بالقشطة، ثم دخل الفراش فطبّق الطعام على نفسه ومات، لقد قتلتة كثرة ماله وطفاسته!



وهكذا عادت ونيسة وحيدة إلى بلدتها، شقَّ عليها أن تحرم
ابنتها من استكمال مشوار تعليمها على أفضل وجه؛ فتركها في
مدرستها الداخلية على أن تزورها كلما استطاعت ثم تصطحبها
إلى برخيل في الإجازة الصيفية..

وحين علم سليم برجعة ونيسة وسكنها كالضيف الثقيل في
دار أبيها التي كانت قد آلت منذ سنوات إلى أخيها شعبان وزوجته،
سأل والده أن يسمح لها بالإقامة في الدوار الكبير وتحديداً في غرفة
جدتها الخالة زمردة، وهكذا انتقلت ونيسة للعيش في السراي
الكبيرة بشكل نهائي..



إنَّها لم تختَر أن تولد لكنها ولدت، لم تختَر أن تعاني لكنها
عانت، وبعد صراعتها مع أعوام عمرها كله عادت إلى السراي
وما عاد شيء يشكل فارقاً عندها، يكفيها أن تربي وحيدتها
على خير وجه، تربي لتصير ملكة على عرش تصنعه لذاتها،
وفي هدوء أعادها «سليم بيه» إلى غرفة جدتها، دمعت عيناها
حين دخلتها، رأت نفسها تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تحضر
للسراي لتأخذ ما يمنحوها إيَّاه من الطعام وبعض الفاكهة، ثم
يمد «البيه الصغير» يده إليها يمنحها قطع الحلوى..



«الملين أبو سكر المحشي مكسرات» كان أجمل شيء يمكنها أن تحصل عليه، ليس فقط لحلاوة مذاقه، بل لأنها حين تمد أصابعها لتحصل عليه كانت كفها تلامس كف «سليم بيه»... ها هو اليوم يعهد إليها بقطعة منه لترعاها، قطعة أحلى من الحلوى وألذ من السكر، يمنحها «صالح»، يخبرها أنها وحدها المسؤولة عن ولده، مطمئن هو عليه لوجوده معها دون غيرها..

امتلاً صوتها حناناً، اقتربت من الصغير مبتسمة وقالت: بسم الله ما شاء الله، حنة منك يا سليم بيه وإنّ صغير..

ثم التفت للصغير تستأذنه: ممكن أبوسك؟؟ صَعْبٌ أن يكون أمامها سليم الصغير ولا تقبله، لم يعترض الصغير، فضمته وبها جوع لا يسده إلا رجلٌ واحدٌ يقف أمامها، انحنت تمنح صالحاً قبله شوق على جبينه تماماً كتلك التي كان أبوه يضعها على جبينها كلما فارقتها إلى وجهة أخرى..



انتظمت عيشتها في السراي، وحينما أضنى المرض سيدها جعفر ومُنِع من مغادرة الفراش كانت دوماً في خدمته، تجلس عند قدميه أو على مقعد وثير بجوار سريرته، تسهر على راحته وتلبية طلباته بكل نفس سمحة ووجهٍ بشوش، تمرّضه طوال ساعات



اليوم، تشاركه الحديث وسماع أغنيات «الست» وروائع «سيد مكاي»، ثم نزل البية على رغبة أبنائه وانتقل للقاهرة، وفي فيلا ابنته مدام شهد صار له جناحٌ كبيرٌ فخم، استقر فيه بالقرب من أطباءه المعالجين، قرّر جعفر بيه أن تُلَازمه ونيسة، تطهو له ما تشتهي نفسه من صنوف الطعام ثم تجالسه لتقرأ له الجرائد وأخبار الكرة، وفي المساء يشاهدان معاً فيلمًا قديمًا لفاتن حمامة أو شادية أو إسماعيل ياسين على جهاز لا يعرف البية اسمه، اشتراه له سليم خصيصًا ليُشبع رغبته في مشاهدة سينما زمان كما يسميها البية الكبير..

هكذا صارت ونيسة مرافقة لعميد آل أبو ستين، تحب ما يُحب وتُشاهد ما يشاهد وتأكل ما يأكل، برعت في استيعاب شخصيته وطبعه وأتقنت خدمته؛ فأضحى يدعو لها في شيخوخته ليل نهار، يمنحها مئات الجنيهاً يدسها في كفها من حين لآخر ثم يدعوها للخروج برفقة سائقه الخاص لتبتاع ما تريده وما تهواه من محلات القاهرة المُعز، فلا تغيب عنه إلا ساعات معدودة تعود بعدها وقد اختصته بهدية تليق به، رأت ونيسة في البية الكبير اهتمامًا بها وخوفًا عليها وحرصًا على راحتها، عرفت معه سلامًا يستحق أن تتفانى من أجله وأن تحافظ عليه، أدركت معه أمانًا دون مقابل، ربّما أنّها الوحيدة التي اطلعت على وجع سكين



داخل نفسه الأبية وحاجة ملحة إلى نفس تقبله وتتقبله بعبوبه
وبعصبيته وبتقلب مزاجه؛ فتدرك نبلة وسماحته ورفعة خلقه،
فأضحى يقطر عطفًا ومودة.. فكلنا متعبون والفارق بيننا هو قوة
الحائط الذي نركن إليه..

وبالصدفة اكتشفت ونيسة إصابتها العنيفة بمرض الذئبة^(١)،
لم يكن من السهل تشخيص الحالة في البداية، فكل علامات هذا
المرض وأعراضه تتراوح عادة ما بين الخفيفة المؤقتة التي تستمر
لفترات زمنية لا تطول، ثم تختفي لفترة تعود بعدها وقد تفاقم
لتصل إلى درجة الخطورة. خضعت ونيسة للفحص بعد قلق
سيطر على مدام شهد حين استمرت المسكينة تعاني طفحًا جلديًا
على وجهها على شكل فراشة، ثم تطور الطفح إلى جروح تظهر
وتتفاقم عند التعرض للشمس، صاحب ذلك شعورها الدائم
بالتعب والإرهاق وظهور تقرحات في الفم، وفي أسابيع قليلة
انخفض وزنها بشكل ملحوظ، كانت صعوبة التشخيص ترجع
إلى أن أعراض المرض تختلف كثيرًا من شخص إلى آخر، كما أن

(١) الذئبة الحمراء هو أحد أمراض المناعة الذاتية وهو مرض مزمن يسبب التهاب
الأنسجة الضامة يؤثر على جزء أو أجزاء من الجسم، يحدث نتيجة لعوامل
عدة، منها: هرمونية، أو بيئية، أو جينية، أو نتيجة لتناول بعض الأدوية.
نسبة انتشار الذئبة الحمراء بين النساء أكثر منه بين الذكور، في المرحلة العمرية
بين ١٥ و ٤٤ سنة.



العلامات نفسها تتغير عند ونيسة مع مرور الوقت، إلا أن الفحص المعملي أثبت بشكل قاطع إصابتها بالذئبة... ياله من حظٍ عسر، ففي أقصى حالات التشاؤم لم يشرّد بالها إلى تلك النهاية، فقد شكّل المرض خطراً على حياتها، لقد أصاب الهوس جهازها المناعي وأصبح يهاجم أنسجة جسمها نفسه وأعضاءه..

لم تكن تهتم بما يتتابها من آلام في المفاصل كما كانت تُعزي متاعبها العادية من خمول وصداع يلازمها منذ الاستيقاظ إلى غياب شهيتها وقلة طعامها، ولولا إصرار السيدة شهد على زيارة الطبيب وإجرائها للتحليل لمعرفت المسكينة مُصابها.. صَدَمَتْها حقيقة مرضها وأضناها تفكيرها الطويل فيما سيؤول إليه مصير وحيدتها حُسنة؛ للأسف لقد تمكّن منها مرضها وصار مزماً يتطور بسرعة رهيبة لا تواكبها العقاقير والإجراءات الطبية، فقد هاجم الالتهاب رئتيها وصارت تعاني من صعوبات في التنفس وآلام حادة في الصدر استلزمت وضعها على جهاز التنفس الصناعي، ثم انتشر الالتهاب الفاحش ليصل إلى الغشاء المبطن للقلب (التامور) والأوعية الدموية للدماغ.. إنها أعراض المرحلة الأخيرة... لم يقف الأطباء على السبب الحقيقي الذي يُؤلد أمراض المناعة الذاتية مثل الذئبة، لكنهم رجحوا أنه يكون



نتيجة اجتماع عوامل وراثية مع أخرى بيئية، وأن المريضة التي استقر جسدها على أجهزة التنفس لأسبوعين كانت من ذوي القابلية الوراثية للمرض الذي ظهر عند تعرضها لعامل بيئي حفز الالتهاب ليطفو ويهاجم بشراسة، ذلك ما ورثته الصعيدية الشابة قليلة الحظ عن والديها أو أجدادها، خلل جيني عبث بحياتها... فهل يُطلق الموت سراحها ويقف الزمن في صفها هذه المرة ويتركها تنعم بالشفاء؟ ولكن كيف وزمانها عدواني يسير عكسها!!

تدهور سريع ألم بها ولم يكن بوسع أحد أن ينقذها من مصير محتوم وقف ينتظرها متأهباً متنمراً، ثم انقض على شبابها يغتاله، ثمة صفقة قوية تلقاها الجميع حين سقطت ونيسة ذات الأربعة والثلاثين خريفاً في غيبوبة نُقِلت على إثرها إلى غرفة العناية المركزة في أحد المستشفيات الاستثمارية تسبقها دعوات الجميع لها بالرحمة، وعلى عتبة باب غرفتها وقف «سليم» يراقبها من خلف نافذة زجاجية، يتأمل ملامحها البائسة وجسدها الهزيل المتصل بالأجهزة والخراطيم التي تبقيه حياً على استحياء، إن صدى نبض الحنين يُسمع في أرجاء صدره، وقف يُصارع ذكرياته وأفكاره التي جمعتهم في طفولتهما البريئة ومراهقتهما العفوية، لازل يذكر فرحتها حين كان يمنحها عناقيد «الملبن»، لمعة



عينها حين كانت تجيء راکضةً نحوه فور وصوله، انتفاضتها
اللافتة حين كانا معاً في المخبأ السري..

إنه لمن المُرّوع أن تشعر يقيناً بكونك مساهم في ضياع حلٍّ
بأحدهم!!

عاصفةٌ من الحزن هاجت وانتشرت في نفس جعفر بيه من
أجل مخدومه الطيبة ونيسة، ألم كبير ومرارة أكبر استوطنت قلب
سليم ونفسه على رفيقة الطفولة وحيبة المراهقة، المسكينة ذات
الروح المأزومة والجسد المأزوم، بكأها سليم منتحباً، أوشك أن
يسقط فريسةً للدموع لكنه اضطر إلى الوقوف صلباً لمراعاة شئون
والده الذي تزايدت أوجاعه وتكالت عليه أفكارٌ غريبة وطال
حديثه وكثر عن الوحدة والرحيل إلى العالم الآخر، فصارت تراود
سليماً أحلامٌ مزعجة عن والده؛ فيراه مرة غريقاً في بحر ومرة
مُحلّقاً في السماء يحمله نسرٌ أو صقر!

استوحش بيت شهد بعد رحيل ونيسة عنه، أصبح جناح
أبيها معتماً معظم ساعات النهار، الستائر مسدلة وجعفر بيه
يرفض بشدة فتح النوافذ، صارت نفس الرجل مُفرغة من الرغبة
بأي شيء، لا يفتأ يردد أن الحياة عديمة المعنى والطعم والرائحة،
ورغم إيمان وصبر حاول السيد الكبير أن يتحلى بهما، إلا أنّه لحق



بمخدومته المخلصة وارتقى إلى السموات العلا في نفس ذات شهر وفاتها يفصل بينهما أسبوع واحد..

أمّا ابتها حُسنه، فقد شملها سليم بالحب والعناية وتعهد بكافة شئونها وفاءً لأُمها، فلم يخل في الإنفاق عليها من وسع حتى تظل تسير على الدرب الذي حلمت به ونيسة محققة ما تمته لها أمها المسكينة..

ففي نفس العام الذي رحلت فيه ونيسة وقيل وفاتها بشهرين كانت حُسنه قد حصلت على الإعدادية بمجموع كبير، كفلها سليم بعدما تنازل له خالها شعبان عن الوصاية مقابل حصوله على خمسين ألفاً من الجنيهات، أفضى سليم باستيائه من الرجل وجشعه إلى أخته شهد التي شجّعته على انتزاع حُسنه من خالها الجاهل والذي بلا شك سيُقدم على بيع ابنة شقيقته قبل أن تبور ليتخلص منها ومن مسؤوليتها كما يُقدم على بيع جاموسته المريضة قبل أن تموت، وربّما قذف بها إلى بلطجي أو تاجر مخدرات أو لأي من العراييد الذين يُجالسهم أو لِمَن هم على نفس شاكلته..

هكذا أخلص سليم لوْنيسة وعوّضها عمّا بدر منه في حقها على قدر استطاعته، وروّض نفسه على رؤية حُسنه أمامه والتي جاءت نسخة مصغرة من أمها، لكنّها نسخة مُطوّرة، نسخة



بالألوان كما يُقال، فلم يترك سليم فرصة، أي فرصة ليتواجد مع حُسنه يحادثها ويمازحها ويتوغل داخل عقلها وقلبها إلا واستغلها، كانت أوقاته مع تلك الفتاة الفارعة ذات الامتيازات الكثيرة وأهمها الحضور القوي والعقل الخصب وسرعة البديهة من أسعد أوقات عمره..

جاءت حسنة مختلفة عَمَّنْ هُنَّ في مثل سنّها، متوردة بإفراط، كلاسيكية باتزان، عيناها ناعمتان برموش باذخة، تجري في عروقها دماء ناصرية سوهاجية، تخلق من الأشياء العادية الرتيبة عالماً أسطورياً، لها منظور خاص تُبصر من خلاله الأشياء والوقائع والأحلام، قدرتها على التجديد والابتكار عالية وخيالها متنامي، فيراها سليم حسناء تحمل عصا جنية طيبة ساحرة تصنع من الفسيخ شربات... فكثيراً ما أمسك سليم بيدها في فخر قائلاً: حُسنه، إنَّ اسم علي مُسمى، فعلاً مكذبتش ونيسة الله يرحمها لما سمتك كده..



كبرت حُسنه في مدرستها الداخلية في القاهرة حيث نقلها سليم هناك حتى حصلت على الثانوية العامة دون أن ينقطع عن زيارتها أسبوعياً واصطحبها شهرياً وفي الإجازات الصيفية إلى فيلا أخته شهد فانخرط معها ومع عائلتها، ثمة احترام متبادل



وصداقة قوية نشأت بينها وبين الباشمهندس زين الذي شجّعها على العودة إلى الصعيد، تحديداً إلى بني سويف لتلتحق بكلية علوم الفضاء كما تمتّ..

لقاءً طيب وعشرة جميلة جمعتها بـ «نؤارة» و«صالح»، أحبّت الفتى كما أحبته أمها، كانت تتابعه وهو يبارز والده بسلاح «الشيش» بمهارة، تقف تشجعه وتصفق له كثيراً إن فاز..

نمت حسنة أنثى مناضلة، أنثى امتلكت قدرة رائعة على أن تقاتل لأجل أن تتحول إلى نموذج يُحتذى به، في طفولتها كانت تحلم أن تصبح مدربة نمور في سيرك عالمي، لا تستغرق نصف وقتها أو أقل في متابعة خطوط الموضة ولا برنامج «أربز جوت تالنت» ولا خطوط بيوت الأزياء ومشاهير الانستجرام، كبرت وهي لا تلقي لوماً على ظروفها كفتاة نشأت في الصعيد، لم تتوقف طويلاً عند خيبتها في أبيها الهارب العاثر في مكان ما في أمريكا، تجاوزت كل ذلك وهي لا تبحث عمّا يُبرّر خيبتها أو فشلها في تحقيق أمر إن هي فشلت فيه، لم يترك سليم لها أية فرصة لتشعر أنّها ضحية ظروفها أو مجتمعها أو ضحية لأي شيء مهما كان.. أرادها أن تكون سعيدة، ببساطة أن تكون ما تريده لنفسها فتربّع على عرش قلبها، مازحته يوماً وهي تتأبط ذراعه قائلة: لو مكنتش كبير عليا شويا كنت اتجوزتك وش حتى لو إنت ما وفقتش!



ورغم ما تحمله جملتها المُداعبة من جرأة إلا أنّ قلبها حمل
لسليم حباً عفويّاً ذا سخاء، حب عفيف قوي، حب يحمله قلب
الفتاة لأبيها؛ فتراه رجلاً يكفيها عن رجال الأرض جميعاً، أبٌ
متفردٌ لا مثيل له..

وفي عام ٢٠٢٧م حصلت حُسنة على البكالوريوس من كلية
«علوم الملاحة وتكنولوجيا الفضاء»^(١) من جامعة بني سويف
وبتقدير عام «امتياز» وكان من الطبيعي أن يتم تعيينها مُعيدة لكنّها
رفضت التعيين؛ فشغفها الدائم وحلمها الذي نما بداخلها يوماً
بיום قد تعاظم وملك عليها نفسها، غايتها العظيمة أن تزور
الفضاء الخارجي، ففي نفس العام أرسلها سليم إلى «تكساس»
لتُكمل دراساتها العليا، فحصلت على درجة الماجستير وتم
تعيينها في مركز «لندون بي جونسون للفضاء» التابع لوكالة ناسا،
كما خضعت وبكل امتثال وعزيمة لبرنامج تدريبي شاق لست
وثلاثين شهراً أهّلها للفوز بما أرادت..

وفي ٢٠٣٠م حقّقت «حُسنة ضياء الشويكي» حلمها الأكبر
واحتفلت بعيد ميلادها الخامس والعشرين مع طاقم عمل المركبة

(١) جامعة بني سويف وهي كلية بدأت الدراسة بها من العام الجامعي ٢٠١٨-
٢٠١٩م تمنح البكالوريوس



الفضائية «أوريون»^(١) التابعة لوكالة ناسا، لم تكتف الفتاة الطموحة بما حقّقه من إنجاز وواصلت نجاحاتها وتلقّت مزيداً من التدريب والتمرين على الحياة في الفضاء وتألّقت وبنغ نجمها فأُخِيرت ضمن الفريق العلمي المُكلف بإنشاء موقع للتعيين على سطح القمر^(٢)..

تجاهلت حُسنه شئون القلب، وفي سنوات صباها الأولى بذلت مجهوداً لكي تتحرر من سطوة الحب وعنفوان الشباب واندفاعه نحو العواطف الملتهبة، لم تنس قصة «أمّها ونيسة» بفصولها الموجعة، كرهت «حُسنه» الحب ورفضت أن تقع في فخه الناعم المبهج، أدركت بفراستها أن جريرة ونيسة ومفتاح لعنتها والسبب الخفي لكل حزن استبدّها أنّها عرفت العشق ومسّها الهوى، فاستسلمت المسكينة لذاك الساحر وتركته يتسلل زحفاً إلى قلبها الغض فأضعفها وأهلك قدرتها على مقاومة ما ألمّ بها من وجع ومرارة طوال سنوات عمرها القصير... صمّمت

(١) مركبة فضائية تستخدم للسفر إلى كوكب المريخ لصالح وكالة ناسا بالتعاون مع وكالة الفضاء الأوروبية.

(٢) وبحسب موقع «ديلي ميل» البريطاني، قالت «ناسا»، إنه من خلال برنامج «المفاهيم المتقدمة والمبتكرة» (NIAC) فستبدأ في دراسة جدوى استخدام تكنولوجيا التعدين، التي من شأنها أن تجعل التنقيب في الفضاء واقعاً ملموساً، موضّحة أنّها أطلقت الضوء الأخضر لبدء فعاليات ذاك المشروع ٢٠١٩م.



حُسنة أن تعيش دون حب يُضعفها ويلغي عقلها ويقتل طموحها ويسلبها إرادتها الحرة، كانت ترتاب وتزعج إن انتابتها مشاعر إعجاب بأحدهم أو طالت نظرتها نحوه كزميلها المذهب، ذاك المتفوق ومُنافسها على المركز الأول دومًا خلال سنوات دراستها الجامعية، فطنت إلى بذرة العاطفة التي تسَلَّلت إلى قلبها جراء اهتمامه البالغ بها، أقلقته تلك البذرة؛ فأدركت نفسها في اللحظة المناسبة وحَجَّمت شعورها وحاصرته بقوة ثم أجهزت عليه وفتكت به، فلم تسمح لقلبها أن يتحكم بها أبدًا..

عرفت وفهمت أن للحب سطوته وقوته الغامضة، لكنها قوة تدمر... إنه نوع من الإدمان اللذيذ، لكنه إدمان خطير فسارعت بتباعد عنه وتحمي نفسها منه، وبراعة تمكَّنت من التحكم بنفسها وتطورت قدراتها على الحذر والتروي في انفعالاتها ومشاعرها؛ فراحت تبحث بلا روية عن نوع آخر من الاتحاد، غايتها نوع آمن من العلاقات، لا خديعة فيه ولا انهماك يعتريه؛ فاختارت زوجها بطريقة عقلانية بحثة وفَّرت لها الأمان والاستقرار اللذين كانت تطمح إليهما بقوة وترقب، تعرَّفت على «د. فيصل مومند» بروفير في هندسة المركبات الفضائية، في إحدى مؤتمرات علوم الفضاء المنعقدة في باريس، تملَّكها فضول وانتابها رغبة صريحة



في التعرف عليه، فقد جذبها إليه اسمه منذ الوهلة الأولى، فراحت تتقصى المعلومات عنه، عرفت أنه حفيدٌ لـ «عبد الأحد مومند»، أول رائد فضاء أفغاني أمضى تسعة أيام على متن محطة الفضاء الروسية «مير» عام ١٩٨٨م، أُعجب «د. فيصل» بها ولباقتها وذكائها وعقلها المرتب، أذهله نبوغها وجموح أحلامها، لم تترك له فرصة للتفكير أو التردد، بادرتَه تطلب الزواج به بعد كلمته الافتتاحية خلال المؤتمر، أدهشته جرأتها وغرابة موقفها، تزوّجها بالفعل خلال المؤتمر وعاد معها بعده إلى «هيوستن».. وفي شهور قليلة عرف الحب طريقه إلى قلبيهما لكنه حب من نوع آخر، حب أنجبه العقل والمنطق والعشرة، حُب لغته التراضي والتغاضي، فقد ارتضى كُلٌّ منهما عيوبَ الآخر وغلّص الطرف عن نواقصه، تحمّل فيصل كبريائها واعتزازها بنفسها وإصرارها على ما تريده وما تحلم به، وتحملت حُسنة هدوءه وانغزاله عمّن حوله وتوقعه على أبحاثه وقلة حديثه وشروء عقله إذا ما انتوى القيام ببحث جديد.. يختلفان أحياناً، يتشاجران، يعلو صوتهما وقد يتخاصمان لساعات لكنَّهُما لم يسمحا أبداً لنفسيهما أن يتماديا، أن يناما على خصام، ييادرها فيصل دوماً ويبدأ بالاعتذار، وبودٍ يراضيها وبسماحةٍ ترضى، وخلال سنوات زواجهما استمرَّ خير مُعين لها؛



فاستمرت خير حافظ له ولييته ولغيته إن غاب، تُقدس محبوبته استقلالها وعملها وطموحاتها وكذلك هو، تقابلت الأهداف وتلاقت الرؤى، فهمها فيصل ومنحها كل ما يمكن لرجل محب أن يمنح زوجته، فحظي بحبها وتقديرها أكثر مما توقع هو وأكثر مما تخيلت هي، وهبهما الله تعالى «سهيل» و«ماريا» قرة عين لهما.. وهكذا استقرت «حسنة» ابنة الناصرة وبرخيل بأمرىكا بصفة نهائية، ورغم سكنها في بلاد العم سام إلا أنها لم تبحث مطلقاً عن والدها البيولوجي، لم تشعر باحتياج للتعرف عليه ولم ترق لها فكرة البحث عن جذورها وتتبع خطوات عائلة «الشويكي» في «نيويورك».... لم يترك لها «ضياء» فرصة لتشعر بأنها تحبه أو تحتاجه أو تشتاق إليه، فخسارتها له كانت ومازالت أكبر مكاسبها، خسارة حققت لها أن تكبر وتزهى في كنف رجل آخر، رجل منحها ما لم يُمكن لضياء الشويكي أن يمنحها لها بأنانيته المفرطة وتخليه الرخو عنها، وأي رجل ذاك؟! إنه سليم أبو ستين... والدها الأفضل في كل شيء!!

فما سمعته وما عرفته وما فهمته عن قصة والديها هي جملة أشياء لا تحب معرفتها ولا تذكرها ولا التفكير فيها... لا شيء أبداً في الكون أسوأ مما فعله ابن الشويكي بونيسة الصعيدية الغلبنانة،



وفي تقدير «حُسنه» لم يخرج الأمر برمته عن كونه مؤامرة قدرة على أدمية أمها ومشاعرها وأحاسيسها التي تعفنت بعد ما كان!

أمّا سليم فقد حافظت حُسنه على علاقتها به بكل ما أوتيت من قوة رغم أنها لم تزر مصر بعد زواجها سوى مرة واحدة فقط حين فاجئت زوجها بتذكرتي طيران إلى القاهرة ومنها إلى مطار سانت كاترين للاحتفال بعيد زواجهما الخامس فوق قمة أعلى جبال البحر الأحمر... لكنّها لم تتوقف عن مقابلة سليم كلّما استطاعت، تلتقيه في دبي، في ميونخ، في أشبيليا، تلتقيه حيثما يذهب خارج الوطن، وفي كل مرة ترثي أحلى ثيابها وعلى غير عاداتها تقف ساعة أمام المرأة تزين وتشرعطرا فرنسيًا من خلاصة اللوز والسوسن والفانيلا... تمامًا كما تفعل طفلة مرحة ذات فرحة حارة غامرة بطعم التوق والشوق حين تتأهب لمقابلة غابة أو حديقة قضت تحت أشجارها سنوات طفولتها ومراهقتها، كذلك تفعل «حُسنه ابنة ونيسة بيومي» حين تتغندر لتقابل غابتها الآمنة «سليم جعفر أبو ستين»..

هكذا أحبّ سليم ونيسة ولم يترك البرودة الزائدة وأصوات الرياح تعصف بما تبقى منها.. إنّ «حُسنه» كانت الحب الرابط فوق قمة جبل عنيد استقر في قلب سليم، جبل اسمه «الوفاء» لونيسة الطفولة ورفيقة المراهقة..



(٨)

ميرال اختر شين مزي

(المولودة في ١٥ فبراير ١٩٨٧م)

غزالة صغيرة رشيقة مطابقة لمعنى اسمها بالفارسية جاءت إلى الدنيا بعد مخاض طويل استمر ليلةً كاملة، كادت أمها خلالها أن تُزهِق روحها أكثر من مرة قبل أن يتم نقلها إلى المستشفى الكبير في «أصفهان» بعدما عجزت القابلة عن انتزاع المولودة المسكينة التي أبصرت الدنيا وقد أنهكتها العشر ساعات الغليظة التي قضتها رغباً عن أنفها الصغير حبيسة الرحم، يُقيّدُها الحبل السري تكفيراً لها عن ذنوبٍ لم تتركها بعد!

كانت الوسطى بين فتاتين أخرتين، كلهن على درجة عالية من الجمال، إنهن بنات «أصفهان» الفاتنات، لا شيء يُميزها عنهما سوى وحة صغيرة على كتفها الشمال بهيئة حبة عُنْب، فقد اشتهت والدتها عُنْباً في غير مواعده، فحملت ميرال ذاك الوحوم الوردى الخفيف فزادها جمالاً.. قضت أمها نفاسها في المزرعة بعيداً بينما يفتش والدها عن فرصة حقيقية يفر بها مع عائلته إلى خارج البلاد، كان الوضع مزرئياً؛ فقد خلفت الحرب الدائرة مع العراق نحو



مليون قتيل وتردّت الأوضاع السياسية والاجتماعية كما تأثر سوق العمل أيما تأثير، ولولا عزة حقيقة وثراء تملكه عائلة «شيرعزي» لكانت ظلمات الحرب قد ابتلعتهم جميعاً عن بكرة أبيهم..

وبمساعدة أفرادٍ من حركة «مجاهدي خلق» أكبر وأنشط حركة معارضة إيرانية استطاع أختر وأسرته الفرار إلى ألمانيا، استقرّ في ميونيخ وعمل بطلاء المباني وبعد عام ونصف أنجبت زوجته ابنتهما الصغرى «ريما»، صعوبات كثيرة مرّت بعائلة اللاجئين الإيراني بشأن حصوله على الإقامة الدائمة في موطنه الجديد، فألمانيا لا تمنح الإقامة الدائمة للغرباء بسهولة ولا تُمنح الجنسية هناك إلا بحق الدم لا الأرض، وتنفيداً لمقترح زوجته «شاهدة» تزوّج الرجل مضطراً بالسيدة «أودلفا شنيدر» أرملة عجوز متصابية تملك بقاله بجوار سكن العائلة، تعرّفت عليها «شاهدة» وأيقنت حاجتها الملحة إلى الونس والصحبة، وبذلك انتهت مخاوف الرجل وأُغلق ملف ترحيله من ألمانيا إلى الأبد.. أعوام قليلة مضت ثم توفيت الزوجة العجوز وتسلم «أختر» ميراثها؛ فباع البقالة والعمارة السكنية خاصة السيدة شنيدر، وأسّس شركة صغيرة للإنشاءات والتسويق العقاري، أثبت الرجل نجاحه بالكفاح والمتابعة والجلد، وساعدته زوجته



بالصبر والرضا وتحمل أعباء الأسرة كاملة نيابة عنه؛ فتفرغ لشركته وللعمل ومهامه... كانت الأحوال آنذاك قد هدأت في إيران فاستقدم الرجل شقيقه «أنمار»، وابن عمه وزوج أخته «أصلان» وأسرتهما ليهنأ العيش لآل عزيزي بعد سنواتٍ عجافٍ قضوها يتجرعونَ ويلات الحرب والدمار، وبالسواعد المتعاونة والقلوب الصادقة في محبتها نمت الشركة وازدهرت واتسعت مجالاتها فصارت من أكبر الشركات العقارية في زمنٍ قياسي..

وهكذا ترعرعت «ميرال» في فيلا أنيقة تحيط بها حديقة خلابة رقيقة مثلها، تنتشر في مساحتها أنواع كثيرة من الورود والأشجار والعصافير، تمددت الحديقة واتسعت وصارت مزرعة غناء، يعمل بها ثلاث شباب من أصول إيرانية بعريقات مختلفة، إثنان من الأكراد والثالث تركماني بالإضافة إلى عامل رابع مصري الجنسية، عم «زكريا الحناوي» صعيدي في أواخر الستينات، وجهه أسمر ممتلئ بتجاعيد الزمن تمامًا كعقله الممتلئ بالخبرة العاتية وحكاوي الحكمة، يرطن الألمانية بطلاقة مع الفتيات الصغيرات بنات السيد عزيزي، ويعمل في فترة بعد الظهر في مكتبة قريبة متخصصة في كتب التراث والحضارات القديمة..

كبرت «ميرال» فتاة لافتة للنظر، ليس بجمالها الآخاذ فقط



إنَّما بهدوئها اللافت وحضورها الطاعني رغم خجلها وانطوائها، تلعب بهدوء، تجري بهدوء وتتكلَّم أيضًا بهدوء، لا تجالس الأطفال كثيرًا، تعشق الإنفراد بعم زكريا ليروي لها حكاية «الشاطر حسن وست الحسن والجمال».. كانت طفلة محظوظة بحب كل مَنْ يراها، قلب العُقد وفير وزته والحلقة الوسطى التي تربط ما قبلها بما يليها.. دُرَّة قلب أبيها وابنة عقله، تجيء الكلمات سلسلة على شفيتها تُخبره فيما يُفكر دون أن ينطق، تراه عذبًا مثاليًا لا يعيبه نقص، صافيًا مشرقًا على الدوام مهما استقرَّت المتاعب على كتفيه، تعلَّمت منه كيف تُحب، كيف تشعر بمن حولها، كيف تدنو دون إفراط وكيف تبتعد دون تفريط، سعادتها به ومعه خيالية لا متناهية لولا الموت الذي خطفه منها على حين غُرة حين بلغت الرابعة عشر؛ فخلف في دواخلها ندوبًا لم تشف يومًا.. أقسمت يوم رحل والدها أنَّها لن تتزوج إلا رجلًا عظيمًا كأبيها، رجلٌ يُحبها بإخلاصٍ وتفانٍ كما أحَبَّها أبوها، رجل تحبه بتوغل كما أحَبَّت أباها.. رجل يشبهه في كل شيء فتغدو حياتها معه كرحلة آمنة في أودية مُطمئنة، آمنت أن ذلك الرجل موجود في مكانٍ ما على الكرة الأرضية من أجلها وأنَّها من المستحيل أن تتزوج غيره..

رحل السيد «أختر شير» عميد آل عزيزي وارتبكت أحوال



أسرته الصغيرة لبعض الوقت، قلق شديد انتاب شقيقه وابن عمه، فأرملته «شاهدة» لم تبلغ الأربعين بعد، مازالت في ريعان الشباب، امرأة جميلة، ناضجة ثرية، تهفو لها النفس، ومن الظلم أن تُحرم من الزواج ومن العدل أن ينالها أحدهما، ومن المنطق أن شقيق زوجها أولى بها..

خمسة أشهر تلت رحيل الرجل ثم تحققت أمنية «أنمار» بالفوز بأرملة أخيه، وانتقل الرجل للعيش في الفيلا الرحبة وجلس على رأس مائدة الطعام الممتدة خلفاً لأخيه الأكبر سيد ذاك الشراء..

شهرٌ بعدها واستوطنت أسرة عمها «زوجته وابنيه» الفيلا وأصبح لهما الجناح الغربي منها بالكامل وتساوت الرؤوس بين أصحاب البيت الأصليين وبين من كانوا قبلها ضيوفاً فيه، استنفذت المستجدات كامل صبر «ميرال» وطاقتها وسقطت شبه منهارة ترفض واقعاً صار متجعداً ومستقبلاً بدا متقزماً.. لا شيء تصبو إليه نفسها سوى إنهاء هذا السخف، بيد أن لا مجال ولا انفرجة لاحت في الأفق..

وقفت وحيدة منعزلة عن شقيقتيها ترفض فكرة زواج والدتها من عمها، «أنمار» ليس بالرجل الذي يليق بديلاً عن «أختر شير»، لم تتقبل الأمر بل إنَّها ابتعدت بإرادتها عن أمها وسخطت في قرارة نفسها عليها وعلى عمها وأصلها الفارسي



المتشدد الذي يلزم الأرملة بالزواج من آخر حتى تجد لنفسها
سنداً تستند عليه وأرضاً قوية تُبقيها راسخة، وكأنّها دون زواج
صارت عرجاء لا يستقيم عودها إلا برجل!

كَبُرَ هُمُّ «ميرال» قبل أن تكبر ونضج عودها قبل أن يخضّر،
وأضحت ملامحها هادئة لا تفصح عن شيء كبلدٍ نام مشتعلًا
بالثورات لكنّه صامت على الخريطة، استشفَّ «أنمار» رفضها له
دون أن تنطق، حاول استيعابها والتقرب منها وانتشالها من أيامها
الكالحة وغيرتها الزائدة على أمها وعلى ذكرى أبيها، وعلى كل
كرسي جلس عليه «أختر» ذات يوم، لكن حاجزًا جليديًا شيد
بين الفتاة وعمها لم تفلح السنون ولا المواقف في إذابته..

لم تعرف الغزاة لِمَا وقعت بمفردها في أزمة موت الوالد،
هوة فقده أَلَمَتها، فقد تقبلت شقيقتها زواج الأم من العم بهدوء
أقرب إلى التوقع بل إلى الرجاء، وتابعتا حياتهما دون تأثر أو
معاناة، إن شقيقتها الصغرى «ريما» ذابت في هوى عمّها وصارت
خاصته والأقرب إلى نفسه، تُلاعبه الشطرنج مساءً ويُدرّبها على
الرماية صباحًا، يصطحبها معه في رحلته الشهرية لصيد الغزلان
في البراري، تلومه وتخاصمه إذا غادر دونها تحت أي ظرف؛
فيسترضيها ويصالحها بحرص لافت على رضاها ومودّتها!!



تَقَرَّب «أَنمار» مِنْ بنات شقيقه تقريبًا صادقًا بدافع كبير من الحب والمودة والإخلاص، فنال بسلالة مكانًا لائقًا في نفس «شاهدة»، فما عادت أرملة أخيه بل صارت له زوجة على سُنَّة الله ورسوله، لكنَّها زيجة أخذت الضحكة مِنْ وجه «ميرال» ولم تفلح مودته معها فصار يتجنبها كما تتجنبه..

تبدَّلت الفتاة وتغيَّرت عاداتها، انجرفت بشدة نحو طرقات أبيها ودروبه، ويومًا بعد يوم تخمد هويتها وتذوب، وفي خضم معاناتها اتحدت مع كل ما كان يفعلُه والدها أو يحبه، تدوس بقدمها كل عادة كانت تُخالف عاداته أو ميوله، صارت تحتسي القهوة صباحًا دون سكر أو حليب، تُسارع إلى تناول كوبٍ مِنَ الحليب بالكرام إن أصابته نوبة برد أو زكام متناسية كليًا رأيها السابق في مذاقه اللاذع القاسي، كانت تراه بشعًا وترفض تناوله بإصرار وتبكي إذا ما أجبرتها والدها على احتسائه، فأصبحت تُسارع إلى تحضيره بنفسها إذا هاجمها الأنفلونزا، تقطف أزهار الزنبق الأحمر وترتبها في مزهرية زرقاء ذات فسيفساء منمنمة تستقر بجوار النافذة الرئيسية ليهو الفيلا تمامًا كما تعود والدها أن يفعل بنفسه كل صباح، انتزعت عدساتها اللاصقة وارتدت نظارة طبية سوداء، فاستوت تشبه فقيدها الغالي أكثر وأكثر، لا شيء أحبه الرجل أو



أرادَه يومًا مُعرَض للقطع أو الاقتلاع أو النسيان. كانت ممتلئة بأبيها متخمة بذكراه، يكبر حُبُّه في داخلها كلما كبر عمرها ويزيد ولعها به مع كل صفحة كتاب تقرأه من مكتبته!

حاولت كثيرًا وجاهدت لتخرج بنفسها من شرنقة الألم ودهاليز الحزن وتتقبل الواقع دون أن تفلح، كَرَّت سنواتها دون اكتراث، دون أن تحاول معاودة التواصل والاتصال بمشاعر والدتها، دون أن تحاول النجاة من برودة علاقتها بعمها وأهلها وذويها.. سنوات قليلة مرَّت وتزوَّجت «تَبَسُّم» شقيقتها الكبرى من «حُسين» الابن الثاني لعمها أنمار من زوجته الأولى «شِيناز»، تلك الزوجة التي رأتها «ميرال» ساذجة، باردة، متبلدة الحس، أو ربَّما كانت امرأة بائسة، عالقة في منطقة ضبابية بين الحياة والموت، كيف استسلمت وقبلت فكرة زواج زوجها من أرملة أخيه؟ بل أنَّها من فاتحت «شاهدة» في الأمر وعرضته عليها بهدوء، كيف سلَّمت زوجها صاغرة إلى أحضان أخرى غيرها وراحت تردد المباركات وتتلقي التهاني وتخبز الكعكات؟ كيف استطاعت؟ لا بد أنَّها امرأة مجنونة بلا شك!!

أثارت علاقة والدتها «شاهدة» بضرتها «شِيناز» حفيظة ميرال وصارت تفكر وتفكر بلا هوادة، فقد تقاربت الزوجتان والتحمتا



ببعضهما البعض بشكل استفزَّ خيال الفتاة وراحت تبحث في ماهية ما يجمعهما، أي تواصل ذاك الذي صار بينهما، لقد أضحت أكثر قرباً عما كانتا عليه في السابق حين كانتا كَتَيْنِ لدار آل عزيزي، لكن لا إجابات شافية ولا نتائج مقنعة برّرت ذاك القُرب!

وكَلَّما حاولت ميرال أن تترك الحزن وتطرده خارج روحها كَلَّما تغلغل داخلها وتملَّك منها وصارت أسيرته، فحين ينبُت الشوق ويربط الاشتياق بين حي وميت يبقى الحزن ملتهباً، دامياً ويصير النزف موجعاً..

وفي الجامعة تعرَّفت على سليم، ذاك المصري الصعيدي المودرن، النسخة المُعدَّلة من عم زكريا الحناوي «رجل الحكايا»، كانت في أشد حالات الاحتياج إلى مَنْ ينتشلها من ذاك البؤس وينقذها من ذاك اليأس، حيَّة بلا حياة، شغلها سليم بروحه المرحّة في غير تكلف وجرأته في غير ابتذال، عشريني في عنفوانٍ ناري يُشجّعها على الاقتراب أكثر، يدعوها وما أكثر ما يدعوها إلى حب الحياة والنفاذ عبر مساراتها السَّارة، تردَّدت كثيراً كي تُقبَّل يده الممدودة بترحابٍ ولهفةٍ لتُنقذها من غيمة الفقد التي تُظللها... لم تستمر مقاومتها طويلاً، فسقطت أسيرة لعينيه العميقتين ولقلبه الدافئ المفعَّم بالحياة، رأت أن بينهما كثيراً من المساحات



المشتركة، كلاهما يكره الفقر ويؤلمه رحيل الأحبة، سليم رجل شديد التعلق بأمه وذكرها، يبحث عنها في وجوه كل من يقابلهن من النساء، كذلك كانت ميرال شديدة التعلق بأبيها، تفتش عن ملامحه فيمن حولها من الرجال، زواج جعفر من فاطيما أدمى قلب سليم، كذلك فعل زواج شاهدة من أنمار في قلب الغزالة الإيرانية!

أي تشابه ذاك الذي جمع سليم وميرال؟، وجدته رجلاً كاملاً أو شديد القرب من الكمال، رجل بسيط لكنه أيضاً على درجة عالية من التعقيد، لا تستطيع التنبؤ بما سيقول لكنك أيضاً لا تستطيع مقاومة ما يقول، واضح جداً لكنه في ذات الوقت على درجة عالية من الغموض المثير، حدثها عن ونيسة، عن الخصى والقش، كيف بدأ وكيف انتهى؟ إلى أي مدى وصل معها؟ كيف كان مذاقها؟ كيف أحسها؟ لِمَا اقترب منها؟ ولِمَا تركها؟ أخبرها ببساطة متناهية وسلاسة مفطرة عن تفاصيل تلك العلاقة وأثرها على ذاته كمراهقٍ ثم كرجل، حدثها قبلها عن منة، ابنة عمته رحمة، تلك الفاتنة المثيرة في تحفظ، الغامضة في إثارة، أخبرها كيف قرّبتُ في لحظة، منته وداعبت خياله، وكادت تمنحه ثم وفي اللحظة التالية لفظته ولعنته وفضحت أمره، سخط الكل عليه واعتبروه جانيًا، ازدراءه أبوه لفترة بعد تلك الواقعة بينما ظلّ هو حبيس تلك الفكرة



اللعينة التي سيطرت عليه لبعض الوقت، فكرةٌ خبيثةٌ نمت داخل رأسه فكادت تغتلك بها، جُل ما كان يخشاه هو أن يفقد مكانته في قلب عمته الطيبة «رحمة»، يفقد اهتمامها وقناعتها الفطرية بطهره وسلامة سريره، ففكر كثيراً أن يرجع إلى بيت عمّته ليواجه ابتها وعينه في عينها، «منّة» تعرف أنه بريء وأنها أرادت أن يلمسها، بل دعتة إلى ذلك بنظرة عينها وانفراجة شفيتها، لقد تركت الزرين العلويين من بلوزتها مفتوحين، وراحت تُقلّب النظر بين عينيه وبين نحرها، تدعوه بعينها لينظر في تلك المنطقة الشهية منها!.

حدّثها كثيراً عن جدته النابلسية الطاهرة وكيف احتضنته ووهبته السلام وعلمته أن الأمان هو المعنى الحقيقي والوحيد للحب، فالأمان أن تشعر بأحدهم يحميك بقلبه قبل يديه، ويحبك بعقله قبل فؤاده، ويُسكنك قلبه قبل داره..

حدّثها عن أمه «إلهام» وكيف ألجمه فقدتها، وأنّهكها رحيلها، كيف كانت أنفاسها أريج عطر يفوح في كل مكان، كيف كان وجهها أبهى من قمر نيسان، حتّى تأنيبها له على أي خطأ حين يرتكبه كان كدواءٍ حلو، فتأنيبها يتجاوز مرارته ذاتياً، وذراعاها اللتان تمتدان لتقرّبه، تضمّه، تحويه كانتا كافيتان جدّاً لمسح أي ذرة غضب فلا يتبقّى في نفسه غير حبٍ صافٍ باطنه تعلّق..



حدّثها عن عمّته «رحمة»، يراها دومًا رائعة، إنّها النصف الطيّب من أبيه، ينبوغُ عطاءً لا يجف، وشمسٌ لا تغيب ولا تحيد، حتّى موقفها منه بعد واقعة مع «منة» كان بصفاً روحها وجمال قلبها، أخبرها كيف صفعته حينها بحدة ثم التفتته في حضنها تخبّئه باكية، يراها ألطف قلب عشقه بعد جدته..

حدّثها عن خالته «سهام» بقلبها الواسع الرّحّب وحظّها الضيق، نفسها اللينة كقمرٍ يضيء ظلام العقل، أخبرها كيف يجد فيها ريح أمه، فينحني يقبّل يدها ويسكب دموع ضعفه فوق صدرها الطيب، فتمنحه نظراتٍ دافئة يملؤها الرضا والصبر حينها فقط يشعر باكتمال رجولته وهدوء نفسه، وأنّه بقرّبها قادرٌ على تحدي العالم..

حدّثها عن والده «جعفر» وعلاقته به، تلك العلاقة شديدة التعقيد والتوتر، يراه رجلاً طيب الأصل لكنّه لا يؤمّن العاقبة، ماكر كالثعلب، غضبته قاسية ولومه مفرط وعتابه مُريع، لكنّه على قدرٍ كبير من الحيطة والذكاء والشهامة، لا يعرف الظلم بل يحاربه، يتغني الصالح لمن حوله، لكنه هو وحده من يقرر الصالح من الطالح، لا يترك عباً إلّا قومه ولا ضعفاً إلّا عالجّه، ولا موضع لينٍ إلّا وسدّ ثغرتّه، يُدرك كم أدمى هذا الرجل قلب أمه، لكنّه مع ذلك يُحبه، ينقصه الكثير ممّا تمناه له سليم في خياله لكن لديه أيضًا



الكثير من البطولة والرجولة الفدّة، يجده حاضرًا بقوة في كتابات نجيب محفوظ، يراه تارةً سي السيد في الثلاثية، ويراه عاشور الناجي في الحرافيش تارةً أخرى، يراه مزواجًا لا يقف عن التنقل بين النساء حبًّا لهم أو بالأحرى حبًّا في اقتناءهم، ورغم عظمة ما يقع تحت يديه من أموال وأراض وبهائم إلا أنه دؤوب نشيط ومغامر أيضًا، لا ينفك يعمل مجتهدًا لزيادة الثروة والأرض دون كلل أو ملل، يمنح الفقراء بسخاءٍ، يُجزل العطايا دون إسراف، شخصية ثرية أجمل ما فيها تناقضها بين البساطة والتعقيد، شخصية لا يمكنك أن تحكم على سلوكها بسهولة، ولا يمكنك تجاهلها سواء أحببتها أو كرهتها، في كل الأحوال ستقف عندها طويلًا لتفكّر..

حدّثها عن «فاطيمة»، زوجة أبيه الأخيرة، الإسكندرانية الجميلة صغيرة العمر، كبيرة الخبرة أو لنقل كبيرة الخيبة، يؤمن سليم أن انهزامًا كبيرًا ويأسًا صلبًا هما ما دفعها لتلقي بنفسها وسنوات شبابها إلى أحضان رجل كأبيه، يُجزم أنها تردّد لنفسها كل مساء جملة تشدّها أزر نفسها «لم يذهب عمري هباءً فقد حصلتُ على الكثير من تلك الزيجة» لكنّها ساذجة، لا تعرف أن أباه لن يترك لها قرشًا إذا غدرت أو ملّت أو قرّرت الرحيل، يراها طيبة وربّما مسكينة غافلة عن المعنى الحقيقي للحياة، ليست فاسدة ولو



كانت لأسرعت تضرب الأرض بقدميها حتى تُتجب من أبيه صبيًا
أو صبية يُقاسم سليم في الثروة والميراث وما أعظمهما، لكنّها
تائهة ممزقة ربّما يكون زواجها من جعفر ليس أكثر من ممر فاصل
بين ما كانت وما تريد أن تكونه، يومًا يجدها حكيمة فيما تقول، ذات
رأي وفلسفة ويومًا يجدها ساذجة تسبح في نهر من البراءة الأقرب
إلى العَبْط، إذا غضبت احمّر وجهها فتصير كحبة طماطم شهية،
وتظلّ تتمتم بعبارات لا يفهمها أحد ثم تهدأ!.

حدّثها عن أخته «شهد» أو «برن»، تلك الأنثى الفريدة التي
قابلها حين بلغ الرابعة عشر، قلبٌ من ذهب وعقلٌ من فضّة، وجد
فيها متكئًا يتكأ عليه حين تتنابه نوبات الحزن المفاجئة، وجوده
معها جعل حياته في ألمانيا جنّة، يجد فيها ضالته حين يبغي الهرب
بعيدًا للتخلص من إنهاكٍ نفسي وروحي لا يعرف له سببًا، لا تلومه
أبدًا ولا تقرعه مهما أخطأ أو تجاوز، تؤمن أن دواخله أروع وأطهر
وأنقى، برن شخصية مُسالمة غايتها التي تريدها وتتمناها، أن
يكف العالم عن قسوته، عن شره، عن أنانيته، لهجتها المصرية
ليست جيدة إطلاقًا لكنّها تصمم أن تُحادثه بها..

استقر المصري الشاب في قلب الغزاة واستقرت هي في
روحه، وكأنّهما كانا على موعدٍ، عوّلت عليه كثيرًا ورأت فيه كل



ما احتاجته وانتظرته يوماً، اتكأت على كتفه وانتظرت أن يأخذها إلى العالم الذي لطالما خشيت الخوض فيه، ازدادت به ارتباطاً حين استوعب سليم حاجتها ودنا يربط على قلبها، رآته رجلاً أسطورياً، يشبه أبطال الروايات وكتب التاريخ، رجل حين يتسم تغيير كل الألوان وتتبدل كل الفصول وتزيد سرعة دوران الأرض ويقترّب القمر وتنهمر الأمطار اللؤلؤية هنا وهناك..



كان لقاؤهما الأول مصادفةً، حين حضر سليم إلى عنوانهم بحثاً عن العمّ زكريا الحناوي ليُسَلِّمه أمانة حملها له من الصعيد، لفت نظرها بحضوره العبقرى وحديثه المختلف عمّن رأته من الرجال، تلمع عيناه ببريق فضي مميز حين يتسم، رجلٌ ذو ابتسامة دافئة مثيرة للجدل، ثم التقت به ثانيةً في أحد صباحات ميونيخ المطيرة حين زارت مكتبة الجامعة، استقرّت على الكتاب الذي سُتطالعه، ثم جلستُ تتصفحه بينما تحتسي كوباً من القهوة بالشيكولاتة، لفت نظرها أن شاباً يجلس على الطاولة المجاورة يتفحصها بنظراتٍ ثابتة لا تحيد عنها، رفعت عينها عن الكتاب لتوبّخه؛ فإذا به المصري المغترب، صديق عم زكريا، تبادلا الابتسامة، ثم وجدته يغادر طاولته مقترّباً منها، مشيراً إلى كتاب



يحمله في يديه، إنَّه نفس الكتاب، «آلهة مصر» للكاتب «فرنسوا ديماس» يالها من مصادفةٍ مذهشة، توات بعدها اللقاءات في الجامعة والمكتبة، وعند بائع الأزهار، المقهى الصباحي الذي تعرج إليه ميرال لتناول الفطور قبل الذهاب إلى كُليتها، لقاءات أقسم سليم أنَّها تأتي مصادفة دون تخطيط، عرف أنَّها أسيرة لكل ماهو تاريخي، تهوى الحضارات القديمة واللغات الشرقية، فأرسل لها في عيد ميلادها كتابًا عن الحضارة الفرعونية بعنوان «فجر الضمير» لعالم المصريات جيمس هنري بريستد، وقد خطَّ لها بالألمانية إهداءً حالمًا على صفحته الأولى: «إلى مَنْ أرى فيها ماضيَّ وسأعيش معها مستقبلي... إلى ميرال، غزالي أنا»..

ثم جاء اللقاء الأكيد، لقاء لم يكن مصادفةً، بل اختاراه معًا.. موعدٌ على العشاء في ميدان «ماريا» في قلب ميونيخ، ذاك الميدان المتخّم بالتراث الألماني الذي يرجع إلى مئة عام..

إنَّها تعشق التاريخ عشقًا سرمدياً، تُطيل القراءة والتقليب في صفحات كُتب الحضارات العبقريّة ذات الجذور، كالحضارة الكنعانية والبابلية والآشورية، وفي عامها الأخير من المرحلة الثانوية كتبت بحثًا هامًا عن حضارة الفراعنة وتفردهم في كثير من العلوم، فنال بحثها اهتمامًا بالغًا من مدرستها التي سلَّطت



عليه الضوء فنشر كمقالات أسبوعية في إحدى الصحف اليومية، يومها منحتها أمها سلسلة فضية بها قلب فيروزي يحمل اسمها مطبوعاً على جداره..

وفي بساطة أخبرته ذات يوم: قرأت كثيراً عن أجدادك الفراعنة وفجأة وجدتكَ أمامي، فرعون مصري أصيل في زيٍّ حديث!

سألها أن تقدمه لأسرتها، أن تُعرِّفه على شقيقتها، أراد سليم أن يختصر كل مسافة تفصله عنها، سألته أن يمنحها وقتاً، فالأمر بالنسبة لهم يعدو غريباً بل أنه مرفوض نوعاً، فبرغم نزوحهم إلى أوروبا واستوطنهم بها منذ سنوات فما زال تفكيرهم شرقياً متشدداً، في أقصى درجات التحفظ والانغلاق، مازالت إيران بكل ما فيها وما عليها تسكن بواطنهم، خطوط حمراء عديدة عليهما تجاوزها معاً ليصلا في النهاية إلى المُراد؛ فليمنحها وقتاً، هذا كل ما تريده الآن..

وافقها الفرعون المصري على غير إرادته، تفهّم تحفظها وترويعها رغم ما أحدثه الأمر في قلبه من غصة، فمعها اختلف طبعه، لها وحدها أرخى كل الخيوط التي تَمَسَّك بها يوماً، فقد أصبحت أيامه معها السبب اللذيذ الذي يدفعه للاستيقاظ صباحاً كل يوم، ذلك الرجل الذي يحب دوماً أن يختار، أن يُحدد، تنازل بمحض قناعته عن طبع جَبِلٍ عليه، يهوى سليم أن يختار ويكره



أن يُجبر على أمر أو أن تدفعه الظروف نحو طريق لا يريده، فأكبر
مشاكله مع أبيه أنّه مثله، لم يفهم جعفر أنّ ابنه يطابقه تمامًا،
يكره أن يُسَيّر، لكنّه اختلف مع تلك الأصفهانية ذات الغمّازات
اللؤلؤية، ربّما دخلت ميرال حياته صدفة لكن بقاءها فيها أو
خروجها منها لا بد أن يكون اختيارًا..

هل يمكن أن نختار أقدارنا؟ سؤال مرّرتّه إليه ميرال ذات يوم.
فأجابها بثقة وهو يُقبّل كفها: يمكننا إن أردنا...

: لا أحد يستطيع أن يُعاند القدر يا سليم.. وليتك تكون قدرتي.
: ولما يتعين للقدر أن يعاند قلوبًا غلبها الشوق وتمكّن
منها الهوى؟

أجابته بخوف: تلك هي لعبته المفضلة!

كانت مُحقة في تخوفاتها، فبعد عامين وبضعة أشهر قضاهما
الحبيبان في غرام لا يضاهيه غرام، زارت خلالهما ميرال برن في
منزلها أكثر من مرّة والتقت أسرتها وقضت معهم أسبوعين في فصل
الخريف، وتدفّقت مشاعرها نحو سليم أكثر وأكثر، كان عليها أن
تواجه قدرًا محتومًا لا خيار فيه، فقد عاد «يوسف آل عزيزي»،
الابن الأكبر لعمها «أنمار» وقد أنهى دراسته في روسيا، وأقل
عائدًا إلى ألمانيا لتنفيذ مُخطط عائلي كُتب ورُسّم قبل مجيئهما



إلى الدنيا بسنوات، فقد لَمَسَ والدها ميلاً وبراعم مشاعر تتفتح بين بكريته «تبسم» و«حسين» ابن أخيه؛ لم يزعجه ذلك الميل بل راح يوسع قاعدة أرادها ستضمن لأسرته التماسك والترابط، فلا يشق لها جنب ولا يدخل بينها طامع أو نذل؛ فأوصى بما رآه يكفل السعادة لِمَنْ أَحَبَّهُمْ وأَفْنَى عمره مِنْ أَجْلِهِمْ، قرَّر أبوها زواجها مِنْ يوسف وشَدَّدَ عليه قبيل وفاته المفاجئة. أفضى بحديثه إلى زوجته وشقيقه وابن عمه، رُتِبَتِ الأمور وتَبَقَّى الوقت المناسب للإعلان عنها، «حسين وتبسم»، «يوسف وميرال»، «فرحان وريما»... مشيئة أختروا ورغبته التي أخذ عليها القسم والعهد وكتبها في وصيته، ميثاق أوصى أن يكون نافذاً تحت أي ظرف..

يوسف شير آل عزيزي، نسخة مكررة مِنْ عمِّه أختروا، «شير» ذلك الاسم الذي يتوسط نسبته وتعني «الأسد» بالفارسية، كلمة تُعبر عنه وتطابقه تماماً، تقع عينك عليه وللوهلة الأولى فتخاله ابناً لأختروا وليس لأنمار، نفس طول القامة، لون الشعر، قسَمَات الوجه، نظرة العين ولونها، حين يتبسم تلمع عيناه بوميضٍ غامضٍ وتضيّق حدقتاه وتظهر خطوط تعبيرية بسيطة عند زاوية العين الخارجية تماماً كعمِّه، والداها الذي ترى أن الجميع يُشبهه، هي وأختيها وحُسين إلا أن لا أحد يُشبهه كيوسف، وحده يُماثلُه ويُطابقُه!!



يوسف، الركيزة الأساسية لكل ما هو قادم، العنوان الأساسي لكل حديث عائلي، الخليفة القادم أخيراً وصل، يوسف المُخَلَّص، المُنجي المُنتظر، القائد الجديد لسلسال آل عزيزي... لم تعرف ميرال مَنْ أعطاه تلك العظمة ولِما؟؟ لا يهم إن كان جديراً بالمكانة ذاتها والمهابة عينها أم لا، المهم الآن أنه صار عُنوانها الجديد وطريقها لتنفيذ رغبة والدها الغالي ووصيته المقدسة..

ففي إيران عامةً وفي عائلة آل عزيزي خاصةً يُولد الرجال للقيادة والعمل وتولد النساء للانتظار والترقب... لانتظار الفرصة لتحقيق النمط المتوارث من الحياة وتنفيذ الخطط الموضوعة مسبقاً، ولترقُب ما وجود به الزمان عليهن من فرص جديدة، ولا أحد لديه الجرأة الكافية للمخالفة أو الاعتراض أو التمرد على نصوصٍ كُتبت ومُررت منذ الأزل. لا نهايات ولا فواصل بين ما مضى وما هو آت؛ فالسطرُ الجديد يولد من رحم ما يسبقه، ويولد حاملاً لأمشاج ما يتبعه..

بينما يتجلى الاختيار الحقيقي في القدرة على أن تعيش سعيداً بما هو متاحٌ لك أو تقبّع داخل زنراتك حزيناً يقلقك الهم..

لقد دفنت شاهدة حزنها على أختر بين ضلوع شقيقه وعلى صدره سكبت عيناها الدمعات، لكنها وبكل اعتيادية نفذت ما توقعه الجميع منها وما أرادوه لها، لذا تزوجت «أنمار»!!



وتزوجت شقيقته «عرفة» من ابن عمها «أصلان» بمجرد أن أتمت الثامنة عشر، لم تكن تتذكر ملامحه فقد غادر البلدة منذ زمن طال، منحوها صورته الفوتوغرافية ومهرًا وشهرًا واحدًا لتُخيط ثيابها وتُجهز حالها كعروس، بينما كان زوجها المستقبلي يقوم بواجبه كجنديٍّ في فرقة لواء احتياطي في تبريز، رآها وتزوجها ودخل بها ثاني ليلة بعد عودته...زوج وزوجة وشهر عسل دام لخمس ليالٍ كانت مُحكمة، مُركزة، رجع بعدها «أصلان» إلى فرقته وقد استوطن حيوانه المنوي بويضة العروس التي راحت تطوف أنحاء البيت تتلوى تُشد على خصرها، غايتها أن تتخلص من ذلك الألم القاسي الذي تعانيه حتى أنقذتها القابلة وانتزعت جنينها سالمًا ثم وضعت جانب أمه، ليقابل «فرحان» أباه بعد حضوره إلى الدنيا بسبعة أسابيع..

أحداثٌ مهمة في ذات العائلة تَمَّت على هذا النحو... استفتاءٌ عائلي ومشاوراتٌ عديدة وجلساتٌ متكررة حتى يتخذ الكبير قراره، وقرار الكبير لا رجعة فيه..

لم يستطع أحد من جيل والدها ولا جيلها أن يضع حدًا لهذا النهج الذي يحتكر العزيزين أنفسهم..





لم يكن يوسف رجلاً سيئاً ولا عريداً فجاً، وليته كان حتى تتهياً لميرال أسباً للرفض والعصيان، كان قوياً وكأنه خلق من فولاذ، ودوداً وكأنه خلق من مخمل، هادئاً، متصالحاً مع نفسه ومع وضعه العائلي ومع ما ترك له من إرث، يقبل بما يتوجب عليه فعله، يرضى بمساره وكأنه من اختياره، أخبرها بأنه استشف انزعاجها مما آلت إليه الأمور، يتفهم استياءها ورفضها لما يدفونها نحوه، اعترف أمامها أنه أيضاً فكر في تجاهل الوصية ومخالفتها، وليكن أول المتمردين على النهج والعرف العائلي، لكن رغبةً دينة في المحافظة على سلامة شجيرات العائلة النابتة من الذبول قبل التفتح جعلته يتروى ويُعيد النظر، حبه الشديد لعمه «أختر» وإيمانه العميق بما قدّمه الرجل لأبيه وللعائلة كلها واحترامه لرغبته الأثيرة يدفعا للبقاء والالتزام بموروث عائلي لا يخلو طعمه من المرار، لا شيء يُفسر صدق نيته سوى تركه لفتاة أحبته بكل شوقيته وأحبها بكل ميراثه، عرفها في روسيا، قاوم رغبته في الاعتراف لها بما يشعر، تركها هناك وأدبر عائداً يقبل التركة بكل جزء فيه، لم تستحق فتاته أن يعاملها بذاك التجاهل، لكنه فعل، ولم يستحق هو أن يُعامل بكل تلك البعثرة، لكنها حدثت..

تنازل راضياً عن حلم أراد يوماً تحقيقه مقابل تحقيقه لأمنية



عمّه الغالي وإرادته، شيءٌ ما في حديثه دعاها للتروي، شيءٌ ما في عينيه دعاها للتنازل..

لطالما آمنت ميرال أن النساء لابد أن يتزوجن عن حب، فالحب يولد القناعة والرضا اللازمين للاستمرار في روتينٍ ونمطيةٍ تفرضهما المسؤولية والحياة العائلية بمشاكلها، فالرجل عادةً ما تخفت مشاعره بعد الزواج، وفي أحيان كثيرة يستطيع إلهاء نفسه بالأصدقاء والرفاق وصحبتهم ومجاراتهم في السفر والتسلي بأبسط الأشياء كلعب الكوتشينة أو الشطرنج، يقدر على تفريغ عقله من كل التفاصيل ويروح ويجيء يجري خلف كرة صغيرة، أمله أن يحرز أهدافاً في مرمى فريقه المنافس، يستطيع حتى تجديد طاقته العاطفية بالغراميات السلسة السريعة، علاقات «تيك أوي» لا تتقاطع مع مسؤولياته بل تمنحه الطاقة اللازمة لشحذ بطارية همّته، أو ربّما تنجرف منه الأمور وتتعدد، فيجد نفسه زوجاً لثانية أو ثالثة، يقف فرحاً يتشدد بقوله تعالى «مثنى وثلاث ورباع»، والشرع أباح والشرع منح، لكن هل تستطيع المرأة ذلك؟! بالطبع لا، فالمرأة حين تمنح جسدها لرجل شرعاً لا شيء يشفع لها إن انصرفت مشاعرها عنه مهما كانت دوافعها أو أسباب انصرافها عن زوجها لغيره، مهما كانت معاناتها وخيبتها وإحباطاتها، مرة



واحدة وفرصة واحدة ورجل واحد، تلك هي حدودها فعليها إذن أن تُحسن اختيار الواحد الذي ستمنحه كلها؟!... فالحب هو فرصتها الأكيدة نحو السعادة، هو مفتاحها لاختيار حر لا يتبعه سقوط، فتلك الأنثى التي تتزوج مِمَّنْ تُحب أكثر حظًا مِمَّنْ تُحب مَن تتزوج إن تحقَّق لها ذلك..

لا شيء يجعلنا أقوياء كالحب، ولا شيء يسلبنا قوتنا كالحب أيضًا، يمنحنا الصلابة ويمنحنا معها الهشاشة أضعاف المرات خاصةً في سبيل مَن نُحب..

أحبت ميرال سليمًا وعاشت في نعيمه تؤمن أنَّ لا قوة على الأرض ستزعه منها؛ فجاء يوسف ليُفسد عليها ذلك النعيم ويُهشم تلك القوة، أي حزن ذاك الذي يملكنا حين تصير أبسط أمانينا ورغباتنا تحت رحمة الموروث والمفروض والواجب؟ أي قهر ذاك الذي يسحقنا حين تهون أرواحنا علينا وتصير رخيصة دون فرصة حقيقية للنجاة؟.

استقرَّت روح ميرال على حافة الحيرة الحادة، لا تملك أن تستمر سيرًا نحو سليم ولا تستطيع تجاوزه نحو يوسف وأبيها، لا ذنب لها حين أحبت رجلًا لا يمكنها الفوز به، ولا ذنب لرجلٍ آخر حتى تتزوجه وقلبها مع غيره!



فَحِينَ ظَنَّتِ الْمَسْكِينَةَ أَنَّ حَيَاتَهَا سَتُزْهَرُ فِي رِبْعِهَا، تَسَاوَتْ
فَصُولُهَا كُلُّهَا وَمَعَهَا أَحَاسِيسُهَا..

لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ أَنْ يَخْتَارَ قَدْرَهُ، لَا أَحَدٌ! أَحَبَّتْهُ نَعَمْ، لَكِنَّهَا
لَمْ تَحِبَّ أَحَدًا كَمَا أَحَبَّتْ أَبَاهَا..

وَدُونَ إِنْذَارٍ مُسَبِّقٍ أَوْ إِشَارَةٍ تَنْوِيهِ وَخِلَالِ أَحَدِ زِيَارَاتِ سُلَيْمٍ
لِكُونِ سْتَانَسٍ حَيْثُ بَرَنَ، تَزَوَّجَتْ مِيرَالُ مِمَّنْ اخْتَارَهُ الْقَدَرُ لَهَا،
تَزَوَّجَتْ ابْنُ الْعَمِّ، أَقْنَعَتْهَا شَقِيقَتُهَا الْكُبْرَى «تَبَسُّمٌ» أَنَّهَا إِرَادَةُ اللَّهِ
قَبْلَ أَنْ تَكُونَ إِرَادَةُ أَبِيهَا، وَحِينَ تَكُونُ الْإِرَادَةُ إِلَهِيَّةً لَيْسَ لَنَا الْحَقُّ
فِي رَفْضِهَا أَوْ الْإِنْصِرَافِ عَنْهَا، بَلْ عَلَيْهَا أَنْ تَسْتَغْفِرَ كَثِيرًا فِي كُلِّ
مَرَّةٍ تَتَذَكَّرُ سُلَيْمًا أَوْ تَفَكِّرُ فِيهِ... هَكَذَا صَارَ سُلَيْمٌ ذَنْبًا يُوجِبُ
الْإِسْتِغْفَارَ، وَرَغْمَ كُلِّ الدَّمَارِ الَّذِي تَعَانِيهِ دَاخِلُهَا عَلَيْهَا أَنْ تَبْدُو فِي
أَقْصَى دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ!!

تَلَقَّى سُلَيْمٌ طَعْنَةً غَادِرَةً مِنَ الْيَدِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي لَمْ يَتَخِيلَ يَوْمًا أَنْ
تَطْعَنَهُ، إِنَّهُ لَا يَسْتَسْلِمُ لِلْقَدَرِ وَلَا يَسْتَجِيبُ لِمَا يُفْرَضُ عَلَيْهِ، يَرْفُضُ،
يَقَاوِمُ، يَثُورُ فِكْرًا وَلَفْظًا دُونَ أَنْ يَخْشَى غَضَبَ الْقَدَرِ وَلَا عِقَابَهُ لَهُ
بِأَقْدَارٍ أَسْوَأَ وَأَكْثَرَ قَسْوَةً، لَكِنْ مِيرَالُ لَمْ تَمْنَحْهُ الْفُرْصَةَ لِلْمَقَاوِمَةِ،
لِلْإِعْتِرَاضِ، لِلثُّورَةِ، لَا فُرْصَةَ كَانَتْ أَمَامَهُ لِلْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ، لَقَدْ
أَجْبَرَتْهُ عَلَى الرِّحِيلِ بِأَنْ رَحَلَتْ هِيَ عَنْ عَالَمِهِ دُونَ مَنْحِهِ وَلَوْ فُرْصَةً



واحدة للمحاولة، خشيتُ أن تضعفُ أمامه، خشيتُ أن تستسلم
لقلبها وتُخرس صوت عقلها الخشن، تكتمه بقُبلة من سليم قبل أن
تضع رأسها المتختم بالصراع فوق تلك المساحة الآمنة في صدره،
تلك المساحة التي منحها وحدها حق تقييلها..

بكاهها سليم بدمعات ألْهبت قلبه، وبید ترتعش أمسك هاتفه
ومسح كل صورهما معاً، صور تُذكره بحياةٍ وردية كاذبة عاشها
يوماً، أيقنَ في تلك الليلة كيف يجيء الموت على حين غرّة، دون
توقع ولا تهیئة تُقلل من صدمته؟..

رثاها بكلمات دَوَّنها في دفتر يومياته، كلمات كتبها بمداد
صُنع من ألم وحسرة..

إلى المرأة الوحيدة التي أحببْتُها:

«كنت لي ضوءاً لا ينطفئُ فصرت ظلاماً يطمس الرؤية،
خلْتُك ورداً لا يموت فوجدتُك شوْكَاً لا يُنزع، ظننتُك ينبوعاً
لا يجف فاخترت أن تكوني ظمئاً لا يُروى، رأيتُك كل الأشياء
السعيدة فأقسمت أن تكوني كل النهايات الحزينة، أردتُك لي عبناً
شهياً لا ذنب فيه فانقلبتي نبیذاً محرماً لا خير فيه... كان يمكنني
أن أهزم العالم معك فهزمتني أنت.. كنت لي زهرة دَوَّار أولِّي
وجهي شطرك فتشرق روحي، معجزة توهُّمتُ أنَّها تحققت وما



كنتِ إلا سرابًا خنَافًا أطبق يده بقسوة على قلبي فانتزعه من بين أضلعي المهترأة، كنتِ وحدك عندي بكل النساء، فصرت مجرد نسخة مكررة من كلهن»..

أمّا «ميرال» العروس فقد فطنت بقلبها أن سليم سيرفض استلام أي رسالة منها؛ فأرسلتها إلى أخته «برن» على أمل أن يقبل قراءتها في يوم ما..

إلى حُلُمِ اغتالته يد الواقع، إلى سليم:

«أتدرك ماذا يعني أن يأتي شخص على مقاس أمنيّاتك تمامًا، ملامحه، صوته، رائحة جسده، كتفه المخلوق لسند رأسك المتعبة، هدوءه وجنونه، عقله وطيشه، طريقته في الحديث إليك، طريقته في الإنصات إلى حديثك، ذوقه في الموسيقى واختياراته للكتب تطابقك تمامًا، ثقافته، رؤيته، شخص يمنحك كل شيء تمنيت أن تمنحه لك الحياة، كنتَ أنتَ لي يا سليمي كل ذلك، كنتَ رثاي اللتانِ أتنفس بهما، كنتَ مَنْ تدفعني للبقاء حيّة، كنتَ آخر أحلامي وللأسف ضنّ عليّ الدنيا فلم تصبح واقعي، أحببتُك نعم بكل سنواتي يا رجل أمنيّاتي، لكني وبقدر ما أحببتك أحببتُ والذي حبًّا مُنهِكًا معجونًا بماء الحزن ودقيق الكآبة، حبُّ أوله فقد وآخره خسارة، حبُّ يفرض عليّ السير مغمضة



العينين في طريقٍ وعرٍ لا نهاية لها، لن أخالف رغبة والذي ولن أعصى أمره من أجلك يا مَنْ كنتَ كياني... أخبرتك سابقاً أنّ لا أحد قادرٌ على أن يختار قدره، ويوسف قدري وسواء رفضته أو قبلتُ به فقد غدا واقعي وعنوان أيامي... انساني يا سليم وامسح أيامي من ذاكرتك تطب لك الحياة، وحقاً أتمنى لك كل سعادة وقبلها أتمنى لك كل الحب»..



لقد اختفت ميرال من حياة سليم لكنّها أبداً لم تختف من قلبه ولا ذاكرته، يستطيع أن يتخطى الكثير من المواقف المزعجة والأوقات الصعبة إلّا أنّه بقى عالقاً عند صدمته في الحب، في الخير، في ميرال..

شهران بعد زفافها إلى يوسف ولاحت لهما فرصة الانتقال إلى «برلين»، لقد توفي السيد «أصلان آل عزيزي» ابن عم والدها والمدير المسؤول عن إدارة الفرع الرئيسي لشركتهم العقارية، سأل يوسف ميرال عن رغبتها في الانتقال إلى أكبر مدن ألمانيا، خشي أن تزعجها رغبته في السفر أو يؤلمها ابتعادها عن أمها وشقيقتها وخيرها ما بين القبول والرفض فوافقت، بل وشجّعته على الانتقال إلى دنيا جديدة، لم تختار يوسف ولم يخترها هو،



كلاهما سُيِّرَ نحو الآخر وهو لا يعرفه، جمعتهما الوصية والإرث والعادات والأطر، جمعهما القدر في لحظة لقاء لم يفرا منها، لحظة لم يختارها لكنها اختارتها بدقة وثبات..

سألته ذات مرة: ما الفرق بين الحياة والموت؟

مدَّ يوسف يده إلى كتفها مداعبًا شعرها قائلاً: الاختيار.

فصوّبت عينيها نحوه مستفهمة، فقال: لا خيار لنا في الموت إن حانت ساعتنا، لكننا من يختار إمّا أن نحيا ونستمتع بحياتنا وإمّا أن نكذب على أنفسنا ونُدّعي الحياة ونحن موتى.

لم يكذب «يوسف» فيما قاله أبدًا.. إنّه فقط أكثر مرونة من ابنة عمه، جاء إلى الدنيا في أول صباح من ١٩٨١م، كانت حرب الخليج قد اشتدّت وصارت شاملة، عانى والديه في تلك الأثناء من فقدتهما لشقيقيه التوأم، وبين عشية وضحاها صار هو الطفل الأكبر، وتوجّب عليه أن يتعلم كيف يصير دومًا البادئ والمبتدئ، الأكبر والقائد، بعد أن كان مجيئه حالة معتادة لا استثناء فيها، وجوده يُضيف فردًا في العائلة المترامية، فرد لا ميزة خاصة لديه، صار الأول، البكري، من طرفه تبدأ الجملة وعنده تنتهي... ارتبط يوسف بعمه «أختر» ارتباطًا وثيقًا وراى رجل الشدائد والأزمات، لازمه وتعلم على يديه السباحة والرماية وركوب الخيل، صنعه



«أختر» لنفسه وكأنه يصنع مُجاهداً مُخلصاً يواجه به دهاeliz الحياة ومصائبها، لم يُحب ميرال قبل الزواج قدر ما أحب عمّه وعائلته وكل ماهو إيراني وكل ماهو عزيزي، لكنّه وبقرها عَرف الحب ووجده، وأقسم أن يجتهد ويثابر لينال قلبها، يعلم أنّه بالنسبة لها ليس أكثر من قدرٍ لا تُحمد عُقباه، وميرال ليست سعيدة بهذا القدر لكنّها أيضاً ليست تعيسة تماماً معه، إنّما بقيت في حالة تراضٍ، رضيت بما قدّر لها وتعايشت مع الواقع بانتظار نهاية تنفك بها عن مصيرها، تساوت عندها الأيام وتسطّحت داخلها الرغبات، لكنّه وبكل طاقته لن يمنحها تلك النهاية، حرصت منذ ليلة الزفاف ولثلاث سنوات تلتها ألاّ تحمل جينناً، امرأة مثلها مثخنة بالألم لا قدرة ولا رغبة لديها على منح الحياة لروح جديدة، لم تكن راغبة ولا مُستعدة لأن تُشارك يوسف إنساناً يحمل جيناتها معاً، إرثٌ جديد ينضم لعائلة آل عزيزي، تخيّرت وسيلة طبية تمنعها من الحمل، تفر من لقاء يوسف في الأيام التي تزداد فيها هرمونات خصوبتها تفادياً لأي خطأ قد يزرع نطفته في رحمها عنوة، لم يسألها يوسف عن سبب رفضها للإنجاب رغم أنّها أعلنت رغبتها في تأجيله صراحةً، علّل الأمر لنفسه أنّها مازالت صغيرة، غير مستعدة لتحمل مسؤولية طفل أو طفلة، ركّز كل طاقته على إنماء مشروعاته وتطوير عمله، وببطء حاول التسلل



إلى قلبها والاندساس بين ضلوعها راجياً أن تستجيب، فعلى قدر
حلاوة الحب تأتي مرارته، ففي الحب أيامٌ أمرٌ من الصَّبار، وأيام
أشهى من الشهد... كانت تلك استيراتجية الصَّبور يوسف،
متغافلاً عن عذابات الترقب!



أنهى سليم دراسته في ألمانيا أوائل ٢٠٠٨م ولم يستمع
إلى رجاءات «بَرِن» بالبقاء معها ولم تستهويه اقتراحات «زين»
زوَّجها بالعمل في بلاد تفتح ذراعيها لكل مبدع، سارع يغادر
سماء ألمانيا، سماء جمعته يوماً بامرأة ما زاده حبها إلا وجعاً،
امرأة سكنت تفاصيله تُحدث ضجة داخله، يحاول تجاهلها
فيغرق بها أكثر، صار حذرًا حين يتجول في ذاكرته، فبعض الزوايا
لا يُستطاب دخولها ولا حتى تذكرها من جديد...

وفي ١٥ فبراير ٢٠١٠م وفي نفس تاريخ ميلادها استقبلت
ميرال ابنها الأول، ابنٌ من طراز فريد يجمع بين جمال والدته
وبهاء والده، يتجلل في قسماته شموخ جده «أختر» وطرافة جده
«أنمار»، فارسي العرق أصفهاني القسمات، في سيماء وجهه
نضارة آل عزيزي وقوة وصفاء دمائهم، كاد قلبها يقف من الفرح
حين مدَّت يديها ترتجف تريد حملَه، بعدها بأسبوع جلست



بجوار مهده وبأصابع مرتعشة راحت تكتب رسالة إلى «بَرِن»
تُخبرها عن وليدها، تصفه لها، لقد أسمته «سليم»..

إلى سليم وكفى:

«لا كلمة يُمكنها أن تسبق اسمك لتعبر بصدق عمّا لك في قلبي،
رسالتي الثانية لك وأخشى ألا تكون قد قرأت سابقتها حتى الآن..
للمرة الثانية يهزمني القدر ويهشم إرادتي، فرغم حرصي
الشديد ألا يحمل رحمي ماء يوسف فيستوي بداخلي بشر، إلا
أنني لا أدري كيف حدثت المفاجأة ونمت في داخلي حياة أفرغني
وجودها بقدر ما أسعدني، إنه القدر يأبى إلا أن يضعني مع يوسف
في جملة واحدة مفيدة، «سليم يوسف شير آل عزيزي»... كائنٌ
وكيانٌ استثنائي فريد، دمعت عيناى حين رأيته للوهلة الأولى،
يخبرني وجوده أنني مازلتُ حية، فقط تمنيتُ أن تشاركني فرحتي
بسليم يا سليم ولك مني كل الأمنيات بسعادة لا تنتهي»..



أرسلت بَرِن «رسالتي ميرال» بالبريد السريع إلى أخيها في
مظروف كتبت عليه عبارة «هام للغاية»، عرف سليم بما أرادت
ميرال أن يعرفه، لقد منحت وليدها اسمه، صار لها سليم يخصها
ويشاركها فيه يوسف، الرجل الذي خطفها منه، قبض سليم على



رسالتيها وابتسم ابتسامة مرتعشة، تتزاحم عشرات الكلمات فوق لسانه، كلمات غضب وفرح، ثورة واعتذار، كلمات حب وحنق، ولكنه لم يستطع أن ينطق إحداها..

حمل عذابه وذهب ليلتها ليسهر مع شلته في «لوبيسترو».. بار ومطعم في وسط البلد بالقاهرة، تتزين جدرانها بصور «ليلي مراد»، هناك يشعر أنه معزول عن العالم وواقحته..

جلس مع شلة من أصدقائه يسكر، لأول مرة في عمره يطلب من النادل أن يعد له مشروباً قوياً، فربما ابتلعت مرارة المشروب علقَم أيامه، ثم جاءت إحداهن لتجلس بينهم، إنها «نؤارة»، الوحيدة من بين الحضور التي قرأت عينيه، وفهمت شroud عقله ولمست روحها وجع قلبه، انفردت به تربت على كتفه وتخصّصه وحده بحنانٍ فطري دون أن يكون لها غرض رخيص..

لا يفهم الناس ما معنى أن تملك ثروة، سيارة، حسب ونسب وجاه... أشياء كثيرة ومع ذلك تنزف ألماً وتقطر فقداً!



في وقت سابق، تحديداً في ٢٠٠٦م أعلنت شركة الفيس بوك أن بإمكان أي شخص لديه ١٣ عاماً وإيميل إلكتروني الانضمام للموقع، حينها وقبيل رحيل ميرال إلى شاطئ يوسف آل عزيزي



كان سليم قد أنشأ لها صفحة شخصية على الفيس تحمل صورتها معاً على بحيرة كونستانس في أحد زيارتهما لبرن، وبمجرد زواج ميرال ورحيلها الذي رآه سليم اختيارياً سحب نفسه من على صفحتها وما عاد يلج إليها ولا يعرج عليها، فالأحزان لم تذهب أو تتلاشى حتى يُجدها، إلا أنه وبعد استلامه لخطابيتها وبعدما مرّرت إليه خبراً يحمل اسمه بين طيّاته راح يفتش عنها وعن صفحتها من جديد، كل غايته أن يُطالعها، أن يُكحل عينيه بنورها وبهائها ودفعاً ابتسامتها، فتّش حينها عن صفحة شخصية تحمل اسم «ميرال آل عزيزي» مكتوباً بالإنجليزية أو الألمانية وبكل التباديل والاحتمالات التي جالت بخاطره، مازال مدفوعاً نحوها، نحو شاطئها وسفينتها وابتسامتها، فلم يجد وقفل خائباً رجاها! حتى كان الخامس عشر من مارس ٢٠١٤م وفي ذكرى ميلاد سليم الثلاثين، أشارت إشعارات الفيس بوك إلى طلب صداقة مُرسل إليه من..... لكن أي قراءة يحتاجها ليُدرك بقلبه قبل عيناه أنها هي «العالم أجمع» بالنسبة له، وقبل أن تمر عيناه على حروف الاسم مرّر إصبعه على شاشة جواله يَقْبَل طلب الصداقة..

لقد كتبت اسمها بالفارسية متبوعاً باسم يوسف، حروف تشبه الحروف العربية مع بعض الاختلافات البسيطة.. يااه،



كيف سقط منه هذا الاحتمال رغم بساطته وبديهيته. بات اسمها «ميرال يوسف عزيزي»، إلى هذا الحد صار ارتباطها بيوسف نهائي وحقيقي لا خيار فيه؟!

ميرال تُرسل إليه تطلب صداقته، ما أغرب الدنيا وما أعنف عذابها، بالطبع طاو عته أنامله ليضغط إشعار القبول، تجوّل في صفحتها بشغف، يتأمل صورها بصمت، وفي داخله مشاعر كثيرة، فطن إلى حاجته الملحة لبرنامج يُترجم ما تكتبه ميرال بالفارسية... تساؤل وقف عنده لبعض الوقت: لِمَا تكتب بالفارسية وألمانيتهما طلبة ورحبة؟، يبدو أن المرء مهما بُعد عن أصله وهجر موطنه يظل جزء أصيل من هذا الوطن يجلس متربّعاً على عرش شخصيته، غريب أمرها، تقربّه في لحظة وتبعده في التي تليها..

استطاع بمعاونة البرنامج المترجم أن يفهم منشوراتها، توقّف طويلاً أمام  برة الحزن المُغلف بالشوق، واللوعة الممتزجة بالألم التي تُميز كتاباتها، استوقفته عبارة كتبتها في يوم ميلاده، في اليوم الذي استجمعت فيه بقايا جُراتها وأرسلت تطلب صداقته: «رغم ما بيننا من بحور وأميال، رغم أن أرضك غير أرضي وسماءك غير سمائي، تظل عيناى تراك وكأنك تسكن تحت جفني»..

صورٌ كثيرة وضعتها ميرال على صفحتها الشخصية، بدءً من



صور زفافها في ساحة المسجد الكبير في ميونيخ ومرورًا بصور أخرى لها مع يوسف وصور أخرى لصغيرها سليم، ربّما أرادت أن يعرف سليم الكبير أخبارها منذ أن تركته، بالطبع لا تطرح تفاصيل حياتها على العامة لكنّها تُمرّر له ما تريده أن يعرفه، في نفس يوم ميلاده، في نفس اليوم الذي راسلته فيه وضعت جنينها الثاني... طفلةً شديدة الشبه بأُمها الغزالة الأصفهانية، بهية متوهجة، تنام مطمئنة في حضن رجل يحملها بحب جلي تنضح به تفاصيل الصورة، إنّها «سيرين» في حضن يوسف..

منشورات كثيرة كتبتها ميرال ببلاغة وقرأها سليم بعمق، طالع صورها وابتساماتها التي تُخبر بلا شك عن سعادة عائلية تعيشها، لكن كان لعينها حديثٌ آخر لا يعيه إلا رجل واحد، رجل ما أحب امرأة إلاها، إنه سليم أبو ستين..



وعلى الخاص راسلها سليم في تحفظ مُهنّا ومُباركًا وصول سيلين، فأجابته شاكراً في تحفظ أيضاً، وخلال ثلاثة أشهر ودون أن يتعمد أحدهما اتصل بينهما الحديث وجرى بسيطاً صافياً ليس فيه تحفظ ولا افتعال ولا تصنع، كأنه ينبوع ماء كان مخترناً وقد تدفق، عرف سليم عنها كل ما فاتته من أحداث حياتها، فقد



تخرجت وعملت مع يوسف في نفس فرع الشركة الذي يديره في «برلين»، انشغلت بعملها وما كانت لتفكر في الأمومة قط حتى فوجئت بعد ثلاث سنوات أنها تحمل جنيناً في بداية شهره الرابع، حينها طالبها يوسف بترك العمل والاستعداد بكامل طاقتها لحياة جديدة تودع على عتبها كل حزن أو يأس أو غضب عرفته فيما سبق، حدثته عن زوجها بارتياحية كبرت واتسعت مع الأيام، لم يكن يوسف معها أبداً متخبطاً مشتتاً ضبابي المشاعر، كان واضحاً جلياً منذ الوهلة الأولى، لم يكن يحبها حين تزوجها لكنه أقسم لها يوم الزفاف ألا يخونها أبداً، فالخيانة تكسر المرأة وتُهشم كرامتها، وهو الذي أقسم أمام قبر والدها ألا يكسرها يوماً، ألا يجرحها أو يهينها أو يتزوج عليها، أقسم أن يحبها وقد فعل... غريب أمره، فهو رجلٌ يفعل دوماً ما يتوجب عليه فعله، وكأنه يملك قلبه في راحة يده، قوته ناعمة وحضوره جذاب، سخي العطاء دون أن يلحظ أو يخطط لأن يُعطي، يمنح دون منٍّ أو تباهٍ، أقنعها أن زواجهما يستحق أن تكافح من أجله، أن تضحي من أجل استمراره، وبهدوء وأمانة اعترفت ميرال لسليم أنها لم تكن مقتنعة بالقدر الكافي الذي يؤهلها لأن تضحي بسعادتها وتتنازل، لكنها أيضاً وبنفس القدر وبنفس الثبات واختياراً وليس



إجبارًا مالت نحو أبيها ورغبته ووصيته، فرق كبير بين التضحية والتنازل من جانب والرغبة والاختيار من جانب آخر... لم تُنكر أن «سليم» كان رغبتهما لكن «يوسف» كان قرارها... أقرت أنها حطمت قلبها بيديها حين ودّعت دنيا الحب الوردية، وبمتهى التعقل اختارت السير في درب أنهكها السير فيه في البداية، لكنها ألفتها واعتادت عليه وعلى مصاعبه وتعوجاته، اعترفت أن قوة عظمى تدفعها للاستمرار فيه رغمًا عنها، إن سلسلة من الحلقات المتصلة تربطها برجل تزيده الأيام تمسكًا بها... وبكل إخلاصٍ سألتها أن يُنهي الماضي ويغلق حسابات الأمس على صديدها، طالبت أن يُعيد ترتيب رفوف قلبه وأن يتخلص من كومة الذكريات المتكدسة هناك، عليه أن يفتح نوافذ نفسه لتشرق الشمس من جديد فوق تلال روحه، فقد حان وقت الحياة... فهم سليم حديثها وفي قرارة نفسه يعرف أنها صادقة وأنها على حق، لكنه وفي ذات الوقت مازال يحتاج وقتًا للاستيعاب، مازال يشعر بقلبه يخفق بوتيرة مختلفة مغايرة كلما مرّت عليه ذكرى السنوات الخوالي حين كان وحده يسكن قلبها ونفسها، حينها يرتعد قلبه ويرتعش وتينه، أخذ يفكر هل يمكن للصدقة التي نبتت بينهما أن تُصلح ما أفسده الحب في السنوات السابقة؟! وهل يمكن



في الأصل أن ينقلب الحب إلى صداقة؟ يؤمن بعمق أن الحب الحقيقي صداقة اشتعلت فيها نيران العاطفة، فهل يمكن للهبب العاطفة أن يخدم لتنبثق الصداقة من رماد الحب؟... كم كانت «ميرال» في حياته كالحلم الذي يأتيه وهو نائم، يسعد به لبعض الوقت ثم يعاود الغياب، فأقصى ما يستطيع فعله حيالها هو أن يراها لا أن يلمسها..

استمرت محادثتهما بريئة عبر الفيس بوك في اعتيادية دورية، غالبًا هي التي تبدأ الحديث ودومًا هي من تُنهيه، لا يجرؤ سليم على إنهاء حديث يندلع بينهما، ولم يفكر يومًا في مقاطعتها أو إنهاء أمر بداته هي، شرارة الانطلاق منها وصافرة النهاية أيضًا منها، تخبره بالكثير، تسأله رأيه ونصحه ومشورته، فيُجيب بقلب محب ونفس صافية، لا يحدثها عن نفسه ولا يخبرها بأخباره، فأَي أخبار عساه يملك؟ لا شيء يهْم، فالماضي تعرفه ميرال وتحفظه عن ظهر قلب، والحاضر باهت لاشيء فيه، والمستقبل مبهم لا ملامح له، لكنَّها علمت بوفاة الست رحمة وزواج ونيسة من مُدرّس ابنتها، وأنَّه استطاع ترتيب لقاء يجمع فاطيما بابنتها روز، وفي تطور لاحق أخبرها في أسى عن إصابة فاطيما بسرطان القولون، لم يخبرها شيئًا عن روعة ولا نؤارة



إلا حين سألته هي: مَنْ تلك الجميلة الغنجة التي تضع كثيراً من الصور لها مع سليم؟... منها صورة لها بملابس السباحة على شاطئ البحر وقد ارتاحت بكتفها على عنقه تحتضنه من الخلف، صورة وضعتها تلك الجميلة على صفحتها الشخصية في الفيس بوك، لقد رأت ميرال الصورة مصادفةً، فقد سُجلت إشارة تنبيه لسليم على الصورة (تاج) فرأتها ميرال وراحت تنسج حكايات حب وغرام في خيالها تدور بين بطلي الصورة، تعود بذاكرتها إلى الوراء فتترأى لها صورة سليم حين يُحب، كيف يكون غامراً رقيقاً يُتقن كل أفعال الحب، فيأتيها عامداً متعمداً مع سبق الإصرار والترصد، فلا تملك أي أنثى إلا أن تحبه أكثر فيغمرها بالحب وبالحنان أكثر وأكثر!

استشعرت في قلبها غصةً تائهة، فهل استجابت السماء لدعائها وسرّبت لسليم غيمة حبٍ تهطل عليه فتُنعش أيامه؟! سألته متحرّجة تترقب الإجابة؛ فالتقط الخيط بذكاء، ودون أن يؤلمها أو يُشعرها بحرج راح يحكي لها بعض فصول قصته مع نَوّارة بينما يرقص قلبه فرحاً، فلا معنى للغيرة سوى الحب، فهل تغار الأنثى على رجل لا تريده، رجل نسيت حبّه وأسقطته من حساباتها واكتفت بصداقته؟!!



شهد ليلته وراحت الأسئلة تغزو عقله المضطرب، هل
تُصلح الغيرة ما أفسده الزمن؟

هل يمكن أن تتحقق المعجزة يوماً؟ هل يمكن أن يجمعه
القدر بميرال في جملة واحدة صحيحة؟ هل يجوز أن تصير ميرال
آل عزيزي زوجة لسليم أبو ستين في يوم من الأيام قريباً كان أو
بعيداً؟، يا لسعادة ذلك اليوم ولو بعد ألف عام!!

«نَوَّارَة» قفزت إلى ذهنه حينها، هل بإمكانه أن يجمع بينهما
على ذمته؟ هل تقبل ميرال ذلك؟ وماذا عن «نوري» حينذاك؟!
راح يفكر كيف تتغير أقدار الإنسان فجأة من أقصى اليمين
إلى أقصى اليسار؟، ميرال حدَّثته عن يوسف بارتياحية وصدق،
لكنَّه لم يبادلها الصدق، لم يحدثها عن زواجه بروعة وطلاقة
منها، عن جنينٍ لهما على وشك الحضور، لم يخبرها عن نَوَّارَة،
المرأة الوحيدة التي تحمل اسمه الآن، عن ولده صالح الذي يداوم
على حمله بمجرد أن يراه. لا شيء على الإطلاق من هذا كله
نقله إلى ميرال... كل ذلك موجود وحقيقي ولا يمكن تجاهله أو
إنكاره لكنَّه خائف، لا يحتمل فكره أن تنقطع أحاديثه مع «ميرا»
إن أخبرها كل ذلك العبث... يخوض في أفكاره حائرًا حذرًا.. إن
الذين غرقوا بما يكفي يعلمون قيمة الحياة بعد أن عادوا لها..



دامت المراسلات باعتيادية لبضعة شهور ولم يجرؤ سليم على الاتصال بها هاتفياً لسمع صوتها ولو لمرة، شعر أن الحدث أكبر من طاقته رغم اشتياقه العميق إلى حروفها ومفرداتها ونبرة صوتها، وبالطبع لم تبادر هي مطلقاً إلى الاتصال، بل أن مراسلاتها قلت تدريجياً وأصبح من المعتاد أن تراسله في الأعياد والمناسبات فقط، استمر الوضع على هذا النحو عام وبضعة أشهر، ثم توقفت تماماً وما عادت حتى تجيب على رسائله، وفي تقدم آخر أغلقت حسابها على «الفيس بوك»، وللمرة الثانية تغافله وتشرد بعيداً غير عابئة بما يتتابه جراء اختفائها من ألم وحسرة..

تركه دوماً وتنسحب، فتستقر نفسه في سكير الحرمان يئن أنين المجروح دون رجاء..



وفي إحدى صباحات سبتمبر ٢٠١٥م تلقى سليم رسالة جديدة من ميرال تعلمه بوفاة العم «زكريا الحناوي»، الصعيدي الذي خاض رحلة طويلة بحثاً عن وهم كبير يسمى «العز» وهرباً من موروث عميق يدعى «الشار»، وفي الموعد المحدد لوصول الجثمان كان سليم هناك، يقود سيارته خلف سيارة كبيرة تحمل لافتة «تكريم الإنسان» خرجت من المطار..



إلى جواره استقرت ميرال ساكنة... بعد كل هذا الغياب لم يكونا أبدًا يتخيلان أن يجمعهما عم زكريا ميتًا وقد جمعهما حيًّا قبلها بسنوات، يتجنب سليم التفكير في أسباب الغياب، يحاول أن يعوض نفسه بوجودها معه الآن، يلمس الهواء المحيط بها مستنشقًا عبير حضورها، ها هما من جديد يتنفسان نفس الهواء، تظللّهما نفس السماء، تتجنب ميرال أي حديث قد يُقحم فيه الماضي ويُعاد صياغته ليصير حاضراً أو ربّما أكثر من ذلك..

لم يتغير في سليم شيءٌ، فقط صار يدخن بشراهة، تحاول ميرال أن تستوعب كيف ولما أخبرته بموعد حضورها؟ أرغبت في لقياءه والآن تندم على رغبتها وتُحاسب نفسها على اندفاعها؟، تنظر مرارًا لخاتم زواجها، تُحرّكه في إصبعها، لقد اتسع عليها بينما ضاق عليها عالمها، تتحاشى النظر إلى سليم، تحاول أن تستوعب هذا الكم من الجنون والتناقض الذي تعيشه وأقحمها فيه موت زكريا، استدارات إلى النافذة تصافح عيناها النيل العظيم، الممتد في شموخ السيد، المهيمن في جلال كالإله، لطالما حدّثها سليم عنه، فكما تستمد النبتة من الأرض عناصر الحياة يستمد هو من النيل القوة والقدرة اللازمان لاستمراره حيًّا..

وفي قرية الغريب ابن الحناوي استقر جثمانه العجوز في



مرقده الأخير، في مسقط رأسه الذي فارقه هاربًا من كل ما فيه قبل أكثر من أربعين عامًا اختار أن يُدفن وأوصى بذلك... لأول مرة يرى سليم ميرال ترتجف، يقتلها الفقد ويحزنها الرحيل، وضع يده على كتفها محاولًا ضمَّها إليه فارتعبت، والتفتت قائلة بألمانيتهما: أرجوك لا تفعل... لا تزدي ألمًا..

: أيؤلمك أن أضمك؟!

: أنا امرأة حرة لا تعرف الخيانة ولا تُقدِّم عليها.

صمَّت طويلًا، لا يُصدق ما يسمع، قربُّه منها صار خيانة، تلوث، عار لا تقبله ولا تجرؤ عليه!!

لم ينظرا بعدها إلى بعضهما البعض، ركبا السيارة إلى الفندق وكل منهما يحلق مع أفكاره.. أشعلت سيجارة وهي التي كانت في الماضي تكره السجائر ورائحتها وسُحب دخانها، وتُسرع تمضغ العلكة إذا أشعل سليم سيجارته في حضرتها، غدت الآن معه وكأنَّها إنسان آخر بعاداتٍ أخرى لا يعرفها..

يستشعر غريمه في أنفاسها... يستشعر يوسف آل عزيزي، يبدو أنه أضحى في دواخلها والإنسان ينتمي إلى دواخله أينما ذهب..

لم يُعد هو كما كان ولم تعد هي مثلما كانت... غادرته في ٢٠٠٦م على نحوٍ وقابلته مجددًا في ٢٠١٤م على نحوٍ آخر..



ثماني سنوات والنار تتلظى في جوفه كلما ضمها إلى صدره
في الخيال، يخشى أن ينتصر عليه ضعفه فيفقد عقله إلى الأبد..
يبحث في عينيها التي دائماً تقول شيئاً، تلك العينين التي
أحبها، يتجول فيها باحثاً عن نفسه، عن وجوده، فطال بحثه..
الأقدار التي تحركنا كالدمى في مسرح العرائس هي من
اختارت أن تكون ميرال ليوسف وهي من وضعت نؤارة في طريق
سليم... أكانت ميرال سريعة النسيان تتجاوز كل الأحداث
والأحزان بسرعة وكأنّها لم تولد أصلاً؟... لا، أبداً لم تكن
كذلك، فحين قابلها سليم كانت غارقة في يُمها ووحدها
وانعزالها ومعه غادرتهم جميعاً، فقد انتزعها من خوفها وألمها
وجزعها وهياها للحياة من جديد..

تزوَّجت يوسف بين يوم وليلة، اختياراً كان أو قدر، لا فرق..
فالنتيجة واحدة... تزوّجته، وتركته يضمها كل ليلة إلى صدره،
يضمها في حنان تقاومه بينما تقتل هي بداخلها كل قطرة مطر
باستطاعتها أن تُنبِت ذرة حب إلهية تسقط سهواً في نفسها، تميل
المرأة إلى كُل ما هو أول في حياتها، رُجلها الأول وجنينها الأول
وحبها الأول، الكارثة أن حبّها الأول لم ينمُ فيصير رُجلها الأول،
ورُجلها الأول لم يُغلفه حب فيصير حبها الأول، تنام بجوار



يوسف كل ليلة تغمض عينيها في صمت وألم ولا تستطيع غير ذلك، فيبدو أنها تقبله..

وفي إحدى سفرياتهما مع يوسف، بعد عامين من الزواج، زارا «وادي دادس» في المغرب، وهناك قابلت عجوزاً بربرية غريبة الأطوار، اقتربت منها المرأة ممسكة عصا خشبية وقد تدلّت صفائرها الرمادية من أسفل وشاح أسود ربطت به رأسها، وفي عنقها الطويل قلادة من خيط غليظ انتظمت فيه أحجار زرقاء وحمراء وأخرى صفراء، يتوسطه ناب صغير لأسد بري، وبصوت أجش وبفرنسية رائعة استوقفت ميرال وقالت: عينيكَ تناديني لأقرأ كَفْكِ أيتها التائهة.

ارتعبت ميرال بينما تملك الفضول يوسف، وبفرنسية مهذبة أجابها: إنها زوجتي وليست تائهة سيدتي فنحن في طريقنا للفندق، كيف يمكنني مساعدتك؟

فأمسكت العجوز كف ميرال، شدّت عليه وكرّرت: بل إنها تائهة للغاية، روحها شريدة تتألم، وأنت أيها الوسيم من تحتاج إلى مساعدة.

ابتسمت ميرال مندهشة، فنظرت إليها العجوز نظرة عميقة أرهبتها وقالت: مَكْمَنُ الْمَلِكِ أَنْكَ لَا تفهمين.



ارتبكت ميرال بينما سألتها يوسف باهتمام: سيدتي، أتبدو لك زوجتي متألمة؟ إن كنتِ تعرفين مما تعاني؛ فأخبريني، أرجوكِ. نظرت السيدة إلى ميرال نظرة أخافتها ثم مدّت يدها المكرمشة تربت على قلب يوسف قائلة: ستزهر أيامها حين تعرف وحدها قيمة ما حصلت عليه يا ولدي.

ودون أن تأخذ شيئاً التفتت إلى الجهة الأخرى من الوادي ومشّت مبتعدة بخطوات رشيقة لا تتناسب وكهولتها.. بدت وكأنها تقفز!!

ظلت ميرال تتسائل: أيمن أن يكون حبّها لسليم كذبة صدقتها بسذاجة وعفوية لأنها كانت في أمس الحاجة لأن تُصدّق! وإن كان الأمر كذلك؛ فلماذا لاتزال روحها متعلقة بذكره... تشهد قوة حضوره في قلبها؟

تسير بحياتها مع ابن العم بخطوات حذرة، تتحاشى نظراته قدر استطاعتها؛ ففي عينيه صدق يُخجلها، يعاشرها وقد عَشَّش الفرح في صدره، راضي النفس بما تمنحه من فتات نفسها، مرتاح الضمير، لا يحمل تركّة ماضٍ مثقلة بمشاعر لا يطولها القِدَم فتكدر صفو عيشته وتعكّر مزاج أيامه، إنّه أشرف وأنبّل منها، إنّه أظهر من أن تخونه بذكرياتها واشتياقها إلى آخر تركته هي باختيارها!



مضت بها الحياة تتألم كلما زاد حنينها إلى ما تركته خلفها،
تجلد نفسها حينها فكيف لها وهي الكارهة للخيانة بطبعها أن
تفكر، أن تشتاق، أن تفتش عن رجل غير زوجها في كل زوايا
الذاكرة؟ لِمَا لا تستطيع التَّغَيُّر؟ لِمَا لا تستطيع التأقلم على وضع
اختارته هي بإرادتها؟ إنها تنهك نفسها وتُجهد عقلها وقلبها..
يحبها يوسف بكل ما فيها، على الأقل هذا هو ما يُشعرها به،
وهي التي عانت طويلاً منذ رحيل والدها، اليوم هو حيٌّ فقط
في جسد آخر، في هيئة أخرى، يأتيها في رجل يُقال أنه زوجها،
يجري في عروقه بعض دمها، منحه نفسها، جسدها، اسمها،
يشاركها اللقب والشركة والبيت والسرير وفنجان الشاي أيضاً،
فلا يبدأ صباحه إلا بتناول رشفة شاي من فنجانها، من نفس
الموضع حيث لثمت شفتاها الفنجان، كل شيء كان متاحاً أمامه
إلا قلبها، تلك المنطقة المحظورة محرمة عليه..

يوسف رجل ثابت، واثق الخطوة، لا يتأرجح بين ماضيه
وحاضره، لا يعرف تطرّف المشاعر، نادراً ما يُفصح عمّا داخله
إلا في لحظات نادرة، صبور، بل إنه في غاية الصبر، يؤمن بإشارات
القدر المُبهمة، وبمهارة يحل شيفرتها ويقرأها على مهل وكأنّها
رسالة نصية واضحة، لم يتدمر يوماً، لم يشك، لم يتشاجر.. حتى



في أقصى درجات اللامبالاة الصادرة من ميرال نحوه لم يُعاتب..
لم يكن يوسف مُتورطاً بها ولا مُرغماً عليها... بل مُغرماً
بها، صبوراً عليها..
ليتها منحته فرصة، إشارة، لكنّها لم تكن مستعدة.. تلك
كانت الأزمة..



وصله خبر أنّها في المشفى تضع مولودهما الأول، غادر
اجتماعاً هاماً بلهفة، لم ينتظر المصعد، هرول ينزل الدرج عشرة
طوابق، ركض نحو سيارته وانطلق بها يكاد يدهس كل ما يقابله..
وعلى باب غرفة العمليات لحقها قبل دخولها إلى ذلك
النفق، أخذ كفّها بين يديه وراح يُقبّله، ثم مد يده يمسح الكحل
المُنساب من عينيها، استأذنته الممرضة، عليها الدخول بميرال
فالطبيب في انتظارها، ودّعها وبالفارسية قال: لا أراي الله فيك
مكروهاً... شعرت ميرال بقلبه يخفق، شعرت بشيء لا تستطيع
تفسيره...، كان يبكي بينما وقف الأقارب حولهما ينظرون إليه
بدهشة؛ فلم يسبق لهم رؤيته باكياً حتى في أحلك المواقف وأشد
الأزمات... إنّه «الشَّير الهمام»..

أحبّت ميرال صغيرها كثيراً رغم أنّها لم تكن مستعدة له،



بينما رآه يوسف إشارة إلهية بأنه على الطريق الصحيح، وسيكون له قلب ميرال ذات يوم..

فالقدير هو مَنْ بَثَّ في رحمها جنينه رغم كل إجراءاتها الاحترازية لعدم حدوثه..

ساندها حين اعترضت العائلة على اسم الصغير الذي أرادته أمه «سليم» ما الذي يعنيه لها ذاك الاسم؟ لِمَا لا يحمل المولود اسم جده الكبير «أختر»، لقد توقَّع الجميع أن تمنح ميرال مولودها الأول اسم أحبَّ الناس لقلبها، فكل أنهارها الصغيرة تصبَّ في مجرى ذلك الرجل..

وحده «يوسف» وافقها، بل أنَّه راح يمدح الاسم الذي اختارت وينطقه بسلاسة نطقًا صحيحًا أمام الجميع: يُعجبني الاسم، إنَّه مميز ونادر في وطننا، «سَلِيم» إنَّه لفظ قُرْآني، قال تعالى «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»..

رائعٌ هو يوسف، يعرف كيف يُحقِّق ما يريد، يعرف كيف يُحقِّق لميرال ما تريد..

وفي حملها الثاني، رافقها إلى الطبيب حيث فحوص الحمل الدورية أكثر من مرة، وحين أخبره طبيب الأشعة «السونار» أن الجنين فتاة قفز فرحًا في الهواء يردد: الله أكبر.. الله أكبر.. أميرة جديدة في مملكة آل عزيزي..



وفي نفس الليلة سهر يتبضع لها إلكترونيًا كل ما تصل إليه يدها، كل ما يستطيع إحضاره لها، تعاقد مع مكتب ديكور متخصص في غرف الأطفال، لتجهيز غرفة للعروس الصغيرة باللون الوردي والزهري، وفي كل ليلة وبمجرد وصوله إلى البيت يحمل سليم الصغير على كتفه ثم يدخلان معًا إلى غرفة المولودة، وهناك يحدثه كثيرًا عنها، يوصيه عليها، ويزرع بلطفه ولينه بذرات حب في قلب ابنه لشقيقته القادمة، يريد لها أن تكون تاجًا على رأسه وأن يكون هو لها نبراسًا..

حانت ساعة الولادة، وفي هذه المرة هو من أسرع بميرال إلى المستشفى، أصرَّ على أن يرافقها داخل غرفة العمليات يشد أزرها، وإلى جوارها وقف، يهمس في أذنيها: كم أنت شجاعة يا ميرال.. حقًا نَمرة شريفة أنت..

تمَّت الولادة ونُقلت ميرال إلى غرفة خاصة، وحين فتحت عينيها وجدت يوسف بجوار سريرها، قبَّل يديها في امتنان، ثم خرج ليُحضر لها سليم الصغير من المنطقة المخصصة للعب الأطفال في نفس الطابق الذي ترقد فيه.

انفردت بها والدتها قائلة: لم أر في عائلتنا رجلًا يحب امرأته كما يُحبك يوسف، محظوظة أنت، أي ورربي..



رافقتها أمَّها إلى البيت، أقامت معها فترة حتى استردَّت صحتها، وذات صباح وفي الحديقة راحت ميرال تتأمل ملامح أمَّها وهي تراعي صغيرتها «سيرين» وتهدهدها في حجرها، استجمعت شجاعتها وسألتها: هل نسيت أبي؟ صمتت «شاهدة» لحظة، ثم رفعت عينها إلى ابنتها قائلة: لم أنسه ولو للحظة واحدة.

: لِمَا تزوجتي والد يوسف إذن؟

: تقصدين عمك، والد يوسف عمك يا ميرال وليتك تفهمين. : أفهم ماذا؟ إن كنتِ أحببتي أبي يوماً فليَما لم تُخلصي له؟ : أحببته، ولأنني أحببته تزوجت أخاه، لأحافظ لُكن على ثروة فنى أبوك عمره يجمعها، لم أتزوج والدك بعد قصة حب عنيفة أو رقيقة، تزوجته بعدما رأيته مرة واحدة حين حضر إلى بيتنا ليُعيدَ لوالدي بعض أموال كان قد اقترضها منه، وبالعشرة ولِد الحب بيننا ونما، فكبرت بيننا التضحيات وجمعتنا الأزمات والالتزامات المتبادلة، ووجدتُ نفسي امرأة تحب زوجها بكل ذرة فيها، صدقيني حبيبتي ما أشبه زوجك بأبيك، إنه رجل ذائبٌ في هواك يا غيبة.

: وماذا عني أنا يا أمي؟ ألا ترين أن حديثك يزيديني وجعاً؟

: وماذا عنه هو؟ لم يجبرك أحد على قبول الوصية والعمل



بها، فلما تحاسبينه، ألا ترينَ أن ابتعادكِ ولا مبالاةً بك به وبقلبه
سيعلمه الجور، سيعتاد صدك وغيابك، وستفقدين لهفته عليك
وفرصتك معه، عندها فقط ستتوجعين وستدركين المعنى
الحقيقي للوجع، أريدكِ أن ترمي أوجاعكِ في الهواء لتبعثر،
أريدكِ أن تنظري لزوجك بعين العدل، فإن الزهرة التي تُزهر في
المِحن هي الأجل والأندر على الإطلاق حبسيتي.

سكتت ميرال تحاول الفهم والإدراك، هل أصبحت حقاً
يائسة لهذه الدرجة، هل يمكنها أن تشعر جديداً وتفتح نوافذها
تستنشق ريح يوسف وفيض مشاعره؟!

يبدو أن أبنائنا يعيدون ترتيب دواليبنا من الداخل؛ فتطفو
ملامح إنسانيتنا برّاقة على سطح حياتنا... ونصير أبلغ وأنضج..



ابتعدت ميرال عن العمل طويلاً، ورأت أنه لم يعد هناك ما
يمنعها من العودة إلى مكتبها، فقد مرَّ عام كامل منذ وضعت
صغيرتها «سيرين»، ولقد أدركها الملل وتشعب داخلها، ولا
نجاة لها إلا بالرجوع إلى بؤرة الأحداث. تعهّدت ليوسف أن
كل شيء سيكون على ما يرام، لا شيء سيؤثر على بيتها والتزامها
العطوف تجاه أسرتها الصغيرة؛ فخطتها محسوبة جيداً وكل شيء



موزون بدقة، أعجبه حماسها وأرادها سعيدة، رحب بقرارها وفي الصباح التالي رافقته إلى المكتب عائدة إلى عالم صاحب بالتفاصيل... باقة ورد كبيرة وجدتها في انتظارها وبطاقة صغيرة كتبت عليها عبارة بالفارسية تقول «ما أجمل الصباح الذي أُفتُح بك.. عودًا حميدًا شيرتي».. يوسف.

يتراجع يوسف عن الألمانية حين يحدثها حديثًا خاصًا، يتمسك بلغتهما الأصلية وكأنه لا يستشعر حرارة المشاعر ودفعها إلا بالفارسية، بها يكون على حقيقته، يرى أن ميرال نقية إلى الدرجة التي يتوجب معها أن يكون كل شيء نقي جدًا، أصلي جدًا، حقيقي جدًا..

توغلّت ميرال في عملها، فهمت وقدرت حجم ما بذله زوجها من مجهود مضمّن لتستمر الشركة على هذا النحو، بل إنها ازدهرت في عهده أكثر من ازدهارها السابق، مشاريع كبيرة حققتها الشركة ونفذتها بمهارة، أفكار جديدة بعيدة عن النمطية والتكرار، خطط نُفذت على أسس علمية وباستراتيجية تسويقية بالغة الدقة، فحققت مؤسسة «آل عزيزي» تميزًا وتفردًا ضمن لها الصدارة... أي قوة يتحلى بها يوسف آل عزيزي تمكنه من تحدي نفسه بهذا الفخر!!

خمسة أسابيع أمضتها ميرال في العمل بعد عودتها إليه لا



تَشْعُرُ مَلَلًا، انْتَقَلَتِ الْأُسْرَةُ إِلَى فَيْلَا كَبِيرَةٍ شَيَّدَتْهَا الشَّرْكَةُ فِي «كَارْل-
مَارْكْس-آلِي»، أَرْقَى الْأَحْيَاءَ الْمَجَاوِرَةَ فِي بَرْلِينِ، ائْتَمَجَتْ «مِيرَا»
فِي عَمَلِهَا وَحَيَاةِ أُسْرَتِهَا وَقَلَّتْ مِرَاسِلَاتُهَا لِسُلَيْمٍ فَوْرَ عِلْمِهَا أَنَّ
مُتَزَوِّجَ مِنْ نَوَّارَةٍ وَلَهُ مِنْهَا ابْنٌ أَتَمَّ عَامَهُ الثَّانِي، وَضَعَتْ أُمُّهُ صَوْرًا
كَثِيرَةً لِحَفْلِ عِيدِ الْمِيلَادِ عَلَى الْفَيْسِ بَوَكْ، إِحْدَاهَا وَهِيَ تُقْبَلُ
سُلَيْمٍ عَلَى وَجْتِهِ الْيَمْنَى وَصَغِيرَهُمَا يُقْبَلُهُ عَلَى وَجْتِهِ الْيَسْرَى..
لَمَّا أَخْفَى عَنْهَا خَبْرَ زَوْاجِهِ؟! لَمَّا تَرَكَهَا تَتَلَطَّى بِنَارِ الذَّنْبِ
وَتَكْوِي قَلْبَهَا بِسَيَاطِ جِلْدِ الذَّاتِ وَتَعْذِيبِ الضَّمِيرِ؟ لَقَدْ تَجَاوَزَهَا
سُلَيْمٌ وَقَفَزَ عَتَبَةَ خِذْلَانِهَا لَهُ، أَحَبَّ وَتَزَوَّجَ وَأَنْجَبَ، وَبَتَّبَعَ بِسَيْطِ
لِأَخْبَارِهِ عَرَفَتْ أَنَّ طَلُقَ أُخْرَى وَلَهُ مِنْهَا ابْنَةٌ..

لَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدَةً بَلْ اثْنَتَيْنِ! فَلَمَّا يَتَوَجَّبُ عَلَيْهَا الْغُرْقُ فِي
تَجَرِبَتَهُمَا؟! لَمَّا تَسْمَحُ لِكُلِّ ذَلِكَ الْأَسَى أَنْ يَسْكُنَ مَشَاعِرَهَا، لَمَّا
لَمْ تَسْمَحْ لِلتَّجَرِبَةِ كُلِّهَا أَنْ تَمُرَ فَوْقَ سَنَوَاتِ صَبَاهَا مَرُورًا عَابِرًا لَا
أَسْفَ فِيهِ؟ لَمَّا وَلِمَا؟ لَمْ تَعُدِ الْأَسْبَابَ مُهِمَّةً، وَلَمْ يَعُدِ لِلتَّجَرِبَةِ
مَعْنَى، الْمُهْمُ النَّتَاجُ وَحَسَبُ، لَقَدْ أَشْقَاهَا حِدَادًا أَقَامَتْهُ دَاخِلُهَا
عَلَى الْأَمَالِ الضَّائِعَةِ، لَيَالٍ وَشُهُورٍ كَانَ ضَمِيرُهَا فِيهَا يُطْحَنُ بَيْنَ
شَقِي الرِّحَى وَسُلَيْمٍ يَعِيشُ أُنْسًا هَانًا مَعَ هَذِهِ وَتِلْكَ!

أَخَذَتْ تَفَكَّرَ وَتَتَأَمَّلُ خِيُوطَ حَيَاتِهَا الْمَجْعُدَةَ، قَرَّرَتْ أَنْ



تمنح زوجها فرصة حقيقية، بالأحرى ستفتح قلبها لرجل تدرك في قرارة نفسها أنه يحبها، تأمل أن تتخلص من تلك الضجة القابعة في داخلها، فمن يرضيه أن يعيش تعيشاً، محروماً من الحب والسعادة؟!... اقتربت أكثر من يوسف، اقتربت تحمل نية صادقة تحتاج إليها، تتحسس حباً آخر ونضجاً آخر وحكايات أخرى بصباحات جميلة..

ممتنة هي لزوجها، شاكرة على كل الأمور التي منحها إيّاها، وأهمّها على الإطلاق، صغيرها، سليم وسيرين، تتعجب من تلك الزاوية التي ينظر منها يوسف للأشياء، للحب، وللحياة... من أين له تلك القوة، تلك القدرة على التعايش، والصبر والأمل والتفاؤل، والأكبر من جميعهم قدرته على «إنكار الذات»... من أين له بكل تلك الطاقة؟!

حقيقة وحيدة كانت تقضم عقلها، لقد تزوّجها يوسف تنفيذاً لوصية عمه العالي، تعرف ذلك وتفهمه، فهل يا تُراه أحبّها أيضاً تنفيذاً للوصية؟؟

وفي يونيو ٢٠١٥م تعيّن على يوسف السفر إلى «غوتنغ» في جنوب أفريقيا، إنّها المقاطعة التي تصدر قائمة أكثر المدن الأفريقية الجاذبة للاستثمار الأجنبي في تلك الآونة، أراد الشير



العزيزي فتح سوق جديدة لمؤسسته في القارة السمراء، وإلى هناك طار عاقداً العزم على الفوز بمشاريع ضخمة يرافقه وكيل أعماله ومحامي المؤسسة، ودَّع «ميرا» ناظرًا في عينيها الواسعتين مقسمًا بأن غيابه لن يطول أكثر من عشرة أيام، فالغزالة الأصفهانية ترفض سفره بل إنها رافضة للمغامرة والوضع كله، تسأله أن يكتفي بما حققته المؤسسة من نجاحات واسعة في عهده..

تأخرت عودة يوسف وانقطعت اتصالاته تمامًا وتعيَّن على ميرال تصريف أمور الفرع في «برلين» وما لبث أن زارها المحامي الشخصي لزوجها ليفاجئها أن توكيلاً عامًّا بالبيع والشراء والتصرف في كل شيء قد تركه يوسف لها قبل سفره، لقد اختارها هي، خصَّها هي دون أخيه «حسين» أو ابن عمه «فرحان» بالإدارة، وحدها تنفرد بالقرار ولا أحد باستطاعته منعها أو الوقوف ضد رغبتها إذا ما أرادت شيئاً..

تعرف جيداً أن ذلك التصرف لا يبدو منطقيًّا في آل عزيزي الذين سارعوا بالحضور إلى برلين والالتفاف حولها في مصيبة كانت مرعبة لجميعهم، غياب الشَّير الحالي والسيد المسيطر على هذه الإمبراطورية، سيطرة ميرال على كل شيء ووضعها على رأس القائمة نعمة نشاز في الأسرة الإيرانية..



لقد اصطفاها هي، ائتمنها هي، ورغم وقع المفاجأة، فلا تيه يضاهي تيهًا عانتها حين طُلَّ شبح الفقد مجددًا برأسه الخشن المخيف على حياتها من جديد..

خطت خطواتها المتثاقلة نحو الشركة ولا شيء يشغل عقلها سوى غيابه، غياب الرجل الوحيد الذي منحها قلبه بصدق دون مقابل، بينما ظلَّت هي كفرسة جامحة تعدو مبتعدة عن عالمه، تعاقبه هو على اختيارها له زوج، تعدو وتعدو، لا رغبة لها بالتوقف لتفكر، لتفهم، لتدرك، وها هي تتوه..

فهمت منذ زمن طال أنَّها ذات فقد، فلا تودع فقدًا حتى تستقبل آخر..



وفي «غوتنغ» أغرى المرشد السياحي يوسف ورفيقه بالتجول في البراري والقيام برحلة صيد في أدغال أفريقيا، اعتذر محامي الشركة عن الرحلة لوعكة أصابته بينما ذهب يوسف ووكيل أعماله إلى ذاك المكان البعيد الذي يتهافت عليه عشاق الصيد، وهناك تناول الثلاثة بندقياتهم وغافل يوسف رفيقيه وتحرر من التزامه تجاه تعليمات المرشد وخاض تجربته وحيدًا يحركه الشغف والرغبة في المغامرة، فالعمر واحد في النهاية وليس من



طبعه الانصياع لتعليمات لا يؤمن بمنطقيتها، وللأسف فقد جرت الأمور عكس إرادة الشير الإيراني، فقد انزلت السيارة «الجيب» التي يقودها وسقطت من أعلى الوادي ولولا ستر الله لقضى أجله.. وفي أخمص الوادي استقرَّ جسده تغشاه الجروح والكدمات، فاقداً للوعي، لم يتوقف قلبه عن النبض بينما توقفت ذاكرته عن العمل؛ فما عاد يذكر شيئاً، ألتفقه بعض السيارة التابعين لقبيلة أفريقية عريقة، استمرت مناوبات البحث عنه ثلاث ليال دون جدوى؛ فقد أعلن حطام سيارة عن موت مؤكد لراكبها، فكيف تُكتب النجاة لشخص عانى ذاك الموت المحقق؟!



أي ألم حاد استقبلت به السيدة «شيناز» خبر موت ولدها، راحت تصرخ على فراقه صراخاً يشق القلب، أضحت هزيلة كنخلة ضَعُفَ ساقها ففقدت استقامتها، رجليها الثاني ونصف قلبها، أجمل وأكمل وأطهر الرجال في نظرها، فمن أين لها بمثله ثانية؟ تريده أن يعود حتى إن دفعت نصف عمرها، بل عمرها كله ثمنًا زهيداً لعودته؛ فمن عساه سيرعى صغيره؟ من غيره سيدفع فراش «ميرا»؟..

أما ميرال فرحيل يوسف عنها كان مُرّاً مؤلماً موجعاً،



الصرخات داخلها ساخنة جافة، فطنت الآن فقط أنّها فقدت رجلاً منحها قلباً عامراً بالحب زاخراً بالخير، بينما تنصرف هي عنه إلى ذكرى حب آخر لم يكن سوى عبء ثقيل على قلبها!

وعلى صفحات دفترها راحت تسكب دمعاتها، آهاتها، تلوم نفسها وتقرعها على مقاومتها لرجل كيوسف، تعاقب ذاتها على ثورتها الداخلية ضده، الآن فهمت أن ثورتها ومقاومتها، بُعدها وصدّها ماهي إلا محاولات يائسة للنجاة، ليست نجاة منه بل محاولة رعناء لتوقف توغله فيها، لتجد سبره لأغوارها، ولملمته لبعثرتها الطائشة..

كانت تقاومه لأنّها صارت تخشى الإذعان للحب، تتفض عليه خشية التورط به..

إلا أن كل ذلك لم يمنع قلبها من الغرق به، الغرق بيوسف، وحين قرّرت الانصراف عن كل ما منعها عنه، وسعت بإخلاص ليزداد سقوطها فيه طلّ شبح الفقد ثانية وابتلع رجُلها، تاركاً قلبها يتمزق في ليل حالك السواد..

فمنذ أتاها ذاك الخبر المشؤم وهي تسير جسداً بلا عقل، قلباً بلا روح، لم يستطع أحد احتوائها..

مرّ شهران على غياب رجُلها، استأذنها محاميها الخاص في زيارة على انفراد، سلمها مظروفاً تركه يوسف لها؛ فقد اعتاد



أن يترك لها مظلوماً كلما غادرها، يوصي محاميه في كل مرة ألا يمنحها إياه إلا إن تجاوزت غيبته خمسين يوماً..

وفي غرفتها فتحت مظلوفه وقلبها يترنح، إنها رسالة كتبت بخطٍ شامخ تماماً كصاحبه...

إلى ميرال: إلى زوجتي النائية كما قالت العجوز البربرية: رسالتي هذه هي الأولى لك وبمجرد أن تتسلمها صارت الأخيرة أيضاً... عذراً فيما سأقول، فالأفكار تتزاحم في رأسي والكلمات تتداخل لدرجة تنهكني.

فمنذ عرفتك صرتُ أفكر.. أفكر كثيراً في طريقة تضمن لي اللقاء بقلبك، في طريقة تجمعني بك على النحو الذي تريدينه، فالفرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة وأنت كنتِ فرصتي يا ميرا.. ظننتي أنني تزوجتك قبولاً لوصية والدك الحبيب وعملاً بها، ولم تدركي أنني تزوجتك لأنني حين التقيتُك، حينها فقط عرفت الوجد، فما قبلك كان لهواً أو سذاجة، وما بعدك غائب لا وجود له. أتعرفين ما الوجد يا ميرا؟ إنه قوى خفية أبقتني ساكناً في محرابك مبتهلاً، غايتي سعادتك وأمنك.. يا أئمن ما لي..

رُحْتُ ألقى نحو قلبك كل جسور الوصل لعلك تلتقطينها فلم تفعلني، صرتُ أركض نحوك ألهث، أبتلع كل المسافات التي



تفصل بيننا فتسارعين بالرحيل.. أضفاني الأمر ووجدت أن الطريق إليك صعب جداً، شاق جداً؛ فقد أوصدتي بوابة قلبك أمامي... وفي كل حين كنتُ أغرق باحثاً عن كل ما يقربني منك، أحاول أن أكون رجلاً مبهرًا لقلبك، استمررتُ محاولاتي لجعلك مشدودة نحو شاطئ سنوات زواجنا كلها، انتظرتكِ وطال انتظاري، طال كثيرًا حتى فقدتُ الأمل.

لو تدرين كم أحزنني إخفاقي في ذلك كله، كم أربكني فشلي.. كم أحزنني فرارك مني، وأنا رجل اختصر سعادته في سعادة مَنْ يُحب، وأنتِ وحدكِ من أُحب.

أتعبنِي جفافك يا ميرال وأرهقني استجدائي لسعادي التي لا تأتي إلا منك، وأنا رجل يقتله الاستجداء، لكن لم يبقيني على قيد الوجود والمقاومة سوى إيماني الكامل أن الله ينظر لي وأن عينه معي وأنه سيفعل شيئاً، سيرمي لي طوق نجاة، سلم طوارئ، فإمّا أن يمنحني إياكِ أو يردني إليه دونك، فكل حَبَّات البُن تكره أن تموت طحناً إلا التي قُدر لها أن تحيا في فنجانك.

وما عساي راجياً الآن وقد طارت رוחي إلى بارئها إلا أن ألقاك في جنة الخلد وأن يقذف القدير في قلبكِ حباً لي حين تُبعث أحياء؛ فيكون لي معكِ فرصة لم تمنحها لي الدنيا على قدر اتساعها..



وحتى ألقاك أرجو ربي وهو الكريم المانح شديد العطاء أن
يريح قلبك ويهبه السعادة حتى وإن كانت مع غيري يا مضغة قلبي..
فالأوجع من الفراق، حبٌ لا يُسمن ولا يغني من جوع يا حلوتي..

يوسف

انتهت الرسالة وقد أدركت ميرا أن كل فرص السعادة قد
ولّت إلى ما لا نهاية..

صارت أيامها تمر في حزن رهيب وصمت أدهب، خشي
الجميع عليها من تبعات ذاك الصمت البارك على روحها، تجهش في
البكاء في غرفتها كل ليلة وإلى جانبها يجلس صغيرها سليم يلعب
بسيارته الكهربائية بينما تغط سيرين في نوم هادئ، تمر أيامها وقد
غابت نضارتها وذبل جمالها، تنسم هواءً مفعماً بالحزن واللوعة،
تدرك أن لا فرار لها من البؤس والحداد، لقد اقتحم الموت بيتها
من جديد وخطف «عم زكريا»، اختفى العجوز الصعيدي ذو
الصوت الهادئ الذي أصرَّ على الانتقال معها إلى «برلين» تركيه
مكانته عندها، تلك المكانة التي تُتيح له قول ما يريد وقتما يريد،
ولطالما قال لها: ما أجمل النعناع وما أذكاه يا ميرال، فلتجربي ذاك
العود الإيراني الطازج جدًّا، لقد خلقه الله من أجلك.

ورغم آلامها فقد حرصت ميرال على أن توصل زكريا إلى



مثواه ومستقره الأخير، ولولا ذلك المصاب ما كانت لتعاود مراسلة سليم بعدما انقطعت عن ذلك، ففقدوها ليوسف جعلها شديدة الحساسية تجاه سليم وكل ما يذكرها به، تحق في باطنها على كل فرصة منحها يوسف لها ولم تنتهزها، فالنعناع المزروع في كل مكان يذكرها بصاحبه فتروح تفتش عنه هنا وهناك دون جدوى، باتت كل أحلامها للمستقبل إن جازت لها الأحلام هي إنقاذ صغيرها من يتم مهلك تتسائل: لِمَا تُصر الحياة أن نعيشها في نضال وعِر؟!

يُخيفها أن تعيش دون يوسف، ويُخيفها أكثر أن يعيش سليم وسيرين دونه، ربّما تعتاد هي الوحدة، فهي المرادف القوي للفقد، لكنّها لا تريد لطفليها أن يعتادا الوحدة، الفقد، اليتيم.. تعجّبت كيف استطاعت أمها العيش بعد أبيها؟ كيف صمدت؟ كيف واصلت؟!

الآن فهمت، لقد تزوجت أمها لا لرغبة في الزواج نفسه، بل هرباً من الألم وفراراً من الوحدة، أمّا هي فعاجزة، عاجزة عن أن تفعل ما فعلته أمها. لا رجل غير يوسف سيسكنها، لن تحمل غير أبنائه في أحشائها وهو من كان دوماً يحملها في قلبه وعروقه، لقد شاخت روحها وهي في الثامنة والعشرين..

امتنعت عن سليم تماماً وعن كل ما يذكرها به، كل خبيتها،



كل محتتها معه، باتت تتمنى أن تنتهي مما يجري لها، تحلم أن تستيقظ من ذلك الكابوس الذي يسحقها، تريد يوسف، تريد ابتداءً جديداً معه لا انتهاء فيه، شعور خفي يراودها أن الحبيب سيعود، سيعود من أجلها، مؤمنة بقدرة الله على إنقاذها، تواسيها تأكيدات السفارة بعدم العثور على جثته، يُريحها إيمانها بعودته، بفرصتها معه، تنام كل ليلة بعدما تتضرع لله ساجدة أن يرُدَّ لها غائبها!

وفي أفريقيا نشرت عائلته إعلانات كثيرة عن مكافأة قيمة لمن يوفر معلومات صحيحة تُرشد عن مفقودهم الغالي.. المحزن في الأمر أن لا معلومات وردت ولا خبر أتى.. يخفت الأمل ويخبو الرجاء مع كل يوم يمرُّ دون خبر..

مِثْلَ يوم منذ تلقت ميرال الخبر المشؤوم وعيونها لم تجف، ترفض أن تتسلم ميراثها عن يوسف، تخرج كل صباح إلى الشركة تُصرف أمورها بجهد حقيقي وإصرار على أن يسير كل شيء على مايرام كما يحب يوسف ويرغب، تُطل على عملها بعينه وب عقله وبمنظوره، يخاف عليها الجميع، لن تقوى وحدها على القيام بذلك كله، اقترح عليها «حُسين» أن ينتقل بزوجه إلى برلين ليعاونا في العمل، فراحت تبكي، لن يحرمها أحد ما منحها يوسف إياه..





وفي قاع الوادي عُثر على يوسف جريحاً مغشياً عليه، أشج الرأس، مكسور الساق، مخلوع الكتف، وفي بطن القبيلة وبناءً على أمر حاكمهم ضُمدت جراحه، ظل فاقداً للوعي قرابة اليومين، ثم فتح العليل عينيه على أرض برية تضم عدداً كبيراً من الأفراد لهم عادات وتقاليد أثارت في نفسه الفضول وربما التقزز والرغبة أيضاً، لم تكن القبيلة بدائية إلى حد كبير لكنّها تمارس معتقدات غريبة كالقفز فوق الشيران ليُثبت الشاب قدرته على المواجهة قبل اعتباره بالغاً يُطالب بالزواج، كما أنّهم يستخدمون البصق باعتباره رمز مقدس وعن طريقه تحل البركة على حديثي الولادة مثلاً، وغيرها من تقاليع صعبة شاذة لم تستسغها نفس العليل..

لكنّه وجد حاله بينهم بلا حول ولا قوة، لا يذكر اسمه ولا موطنه، وبنبرة حزينة خالية من التعافي أجاب على تساؤلاتٍ طرحها عليه شاب زنجي ضخيم يماثله في العمر تقريباً بلغة إنجليزية ركيكة، مفادها أن لا معلومات لديه يُمكنه تقديمها لمن أنقذوه، وبنبرة حادة أخبره الشاب أنّهم لا ذنب لهم مطلقاً فيما جرى له ورغم حنقهم عليه وغضبهم المكثوم من البندقية التي وجدوها بجواره والتي دون شك أخبرتهم عمّا كان ينوي القيام به في البرية، إنّهُ «الصيد» اللعين، تلك الغاية التي من أجلها يتسلل



الغرباء إلى براريهم، ولولا عجزه والجروح التي تغطيه لتركوه جثة تصارع الموت أو لقدموه قربانًا إلى أحد وحوشهم الضالة، شكرهم «يوسف» عن اقتناع ووعدهم بالإمثال التام لأوامرهم وقوانينهم طوال بقاءه بينهم، أثمرت مجهوداتهم في علاج جسده والتأمت جراحه بيد أن ذاكرته ظلّت غائبة، جمعت العشرة بين يوسف والشاب الضخم وسرعان ما تألفت أرواحهما، إنه «شانجو»، الابن الأقوى لحاكم القبيلة وليس الابن الأكبر، والقوة البدنية مع المهارة القيادية والحكمة والذكاء والفحولة أيضًا كلّها عوامل على أساسها يُحدّد حاكم القبيلة مَنْ يرثه مِنْ ابنائه، مَنْ يخلفه حاملًا عصاه مِنْ بعده، إنّها حزمة مِنْ القواعد المهمة في قانونهم القبلي حتّى أنّهم في بعض الأحيان ينقلون الحُكم مِنْ الحاكم المتوفي لابنه الأصغر ويتجاهلون الأكبر لأنّه غير مناسبٍ لشروطهم مِنْ وجهة نظرهم..

صداقة خالصة جمعت شانجو بالضيف الواهن، ومع الوقت شعر بضيقه الشديد وانزعاجه الملازم له جراء فقدته لذاكرته وشعوره بضياح الهوية، وعلى الرغم من أن شانجو سعى كثيرًا مُحاوّلًا تسليّة الغريب وتعويضه والبحث عن علاج مناسب له ليستعيد ذاكرته إلّا أنّه وبعد سبعة شهور كاملة أقرّ بالفشل،



في ذلك الحين كانت إعلانات عائلة «آل عزيزي» تملأ السفارة والشوارع والمحطات الرئيسية في غوتنغ وجوهانسبرج وكيب تاون، إحساسٌ بالثقة كان يملأ نفس يوسف تجاه كينوته وأصله، يؤمن بثقة أن شيئاً كبيراً غالباً في انتظاره، شيءٌ يستحق أن يعود من أجله، يعود إلى أين؟ تلك هي المعضلة، أفصح لشانجو عن رغبته في الرحيل إلى أقرب مدينة لموقع الحادث، لربما وجد دليلاً يقوده إلى غايته، ها هي ساقه قد شفيت من كسر أصابها، وهاهي عظمة كتفه الأيسر قد عادت إلى موضعها بفضل تلك الدعامة التي ثبتها طبيب القبيلة لتبقي كتفه صامدةً في وضع صحيح، فلولا كل عناية أحاطته بها أعين القبيلة الكريمة لفقد عمره أو بقي عاجزاً إلى آخر العمر على أقل تقدير..

لم يكن أمام «شانجو» سوى الوقوف إلى جانب صاحبه الغريب «ياو» كما أسماه حاكمهم، والارتحال به إلى المدينة الأقرب، وكان الاقتراب من المدينة وحده كافياً ليعرف «ياو» اسمه وكينوته، وهناك بقي «يوسف» في رفقة «فانا» أسبوعين حتى يتم التأكد من هويته واستخراج جواز سفر جديد له من السفارة الألمانية عوضاً عن الذي فقده في الحادث..

«فانا» موظفة العلاقات العامة في سفارة ألمانيا، امرأة جميلة



صارخة الأنوثة ذات صوت شجي مفعم بالأحاسيس، نبيذية العينين، نظرتها تخبرك أنها تعرف الكثير عنك وعن الحب، حين تنفجر شفاتها لتتحدث تبدو وكأنها تعزف لحن الحياة وتغني للمطر... جالسته كثيرًا، نصحته أن يُلقي بعيدًا كل ما مرَّ به من ألم وقلق وترقب وأن يبقى معها حيث تكون، لم يكن الأمر مجرد نصيحة؛ فقد وقعت المسكينة في هواه من النظرة الأولى، لقد نالت ألمانيا نصيبها منه وهذا يكفي بينما تفتح له أفريقيًا ذراعيها على الرحب.. ستعاشره وتخلص له، بل ستزوجه وتكتفي به دون غيره، فالسنوات التي سبقتها كانت عجافًا، إنها في الثانية والعشرين من عمرها، أفريقية من أصل أوروبي، توفيت والدتها وهي في الثالثة عشر، بقيت ترعى والدها الذي أغلق عليها عالمها، يقتنيها كزهور الربيع التي تزين الطاولة، لكن سلوكه نحوها تغيَّر تمامًا حين فُصل من عمله وكثرت ديونه؛ هربت من بيته بعدما أجبرها على معاشرة صديقه في مقابل حصوله على جرعة مخدرات وحفنة مال ووجبة ساخنة، هكذا كان ثمنها..

«فانا» إنها كتلة متحركة من الحيوية والأحاسيس الملتهبة، عيناها تنطقان بالرغبة، راقصها يوسف في أمسية شاعرية أعدّها له، جعلت تراقص وتتمايل بين ذراعيه تدعوه لأن يذهب معها إلى



أبعد من ذلك، سهرةٌ ساحرة امتدت حتى الفجر، شعورٌ بالغبطة تملّكه، لم يصدق أن امرأةً فاتنة على هذا النحو تقع في غرامه، تغازله، تتعلق في عنقه، تفسح له المجال ليفعل ما يريد، تدندن بنبرة فرحة تضم يده إلى قلبها، تعترف أنّها عاشت سنوات عمرها تفتش عن رجل مثله، رجلٌ تفوح منه رائحة الرجولة، لا يهمها تاريخه ولا ماضيه ولا حكايته كلّها، فحكايتها تملأ صفحات كتاب، لكنّها تظل حكاية إذا ما قورنت بقصة حيّة غامرة ستكون لها معه..

ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن أحسّ لهفةً في نفسه إلى غيرها، شوقٌ يحركه نحو أخرى يملأ حبها قلبه، لا يعرف من هي تحديدًا ولا يدرك هويتها، قد تكون زوجته، فقد أخبرته السفارة أنّه متزوج، أو قد تكون أنثى أخرى عالقة بنياط قلبه.. يا الله. ما هذا الألم وما هذا السوء.. الأسوأ من الواقع هو حاضر نعيشه ولا نعرفه، ولا نفهمه.. والأكثر سوءًا هو صرخة ضياع انكتمت بين الضلوع..



ابتلعت «ميرال» سريعًا مرارة كل الشهور التي مضت دون يوسفها بمجرد أن بلغها خبر العثور عليه، بدأ الشحوب ينسحب تدريجيًا من ملامحها وغدت تعدّ الأيام التي تفصلها عن عودته المرجوة، كان هذا غريبًا عليها، لطالما تخيّلت أنّها لا تحب



زوجها ولا تكرهه أيضًا، تشاركه الحياة بما فيها من شد وجذب دون أن تقف لتستمع برهة بما يمنحه لها من عطاء متصل اعتادت عليه فلم تدركه فطرتها، ففي العادة لا يدرك المرء قيمة ما يملك إلا حين يفقده، تجربة مريرة عاشت فصولها، إن غياب يوسف عن محيطها كان حادًا قاسيًا لدرجة أعيته، إلا أن نفس ذلك الغياب أعاد لها قواها العاطفية ولملم مشاعرهما وصبها في اتجاه واحد نحو رجل لم يتجاوزها يومًا إلى غيرها، ما عاد يعينها ما كان، فقد تجاوزته إلى عمر جديد..

لا تعرف هل نحن من نغير أقدارنا أم أنها هي من تُغيرنا؟! لا حقائق مؤكدة في هذه الحياة فكل ما يحيط بنا قابل للتغير..

وفي فبراير ٢٠١٦م وقبل أسبوع واحد من ذكرى ميلادها التاسع والعشرين وبعد مائتين وخمسين يومًا ردَّ الله لها غائبًا التاعث دونه، جاءها صباح جديد أشرقت شمسُه رغم الغيوم... ضمَّتْه بشدة ويداها تتحسان جسده، تمسح على رأسه وشعره، تشم عبقه، تلمسه بشفيتين مرتجفتين تريد أن تدركه بحواسها كلها، تخلَّت عن ألمانيتها وبالفارسية حدَّثته قائلة: أأنت هنا؟ أأنت أمامي الآن حقيقة أم أنني مازلت قابعةً في



أحلامي؟؟ وقبل أن تأتيها إجابته وضعت رأسها على صدره
تقول: اشتقتُ لرائحة حضورك.

أجابها مستفهماً: الحضورى رائحة؟

: بالطبع، فللأحبة عبقٌ لا تنساه الأنوف.

قَبَّلَ رأسها قائلاً: أشكر استقبالك وأقدر ولعك لكن
اعذريني ما عدتُ أذكر شيئاً.

: لا بأس حبيبي، معاً ستذكرُ كل شيء، سأخبرك بكل ما
تحتاج، وسأجيبك على كل سؤال يُقربُك إلى ذاكرتك.
: ممتنٌ أنا جداً لرقتكِ ميرال.

ابتسمت هائئة، وفي هدوء وضعت رأسها على صدره ثانية
وراحت تفكر كيف ستعوضه عن كل ما كان، لم يكن يوسف
يعرف ما هو مخطط له وما يتوجب عليه فعله ليستعيد ما فقده،
لقد تعب من أجل العودة إلى ما يجهل لكنه شعر بالراحة مع
ميرال والثقة التامة فيها..

وفي غرفتهما وفي البداية تحدّثا بخجل، تلعثت ميرال كثيراً
ثم ضحكت بحياء لتُداري ارتباكها حين وجدت نفسها فجأة في
حضن يوسف، لقد التصق بها، كان كمن عاش وحيداً في كهف غائر
أو جزيرة مهجورة، وفجأة وجد ما يرضيه ويغنيه، غاصت
في صدره متسلحة بحبها له مدفوعة برغبة ماسة للتعويض..



وبعنين يُغلفهما الغرامُ وبالفارسية أيضاً قالت: أريدك أن
تتمسك بي وألا تدعني أفلتُ منك وإن كانت الشهور السابقة قد
فرقت بيننا فسنستردّها ونعوضها معاً..



لازمت ميرال زوجها لا تفارقه إلا نادراً، تُصغي إليه منتبهة
صامتة إذا ما تحدث، تشاغله وتقتحم عزلته إذا عزل نفسه عنها أو
عن الأطفال، تخطفه من ذاته، تملأ يومه وفراغه وتشغل أوقاته،
صارا كتوأمٍ سيامي لا يفترق، متلازمان كالشمس وضيائها، كالقمر
ونوره، أي تجربة مثيرة عاشها يوسف معها وأي حياة جديدة
خاضتها ميرال معه، وبمعاونة الصغيرين سليم وسيرين والتفاف
آل عزيزي جميعهم حول غاليتهم العائد سرعان ما استرد يوسف
ثقتَه بنفسه... بعض ذكرياته طفت على السطح بينما أخرى راحت
تشاغله كخيالاتٍ بعيدة، وبالقرب ولد حبٌ خالص ومودة
حقيقية بين الزوجين، تناغم فريد سيطر على الأجواء..

كل المشاعر تتلاطم في صدر ميرال، تهول حائرة بين رغبته
الصادقة في أن يستعيد زوجها ذاكرته وبين خشيتها أن استردّها،
فمن المؤكد أنه سيتذكر جفافها معه وصدّها السابق له، لقد
أنهكتة إهمالاً إن أردنا اختصار الأمر في كلمات..



فحوصات وأشعة وتحاليل دورية خضع لها يوسف جاءت تقاريرها كلها تُفيد أنه يعاني من فقدان في الذاكرة الماضية المعروف بـ «الفقدان الرجوعي للأحداث» نتيجة الأضرار التي لحقت بمناطق من الدماغ لها علاقة مباشرة بالتذكُّر، إلّا أنَّ هذا النوع من النسيان لا يُعيق صاحبه عن العمل ومزاولة الأنشطة المختلفة ولا يؤثر على ذكائه أو مهاراته أو درجة وعيه وحُكمه على الأمور، وفي حالة يوسف آل عزيزي لم يكن الضرر الناجم عن الحادث خطيراً ولم يُسبب تلفاً في الدماغ غير أنَّ الصدمة الناجمة عن الحادثة ساهمت بشكل كبير في تأخر استعادته للذاكرة، كل ذلك يُفسر حالة التوهان والأرق وصعوبة التذكر التي يُعانيها... نعم، لا يوجد علاجٌ محددٌ للحالة، ولا مدة معينة يُمكن توقُّعها لاستمرارها، لكن الطيب كان متفائلاً، فقط شدَّد على ضرورة الدعم النفسي لمريضه ممَّن حوله كما أوصى بضرورة مُعاشته لكل تفاصيل حياته السابقة مع تنظيم عددٍ من الجلسات النفسية بمساعدة ميرال لتذكيره بتفاصيل حياته مع الاستعانة بالصور التي تُعرض عليه عن ما مرَّ به من أحداث.. كصور طفولته، شبابه، حفل زفافه، ميلاد طفليه وغيرها..

أبدى يوسف تقدماً كبيراً بعد اتباعه نظام الجلسات، رجع إلى «بيت العائلة» في ميونيخ، فيلا عمه «أختر شير» حيث



كَبُرَ وترعرع وأمضى شهراً هناك، جالس والديه طويلاً، تشرَّب بحماسٍ إحساس ميرال النقي أن الأزمة استثنائية ولن تدوم، أزمةٌ لمس خلالها ترابطاً مُخلصاً غائراً يجمعه بشقيقه «حسين» وبابن عمه «فرحان».. وما أروعها من عائلة..

هكذا صارت ميرال تغفو على ذراعيه، شيء فيها يدفعها لأن تقترب أكثر وتتوغل أعمق، لقد اقتنع قلبها أنها لا يمكن أن تكون لرجل غير يوسف، أقرَّت أنه لو عاد بها الزمن سنوات إلى الوراء ستختاره زوجاً عن حب وقناعة ورضا... لا عن قناعة فقط، مشاعر في قلبها وحرارة في رحمها تتوسل إليها أن تُجِب... إنها تشتاق إلى طفل ثالث يأتيها من رجل أحبَّته، شيء في ضلوعها يستحثها أن تكون ماما من جديد، أمٌ بعواطفٍ جديدة تتمخطر في دنيا جديدة ثمينة..

إنَّ طفلاً تشتاقه وتنتظره أفضل وأجمل وأوقع هدية تُقدمها ليوسف..



خلال كل ما كان نست ميرال سليماً، وكانت قد أغلقت نهائياً صفحتها على الفيس بوك، وسرعان ما اندمجت في أسرتها الصغيرة والكبيرة أيضاً، انقطعت عنه مراسلاتها تماماً بدافع



الحب والإخلاص اللذين تعهّدت بهما في صلاتها، وعن قناعة وبرضا تام تحرّرت من حبها القديم وأسواره وذكرياته التي طاردها لسنوات. خرجت لدنيا حبٍّ أنجبها من جديد، فخرجت سالمة من رحم حبسها طويلاً كما حبسها رحم أمها سابقاً، خرجت قانعة بالحياة، متفائلة أنّها ستكون أحلى وأثمن..

فأحياناً يأتينا الحب الأول ليعلق قلوبنا على سياج النبض حتى يحين موعد ولادة حبنا الحقيقي فنكتشف عندها أنّنا أضفنا عمر حبنا الأول إلى عمرنا ليكون حاصل الإضافة عمر حبنا الأصيل!!

وفي الصباح الأول من عام ٢٠١٧م وضعت طفلاً ثالثاً من يوسف الذي تحبه كثيراً، جاء المولود في مثل يوم ميلاد أبيه يسبق ميعاده بأسبوعين تقريباً، جاء من أرادت وجوده بشدة وتحديداً في هذا اليوم ليُبروز رؤيةً جديدة طازجة لسنواتها الحاضرة والقادمة، طفلها يطابق أباه بغرابة تُدهش من يراه، كأنّه تذكّاراً منه لتُعانقه كلّما غاب أبوه أو تأخر، هذه المرة سألت يوسف أن يمنح الطفل الاسم الذي يُريد، إنّه هديتها إليه، ودون أن يمضي لحظة واحدة في التفكير، قال فرحاً: اختر.. سأسميه اختر.. وأتمنّى أن يصير كجده ويُعيد سيرته.

فقلت في رقة: ما أروعك حبيبي وما أسعدني بقلبك.



استقامت الأحوال وراحت ميراستتقطب حب الجميع وتبشهم حبها، زوجها والأطفال، أختيها «تبسم وريما»، أبناء عمها «حسين وفرحان»، صداقة رائعة جمعتها بعمتها «عرفة».. تحسنت جدًا علاقتها بأمرها وراحتها امرأة قوية مناضلة، اختفى التوتر وسادت بينها وبين عمها «أنمار» وزوجته «شيناز» علاقة راقية خلّت من العتاب والندم، إنّما تأصلت رابطتها بهما على نحو أسري متين؛ فهما أصل يوسف وأرضه التي نبت منها، واكتشفت أنّهم بالفعل طييون صالحون، لا يضمرون شرًا، معدنهم أصيل، كانوا لها خير سند..

تمتعت بمشاعرها النقية نحو أهلها وراحت تقطف ثمار محبتهم وظفرت بقلوبهم ودعواتهم، وحين بلغ عمها الثامنة والستين قرّر وبدون إبداء أسباب توزيع فروع المؤسسة على أبناء آل عزيزي بيعًا وشراءً، فأصبح لكل فرد منهم ملكية متفردة مستقلة للفرع الذي يديره تشاركه زوجته في الملكية ولا يشاركهما بقية أفراد العائلة فيه، فانتهى فرع برلين إلى يوسف وميرال، وفرع هامبورج إلى حسين وتبسم، أما فرع ميونيخ فآل إلى فرحان وريما، وقُسمت الأموال السائلة وملكية البيت الريفي بالتساوي بين زوجتيه «شاهدة وشيناز» تشاركهما شقيقته «عرفة»



زوجة ابن عمه المرحوم «أصلان» ووالدة «فرحان»... لم يعرف أحد السر وراء ذاك القرار غريباً على العزيزين لكنهم استسلموا لرغبة عميدهم وانصاعوا لتنفيذ ما أمرهم به.. وحده يوسف راح يفتش خلف الكواليس؛ فعلم أن التهاباً كبدياً مزمناً أصاب أباه، ورغم كل الإمكانيات المتاحة والتقدم الطبي في ذاك المجال إلا أن الإصابة كانت بالغة واتفق الأطباء على عدم جدوى زراعة كبد جديد للشَّير العجوز، بقيت الحالة ثابتة لعامين و«أنمار» تحت رعاية وملاحظة زوجتيه المُتفانيتين جداً في خدمته، بينما تبادل الأبناء زيارته والجميع حرص على قضاء الإجازات والعطلات الرسمية مجتمعين في «البيت الكبير»، وذات فجأة انهارت الحالة وسارعت «شاهدة» تطلب عربة الإسعاف ليحملوا زوجها إلى المستشفى، ولم تملك «شِيناز» إلا أن تجلس بجانبه ترقب صدره الصاعد الهابط في قلق يملؤها.

وقبل أن تصل سيارة الإسعاف كانت روحه قد غادرت إلى مثواها الأخير، حضر آل عزيزي جميعهم ليلقوا نظرة الوداع على آخر «شِير» من ذاك الجيل الصامد. خلت الفيلا على الزوجتين ورسخت قناعتهمما بحاجتهما إلى البقاء معاً؛ فقد انشغل كل غصن بما استقرَّ عليه من طيور وليدة... وبعد سنوات



تسع من رحيل الزوج لحقته زوجته الأولى تاركة ضرتها وحيدة على وشك التهشم، تبكي صاحبها وعشرة عمرها، لم تتجرأ لتطلب من أحد بناتها أن ترافقها السكن، لكن «ريما» ولأنها الوحيدة منهن التي تسكن نفس المدينة انتقلت مع زوجها والأبناء للاستقرار في الفيلا الكبيرة خاصة بعد وفاة حماها «عرفة».. حاولت ميرال مرارًا وتكرارًا أن تقنع أمها بالانتقال إلى برلين لكن شاهدة رفضت أن تفارق بيتها الذي سكنته مع أختر ثم أنمار وشيناز، ففي كل مرة فكرت فيها أن تغادره تشعر بقرصة في قلبها تمنعها فتراجع، وما لبثت أن انصرفت إلى التدرّب على تلاوة القرآن الكريم بالعربية، ثم شغلت نفسها بحفظه، شاركت في مسابقة جرت بين الأوروبيات لتلاوته رغم سنواتها الستين فحصلت على المركز الثاني، والتحقت بمدرسة تُعلم الأطفال التلاوة والترتيل، كان إنشادها جميلًا كروحها... تقدم بها العمر وطال حتى شهدت تخرج أحفادها وزواج بعضهم، ثم استقبلت قدرها وتوفيت في سريرها دون مرضٍ أو ألم وقد جاوزت السادسة والثمانين من العمر..



وبتعاقب الأيام استعاد يوسف ذاكرته، لم يكن مهمتها بما



عانى مع ميرال في الماضي؛ فقد شفع لها حاضرها معه، عاش معها ولسنوات ليلاً رطباً لا نجوم ولا قمر فيه، ليلٌ كسى روحه بعتمة ثقيلة لا ظلال فيها، الآن عيشته معها صارت حلوة، فقد أشرق النهار ناصعاً، استمر معها كما كان لها دوماً، لا يُشقيها ولا يُكيها ولا يقطع أمراً دون رأيها، لا يرضى أن تذبل عيناها؛ فظلت وردةً فريدةً في حديقته، ندية مزهرة تسر ناظره... ما عادت ميرال حلمًا؛ لقد استوت حقيقة... وأصبحت سماؤه زرقاء جليلة لا ضباب فيها حتى أن ملامحهما ازدادت تشابها كلما تقدم بهما العمر وكأنهما ولدا من رحم واحد!!

تنتمي له ميرال وينتمي لها، بحثاً معاً عن الحب في كل الطرقات؛ فوجداه... إنَّه الحب اللذيذ، وبحثاً أيضاً عن النسيان اللطيف، النسيان الاختياري لِمَا مضى، نسيان المؤلم من الذكريات مع الاحتفاظ بالجميل منها، الخالي من الألم والدمع..

وفي جلسة مصالحة خلت من العتاب أمسك يوسف كفيها بين راحتيه، نظر إلى عينيها مباشرة قائلاً: حين قررت الزواج بك لم أكن أعلم أن زواجنا سيكون مأزق حياتي وأزمتي.
ردت في خجل: أكنتُ أزمتك؟

: كنت ومازلت حبيبتى، لقد أحبيتُك يا ميرال وأحببت



أَمُورِكَ كُلِّهَا، خَجَلَكَ وَكِبْرِيَاءَكَ، شَمُوحَكَ وَتَوَاضَعَكَ، عَزُوفَكَ
عَنِّي حِينَئِذٍ وَإِقْبَالَكَ نَحْوِي حِينَئِذٍ، لَكِنِّي لَمْ أَیَأْسُ... فَأَنْتِ يَمَامَةٌ
بَرِيَّةٌ لَا تَأْكُلُ مَا يَوْضَعُ لَهَا مِنْ حُبُوبٍ إِنَّمَا تَنْتَظِرُ لِتَحْصَلَ عَلَى
حَرِيَّتِهَا حِينَهَا فَقَطْ نَطِيرٌ سَعِيدَةٌ، تَلْتَقِطُ مَا تَرِيدُ.

: أَلَمْ تَخْشَى أَنْ تَفْقِدْنِي؟ فَرَبَّمَا طَلَبْتُ الطَّلَاقَ!

: لَكِنَّكَ لَمْ تَفْعَلِي، فَزَوَّجِي مِنِّي أَعَادَ تَرْكِيبِي مِنْ جَدِيدٍ
لَأَصْبَحَ كَمَا يَشْتَهِي قَلْبُكَ.

: لَا حَبِيبِي، أَنَا مَنْ أُعِيدَتْ صِيَاجُهَا لِتَلَأْلَأَ قَلْبُكَ
الْفَيْيَاضُ.. فَقَدْ شَعَرْتُ دَوْمًا بِأَنِّي غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى التَّجَرُّدِ مِنْكَ..
كَنتُ أَقَاوِمُ كُلِّ فِكْرَةٍ تَطْرَأُ عَلَى ذَهْنِي تَسْأَلُنِي الْبُعْدَ عَنْكَ، سَبَبُ
خَفْيِ كَانَ يَدْعُونِي لِلْبَقَاءِ، لِلإسْتِمْرَارِ.. آسَفَةُ يَوْسُفَ.. فَحِينَ
قَابَلْتَنِي لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ قَدْ سَوَّتَنِي بَعْدَ، لَكِنِّي نَضَجْتُ فَصُرْتُ
رَجُلًا يَسْكُنُ شَرَايِينِي.

أَنَّهُتِ مِيرَالَ كَلَامِهَا، لَقَدْ طَرَفَ النَّدَمُ قَلْبَهَا فَجَاوَبَتْ عَيْنَاهَا..
نَظَرَ يَوْسُفَ إِلَيْهَا مَلِيًّا وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادئٍ: تَعِيسُ كُلِّ رَجُلٍ
لَسْتُ أَمْرًا لَهُ يَا مِيرَالَ.

فَالْحُبُّ كَنْزٌ ثَمِينٌ، إِنَّهُ أَثْمَنُ هَدِيَّةٍ يَمُنُّ اللَّهُ بِهَا عَلَى مَنْ
يَخْتَارُهُ مِنَ الْبَشَرِ، هَدِيَّةٌ نَشْعُرُ بِهَا أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا، يُحِبُّنَا وَيُرْعَانَا..



مضى الأبناء يسرون في طريقهم التي حرص يوسف أن تكون ممهدة دون مبالغة أو تكلف، وبرفقتهم دندن لحن الصداقة فعرفوا صفاء السريرة ونقاء القلب، فلم يحتضن أحدهم الحقدَ داخله تجاه أحد ولا الطمع في أحد... تخرج بكريه «سليم» طبيباً متخصصاً في جراحة المنخ والأعصاب، حصل على الدكتوراة، ذاع صيته وصار عالمياً، تزوّج من الألمانية أحبّها ولم يتزوج عليها من بنات آله ولم يطلب أحدٌ منه ذلك، الوسطى «سيرين» مالت إلى أبيها وحرصت على العمل معه منذ بلغت السابعة عشر، التحقت بالكلية لتدرّس إدارة الأعمال، راق لها العمل وأدمنته وانشغلت به عن العاطفة وعند مشارف الثلاثين عرف قلبها الحب؛ فتزوّجت ضابطاً في الجيش وقد تحرّرت تلقائياً من عُرف العائلة وتقليدها الذي يقضي بزواجها من آل عزيزي، بينما تخرّج «أختر» آخر العنقود في كلية الشرطة وانتقل الى «فرانكفورت» حيث عُيّن، وقد ربط الحب قلبه بقلب غزالة شيرية ذات حُسن ساخن، إنّها «روانا» ابنة عمه «فرحان» وخالته «ريما»، فقد كانت العائلة هي الانتماء الوحيد الذي يرجع له ذلك الأختر الذي ورث عن أبيه وأجداده الكثير، إنّه الوحيد من بين الأبناء الذي كان قادراً على تقبّل كل ما يأتي من



العائلة، إلّا أنّه لم يتزوج «روانا» من هذا المُنطلق؛ فقد رزقهما الله الحب منذ الطفولة، حبّ نما وازدهرت أوراقه في كل الفصول، فجاءت ثماره ناضجة حين حان قطفها..

هكذا أدركت «ميرال» أنّ الهروب لا يُجدي، فثمّة فرص عظيمة نكتشفها بالمواجهة.. مواجهة آلامنا، عثراتنا، أحلامنا التي أجهضناها أو أجهضت عنوة دون رضانا، مواجهة خيباتٍ لا يمكننا تجاهل مرورها في حياتنا أو تجاوزها، فإنّ كل ما نهربُ منه ينمو داخلنا وهذا هو مكمّن الخطر.. فالماضي إن سكنا صار كالثقب الأسود، لا يفتأ يبتلعنا داخله دون إرادتنا..

صدق الشاعر محمود درويش حين قال: «الحب الأول لا يموت بل يأتي الحب الحقيقي ليدفنه حيًّا»..





(٩)

نّوارة إبراهيم خليل

(المولودة في ٦ يوليو ١٩٨٨م)

الابنة الوحيدة لأبوين كَرِهّا حياتهما معًا ونفصًا عن كاهليهما
غبارَ تجربةٍ زواجٍ فاشلةٍ تسرّب لها النكد والغَم بعد عامٍ واحدٍ
من حفل الزفاف لا اختلاف الرؤية الشخصية للأمور والأحلام
والأهواء؛ فانفصلا بهدوءٍ وغرّد كلّ منهما بعيدًا عن أسوار الآخر
حين أتمّت المولودة عامّها الأول، وتزوّجت أمها من آخر فور
انتهاء عدّتها، ثم تزوّج أبوها من أخرى أيضًا قبل انصرام العام
ليُعلّق ذلك الباب بشكل نهائي..

فنشأت نّوارة كأرجوحةٍ تروح وتجيء بين فيلا «د.مازن
خطّاب» زوج أمها التي تطل على ميدان فيني في الدقي وبين شقة
والدها «إبراهيم» في أحد شوارع «بين السرايات»، ترفل في ثراءٍ
مقيم منبعه زوج أمها طبيب الأسنان الشهير، فلا تكاد تنحني
لترفع ياسمينه من على الأرض، وحين ينتابها الملل وتشتاق إلى
حي أكثر صخبًا وحيوية تنتقل إلى بيت والدها الباحث المجتهد
في معهد البحوث الزراعية، لا تشكو في حياتها من شيءٍ صريحٍ؛
فالكُل يحبها ويُسارع قدر طاقته لتلبية احتياجاتها... «طنط



عزة» زوجة أبيها تحنو عليها وتُدللها وكثيرًا ما تُبرر تصرفاتها الهوجاء أمام أبيها وتمنعه من التصدي لها أو تعنيفها، ربّما لأنّها امرأةٌ عاقر لا أمل لها في إنجاب فراحت تُفرغُ أمومتها في الفتاة الصغيرة، أو ربّما خشية أن يفهم تصرفها وسلوكها تجاه الصغيرة على نحو مخالف لحقيقته، أمّا «عمو مازن» فلم يكن أقل حنانًا، إنّه يعاملها برفقٍ بل أنّه يغالي أحيانًا في تدليلها وكأنّها ابنته أو أكثر، ولم يحدث أبدًا أن اختلفت نؤارة مع زوج أمها أو زوجة أبيها، لها في بين السرايات حُجرة ورديّة ذات ستائر بيضاء، وفي الدقي جناحٌ فخيمٌ مبهجٌ يتسع لإقامة عائلة كاملة بين جوانبه، هي هنا أو هناك وقتما تشاء دون أن يعترض أي من الفريقين، لكنّها ما كانت تستريح في أحد الدارين، إنّهما فقط خرابٌ جميل!.

تحس دائمًا أنّها بحاجة إلى أن تهرب، لا تكاد تبقى في بيتٍ أيامًا حتى يضيق قلبها وتبدل نفسيتها ويتعكر مزاجها؛ فتهرب إلى الجانب الآخر بحثًا عن شيءٍ مبهمٍ ينقّصها، فلا تكاد تبقى في البيت الآخر أيامًا حتى تعود إلى البيت الأول وهكذا جرت أيامها..

نفس الإحساس بالرغبة في الهرب يتتاها كلّما جلست مع أبيها أو أمها، يداهمها شوقٌ كبير إلى مجهول لا تعرفه فتغرق بحثًا عنه في زيفٍ حالم!!



وفي مراهقتها تعدى الأمر حدود الإحساس بالضيق والتأفف من التآرجح بين هنا وهناك إلى اقتناع حزين بشخصية وحياة والديها وما دفعهما إلى الانفصال والإصرار عليه دون أن تملكهما رغبة حقيقية في الحفاظ على الأسرة الصغيرة، دون أن ينتصر أحدهما إلى تغليب مصلحة نؤارة نفسها وإيثارها على الوضع الشائك بينهما كزوجين المفترض أنهما اختارا بعضهما البعض عن قناعة، جمعهما العمل المشترك كباحثين في قسم أمراض النبات في معهد البحوث الزراعية، تزاملا شهوياً قبل أن يُصرَّح كلاهما للآخر عن مشاعره، خطوبة شهرين وزواج جاء ميسراً إلى حد ما، فإبراهيم قد ورث عن والديه شقة متوسطة المساحة في شارع رئيسي في منطقة بين السرايات الحيوية، الأجهزة الكهربائية متوفرة من ميراث تسلَّمه عن والده، ولا ينقصه إلاَّ العروس «ميرفت» التي كانت بدورها على أهبة الإستعداد للانتقال إلى عش الزوجية، أختٌ وحيدة يتيمة لشقيقين يعملان في الخليج، تنافسا وبكل مودة على تجهيزها بما يلزمها من أثاثٍ وأدوات مطبخية وصيني وشوار عروس وغيره، لكن للأسف شهور وانقشعت الغمامة وتكشفت الطبائع المختلفة وتصارعت الأهواء وتناحرت القوى... إبراهيم موظفٌ حكومي يحكمه الروتين وقانون العمل، باحثٌ مجتهد لا



غبار عليه تخصّص في أمراض القطن، يَلِف على مديريات وزارة الزراعة يُنبه الفلاحين إلى أحدث طرق لمكافحة دودة القطن، أمله الماجستير وغايته الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى، أمّا ميرفت، فأثى ملبنة القوام جميلة، أخطأت طريقها إلى كلية الزراعة وبصعوبة تحرّجت فيها لتبدأ عملها دون شغف، فكانت موظفة عادية روتينية جدًّا، لا ميزات تُميزها عن غيرها من الزميلات اللاتي اتخذن من الوظيفة منفذًا آمنًا للبحث عن العريس، كسولة نوعًا لا غاية لها في العمل ولا أمل لها في الدكتوراة، اكتفت بالبالوريوس وعلى مضضٍ أقنعت حالها بالوظيفة لشغل الوقت لا أكثر، راحت توسوس إلى زوجها ليقبل عقد العمل المُرسَل إليه من أحد أخويها، تدفعه دفعًا لقبول السفر، ففيه سبع فوائد، لكنّه لم يقبل الفكرة، فلمن سترك والدته وقد أنهكها المرض، رفض مناقشة المقترح ودحضه تمامًا حين سجّل الماسجتيير بكل ما تبقى من مدخراته بعد نفقات الزواج، فتعسرت الحياة وراحت سُحب النكد تهطل مدرارًا وانفجرت الأفواه تفضح ما تكنه الصدور؛ فأثرا الانفصال..

أمّا نَوّارة، تلك اللثغاء التي تنطق الراء غينًا، فقد رأت في أبيها رجلًا مثاليًا، يعيش الحياة التي يريدها لنفسه، حياته مثالية في نظره،



يرتضي وضعه الاجتماعي ولا يسعى إلى تغييره أو تحريكه نحو الأفضل، قنوع، شديد القناعة، مُصابٌ بتقزمٍ في الطموح وشهيته لا تغالبه على المادة، فلا تنحني له هامةٌ من أجل ألف أو ألفين أو ثلاثة زيادة عمّا عيّنته له الحكومة كراتبٍ، تشاركه «عزة» نفس الرؤى والرأي، فهي أيضًا موظفةٌ مجتهدة في مصلحة الضرائب، شريفةُ اليد، طاهرةُ الذمة، غايةُ أحلامها عُمره يقدمها إبراهيم لها كل سنتين أو ثلاث تقريبًا، تتعلق هناك في أستار الكعبة وفي حجر إسماعيل تدعو بدموع عينيها أن يرزقها الله إسماعيلًا..

ثم ما لبثت قناعات نوّارة أن تحوّلت تجاه أمها، بمرور السنوات أعطت الفتاة بعض العُذر لماما «ميمو»، فما الذي يدفع امرأة كحيلة، ذات أهداب طويلة إلى الاستمرار مع زوج تتهمة بالخنوع والقبول بما هو مُتاح، لا نيّة له في تغير واقع لا رغد فيه، تؤمن أن الحب أضعف من أن يستمر تحت وطأة عجالات الفقر والحاجة وانتظار انفراجة «القبض» وفسحة «أول الشهر»، تمت فيلا كالتي يملكها أخوها الكبير أو شقة فسيحة لا تقل مساحتها عن ثلاثمائة متر كتلك التي اشتراها أخوها الأوسط، نالت حريتها وطارَت إلى دُبي لزيارة شقيقها تاركة وليدها في حجر جدتها لأبيها، قضت عدّتها هناك ثم عادت إلى أرض الوطن يحملُ



إصبعها دبلةً طيبٍ مصري نابغة، كان مقيمًا في الخليج لسنواتٍ عشر وهاهو الرجل يعود إلى مصرَ ليؤسس مركزًا طبيًا على مستوى متميز في أرقى مناطق الجيزة، زفاف بهيج في «مينا هاوس»، شهر عسل في سويسرا، سيارة مرسيدس أحدث موديل هدية الصباحية، زواجٌ ناجح جلسَ على عرشه طفل جميل اسموه «مالك»..

خلافٌ كبير بين شخصية والديها وحياتهما أصاب نَوَّارة بوجع دائم لا فرار منه، ازدادت تلك الأحاسيس في نفسها وتوقعت داخلها؛ أحاسيس امتلأت بها لا تصلح للرؤية؛ فأصبحت لا تستريح إلا بعيدًا عن البيتين، أصبحت تهرب منهما فعليًا إلى بيوت الأصدقاء وشلة المتفعين، شلة الأنس والفرشة، وإلى المارقين من الشباب والشابات مدفوعةً نحو دنياهم الساحرة بصخبها وجرأتها طلبًا للراحة وطريقًا ممهدًا إلى التناسي والنسيان حتى وإن كان مؤقتًا!

كانت لا تكاد تلتقي بشابٍ حتى تهرب معه في لقاءٍ يدوم ساعتين أو ثلاث وربما أكثر، تستريح فيها من اختلال توازنها وآهاتها الكامنة، ثم تعود إلى أحد البيتين تُغلق باب غرفتها وتلقي بنفسها في سريرها تغط في نوم عميق، تتكرر لقاءاتها بنفس الشاب أسبوعًا أو أسبوعين على الأكثر ثم تكتشف أنَّها لا تحبه ولم تحبه أصلاً، بل أنَّ دمه ثقيل وذكاءه محدود وحضوره باهت، يتتابها



نفورٌ منه، تشمئز منه ومن نفسها فتدفع بكيانها نحو شابٍ آخر
ولقاءٍ آخر وهروبٍ آخر..

وفي ٢٠٠٥م التحقت بالجامعة وتعدّد الشبان وتعددت
لقاءاتها بهم، وأصبحت أكثر جرأة وأكثر جنوناً.. وفي عامها
الجامعي الثاني انتابتها حالة من التحدي الذاتي حين قرّرت أن
تخرج للقاء شابٍ تحداها أمام الشّلة أن تقابله في الساعة الثانية
صباحاً، كانت حينها في فيلا والدتها، وبينما الكل نيام استطاعت
أن تخرج وتغيب لأربع ساعاتٍ قضتها مع الفتى في سيارته على
هضبة المقطم يتجرعان البيرة ويدخان السجائر، يسمعان الروك
ويغنيان الراي في انتظار شروق الشمس ليهبطا إلى أقرب عربة
فول، تناولا سندوتشات الفول والطعمية الإسكندراني على مقهى
بلدي، دخنا الشيشة ثم أصرّت هي على دفع ثمن المشاريب...
عادت بعدها وشعورٌ غريب بالراحة والفخر يملأها، لا، لأنها
التقت بالشاب الذي تحبه، فلم تكن تحبه أصلاً، لكن فقط لأنّها
نفذت التحدي وانتصرت فيه، الأوقع والأصدق لأنّها هربت من
البيت، غامرت وعادت قبل أن يستفيق أحدٌ من النوم..

استمرت نؤارة على هذا النحو، تفعل ما يحلو لها تحت
غطاءٍ من البراءة تسمح به ملامحها الطفولية الخالية من أي مكر،



حتى اكتشفت «عزة» تغيبها عن الجامعة وتخلفها عن حضور امتحانات نهاية العام، لم تشأ أن توشي بـ «نوري» وخشيت أن يَغضبها والدها إن هي أخبرته، فقد أصابته جلطةٌ خفيفة في العام الأخير وحذَّره الأطباء من الإنفعال حتى لا تتكرر الأزمة، وفي سريةٍ وهدوءٍ عاتبت الفتاة فإذا بها تتجاهل كلمات زوجة أبيها ونصائحها وتعلن أنه لا حرج مما فعلت ولتُخبر عزة زوجها إن أرادت، وليتشاجر أبوها معها إن أراد، فلا أحد يجرؤ على تهديد «نوري»، ولا حق لأحد عندها حتى يقيد حريتها..

بعد تلك الواقعة انتابتها رغبةٌ خبيثةٌ في مضايقة «طنط عزة» ثم اتسعت الرغبة لتشمل «عمو مازن» أيضًا، فأصبحت تفتعل المشاكل والمشاحنات معهما، تثور في وجهيهما لأتفه الأسباب، تفتش دومًا عن كلماتٍ ثقيلةٍ تصوبها نحوهما تبغي جرعهما، تناقشهما في أتفه الأمور لتشيرهما وتأخذهما إلى مساراتٍ لا نهاية لها فقط لتهدأ... استطاعت بالفعل أن تبكي «عزة» أكثر من مرة، وتمادت وبالغت واتهمت «د. مازن» أنه يغازلها وفقد الرجل أعصابه وراح يصرخ في وجهها يتهمها بالجنون، وأنها تقف بينهما تبكي وتهذي بكلمات غير مفهومة ثم سقطت مغشىً عليها تعاني انهيارًا عصبيًا حادًا... لم تتوقف نَوَّارة إنِّما زادها ذلك حدة



وتفلطحت رغبتها في جلب النكد والهم للجميع؛ فراحت تشور وزادت نوبات عصبيتها وتكررت وعلا صوتها على والديها أكثر من مرة، لا تهدأ حتى يُسارع والدها إلى قرص المهدئ فازدادت عدد مرّات تناوله للدواء يومياً بينما تعتصم والدتها في جناحها بالساعات تختفي عن ناظري ابنتها ونيران لسانها الحاد؛ فقد أضحت «نوري» مدللة عنيدة، طاغية الشخصية، لا تُطاق!.

وفي أي من البيتين تخرج من غرفتها كمن خرج إلى الدنيا ليُشاكسها وتشاكسه، أزعجتها محاولات والدتها المتكررة للتقريب بينها وبين أخيها «مالك»، فراحت تضايقه وتسخر من طيبته وهذوء طبعه، اتهمته بأنّه ساذج أو عبيط، وراحت تناديه بكلمة «نرد» في إشارة منها أنّه لا يصلح إلا للمذاكرة ولا يفلح إلا في تحصيل الدروس، إنّ إنجازاته مضحكة لا تزيد عن أنّه يداوم على تحقيق أفضل النتائج الدراسية وأعلى الدرجات، سألتها في سخريّة: إزاي بتقدغ تفضل حابس نفسك في أوضتك المتظبطة أوي دي تذاكغ وتقغا بس، من غيغ سجايع حتى؟ يا ابني إنت غلبان أوي كده ليه، ده حتى القهوة مابتشغهاش!!

أجابه وهو يحاول الاحتفاظ بهدوئه: هو أنا لازم أدخن وأشرب سجاير عشان أبقي روش وأعجبك؟!



:لأوانتَ الصادق، لازم تبقى عَوش وتكبيج كده وتصيع وتجبب

عشان تبقى عاجل وتعجب البنات، وألا إنت ملكش في البنات؟!!

أثرها مالك في نفسه، يعلم أن السجائر مضرّة كما أنه لا يحب أن يحرق رئتيه بالنيكوتين، والقهوة تُعصّب معدته وتصيبه بالأرق، أمّا «البنات» فشأن آخر.. إنه لا يريد أن يحترق بلهيب التوقعات، لا يريد أن يتألم ويعيش بقلبٍ معطوب، فعلها سابقاً حين أهدى قلبه اللين وعمره الناضر إلى زميلته في الفصل فرفضته... لمعت عيناه بدمعة حبسها، ثم سألها بلطف أن تغادر غرفته..

في قرارة نفسها تعلم نَوّارة أنّها المخطئة، تتسائل في حيرة:

ليه بعمل كده في ناس بيحبوني وعمّهم ما بخلوا عليا بحاجة؟!!

لا إجابة.. ولا جديد.. احتملها الجميع وكلّما ازداد احتمالهم كلّما ازدادت وقاحتها وجرأتها عليهم، وفي التفاتة غدر زمنية توفي والدها في صيف ٢٠٠٧ م، فانهارت حصونها واكتشفت أنّ مأساتها الحقيقية في ذاتها، ذاتٌ ورثتها عن شيطانٍ رجيم أرادت قتله، فارتدت الحجاب ومنعت نفسها عن شلة الأُنس والسهر وما عادت تستمع إلى الموسيقى ولا تذهب إلى السينما، عرفت الصلاة وداومت عليها، رأت أن العذاب الذي ستعيشه في الآخرة لا يقاس بالعذاب الذي عاشته طوال عمرها.. اقتربت من



أخيها تبغي إصلاحًا، استجارت به من ضياع يهددها، تحاصرهما
رغبتها في اكتساب ونيس، لكنّه كان قد أنهى دراسته الثانوية وإلى
فرنسا رحل «مالك» ليدرس الموسيقى كما يحلم.. رحيله أثر في
تلاميذ روحها، فلم تدرك يومًا أنّها تحبّه وقد تحتاج إليه إلا بعد
أن أقبلت عليها ليالي الوحدة، وحدتها كانت نفسية ولم تتوصل
إلى سبيل لإنائها!

وفجأة قررت أن تتزوج، أن تحمي نفسها وتصونها من
انحراف تخشاه، فالزواج إجراءها الاحترازي ضد تهقرها صوب
عهدٍ مارق صارت تجتنبه، أقبلت على البرامج الدينية وحلقات
الشيخ الشعراوي وبرامج عمرو خالد، فكّرت في تأسيس جمعية
خيرية تُقدم عونًا ومساعدات للفقراء والمحتاجين لكنّها تراجعت
عن الفكرة خوفًا من الفشل وهربًا من المسؤولية، وسيطرت فكرة
الزواج عليها وأصبح كل همها وجليل تركيزها أن تجد زوجًا
يناسبها، ولم يكن ذلك صعبًا..

وبالفعل تركت نوّارة الجامعة وما عادت تدرس أو تؤدي
الامتحانات أو حتى تُقدم عُذرًا طيبًا مناسبًا يحفظ لها مكانها،
فلم تُعْدْ تهتم... وتزوجت المُدَلِّلة التائبة في نوفمبر ٢٠٠٧م من
«شهاب الغالب»، طبيب أسنان بورسعيد شارك زوج أمها في
المركز الطبي الجديد الذي أفتتحاه في مسقط رأس العريس..



انتقلت نَوَّارة إلى المدينة الباسلة، تشارك حماتها في فيلا حديثة بُنيت على أحدث طراز، لقد أحَبَّها شهاب وأحَبَّتْها أمه الكفيفة التي لم تدع يوماً يمر دون أن تُشعر نوري بحبها وبرهنه لها بجزيل العطايا المتزامنة مع عرش من الإهتمام والحماية أقامته الحماة لزوجته ابنها الوحيد، لكنَّه لم يكن حباً خالصاً وليَّته كان، لقد اصطدمت العروس بتسلط حماتها وتحكمها وتدخلها في كل كبيرة وصغيرة في الفيلا، زمام الأمور وخيوطها تتجمع كلها في يد الحماة التي رغم عجز بصرها إلا أنَّها على علم بكل مايدور خلف الأبواب المغلقة، أحسَّت نوري أن حماتها ترى بعينين سريتين، التصقتا في عظمتي كتفيها، تعرف ما يجري في غرفة نوم العروسين، وكأنَّها هي مَنْ خططت للمشهد وراحت تراقب تنفيذه وشهاب مستمع بذلك الانصياع لايجرؤ على المجادلة أو الاعتراض، وكأنَّه مازال طفلاً رضيعاً لا يقوى على فراق حضن أمه ولبنها..

إنَّ حب حماتها ولطفها معها مرهون بامثالها لأوامرها وتنفيذها لنواهيها، نبرة صوت لا بد أن تبقى هادئة لاتعلو عن إيقاع محدد يتسم بالانخفاض والخضوع..

الأسابيع تمضي تتلوها الشهور ولا خبر عن وريثٍ، فراحت الحماة وبكل جدية تستحث العروس على الإنجاب، تتوق إلى



حفيد بل أحفاد يحملون اسم زوجها المتوفي ويرثون تركته
وما أكبرها!، وتحت الضغط والإلحاح خضعت نوّارة للفحص
وعرفت أنها تعاني مشكلة هرمونية تحتاج إلى علاج طويل
لتنتمكن من الحمل يوماً، تذكّرت حينها كلماتها القاسية التي
كانت تسدها في وجه «طنط عزة» تخزّها خزّاً، أدركت أن «الدنيا
دوّارة» و«كلّ سلف ودين حتى المشي على الإيدين» مثل شعبي في
غاية الحكمة كثيراً ما صرّحت به «عزة» في وجهها كلّما فاض بها.
فانغلقت على ذاتها أكثر، تستشعر نقيصتها في مرارة كلام
حماتها وترى اللوم أو ربّما الحسرة في عيني شهاب..

ما كادت تمر شهوّر قليلة حتى علمت بزواج «عزة» من صاحب
مكتبة كبيرة في بين السرايات، الأمر الذي صعب عليها تصديقه فعلياً
أن «طنط عزة» كافئها الله ونصرها واستجاب دعواتها فمنحها
إسماعيلاً وهي في الخامسة والأربعين من عمرها، استطاعت عزة
تحقيق حلم فشلت نوّارة في تحقيقه بأعوامها العشرين!!
قاومت.. قاومت كثيراً..

قاومت إحساسها بالخيبة والضعف، لكنّها لم تستطع
الاستمرار في المقاومة طويلاً، فبدأت تهرب من فيلا شهاب إلى فيلا
أمها في القاهرة دون أن تخبر زوجها وأمه لتقضي في الدقي أياماً ثم



تهرب إلى شقة «بين السرايات»، إلى بيت والدها المرحوم لتقضي فيه وحيدة أياماً أخرى، يتفاجئ شهاب وحماها بسفرها فتغضب الحماة وتتهم نوري بقلّة الحياء وسوء التربية بينما يسترضيها شهاب محاولاً التماس العذر لزوجته مُعللاً تصرفها بأزمة نفسية تعثرها وبافتقارها إلى جو القاهرة وبلاشتياق الذي يملأ نفسها إلى والدها أو إلى شقة والدها التي صارت خالية؛ فقد غادرتها عزة وسكنت بيت زوجها فرحة بما آتاها الله من فضله وسعته..

ازدادت فترات غيابها وصارت تطول، فعرض عليها شهاب أن يشتري لها شقة مناسبة في القاهرة على أن يقضي معها أسبوعاً وفي بور سعيد أسبوعاً؛ فرفضت.. لا حاجة لها أن يُغير عاداته ومُستقره ليكون إلى جوارها، فلا فرق تشعّره بين وجوده معها أو عدم وجوده... تملّك منها الحزن والملل فعادت تتصل ببعض أفراد شلتها من الإناث تستفسر عن أحوالهن، وتدرّجاً ما عادت تكتفي بهروبها من زوجها إلى بيت أمها وأبيها، عاودتها رغبتها القديمة في الهرب مع الشبان!

نفور أصابها تجاه شهاب وقرف ملأ صدرها من خنوعه أمام والدته، وبدأت تفكر في خيانتة..

مستحيل!، لم ترتكب تلك الجريمة ولن ترتكبها، جمعت



أغراضها عائدة إلى فيلا بورسعيد، فمعايشة «نجوان الغالب وابنها» أهون ألف مرة من ذلك السقوط المبتذل، بذلت مقاومة عنيفة لتدحض الفكرة وتقتل ذاك الوسواس الخناس، عانت كبتاً كبيراً جعلها عصبية، شبه مجنونة، نائرة، فاقدة الرغبة في أي شيء وكل شيء، اضطربت هرموناتها الأنثوية أكثر واختلّت النسب المئوية لها، عانت انقطاعاً للطمث مع آلام نسوية رهيبة نتيجة احتباس دم خصوبتها داخلها، توقفت عن العلاج، لم تعد تكثرث ولا بها رغبة في طفل، تختلق المشاحنات مع شهاب ومع أمه، ثارت في وجهها ذات مرة أمام ضيوفها من العائلة الكبيرة، أهانت «نجوان هانم» وسخرت من عاهتها في صلفٍ وبجاجة..

لم تعد تُطبق شهاب ولا أمه ولا عائلته كلها، لمستته تلسعها ونفسه يكويها، لم يعد في صدرها سوى مشاعر بالية تخنقها مع كل شهيق وزفير، واتخذت طريقها الأسلم إلى الهرب مرة أخرى، اختارت الطلاق وحصلت عليه في نفس تاريخ زواجها من ابن غالب، لا يفصل بين اليومين سوى عامين لم يأتيا بما كانت تأمله!

وعادت تعيش في شقة بين السرايات حيناً وفي فيلا الدقي حيناً.. خلعت الحجاب، قصّت شعرها في مبالغة وكأنّها تنتقم من كل خصلة فيه، صبغته بلون فاتنٍ مثير، غيرت طريقته في اختيار الملابس، فأصبح لها مظهر «أوروبي» في بلد عربي..



وانطلقت وصارت انطلاقاتها عنيفة، أعنف مما سبق
زواجها وطلاقها... زارت «مالك» في باريس وأقامت معه شهرًا،
وفي ميدان «كونكورد» تعرّفت على أحدهم فتناولت معه قهوة
الصباح، وفي الشانزليزية جالست آخر لتتناول العشاء، أمّا ما كان
بينهما فهو جسر من التسوق الآمن الممتع من أرقى المحلات
التجارية، سألتها أخوها عن أسباب الطلاق ولمّا سعت إليه بتلك
الجدية والإصرار؟، فلم تُجب، فمثل هذا النوع من الكلام
يجلدها، كما أنّه لا يليق بها أن تُسأل أو تُراجع أبدًا... كادت أن
تتزوج من رجل لبناني يحمل الجنسية الفرنسية يدعى «ميشيل»
زواجًا مدنيًا، غير عابئة باختلاف الديانة فكل شيء عندها صار
سواء... لولا أنّها تراجعت في اليوم الأخير قبل ذهابها معًا إلى
مكتب الشهر العقاري وفي الصباح التالي ركبت سيارة أجرة إلى
المطار دون أن تودع أخاها ولو بكلمة!!

وفي مصر أصبح يمر عليها شهوّرٌ تتعدد خلالها علاقاتها
بالرجال، رجالٌ لا يربطها بهم حب، بل يربطها بهم نوع عجيب
من الهوس والإنحلال، وكلّما كان الرجل منحلاً جريئاً كلّما زاد
هوسها وارتباطها به، يعقبها شهوّر أخرى تهدأ فيها وتبتعد عن
الصخب، وتحفظ نفسها من العشاق، وتبدو لنفسها وللجميع



عاقلة، عاقلةٌ جدًّا، تجالس جارتها في «بين السرايات» لتُعلمها كيفية التعامل مع الكمبيوتر، وفي أوقات كثيرة تغرش سجادة الصلاة وتنكب عليها بالساعة والساعتين، فترفع والدتها كفيها إلى السماء تشكر الله وتحمده، ثمَّ لا تلبث «نوري» أن تعود إلى جنونها، صخبها، جنون الهرب إلى المجهول، وغدا مباحًا أن تشاجر مع «عمو مازن» ويعلو صوتها إذا ما اعترض على سلوكها أو ملابستها، أصبحت عاطلة عن الفرح، فاترة المشاعر، سطحية الرؤية..

ولكنَّها في أحد فترات هدوءها وتعقلها استجابت لرجاوات «ماما ميمو» و«عمو مازن» وخطت بقدميها داخل عيادة طبيب نفسي واسع الصيت عظيم الخبرة، وبدأت جلسات علاج نفسي تمتَّ ألا يطول..



وفي فبراير ٢٠١٠م وفي بار «لويسترو» قابلت نوري سليمًا، حالته يومها أثارت انتابها واستحوذ بهيئته وبالألَم البارز في عينيه على اهتمامها، ولم يخطر ببالها أن يصير لها مع سليم قصة بدايتها عندها ونهايتها لا يعلمها سواه..

ليلتها قابلت رجلًا لم تطمع أبدًا في أكثر منه، رجلٌ كان قدرها؛ فلم تستطع الهرب منه، لكنَّها لم تكن قدره، ولا عنوان



قلبه؛ فقلبه مسكون بغيرها، ولا بد لها من كي جرح ذكرها
بملح الصبر..

في لقائهما الأول، انتحت به جانباً حين بالغ في الشرب وهو
الذي لم يرفع قط كأساً إلى فمه رغم غربته سنوات في أوروبا،
ليلتها لم يكن قادراً على قيادة سيارته، لا تعلم ما الذي جذبها
نحوه، شيءٌ ما في عينيه جذبها إليه، وحين هاجت عليه معدته وفشل
في إحكام سيطرته عليها؛ فأفرغ ما فيها على طاولة البار، ربت نؤارة
على كتفه، راحت تمسح عن جبينه العرق بمنديلها، ثم ابتسمت
ابتسامةً صغيرةً وسحبته من على مقعده، رفعت ذراعه لتضعها فوق
كتفها، ولفت ذراعها حول خصره في محاولة أن تسنده، وعلى
وهنٍ وبتثاقل شديد استطاعت قدماه أن تحملاه معها إلى خارج
البار، وفي شقة «بين السرايات» التقيا على نحو آخر..

أهدته أنوثتها الثائرة عسى أن يجد فيها بعض الرثاء!
وفي الصباح استيقظ سليم على سخونة جسدها الفاتن
الملاصق لجسده، وبرفق أزاح ذراعها الممدودة في استرخاء
على صدره، ففتحت عينيها وقد تراقص على وجهها سرور
منبعه إحساس مثير ملأ نفسها أن رابطاً خفياً قيدها بذلك الجان
الراقد إلى جوارها..



بينما إحساس بالخزي والعار تملّك سليماً، إنّها الأئني الأولى التي تمدد إلى جوارها عارياً تماماً من ملابسه، الأئني الأولى التي اختبر رجولته الكاملة فيها، كيف؟ ومتى؟ ولما آلت الأمور إلى ما كان؟! .. وبنبرة مضطربة قال: أنا جيت هنا إزاي؟ إزاي اللي حصل ده حصل؟ أنا آسف وحقك على راسي من فوق و.....

وضعت سبّابتها على فمه تمنعه من كلام لا تحتاج إلى سماعه، ثم أزاحت نوّارة الغطاء عنها وهبّت واقفة إلى جوار السرير بجسدها الممشوق المشدود على وتر أنوثة طاغية لا ساتر ولا حجاب بين عيني سليم وبين تلك اللوحة البهية المثيرة، شديدة الإتقان التي زادها ضوء الشمس الساطع الساقط عليها تألقاً وإثارة..

ما الثقة التي وضعتها فيّ حتى تمنحني جسدها هكذا دون أن تعرفني؟؟ سؤال تردّد يصدح في عقل سليم، كيف واتها الجرأة لتُريح الستار عن هذا الجسد لرجل لا يربطها به عقد زواج، رجل قابلته صدفة بالأمس وهو في أشد حالات الضعف؟! قرأته نوّارة لكنها لم تمنحه الإجابة ولا منحتة وقتاً ليُكرر السؤال داخله، انقضت عليه قائلة: تعالي أفكّك باللي حصل إمباغح..

وأطلقت ضحكة أنثوية رنانة وقد سيطر عليها إحساس قوي بأنّها تعرف سليم منذ زمن بعيد.. ترى أن الرجال كالكواكب، ولكل كوكب مناخ ونظام وأسرار وهوى. لكن سليم وحده مَجَرَّة كاملة!



لقد غَمَرها رَغَم فَوْضُويتِها وجنوح مشاعرِها.... «لا شيء»
يربطُها بها و«كل شيء» يربطُها به..

انسجمت نَوَّارة مع سليم، رجولته أيقظت كل حواسها، لم
تفهم لِمَا انسجمت معه إلى هذا الحد، لم يكن الأول الذي تذوق
ذكورته، ولم تكن تدري أَنَّهُ سيكون الأخير، وأن لها معه حديث
آخر، وسيصير سليم خطيئتها التي لا تُغتفر!

قبَّلته قبل أن يفترقا قبلَةً بمذاق مختلف، قبَّلته مرة أخرى
قبل مغادرته شقتها، عادت إلى السرير حيث كانا معًا، ذاك الفراش
المُحمَّل برائحته وأنفاسه، ووقع شهوته، غاصت في السرير
تتلحف بذكرى ذاك اللقاء المحموم..

ورغم إحساسه بالخزي تكرَّرت الزيارات والتقىا مجددًا،
لم يعرف «سليم» ما الذي يغريه فيها، يشده نحوها، تُغريه
لثغتها، تزيدها فتنة ودلاً... باختصار إنها لغز!!

بدا الأمر وكأنه مقاومة أو مغامرة، وربَّما تكون «نوري» ليست
أكثر من محطة يخرج إليها مستجيرًا من متاهة تبتلعه بين حقيقة
وضعه وزيف أمنياته، وعلى الرغم من كل الألغاز والأسئلة ازدادا
قربًا واندفاعًا في اتجاه بعضهما البعض بلا قوانين ولا محاذير،
وأصبح من الصعب عليها أن تعيش بالإيقاع نفسه، فوضعت



لنفسها قواعد جديدة صارمة طبقتها بمنتهى الإخلاص، لا عُشاق غيره، ولا هوس دونه، وكأنَّ هناك شيءٌ ما فقدته وشيءٌ آخر كسبته مع ذلك الرجل الحار دوماً.. لقد فقدت شغفها بالهرب والترحال من مُذكَرٍ إلى مُذكَرٍ، فكلهم ذكور دونه، وحده سليم رجل بكل الرجال..

وكأنَّها تولد من جديد، أو كأنه رجوع العمر إلى السوراء، ولادة جديدة، شيءٌ صَعَبَ عليها تفسيره، لكنَّه احتواها بخنانه واهتمامه، عَشَّش في خلايا جسدها وعقلها، وأصبح يسيطر على سلوكها اليومي فاعتدلت حياتها وانضبطت أهوائها وهذا ما كسبته، لم تجرؤ يوماً أن تسأله عن قصته، كانت تخشى القصص، تخشى التفاصيل والأسباب، تحب الغموض وتفضّل الإثارة، تقابله بثوب يفوح أنوثة يتغير لونه كل يوم، تلبس كل الألوان عدا الأبيض... لم ترتدِ أبيضاً أبداً، إنَّه لون حيادي لا ماهية فيه، كحياتها قبل أن تلقى سليماً، بلا لون ولا طعم ولا رائحة..

سألته أن يُبقي ذقنه ويتوقف عن حلاقتها، إنَّها تمنحه عنفواناً يزيد وسامته وبهائه، إنها تُحبُّ خزاها، تحبها جداً، فكل ما يأتيها منه يُبهجها حتى الألم!.

كانت نَوَّارة أخطر المنعرجات في حياة سليم، أخطرها على



الإطلاق فقد تحولت معه إلى امرأة فاضلة ذات عواطف حارة ومشاعر جيّاشة تشبه سيلَ مطرٍ صيفي هائج تمنح بسخاء، لكن أمواجهما كلّها قد انحصرت على شاطئ رجل واحدٍ وغدت قاصرة عليه، فأنت لا تعلم معنى أن تُحبك أنثى متعبّة، أنثى رغم مرارة ما بداخلها تحبك وتحاول أن تحبك بكل حلاوة العالم، أنثى توقفت عن استخدام السكر منذ عرفتك، فقد غدوت حلّوها كله... احتار سليم في تصنيف علاقته بنوّارة، مازالت ميرال تتربع على عرش قلبه منفردة، فلمّا يحتار كل هذه الحيرة مع نوري، ما الذي يدفعه نحوها؟ إنّها مغناطيسيّة الكيان فكّلما حاول الابتعاد عنها ازداد التصاقاً بها؟! لم يعرف سليم العاهرات من قبل، أتراها عاهرة؟

لَمّا يتحرر معها من جموده وكبريائه العتيق ويصبح رجلاً تلقائياً في تصرفاته، يلمسها حين يشاء، كيف يشاء، يقتحم مساحات جسدها منساقاً وراء شعور خفي يحركه، شعور عجز عن فهمه، شعور بعيد كل البعد عن الشهوة قريب كل القرب من الرغبة في الاقتراب من قلب يُحبه بعمق قبل أن تكون رغبة مكبوتة في جسد ملتهب عند اللقاء، أو ربما كانت في أعماقه رغبة أخرى لعصيان كل قواعد المحظورات في وجدانه، محاولة للتملص من روح جعفر القابعة في أعماق أعماقه!!



إنها امرأة متغيرة، متجددة دوماً، تدهشه ملامحها في كل مرة يراها فيها، يكره سليم الحرام وينفر منه، لكن قُربه منها لا يراه حراماً، يراه رغبة في منح قلبه إلى امرأة تبسط له قلبها قبل ذراعيها، تحتضنه لتخبئه عن العالم، لتحميّه بين ضلوعها وتغطيه برموش عينيها، فقد شغفها حباً، أما هو فقد تعلّق بها تعلّق الغريق بقشة فهل يمكن للقشة أن تنقذه؟!

أحبت نوري سليم الذي تعلّق بها وأحبّ حبها له وافتتانها به، ويالشتان الفارق بين الحب والتعلّق! فالحب عمره طويل، شجره مشمر، طريقه واضح مهما كانت العثرات، أمّا التعلّق فقصير الأجل، لا ثمار له حتى لو بدت بساتينه يانعة في بعض الأحيان..

فيا ترى هل تتقبل عائلته زواجه بنوارة التي جعلته من أساسيات حياتها فكانت تستحق أن يبني لها في صدره وطناً يليق بها، يريد أن يستقر حبها في قلبه فيريحه من الحيرة والأعمق والأهم أن يريحه من عشق ميرا المتسلط دوماً على كيانه، فليتزوج نوّارة وإن لم يفعل فالتكّن فتنة في أرضه وفساد كبير..

بالطبع عرف سليم الإجابة وبالرغم من مرارتها وقسوتها لم يستطع الهرب من نوّارة ولا التخلص من بهجة وجودها في حياته القافرة، لم تفرض نفسها عليه فرضاً بل أنّه من تشبث



بها راجياً أن توقظه من خيالاتٍ شديدة البؤس، راح يتشبث بها،
قلبه يرفض وعقله يريد..

استمر يعرفها على ذاك النحو أكثر من عامين كاملين، زارا
خلالهما الكثير من المنتجعات السياحية، وعلى شواطئ مصر
المحروسة التقطتا عشرات بل مئات الصور التذكارية، تعشق
نوري التصوير، تكتظ ذاكرة هاتفها المحمول بصورها مع
سليم وصور أخرى لسليم وحده في مختلف الأوضاع، وهو نائمٌ
حيث فرغ فمه بسبب ضيقٍ يعاينه في المجرى التنفسي للأنف،
صورة وهو يقرأ كتاب أمه إلهام مرتدياً النظارات الطبية لجذته
آمنة، وصورة وهو يأكل ثمار المانجو وقد تخضبت يدها بلونها
البرتقالي الشهي وتعلقت بعض شعيراتهما بشعيرات شاربه ولحيته
الناعمة المهدّبة بفنٍ وإتقان، وصورة أخرى له على الشاطئ عاري
الصدر وقد كتبت نوري اسمها على قلبه بأحمرٍ شفاهها، وصورة
أخرى يقفان فيها معاً في المطبخ يُعدان الكريب وقد ارتدت هي
قميصه الأسود فتهدّلت أكمامه من فوق كتفيها وتركت ثلاث من
أزراره العلوية مفتوحة فانفلقت ضلفتيه عن صدرها الفاتن كحبة
فلفل حارة شهية تدعوه ليختبئ فيها، بينما اكتفى هو بارتداء
«بانباكور» جينز كحلي أهدته إياه سابقاً، وغيرها له وهو يرتدي



ملابس تنكريّة كأَمِيرٍ إنجليزيٍّ مِنَ العصور الوسطى، سجّلت نوري لحظاتها الثمينة مع ذاك الأسمر الفاتن، تُمنّي نفسها بحكاية جيّاشة تكون فيها «أميرة» اختطفها عصابةٌ مِنَ الأفارقة وقيدوها في جذع شجرة استوائية، فيأتيها سليم «المنقذ والمُخلص»، تتمنى دون أن تدري أن حكايتها معه ستشبه حكاية تلك الأميرة المُقيّدة في صعوبتها وتعقيدها، مجرد عاميَّها مع سليم صنعا منها امرأة محبة، مُقبلة على الحياة، ممتلئة على آخرها بسليم كما تمتلئ حبة الكرز بصبغتها الحمراء القانية، فأضحت نوري في أحسن حالاتها وخلالهما كانت قد انتظمت في علاجها وراحت تراقب النسب المئوية لهرموناتها بانتظام، وبمساعدة طبيها النفسي وبوجود سليم في حياتها اكتشفت عُقدتها وسر عذابها المُلقى بظلاله الرمادية عليها والذي حيّرَها طويلاً!

«طوال حياتها لم تملك نوري شيئاً خاصاً بها».. ذلك هو سرُّ العقدة ومفتاح السر..

لم تملك أباهما فقد كان ملكاً لزوجته «طنط عزة»!
ولم تملك أمها فهي ملك لزوجها «عمو مازن»!
ولم تملك زوجها شهاب، فهو ملكٌ لأمه «نجوان هانم»
ومن بعدها «الغوالب»، عائلته الكبيرة وسمعتهم وصيتهم
وتجارهم وأحلامهم وثروتهم!



والبيوت التي عاشت فيها، ليس من بينها بيت تملكه!
لا شقة «بين السرايات»، ولا فيلا «الدقي»، ولا حتى فيلا
زوجها، فقد كانت ملكاً لأمه، عاشت نَوَّارة طوال حياتها غريبة
في هذه البيوت، ضيفة لا أكثر..

فسَّر لها الطبيب سرَّ رغبتها القاتلة في الهرب الدائم،
واندفاعها المهورس نحو كل ما هو مجنون، فالإنسان لا يستطيع
تحمل شعور الضيافة طوال الوقت، إنما يهرب منه إلى الإحساس
بالملكية، يفتش عنها حتى لو كانت ملكية ركنٍ منزوٍ في بيتٍ
صغير لا يُقارن ولا يُقاس بالقصر الذي يستضيفه. لذا كانت
تهرب باحثة عن شيء تملكه هي حتى وإن كان كوخاً بائساً..

لم يكن لها قوى داخلية تحميها من بؤسها ويأسها
وشعورها بالوحدة والانعزال، حتى القوى الخارجية التي
زعمتها ورسمت خطوطها على ملامحها كانت تتطاير في
الهواء كورقةٍ باليةٍ قذفها صاحبها لعدم جدواها..

اندفاعها نحو الهوس كان في أصله اندفاعاً نحو الحياة
وتمسكاً بالفرص المتاحة ضمناً، فحواه رغبة حقيقية في لفت
الأنظار واستقبال طاقة حبٍ إيجابية فعَّالة ممَّن حولها، بحث
مُضْنٍ عن احتواء للمحتوى وتقبُّلٍ لنَوَّارة على وضعها وبعيوبها
ونواقصها وعلاَّتْها..



هذا هو السر، وهذه هي العقدة، لقد استراحت نوري عندما اكتشفت عذاباتهما، أرادت أن يكون لها بيتٌ يخصّها، فباعت شقة «بين السرايات» التي ورثتها عن أبيها، خصّصت المبلغ كاملاً كوديعة بنكية تتحصل منها على عائدٍ مُرضي جداً واستأجرت فيلا صغيرة أنيقة تشبهها كثيراً في «مدينة الرحاب»... أرادت أن تتزوج ثانية، سيكون لها بيت وحدها مع زوجها وستلد... تريد ابناً أو ابنة من الرجل الوحيد الذي شُفيت على يديه، إنّه سليم، أجمل ما في حياتها وأروع ما في قصتها.. سيمنحها جنينه، امتداده، اسمه وقادم سنواته، سيمنحها كل ذاك راضياً محبباً..

هكذا احتلّتها الأوهام فراحت تنصّب رايات السعادة على مرتفعات قلبها، ظنّت أنّها وجدت رجلَ العمر، لكن خيبة أخرى وخسارة جديدة كانت في انتظارها..



وفي إحدى الصباحات وبعدما صبّت نوري فنجان القهوة ثم وضعت أمام رجلها على الطاولة وبجواره وردة حمراء وقطع من كعكه المفضل، شكرها مبتسماً ورفع الفنجان يرتشف رشفته الأولى؛ فإذا بها تقول: نتجوز بالنهار، إيه غايبك؟ مش فكّة حلوة وجديدة؟



جملة قالتها نَوَّارة بكل عفوية بينما ترقص عيناها فرحًا.
اتسعت عينا سليم على آخرهما ووضع فنجان قهوته على
الطاولة قائلاً: نتجوز؟!

لاحظت نَوَّارة اضطرابه وسرعة تنفسه كَمَن باغتته عاصفة،
أيقنت أَنَّها فاجئته وربَّما أخرجته، نظر نحوها مباشرةً ووجدته
يقول: إنتِ مش حامل، صح؟

: هو أنا لازم أبقى حامل عشان نتجوز يا سليم؟

: لأ طبعاً، بس احنا مع بعض مِن فترة طويلة وعمرنا ما جبنّا
سيرة الجواز ف....

: فَإِنْتَ مستغَب إِنِّي بكلمك فيه دلوقت، أيوه يا سليم
احنا عايشين مع بعض زي أي غَاجِل ومغَاته من سنتين وخمس
شهوغ وعشغ تيام بالضبط.. إيه اللي يمنع إننا نتجوز، أظن
اختبغنا بعض بما فيه الكفاية، إنتِ عاغِف ومتأكّد إني بموت
فيك، والمفغُوض إن إنتِ كمان بتحبني عشان كده إنتِ معايا.

سكتت برهة ثم تابعت مستفهمة: وَأَلَا إِنْتَ مبتحبنيش يا
سليم؟ مبتحبنيش، صح؟

صمت سليم ولم يُحرر جواباً، لا يمكنه إخبارها أَنَّ امرأة
أخرى غيرها مازالت تسكن قلبه بتفاصيلها الصغيرة جداً وتُحدث



كل تلك الضجة التي تملؤ عالمه فلا يرى غيرها، يحفظ تفاصيل
ميرال الواضحة وغير الواضحة التي قد لا يلحظها غيره، بينما
يستمر هو بالغرق فيها!

حتى وإن غالب هواه، واتحد مع عقله وضميره وخاض
معركته ضد قلبه ونفسه فكيف سيقبل والده جعفر، الصعيدي
المتشدد، عمدة البلد ونائب البرلمان بنوارة كُتة آل أبو ستين؟ زوجة
سليم ابنه الوحيد والذي يتمنى أن يراه عريساً اليوم قبل غداً!!

كانت نوارة تراقب دهشته وشروده، ارتبأكه أمامها وهي
تفكر كيف تلومه وهي التي تلوم نفسها على ما اقترفته في سابق
سنواتها حين تملّك الطيش منها!

سحب سليم الكرسي المجاور لها، مازالت أنفاسه سريعة
نوَّعاً، شبَّك بين أصابع يديه ونظر نحوها قائلاً: أنا معاك من
ستين وخمس شهور وعَشْر تيام ولسه بتسأليني بحبك ولا لا؟
يعني لو قلت لك بحبك، هتصدقيني؟

: مبتغفش تكذب يا سليم، ومحاولتش حتى تكذب، إنت
غديت على سؤالي بسؤال ودي مش إجابة.

: نوري جراك إيه؟ إنت مش طبيعية النهاردة، ليه عيزانا
نتخانق؟، كل ده عشان سألتك اشمعنى دلوقت فكرتي إننا



نتجوز؟... خلاص، ماترَ عَليش نفسك، مش عايز إجابة، إن شاء الله نتجوز في أقرب وقت، بس اديني فرصة أبلغ والدي وأقنعه.
: تقنعه؟ تقنعه إنك تتجوز الست اللي إنت معاشغها من مُدة..

: أيوه يا نَوَّارة، أبويا صعيدي، ودماغه أنشف من الحَجَر، أقنعه إني هتجوز على مزاجي واللي أنا اخترتها من غير ما أقوله ولا كان يعرف عنها حاجة.. كُنت عارف إن مواجعتي له جاية جاية بس كنت بأجلها على أد ما أقدر... طول عمر علاقتي بيه متوترة وأنا حكيّلك، واتوترت أكثر بعد رجوعي من ألمانيا، بعد ما عرف إني مادرستش هندسة، واني ضحكت عليه.. ده فِضْلِ مقاطعني سنة ونص، لسانه ما بيخاطبش لساني ولا بيَقعد في مكان أنا فيه لحد ما عمّتي رحمة حلّفته برحمة جدتي وقالت له إنها مش هتكلمه العمر كله لو ما سامحنيش وعفا عني.. إديني فرصة أظبط الدنيا... خفض سليم نبرته، تنهد ثم تابع يقول: نوري أرجوكِ مش عايزك تَضايقي مني، أنا محتاجكِ ومن ساعة ما عرفتِك عمري ما تخيلت حياتي من غيركِ.

كانت نَوَّارة تتأمله وفي داخلها مشاعر كثيرة متضاربة، ضمَّها سليم إليه ومسح على شعرها بحنان ثم قال مداعبًا: إنتِ واثقة إنك عايزة تتجوزيني، ده أنا رَحِمَ وعَلِسَ وبتكلم وأنا نايم،



فكّري تاني يا نوري، فكّري يا بنت الناس، أنا عايز مصلحتك.
 ضربت صدره ضربة خفيفة وهي تقول: إخص عليك،
 متقولش على حبيبي غُخَم، ده أحسن غاَجَل في الدنيا كلها.
 ضمّمها أكثر، غمز بعينه وهو يفك رابطة عنقه قائلاً: طب تعالى
 جوا بقى عشان نتخاَنق براحتنا ونشوف مين فينا اللي هيغلب..
 ضحكت نَوّارة وقالت بغنج: مش كُنت نازل المكتب؟؟
 حملها رافعاً إيّاها بين ذراعيه قائلاً: بقى أنا أسيب الجمال
 ده كله وأنزل الشغل، ده أنا أبقى عبيط رسمي.
 قالت بسخرية: ما أنت كنت نازل فعلاً..
 : يعني أنا عبيط؟ كده... طيب.. والله لَوَريكي.
 استمرَّ يحملها وأسرع إلى ميدان المعركة... كانت أطول
 وأعنف وأعذب معركة خاضها منذ التقيا، تعدّدت جولاتُها،
 وكلّما انطفأت جذوة سارعت أخرى بالاشتعال..



ليلتها زارت الحاجة أمانة حفيدها في المنام، رآها تجلسُ
 بجانب المشربية الكبيرة التي تتوسط جدار قاعتها تُراقب الجنائيين
 بينما يروي نباتات الزينة وشجيرات الياسمين التي تعشقها، رأى



نفسه واقفًا أمامها بهيئته وبكامل هندامه تعطيه ثمرة، فاعتذر قائلاً:
جدتي إنت عارفة إني مبحبش التمر.

فأجابت: مش كل اللي تحبه خير يا ولدي ومش كل اللي
متحبوش ردي، ربك رايدلك الخير، بس إنت امثل وارضى!
ثم رأى نفسه يصغرُ تدريجياً حتَّى تلاشى تماماً..

استيقظ سليم وهو يتصبب عرقاً، وضع يده على صدره وكأنَّه
يزيح حجراً ثقيلاً يربط على ضلوعه، كان يلهث، أصابه خوف
وراح يستعيد بالله من الشيطان الرجيم ومن التلاشي.. التصق
بظهر نوري النائمة بجواره في سباتٍ عميق وأخذت كل الأفكار
السوداء تحوم في رأسه، تقفز كل تأويلات الحلم البشعة من كل
زوايا الغرفة حوله، ضاق المكان حوله وكاد يخنق، ثمَّ هبَّ واقفًا
مُسرعًا إلى شرفة الغرفة يتطلع إلى السماء يقول لنفسه: نوَّارة
هي التمرة اللي مش عايز أكلها مع إني مفروض أكلها وإلا...

تساءل سليم ما الذي يعنيه التلاشي في الحلم؟؟

آيةٌ سخريّة من سخريات القدر تلك التي تدفعه للزواج
من امرأة تعلق بها باحثًا عن سعادةٍ وقيّة تُلهمه عن حبِ امرأةٍ
أخرى ينتظر راجيًا أن يجمعه القدر بها ولو في السماء؟!!





تتابعت الأسابيع ببطء شديد، تنتظر نؤارة أن يفاجأها سليم بموعد زفافهما المُرْتَقَب، تجهز نفسها لذلك، ابتاعت فستان الزفاف، أرادته محتشماً لا عُري فيه، يتماشى مع بيئة عريسها ويتلاحم مع أصله، لقد كَرَّست طاقتها لتُرضيه، وفي تلك الفترة بالذات كان «سليم» رقيقاً، حنوناً، سخياً في كل شيء أكثر من أي وقت مضى، بينما يخوض على الناحية الأخرى حرباً ضروس مع الحاج جعفر غايتها أن يقبل أبوه زواجه من نؤارة..

لقد أخبر سليم والده برغبته وقد غيَّب قطعاً الكثير من تفاصيلها..

استمع الرجل لولده ثم علّق ببساطة وبحزم في آن واحد: إنت حر، تهوى اللي على مزاجك، لكن تتجوز اللي على مزاجي، تحب بجلبك وعلى كيفك وتتجوز بعجلي وعلى كيفي أنا، إنت مش ملك نفسك، ده جواز، يعني نسب وعيال، طين وأرض وتركبة ملهاش آخر.

: لكن يا با، أنا مش صغير ولا عيبط عشان تختارلي اللي أتجوزها.

أردف جعفر بعصية: لأ، عيبط ونص وتلات تربع كمان، لمّا تسيب بت عمك، لحملك ودمك، وتروح تتجوز واحده منعرفش أصلها وفصلها.



صمت سليم حين عرف أنَّ روعة عروسه المرتقبة..
رفض أبوه زواجه من نَوَّارة دون أن يناقشه، أو يسأله عن
حقيقة شعوره نحو مَنْ اختارها زوجته، رفض، لا شيء أكثر من
رغبة متأججةٍ سكنت قلبه وعقله بأن يتزوج وحيدة من «روعة» ابنة
عمه.... رأى أنَّه قد آن الآوان ليتحملَ وَلَدُه نصيبه مِنَ المسئولية
والتركة ويشارك آل ستين واجباتهم، عليه أن يمثل لما ينتظره من
حقائق ووقائع لا غرابة فيها، فهو الأولى بابنة عمه اليتيمة، لم يعد
سليم صبيًّا يلهو، ولا عابثًا يمرح، ولا غرابة فيما يريده الحاج
جعفر ولا يوجد ما يمكن أن يقال في مثل ذلك المجال..

رفض دون أن يعرف أين التقى سليم بنَوَّارة؟ فما بالك لو
عرف أنَّهما التقيا في بار!

دون أن يعرف أن ولده لم يعد طاهرًا ولا بتولًا، وأنَّه يلتقيها
كامرأة بكل يقين!

لقد توغلَّ سليم في نَوَّارة وتعمقت علاقته بها، مستعدة هي
لمنحه أي شيء يريده، صارت لحياتها طقوسًا خاصة به، فعلت
كل ما يمكن أن يُرضيه دون أن يطلب، يستحث سليم نفسه لتأخذ
علاقته بها منحًا آخر يُرضيها ويُرضي ضميره..

من أجله أرادت أن تُكمل دراستها، عادت لتلحق بالجامعة



لكنّها وبكل ارتياحية قدّمت أوراقها من جديد لتلتحق بكلية الآداب، دراسةً سهلة ولا تشترط الحضور الفعلي لكافة المحاضرات، أرادت أن تليق به، أن تعمل معه في وكالة الدعاية والإعلان التي تأخذ منها في أحيان كثيرة، يروّقها أن تصاحبه حيثما كان، وأن تمضي وقتاً طويلاً لتُهدم له ملابسه وتُرتب له أدواته ومكتبه، حتّى أفكاره تريد أن تشاركه إيّاها... هكذا تكون الحياة مرضية، بل أكثر من مرضية.. قبله آمنت أنها تعيسة، قليلة البخت، لا يعرف الحظ عنوانها، فلما عرفته أيقنت أن البخت كان يُخبئ لها من تستحقه..

بينما راوغ سليم ليمنح نفسه بعض الوقت، ظنّ أنّ فكرة الزواج طارئة وأنّها لن تتمسك طويلاً بها، كارهةً هي للقيود والرسميات، فلمّا عساها تتمسك بها الآن؟

سكنت نَوّارة وانطفأ بريقها.. سألت قلبها: ألم تجد غيره لتعشقه؟ لِمَا توقفت عنده هو تحديداً وقد عرفت قبله كثيرين؟ فأجابها: الحبُّ قدرٌ والبشرُ لا يكتبون أقدارهم.

سليم لا أحد يشبهه، لا أحد يحمل غيوم عينيه وزرقتها الصافية ودفع صوته وبرّاح قلبه، مثلها يعشق اللون الأسود، والشوكولاته الساخنة، وشوربة البصل!.... غريب أن يعشق



أحدهم تلك الشوربة اللاذعة، المجانينَ فقط يحبونها،
المهووسينَ بالغريب والشاذ يفعلونها، هكذا هي وسليم،
فريدان في دنيا متخمة بالنسخ المتشابهة المتكررة..

تكره نوري السجن لكنَّها وبإرادة حرة واختيار فعلي
سَجَّتْ نفسها في شخصه مستمتعة.

إنَّها امرأته الأولى، هكذا أخبرها، أقسم أنَّه لا ينسى شيئاً
يُخَصِّها، يحفظ تفاصيلها، فكيف يؤلمها؟؟

ريقٌ هو، مثالي جداً معها، لا ينسى الأشياء الصغيرة التافهة
التي تُسعدُها، فهو يفتح لها باب السيارة، يُشعل سيجارتها، لا
يتقدم عليها أبداً، يُداعب خصلات شعرها الكستنائي، يستنشق
عنقها دوماً، يُفاجئها بحضنٍ من الخلف يسع الدنيا ويضيئُ فلا
يسع غيرها، لا يريدُها أن تنحني أمامه فإذا سقط منها شيء انحنى
ليلتقطه لها، أبداً لا ينسى اسم عطرها الأثير وشامبو شعرها
المفضل، يُحَمِّص لها شريحة التوست صباحاً ويفرش كل واحدة
بحجم ملعقة واحدة من الزبد ونصف ملعقة من مربى التوت،
أهداها دُمية كبيرة على هيئة «تويتي»، ذاك الكتكوت الأصفر ذو
الرأس الكبير والجسم الصغير، إنَّه الشخصية الكرتونية المفضلة
لديها لتحتضنها في الليالي التي لا يبيتُ فيها معها... ورغم كل



ذلك يرى أن حبه لها هادئ، حبٌّ باهت صامت.. لا ضجيج له ولا ثورة فيه، والحب ثورات!.

شهرٌ مضى، ثم حاول سليم مجدداً إقناع أبيه بالزيجة، فشلت محاولاته فقد حمي جمر الغضب على لسان الحاج، أطلق زفراته وراح يهدد ولده بالقطيعة النهائية، وحمّله مسئولية أن يموت قهراً لو تم هذا الزواج، لقد استقصى الحاج عن نوري وعرف أصلها وفصلها، بات مقتنعاً أنّها امرأة فلتانة، عوجة وبحاجة إلى إصلاح وكسر عظامها، ينكر عليها حالها ويستكثر على ساقطة مثلها أن تنال شرف الزواج بوحيده، طاهر النسب، قرّة عينه وإن شاع بينهما الاختلاف، لا يمكن لعابثة كنوّارة أن تصبح كُنة آل أبو ستين، إنّها نتاجٌ طبيعي للانفلات والتدليل وسوء التربية واتباع الهوى وضياع البوصلة وغياب الهوية..

: مش هسمح لك تعذب ولادك لمّا ياجوا الدنيا ويلاجوا
أهمهم واحدة زي ديّ، ولو مُت هبقى خصيمك يوم الجيامة وجُدام ربنا
هشتيك له إنك عصيتني وخرجت عن طوعي وجهّرت جلبي.
: يابويا اسمعني الله يخليك، أنا.....

: إنت إيه؟ بتحبها إياك؟! ملعون أبو الحب اللي يخليك
تودّر حالك يا واكل ناسك، الله يرضى عليك يا ولدي ماتعفرش
شييتي على آخر الزمن وتوسخ توبي.



حمل سليم تفاصيل حزنه وزار خالته سهام، طبتها
وسماحة قلبها تغريه على أن يُسقط ثقل حيرته أمامها، تائه..
منهكٌ من المشادة التي نشبت بينه وبين أبيه، نؤارة أيضًا تغيّرت
معه، صارت عصبيةً بحدٍ لا يُطاق، مهووسة بتفتيش ملابسه،
جوّاله، أدراج مكتبه، كتبه، أوراقه، كل ما يخصه، لم يعد يطيق
ذلك، ففي الوقت الذي يقاتل هو فيه من أجلها تقتله هي بغيرتها
وهوسها وعنف مشاعرها، تتهمة بالتراخي وانصراف مشاعره
عنها، لم يعد قادرًا على مجاراتها في هذا الصخب الطاحن الذي
سيقودهما في النهاية إلى الفناء.

إن كل ما يجري له معها يضع كل مخاوفه موضع تساؤل،
ويعمّق شعوره بالقلق والترقب تجاه مشروع زواجهما، بالإضافة أنّها
بتلك التصرفات الشنعاء تدفعه دفعًا نحو ضفّة هادئة وشاطئ راقٍ
يُدعى «روعة».. التي لم تسأله قط عن علاقته السابقة أو الحالية
إن كانت له علاقات، لا تضغط، لا تحاصر، لا تفتش، يساوره شعور
بالارتياح بمجرد أن يجلس إليها، كل شيء في حضرته يدعوها إلى
الطمأنينة والاستقرار كما لو كان الزمن قد توقف..

أخبر نؤارة بحقيقة أصبح يدركها جيدًا، أنه يحب أباه رغم
كل الاختلافات، كان يحتاجها أن تدعمه، أن تزيد إيمانه بتلك



الحقيقة ثم يبحثان معاً عن مخرج لائق لأزمتهم، لكنّها أصرت على أن تشككه في حقيقة كان راغباً في الوصول إليها، شككت في مشاعره نحو جعفر، استهزأت برغبته في علاقة تربطه بأبيه، أي علاقة يخبرها عنها الآن، لطالما حدثها عن وجعه من تسلط جعفر، وتصرفات جعفر، وفرمانات جعفر، فلما يحرص الآن على التمسك بتلك العلاقة الشاقة الشائكة؟! جعفر رجل تفتح شهيته دوماً لإذلالٍ وامتلاكٍ من حوله، فلا بكاء عليه، وحسب سليم ما عاناه قبل ذلك... أم أن الحاج جعفر ليس أكثر من حجةٍ ليستهلك سليم وقتاً أكثر من علاقتهما قبل أن ييتهاها؟ الآن فقط تذكر أن رضا الأب من رضا الرب!!

تعجب سليم من موقفها، وساء ما رآه منها من استخفاف بعلاقته بوالده، رابطةٌ يريدّها أن تقوى وأن تسير في مسار صحيح خاصةً بعد رحيل عمته رحمة، يعرف أن نوري امرأة صلبة لا يستطيع إنسان أن يسلبها شيئاً لا تريد أن تمنحه إياه طواعية، فلما تُصر على أن تسلب سليم حقّه في استرضاء والدٍ بلغ منه الكبر وتقلّصت سنوات عمره الباقية؟.

كانت ليلة قاسية، لم ينم خلالها سليم سوى ساعة تخلّلتها باقة متدفقة من الكوابيس، لم يعرف ما جرى تحديداً، شعر



بروحه تغادره، انسحب من جوار نَوَّارة، غادر الفراش والغرفة متوجهاً إلى الصالة، فتح جهاز التابلت الخاص به، مازال يبحث عن «ميرال» على مواقع التواصل الاجتماعي، يشاققها، يوقن أنَّ شمسَه لن تشرق إلا مع امرأة حالمَة كالغزالة الأصفهانية، تجعل لحياته معنًا ورونقًا، لكن نتائج البحث صفر.. أمسك جِوَّاله طالبًا روعة، إنَّها الرابعة فجرًا لكنَّها اعتادت أن يها تفها ذاك المجنون وقتما يريد، اندهش كثيرًا حين أخبرته أنَّها كانت تنتظر مكالمته، ولولا تحرُّجها من إيقاظه لها تفتته هي، لقد عرض عليها رئيسها السفر إلى فيينا لتغطية مؤتمر هام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، إنَّها فرصتها الحقيقية لإثبات جدارتها وأحقيتها في فرصة ثمينة للترقي... روعة فتاة باذخة الأحلام في حالة ترقبٍ مستمر لفرصة صحفية ملائمة لمكاناتها وطموحاتها المتوهجة، أزعجه أمرُ فراقها ولو لأسابيع، اعتاد عليها وعلى وجودها كلَّما احتاجها، تمنَّى لو أن وهجها الصحفي أخف وأقل حدة، تمنى لو أنَّ تأثيره عليها أقوى وأعنف!!

تزاхمت الأفكار في رأسه وتداخلت إلى درجة أنهكته.. تسلَّلت نَوَّارة وعلى أطراف أصابعها مَشَتْ، ركنت إلى الحائط، التصقت به تستمع إلى مكالمَة سليم الليلية، لم تفهم



معنى أن يهاتف رجلها امرأة غيرها في سكون الليل، كانت محاولاتها لاسترضاء سليم والاستحواذ عليه وإبقاءه بجوارها قد استمرت قرابة أربعة أشهر وما عاد لها قدرة لتبقيه مشدوداً نحوها، ثارت في وجهه، بمجرد أن أغلق الخط، أحزنها أنه لم يدافع عن نفسه، لم يحاول!

انهارت حين واجهته، ووقعت في فخ الشجار، سألته أن يحدد موقفه من علاقتهما، فما عاد لها جهد، لقد أنهكتها محاولاتها للسعي إليه كزوجة لا كامرأة يأتيها في الفراش، هناك في تلك المنطقة الساخنة الملتهبة، لا يخذلها أبداً، هناك فقط يصير لها كاملاً، غارقاً فيها وتصير لهما حكاية طويلة لا يعرفها ولا يفهمها غيرهما، هناك تجري بينهما مشاجرة حامية... مشاجرة من طراز آخر.. مشاجرة لذيدة من الأعماق.

نسيت نؤارة أن سليماناً رجلٌ صعيدي، رجلٌ لا تنهره الشجارات والمشاحنات، بل تزيده صلابة وعناداً، يزيده الحزن قوة وخشونة، يزيده الاستجواب نفوراً وصداء، دق سليم رأسه بقبضته في عنف ثم صاح قائلاً: كفايكي بقي، أنا زهقت، ماتحصرنيش بالشكل ده عشان أتجوزك، ارحميني وارحمي نفسك من المهزلة دي!!



قال جملته ثم خطف مفاتيح سيارته من على الطاولة، غادرها في الخامسة صباحاً دون أن يلتفت نحوها، ولو فعل لوجدها سقطت منهارة مذهولة، غارقة في بحيرة من الحزن يصعب انتشالها منها..

غاب سليم عنها وعن دنيها منذ تلك الليلة، لم يتصل بها، بل أنه لم يجب على مكالماتها التي استمرت نحو أسبوعين بلا انقطاع، رسالة نصية أرسلها بعد مغادرته بيومين: «أعصابي تعبت، أرجوك سيبيلي وقت أرتاح فيه، وأقرر هعمل إيه.. ماتلاحقنيش من فضلك».



هاتف نؤارة طنط سهام، أسهبت في الحديث تشرح لها الموقف بحذافيره، بينما تقلصت الكلمات في حنجرة خالته، لا تجد ما تقوله، لقد سافر سليم مع روعة إلى فيينا..

وبمجرد عودتهما كان سليم قد اتخذ قراره بالزواج من ابنة عمه الهادئة، مُقنعاً نفسه أنها الفتاة التي تليق به، إنها لحمه ودمه وميراثه وكنزه، بزواجه منها ستنتهي حيرته وآلامه، تمزقه وتشتته.. حتى مشكلاته مع أبيته ستنتهي.. مثالية روعة في كل شيء، طرية لينة وهو الذي قد أعبه الجفاف، لقد أصابه الواقع بالتمزق فقرّر أن يجمع نفسه في بوتقة روح بريئة كروح «ريكا»..



علمت نؤارة بزواج حبيبها، لامت نفسها كثيراً، لم تكن تعلم أن مشاجرة بسيطة ستكون كعود ثقاب صغير يحرق فرصتها معه، صارت يائسة.. يائسة جداً.. قانعة بيأسها وبؤسها..

فما عادت تستطيع أن تكون مع رجل غيره، أن تصير لرجل غيره، في قرارة نفسها لم تلمه، لقد اختار من تستحقه، اختار الأفضل.. لكن اختياره أوجعها، أدركت حقيقة أنها خسيصة، باخسة الثمن، بل إنها بلا ثمن..

كانت تنشد الله في سليم لكن ماضيها اعترض طريق توبتها، سُخريتها من نفسها كانت أشد سخفًا وغلظة.. تضاعفت مرارتها.. فسقطت مغشياً عليها، انهيار عصبي أصابها في مقتل، عادت على إثره إلى فيلا الدقي، اجتاحتها احتياج لماما ميرفت وعمو مازن، مضى شهران وأمه لا تفارقها والمصحف بين يديها تقرأه ليل نهار، عرض زوج أمها التدخل.. صرخت نؤارة يومها.. لا تريد سليماً.. ما عادت تريده.. كذبت عليهما وعلى نفسها قبلهما، ستجمع بقايا مشاعرهما وتقسو على قلبها وتحرقه، ما زالت أمامها فرص للزواج بمن هم أفضل منه... في قرارة نفسها وبصوت خنقته الغصة: «ياغثني فعلاً أقدغ، مفيش حد أحسن من سليم.. مش ممكن راجل غيره يلمسني، مش ممكن، دي فيها موتي».



باتت تحلم بالانتهاء مِن نفسها ومِمَّا جرى لها.. تلتفت كثيراً إلى علبة الدواء الراقدة على الكومودينو بجوارها تريد أن تلقي جميع أقراصها في جوفها، لكن شجاعته خانتها. تصرخ في أعماقها: يارب خُذني عندك!

ودون أن تعرف «نَوَّارة» أخذت أمها هاتفها المحمول، فتشت عن رقم سليم، أرادت مقابله، هاتفته مِن رقمها هي، لا مِن رقم نَوَّارة، لكنَّه لم يُجب أيضاً، فالعريس كان غارقاً حتى أذنيه مع عروسه الحسناء «ريكا»..



في يناير ٢٠١٣م، نقل د. مازن نوري إلى المستشفى، تعاني تقلصات وآلاماً شديدة أسفل البطن والظهر مصاحبة لتزيف شديد.. نَوَّارة حامل!!... تحملُ جنيناً يترنح داخلها.. جنينٌ يئن ويعترض.. وأم تبكي حزناً وفرحاً.. بينما تضع كفيها على بطنها، تحيط جنينها الذي لم يختَر أحد توقيت إنباته في رحم امرأة صارت بقايا حُطام..

هل سيُصدق سليم أنَّها لم تختَر ذاك التوقيت؟، هل سيصدق أنَّها لم تتعمد أن تستقر نطفته في رحمها رغم كل ما كانت تعانيه مِن صعوبات سابقة في الإخصاب؟ هل سيُصدق أنها لم تكن لتورطه...



القلق والتوتر أبقياها مستيقظة طوال الليل، تساؤل جبار
احتل رأسها، هل سيصدق سليم أنه والد الجنين؟!
«أم عزباء» مصطلح مازال غريبًا، شاذًا في مجتمعنا،
فالزواج هو السبيل الوحيد لإنجاب أطفال، إن كانت نؤارة
قد فتحت من قبل باب الحرية والتحرر على مصراعيه وألقت
بكل الأعراف في قاع المحيط غير عابئة ولا مهتمة بآراء الكون
من حولها، فلا يمكنها الآن أن تكرر فعلتها، لقد التفَّ سليم
حولها كقيد أبدي لا فرار منه، جنين منه غرس في أحشائها،
لقد ترك بصمته، وجيناته، وماءه ليركضوا جميعًا في دورتها
الدموية، لقد تأمر رحمها واتحد مع سليم عليها، ها هي ستبقى
أسيرته! لن تغفر له فعلته، ستعاقبه عقابًا لا يمكنه تجاهله،
ستحافظ على بذرته داخلها، وستحبه أكثر!!

لم يعن نؤارة رأي عمو مازن الذي تلقى الخبر كسهم مشتعل
انغرس في كومة قش، لم يلبث ثوان يحاول استيعاب ما سمع، ثم
اشتعل صراخًا ولومًا وتقريعًا لزوجته، يحاسبها على تصرفات
ابنتها ويهددها لو لم تحسن التعامل مع هذا الوضع المخزي
سيدفع جميعهم ثمن طيش تلك المجنونة، أمرها أن تقنع نوري
بالتخلص من جنينها بالحسنى وإلا سيكون له معها شأن آخر،



استمر يضغط عليها، لم يعِ ما يفعله حتى سقطت المسكينة أمامه على الأرض، ارتفع ضغط دمها ولولا أن نزيفاً متوسط القوة تدفق من أنفها وإحدى أذنيها لغداً أرملاً.. حُمِلت «ميرفت» إلى نفس المستشفى وفي غرفة مجاورة لنوَّارة رقدت في حالة حرجة... لم يجد د. مازن سبيلاً غير أن يُحادث نوَّارة بنفسه، يعرف أنَّها صعبة المراس، ترفض أن يُملِي أحد عليها رغبته، لكنه يحبها، يحبها حقاً ومن كل قلبه، إنَّها ابنته التي رآها تكبر أمام عينيه وبين ذراعيه، أحسَّ كأنه مسجونٌ، مكبَّل الأطراف، حائرٌ بين عاطفته تجاه نوري التي تدفعه لقبول ما يرفض وبين فضيحة كئيبة تنتظرهم جميعاً إذا أصرَّت الهوجاء على الاحتفاظ بجنينها... «ابن سفاح» ابن نوري سيولد سفاحاً، إنَّها علامة توشم الظهر وتُسوِّد الوجه ولا سبيل لمحوها سوى بترها من الجذور..

لكن نوري رفضت الحديث في الأمر، وبإصرار قاومت كل وسائل الضغط عليها لتُفصح لعمو مازن عن اسم والد طفلها وكيנותه، بل أنَّها لم تحاول أن تستمع باهتمام وتَعقِّل لما يقول، لم ترَ عين الحكمة التي يراها، لا يُخيفها ما سيُقال عنها ولا يهتمها أساساً، لم تعتد أن تهتم بآراء البشر حولها فكلهم مرضى مذنبون يدَّعون الطهرَ والمثالية، ستتابع الحياة وتعتنق أومومتها،



رَجَتْ طَبِيبَهَا أَنْ يَحْتِجِزَهَا فِي الْمَشْفَى، أَقْنَعَتْهُ بِحَاجَتِهَا الْمَاسَّةَ
لِلرَّاحَةِ وَالْبَعْدَ عَنْ أَيِّ تَوْتَرٍ وَقَلْقٍ رَبَّمَا يُوْثِّرُ سَلْبًا عَلَى سَلَامَةِ
الْحَمْلِ وَاسْتِقْرَارِهِ، قَضَتْ سِتَّةَ أَسَابِيعٍ فِي الْمُسْتَشْفَى رَافِضَةً
أَنْ يَزُورَهَا عَمُو مَازَنْ نَهَائِيًّا... أَسَابِيعَ اسْتِعَادَتْ فِيهَا تَوَازُنَهَا
وَاسْتَقَرَّ حَمْلُهَا وَضَاعَتْ خِلَالَهَا كُلَّ فُرْصَةٍ مُتَاحَةٍ لِلتَّخْلُصِ مِنَ
الْجَنِينِ... لَا إِجْهَاضَ سَتُرْغَمُ عَلَيْهِ وَلَا طَبِيبَ سَيَسْمَحُ بِذَلِكَ..

عَادَتْ وَالدَّتْهَا إِلَى الْمَنْزِلِ بَعْدَمَا تَمَاثَلَتْ لِلشِّفَاءِ لِتَجِدَ «مَالِكٌ»
فِي انْتِظَارِهَا، لَقَدْ جَاءَ فِي إِجَازَةٍ تَسْتَمِرُّ شَهْرًا لِلَاظْمَتَانِ عَلَيْهَا وَعَلَى
نَوَّارَةٍ... وَبِمَشَاعِرٍ أَقْلَ سَوَادَاوِيَةٍ وَأَكْثَرَ هَدَوًى تَحَدَّثَتْ «نُورِي» إِلَى
أُمِّهَا... لَا دَاعِيٍّ لِلشَّجَارِ وَتَبَادُلِ الْاِتِّهَامَاتِ عَمَّنْ يَقَعُ عَلَيْهِ اللُّومُ
الْحَقِيقِيُّ فِيمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْمَسْكِينَةُ، جَلِيًّا أَفْصَحَتْ عَمَّا تَشْعُرُ، لَا
يُمْكِنُهَا أَنْ تَقْتُلَ بَذْرَةَ سَلِيمٍ دَاخِلَهَا، رَبَّمَا وَضَعَ بَذْرَتَهُ شَهْوَةً أَوْ
تَقْلَبًا أَوْ يَأْسًا، لَكِنَّهَا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ تَتَمَنَّاها بَذْرَةَ حُبٍّ وَأَمَلٍ، ثَمَرَةً
سَتَنْضِجُ لِتَرْبِطُهَا بِسَلِيمٍ إِلَى الْأَبَدِ... إِنَّهَا إِرَادَةُ اللَّهِ وَسِتْرُهُ..

حَقًّا لَمْ يُعَدِّ هُنَاكَ مَا يُقَالُ مَا دَامَتْ نَوَّارَةٌ قَدْ تَمَسَّكَتْ بِفُرْصَتِهَا
الْأَخِيرَةِ فِي الْإِحْتِفَازِ بِسَلِيمٍ يُخَصِّصُهَا وَحْدَهَا دُونَ غَيْرِهَا..

التَزَمَتْ نَوَّارَةٌ بِتَعْلِيمَاتِ الطَّبِيبِ وَاسْتَكْمَلَتْ الْمَتَابَعَةَ بَعْدَمَا
غَادَرَتِ الْمُسْتَشْفَى، رَقَدَتْ فِي السَّرِيرِ مَمْنُوعَةً مِنَ الْحَرَكَةِ،



وبانتظامٍ شديد تناولت أدوية تثبت الجنين لخمسة وستين يومًا، رغم تحذيرات «عمو مازن» المستمرة، إنها تسبح ضد التيار، من جديد تُعرض نفسها لهزيمة ساحقة سيحترق معها اسمها وكيانها، ترجوها أمها أن تعقل وتترك الجنين لينزلق خارجها، لِمَا تدفن نفسها بيديها تحت أكوام الفضيحة؟ كيف ستواجه مجتمعها حين تفوح منها رائحة الأمومة؟!

نعم، لقد اقترفت الخطيئة ومشيت تختال مرحًا، لكن ثمة طفل صغير بقلب بريء لا ذنب له سيُسدد هذه المرة فاتورة عنادها واستهتارها، فلتدعه يفر من دربه البائس قبل فوات الأوان، لكن نوري رأت أن طفلها القادم هو زمنها المضيء الذي سيشهد حتمًا على حبها لأبيه رغم كل القهر والحزن والاختناق..

لن تقتل برغبتها ابنًا تركه سليم داخلها مهما كانت العواقب!! ما كانت نوري لتترك فرصةً لجنينها ليهجرح رحمها ويرحل، إنها امرأة لا تستسلم أبدًا، لا شيء يساوي حبها لسليم وإيمانها بحقها في الحياة معه إلا إصرارها وعنادها..

في شقتها أغلقت نؤارة على نفسها الباب وانعكفت تحمي جنينها، تقرأ كل ما يساعدها على استقباله بسلام وكل ما يؤهلها للتعامل مع المرحلة الأهم في حياتها..



رافقها «مالك» طوال مُدة الحمل الباقية، قابِلها يحمل في يده زهورَ سلام، لم يعرف كيف يبدأ معها حوار صداقة... تدين له نَوَّارة باعتذاراتٍ جَمَّة عن سالف أمرها معه، لكنَّها كانت قد فتحت له قلبها بعدما لمست طيبته التي ولوقتٍ طويل كانت موضع سخريتها، لم تحتج وقتًا حتى تعاده في منزلها؛ فقد سارع يملأ كل خواء بينهما، راقى مالك، حالم، ربَّما جردته الموسيقى من كل عنف، شر، أنانية وملاءة الفن سموًا واحساسًا..

ودون أن يُحاسبها أو يؤنبها، وبكلاسيكية فكرٍ فرنسي راح يناقشها، يحسب كلمته ويفكر فيها قبل أن ينطقها قال: أنا مش هسألك مين بابا البيبي، ولا عايز أعرف حكايتك معاه إلَّا لَمَّا تبقي أنتِ عايضة تقوليلي ومستعدة تحكيلي.. ومادامِ إنتِ متمسكة أوي كده بابه يبقى أكيد بينكم حب كبير عايضة تحافظي عليه وعلى فرصتك معاه وده حقك.

: تصدقني لو قلتلك إننا اتقابلنا صدفة؟ بس كانت أجمل صدفة حصلتلي.

: طيب وهو؟ بيحبك زي مابتحيه أوي كده؟

: سألت نفسي السؤال ده كتيف وماعغفّتش أجاب.. بس اللي عغفاه كويس إن فيه حاجة بتغبطنا ببعض، حاجة بتخلينا



مشدود دين لبعض، لغة بتجمعنا، غضب بيحفننا أو حِغمان أو
تمغُد.. مش عاغفة.. والله مش عاغفة.. (نطقت عباراتها من بين
دمعات انفرطت منها جاهدت لتكتبها)

اقترب منها مالك واحتضنها، وضعت رأسها على كتفه،
إنَّها جريحة، وما يُشقيها أكثر أنَّها مازالت صاحبة تعاند دموغًا
لا تريد انفلاتها أمامه..

وفي فيلا الدقي لأمه أبوه كثيرًا وعاتبه على موقفه المترخي
من أخته، اتهمه بالبرود، سيكون عارًا ولد نَوَّارة أو بنتها، عار
يملاً العين ويفيض..

وبهدوءٍ استقبل مالك ضيق أبيه، وبلطفٍ وسماحة أخبره
أنَّها حين تضع نوري حملها سيكون عام ٢٠١٣م قد انتصف
تقريبًا، في أوروبا انتهت تمامًا عبودية المرء لهذه الأفكار القديمة،
وفي مصر أيضًا ولو أنَّه انتهاء مُستتر نوعًا، يؤمن مالك بالحرية
التي لا نهاية لها... ما الفرق بين أن تمنح نَوَّارة نفسها لرجل وبين
أن تنجب فعلاً من ذلك الرجل؟ لا فرق حقيقي مادامت ترغب في
طفل منه، الفاصل الوحيد في الأمر هو «رغبتها»، إنَّما الفرق في
الموروث والمتعارف والصواب والخطأ، كلُّها كلمات مطَّاطة،
تختلف من شخص إلى آخر ومن الجائر أن يحاسب أبوه نَوَّارة
على مفاهيمه هو وأفكاره هو!!



فجورٌ آخر استقبلته حواس د.مازن.. متى وكيف أصبح
مالك ممتلئًا بذاك العفن؟!



في صباح الثلاثين من يوليو ٢٠١٣م صار سليم أبًا دون أن
يعرف، بعد أن خاضت نؤارة معركة شرسة ضد الموت، أخيرًا
غادرت غرفة الولادة بعدما شمت رائحة الموت في مخاضها
مرّات ومرّات، كانت حريصة على ألا يُخدرها الطبيب كليًا
خشية أن يتخذ في لحظة ما قرارًا بإزهاق روح جنينها إن تعسّرت
الحالة، لا يمكن لأحد أن ينتزع منها ابن سليم، ومع إدراكها
الجيد لكل حركة تدور حولها في غرفة الولادة كانت تدعو الله
ألا يعاقبها في وليدها، ألا يحرمها منه، ألا يخطفه الموت منها
وألا يخطفها الموت منه، وبين ألم الولادة واستفاقتها منه رأت
نفسها تحمل وليدها تجري به في حقول نضرة وبساتين عامرة
بينما يقف سليم على الناحية المقابلة ممتطياً فرساً عربياً شديد
الجمال، توقّف قصير ثم عبر رُجلها بفريسه مياه مجرى ضيق
يفصله عنهما... بعدها صاروا ثلاثة!!

وحين استفاقت بعد الولادة طلبت وليدها، كانت تعلم من
الأشعة التلفزيونية التي أجرتها في شهرها الثامن أنّه ولد،



كانت المرة الوحيدة التي سألت فيها طبييها عن جنس المولود، سابقاً وفي كل مرة أجرت فيها سوناراً كانت ترفض أن تعرف، في قرارة نفسها تمتنّه ولدًا يشبه والده في كل شيء، تضرّعت إلى الله ترجوه أن يمنحها سليمًا خالصًا لها..

جاءتها الممرضة تحمله، وضعتّه على صدرها طالبتها أن ترضعه، ورغم لهفتها عليه فقد حملته خائفة بيدين مرتعشتين، قرّبتّه منها، راحت تتأمل ملامحه بعينين غمرتهما الدموع ففاضت، كان شديد الشبه بأبيه إلى أقصى دهشة.. كأنّها تحمل سليمًا بين ذراعيها، لا شيء فيه يشبهها، كلّ شيء فيه يطابق رجلاً أحبّته منذُ سبعة قرون..

ما كان من الممكن أن يرضخ د.مازن لرغبتها المجنونة وتجاهلها الأبله لوضع وليدها، اسمه، صفته، كيانه، ما كان من الممكن لوالديها أن تتجاهل كل الاعتبارات المجتمعية وتُلغي عقلها وتُخرس لسانها، ما كان من الممكن أن يظل سليم جاهلاً بحقيقة فرضت نفسها على واقعهِ ومستقبله، لقد صار أباً أراد أو لم يُردّ..

استعدّد.مازن لخوض كل المهاترات إن رفض سليم الإعراف بالطفل، فلم يكن من المقبول أن يترك نؤارة، فتاته التي



ربّاهَا في كنفه وحيدة في معركة لإثبات نسب وليدها، وبينما هي في غرفة الولادة هاتف سليمان وقد شَحَذَ همته وسخت دفاعاته، أخبره أَنَّ نَوَّارة بين الحياة والموت، تُراهن بكل كيائها على الإبقاء على روح جاءت من مزيج اختلط فيه شيء منها بشيء منه، من سليم أبو ستين وضعت نَوَّارة إنساناً كاملاً رغم صغر حجمه ودقة عظامه وتفاهة وزنه... ففي ليلة ما أو نهار ما أراد الله أن يختمر مزيج سليم ونوري داخلها وقد كان..

أسرع سليم إلى المشفى يسبقه قلبه، يؤمن أن الوليد ابنه، لم يتخيل أبداً أن تُخفي نَوَّارة مثل هذا الخبر عنه أبداً ما كان عليه أن يتركها، أن يهجرها، أن يتخلص منها كما يتخلص الجندي من فوارغ سلاحه، يعرف أَنَّها لم تكن قديسة لكنها أبداً ما كانت كاذبة، هو أيضاً لم يكن راهباً لكنّه وبكل حقارة صار صيَّاداً، يوقن أَنَّها أَحَبَّتْه واستشرى هواه فيها ومع ذلك وبكل جبروت وخسّة منعها من التجول في شوارع عمره، وفي لحظة غضب أو اندفاع أعلن عليها الأحكام العرفية وطردها... رحل عنها وتركها مهجورة كمدينة ضربها وباء..

ستنسى نوري غدره بها، لا بد أن تنسى، ستتغاضى عن هجره وسخفه وتراخيه، ستعود معه من جديد، هناك في بيت



شَهِدَ أَيَّامَهُمَا مَعًا، سَيَتَزَوَّجُهَا، سَيَحْرِقُ الدُّنْيَا مِنْ أَجْلِهَا، مِنْ أَجْلِ وَلِيدِهِ... فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتْرَكَهُ مَعْلَقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمِّهِ، لَمْ يَعِدْ مُهِمًّا مَا كَانَ وَمَا جَرَى، لَمْ يَعِدِ الْمَاضِي هَامًّا، يَدْرِكُ فِي قَرَارِهِ نَفْسَهُ أَنَّ اللَّحْظَةَ الَّتِي سَتَقْبَلُ فِيهَا نَوَّارَةَ الزَّوْجِ مِنْهُ سَتُغَيِّرُ قِطْعًا حَيَاتِهِ وَهَذَا يَكْفِي..

فَجَاءَ وَجَدْتُهُ بِجَوَارِهَا، يُقَبِّلُ جَبِينَهَا وَوَجْتَهَا بِحَرَارَةٍ وَحِبٍّ وَاعْتِذَارٍ، أَرَادَتْ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا لَكِنَّهَا خَشِيتُ أَنْ تَحْرِقَ أَغْصَانِ الزَّيْتُونِ الَّتِي رَأَتْهَا تَلْمَعُ خَضِرَاءَ يَانِعَةٍ فِي عَيْنَيْهِ، ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً دَافِئَةً ثُمَّ قَالَ: حَمْدُ اللَّهِ عَلَى السَّلَامَةِ نَوْرِي، إِزَّاي مَاتَقَوْلِيلِشْ خَبِرْ زِي دِهْ عِشَانْ أَكُونْ جَنْبِكَ؟

: اِكْتَشَفْتُ إِنِّي حَامِلٌ بَعْدَ جَوَازِكَ، وَخُفْتُ مَتَصَدَّقِنِشْ..
مَحَبَّتِشْ اخْغِبْ عَلَيْكَ أَوْ أَبْوَظْ عَلَيْكَ شَهْغَ الْعَسَلِ وَ..

رَفَعَ كَفَّهُ لِيَضَعَهَا عَلَى فَمِهَا مَقَاطِعًا: أَنَا آسَفٌ، بِجَدِّ آسَفٌ عَلَى كُلِّ لَحْظَةٍ أَلَمْ سَبِّتْهَا لَكَ، قَوْلْتُكَ قَبْلَ كَدِّهِ إِنِّي غَبِي وَرِخْمٌ، مَتَصَدَّقْتِنِشْ!

: أَصْدَقُّكَ إِزَّاي وَأَنَا بِحَبِّكَ بِكُلِّ مَا فِيكَ.

: بَعْدَ كُلِّ اللَّيْلِ عَمَلْتُهُ فِيكَ؟

: هُوَ دِهْ الْفُغْتُ اللَّيْلِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَا سَلِيمُ، أَنَا حَبِيتُكَ فِي كُلِّ



حالاتك، بكل ما فيك، وإنّ حبيتي حب مؤقت، سعادة مؤقتة
يمكن بتغطّي بيها على جفّح قديم سايب وجع كبير جواك،
ونسيت إنسي مليش ذنب في الوجع ده بس أنا اللي دفعت تمنه..
ويمكن مِغاتك كمان بتدفع تمنه وهي مش عاغفة.

مسح سليم على شعرها قائلاً: يمكن اللي بتقوله صح بس
إنّ أحسن مني وأكرم مني، ادّيني أحلى هدية ما استاهلهاش،
أرجوك سامحيني وخلينا نبدأ من جديد..

ما كان لنوّارة أن ترد سليم خائباً رجاءه، إنّها تحبه أكثر مما
يدرك، أكثر مما يتخيل، تحبه بطريقتها، تمرر راحتها على قلبه
الملتاع، متلحفة بالصبر، مُمنية نفسها بنتائج رائعة، متأكدة بأن
الأمّور ستجّتري على مايرام وفي صالح قلبها ستأتي النتائج..
وفي المستشفى تزوّج سليم بنوّارة بعقد كُتب بتاريخ قديم
يسبق مولد «صالح» بتسعة أشهر، شهد عليه الأستاذ حمدي زوج
خالته سهام، و«أسامة» ابن صفوت البرنس الذي أصبح صديقاً
مقرباً لسليم... ذاك الصديق الذي تولى أمر التفاهم مع المأذون
والاتفاق معه بخصوص تاريخ عقد الزواج، اختارت نوّارة «عمو
مازن» وكيلاً لها، فسّر مالك لذلك الاختيار..

طوال حياة نوّارة ورغم كل ما مرّت به لم تبك بحرقة ولم



تضحك من الأعماق في نفس اللحظة كما فعلت حين قال المأذون
عبارة الشهيرة: بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير..



قبل مجيء «صالح» بشهر بالتمام والكمال كان سليم قد
شارك وعن قناعة في تلك المظاهرات الشعبية التي انطلقت في
محافظات عدة، الدافع الوحيد الذي حرّك ابن الحاج جعفر هو
قناعته بضرورة إجراء انتخابات رئاسية مبكرة دون أن يُقدّم لوالده
تفاصيل أكثر عن أسبابه وقناعاته، نزل إلى الميدان وجال الشوارع
تُحرّكه خشية طاغية أن يكتمل الفخ المنسوب للبلد من البداية
وأن تنجرف مصر إلى حرب أهلية بدت ملامحها في الأفق ولن
تغفرها الأجيال القادمة لأحد..

وحين جاءه ولده رآه بشري حسنة وطاقاة أمل وبهجة
بحجم الكون، كنسمة صبح مُمتنة لكل ما هو نفيس..

ومضى أكثر من شهر على مولد صالح تماثلت فيه نَوّارة
للشفاء تمامًا من آثار الحمل والولادة، خلال تلك الفترة أخبر
سليم والده أمر زواجه منها وتشريف ولي العهد... «صالح»،
الحفيد الأول لآل أبو ستين..

اتسعت عينا الرجل بشدة ونظر لولده نظرة لم ينساها أبداً



وكأنَّ صاعقة ضربت جسده ثم انتفض واقفاً يقول: إنَّتِ متأكِّد إنَّ الولد ده مِن صلبك؟! ترك سليم الغرفة، وكاد يترك السراي كلها كالملسوع، ورغم العمر وبعض العجز إلا أنَّ جعفرًا ركض خلفه يستوقفه، تمالك سليم نفسه وعاد مع والده إلى القاعة الغربية بينما تكاد رائحة أنفاسه المشتعلة تنتشر في الأرجاء، وبحزم قال: صالح ابني ومن لحمي ودمي، ومش هسمح بكلمة في حقِّه أو في حق أمه.. كفاية إنني ظلمتها لمَّا سيبتها واتجاوزت روعة، أنا مش معتوه عشان أرمي ابني في الشارع أو أنكره.

فجأة تهلَّلت أسارير جعفر فرحًا وقفز يحتضن سليمان قائلاً: هو ده اللي كنت عايز اسمعه، حمِّجَتِكِ دي تأكدلي إنك متأكِّد إنَّ الولد ابنك، ومادام إنَّتِ مطمئن يبجى أنا كمان مطمئن، خير ما فعلت يا بني، ومبروك ما جالك.. بس ليه سميتَه صالح؟

مسح سليم دموعات انهمرت على الرغم منه قائلاً بابتهاج: لسبيين يا والدي، أولاً، إنَّتِ عارف أنا أدإيه بحب الأسطورة «صالح سليم» والثاني لأنَّه كان وش الخير وسبب الصُّلح بيني وبين نوَّارة.

ربت جعفر على كتفه: نُحِطَّة «صالح بيه» خمسين فدان فواكه هكتبهم بكرًا باسمه.



أردف سليم مُتَحَرِّجًا: تسلّم يا با، بس مفيش داعي تسجل
حاجه باسم الولد، ده لسه بيبي.
جلس جعفر عاقِدًا يديه على صدره وبافتخارٍ راح يقول
بصوته الأَجَش: مالِكش صالح بصالح يا ولد، ده حفيدي وأنا
جَدُّه.. ماتدخلش بينا إياك.



فتحت نَوَّارة مصارع قلبها على وسعها ووقفت على بوابة
جديدة عنوانها ابن تمنتته كثيرًا وانتظرته طويلاً، كل ما كان قبله
عهد، وما بعده عهد آخر.. فمئذ وضعت «صالح» صارت
كحمامة سلام تقف على كتفي «سليم» لتهمس له بأجمل كلمات
الحب، لا تشغل بالها ولا باله ولا تُقلق راحتها وراحته بـ «روعة»
ومسائلها معه، إلّا إن هو حادثها في أمرٍ يخص ضررتها حين ينفذ
صبره باحثًا عن ملجأ آمن، ملجأ دون تقريع أو توبيخ..

تغيّرت وتغيّرت حياتها، خلّقت الأمومة منها أنثى جديدة
مختلفة، أرادت أن تمنح صالحًا السعادة كلها، أن تعوض معه
طفولتها التي عاشتها متأرجحة بين بيتي والديها، أسوأ مخاوفها
تبلورت في أن يتركها سليم، أن يهجرها إن طالبه الحاج جعفر
بذلك، أو ألحّت عليه عروسه ليخلّص إليها وحدها، كيف



يمكنها أن تعيش سعيدة وتمنح ابنها سعادة دون أبيه، دون الضلع الثالث من مثلث غريزي مطلوب؟!!

تفهم أن «سليم» عاد إلى عشاها من أجل صالح، لقد جعله المولى سبباً تسترد به سليمها، وياله مشن سبب!... في قرارة نفسها كانت تفضل أن يعود حبسها إليها حباً لها ورغبةً فيها.. لكن ذلك لم يحدث، فالتمر خبيتها فيه على مهل، ستتجنب التفكير في الوضع بشكل سلبي يُثيرها، المهم أنه عاد، فذاك أثنى..

راحت تستمتع بوليدها رغم خسارتها لبعض تفاصيل يومها الخاصة، أسقطت عنها الأمومة الكثير من حريتها، فولاؤها لصالح وتفانيها في خدمته والقيام بكل أموره شغلها، أفهمها سليم أنه سيقسم الأسبوع بينها وبين روعة، إنها زوجته أيضاً، ابنة عمه، شريكته في الميراث والاسم والعائلة، تحمل جنيناً منه سيقاسم صالحاً كل شيء، إنها جزء من حياته لا يستطيع العيش دونه لكل الإعتبارات السابقة..

آه... لم يدر سليم ما فعلته كلماته بنوارة... لقد حمدت الله كثيراً لأنه لم يقل أنها حبسته... هذا هو مربط الفرس ومكنم الخطر.. نوارة لا يعينها الزواج بقدر ما يعينها الحب، ذلك ما تبحث عنه..



أتى صالح وبمجيئه رأت نؤارة «سليم» من زاوية أخرى لم ترها من قبل، رآته رجلاً يعشق الأطفال كثيراً. يدلهم ويلاعبهم بحب فطري خالٍ من التأفف والتملص من المسؤولية كطبيعة بعض الرجال، إنه في غاية الصبر معهم..

حينما مرض صالح وارتفعت حرارته وأصابه إسهال شديد أحاطته بذراعيها خوفاً عليه وراحت تبكي بشدة، كانت الثالثة صباحاً ولم يكن سليم يبيت معهما تلك الليلة، اتصلت بأمها، لكن هاتفها كان مغلقاً، لم تتواصل مع عمو مازن لعلمها بمبितه في بورسعيد تلك الليلة، هلعٌ غريب انتابها ورأت أنها مسألة حياة أو موت، صغيرها يحتاج إليها وإلى أبيه، من حق ولدها أن ينقذه أبوه، وحده سليم سيتصرف، هاتفته وهي ترتجف بكاءً، بالكاد فسّر كلماتها، مرّت ثلاثون دقيقة عليها بشقاءٍ كدر حتى حضر زوجها برفقة الطبيب..

من المؤلم أن يبكي الرضيع ذو الأشهر القليلة توجعاً ولا سلطة لأمه للسيطرة على ذاك التوجع. تلك الدقائق التي توقف فيها عقلها عن العمل وجلست أرصاً تحمل وليدها الباكي المأتمكي هي الأخرى على بكائه وكأنها شلت بينما هو يتنفّس بين يديها كعصفور يحتضر، كان أفضع ما رآته عيناها..



لا شيء أخطر في هذا العالم على قلب الأم من هلع يصيبها على أبنائها، هلعٌ قد يقتلع أنفاسها ويتوقف معه قلبها..

بينما استقبل سليم الأمر ببساطة كتلك التي تعامل بها الطبيب مع حالة الصغير ذو الأشهر الخمس رغم حرارته المرتفعة... خافت عليه نوّارة من تفاقم الالتهاب أو تدهور الحالة، سألت الطبيب أكثر من مرة عن ضرورة نقل الصغير إلى المستشفى وإيداعه تحت الملاحظة الطبية طوال الأربع وعشرين ساعة القادمة، لم ترغب في التخلص من صغيرها وإلقاء مسؤوليته عنها لكنّها وبصدقٍ كانت شديدة الحرص على سلامته... مرتعبة من ارتفاع مفاجئ للحرارة قد يعاوده أو تشنجات ربّما تصيبه نتيجة لذلك، نقل سليم الرضيع إلى المستشفى استجابة لرجاء نوري التي جلست فوق الأريكة المجاورة لسرير صالح وفي نفس غرفته في المستشفى، بقيت عيناها مثبتةً عليه تراقب انتظام أنفاسه، تلمس جبهته براحتها وشفتيها كل نصف ساعة تتحسس حرارته رغم كل العناية الطبية التي شملت الصغير من جانب طاقم التمريض المناوب، وعلى نفس الأريكة أسند سليم رأسه إلى فخذاها وقد غفلت عيناها بينما كان يفكر... كم هي رائعة نوري، غنيّة سخية في أمومتها، لقد انغمست في صالح فلا تكاد تشم في رائحتها سواه..



كانت الصورة كافية ليرى سليم بوضوح دواخل نوري
البراقة..

إلا أنَّ انغماسها في عالم صالح لم يعن أبداً تجاوزها لعالم
أبيه، كانت بارعة في كلا الاتجاهين، فلم تحرمها أمومتها من
أنوثتها التي لم تقلص قيد أنملة، وفي بيت نَوَّارة ومع صالح صار
لسليم مساحة آمنة يتحرك خلالها، ما عاد اشتعالها يربكه، ولا
جنونها يقلقه... لقد هدأت دون أن تفتُر مشاعرهما، توازت دون
أن تخبو جذوتها، لم تعد تنهض من فراشها قبله لتلتقط هاتفه
تفتش فيه، وحين يتسرب إليها صوت الهاتف يعلن وصول
رسالة ما صارت بتسم ابتسامة صغيرة وتمضي نحو غرفة
صالح أو تنحني تلتقط بعض ألعابه ثم تخرج تاركة لسليم الغرفة
ليُحدث مَنْ يحدث أو يرسل مَنْ يرسل، فرضت على نفسها
رغبتها في توديع غيرتها التي قد تُفقد زوجهما، لم يكن ذلك عن
ضعف أصابها بل إنَّ كل قوتها تجلَّت في محاربة امرأة مجهولة
استوطنت قلب رَجُلها تبغي أن تصير ملحمة خلود، بلاؤها كله
تجلَّى في تلك الأنثى التي ستحاربها ترفع شعار «كِش ملك»...
إما نهايتها أو نهاية تلك الجائزة التي كرهتها دون أن تراها أو
تعرف قصتها، مازالت تكره القصص وتفاصيلها... بها عطش



إلى هزيمة تلك الأنثى التي تلعنهما مع كل ضخة دم لأنّها ببساطة مازالت مهزومة أمامها، إنّها الغريزة التي تجعل المرأة تطوف أرجاء الأرض تبحث عن ترياق يمنحها الخلود والتفرد في قلب رجل تحبّه، تسجد ويطول سجودها تدعو الله كثيراً أن يحقق لها أغلى أمانيتها..

لا خطر يأتيها من «روعة»، ولا حاجة لها بمنافستها؛ فقد خرجت تماماً من مضمار السباق، سباق ساحته قلب «سليم».. وبالمقابل كان رُجلها واقفاً وبكل ما أوتي من قوّة ضد كل فكرة تفرض عليه التخلص من ميراله وذكرها ولا سيما حين ناصرته الحياة وصارت الغزاة الأصفهانية تراسله ويراسلها على «الماسنجر»... بدا لنفسه متناقضاً جداً فرغم كل الشوق الذي يعتريه لم يجرؤ على مهانتها وكأنّ أذنيه لم ينضجا بعد لينالا هذا الشرف!!

تناقض آخر عاشه بمشقة حينما سألته ميرال عن الغنّاء التي تملأ الدنيا بصورها معه... رأت في عينها عطشاً إليه، عطش تعرفه ميرال جيداً، عطش لا يرويه إلا رجل واحد لم يعرف ما يقول، فكتب: إنّها تُحبّني بإخلاص؛ فتزوجتها.

فسألته: أتُحبّها؟



: حتى إن أحيتُ غيرك فأنا بغيا بك مهزوم.

فعاودت تكتب: أهى زوجتك؟

كتب بأصابع ترتعش: ليست وحدها..

: ماذا تعني؟ ألك زوجتان؟

: حين خسرتك هزمتني أنا نيتي، لا أخجل من قولي هذا،
لكنها حقيقتي..

كانت سعادته غامرة بسؤالها، لكن بعد تلك اللحظة بدأت
علاقته بميرال تأخذ منحاً آخر من جانبها..



انطلقت نَوَّارة تقطع رحلتها مع سليم تجوب الدروب التي
تقرَّبها منه دون أن تواجهه قط بما عرفت، لم ترغب في أن تُشعل
فتيلاً آخر قد ينتهي بالنعيب، فواصلت طريقها توطد علاقته
بكل مَنْ هُم حول رُجلها، زادت زياراتها لطنط سهام التي
وعدتها أن تُحضر لها ماء زمزم لتسقيه للصغير صالح فتحل
عليه البركة ويشفى من تلك الأمغاص السخفية التي تصيبه
كلَّما أطعمته أمه صنفاً جديداً من الطعام رغم بلوغه العامين، لكن
إحساساً ما.. فقط إحساس لا تعرف مصدره تشعب في نفس نَوَّارة
أنَّها لن تقابل طنط سهام مرة أخرى..



كان ذلك الشهر من عام ٢٠١٥م شهراً حزيناً. إنه سبتمبر، رأس الخريف... تساقطت فيه ورقنا محبة من شجرة حنان لطالما منحت قلب سليم حناناً دافقاً، فقد فيه حالته سهام وزوجها، ثم «عم زكريا الحناوي».. وفي نفس ذات الشهر ولنفس السبب التقى ميرال بعد كل تلك الغيبة. تراكمت عليه ذكريات الماضي على الحاضر وراحت الدنيا تضرب على أوتاره الحساسة كلها في وقت واحد..

بات «سليم» يخشى القدر، فما هكذا يشتهي العيش، يحن إلى السلام، فيطيب له مجالسة نوري وصالح، يأخذه الشوق إلى صغيرته «وعد» فيهاثف أمها يطلب الزيارة، يريد أن يحملها على كتفه إلى حيث صالح لكن رياح «روعة» اشتتت عكس ذلك، تشاهد نوره يخفت فلا تعباً، فقد صار زمنه ماضٍ في جملتها، معاناتها معه ماضٍ، حبها له في طريقه أن يصير ماضياً أيضاً، لا يحميه من تجاهلها الكامل له إلا قرابة تجمعهم، وحب يحملها قلبها لعمها «جعفر»، ولنفس ذات الحب وحتى لا تفيض «روعة» ألماً لم يقابل عمها كنته «نؤارة» أم حفيده الذي جاء ليجمع والديه معاً على عكس رغبة جده..

وبإخلاص كان سليم يصطحب الصغير لزيارة جده في



الصعيد على فترات على أن يعود به في نفس اليوم واليلة، لم تمنع نَوَّارة ولم تعترض على الرغم من موقف جعفر منها، لكنَّها فقط أبدت مخاوفها على الصغير من حرارة الصعيد وجفاف مناخه، طمأنها سليم أن عُرف السراي كيفية كما أنَّها تطل على حديقة كبيرة تحيط بها تكتظ على اتساعها بالأشجار والزهور وبأنواع مختلفة يفوح شذاها مع إشراقة الصباح، لكن قلقاً استوطن بها حين أخبرها أن والده يريد أن يبيت حفيده بجواره؛ لم تُعد زيارة اليوم الواحد تكفيه؛ فقد كبر الصغير وبلغ الرابعة وصار وحده من يستطيع مداعبة جده وإضحاكه، وغداً مجيئه إليه مهماً، ورغم أنه لم يعد يستطيع الوقوف معظم الوقت إلاَّ أنَّه يقف على باب السراي ينتظر صالحاً، لقد اشترى له حصاناً عربياً أصيلاً، يبغى تدريبه على الفروسية، إنَّه يفكر وبجدية في إنشاء حمام سباحة في حديقة السراي الخلفية، وسيُعين مدرِّباً متخصصاً لتدريب حفيده على السباحة مبكراً... لقد هزَّ حفيده كيانه ورقتَ لهما مشاعره لقد أخذ صالح ووعد من قلب جدهما مالم يأخذه أبوهما ولا روعة... لكم هو قاس هذا الزمان ولكم هي جائزة أحكامه!!

سكتت «نوري» برهة ثم عاودت تسأل بقلق: طيب مين هياخد باله من «صا» لو إنت مشغول في حاجة أو نايم؟



وقبل أن يجيئها سليم، تابعت تسأل: طيب مين هياكله
ويشربه ومين هيديه الشاور بتاعه قبل النوم؟؟؟

ربت سليم على كتفها مطمئناً وقال: السراي فيها خدم
كفاية، بس أوعدك إني هسيبه في عُهدة ونيسة، إنت عارفة إنَّها
خلاص اتطلقت، هروح أرجعها السرايا وهي اللي هتكون مسئولة
عن صالح ومش هيبقى وراها غيره.

:لو إنت واثق فيها يبقى تمام، بس تبقى تطمني عليه،
وأكيد مش هيبقى فيه مشكلة إنِّي أكلم ابني في أي وقت؟! قالت
جملتها الأخيرة بتشكك.

قبَّل سليم رأسها مطمئناً وقال: تقدري تتصلي بـ «صا صا»
أي وقت، بس بلاش مكالمات الساعة اتنين وتلاته الفجر دي
يا مجنونة، اهدي شوية، ماشي؟؟ ابنك مع أبوه وعند جدّه
اللي بيعشق التراب اللي يمشي عليه، أبويا بيعحب صالح أكثر
ما بيعجبني والله.

وقبل أن يودّعها أمسكت يده تقول: طيب، ممكن أغّوح
أقعد عند مامي لحد ما تغجّعولي بالسلامة؟؟؟

غمز بعينه وهو يقلد لثغتها قائلاً: أكيد ممكن يا نوغي..
تستأذنه نَوّارة قبل كل أمر، تعشق إحساسها بأنّه مسئول



عنها ومسئولة هي منه، مسؤولية كبيرة تضعها على كتفيه في لحظة، وفي اللحظة التي تليها تشعره أنَّه طفلها المدلل، تبسم دومًا حين يُقلد لثغتها التي تُشعرها بالحرَج، وفي غمرة غرقها في بحر الحاضر توطدت علاقتها بأُمها وصارت تفرح بزيارتها، وبذاك الوقت الطويل الذي تقضيانه في الحديث حول سليم وصالح وأحوالهما معهما، أصبحت نَوَّارة تحترم وجودها في فيلا الدقي، تتعامل بلطف ورقة مع «عمو مازن»، تحاول أن تُصلح ما أفسده الماضي القريب، تتعمد أن تُحادثه كثيرًا، ولم تقدر أن ترفض طلبه حين سألها أن تُحادث «مالك» تقنعه بالعودة إلى مصر، فقد طالت غيبته... فوعده أن تحاول..

وفي إحدى مكالماتها لأخيها وفي لحظة مناسبة فاتحته في العودة، لم تتحدث كثيرًا، فقط أخبرته أن «مامي ميرفت» ليست بخير، إنَّها واهنة، متعبة معظم الوقت، بحاجة إلى وحدها، وفي لهفة سألها: ماما عندها إيه؟ قوليلي الحقيقة ومتخبيش عليا حاجة، أرجوك..

: مفيش حاجة محددة والله، بس «مامي» دايمًا دبلانه ومش مبسوطه، صحتها مش تمام، بتتكلم عنك كتييخ.. تعالى يا مالك ولو في أجازة، بس خليها تحس إنك جيت عشانها، وإنَّها وحشاك.



بادرها سائلاً: بقيتي بتحبي ماما يا نوري وبتخافي عليها
عشان بقيتي أم..

فردت بحرج: طول عمغي بحبها، يمكن بس مكتتش
بعغف أعبغ عن مشاعغي، كنت سخيفة مع الكل، سامحوني لو
تقدغوا..

أنهت المكالمة والدمع في عينيها واضحاً لكنها حبسته في
حزم، فقد نكأ مالك جراحها التي ظنت أنها تعافت.



أمّا مالك ورغم اقتناعه بحاجة أمه، وإحساسه بشوق
كبير داخله لحضنها، إلا أنّ وجوده في مصر لا محل له من
الإعراب، ماذا يمكن أن تُقدّم مصر لموسيقار موهوب تمّ تعيينه
في «كونسيرفاتوار باريس» بأجر يحترم فنّه وموهبته، لا يستطيع
المجازفة بأحلامه ولا التفريط في ذرة منها... لقد وعدته «سِدرة
الساھر» مديرة العلاقات العامة في معهد العالم العربي^(١) بباريس
أن تُقدّم له حفلاً موسيقياً رفيعاً خلال هذا العام..

إنّها تحبه ولن تدّخر وسعاً في مساعدته، يستمد «مالك»
منها طاقته والقوة اللازمة لمتابعة نجاحاته في عاصمة النور،

(١) معهد العالم العربي هو حلقة الوصل بين المجتمع الفرنسي والعالم العربي
فهو بمثابة مركز ثقافي عربي تمّ تأسيسه بالتعاون بين فرنسا و ١٨ دولة من
الشرق الأوسط وأفريقيا بهدف تعزيز العلاقات بين الثقافات.



تَعِدُهُ دَوْمًا أَنْ إِنْجَازًا كَبِيرًا يَنْتَظِرُهُ، وَأَنْ لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِي أَنْ يَتْرَكَ بَارِيسَ أَوْ يَبْقَى فِيهَا، فَفَنَّهُ هُوَ سَيِّدُ الْحُضُورِ وَكُلِّ مَا عَادَاهُ غِيَابٌ..
إِنَّهَا امْرَأَةٌ تَصْغُرُ أَخْتَهُ نَوَّارَةَ بَعَامِينَ وَتَكْبِرُهُ بَعَامٍ، لَا يَحْكُمُهَا أَيُّ قَانُونٍ وَلَا تَسِيرَ عَلَى أَيِّ نِظَامٍ وَلَا يَرُدُّعُهَا عَنْ فِعْلٍ تَنْتَوِيهِ سِوَى نَفْسِهَا، «سِدْرَةَ» امْرَأَةٌ آمَنَتْ دَوْمًا بِأَنَّهَا تَمْلِكُ حَقَّ الْقَرَارِ، وَقَدْ قَرَّرَتْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْ مَالِكِ «مُوزَارْت» جَدِيدٍ وَلَا وَقْتُ لَدَيْهَا لِتَهْدِرَهُ، إِنْ فِي مُوسِيقَاهُ سِحْرٌ خَلَّابٍ يَسْلُبُ الْأَفْعَدَةَ وَيُذْهِبُ الْعُقُولَ..

نَجَحَ خَالَهَا الْأَصْغَرُ، سُئِنِي الْإِنْتِمَاءَ فِي الْفِرَارِ بِهَا مَعَ شَقِيقَتِهَا «مَيْسُون» بَعْدَمَا تَوَغَّلَتْ قُوَاتُ الْإِحْتِلَالِ الْأَمْرِيكِيِّ فِي «مَدِينَةِ النَّاصِرِيَّةِ» فِي ٢٣ مَارَسَ ٢٠٠٣ م.. بَعْدَمَا تَهَدَّمُ الْمَنْزَلُ فَوْقَ رُؤُوسِ سَاكِنِيهِ؛ فَلَمْ يَنْجُ أَحَدٌ سِوَى الصَّغِيرَتَيْنِ، وَبِمَشَقَّةٍ بَالِغَةٍ أَنْقَذَهُمَا الْخَالُ قَبْلَ أَنْ تَدْهُسَهُمَا نِعَالُ الْأَمْرِيكَانِ وَقَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ هُوَ نَفْسَهُ أَوْ يُشَيِّعَ إِلَى أَحَدِ سَجُونِهِمُ الْبَشْعَةَ، وَإِلَى الشَّمَالِ زَحَفَ يَطَارِدُهُ عَجْزُهُ، وَكَأَحْجَارِ الدُّومِينُو سَقَطَتِ الْمَدَنُ الْعِرَاقِيَّةُ فِي يَدِ الْإِحْتِلَالِ..
إِنَّ الْمَقَاوِمَةَ الَّتِي بَدَأَتْ مَعَ بَدَايَةِ الْحَرْبِ كَانَتْ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ شَيْئًا رُبَّمَا يَحْدُثُ، لَكِنْ الْأَحْدَاثُ جَاءَتْ لِتَقُولَ وَبِكُلِّ وَضُوحٍ أَنَّ الْأُمُورَ بُرِّمَتْهَا تَسِيرَ نَحْوِ الْأَسْوَأِ.. فَارْتَحَلَ الرَّجُلُ بِمَا يَحْمِلُ إِلَى «الْمُوصَلِ» لَكِنَّهُ قُبِلَ هُنَاكَ عَلَى يَدِ أَحَدِ طَلَائِعِ الْبِيشْمَرِكَةِ الْكُرْدِيَّةِ الَّتِي تَمَكَّنَتْ



بالتعاون مع الفرقة المظلية ١٠١ من الجيش الأمريكي من احتلال المدينة في ٢١ أبريل؛ فشرّدت الصغیرتان ولم یجدا مأوى وانسحبت أقدامهم الضالة إلى قرية صغيرة تقع غرب الموصل قرية من جبل سنجار^(١)، وهناك ضمتها عائلة یزیدیة...

ومع الیزیدین^(٢) تربّت «سدره» وتفتحت مدارکها؛ فتكلّمت لغتهم الكرمانجیة وتعلّمت دیانتهم وصلواتهم وأدعیتهم وقد أختصرت العائلة فی قلبها ووجدانها على شقیقتها الكبرى التي تمسّكت سرّاً بإسلامها وکتمته فی قلبها، فلیس کل ما فی القلب قابل للبوّح حتّى أنهت دراستها الثانوية وتعرّفت على «رجب طیّوب» شاب سوري کُردي، تزوّجته دون علم الیزیدین، ألحّت على «سدره» الرّحیل معها، فرضت.. فعواطفها قد ارتبطت بأمرها «شمس» وأبیها «فخر الدین» وهو من الکهنه القوال^(٣)... إنّها لا تحتاج إلى أن تدرك ماهيتها من جدید، فقد سآمت التّقل والترحال..

(١) بالکردیة: شنگال، مدینة عراقیة ومركز قضاء تقع فی غرب محافظة نینوی شمال العراق علی جبل سنجار وتبعد عن مدینة الموصل ٨٠ کم، یسکنها أغلیبة من الیزیدیین وأقلیة من التّرکمان والعرب.

(٢) أو الایزیدیون وهم مجموعة عرقیة دینیة تتمركز فی العراق وسوریة. یعیش أغلبهم قرب الموصل ومنطقة جبال سنجار فی العراق.

(٣) وهم قارّووا التواشیح الدینیة الایزیدیة. حیث یتناقلون حفظ التراث الدینی أباً عن جد.



ارتحلت «ميسون» مع عريسها إلى شمال سوريا وفي بيت أسرته في «تل أبيض» تنفست إسلامها وبالطبع صارت تمارس طقوسه كاملة دون حذر، لم تسأل «سدر» شقيقتها يوماً عن سر تمسكها بإسلامها في مجتمع له ديانتها وأفكاره وتاريخه ونضاله الخاص به، بينما جاهدت «ميسون» طويلاً تحاول استرداد شقيقتها الصغرى إلى جبهة فلم تفلح، ثم أثرت الشقيقتان الغرق في بعضهما البعض دون الخوض في ما يفرقهما ولا ما يشق عضدهما، غابت «ميسون»؛ فانكفأت «سدر» على نفسها تراعي والديها الأزددين، تتألم كلما رجعت بذاكرتها إلى الماضي؛ فويلات الغزو الأمريكي تقبع هناك، في وطنها القديم عاث الأمريكان فساداً فكتب عليها التشرد، بينما ظلت علاقتها بميسون وطيدة لكنّها أُختُصرت في خطاباتٍ ومهاطفاتٍ على فترات وباللغة العربية التي ظلت تمارسها فلم تنسها أبداً..

وفي ٢٠١٤م كانت قد بلغت عامها الرابع والعشرين حين داهمت القوّات الداعشية الأقلية الأيزيدية في محافظة نينوى حيث مدينة سنجار وضواحيها، لم يكتف الدواعش بالمجزرة^(١)

(١) جرت هذه المجزرة بعد انسحاب قوات البشمركة المفاجئ من مدن سنجار وضواحيها حيث وسع التنظيم صراعه إلى داخل إقليم كردستان في شمال العراق عندها، هجر بعدها سكان المدينة إلى جبل سنجار ليحتموا فيه وبقوا هناك عدة أسابيع ومات العديد منهم من الجوع والمرض إلى أن قامت قوات وحدات حماية الشعب الكردية وحزب العمال الكردستاني وقوات البشمركة



التي جرت بل قاموا بسبي الفتيات الإيزيديات وأخذهن كجوارى وتمَّ بيعهن في أسواق الموصل والرقّة والمناطق الأخرى التي سيطر عليها التنظيم، هاجر بعض سكان المدينة إلى المُدن والمحافظات المجاورة لكن الدواعش تتبعوا الفارين من الأهالي والذين نجوا من الجوع والمرض... وأمام ناظرها أعدم والدها «فخر الدين» بينما بقي مصير والدتها «شمس حميد» مجهولاً ولم تعرف «سدرّة» إلى أي وادٍ جُرّ جرت المرأة من شعرها، وفي سوق النخاسة تم بيع المسكينة مقابل مئة دولار وعلبة سجائر!! وفي بيت معتقلها تعرّضت لأبشع الانتهاكات الجنسية والإنسانية، لقد اعتاد سيدها الداعشي اغتصابها مع غيرها من السبايا اللاتي اشتراهن دون رحمة، إنّها ملك يمينه وهي له بجسدها وكل ما فيها، استمرّت تعاني حتى استطاعت تخديره والفرار مع أخريات من جحيم احتجزن فيه لخمسّة أشهر رهبة السواد، وإلى فرنسا اتجهت.... وفي مدينة «ليموج»، في أحد مصانع الخزف بدأت حياتها من الصفر، وهناك جرى انقلابٌ عنيف في حياتها وبعد كل ما عانت أصبحت شخصاً يُقدّر قيمة الحياة والحرية ويتمسك بهما إلى أقصى درجة، راحت تعمل

وبدعم دولي من التحالف الدولي من إنقاذ بقية الإيزيديين الموجودين في جبل سنجار وترحيلهم لمناطق أكثر أماناً.



وتدرس وتمارس الموسيقى، هوايتها المحمومة ورغبتها التي وأدتها داخلها طويلاً... عاودت الاتصال بشقيقتها وارتبطت بها أعمق وأعمق، ورغم كل الأحداث التي جرت سريعاً في سوريا منذ عام ٢٠١١م إلا أن ميسون وزوجها لم يستطيعا الهرب من جحيم الأحداث..

وفي ٢٠١٥م انتقلت «سدر» إلى باريس وتمّ تعيينها في المعهد العربي، كان ذلك تغييراً جذرياً في حياتها المهنية وبسرعة الصاروخ شقّت طريقها وأثبتت جدارةً ونبوغاً..

التقاها «مالك» في عرض للأوبرا ثم التقاها ثانيةً في مكتبها... أحبّها بعمق دون أن يدري عنها شيئاً، شعرت معه وللمرة الأولى أنّ الحب أقوى المشاعر وأنبّلها، بعد أشهر من تعارفهما تلقت اتصالاً جديداً من شقيقتها تعلمها أنّها أخيراً أنجبت طفلاً أشقر ذا بشرة بيضاء، أسمته «كنان»..

عصّت «سدر» شفتها أسفاً وهي تحكي لمالك معاناتها ولياليها المظلمة وصباحاتها القاتمة في بيت «أبوهاشم»، خاطفها الداعشي، كان عالمه ضيقاً، ضحلاً.. داوم يُضيقه عليها ويشد إزاره مع كل شهيق وزفير بينما هي تتنفّس!!

يومها أمسكها من يدها بقوة، شدّها نحوه قائلاً: تعالي



عِشِي معايَا، مش ممكن أسيك لو حِدِك بعد النهاردة.. أيام بعدها وانتقلت للعِيش معه، غمرته باهتمامها ورغبتها التي غالبًا ما تزيد عن رغبته في أن تصنع منه موسيقارًا يُشار إليه بالبنان، وضعت فيه غايتها، أرادت أن تسرّ قلبها به... يتوق كثيرًا ليفهم منطقها، فهي معه منطلقة ولا نهاية لانطلاقها، ولا حدود فاصلة ولا قوانين مانعة، زاخرة بالمناقضات، تقرأ «كتاب الجلوة» و«مصحف رش» وهما الكتابان المقدسان لليزيدية وتُصلي بتعبيدٍ خمس صلوات يوميًا صلاة تشبه صلاة المسلمين لكنّها تستقبل «الشمس» قبْلتها، ثم تحدثه وخيطٌ من الدخان ينطلق من بين شفّتيها، تشرب الحليب صباحًا وقد اشتد حرصها على اتباع برنامجٍ صحي يرفع مناعتها ضد الأمراض ثم تتجرع معه كأس الشامبانيا أو الفودكا ليلاً لتطيح رأس الملل قبل أن يصيبها، تقضي الليل بين ذراعيه دون أي شعور بالذنب أو الخزي كموروثاتنا الشرقية التي تسكن أرواحنا وكاعتباراتها الدينية التي تُحرّم عليها الزواج من غير قبيلتها، ثم تغتسل صباحًا تطلب الطهارة ممثلة لما يأمرها به دينها، لقد اتفقا منذ البداية أن يتجاهلا كل ما يشئت وحدة عواطفهما وأن «الدين» خط أحمر لا نقاش فيه... وكلّما شعر مالك أنّه قاب قوسين أو أدنى



مِنْ فِهْمَهَا صَدَمَتُهُ بِتَصْرِفٍ أَوْ بِرَأْيٍ يَدْرِكُ مَعَهُ أَنَّ الْفَارِقَ مَا زَالَ
كَبِيرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَفْهَمَهَا!!

أَخْبَرَهَا كَيْفَ كَانَ مَنْزَعَجًا وَكَيْفَ رَفَضَ دَاخِلِيًّا أَنْ يَكُونَ
لَأَخْتِهِ عَشِيقَ يَتْرَكُهَا بِنَدَالَةٍ بَيْنَمَا تَمَسَّكَتْ هِيَ بِجَنِينِهِ، صَارَحَهَا
أَنَّهُ ادَّعَى التَّحَرُّرَ وَتَغْلَفَ بِرَدَاءِ إِيْمَانِهِ بِحَرِيَةِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، أَرَادَ
أَنْ يَظْهَرَ كَأُورُوبِيِّ مُتَفَتِّحٍ بَيْنَمَا بِوَاطِنِهِ مَا زَالَتْ تَقَاوُمٌ، كَانَتْ قَاسِيَةً
مَعَهُ جَدًّا حِينَهَا، هَاجَمَتْ فِكْرَهُ بِحُرْقَةٍ... قَسَوْتَهَا جَرَحَتَهُ؛
وَتَنَاقَضَهُ جَرَحَهَا... سَأَلَتْهُ بِغَضَبٍ: وَلِمَا لَا، أَلَا تَأْتِينِي أَنْتِ أَيْضًا
مَتَى أَرَدْنَا؟!... أَتَّهَمْتَهُ بِأَنَّهُ مَا زَالَ عَبْدًا لِأَفْكَارٍ بِالِيَةِ قَدِيمَةٍ
تُحَاكِمُ النَّاسَ عَلَى أَسَسٍ مُتَغَيِّرَةٍ كُظُرُوفُهُمْ وَحِكَايَاتُهُمْ وَطُهْرُ
أَبْدَانِهِمْ دُونَ النَّظَرِ إِلَى قُلُوبِهِمْ وَمَا فِيهَا، أَخْبَرْتَهُ بِوُضُوحٍ أَنَّهَا لَا
تُحِبُّ الْعَبِيدَ وَلَا السَّبَايَا، بِأَيِّ عَيْنٍ وَأَيِّ مَنْطِقٍ يَصِفُ أَخْتَهُ بِالْفُسَادِ
وَهُوَ نَفْسُهُ يَمَارِسُ مَعَهَا ذَلِكَ الْفُسَادَ وَيَحِبُّهُ وَيَسْعَى لَهُ؟!

وَضَعْتَهُ أَمَامَ الْمَرَأَةِ، تَكَرَّهَ «سَدْرَةُ» الْإِزْدَوَاجِيَّةَ وَمَعْتَنَقِيهَا،
اِخْتَفَتْ بَعْدَهَا مِنْ حَيَاتِهِ شَهْرًا، اِخْتَفَاؤُهَا أَصَابَهُ بِالْقَلْقِ
وَالِاضْطِرَابِ... نَعَمْ، إِنَّهُ يَحِبُّهَا بِجَنُونٍ..

سَأَلَهَا «مَالِكٌ» أَنْ تَتَزَوَّجَهُ لَكِنَّهَا رَفَضَتْ، مَا زَالَتْ تَبْغِي
التَّأَكُّدَ مِنْهُ، مِنْ أَفْكَارِهِ، مَعْتَقَدَاتِهِ، وَالْأَهَمُّ أَنَّهَا تَبْغِي التَّأَكُّدَ مِنْ مَا
يُرْبِطُهَا بِهَا، حَاجَتُهُ إِلَيْهَا أَمْ حُبُّهَا..



عربيتهما مازالت قوية تحدّثه بالفصحى لا بلهجتها العراقية التي غابت بعض مفرداتها عن ذاكرتها وحلّت محلّها فرنسية مشخنة بغنج لذيذ، يحب أن يسمعها تتحدّث الكرمانجية، حينها لا يفهم كلماتها لكنّه وبكل تأكيد يفهم عينيها وحواسها وذلك يعجبه، حين طلبها للزواج ناولته كوباً من الشاي وهدوء قالت: مالك أرجوك إفهمني، ستمر في حياتك بمرحلة خطيرة اسمها نقطة التحول، قد تتغير بعدها وتتغير قناعاتك وتصير شخصاً آخر برؤى مغايرة وقد لا تتغير وتستمر كما أنت ذات الشخص، في حالتك أنت ستكون نجوميتك ونجاحك هو ذلك التحوّل القاسي، إذا بقيت بعدها أنت كما أنت الآن، وبقيت أنا في نظرك كما أنا، تمنحني نفس الحب وتظل عينك تلمعان بنفس البريق حين تنظر في عيني، وتبقى لمساتك بذات اللفظة والحرارة، حينها فقط سأطلب أنا منك الزواج فوراً..

ودون تردد وضع مالك كفه خلف عنقها وجذبها نحوه قائلاً: سأبقى أنا كما أنا، عقيم ينتظر إنجاب طفلة من امرأة واحدة هي أنت.. أحبك وسأظل متوقفاً عند اللحظة التي اعترفت لك فيها بالحب، عند اللحظة التي اعترفت لي فيها بالحب، فإن أعظم خساراتي خسارتك سدره.



وفي القاهرة وبفضل «نوري» تعافى سليم من موجة الحزن التي احتوته منذ وفاة خالته، لكن حرمانه من ميرال كان شيئاً شديداً الألم على نفسه، أحس فجوة تكونت داخله، وكأن شيئاً داخله قد تهشم، باتت الدنيا صورة بلا ألوان، مجرد أسود مزعج وأبيض كالح، لقد أغلقت الأصفهانية حسابها الإلكتروني تماماً في وجهه، صمت رمادي رهيب أطبق على نفس نؤارة، إنها ترى.. تعرف.. تفهم كل ذلك ورغم كل عذابات الصمت مازالت تستيقظ وهي تحبه، ممنية نفسها بصباح يأتيه وهو ممتلى بها على آخره..

ليته يفهم! فليس كل الصمت رضا، فبعض الصمت احتضار.. انتصف عام ٢٠١٧م، وعادت «شهد» إلى مصر، فسارعت بزيارة نؤارة وروعة وأطفالهما، ومن اللقاء الأول بكلتيهما أخبرته أن نؤارة امرأة قد تشبعت كاملاً بحبه، بعيوبه قبل مميزاته، بوقاحته قبل أدبه، بأنانيته قبل إشاره، وأن عيبها الأبرز هو ذلك الحب الفطري الذي تحيطه به، فالحب وحده لا يكفي، يلزمه أن يصير كياناً ملموساً، له أسلحة تتحرك، تحارب حتى تحميه، فالحب كالحياة لا يسير دوماً في خط مستقيم إنما يجري حيناً ويركد حيناً، يزحف في طريق تملؤها التعرجات، تضيق الطرق وتتسع، وتكمن عبقرية الحب وقيمة الغرام في قدرته على المواجهة..



وعلى الجانب الآخر استطاعت العائدة إقناع والدها بقاء «نوّارة»، فمن غير الطبيعي أن يظلّ جعفر على موقفه من زوجة ابنه التي منحتها حفيداً رائعاً بهيّا كصالح، على والدها أن يتخلى عن عناده ويضع «روعة» وكل الاعتبارات جانباً ويسعى إلى بناء جسر الوصل بينه وبين «أم صالح» من أجل «صالح»..

قبلت نوّارة دعوة «شهد»، فلا يهتمها فلسفة الأمور وتعقيدها، راغبة هي في تعويض كل ما فاتها والاستمتاع بالغوص في حياة زوجها وأقاربه ولا سيما الحاج الكبير، وفي جناحه الواسع كان اللقاء، تسرّب القلق إلى قلبها حين دلفت إليه لكن لباقة شهد وابتسامتها العذبة وسماحة ونيسة وتلقيها «صالح» بين أحضانها بودٍ كبير، ومرح سليم الذي دخل على أبيه متهلل الوجه يداعبه بقفشات مشاكسة، كلّها عناصر قضت على توتر نوّارة... أقبلت تُسلم على الحاج بعينين تشع منهما نظرة حانية ودودة، وجدته يغمر «صالح» بالقبلات والحلوى، منحه ورقة مالية فئة مائتي جنيه ليشتري ما يريد، استقبلها بطيبة لا تتناسب مع ما سمعته عنه، بدا لها رجلاً يجمع بين الرهبة والخشوع.. وبذلك انتهى العصر البارد بين نوّارة والحاج جعفر، وأقبلت تزور حماها على فترات متباعدة نوعاً، فلم تشأ أن تفرض نفسها



على عالمه، فاطمئن إلى طيبة أصلها وحلاوة لسانها، ولم يلق منها إلا الأدب وحسن التعامل..

وحين غادرت «روعة» البلاد وحرمتُ سليماً من ابنته دون وجه حق، سألته نوري أن يبكي أمامها إن أراد.. لا.. لأنها تريد له البكاء، بل لأنها تريده أن يمارس حقوقه في الوجد معها، تريد أن تحمل عنه الألم، غايتها أن تعتني به كما يليق به، قرأت نؤارة حيرته، فقالت برقة مشفقة كالعادة تخشى إغضابه: يسعدني والله إنك تجيب وعد تعيش معانا، تتغبى مع أخوها ويطلعوا حابين بعض وقلبهم على قلب بعض.

لكنه تأزم رغم رقتها، أشعل سيجارة ثم التفت إليها يقول: عيذاها بعد ما كانت الكل في الكل تيجي هنا ضيفة عند مرات أبوها؟

لم تستسلم نؤارة، كانت مُبادرة أكثر مما تخيلت هي نفسها فقالت مبتسمة: اخص عليك يا سليم، هي هنا هتبقى ضيفة؟ ده بيتها، بيت أبوها، وبعدين تفتكغ إني هعامل بتك معاملة مغات الأب؟؟ دي حنة منك يا سليم، وأنا بحب البنات يا سولي ونفسي يقالي بنوته، وعد مش بتك لو حدك دي هتبقى بنوتي حبيتي أنا كمان.



استسلم سليم لهددها ووضع رأسه المتخمد بالصراع فوق صدرها، غدت تحيطه بذراعيها، تريده أن يطمئن، تخبره دوماً أنه بخير وأنها إلى جواره باقية فليلقي بأوجاعه عليها؛ ستلتقيها منه ببراعة، ربما تعجز عن أن تمنحه عوضاً لكنها على كل حال تجيد المشاركة.

وبلغتها التي يعشقها وبحنو كبير قالت: ميغسي على أي حاجة تيجي منك حتى لو كسغت في وشي طول النهاغ وخاصمتني بليل مش مشكلة، المهم إننا نبقي سوا يا حُبي.

كانت مغرورة به وبزواجه منها، تتباهى برجلها أينما كان وتراه أكبر أحلامها وأعظم أمانيتها، تغار عليه لكنها تعلّمت أن تغار بهدوء؛ تدرك تماماً أنها ستتوه لو رحل عنها إلى وطن آخر، يُخيفها أن يبعد ويتعسها أن يحزن لذا سعت وبكل الطرق لأن تتشله من حزن بليغ أصابه بعد وفاة بابا الحاج «جعفغ»..



إن جرفاً من المشاعر يستوطئ أضلعها له وحده... تريد أن تقتلع ضلعاً من سعادتها تُهديه إياه، تأخذ على عاتقها مسؤولية تحريره من كل هم يُصيبه.. ساندته كثيراً واحتملت حزنه واكتئابته الذي كانت تجهل سببه حين انقطعت «ميرال» تماماً عن مراسلته،



وتجاوزته تمامًا إلى يوسفها وخلص قلبها له دون غيره،
تذكّرت «نؤارة» سنواتها الخؤالي قبل سليم، تذكّرت جنانها
وهوسها، سوء تصرفها، عنادها الصلب وغرورها الجاف،
تذكّرت رسمها المحترف للكحل كملكة فرعونفة جليفة،
مضعها العلكة بغنج لتصنع لثغرها جمالاً شهياً فتاكاً فوق
جمالها، كانت «أنثى الإشارة»... عرفت وفهمت الرجال، إنهم
يكذبون كثيراً في الحب، يجبنون وينصرفون بحماقة، بقلّة مروءة،
يسرعون مبتعدين عنه، يخشونه ويسئون استقباله والتصرف معه،
إلا هو.. سليم، ربّما لا يحبها، فلا يوجد رجل يحب امرأة دانت له
بمفانيتها قبل أن يتزوجها، عرفها، عاشرها، حملت ابنه، اختفى،
ثم عاد ليتزوجها، خذلها بينما روح خلقت منه تجمعت داخلها،
ولأنّها أحبّته بصدق وبعمق قفزت فوق ذلك كله، نسيت البداية
وتناست الخذلان، كلّما أخطأ في حقها أو تهاون في شيء علّقت
أمانيتها الثقيلة جدّا على شمّاعة الصبر، التغافل، الرضا.. تتمنى
أن يُبصرها من جديد، لقد تغيرت من أجله..

ما الحياة إلاّ أمانة نسقيها بالابتهالات الكثيفة في
انتظار أن تهتز وتربو، فنعاود نسقيها مجدداً ليزداد نموها فتتحقق!!
لكن بعض الأماني تتأخر، تأتي جافة، عصية، خالية من
الفرح ومن الحياة!!



«نَوَّارة» تبتهل يومياً بينما «سليم» راح يلهو بالقلوب، ينتقل بخفة ورشاقة بين الأغصان، لا يُقدم على عملٍ ينافي الشرف ولا يخوض حرباً قد يخسر فيها، يتعرف على هذه وتلك دون أن يلحق بإحداهن خسارة عميقة تُعيقها عن الزواج بغيره متى أرادت.. لكنه يقتل.. يقتل مشاعر مَنْ تقترب منه وقد تراءى لها أنَّها امتلكته أو امتلكت جزءاً من قلبه.. يقتل «نَوَّارة» مع كل رواية جديدة عن غرام جديد، يقتلها ويتركها مهزومة.. تعض على أصابعها متألّمة، وكأنَّه غدا سباقٌ بين متألّمين أيهم يصرخ أعلى!!

سليم أم نواراة أم الضحية الجديدة!!

جودي، دارين، إيمي، ريماس، حبيبة،.... البعض يذهب والبعض يأتي، القطار يجري وسليم وحده مَنْ يمسك المكابح؛ يرسلها متى شاء ويجذبها متى شاء..

إن أسوأ ما في الأمر أنَّه في كل مرة ومن جديد يصير قاتلاً موشوماً بجريمته.. بيد أنه ومهما تنفس بغرورٍ وتجاهلٍ تبقى هناك «نوري»، أنثى واحدة ارتعش كبرياؤه حباً لها!!

وفي حربته هذه قرَّر استثناء الزوجات، إنَّها رفاهية الاختيار، هو وحده مَنْ يملك أن يختار هذه ويترك تلك.. لأنَّها تخص رجلاً آخر.. وفي الزواج موتٌ أكثر مما فيه من الحياة؛



فلا حاجة لمزيد من الدراما ولا داعي أن تصبح الخيانة مقبرة
لزواج ميت بمجرد وقوعه!!

فلسفة اكتظت بها روحه واقتنع بها عقله.. ربّما صمته
وهدوء تبسمه وصوته الرخيم ذو البحة التي تضيق بحنجرتيه
وكأنه ابتلع شيئاً وبقي عالقاً تعطى صوته نبرة أجمل وأعمق
تُشعر أي أنثى تقف أمامه أنه يشعر بوجع مزمنٍ وخيبة كبيرةٍ وتيهٍ
عميق، غموض كثيف تطلّعت كل أنثى عرفها إلى سبر أغواره
فلم تفلح.... لكن هناك دوماً استثناء..

فمَعَ نهايات ٢٠١٩م التحقت «حور الجارحي» بالعمل
بوكالته الإعلانية كمصممة جرافيك ذات سمعة عملية وثيقة
واسم جبار، كانت موهبتها عبقرية ومختلفة، سكنت لندن قرابة
التسعة وعشرين عاماً، فقد غادر والديها الخليج أثناء الغليان
السياسي والعسكري للمنطقة إبان هجوم العراق على الكويت
وإعلانها كمحافظة تابعة لها عام ١٩٩٠م.. كانت حينها في
العاشرة، حرص والدها وقد كان كاتباً مشهوراً على تعليمها
وتثقيفها؛ فغدت عزيزة النفس ذات جاذبية، وبعد حصولها على
الماجستير تزوّجت من «نايف»، صيدلي شاب من بني جنسها،
يدرس الدكتوراه في «لندن كوليج»، بدا لها ولأسرتها كابنٍ بارٍ



لعائلة محترمة معروفة بصلاحها وتمسكها بالعادات المحافظة،
 رأته «حور» مثاليًا، ولأشد ما كان تمسكها بعروبيتها وجذورها
 القبلية رغم نشأتها الانجليزية، كان زواجًا تقليديًا تحكمه خبرة
 الأهل ورؤيتهم وتطلعاتهم للأفضل فيما يخص آبناءهم، عادت
 معه إلى «الدَّمَام» وقد وعدها بتأسيس مكتب لأعمال الدعاية
 والإعلان تديره هي وطاقم دولي بجنسيات مختلفة تختار هي
 أفرادها، غادرت والديها ولندن وأقبلت على زواجها برضا
 وإيمانٍ أنَّه البداية الحقيقية المضمونة للحب، فراحت تبذل
 وسعها للوصول إلى قلب زوجها والاستقرار بين أضلعه.. لكن
 مع الأسف لم يكن كل ذلك سوى خدعة كبيرة وواجهة برّاقة
 لخواء رهيب، فمع كل محاولاتها لم تصل المسكينة إلى بر
 الأمان، لم تتجرع كؤوس الحب، ولم تعيش ليل الغرام.. فسقف
 «نايف» بلا أعمدة، وسفيتته تسير دومًا في اتجاه واحد.. نحو
 مَنْ يماثلونه جنسيًا!! فالأمر لا يتعلق بالعمر أو القدرة بل بالميل
 والرغبة، ونايف لوطي الميل، يجد متعته بين الأدبار..

سعت للطلاق دون أن تخبر والديها بالحقيقة، سافرا إليها
 في عُجالة، ورغم كل الأسئلة الصادرة مِنْهم عن الأسباب، رغم
 الشكوك والتساؤلات، رغم القيل والقال، لم تُفصح عن أسباب



تناثرها، لم ترد أن تكشف سترًا وضعه الله بين يديها، إنها تستطيع أن تلف «نايف» على إصبعها لتصنع منه فطيرة رخوة ثم تقذفه في الهواء لكنَّها لم ترغب، وتحت ضغط كبير وبعد عناء استجابت لإلحاح والدها وصارحتها بدوافعها لطلب الطلاق.... غضبة أهل «نايف» لم تكن هينة ولا عابرة، لم تترك القسوة والجبروت من قبل، عَنَّفوها وهددوها بالقتل، لقد مسَّت كرامة زوجها ووصمت رجولته بالعار، وفي ركن مظلم من غرفتها استقرَّت وأغلقت بابها عليها بالمفتاح، لكن «نايف» راح يصرخ بعصية ويلطم الباب بكتفه فانفتح، انهال عليها بالعُقال حتى فقدت وعيها، كوَّرها في السيارة وأمر السائق بتوصيلها إلى حيث والديها، وحين استفاقت شعرت بالفزع والمهانة؛ فقد تورَّم جسدها وامتلاً بالكدمات والجروح، اعتذر لها والدها وأقسم أن يُخلِّصها من ذاك اللعين.. نهضت من فراشها متثاقلة، لم تستطع تقبُّل إهانتها ولا ابتلاع ذلِّ غشاها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.. هاتفت زوجها تهدده بفضح أمره وإفشاء سرِّ كتمته شهوِّراً، ستخبر كل من تعرفه، أسرته الكبيرة وأهله وعشيرته، سَتُطالب بعرضه على الطبيب، ستنزع عنه أمامهم ثوبَ رجولة زائفة يتفاخر بها.. أسابيعُ واستردَّت حريتها وإلى لندن عادت تبحث عن نفسها من جديد..



سنوات عبرت على أزمتها لكنها لم تغلح في نسيانها حتى التقت بـ «جافيد».. شاب هندي وسيم يدرس العمارة الحديثة، يعمل كفرد أمن في الشركة التي تعمل بها.. أعجبها طبعه وشهامته حين تعرّضت لنوبة حرارة شديدة مفاجئة أصابتها بالإغماء فسقطت فاقدة للوعي بجوار سيارتها، أسرع «جافيد» يطلب سيارة الإسعاف ثم رافقها إلى المشفى.. داوم على زيارتها والتفّ حولها يمنحها حباً وعطاءً لم تستطع مقاومته.. وفي غمرة إحساسها بالضعف والحاجة صارت بلهاء تبحث عن الحب... تقدّم لوالدها طالباً يدها فرفض، وبمنتهى الهدوء طالبه ألا يقابل ابنته نهائياً حتى لا يضطره إلى اتخاذ إجراء يُفقدّه وظيفته... ليلتها بكت حور بحرقة، تجمّعت الحسرة داخلها، وزادتها سقوطاً في بحر «جافيد» الشهي، جاء الصباح وقد عقدت العزم على الزواج بمن احتضن قلبها... زارته في مسكنه، اعتذرت عن تجرّب والدها ورفضه..

«جافيد»، لم يكن بإمكانها مقاومته، إنه رقيق، لطيف للغاية، يتحدث بدفء وافر مع كل من يصادفه، حادّتها عن زواجهما وفرصته الضائعة للفوز بها، كانت ملامحه تنطق.. لم تكن الشهوة هي الدافع الذي يُحرّكها نحوه لكنه الظمأ والرغبة في أن تكون مركز الكون لأحدهم وأن تقضي سنواتها بين جنبات



قلبه ما عدا ذلك فتفاصيل سخيفة لا تستحق الانزعاج ولا الخوض فيها... مساء نفس اليوم تزوجته وغادرت منزل والديها لتشاركه غرفته البسيطة في سكن المغتربين حتى تتحسن الأوضاع..

مضت الأسابيع على زواجها دون لقاء والديها حتى عرفت بأزمة قلبية أصابت والدتها، لم تتمالك نفسها وهرعت إلى المشفى.. وهناك وبَّخها والدها وبالغ في توبيخها، لقد ظلمت نفسها حين تزوّجت من فتى متواضع الإمكانيات من غير جنسيتها، في وطنها يعمل أمثاله في مهن متواضعة حقيرة، يصغرها بسنوات خمس، تزوّجها لتتفق عليه وعلى أبحاثه ودراسته، ومن حسابها البنكي وببطاقتها الائتمانية يُرسل شهرياً مبلغاً مُرضياً من المال إلى «حيدرأباد»... لقد ربطت نفسها بحبل واهٍ من حبال العشق سيخنقها يوماً ما... تركت مكانها كالمسوعة، غيظٌ عظيم انتابها كادت تنفجر، وما أن وصلت السكن حتى هاتفها زوجها يُبلغها وفاة أمّها، بعدها تقلّصت علاقتها بوالدها وتمحورت في اتصالاتٍ هاتفية على فترات متباعدة لدقائق معدودة.. ما غدا يسمح لها بالجلوس في حضنه وما عادت تُصغي إليه..

واصلت حياتها مع مَنْ اختارت لسنواتٍ ثلاثٍ متتالية دون أن تعترض يوماً على سلوكياته وبعض تصرفاته التي لم تبتلعها،



صارحها أنه متزوج في «حيدرآباد» وله طفل.. كانت فرصته عظيمة حين منحته الجامعة منحةً دراسيةً في عاصمة الضباب ليحصل على تعليم أفضل، أمّا استحلاله لبعض أموالها فهو حقه، إنّه زوجها ولا يمكنها تجاهل حاجته، عليها ألا تكون جاحدة، إنّه يقوم بواجباته الزوجية على أكمل وجه، وعلى فراش الزوجية يسدد نصيبه من شراكة عُقدت بينهما، نصيب يدفعه أول بأول وبإجادة يستحق عليها مكافأة من حين لآخر، قال ما قال وهو يحزم أمتعته.. كان في طريقه إلى «حيدرآباد» بعد إلحاح والدته وزوجته، لقد التحق ابنه بالمدرسة الابتدائية ولا ينفك يسأل عن أبيه ولم يعد في إمكانه تجاهله... سيغيب شهرين ويأمل حين يعود أن تكون «حور» الجميلة قد هدأت وانتظم عقلها واستعادت حيويتها وثباتها.. حاولت أن تناسى هزيمتها فيه حتّى تسلمت التحاليل الطبية التي أجرتها دون علمه لمعرفة قدرتها على الإنجاب، فدورتها الشهرية منتظمة، ولقاءاتهما الزوجية تجري بانتظام... تزوّجت مرتين ولم تقطف أي ثمرة منهما.. خمس دقائق مرّت ببطء شديد قبل أن يُخبرها الطبيب أنّها تتعاطى بالفعل أقراصًا لمنع الحمل منذ ثلاث سنوات!

ما أقساها من لحظة حين تنقشع عن عينيك غمامةٌ غطّتهما

لسنوات!!



«جافيد» وحده مَنْ فعلها، دومًا كان شديد الحرص على تحضير مشروبها المفضل من عصير البرتقال والذي تتناوله بانتظام على الريق صباحًا.. ليت حدسها كان كاذبًا، ليته كان وسواس شيطان لعين، لكن كل التقارير والفحوصات الطبية أثبتت انخفاض شديد في قدرتها الإنجابية... أَحَسَّتْ أَنَّ الشيب يغزوها بل أَنَّ تجاعيد الزمن غَطَّتْ مُحياتها..

مشاكلها مع والدها وخاصة بعدما تزوج سكرتيرته منعتها من اللجوء إليه، وبوجه محتقن أعدَّتْ حقيبة سفرها، وإلى القاهرة جاءت متناسية هزيمتها رغم يقينها أَنَّها في مأزق كبير؛ فما زالت على ذمة رجل كان بلاؤها فيه عظيمًا..

ستَّة أشهرٍ مرَّتْ عليها في الوكالة الإعلانية وخاتم زواجها في خنصرها وبأزمته العاطفية ومأزقها الرطب وقعت في المحذور، أَحَبَّتْ سليمًا.. وعلى غير العادة استثناءها من القاعدة رغم خاتم الزواج.... وعلى مهل روت له فصول حياتها بكل ما فيها من خيبات.. زواجها الفاشل، أمومتها المعطلة، صدماتها المتتالية وصدامها مع أبيها والذي يضرب أعماقها.. لكنَّها قاومت وما زالت تقاوم، تعاطف سليم معها وجاهد كثيرًا حتى لا يلوَّثها، لكنَّها لم تتمكن من الصمود وانهارت أمامه في ليلة عنوانها الحرمان..



أنبها ضميرها، صار يصرخ داخلها يطالبها بالعودة إلى لندن لا نتزاع طلاقها من «جافيد»... إحساسها بالذنب يُخيفها بل يرعبها.. إنَّ وجودها مع سليم ومعاشرتها له خيانة، جريمة كبرى تستحق عليها الرّجم.. قصّت عليه أزمته وشعور بالمرارة يكاد يقفز من جوفها، لقد خانت زوجها وهي من تتشدد دوماً بالطهر والعفاف، لم يكن يومها في مزاج حسن يتيح له استيعابها والطبوبة على روحها الحادة، لم تجده صبوراً كما اعتادت.. أفضت بما في حلقها ووقفت تنتظر رده.. طال صمته المطبق و طال، حينها ضمّت كفيها لوجهها وبكت، ثم فجأة وبكل ما أوتيت من قوة وقفت أمام ابن أبو ستين تواجهه بحقيقته البشعة، هو أيضاً خائنٌ وضيع، كلاهما مخادع أفّاق، كلاهما مهزوم في إنسانيته، مغموس بالخزي تماماً كالرغيف المغموس في الوحل، لا يمكن أن يشتهييه أحد!!

فالحديث الذي يخرج عن نطاق الروح بعد نوبة بكاء هو حكايةٌ مُعلّقة وقنبلةٌ موقوتة..

قالت له بحدة: لا يمكن تقبل إن مراتك تخونك مع إنك بتخونها في كل مرة بتبص بعينيك على واحدة غيرها.

فأجابها منفعلاً: ملكيش دعوة بمراتي ومتجيش سيرتها على لسانك.



: ليه؟ عشان هي أشرف مني وألا أشرف منك؟ صدقني
يا سليم مسيرك تشرب من نفس الكاس..

تركته وإلى لندن عادت نادمة، فلا قدرة لأحد أن يقف في
وجه حقها وأدميتها.. لا قدرة لأحد أن يقف أمام امرأة ثائرة
لإنسانيتها تبغي استرداد طهرها وعفتها..

أما سليم فتعمد نسيانها فلم يبق له من تجربتهما سوى
خيبة يتعذب بها وحده، ملعونة كل لحظة يتخبط فيها.. إنه يُشعل
الحرب داخله ثم يكتوي بنارها..

للحق لقد خشي أن تفعل به نؤارة ما يفعله بها!!
أراد أن يركض نحوها يمسك بتلابيبها ثم يخطفها إلى
حضنه ويحفظها هناك..



تزامن ذلك مع وصول «مالك» بصحبة «سدر» إلى
القاهرة لقضاء إجازة، بضع أسابيع للاستمتاع والتنزه في أرجاء
مصر العامرة ولللاطمئنان على صحة ماما «ميرفت» ريثما تستقر
أوضاعها الصحية.. إن مالك يفكر كثيرًا في الزواج والأطفال
والبيت والأسرة... لم يكن يفكر من قبل بتلك الأمور لكنه بات
حريصًا عليها يشق إلى اللحظة التي تمرر له «سدر» خبر



حملها، يريد أن تتعرف أمه وأخته على زوجته المستقبلية وربما استطاع إقناعها بالزواج منه في قلعة صلاح الدين أو قلعة قايتباي أو على متن باخرة نيلية بين الأقصر وأسوان، كان لزاماً عليه أن يعقد صفقة معها، سقيمان في القاهرة كصديقين ليس أكثر بعدها وعند عودتهما مباشرةً إلى باريس إمّا تتزوجه وإمّا يغادرها إلى الأبد، فالفرص لا تأتي مصادفة بل نحن من يخلقها، وزواجه منها فرصته للسعادة وعليه أن يحققها..

كانت تزعجه تلك الأخبار التي تصله عن غراميات سليم بينما ترفض نوري تصديقها، بالأحرى ترفض الإقرار بها.. يعرف أنها لم تحب أحداً بقدر ما تحب ذاك الغبي..

زار أخته في بيتها الجديد، كانت فيلا كبيرة بحديقة أمامية رائعة بها كل الورود التي تحبها، وشجيرات الريحان الذكية تترامى هنا وهناك، الفيلا مليئة بتفاصيل كثيرة بسيطة لكنها مبهجة، تفاصيل تشبه نوّارة... الألوان متناسقة كلّها حيوية والأثاث ذو طراز أنيق ومريح، يبعث على الحياة.. أخبرته «نوري» أن غرفة واسعة في الطابق الثاني تمّ تجهيزها له وأخرى إلى جوارها خصّصت لسدرة.. ترحيبها الدافئ بضيفتها جعلها تشعر بالراحة والألفة.. وفي المساء تعرّفت «سدرة» على سليم أبو ستين



«صاحب الدار والدعوة»، وجدته ذكيًا لبًا للغاية، يختار حروفه بعناية، يتحدث الفرنسية والإنجليزية والألمانية بطلاقة، يحمل في يده دومًا كتاب لكافكا وكوبًا من القهوة..

قربت الأيام بسرعة بين نوري وسدرة التي شعرت أن مضيقها ليست بخير، تتمهل شيئًا لا تعرف ماهيته تحديدًا.. لكنّها على كل حال تعاني سأمًا تفشل معه كل محاولات التخفيف عنها.. اقترحت عليها «سدرة» أن تعمل، أن تنال حقّها في الحياة، حقّها في الاحتكاك بالدنيا ومخابرتها من جديد، حقّها في أن يكون لها عالمها، وأفكارها، أصدقائها، حقّها في أن تكون حيّة.. إنّها تحتاج لأن تكون نفسها دون أن تكتفي من الحياة بأموئتها لطفل لطيف يغزو العالم بسنواته التي أوشكت أن تكون سبعا وبشقاوته وصوت عزفه على البيانو وركلاته القوية لكرة القدم.. على الإنسان دومًا أن يكون لحوًّا في رحلة بحثه عن سعادته، وألاّ يكتفي برؤية واجهة واحدة من واجهات الحياة، ربّما يبتعد عنها سليم أو تشعر هي أنّه مبتعد عنها لغياب كيانها واختفاء كينونتها، عليها خوض التجربة؛ فعلى كل حال لن يتغير حالها إلى الأسوأ.. فاتحت نؤارة زوجها في أمر العمل، امتنع وجهه وراح يبحث عن كل سببٍ يُعيقها عن العمل ليطرحه



أمامها، أي عمل يمكنها القيام به وقد حصلت للتو على ليسانس الآداب ولا خبرة لديها في شيء؟! «صالح» كيف ستسير حياته ومن سيعتني به أثناء غيابها؟ لِمَا الآن يشغلها الأمر وما الدافع الحقيقي وراء رغبتها؟! وبقدر ما سرَّها اهتمامه وغيرها وامتضة لمحبتها في عينيه بقدر ما أزعجتها رؤية أنانيته وعناده!.... إنَّه لا يعرف شيئاً عن تلك الليالي التي تدس فيها رأسها تحت الوسادة تتظاهر بالنوم بينما ترى عيناها أصابعه وهي تتحرك على شاشة محموله ينقر الحروف يصيغ رسالة لهذه أو تلك؛ فتعصر هي أصابعها، تفرکہا غيظاً وتبكي في صمت!... أخبره عن عيدان الريحان التي تدسها بين ملابسها المطوية في الخزانة لتشم رائحة أيامهما القديمة حين كان يوقظها مداعباً خصلات شعرها، عنقها، وجهها بريحانةٍ يمسكها، يروح ويجيء يرسم إحدى لوحاته أو يكتب حروف اسمه على ترقوتها البارزة.. إنَّها تحبه وتخاف جداً أن تكرهه... فالأشد فتكاً من القتل العمد الإهمال المتعمد..

أي ذنبٍ اقترفته حتى يعاقبها بحرمانها من حقها الخالص فيه؟! فتح مواضيع كثيرة في تلك الجلسة، ثرثر كثيراً وتنقل بين المواضيع بسرعة وكأنَّه يلهي طفلة صغيرة عن لعبة تعلَّقت بها تريد شراءها.. تأملها وكأنه يبحث في ملامحها عن السبب



الحقيقي لطلبها المفاجئ بينما راحت تفكر لماذا يتجاهلها إن كان حقاً يخشى خسارتها؟!

أخبرتها سدره أنَّ الحياة لا تليق إلا للشجعان، للأقوياء، فالحياة لا تحترم الجبناء ولا تهدد الضعفاء.. الحياة والرجال لهما نفس المنطق.. نَوَّارة تحتاج إلى كثير من الجرأة لتعامل سليم بنديّة، دون الوقوع تحت وطأة الخوف من خسارته.. تحتاج إلى كيانٍ جديد ونفس جديدة وتاريخ جديد.. والتاريخ لا يصنعه الضعفاء..

إنَّها تحبه حبّاً خالصاً لا نقص فيه لكنها مكبلة، مقيدة بخوفها من خسارته، ألَمها من خياناته، وجعها من ماضيها.. عجزها عن مواجهته..

يا الله... ما الذي يفعله بنا الحب ومن نحبهم؟ بأيديهم يصنعون قهوتنا الحلوة ثم يفسدونها بملح التجاهل والأنانية فتصير مُرة.. في لحظة يمنحونا شمس الصباح وبهجة الليل وفي اللحظة التي تليها يهيلون علينا التراب حين يغلقون في وجوهنا باب السعادة! هل كان زواجها من سليم خطأ جسيماً، ذنباً لا يغتفر، إنَّه رجل تشوبه الذكريات، رجلٌ خليطٌ من ماضيٍ عكر وحاضر متأزم ومستقبل مجهول..



وفي صباح أول يوم عمل لها ولأول مرة منذ زواجهما وقف
سليم يُعد لها قهوتها الفرنسية كأنّه يرسم لوحة لا فنجان قهوة..
كانت تتأمله ثم التقطت له صورة كعادتها.. وضع الفنجان أمامها،
سألها أن تذوقه، للحق كان أفضل فنجان شربته في حياتها،
فنجان حُضّر بإتقانٍ وتفانٍ..

سألها مبتسماً: إيه رأيك؟

دون تردد قالت: شابوووه، مفيش أحسن من كده.
لمعت في عينيه نظرة المنتصر، طفلٌ سليم، طفلٌ جداً...
لكنه طفلٌ عنيد..

عاود يسألها: هتخلصي النهاردة الساعة كام؟
: أنا عندي كلاسين بس النهاغدة، هخلص على الساعة
ثلاثة، ليه؟

: أبداً، أصلي هعدي عليكِ نروّح سوا.
: غغغغ، إنت عمغك ما بتخلص شغل قبل ثمانية تسعة
بالليل، إزاي هتجيلي الساعة ثلاثة.
رمقها بنظرة استغراب وأردف: إنت زعلانة عشان همشي
من المكتب بدري وأجيلك؟!



بسرعة أجابت: حبيبي ماتفهمنيش غلط، مش زعلانه طبعاً،
بالعكس.. بس أنا مش عيزاك تتشغل بمواعيدي و...
قبل أن تكمل قال: وإيه؟ أومال عيزاني أسيبك تيجي بتاكسي
من مصر الجديدة للشروق؟ ياهوصلك ياماتنزليش أساساً.
كانت تخاف أن ينتهي ما بينهما بغضب صامت.. فقبلت
شرطه مستسلمة!.

وفي مصر الجديدة، في الأكاديمية الحديثة للفنون والرشاقة
كان عملها، لم يكن سليم ليترك لها مجالاً لتعمل مع أشخاص لا
يعرفهم ولا يطمئن لنواياهم..

مرَّ شهرٌ وهي تخرج معه صباحاً إلى أكاديمية أخته «شهد»
التي أسعدها جداً وجود نؤارة في المكان ورأته إضافة رائعة
لفصول التربية البدنية «الأيروبكس والجمينيزم».. ف «نوري»
ذات باع طويل وخبرة عملية أكسبتها رشاقة وليونة لا تُنكرها
عين، لكنَّها اشترطت عليها الحصول على دبلومة متخصصة في
الرياضة العلاجية واللياقة البدنية، وساعدها بالفعل في الالتحاق
بدورة تدريبية دولية عبر الإنترنت وأخرى عملية انتظمت نوري
في حضورها منذ الأسبوع الأول لها في الأكاديمية.. يُنهي سليم
عمله ويغادر وكالته تبعاً لجدول زوجته الزمني، يسرع إليها



ينقلها إلى مدينة نصر حيث الدورة التدريبية التي تدرّس ويظل جالساً في إحدى الكافيتريات بالجوار حتّى تنتهي «نوري» فتهاتفه وفي دقائق يكون بانتظارها بسيارته أمام الباب، يعودان بعدها إلى الشروق، فتصرف نؤارة تُصرف شؤون بيتها بمهارة منقطعة النظير، بعدها تجلس إلى «صالح» يستذكران معاً دروسه، تمنحه حمّاماً دافئاً ثم تضعه في سريره ليقصّ عليه سليم حكاية ما قبل النوم.. كانت تعلم أنّه حانق، لكنها وجدته صامتاً كعادته.. تريد أن تضربه ثم تحضنه لكنها لم تفعل..

باح سليم بغضبه لأخته، بدا كل ما بداخله يفور مع كل كلمة، لم يطاوعه قلبه أن يحكي لها كيف وأين التقى نؤارة.. إنّهُ لا يشك مطلقاً بها ولا يشكي من سلوكها، لكنه وإلى الآن مازال رجلاً متخلفاً، رجعيّاً بعد كل ما عاش، بعد كل ما رأى، بعد سفرياته وقراءاته وكل خبراته، مازالت أشباح الماضي تطارده، أشباح فلان وعلان الذين عرفتهم نؤارة قبله.. أشباح الماضي التي لا يُمكن تجاهل وجودها.. ماضيه وماضيها!!

وبهدوء قالت شهاد: إنت بتغير يا سليم، بتغير عليها جداً، والغيرة ملهاش معنى غير الحب، بس ياترى الحب ده حب حقيقي وألا حب امتلاك؟؟ يوم ماتعرف تجاوب على السؤال ده هترتاح.



وفي الصباح أرسلت شهد سائقها ليحضر نَوَّارة إلى العمل بدلاً من أخيها ثم يوصلها إلى فيلتها حين ينتهي عملها، داومت تفعل ذلك لأسبوعين متتالين حتى أخبرتها نَوَّارة وهي تضحك أن سليمًا اشترى لها سيارة وخصَّص لها سائقًا أمينًا في الخامسة والستين من عمره..



وفي أحد فصول الأيروبكس تقربَّ إلى نَوَّارة شاب أشقر البشرة، أرجواني الشعر، عيناه في لون الزرع، يتسم لها دائمًا في ودٍ ويقابلها بحبور، قدَّم نفسه إليها بكلمات منمقة، إنَّه «سام»، سامي الباجوري، طيار مصري بخطوط الطيران الإماراتي، التحق مؤخرًا بمجموعتها التدريبية حفاظًا على رشايقته... سألها أن تشرب معه القهوة كعربون صداقة فاعتذرت..

إنَّه رجل ثلاثيني في قمة الوسامة والجاذبية، صوته مرح وحديثه شيق لكن من الواضح أنَّه يُشاغلها، ويطمع فيما لا يمكنها منحه.. إنَّها جريمة في حق سليم وفي حق نفسها أن يكون لها علاقة برجل غيره حتى إن كانت علاقة صداقة بريئة هي أحوج ما يكون لها، فقد رجعت «سدره ومالك» إلى باريس وانشغلت والدتها عنها بضمور في العضلات أصاب زوجها وبلخبطة



في اللسان ترهقه وصعبت معهما حركته وكلامه.. باتت لا تفارقه أبداً إلا في ساعات النوم..

لم يكن من السهل على نؤارة أن تعرف أو تُصادق رجلاً غير زوجها.. إنها لا تريد أن تزيد عالمها الضيق معه ضيقاً..

أقسمت يميناً لروحها أن تكون له وحده وإن طوت عمرها شيئاً لن تكون لغيره.. وفي عميق وجدانها تردد وآهاتها معها... «بداخلي دنيا لا أعيشها بدونك وبداخلك دُنا تعيشها بدوني كل يوم يا رجلي الوحيد»..



كانت مُحقة في توجساتها، فـ «سام» عاشقاً لها متخم هو بها، التحق خصيصاً بمجموعتها التدريبية الصباحية والتي لا تلائم نهج حياته لا شيء سوى أن يكون بجوارها.. سكتته واحتلت وجدانه منذ رآها صدفة تجلس على إحدى الطاولات في كافيتريا الأكاديمية، كانت تتحدث في محمولها بصوت خفيض، أنهت المكالمات وعلى وجهها ابتسامة فبدت كالقمر وقد تألقت عيناها بوميض خفي..

ملعون هو الحب، فاسدة هي سياسته.. إنه رجل في الرابعة والثلاثين، رأى وعرف واختبر الكثيرات من النساء في أغلب بلاد العالم لكنها وحدها، «نؤارة» من اخترقت قلبه، أنثى غير عادية



تضرب القلوب بحيويتها، تتحدى بجمال عينيها وعمقهما نساء الأندلس.. إنها المرأة التي أسرت قلبه وهوت به في فخ الغرام.. مَنْ تراه يمتلك الشجاعة لمقاومتها؟!

متزوجة.. يالها من صدمة، محظوظ هو زوجها، وحده ودون غيره يتمتع بتقيل وجهها صباح مساء.. يكاد «سام» يموت حزناً من فرط قسوتها معه وتجاهلها له، إنها بخيلة الكلام، كتومة وكأنّها تعيش في صندوق زجاجي مغلقٍ يتمنى أن يفتحه، إنّه قادر على انتشالها من صندوقها ليُخلّق بها في آفاق الحرية ويُريّها من العشق ألواناً ومن الهوى أهوالاً... إنّه رجل يزيده الصد عشقاً ويزيده العشق تورطاً ويزيده التورط تمرّداً..

سام لا ييأس عن طموحه مادام الهواء يملأ رئتيه.. راح يبحث ويفتش عن سيرة زوجها وكيנותه، عساه يقع على ما يُمكنه من النفاذ إليها وإلى دائرتها.. وكان من السهل جداً أن يصل إلى ما تمنى، فسليم ودون أن يعلم منح «سام» أكثر ممّا تمنى.. فقد عادت «حور» التي لم يتوقع ابن أبو ستين أبداً عودتها بتلك السرعة، تطالبه بالإيفاء بعهده.. لقد خاضت معركتها ضد «جافيد» ودفعت له ثمن حريتها ثلاثمائة ألفٍ جنيه استرليني، وهاهي أمامه خالصة، فكيف لرجل يدب بقدميه في قلب امرأة خذلها الحب سابقاً أن يخذلها مجدداً وتسمح هي بذلك؟.



هل كانت تلك الأحداث كلها صدفة مدبرة أم صدفة
مربية من القدر؟؟

كانت ميرال أمنيته لكنّها راحت هدرًا وجفاءً.. كانت نوري
صدفة عابرة في حياته لكنّها تأصلت في نفسه حينًا وانتماء!!
يهرب منها بقسوة رغم وجوده معها، ويفزع من غيابها
عنه حتى وإن كان الغياب مجرد فكرة..

يهملها بتعمد، يرهقها بهروبه، يعذبها بخياناته لكنه يظل
يتأمل فرحتها حين يعود إليها كفرحة طفل بنهار العيد، يهجرها
مبتعدًا كما يهجر الطير عشه بينما رجل آخر يتمنى لقاءها كما
تتمنى الطيور المهاجرة عودتها من وطن الشتاء..

ليت الحب يموت ويصير ذكرى توضع في قبر النسيان..
فقد تدفعك امرأة واحدة لأن تحب مدينة كاملة، حي حي،
وشارع شارع، تحب أصحاب الدكاكين والباعة الجائلين،
تحب بيتها وجيرانها، أهلها ووالديها، وفي خيالك ترى غرفتها
وألوانها، تشرب قهوتها وتقرأ كتابها.. تسمع موسيقاها، تحفظ
عينك دولابها ودميتها، أوراقها ورسوماتها، وجهها، شعرها،
عينها وأهدابها، خدودها وشفاهها، عنقها وشاماتها، امرأة
واحدة يُختصر لك فيها العالم أجمع، الكون بطوله وعرضه



واتساعه يقف على كتفيها.. تصير هي لك حالة إدمان لا تتكرر
ونهر هذيان لا يتوقف وقطع سكر لا تذوب..



إن أصعب النهايات تلك التي تحدث دون سابق إنذار، فكم
من قصص غرام انتهت في لحظات تعيسة بوداع أو دونه، لكن
ثمة نهايات تبقى عالقة في الذاكرة تفتك بنا في صمت..

كم من مرة تقبّلت «نوّارة» خيانة سليم لها، وكم من مرة
تغافلت عمّا وصلها وما سمعته مادام هو لا يعرف أنّها تعرف، في
كل مرة كانت تسخر ممّا عرفت، ولا تأخذه مأخذ الجد، ترفضه،
تكذّبه بل وتنفيه، فالأمر مُهلك لها، فإن اعترفت بصحته توجب
عليها مواجهته.. اعتادت أن تسمع قصص وحكايات تُعسها حيناً
وترهقها حيناً؛ فتهرع إلى رجلها تتحسسها، تضمه إلى صدرها
تؤكد وجوده، وتسأله أن يضمها، يمسح على ظهرها... لكنّها
ولا مرة رأت بعينها حقيقة وضعها..

يغادرها إلى عمله وتغادره إلى عملها فيبقى نصفها عالقاً به
رغم عنها، والنصف الآخر عالقاً بولده..

سألها أمّها مرة بتعجب: إمتى بقيتي ضعيفة كده، خاية
كده؟؟ هو سليم ده إيه؟ عاملك عمل، بلاش خيابة فوقى
ووقفه عند حدّه؟؟



وبمتهى الهدوء أجابتهَا: أنا بحبه يا مامي، والحب مش اختياغنا ولا بإيدينا، سليم الغاجل الوحيد اللي شافني من جوا قبل بغا، شاف عيوبي قبل مميزاتي، أنا بحبه ومصدقه جدا إن جواه بيحبني، حبّ واحد قبلي آه، اتجوز غيغي وخلف منها آه، لكن أنا، أنا بس اللي هفضل معاه وهيفضل معايا عمغه كله.

تؤمن «نوري» أن الله هو مَنْ جمعها برجل قلبها فما عساه يفرقهما؟! ثم أنها أبداً لن تكون هوجاء غيبة وبنفسها تحرم صغيرها من أبيه، لن تمزق صالح يديها وتشتته بين بيتين وعالمين وكوكبين، لا تريده أن يعيش فقداً كفقدها، لن تسقيه من كاس عذاب تجرّعته، فلما يديها تزرع في قلبه البريء الشوك والحنظل؟!!

لكن صفعه قوية ضربتها في وتين قلبها..

حاصرت «حور» سليماً، وعلى مرأى ومسمع من موظفي وكالته راحت تطوّح رسومات وتصاميم العمل، إنها لن تهرب مجدداً ولن تقبل أن تكون مجرد امرأة طالها في ليلة صيفية حارة حين ثملا معاً.. إنه جولتها الأخيرة في سباق أن تكون أو لا تكون، جولة لا تحتاج لمكرٍ بقدر حاجتها إلى مصارحة ومواجهة.. أمهله خمس أيام ليتزوجها علناً وإلا...!



إنَّها التجربة الثالثة لها ولن تكن فيها الخاسرة الوحيدة
إن خسرت .. سُمعته، اسمه وبيته كُلُّها ستدخل ضمن المعركة
والرهان .. ستقاتل من أجل الحصول على غنيمتها ومُرادها ..

لم يسمع سليم صراخها، ولم تستفزهُ آهاتها، ولم تقلقه
تهديداتها، فعلى كل حال لن يوقع على عقد زواجه بها إلاَّ إن
أراد ذلك حقًّا، فهو قد خبر هذه التجربة مرتين سابقًا، مع «ريماس»
و«إيمي» ولم يتزوج إحداهن ولم تفلح واحدة في ابتزازه ..

لم يغوها سليم، ولم تقاوم هي غزوه لها بل احتضنته
وأحكمت حصارها الولهان عليه ودَعَتُهُ أَنْ يفعل، فحطَّ رحاله
بموافقتها وقرَّرَ ألاَّ يبرحها حتى انتفضا معًا وراح كل منهما
يمسح العرق الذي غطى وجه الآخر وبَلَّل شعره، لم يكن
شيطانًا ولم تكن هي ملاكًا!!

لقد وجدت فيه بلسمًا احتواها واحتوى هزيمتها وألمها
وحاجتها ثم انقَضَت الحكاية، كلاهما راوغ من أجل الحصول
على الآخر ..

ياالله، كيف يستطيع سليم أن يقتل قلبها بهذه الطريقة الباردة؟!
انقضت المهلة، جمعت «حور» أطراف قوتها وإلى نَوَّارة
ذهبت تلعن سليم مع كل خطوة تخطوها ..



فغرت «نؤارة» فمها وهي تسمع ما تصبه «حور» في أذنيها،
شريط من الذكريات والأحداث يمر بسرعة أمام ناظريها..
داخلها يحترق..إنها تموت..

لا تستطيع الرحيل لكنها أيضًا لا تستطيع البقاء، تتمزق
بينهما فتكاد تصير أشلاء.. لأول مرة تشعر بخوف حقيقي، خطر
حقيقي، فقد حقيقي صغر معه كل فقد كان.. جاء اليوم الذي
كانت تخشى مجيئه وتحتّم عليها المواجهة.. هل كان زواجها
بسليم محض فراغ؟.. شيء فيه كان يدعوها للبقاء والاستمرار
والتعاش، يكفيها أنه يعرف كيف يُقيها، يحفظها مشدودة نحوه،
مرتبطة به وبيته وقلبه، يحرص على أن تظل كل قصصه الالهية
بعيدة تمامًا عنها وعن بيته.. عن مملكتها الهادئة..

في سنواتها معه لم تكن تسمح لنفسها أن تحترق بنيران عمله،
عالمه الواسع، علاقاته اللامتناهية، انشغاله الدائم.. مرّت باختبارات
عديدة تجاوزتها كلها بنجاح رائع وثبت معها صبرها ونضجها، سعة
أفقها واتساع عقلها، وقبلهم ثبت معها حبها ووفائها وإخلاصها..
بالسخرية القدر لقد عرفت ما عرفته في مثل يوم مولده..
الخامس عشر من مارس، لقد بلغ حبيبها السادسة والثلاثين ولم
تجبه إحداهن مثلما أحبته نوري.

بوجوده أصبحت قديسة..روحها طاهرة من كل الخطايا..



جمعت بعض ملابسها وملابس وحيدها في حقيبة تستطيع
جر جرتها، كان المطر يتساقط خارجاً في نادرة، فقلماً تُمطر في مثل
هذا الوقت من العام، ربّما أراد الله أن يغسل قلبها من ذاك العشق
الأسود كما يغسل المطر أوراق الشجر، وخزت الدموع عينها
واعترضت حلقها غصة شديدة وهي تطالع صورة كبيرة لهما بجوار
مرقدتهما، راحت ترتب الكلمات في عقلها وتردها في باطنها.. لا
تدري ماذا تكتب له، تسابق الزمن تريد أن تغادر بيته قبل وصوله..
فمن يُرسل قلباً إلى ذاك الحُزن العميق كيف يبقى مطمئناً
بعد ما فعل؟!

ورقةٌ صغيرة طويت نصفين تركتها فوق وسادته، حملت
بين ضلفتيها عود ريحان كتبت عليها بخطٍ مرتعش.. «المرءية
مش هقدر أضحك على نفسي وأغمض عينا.. أرجوك طلقني»..
ما كان قلبها يهوى فراقاً لكن هواه كان ثقيلاً ضيقاً يحمل
في ثناياه الوداع... أدركت بعد فوات الآوان أن وجودها لا يشكل
فارقاً عنده وهو من يضيق بغيبابه عالمها حتى يخنقها الغياب..
كرهت أن تظل نقطة في آخر السطر، مجرد نقطة وهي تستحق
أن تكون السطر كله..

قرأ سليم ما قرأ فاندفع كالسهم إلى خارج الفيلا، يريد لقاء



«نوري» التي تكوّمت فوق سريرها في شقتها «بالرحاب» مرتجفة تشعر بشهب تحرق قلبها، أعصابها، وكيانها كله، بجوارها يرقد ابنها كمالاً.. ابن الرجل الذي اعتقدت خطأ أنها به قد تصالحت أخيراً مع نفسها، وانقشع ظلامها الذي كادت معه أن تتعفن في إحدى زوايا العمر..

ما الذي عرفته نؤارة تحديداً؟ ماذا فعلت حور المجنونة؟... وبرب السموات أقسم سليم أن يحرق قلب تلك الملعونة كما أشعلت النار في قلب زوجته... ليلتها وليلتها فقط بدأ يفكر جدياً في حياته ومصير زواجه من اللثغاء صاحبة أجمل ابتسامة.. وأمام باب الفيلا وفي سيارته وجدها جالسة.. هاهي أمامه.. وبعبسية اندفع يشدها من يدها يُخرجها خارج سيارته، حاولت أن تفلت من مسكته وهي تضحك، تعلّقت في رقبته وهي تترنح، تقترب أكثر وأنفاسها تشتعل حرارة قالت: بوسني..

لمعت عيناه بنظرة ثاقبة أخافتها لوهلة، أزاح يديها عن رقبته وهو يقول: إنت أكيد اتجننتي، إنت جايه لغاية هنا سكرانة؟ احنا في الشارع!

: أنا جيت هنا عشان أشوفك، وأقولك أدام مراتك إني مش هسيبك، هتجوزك يعني هتجوزك إنت بتاعني أنا... قالتها وهي



تتمنى لو يأخذها إلى صدره ويعصر شفتيها بقبلته.. ودون وعي
صفعها.. لاشيء في رأسه آنذاك سوى رغبته في التخلص منها..
دفعها داخل سيارته وبسرعة جلس خلف المقود، وأمام بيتها
سألها أن تنزل، أن تغادر، وألاً تحاول لقاءه ثانية، لا هو ولا زوجته..
هل تتغير المشاعر بهذه السرعة؟! كانت حور كالمشدوهة
أمام سليم، لم تره يوماً يحدثها بهذه الصرامة والحزم.. بدت كأنها
تتذلل إليه، تتوسل.. لقد فقدت كل شيء، أهلها، زوجها، حبها،
شرفها وعفتها، تقف كسيرة أمام رجل لطالما تقرب إليها طالباً
حبها، تحدثه باللهجة المصرية لأنه سألها راجياً أن تفعل.. فما
هذه العنجهية القصوى التي يعاملها بها الآن؟! إن رفضه لها يسحق
ضلعوها.. هل ستعود إلى حيث آتت تجر أذيال الخيبة مجدداً؟..
فيا تراه كان أوجاعها الحلوة وغلظتها الصبح، أم كان
حلواها السامة وصوابها المريع؟!

كان جسدها يتنفّض، إنَّها على شفا انهيّار كبير.. في لحظة
شيطانية، لحظة اسودت فيها الدنيا أمام عينيها، سحبت مسدسها
من حقيبة يدها، صوّبت فوهته نحوه وسدّدت ضرباتها.. لم يكن
قد استدار بسيارته بعد، ثلاث طلقات استقرت في صدره وكثفه..





شعرت نَوَّارة بقلبها يقفز حين ارتفع رنين هاتفها، ومضت شاشته باسم «سولي»، مهما بلغ غضبها لم تكن لتتجاهل اتصاله، كان المتصل أحد رجال الإسعاف، فقد ضغط الرجل متصلاً على أول رقم في قائمة اتصالات المُصاب..

كانت تلك أطول ليلة مرّت على نَوَّارة طوال حياتها.. تسمّرت واقفة تسند رأسها إلى جدار الممر الطويل أمام غرفة العمليات.. استمرّت ابتهالاتها ودعواتها ورجاواتها تتردد في قلبها وعلى شفثيها، تهطل دموعها بلا انقطاع، بينما سيطر الذهول على «شهد» التي زادت حالتها ارتباكاً حين سقطت «نوري» إلى جوارها فاقدة الوعي.. (ما العمل؟ متى وكيف ولماذا جرى ما جرى؟) اقترح عليها «أسامة البرنس» صديق سليم أن تتصل بزوجه المهندس «زين» ليأتي في أسرع وقت ليتوجه إلى قسم الشرطة لمتابعة التحقيقات، فعلى أحدهما متابعة التحقيقات بينما يستمر الآخر متواجداً بجوار سليم..

وفي السادسة صباحاً حضر زين زيدان من شرم الشيخ في طائرة خاصة تخص أحد عملائه الكبار تاركاً اجتماعاً هاماً ليقف على تطورات الأحداث خطوة خطوة..

تسرّب الخبر ولم تمر ساعات حتى عرف أفراد وكالته كلهم،



الجيران، والمعارف.. الشرطة استعدت موظفي المكتب، شهدوا جميعاً بما رأوا سابقاً وما سمعوا، العلاقة الغرامية التي ربطت مديرهم بالمصممة الخليجية الموهوبة لشهور ست غادرت بعدها إلى لندن فجأة، غابت فترة ثم عادت تحاول استئناف العلاقة، تعددت زياراتها للمكتب بينما شهدت علاقتهما توتراً حاداً ومشاجرة علت فيها الأصوات وتبادلا فيها الاتهامات، انتهت بأن طُردت «مدام حور» من الوكالة وأصدر سليم أمراً لطاقم الأمن بعدم السماح لها بالدخول مرة أخرى..

تطابقت الأقوال واتفق الجميع على كونها شخصية عصبية، مزاجية إلى حد كبير، ذات كبرياء حاد أقرب إلى الهوس، دوماً كانت تفضل الجلوس في ركنٍ ذي إضاءة خافتة، نادراً ما تبسم.. بينما كانت المتهممة تجلس منزوية في غرفة ضابط الشرطة، ترفض بشكل قاطع الإجابة على أي سؤال حول الحادث، ظروفه، أسبابه ودوافعه..



انهار جسد نَوَّارة المكدود الذي لم يتحمل ما تعرّضت له صاحبته من قلق وتوتر في غرفة بنفس المشفى الذي يرقد فيه زوجها طريح الفراش في غرفة العناية المركزة، الحالة حرجة فقد انتزع الأطباء رصاصتين من الكتف وثالثة كانت قد استقرت على



بعد ستيتمتر بجوار القلب، عانى سليم من نزيف حاد استوجب وضعه تحت الملاحظة المكثفة لفترة حتى تستقر الأوضاع بشكل مرضي آمن..

في الصباح التالي دخل الصغير «صالح» إلى غرفة أمه بصحبة عمته الطيبة، وإلى جوارها جلس واضعاً كفه الصغير على جبهتها يقرأ الفاتحة، استيقظت «نوري» وبصوت يكاد يتقطع إعياء قالت: سليم، أخبره إيه؟

ربتت شهد على كتفها قائلة: الحمد لله الدكاتره خرّجوا التلات رصاصات، بس لسه في العناية لحد ما الحالة تستقر.. اطمني.

التفتت نؤارة إلى ابنها تقول: حبيب مامي إنت كويس؟
أجابها مبتسماً: أنا كويس يا مامي، قاعد عند عمتو لغاية ما تقومى بالسلامة.

رأى دمعة تجمّعت في زاوية عينيها فاستدرك قائلاً: متخافيش يا نوري ومتعيطيش، بابي هيخف ويبقى تمام، الدكتور قالى كده وأكيد هو مش بيكذب، صح يا مامي؟؟

ثم التفت إلى شهد يقول: صح يا عمتو؟؟ أو ماتت نؤارة برأسها توافقه، بينما احتضنته شهد قائلة: صح حبيب عمتو، بابي قوي ودايمًا يشرب لبن وياكل كويس ويلعب رياضة، إنت ناسي إنه صعيدي جامد وصحته حديد.



وفي مكان آخر من العالم سيطرت الكآبة على الصغيرة «وعد» حين انقطعت عنها اتصالات والدها، لم تكن حالته الصحية تسمح، شعرت بخوف أكبر حين واصلت الاتصال به لثلاث أيام دون أن يُجيب ولو مرة واحدة على مكالماتها ولم تكن تلك عادته.. وبسنواتها الست راحت تسأل روعة أن تتصرف.. لا أحد يملك أن يحرم طفلة حقها في والدها..

هاتف «ريكا» شهداً وللحق لقد أزعجها ما عرفت وشعرت بمعدتها تزداد اضطراباً.. تقلصات شديدة في القولون أجبرتها على التزام السرير.. إن مُصاب ابن عمها ووالد وحيدتها عكّر حياتها.. أنبها ضميرها على حرمان «وعد» من أبيها دون أي ذنب.. ناقشت الأمر مع نفسها قرابة الساعة.. ماذا لو فقدت صغيرتها أباه دون أن تودّعه؟ دون أن تراه للمرة الأخيرة؟؟

مؤمنه هي إيماناً قاطعاً بحق ابنتها في «سليم».. لذا طارت عائداً إلى مصر وقد تزعزت قناعاتها بضرورة ابتعادها عن رجلٍ أساء لها يوماً.. فالمُصاب أكبر من كرامتها..

احتوت «شهد» الموقف وتعاملت بجدارة مع زيارة روعة ووعد إلى القاهرة، رتبت أمورها حتى لا يتأزم الموقف إذا ما قابلت روعة نؤارة.. نزلا في فندق بالقرب من المستشفى حيث



«سليم»، فاسترخت مخاوفها عليه واطمأنت تدريجياً إلى استقرار حالته.. والمدهش أنه ورغم كل الحذر وبفريق توقيت طفيف غاير ما دبّرت «شهد» تصادفت المرأتان في استراحة الممر المؤدي لغرفة مريضهما.. جاهدت «روعة» لتحفظ بهدوئها، ودون أن تقصد نؤارة أثارت داخلها زوابع من ذكريات ألمتها، تلك هي «نؤارة» اللثغاء الغنجااء التي خطفت فرحتها وبترت استقرارها مع وهم كبير اسمه الحب الأول.. ربّما لولاها لظلّت حتى هذه اللحظة زوجة لسليم، ففي قرارة نفسها لم تكن قد صدّقت بعد أن قصتها العاطفية قد انتهت على ذاك النحو المؤلم... بينما ابتسمت «نوري» بلطفٍ وتحفظ، لم تحاول أبداً إثارة غير «روعة» بل أنّها وبمودّة صادقة اقتربت من «وعد» تُلطفها، فالتصقت الصغيرة بوالدها ثم رفعت حاجبيها تسأل: حضرتك مرات بابي؟ وقبل أن تجيبها نؤارة سحبتها أمها من يدها قائلة: يلا يا دودي عشان ندخل لبابي.. تحرّكت «وعد» مستجيبة، مازالت تحدق في «طنط» اللطيفة جدّا، الجميلة جدّا جدّا التي وقفت تلوح لها قائلة: باي باي دودي..

استمرّت «ريكا» تزوره يوميًا في نفس الساعة التي تظمن فيها إلى وجود «شهد» هناك حتى لا يتكرر لقاء الأمس..



وفي خيالها أخذت تتأمل مَنْ كانت ضررتها بِرِوِية، إنها رهيفة الملامح، مشتعلة الأنوثة، كل شيء فيها مصنوع بدقة ومُركب بعناية.. لقاءها بها أيقظ كل المشاعر التي ظنّت أنّها دفنتها في أعماقها؛ فطفقت على السطح لتخزها خزاً... وفي نفس اليوم الذي استعاد فيه «سليم» الوعي وانتظمت ضربات قلبه زارته طفلة الجميلة ذات الملامح الناعمة بحاجبيها المرسومين بإرادة ربّانية وشعرها الكستنائي المنساب الملامس لكتفيها الدقيقين في فخر وعذوبة.. ابتسمت «روعة» حين وقعت عيناها على سليم.. بادلها الابتسامة وبضعف شديد سألها مازحاً: شمتانة فياً يا بنت عمي، صح؟

هزّت رأسها نفيّاً تقول: عمري ما اشمّت فيك، رغم إنك تستاهل!!

وبعفوية وبراءة اندفعت «وعد» نحوه تقفز مرحاً قائلة: بابي.. حمد الله على السلامة، وحشتني أوي.... استقرّت بجسدها الصغير فوق بطنه، فصرخ متأوهاً بينما تأزّمت عضلات وجهه ألماً إلا أن ابتسامته الدافئة ونظرته العميقة طمأنتها أنّه بخير.. وبعفوية الطفولة قالت: على فكرة يا بابي مراتك حلوة أوووي.

نظر سليم إلى «روعة» التي تظاهرت بانشغالها بهاتفها



المحمول، ثم التفت إلى ابنته مستفهماً وبهمسٍ حتى لا تسمعهما «ريكا»، قال: إنَّ قِابِلَتِيها؟

فأجابته هامسةً أيضاً: أيوه.

أشار لها أن تقترب وحافظ على نبرة صوته المنخفضة سائلاً: ومامي؟

: كنّا سوا.. بس تمام يعني.. محصلش حاجة.. وابتسمت تطمئنّه أن الأمور مرّت بسلام..

يومان بعدها ثم أقفلت عائدة مع صغيرتها إلى حيث كانت، لم ترغب في أن تفرض وجودها على المشهد، ولا أن تتقاطع مع نؤارة في دائرة واحدة.. وحرصت ألا تقابلها ولو صدفة..

حاولت «شهد» أن تتدخل لتحتوي ما تفاقم من خلاف بين أخيها وامراته الثائرة للمرة الأولى من أجل كرامتها.. بدت لها «نوري» على قدر كبير من العقلانية والإخلاص والإيثار... أمور ثمينة يندر وجودها في الحياة حولنا، فعلى الرغم من العلاقة المتذبذبة والمشاعر المتناقضة التي تعانيتها كزوجة إلا أنّها ظلّت إلى جوار زوجها تخدمه بتفاني وبحرص، تقوم على كل شؤونه بنفسها ضعيفة هي أمام ضعفه وحاجته.. متناسية تماماً ما أصابها منه وما سدّده نحو قلبها من ضربات قاسية.. لم يكن



لديها تحفظات على وجودها أو إقامتها معه حينما سمح له الطبيب بمغادرة العناية المركزة والانتقال إلى غرفة عادية، بل أنَّها رفضت مغادرة المستشفى قبل تماثله للشفاء التام... تغيَّرت «نَوَّارة» كثيرًا وتغيَّرت مع نضوجها بعض ملامحها.. إلَّا تلك الشامة التي تُميز رقبتها عن كل الرقاب مازالت فاتنة.. وأخرى سكنت وجنتها اليمنى فوق غمازتها مازالت ساحرة وثالثة سجدت على ترقوتها مازالت مثيرة.. لكن بريق عينيها اختفى!!

لم يكن من السهل على سليم أن يفتح عينيه ليجدها إلى جواره رغم سعادته الغامرة بذلك.. امتنانٌ كبير سكن أعماقه، خزيٌّ عميق استقر داخله.. رجفاتٌ من حنين وشوق أراد تمريرها إليها، حرَّك كفه ليلمس كفها.. فسحبته.. معه كانت تحب الحديث دون توقف.. فتوقَّفت الكلمات على لسانها..

كانت تحكي له كل الأشياء التي تحدث لها مهما كانت تافهة، مملّة حتى التفاصيل البسيطة كانت تحكيها.. الآن صمتت... كل عاداتها التي مارسها معه لسنوات طويلة فحواها محاولاتها الدائمة أن تُشَبَّع كل وقتها به وأن يصير زمانها مليئًا بحضوره، فحين تُحب نرى الدنيا بعيون من نحبهم؛ فإن هم أغمضوا عيونهم عنّا عُمِينَا..



تلاقت عيونهما وبوهن بالغ قال: آسف..

ودون اكتر انا اجابت: على ايه بالضبط؟

تابع بصدق قائلاً: على كل حاجة زعلتك مني.. على كل ألم سببتهولك.. صدقيني مكنتيش إنت المقصودة.. أنا كنت بنتقم من نفسي فيك.

وعلى الرغم من كل الحب الذي تكنه له، أردفت: اسمع يا سليم، واسمعني كويس أعجوك، أنا مستعدة أسامحك على كل مغة غدغت بيا فيها بس ليا عندك طلب واحد، إنك تطلقني، تطلق سغاحي، تسييني أخف من لعتك.. نفسي أعيش. وباستنكار قال: أد كده بتكرهيني لدرجة إنك معايا مش عايشة؟!!

بانفعال أجابت: أكغحك؟ ده أنا محبتش في حياتي غيغك، بس أنا فعلاً معاك مش عايشة ولا ميتة، الميت بيغتاح، وإنت حغمتني من كل غاحة.. عايزة أنساك عشان أغتاح.

وضع كفه على كفها ضاغطاً؛ فلم تستطع سحب يدها.. وبأنفاس متهدجة قال: نؤارة المشاعر مش دايمًا بتبقى خطوط واضحة ومفهومة، بالعكس في أحيان كثير بتبقى خزنة مليانة أسرار والغاز.. أنا راجل خيالاتي كثير ونزواتي أكثر بس الحقيقة الوحيدة



اللي في حياتي هي إنتِ، حقيقة فهمتها متأخر بس لسه عندي
أمل تسامحيني وتديني فرصة أعوضك.. أنا فعلاً بحبك.
نظرت له بتشكُّك: بتحبني؟! إنتَ عاغِف يا سليم أنا نفسي
في إيه؟

بتلقائية قال: مهما كان اللي في نفسك هحققهولك ولو
نجمة من السما.. أزمتي الأخيرة عرفتنني إني بحبك والله بحبك
ومقدرش أعيش من غيرك.
: بس أنا دلوقتي أقدغ أعيش من غيغك.

صدمته كلماتها كسكين استقر في فؤاده، سكت لثوانٍ محاولاً
استعادة توازنه واستعادتها، لكنّها تابعت تقول: نفسي عَبنّا يَمَن
عليا بنعمة التجاوز.. أنا مش عايزة أنساك... أنا عايزة اتجاوزك..
ابقي فاكغة كل شئ حصل لي معاك بتفاصيله لكن ابطل اتأثغ بيه
وتبقى مش فاغِق معايا.

قال بكل توجس ودهشة: إنتِ فعلاً مش عيزاني؟؟ بعد ما
فهمت نفسي وعرفت اد ايه بحبك، عايزة تسيبيني؟!
وبمتهى الهدوء قالت: لو بتحبني فعلاً زي ما بتقول..
طلّقني.

غادرته إلى شقّتها في الرحاب، فقد أصدر الطبيب له تصريحاً
بمغادرة المشفى..



تركته وقد غرق في بحر ألمه وحسرتة.. لقد فكّر طويلاً
في الحياة التي يعيشها، فهم مشاعره وتجاوز خيالاته، وأدرك
بقلبه قبل عقله أن خسارته الفادحة أن خسر قلباً كقلبها. لكن
للأسف يبدو أنّه تأخر كثيراً في الفهم والإدراك. لقد قرّرت نوري
أن تغيب... أن تستغنى..

فلكل حدث منطوق يحركه، وما حدث لكلاهما كان بفعل
منطق الأزمة، إنه يفكّك كل شيء ويفاجئك بالتناج..

نوري وسليم كالسما والارض، يتقابلان دوماً ولا يمكنهما
أن يحتضنا بعضهما البعض!

ليلة شتاء طويلة، برد وبرق ورعد، فمتى ستشرق الشمس
ثانية!

إنّه يشغل بالها دوماً، بل إنه يحتلها، تفتش عنه بين
خلاياها، أنسجتها، يسري هواه في عروقها بينما تلغنه في سرها
صباح مساء.. كاذبة هي إن تمنّت تجاوزه، فهل تتجاوز الروح
الجسد إلّا بالموت؟!



أسبوعان من الراحة السليبية في فيلا «شهد» ثم عاد سليم
إلى عمله، وتدخلت السفارة السعودية لإنهاء الأمر الخاص



بـ «حور الجارحي».. تعاون المجني عليه كثيرًا مع محاميها وتنازل عن حقه المدني حرصًا على اسمها ووضعها الاجتماعي ومستقبلها مع غيره... كان بحاجة إلى أن يتخلص نهائيًا منها فأخذ عليها تعهدًا بعدم التعرض..

«حور الجارحي» ولدت ملكة وكبرت ملكة وستظل ملكة، لا تعاقب ولا يُرد لها أمر.. كل شيء كان مقبولًا ولطيفًا في طفولتها وشبابها إلا تدنيها وانحطاطها وزواجها من هندي طامع استغلّها.. إنَّ عنادها هو أزمته الحقيقية وهو ما أفسد عليها حياتها.. هكذا تعامل والدها الكاتب الكبير «فهد الجارحي» مع جريمة ابنته وأزمته في بلدٍ تقبل بالتصالح ومنح الفرصة الثانية لزائريها حرصًا على العلاقات..

حور مواطنة سعودية تحمل الجنسية الإنجليزية، أربع من المحامين الكبار حضروا معها التحقيقات في حضور مندوب السفارة البريطانية.. التزمت الصمت التام ولم تُجب على أي من الأسئلة الموجهة لها.. وبعيدًا عن كل الافتراضات القانونية تمَّ الإفراج عنها..

فللدبلوماسية علاقاتها وممراتها ودهاليزها السرية والمُعلنة.. غادرت الأنثى الخليجية إلى لندن.. عامٌ ثمَّ



تزوجت من كاتبٍ إماراتي شهير شاركت معه في عدة أمور كهوسها باقتناء التحف والنباتات النادرة.. استقرت معه في «دبي» وأسست هناك مجلة نسائية اسمتها «الملكة».. أعلنت فيها قناعاتها ومبادئها وإيمانها بالحرية، بل هوسها بها.. ومن ذات المنبر أعلنت اختلافها الجذري مع المجتمعات العربية عامةً والخليجية خاصةً وراحت تدافع باستماتة عن مظاهر التحرر التي كانت قد اندلعت سابقاً في السعودية منذ عُيِّن الأمير «محمد بن سلمان» ولياً للعهد..



ثلاث أسابيع بعد تمام شفاء سليم وهو يحاول جدياً الإعتذار لنوّارة واسترضائها، ورغم أنّه لا يُجيدُ فنون الاعتذار إلّا أنّه حادث حماته «طنط ميرفت» وزوجها «د. مازن خطاب».. اعتذر عن إزعاجهما وتوريطهما معه في الأمر، لم تُخف حماته حقها وعاملته بسخافة تعمدتها بينما تظاهر زوجها بالحيادية وبعدم الاكتراث، فنوّارة امرأة ناضجة تتولى أمورها بنفسها ولها أن تختار ما يُريحها.. هاتف سليم «مالك وسدرة» وأخبرهما بكل ما كان، تشاجر معه أخوها ورفض أن يُكمل المكالمة، بينما تابعت «سدرة» تسمعه وبحرص صادقٍ حاولت أن تُفهمه أزمة «نوري» ومأساتها معه، أنّها اكتفت.. الأيام تجري والوضع



تأزم حين أخبرته في رسالة نصية عبر الواتس آب أنها في طريقها إلى باريس.. لقد استطاع «مالك» أن يؤمّن لها وظيفة مرموقة في أحد بيوت الأزياء هناك.. وأن لا داعي للقلق ستسافر في «مايو» بمجرد انتهاء العام الدراسي للصغير «صالح».. مازالت تطلب ورقة الطلاق حتّى لا تُضطر إلى رفع دعوى خلع..

ورغم أن سليم يرفض بشدة هذا المبدأ الذي يشوه رجولته، إلا أنّه كان مجبراً على وضع كبريائه جانباً من أجل نوري.. أراد أن يثبت لها بطريقة عملية تمسكه بها وحرصه على كل فرصة تتيح لهما بارقة أمل، هاتفها؛ فلم تُجب.. أرسل لها رسالة صوتية جاءتها بصوت يملأه الرجاء المفعم بالصدق.. «مش هطلق، أرجوك فكري كويس، بلاش عشان خاطري أنا، عشان خاطر «صا» ابنا»... جاءه ردها في رسالة نصية كتبت «صا» هيفضل ابنا.. والطلاق مش هياثر عليه والوضع ده مش جديد عليك، ما إنت بتمارس أبوتك لوعد وهي بعيد.. عادي».. لم ترسل رأيها في رسالة صوتية كما فعل؛ فقد ضنّت عليه بصوتها ولم تفكر يوماً أن تحرّمه شيئاً منها!!

أغلقت بعدها هاتفها المحمول بينما أكّدت على «صا» أن يهاتف والده يومياً..



صار بمقدورها أن تفكر، أن تُقرر.. تعاود التفكير في كل ما جرى كلّما لمست في قلبها ميلاً، كلّما اشتّمت في نفسها بوادر ضعف..

أقع سليم شهداً لتدخل وانتظر أن تُقع «نوري» فسألته أن يُفسح لها المجال وأن يوقف رسائله ومكالمته لها.. ربّما تحتاج إلى مساحةٍ لتنفس ووقت لتهدأ كرامتها المجرّحة، فما أمسّ حاجتها لأن تتوازن... حتّى زاره «سام الباجوري» في مكتبه ذات يوم.. وجهٌ بشوش مستدير رُسم بحرفية، عينان واسعتان، قامة طويلة ممشوقة لرجل ثلاثيني ساخن.. جلس أمام «سليم» واضعاً رجلاً على رجل، مستمتعاً بممارسة دهائه بينما حاول «سليم» أن يستوعب حجم ومدى علاقة الزائر الوسيم بنوارة.. «نوري» لطالما كانت بين ذراعيه فلم يعرف حينها أنّه يحبها.. جاءه ذاك الرجل اللئيم ليُرص في أذنيه كلمات مبطنّة.. كلمات قصّد منها إهانته.. إنّهُ صديق شخصي لمدام نوارة بل أنّه أقرب الأصدقاء لها وباسم هذه الصداقة سأله أن يُحررها من قيدِ تكرهه، فليس من الرجولة أن يحبس الزوج امرأته في عصمته كارهة!

لَكَمه «سليم» في أنفه؛ فسالت منه الدماء.. أي بجاجة سمحت لسام القذر أن يتحدث في أمرٍ شديد الخصوصية



كعلاقته بزوجه؟! متى وكيف ولَمَّا عرفت نوري ذاك السخيف ومتى صاراً أصدقاء؟! أيمن أن تتحقق نبوءة حور بهذه السرعة؟ أريد نوري أن تنغمر في خطايا وذنوب حقيرة كتلك التي ارتكبها سليم لتُذيقه من نفس الكأس وتُمنع في عقابه؟! لا... لا يمكنها أن تفعل.. يوقن أنها أطهر وأشرف من كل تلك الدنوب التي أحدثها في قلبها..

كم هو مريب بل حثير أن تستيقظ يوماً لتكتشف أنك لم تعد شيئاً عند مَنْ تُحب.. أخطأ سليم؟؟ نعم أخطأ، بل أجرم ولكن أليس للحب طاقة غفران؟؟ تريد أن ترحل عن عالمه، فأَي مصير سيصيبه إن رحلت؟ إن تزوّجت ذاك المتحزلق الذي تشع عيناه حباً حينما يتحدث عنها؟؟

جاهد سليم ليتذكر متى كانت آخر مرة ضمَّها فيها إلى صدره؟

كان يوم ذكرى ميلاده الأخير.. في ذاك اليوم الملعون الذي عرفت فيه حكايته القذرة مع «حور».. لم يفلح في الانقضااض على ذكرى «ميرال» سريعاً.. لم يتعافى منها إلا بمرور الزمن وبوجود «نوري» اللثغاء في حياته.. لقد غاص في أعماقها رويداً رويداً وسكنت هي دواخله على استحياءٍ وبمتهى الهدوء



والسلاسة تسرّبت إلى أوردته وشرائينه، وظلّت قابضة في قعرِ
نفسه، تحت جلده، وبين عينيه، لم يستشعر حبه لها إلا حين
خشي على قلبه من إعصارٍ وجع يضربه في مقتل!!..

كان مكبلاً بخيبته وبتجربة حب فاشل اعتقد أنه حب العمر..
ظلّ مكبلاً بالخوف والضعف والحيرة؛ فاتخذ العشوائية منهجاً
لقلبه، يشمل بشفاة امرأة في الصباح وبشفاة أخرى في المساء..

لم تُجدِ محاولاته نفعاً، فقد اتخذت «نؤارة» قرارها..
وصله إشعار دعوى «الخلع».. فكل كيل إذا فاض انسكب، إن
كان حباً أو كان بُغْضاً.. أو سروراً أو وجعاً... تجاوز «سليم»
الضربة.. وفي نفس اليوم زار مكتب المأذون... نفّذ رغبتها..
راسلها على الواتس آب قائلاً: «كُنْتُ غبي ضيّعتك مني..
أتمنى لك كل سعادة معيشتهاش معايا»..

ولأنه مارسِي المولد ينتمي لبرج «الحوت» سبح بعيداً
وانزوى يعاني كآبة.. رجلٌ أنهكته البدايات والنهايات..
يحتاج أن يرتاح دون أن يلاعبه القدر لعبه الحب واللاحب..
وفي أوائل يونيو خطّت قدما نوري برفقة صاصا شقة سكنية
أنيقة استأجرها لها «مالك» في نفس الحي حيث يسكن، كان
السكنُ مريحاً، مؤثثاً بعناية وذوقٍ يناسب الوافدة الحزينة..



عشرون يوماً بعدها ثم التهبت يداها وأيادي الحضور
تصفيقاً بمجرد أن أنهى أخوها عزف مقطوعة موسيقية خاصته
على مسرح «قصر غارنييه - دار أوبرا باريس» ..

وفي أنحاء باريس لم تتخل «نوري» عن عاداتها في التقاط
الصور، لكنّها لم تعد تُصور سليماً، بل امتلأت ذاكرة هاتفها
بصور «صا صا» ..

وفي نهاية نفس الشهر وبكل حب وقف «مالك» يتباهى
أمام الحضور بجمال عروسه، شعر بأنّه يطير فوق الغيوم حين
وضع خاتمه في إصبعها، بينما ابتسمت «سدره» حين تذكّرت
أنّ لقائهما الأول بزوجها كان صدامياً.. لقد جادلها كثيراً يومها
حول أحقيته في تقديم حفل في «معهد العالم العربي بباريس»
بعدما شطبت اسمه من قائمة القبول، رآته حينها مغروراً بفنه
رغم أنّه مازال مغموراً، راهنها أمام رئيسها المباشر على أن
تجمع له عشريناً من أساتذة الموسيقى ومتذوقيها المعروفين
ليعزف أمامهم أحد مقطوعاته ولترك لهم مهمة تقييمه دون
أن تتدخل.. وفي منزلها وأمام الجميع خسرت الرهان، إلّا أنّها
يومها كسبت مالكاً وقلبه، وعاهدته أن تسيّر معه طريقه،
أخذت على عاتقها مسئولية مساندته في صناعة نجوميته، وقد
تحقّق لهما ما أرادا..



ما هي إلا أسابيع ووجدت نوري «سام» أمامها مشتاقاً، تشع
في عينيه نظرات لهفة حقيقية، كانت نبرة صوته حنونة ولأول مرة
صارحها قائلاً: وحشتيني..

لم تستطع أن تجيبه؛ ظلّت صامتة:.....

تابع يقول: نوري، أنا.

قاطعته معترضة: من فضلك متقوليش «نوغى» اسمي
«نواغة».

:من فضلك اسمعيني، إديني فرصة، أنا حبيتك من أول مرة
شفتك فيها، عمري ماكنت بصدق في الحب من أول نظرة لحد ما
شوفتك في كافيتريا الأكاديمية، لحظتها حسيت قلبي بيترج جوا
صدرى، الكون كله بقى صغير قدامك..روحي راحتك، من ساعتها
وأنا مش شايف غيرك ومبشمش غير ريحتك ومبسمعش غير صوتك.
عذبتها كلماته فقالت: أغجوك يا سام، أنا عايزة أمشي..

تنهد بآلم ثم قال: أرجوك إنت.. يوم ماعرفت إنك متجوزة
كنت هتجنن، كسرت المراية بإيدي وأخذت خمس غُرز، يومها
رفضت أخذ بنج والدكتور قال عليا مجنون.. كنت عايز أتوجع،
يمكن وجع الخياطة والجرح ينسيني وجعي وحسرتي إنك مش
ليا.. بس والله وجعي بقى أكبر وأعظم لمّا عرفت إن جوزك



واطي وخسيس ومش مقدّر النعمة اللي هو فيها وحلفت إني مش هسيبك على ذمته.

أَحَسَّتْ نَوَّارَةٌ بِلِسْعَةِ أَلَمٍ اخْتَرَقَتْهَا حِينَ جَاءَتْهَا ذِكْرِي سَلِيمٌ..
تَحَرَّكَتْ تَغَادِرَ الْمَكَانِ؛ أَمْسَكَ سَامٌ ذِرَاعَهَا بِقُوَّةٍ يَرِيدُهَا أَنْ
تَسْمَعَهُ، تَسْمَعُ مَا بَدَاخِلَهُ: «إِنْتِ عَارِفَةٌ إِنْ يَوْمٍ مَا انْطَلَقْتِي كَانَ أَسْعَدَ
أَيَّامِ حَيَاتِي».

مَا قَالَهُ سَامِي كَانَ كَافِيًّا لِأَنْ تَنْهَارَ، رَأَتْهُ رَجُلًا أُنِيقَ الْمَشَاعِرِ،
كَرِيمَ الْوَدِّ، وَرَأَى فِيهَا كُلَّ نِسَاءِ الْأَرْضِ، لَكِنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنْ أَنْ
تَمْنَحَهُ قَيْدَ بَوْصَةٍ مِنْ مَشَاعِرِهَا.. مَا أَكْثَرَ مَا أَرَادَتْهُ مَعَ سَلِيمٍ، وَمَا
أَكْثَرَ مَا يَرِيدُهُ سَامٌ مَعَهَا، وَلَكِنْ كَيْفَ الْخِلَاصُ وَكَيْفَ السَّيْلُ؟!
مَعَ الْخِذْلَانِ يَأْتِي الْأَلَمُ كَصَاحِبٍ غَيْرِ مَرْغُوبٍ فِيهِ مِثْلَمَا يَأْتِي
الْصَّدَاعُ مَعَ أَلَمِ الْأَسْنَانِ، الْإِدْمَانُ مَعَ السَّجَائِرِ، التَّهَابُ الْكَبِيدُ
مَعَ الْكُحُولِ..

كَانَ أَعْظَمُ مَخَافِهَا أَنْ تَعْتَادَ حَيَاتَهَا دُونَ سَلِيمٍ، أَنْ تَتَّصِلَ
مَعَ غِيَابِهِ، أَنْ تَفْقِدَ الشُّعُورَ بِاللَّهْفَةِ، بِالِانْتِظَارِ، بِالتَّرَقُّبِ.. تَرِيدُ أَنْ
تَنْسَاهُ لَكِنَّهَا تَخَافُ حَقًّا أَنْ تَفْعَلَ!!

لَمْ يَلْتَقِ بِهَا سَلِيمٌ بَعْدَ الطَّلَاقِ وَلَمْ يَحَاوِلْ زِيَارَتَهَا فِي بَارِيسَ
حَتَّى بَعْدَ مَا انْتَهَى الصَّيْفُ، عَرَفَ مِنْ «صَاصَا» أَنَّهَا قَرَّرَتْ الْبَقَاءَ



في عاصمة الموضة، ما كان سهلاً عليه أن يقبل الوضع، لكنّه ابتلعه كرامةً لمكانتها في قلبه.. صدمه كثيراً أنّه كان ولسنوات استمرّت عشرًا أنانيًا معها، أناني جدًا.. متقلب المزاج إلى حد الجنون، قلبه في لحظة حَجَر وفي لحظة بعدها حَرِير.. بينما تخلّت هي عن الكُل لأجله، وهو يعلم أنّ لديها مِنَ المعجيين والمحبين ما يكفيها العمر كله، ربّما لم تشعر يوماً بحبه لها بقدر ما شعرت بتجاهله وتسلطه واستسلامه لفكرة أنّه تزوجها حفاظًا على صالح بينما تستلقي هي بين ذراعيه تشتهي قلبه.. فالزواج ليس بيتًا وسقفًا وسريراً، إنّهُ أبعد وأعمق وأقوى من ذلك كله... انخرائطٌ كاملة وامتزاجٌ كامل وتوغلٌ كامل، ذاك هو الزواج..

وطوال تلك الشهور يظل ينحت صخر الرجاء دونها، يقضي نهاره مع اليأس وليله مع الفكر.. اعتزل كل شيء سواها.. واظب على ذكرها.. اعتقد أن موطن وجعه كبريائه الذي يحترق؛ فأدرك بتتابع الشهور أنّه لا يكثرث لكبريائه ولا تشغله كرامته قدر ما يوجعه غيابها.. ليتهُ أدرك ذاك قبل رحيلها!!



قتلته الوحدة، فدعته أخته للسكنى معها، ففيلتها واسعة ومازال جناح أبيهما مغلقًا على كامل محتوياته منذ الوفاة، لم



يستسغ «سليم» الوضع ورأى فيه تطفلاً على حياتها مع «زين» رغم مشغوليّاته وكثرة سفرياته، شكى وحدته لأسامة البرنس، فأشار عليه أن يبتاع كلباً.. فكان مجيء الهاسكي «بوتشي» خير ونيس، معه تضاءلت وحدة «سليم» وقلّت مرّات خروجه من المنزل واقتصرت على ساعات العمل إن اضطرته الظروف ليكون بمكتبه، غير ذلك كان بإمكانه العمل عبر حاسوبه الذي صار لا يفارقه إلّا نادراً..

كان «بوتشي» جرواً شديد الذكاء، ذو شخصية قوية، سريع التعود، اندمج وبسرعة مع مالكه وحفظ تفاصيله وأدرك لغته، وجد سليم منه رقة وإحساساً قلّما توجد في بشر، وحدّت العشرة بينهما فانصهرا معاً.. واستطاع الهاسكي التوغل والنفاذ داخل صاحبه وبات يعرف شعوره من نظراته ونبرة صوته، فيسرع إليه قافزاً مرحباً، ويصير يداعبه إذا ما عاد للبيت أو يظل يلتف حوله محتفلاً بعودته كأنّه غاب دهرًا، وحين يجلس سليم شاردًا، أو تضيق نفسه بذكرياته أو أي ما يشغله، فإذا بكلبه يحضنه ويظل يلحق وجهه ويمازحه حتى يخرج صديقه من شروده وحزنه.. إن «بوتشي» كصاحبه لا يعترف بالحدود ولا يطيق الفواصل، يكره أن يوضع في مكان ويُغلق عليه، فإذا دلف «سليم» إلى الحمام



توجب عليه أن يترك بابه مفتوحاً؛ فيتبعه رفيقه ويجلس إلى جواره حتى ينتهي ثم يخرجان معاً.. يتمشيان معاً صباحاً في تمام السابعة ويتجولان معاً أيضاً حول الفيلا في التاسعة مساءً.. وحين قرّر «سليم» السفر اصطحبه إلى فيلا «شهد» ودوّن لها قائمة بمأكولاته ومواعيده والمحظورات عليه، غمر الحزن «بوتشي» لغياب صاحبه وظلّ ممتنعاً عن الطعام لثلاثة أيام متتالية؛ فأوصى سليم أخته أن تضع بجواره قميصاً له؛ استنشقه مراراً فهدأ باله وراح يأكل..

وإلى «عمّان» رحل سليم وأقام بها شهراً... كان ذاك في ربيع ٢٠٢١م حيث التقى صغيرته وأسعده سنّها الضاحك..

استمتع بأبوة حقيقية مارس طقوسها مع صغيرته «دودي».. وقعت عيناه على «روعة» الجديدة.. نجاحها وتميزها وأدرك أنّهما كانا خير عوضٍ لها عنه.. بينما استمرّت علاقته بـ «صا صا» عن بُعد، يتحدثان طويلاً عبر الهاتف وأحياناً عبر شبكة الإنترنت.. يعرف من خلاله أخبار «نوري».. بداله أنّها استجمعت قواها سريعاً ولملمت مشاعرهما وتجاوزتهما.. فقد انتقلت بفتاها إلى مدينة «ليون» وهناك ألحقته بمدرسة حديثة ذات سمعة جيّدة وأكبر مميزاتها أنّها تُقدّم إمكانية دراسة اللغة العربية لطلّابها بجانب الفرنسية والإنجليزية، أرادت لها لصالح حتى لا يفقد وحيدها لغته وهويته..



واختارت أن تسكن هناك مع عائلة تونسية فما زالت تكره الوحدة وتخافها، استبعدت تمامًا فكرة مشاركة شقة مع عائلة فرنسية لها نمط حياتي مختلف، خشيت أن يتأثر «صا صا» ببعض عاداتهم الغربية أو تصطدم هي نفسها بنقطة خلاف كبيرة تُخرجها ووحيدها من السكن بعد أن تكون قد اعتادته..

ومن الزوجين التونسيين استأجرت غرفة ذات مساحة مناسبة يستقر فيها سريران ومكتب ولها شرفة تطل على حديقة صغيرة زرعت فيها نَوَّارة أعواد «الريحان».. التحقت بمدرسة صباحية تُقدم دورات متخصصة لتعليم تصميم الآزياء.. ومدرسة مسائية لدراسة الفرنسية والكمبيوتر.. باتت نوري أكثر حماساً وإقبالاً على الحياة رغم أنه مازال هناك الكثير في أعماقها..

حاول «سام» مجددًا معها، زارها أكثر من مرة متحدثًا عن نفس الموضوع، أرهقها حصاره لها وألمتها جدًا فكرة رفضها المتكرر لمشاعره الوافرة، هي تسأله أن ينساها وهو يسألها أن تمنحه فرصة ولو بعد حين!!



تتابع الشهور ووضعت سدره جميلتها «رَيْن» ابنة سبعة أشهر من الحمل بسلاسة وسهولة قلَّمَا تتوافر في الولادة



الأولى، كان ذاك في آخر نوفمبر عام ٢٠٢١م.. اعزى طيبتها الأمر إلى التمارين الرياضية التي حرصت سدره على القيام بها طوال الشهور السبع..

قبلها بعامين كانت شقيقتها «ميسون» قد ترمّلت أثناء العمليات العسكرية التي توغّلت بها تركيا في الشمال السوري ومنها «تل أبيض» ضد المقاتلين الأكراد.. كان الوضع مُزريًا متأزمًا ممّا دفع آلاف المدنيين إلى النزوح إلى مراكز الإيواء والسكنى في العراق، انتابت الهموم «ميسون» حزنًا على مقتل زوجها وخوفًا على صغيرها «كنان».. لقد توقّفت الحياة وحلّ الخراب.. تبادلت الدول المؤيدة والمعارضة الاتهامات بينما انخلع قلب «سدره» كلّما طالعت الصور والتقارير الإخبارية عن تردي وضع النازحين واللاجئين.. وانطلقت تشارك في تظاهرات جرت في شوارع باريس تندد بالعدوان التركي على شمال سوريا.. انقطعت أخبار ميسون وصغيرها حتى سنحت لهما فرصة الانتقال إلى «دمشق» ومنها عاودت الاتصال بشقيقتها التي دبّرت لها بمعاونة شخصية فرنسية رفيعة المستوى الانتقال إلى «باريس» ممسكة بيد «كنان» بينما يمسك هو في يده الأخرى سيّارة صغيرة حمراء يلوح بها للمارة مبتسمًا، إنّه ملاك صغير يستحق



أن يعيش بأمان.. وبذلك انتهى الفزع بأعجوبة... وبقدر ما أحبَّت «ميسون» وحيدها بقدرٍ ما سعت إلى استعادة نفسها وكيانها.. أنهمكت تدرس الفرنسية وبعض دورات إدارة الأعمال.. بعدها بعامين وبمساعدة «سام» التحقت بطيران الخليج تاركة «كينان» في رعاية خالته وزوجها أثناء فترة التدريب والإعداد والتي استمرَّت شهرًا أربع قضتها في «المنامة»، بعدها استقرت رحلاتها ما بين المنامة وباريس وبعض مدن أوروبا..

قبلها بفترة أيضًا كان «سامي الباجوري» قد تقرب كثيرًا إلى «مالك وسدره».. لقد تفهما المغزى الحقيقي لقربه ولمساعيه ولفرط المساعدات والمجاملات التي راح يوفِّرها لهما ومنها على سبيل المثال تعيين «ميسون».. نوَّارة هي المنشودة، على الرغم من أنها لم تُعد تؤمن بالعواطف وتخشاها كثيرًا.. لكنه واصل التقرب واستمر يجازف، علَّه يحقق فرصته معها..



عام آخر مرَّ بكل أيامه وشهوره.. سليم يحاول أن يدير أيامه دون نوَّارة.. فينجح مرة ويفشل مئات المرات.. لقد اعتنق «نوَّارة» وحدها دون غيرها، فصارت هي كل امرأة يتمناها.. لم يلمس بعدها ولا غيرها.. يقتله جدًّا فرضية أن



غياها سيدوم، وأنَّ وجودها في حياته كان مؤقتاً... وفي عاصمة
النور والجمال تخيلت «نوري» أنَّها قد أحكمت زمام أمرها في
يدها وراحت تفكر في حياة تعيشها أقل ما يقال عنها أنَّها رائعة،
تساءل لِمَا لا تشعر هي بروعتها ولِمَا لا تفتنها شهرةً حققتها
ونجاحاً عرفت الطريق إليه.. تُطالع صورها التي تصدرت
أغلفة كبرى المجلات العالمية «فوج» و«جي كيو» وغيرهما.
لقد سُجل اسمها وحُفرت مكانتها كواحدة من أشهر وأجمل
عارضات الأزياء وأيقونات الجمال والموضة.. تسحب من
صدرها نفساً عميقاً كلما تذكرته، وفي غرفتها تسهد ليلاً.. تضغط
على شارة أيقونة في هاتفها فيجئها صوت أم كلثوم يجلجل المأ
وشوقاً وعتاباً في تحفتها «إسأل روحك»..

إسأل روحك.. إسأل قلبك قبل ما تسأل إيه غيرني.. أنا غيرني
عذابي في حبك بعد ما كان أملِي مصبرني...

غدرك بيَّا أثر فيا واتغيرت شوية شوية.. اتغيرت ومش
بايديا وبديت أطوي حنيني إليك.. وأكره ضعفي وصبري عليك
واخترت أبعد.. وعرفت أعند.. حتى الهجر قدرت عليه.. شوف
القسوة بتعمل إيه.. كنت زمان بلاقيك بحناني بحر محبة وبر
أمان.. كنت بحس إن إنت زماني.. يومي وبكرة وبعده كمان..



كنت بشوفك بعيون حبي وإنّك بعيد أو وإنّك بقربي أقرب من
بسمتي لشفافيني أقرب من إحساسي لقلبي.. بعد الود اللي راعيته
لك بعد الحب اللي وهبته لك.. بعد العمر اللي أنا عشته لك فيه
إيه تاني أقدمهولك.. غدرك بيّا.. أثّر فيا.. واتغيّرت شوية شوية..
اتغيّرت ومش بإيديا..

لم تكن يوماً تحب أم كلثوم أو تسمعها فما عادت تسمع
غيرها!!

تعرف وصارت تفهم أنّ بعض العودة ابتذال وبعض الهجر
شوق!!



وفي الثاني عشر من ديسمبر ٢٠٢٢م وضع «سام» دبلته في
بنصر «نوّارة»... داوم يمنحها حبّاً وودّاً.. تمسّك بأحقيقته في
فرصة ولم ينفك عن الأمل في أن تحدث المعجزة.. معه شعرت
أنّها مُراهقة تعيش سنواتها الخضراء اليانعة في ديناميكية مفرطة
وكأنّها لم تكبر أبداً.. كأنّها طفلة تغضب، تتألم، تعترض، ترفض،
ثم تقبل، وتتراضى وتتسامح وكأنّ شيئاً لم يكن..

كانت قد عادت إلى باريس، ووقّعت عقداً مع شركة «لوريال»
كوجه دعائي لمنتجاتهم... وفي ضاحية «كليشي» اشترى لها



خطيبها فيلا صغيرة، غاية في الجمال والذوق والتميز كمهرٍ لها
وحينما رفضت «نوري» الزواج وتمسكت بمبدأ الخطبة متعلقة
بحاجتها إلى إطالة الوقت للنقاهة وللتأكد من تمام الشفاء
وخلوها من الآثار الجانبية لخيتها السابقة تقبل «سام» ما
أفصحت عنه بلباقةٍ وصراحةٍ زادت من رصيدها في وجدانه
وتعمق معه احترامه لشخصها؛ سألها أن تنتقل إلى الفيلا
الجديدة؛ فمن غير المنطق أن تترك السكنى في شقة صغيرة
كانت أو كبيرة وقد جهزت الفيلا خاصتها وزُرع في حديقتها
الريحان الذي تعشقه.. مسكينٌ، لم يكن يعلم أنها تعشق الريحان
لأن سليمها يعشقه..

قبلت عرضة السخي وانتقلت للفيلا استجابةً ليس فقط لكرم
خطيبها بل لتحقيق لوحيدها رغبته في السكنى في فيلا خصصت
له فيها غرفة كبيرة تهيأت لتناسب مهاراته المختلفة وحاجته
إلى الخصوصية والاستقلالية التي راح يُطالب بها والدته التي
اقتنعت بتلك العلاقة الطيبة التي ربطت بين وحيدها وزوجها
المستقبلي والتي أكدها كل الشهور السابقة..

أمّا نبأ الخطوبة فلم يمرّ على سليم مرور الكرام.. إنها القشة
التي قصمت ظهر البعير.. تبخّر كل أملٍ له في استعادتها.. حاول



الاستيعاب.. لكنه فجأة صرخ رافضاً.. كيف تكون نوري امرأة
غيره؟! لا يذكر أنه بحياته كان بهذه التعاسة من قبل، إنه أكثر
الرجال تعاسةً في هذا الكوكب البائس.. لقد سكت عامين ظاناً
أنّها ستهدأ.. ستفكر.. إنه في قلبها وسيظل قلبها يئن، يلوب في
رجاء ويسألها في أمل أن تعود.. أو أن تمنحه فرصة ليعود راجياً
تائباً مستغفراً.. سيغني لها أغنية عبد الوهاب «إمتى الزمان يسمح يا
جميل؟» تلك الغنوة التي سمعناها معاً عند طنط سهام في شقة روض
الفرج.. فدُونَ اتصالٍ هاتفي فاجئوها بزيارة في ذكرى ميلادها
الأخير قبل زواجها بالأستاذ حمدي.. وفي الشرفة سهروا ثلاثتهم
وطالت أحاديثهم وتعدّدت مواضيعها.. ثمّ سأل «سليم» خالته
أن تغني، إنَّ صوتها جميل جداً يشبه صوت «وردة الجزائرية»،
فدندنت «سهام» بأغنيتها المفضلة لعبد الوهاب.. ومنذ ذاك الحين
ونوري تحب الأغنية وتحفظها وتبتسم جداً كلّما سمعتها..

بين الحين والآخر يطالع صورهما معاً.. ويطالع صورها
على أغلفة المجلات العالمية وعلى صفحات الجمال والموضة
على انستجرام وغيره من مواقع التواصل.. من أين لها بتلك الطاقة
الجبّارة التي مكّنتها أن تسعى بضراوة نحو تغيير تستحقه.. لقد
اشتاق إليها.. بل أنّه يبكيها..



يتسائل في قرارة وجدانه عن ماهية التملك.. لا بد أن مُرادفه
يعنيها.. أن تكون هي في كُلِّه.. يشم رائحتها في عطره وعلى وسادته..
خيالها ورؤياها لا تفارق ناظره.. طيفها حوله أينما ذهب.. حتى
ظلمها يسكن جدرانها وأزوار قمصانه.. ينام على لثغتها ويستيقظ
على نبرة صوتها.. إنَّ ملامحها لا تغادر فنجان قهوته.. مرآته.. لقد
ضاعت ثروة المشاعر منه وأفلست عواطفه يوم فقدها..

ما قصته مع الألم؟ وما موضوعه مع الوجد؟ لا يعرف بدقة
من أين تأتي خيباته، يبدو إنها تترك مكاناً ما خالياً في فراغ ما، ثمَّ
تلتصق به كمغنطيس قديم لا زال يحافظ على كل خواص الجذب
الخاصة به!!

وحدها الخيبات تُحي ذكرياتنا، فيغدو لكل لقطة قيمة
ولكل التفاتة غاية.. تلك الذكريات تُعري أرواحنا الهشة فنُعاني
من فرط ذنوبنا ووطنونا التي تطل من كل ركن تختبئ فيه لتُبكي..
ليتها تدرك أنها منذ تركته وحيداً راح يبحث عنها، يتعلق
بكل شيء يشبهها، يجوب الكون بحثاً ثم يبكي ألماً بعد ما
اكتشف أن لا شيء يشبهها إلا هي..

فبيته منذ غادرته ما عاد دافئاً أبداً.. يُجلجل غربة.. يحمل
خواءً.. يفوح وحدة..



ولأنَّ في قانون الحب الخالص لا وجود للأناية، طوى
تعاسته على بؤسه وتمنَّى لها كل هناء حتى وإن كان مع غيره؛
إيمانه أنَّه الخاسر ويقيه أنَّه مَنْ دفعها بعيداً جعله يسكت
ويبقى صامتاً.. لا ينكر أن دواخله تتمزق تَوْجُعاً.. صدقاً ترسخ
في غيابه أنَّها له وحده..

نوري.. ثقبُ أسود يمتص روحه.. مطحونٌ هو بين هجرها
واشتياقه.. فبدونها كل مواسمه صارت خريفاً..

لم يشأ أن يفرض نفسه عليها، وقَبِلَ بخسارته لها مقابل
سعادتها.. ركنَ إلى عدم أحقيته ولا جدارة له ليطلبها مجدداً..
إنَّ أجمل ما في القلوب المحطمة أنَّها تتحطم بالفعلِ مرة واحدة
فقط وكل ما يعترئها بعدها مجرد خدوش..



«بوتشي» الصديق الوفي اجتاز بنجاحِ وحدة صاحبه؛ فشغله
بوجوده.. فالمسألة لا تتعلق بالزمن والعشرة بل بالعمق والقناعة..
فالمحاولات الصادرة عن كائنٍ بريء يستمتع بوجوده معك يُرمم
المكسور فيك..

قبل أن ينغمس «سليم» كلياً في عالمه مع «بوتشي» توالى
عليه الأحداث.. لقد احتدم الخلاف بين صديقه «أسامة»



وزوجته «مروة السمرى» التي لا تفتأ تطلب الطلاق بل أنّها راحت تدفعه إليه بتصرفاتها المستفزة، ورغم غرابتها ونفورها كان الطلاق قراراً مستبعداً في حسابات «ابن البرنس» من أجل صغيره، لكنّها استغلّت فرصة سفره إلى الصين في مهمة عمل وأرسلت الأولاد فعليّاً وحقائبهما إلى فيلاً جدهما «صفوت»، فطلبها للطلاق جدّي ولا فصال فيه!

حاول «أسامة» التأقلم مع وضعه الجديد، فجأة صار أباً وأمّاً لطفل في العاشرة وآخر في الثامنة من العمر بينما حطّت أهمهما رحالهما مع آخر أغواها؛ لتعكر صفو عيشتها وتهدم أركان بيتها على من فيه.. المخجل أن ذاك الآخر لم يكن غريباً أبداً.. إنه «حسام».. صديق زوجها، وشريكه سابقاً لسنوات في أكثر من عملية تجارية، وربح من شراكته مع «مؤسسة البرنس» الكثير، وخلال خمس سنوات فقط أصبح من أصحاب الملايين.. «حسام الصفتي» ذكي مراوغ، عرف نقاط ضعف صديقه جيداً واستغلّها كاملة لصالحه ليخطف منه امرأته وفي غمضة عين تحوّلت كبرى المشروعات من مؤسسة «البرنس التجارية» إلى «الصفتي جروب».. فمدام «مروة السمرى» كفة ثقيلة تربح دوماً.. أموالها وعلاقاتها ونفوذ عائلتها اعتبارات لا يُمكن تجاهلها..



اللجنة على أولئك الذين يعرفون نقاط ضعفك ويستغلونها..
كانت الرواية قاسية جداً وكل الخيوط تجمّعت في يد خصوم ابن
البرنس... تكالبوا عليه وراحوا يمزقونه إرباً لحسابهم..

كل شيء حوله أجبره على اتخاذ طريق واحد.. الإنتحار..
تلقي «سليم» الخبر المشؤوم؛ ففجعه... علاقته الوطيدة
بأسامة صعبت عليه الصدمة.. التقاه قبلها بيوم وتحدّثا طويلاً،
بدا أسامة مهزوماً منكسراً لكن فكرة رحيله على هذا النحو كانت
مستبعدة تماماً ولم تخطر على بال «سليم» مطلقاً..

طفرت الدموع إلى عينيه وما استطاع حبسها..
وفي عزاء «أسامة» قابل «روز الصياد» وكانت قد مضت
سنوات على آخر لقاء جمعهما حين حصلت على ميدالية ذهبية
وأخرى فضية في بطولة ما كانت قد شاركت فيها.. التقطت روز
أنفاسها بعد فسخ خطبتها من أسامة، شغلها حماسها وانطلقت
كفرسٍ عربي أصيل على مضمار السباق، تحصد الجائزة تلو
الأخرى، بينما تغيّر «ابن البرنس» بعد وفاة أبيه وشدّت المسؤولية
عوده، فما راح يغوي البنات، ترك دراسته الجامعية بعدما استنفذ
مرات رسوبه في عامه الجامعي الثالث، تزوّج بنت ناس واصلين،
فلم يلق منها حباً أو تقديرًا، حاصرته بالنقد واللوم والتفريع كلّما



أتى تصرفاً على غير هواها.. فانغمس في تجارته يوسعها واضعاً همه في عمله..

وفي السنوات السبع الأخيرة كانت «روز» قد نضجت وتبلورت لها شخصية رزينة هادئة، ذات حضور ولباقة.... لمعت في وجهها البضاوي عيون «فاطيمة» النعساء وصار الشبه بينهما جلياً.. وفي باطنه ترخّم «سليم» كثيراً على «طمطم» التي ورثت عنها ابنتها الكثير دون علمها..

حين التقيا في عزاء أسامة كانت أمّها «هايدي» قد رحلت قبلها بعامين.. وساءت حالة والدها الصحية؛ فاعتزل الإخراج وانغمس يقرأ ويقرأ محتجباً عن العالم في شاليه صغير يملكه في «العين السخنة»، يسجل مذكراته.. تزوره باستمرار بينما هي مستمرة تتابع تدريباتها وبطولاتها الدائمة.. إنها مشغولة بمجدها الرياضي..

علاقة صداقةٍ صارت قوية بمرور الوقت والمواقف ربطت بين ابن جعفر وابنة الراحلة فاطيمة، علاقة تحمل معنى إنسانياً عميقاً جداً.. جميلاً جداً.. سألته عن «مدام طمطم» التي قابلتها لمرات متكررة معه في النادي الأهلي شعرت خلالها وفي كل لقاء أن السيدة تحمل لها مشاعراً حقيقية وحباً ذا نمط مختلف،



صادق جداً.. مميز جداً.. وغائر جداً.. يدب في وجدانها أن شعوراً
عميقاً تملكه «طمطم» تجاهها يُخالف كل ما اعتادته ممن يلتقون
حولها من المعجبين والمعجبات!!

آآآآ.. لو كانت تعرف.. آآآآ آه لو عرفت مَنْ تكون «طنط
فاطيمة» لها!!

كاد «سليم» أن يُصرِّح.. كاد يفعلها.. وكأن تساؤلات روز
وكلامها أشعل في صدره كل الحقيقة.. ماتت طمطم ومات سرها
معها، فهل يفصحه؟!

لا هو قادر على البَوح ولا روز تستحق النواح..
سقطت دمعات حائرة من عينيها على طنط فاطيمة.. سألته
أن تزور قبرها؛ وبساطة وعدّها بزيارة في أقرب فرصة..

وفي مقابر آل أبو ستين وضعت روز باقةً من زهور بيضاء
على شاهد القبر ثم وقفت وبجوارها سليم في خشوع يقرآن
الفاتحة.. خيوطٌ دقيقة باهتة تربط روز بالمرحومة وخيوطٌ أخرى
واعية متشابكة تربط سليم بكل مَنْ يرقد هناك تحت التراب..

فاطيمة، إلهام، رحمة، ونيسة، والحاجة آمنة.. وفي
الحوض الشرقي يرقد أبوه جعفر.. وفي الحجاز ترقد سهام..
وفي كل دقيقة قضاها هناك كان يستعيد يوماً أو أياماً بل سنوات



ربطته بهؤلاء جميعاً.. أراد أن يحفر لنفسه قبراً بجوارهم يتمدد فيه.. ليتهم يعرفون ما يشعر به الآن من يُتم وضياح وحين.. ليتهم يسمعون آتاه الداخلية.. ليتهم..



مما طلة «نوري» وتأجيلها للزواج كلما تحينت فرصته جعلت «سام» يختار بنوياًها، تردد كثيراً في حسم الموقف معها، كانت كقطعة أليفة جائعة إلى الاهتمام، في أمس الحاجة لمن يداعب فروها؛ فتركن مطمئنة أنها تعني الكثير لأحدهم..

تذكرت في أول عهدها بالعمل كيف بادرها سليم بغيرته وملاحظته واهتمامه وتصرف حولها ومعها بعشوائية، إصراره على أن يصحبها يومياً من عملها، لم تره تحكماً بها وفيها، بل بررت كل تصرفاته بإيجابية راقته لها؛ فرأته استرداداً لكرامتها ولحب يملكه لها، فالغيرة تؤلم لكن غيابها يقتل.. كانت تميل إليه كل الميل، تتعلق به كما يتعلق الغريق بقشه، وفي سفرياته كانت تشتري زجاجة من عطره المفضل وتنثر رذاذها على ملابسها، وسادتها، ملاعقها، غطاءها، أرادت أن تغرق فيه ومعه، تتنفس عشقه من مسامات قلبها، فأين صارت وأين صار؟!



تترأى أمام عينيها جملة قالها مرة في عيد ميلادها: لَمَّا رُبْنَا
حَبَّ يعوضني بَعْتِكَ ليا يا أَجْمَلُ لدغة في الوجود..

ضَمَّهَا إِلَيْهِ، كان ملمسه دافئًا، يُقْبَلُهَا بشغف وكأنَّما آخر
أنفاسه تسكن فوق شفتيها.. يُقْبَلُ بتمهل، كَمَنْ يخيظ جرْحًا...
إِنْ لم يكن ذاك حَبًّا، فما عساه يكون؟!!

تشعر أحيانًا أَنَّ رحيلها كان جُبْنًا، كان عليها أَنْ تبقى، أَنْ
تقاوم.. أَنْ تحارب لاسترداد ما أُغْتُصِبَ منها رَغْمًا عنها.. ليتها
كانت أشد شجاعة وأكثر ثباتًا، ليتها واجهته وعيناها مثبتتان
بعينيهِ، تعضب، تصرخ، تزار، ثم تمنحه فرصة ليتوب!

الشهورُ التي تلت الواقعة المريعة أنبأت عن ندمه، ألمه،
ومشاعره الدفينة نحوها طفقت على السطح حين شعر أَنَّهُ
سيفقدها، فارقَ كبير بين ما كان عليه وما ظهر مِنْهُ، لكن كلَّ
الوعودِ عندها ذابت..

ولأنَّ الحب هو أَنْ تحتل مَنْ تُحب وهو في أسوأ حالاته،
احتمل «سام» نَوَّارة وقد احتدَّت طباعها كرد فعل لأزمة طارئة
تعرَّضت لها في مهنتها، فأحدى زميلاتِها الفرنسيات شتَّت
ضدها حملة ممنهجة للإضرار بسمعتها المهنية وراحت تقذف
في وجهها كل ما في داخلها مِنْ كراهية مكبوتة للعرب عامة



وللمسلمين خاصة، اهتمتها جزافاً أنَّها على علاقة غير شرعية بوكيل هيئة إعلانية كبرى وأنَّه يستخدمها جنسياً للحصول على توكيلات إعلانية وعمولات تسويق من المؤسسات الكبرى... أقسمت الموديل الفرنسية على أنَّ الجنس هو العملة الرخيصة التي تسدد منها المصرية فواتيرها.. الصدام الذي حدث بين «كلوديا» و«نوري» في أحد أروقة الوكالة أدى إلى أن تنقلب حياتها رأساً على عقب.. قاومت كثيراً حتى تجاوز الخلاف مرحلة المقاومة إلى مرحلة اللاعودة..

لم يقبل «سام» أن تُقَحَّم خطيبته في هذا الجحيم الذي أدرك من البداية أنَّه محض افتراء.. طالبها بالزواج به فوراً دون تأجيل وليكن ذاك هو ردّها العملي على تلك القذارة.. أَحَسَّت أنَّها تختنق، كان الأمر أصعب ممَّا تصوَّرت..

صراعٌ حاد تفاقم داخلها.. شيءٌ ما أشعرها أنَّها ستجبن.. إنَّها غير قادرة على التجرد من سليم؛ فكيف تمنح نفسها كاملة لرجل غيره؟!

خشيت على «سام» من نفسها، تؤمن أنَّها ستنهزم في اللحظات الأخيرة قبل أن تُوقع على عقد الزواج ليصير أزواجاً وزوجة.. أسرعَت إلى «مالك وسدره» تحصن بهما من نفسها،



احتضناها كثيرًا.. وطلب «مالك» من «سام» أن يمنحها مزيدًا
من الوقت؛ فرفض..

هذه المرة تمسك «سامي» برغبته وقراره، إمّا الزواج
وإمّا....

وكان لقاءه الأخير بنوارة في شقة «مالك».. في الخامس
والعشرين من يونيو ٢٠٢٣م، كان منفعلاً، يقبض على غضبه كمن
يقبض على جمرة نار.. بادرها يقول: يا نتجوز دلوقت يا كل
واحد يروح لحاله.. أنا مش هقدر أستحمل أكثر مشن كده. هو أنا
بالنسباك إيه بالظبط؟

لم تغضب نوارة.. وبهدوء تخلّت عن ضعفها وبأسلوب غاية
في الأدب والرقّة قالت: أنا آسفة يا سام، آسفه جدًّا.. أنا حاولت
كتيغ بس ماقدغتش.

نظر إليها مستفهما مشحونًا بالمشاعر: يعني إيه؟
تسلّحت نوارة بشجاعة اكتسبتها من مواجهة أجلتها كثيرًا
وتابعت: أنا ماستهلكش ولا استاهل الحب الكبير اللي في قلبك
ليا.. أنا بحتيغكم أوي ومش قادعة أغشك، حاولت كتيغ أتخيل
نفسي ميغاك، ماقدغتش.. ياغيت نفضل أصحاب وبس.

أجابها بخيبة: أصحاب؟!!



فقلت في رجاء: يا غيت.

هزيمة قلبه على يد نَوَّارة فاقت كل هزيمة يمكنه أن يُمر بها، سيطرت خيبته عليه فقال منفعلًا: بس أنا مش عايز الصحوبية دي، أنا مش كلب هترميلى عضمة وهرضى بيها! غادرها ولم تره بعدها، فقد كانت هي كل ما يربطه بالمكان، بباريس، بفرنسا كلّها..

منذ طلاقها كانت «نوري» قد سدَّت على نفسها كل طريق قد تلتقي فيه بذاك الذي عذَّبها، كانت على إيمانٍ بضعفها أمامه وأن حاجتها له ستحرِّكها نحوه على غير رغبتها.. وفي فرنسا كانت قد اشترت جوالًا لولدها، وأرسلت إلى سليم رسالة قصيرة تحمل الرقم الخاص بصالح، تبعثها بثانيةٍ تحمل رجاءًا ألا يهاثفها أو يرسلها على رقمها أبدًا؛ فقد صار خاصًا.. كانت الرسالة أقصر من أن تحتوى حبًّا أو ألمًا أو عتابًا.. أرادتها جافة لتقطع على نفسها كل رجاء..

تعجز عن إخفاء غيمة سعادتها إذا سرَّب إليها «صا صا» بعض أسئلة والده عنها.. لقد تعبت من الإبحار وغايتها الوقوف على مرسى شاطئها..

شهورٌ وهي تحاول التأقلم أنها أصبحت خطيبة لرجل غير الذي تهوى، فلم تستطع..



الْكُلْ تَصَوَّرْ أَنَّهَا تَرَكْتَهُ مِنْ أَجْلِ «سَلِيم» حَتَّى «صَالِح»
تَصَوَّرْ ذَلِكَ، وَأَفْضَلُ مَا تَمَنَّى هُوَ أَنْ تَعُودَ الْمِيَاهُ إِلَى مَجَارِيهَا بَيْنَ
وَالِدَيْهِ.. فَسَارِعَ يَنْقُلُ لِأَبِيهِ الْأَخْبَارَ..

الْحَقِيقَةُ الَّتِي غَابَتْ عَنْهُمْ، أَنَّهَا حِينَ تَرَكْتَ «سَامَ» لَمْ تَكُنْ
تُضْمِنُ عَوْدَتَهَا لِسَلِيمَ، وَلَا جُرْأَتَ عَلَى تَخِيلِهَا، لَقَدْ تَرَكْتَهُ حَتَّى
لَا تُخْسِرَ إِحْتِرَامَهَا لذَاتِهَا.. إِنَّ حَرْبَهَا مَعَ الْحُبِّ خَاسِرَةٌ وَأَنَّ رَجُلًا
وَاحِدًا سَيُظَلُّ مُسَيِّطَرًا عَلَى قَلْبِهَا حَتَّى وَإِنْ خَسِرَتْهُ لِلْأَبَدِ..

نَفْسُ ذَاكَ الرَّجُلِ وَبِمَجْرَدِ أَنْ أَغْلَقَ الْهَاتِفَ مَعَ ابْنِهِ، شَعَرَ
أَنَّ دُنْيَاهُ مَا زَالَتْ بِهَا بَعْضُ الْأَمَلِ... فَطَارَ إِلَى غَايَتِهِ، فَلَا قُدْرَةَ
لأَحَدِهِمَا عَلَى الْفِكَاكِ مِنَ الْآخِرِ..
إِنَّ قُلُوبَ الْمُحِبِّينَ فِي خِفَّةِ الرِّيشَةِ..



وَفِي الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ نَفْسِ الشَّهْرِ لِنَفْسِ الْعَامِ كَانَ سَلِيمُ
فِي مَنْزِلِهَا، يَجْلِسُ أَمَامَهَا مَعَ ابْنِهَا.. يَسْأَلُهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ..
كُلُّهُ رَجَاءٌ إِلَّا تَخْذُلَهُ.. وَكُلُّهُ إِصْرَارٌ عَلَى تَكَرُّارِ الطَّلَبِ
وَالرَّجَاءِ إِنْ خَذَلَتْهُ وَلَوْ لِعَشْرِ سَنَوَاتٍ قَادِمَةٍ..
إِنَّ حَاجَتَهُ لَهَا مَتَوَقَّدَةٌ وَشَعُورُهُ نَحْوَهَا حَيٌّ لَا يَمُوتُ
وَلَا يَفْنَى..



شعرت بدقات قلبها تتصارع، ابتعدت قليلاً عنه تحاول أن
تمالك نفسها، فبعض الرسائل تُقرأ دون أن تكتب، تُقرأ في
لهفة العينين، ورعشة الشفتين، ورجفة اليدين عند اللقاء..
اقترَب يقول: أقسم بالله أتأدب وعرفت أني من غيرك ميت،
وإنك لو معايا يبقى العالم كله معايا.

لم تقاوم كثيراً.. لم تسعفها الكلمات.. وبصعوبة بالغة
قالت: يا غيتني ما عِغفتك.. يا غيتني ما حيتك.. إنت خلّيتني في
لحظة أحب الدنيا وفي اللحظة اللي بعدها أكغها مومت.

:نوري، حياتي من غيرك ضلّمة، عتمة، مفيهاش نور ولا
ليها طعم.. حاولت كتير أنساك وأصدق إني خسرتك العمر كله،
مقدرتش.. حبي ليكي كان بيكبر كل يوم وشوقي ليكي خلّاني
مُشفّس غيرك.. إنت عارفة ده يبقى إيه؟

قالت والدموع تترقق في عينيها: إيه؟
أربع خطوات كانت تفصله عنها؛ اقترَب أكثر، فلا مسافة
عادت بينهما، وببحة الدافئة التي تعشقها وضع جبينه على
جبينها يقول: ده اسمه احتلال!!

عناق عميق اقتحم به حيرتها وصمتها.. طوّقها بأدنى
حنان.. شدّت يديها على ظهره كأنّها تريد أن تختبئ بين



ضلوعه، شعر بدموعها تنساب على كتفه.. كان بكاءؤها وجعه،
فراح يضمُّها أكثر وأكثر فقالت: عذِّبْني أوي يا سليم.
: سامحيني يا نوّارة.. كان لازم أمّر بكل ده عشان أحبك
أكثر وأكثر.. أنا من غيرك أمووت.. حبّك علّمني إزاي أتوب..
إزاي أغتسل من الذنوب.

كانت تلك اللحظات أكثر أوقات عُمرِهما صدقًا ولذة..
فحين احتضنها شعر أنّ الحياة تحبه، تحتضنه بشدة.. أنّها
تكافئه.. وحين احتضنته شعرت بالأمان والسكينة، وكأنّها
استردّت أنفاسها.. وأنّ الزمان توقّف بها وهي بين أحضانه..
للراء مع الحب سرٌّ مستتر، فلا حب إلّا وفيه رحمة..
رقة.. رافة.. رُقي..



ثلاث سنوات عاشتها «نوّارة» في فرنسا، دخلت باريس
مُطلّقة «سليم» وخرجت منها زوجته، كانت فريسة للحزن،
قضمها الخذلان؛ فصارت وشمًا على قلبه لا يُمحى.. وأمام برج
«إيفل» وفي السادس من يوليو «يوم ميلادها» ألبسها سليمها
خاتمه وباتت هي في عمره حياةٌ تجري مع الدم وتكمن في جذور
النفس.. لم يحب غيرها ولم يخُنّها أبدًا.. انتهى إلى أن غيّرتها



أفضل من انطفائها، وملاحقاتها أغلى من تجاهلها.. فقد أدركه الفهم والتعلم ورأى بعينه واختبر بقلبه حين رحلت عنه لم يبق له من نفسه شيء..

غدت «نوري» الوحيدة التي تجيد القفز بين شرايينه.. انتصرت «نوري» واستطاعت أن تقتل في حبيبها أي أثر لآنثى غيرها..

وفي جزيرة «بالي-أندونيسيا» قضى العروسان شهر العسل تاركين «صا صا» في كنف خاله وزوجته يلعب الكرة مع «كينان» بينما تشاكسهما «رين».. تجري بينهما بإصرار تحاول مسك الكرة.. ومن «بالي» إلى أسبوعين على شواطئ «جزيرة المالديف»... ومن جديد عادت ذاكرة هاتفها تضم عددًا مهولًا من صورها مع «سولي» وصور لبطلها منفردًا... لقد ولدوا من جديد أشخاصًا آخرين.. لم يعودوا يشبهوا أنفسهم القديمة..

عادا بعدها إلى باريس وقضيا فيها شهرين تقريبًا، صفت فيهما «نواره» ارتباطاتها وبفضل نفوذ «مالك» وعلاقاته لم تعرف عناء تصفية العقود وشروطها الجزائية.. وإلى فيلا «الشروق» عادت، ومع سليم وعن طريق وكالته الإعلان صارت الوجه الدعائي الأشهر لعدة حملات متتابعة أتاحت لها أن تبقى دومًا في دائرة الضوء..



تعرفت «نوري» على «روز الصياد» وتوثقت علاقتهما أكثر حين تعرّضت روز لحادث سيارة خطير، فأوشكت على الموت.. احتاجت كميات كبيرة من الدماء والبلازما، بيد أن فصيلتها كانت نادرة وكان ذاك الخبر أعنف ما سمعه «سليم» في حينه؛ فسارعت نَوّارة تتبرع لها دون تردد، ثم توافد عشرات من محبيها ومعجبيها على المستشفى للتبرع استجابة لدعوة أطلقها صديقها «سليم أبو ستين» على مواقع التواصل الاجتماعي.. قضت «روز» في المستشفى شهرًا كاملاً لم تفارقها نَوّارة خلاله إلا قليلاً..

بعدها طفقت تفكر فيما يمكنها تقديمه.. وحده «هاني الصياد» من خطر على بالها، زارته في صومعته في «العين السخنة» واضعة حيرتها أمامه.. لقد تجاوزت الثالثة والثلاثين ولم تتزوج.. إنها أكثر صراحة مع ذاتها.. فحين أحبت «ابن البرنس» خطبت له... ويا للعاسة المحيين.. تركته برغبتها.. وخلعت عن إصبعها خاتمه بكامل إرادتها.. لكن شيئاً منه بقي عالقاً بها.. وصار الحب والزواج خاطراً يُفزعها.. فتنحّت عنهما وراحت تُدير دفة حياتها صوب نجاحاتها ووفق رغباتها.. لكنها تريد أن تمد فرووعها ويبقى اسمها.. وأن يسري قبس روحها في أرواح كثيرة لا تنطفئ أبداً..



اشتدت الموسيقى داخلها وخفتت كل الأصوات الأخرى..
ولم تعد تسمع إلا وقع أقدام حلمها يمشي في أروقة عقلها..
كانت قد تخرَّجت سابقاً بكلية العلاج الطبيعي - جامعة
القاهرة، وفور اعتزالها السباحة سافرت إلى أمريكا لتحصل على
بكالوريوس آخر في الإدارة الرياضية من الجامعة المشهودية الجنوبية
في دالاس، تكساس، ثم درجة الماجستير من نفس الجامعة.. كل
ذلك ساعدها على صياغة حلمها واستثمار نجاحاتها..

وفي ٢٠٢٦م دانت لها قطوف النصر، فقد حققت الهدف..
وافتحت أكاديميتها الدولية للسباحة والعلوم الرياضية..
واتحدت عواطفها كلَّها وتوحدت وعاشت سنينها الطويلة
تخدم طلاب أكاديميتها.. تنفق عليهم بسخاء.. تشعل حماسهم
وتقوي عزيمتهم.. أحبتهم من كل قلبها وباتوا أقرب لها من
نفسها وكأنهم ولدوا منها.. فتلك المسؤولية الكبيرة جعلتها
تنسى ذاتها أو تتناساها..

تجاوزت «روز» فكرة أن تتزوج لتثبت للجميع أنها تعيش..
لم تولد لتكون كمًا مهملاً مغلفاً بالتراهات، تسكن جوف
الليل بألم تلعن زوَّجاً لاه عنها أو ناقمة على حياة نفتها للعدم..
عاشت «روز» مستمتعة.. دون روح نازفة..



أَحَبَّتْ.. وَإِنَّهُ لَجَمِيلٌ أَنْ نُحِبَّ.. وَأَجْمَلُ مَا فِي الْوُجُودِ أَنْ
نَقْطِفَ ثَمَارَ ذَاكَ الْحُبِّ شَرِيطَةً أَلَّا نَكْتُمَ أَنْفَاسَ سَعَادَتِنَا بِأَيْدِينَا
وَنَقْبَلَ بِالْمَتَاحِ وَالْمَوْجُودِ فِي الْحُبِّ مِنْ أَجْلِ الزَّوْاجِ كَزَوْاجٍ..
فِي الْحُبِّ الطَّامِعِينَ وَحَدَهُمُ يَفُوزُونَ.. نُخْطِئُ جَدًّا حِينَ
نُظُنُّ أَنَّ الْحَيَاةَ عَادِلَةٌ.. وَأَنَّهَا سَتَمُنَحُنَا وَتُعْطِينَا وَحَدَهَا مَا
تَسْتَحِقُّهُ قُلُوبُنَا..

اشْتَدَّتْ عِلَاقَتُهَا بِسَلِيمٍ وَنَوَّارَةٌ وَتَعَمَّقَتْ.. فَتَحَا لَهَا
بَيْتَهُمَا وَقَلْبِيهِمَا.. قَدَرًا حَاجَتَهَا الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَى الْحُبِّ وَالْعُطْفِ
وَالْأَلْفَةِ... فَلَمْ تَمْلِكْ سَبَبًا يُقْنِعُهَا لَتَزَوْجٍ..



وَفِي ٢٠٢٥ م تَوَفَّى «عَمُو مَازِن» أَثَرُ إِصَابَتِهِ بِكَسْرِ فِي الرِّقْبَةِ
نَتِيجَةُ تَعَثُّرِهِ وَسُقُوطِهِ الْمَفَاجِئِ فِي الْحَمَّامِ مِمَّا أَدَّى إِلَى ارْتِطَامِ
جَمِيعَتِهِ بِحَافَةِ الْمَسْبَحِ «الْبَانِيُو»..

لَمْ تَسْتَوْعِبِ «مِيرَفَتُ» الْمَأْسَاءَ بِسُرْعَةٍ وَلَمْ تَسْتَطِعْ تَجَاوُزَهَا،
فَاعْتَلَّ بَدْنُهَا وَكَادَتْ تَنْهَارُ، لَوْلَا أَنَّ أَرْسَلَ لَهَا «مَالِكُ» دَعْوَةً
لِزِيَارَتِهِ فِي «بَارِيس».. وَهَنَّاكَ أَقْنَعُهَا بِالْحَيَاةِ مَعَهُ وَمَعَ حَفِيدَتِهَا
الْغَالِيَةِ «رِيَّانَ»، أَمَّا «سَدْرَةُ» فَكَانَتْ لَطِيفَةً وَدُودَةً مَعَ حَمَاتِهَا،
مَدَّتْ لَهَا يَدَ الْمَعُونَةِ لَتَنْجُو بِهَا مِنْ اكْتِتَابٍ شَدِيدٍ كَادَ يَطْبِقُ عَلَى



خلاياها.. وواصلت «نؤارة» مهاتفاتهما وزياراتها هي وزوجها، فلا تمر بعض الأشهر دون لقاءٍ عائلي يجمع الكل، يُقبلون فيه على بعضهم البعض يتبادلون الألفة والحب والذكريات..

وفي إحدى الزيارات عرفت نؤارة أنَّ «ميسون» قد تزوجت «سام الباجوري» وانتقلت هي و«كينان» للإقامة معه في فيلته الكائنة في منتجع «جميرا دبي» وأنَّهما قد رُزقا بطفلة صغيرة تُدعى «روفان»..

كان «سليم» يُمهد الطريق لكي يُقابل «نوري وصالح» وحيدته «وعد».. كان في احتياجٍ شديدٍ لذلك اللقاء وتلك العلاقة التي يتمناها ليكتمل شريط السعادة في داخله.. وفي عطلة الكريسماس لعام ٢٠٢٦م ربَّب سليم رحلةً سياحيةً إلى «أوتاوا» حيث «دودي».. وللأسف الليلة التي سبقت السفر أصيب «صالح» بتمزقٍ في الرباط الصليبي أثناء تدريب كرة القدم في النادي الأهلي حيث انضم إلى فريق الأشبال هناك.. فألغيت الرحلة.. فما باليد حيلة.. وطار «صاها» مع والديه وطبيب النادي إلى ألمانيا حيث أُجريت له جراحة عاجلة..



وبعد عامين وبضعة شهور قرَّرت «ميرفت» العودة إلى



القاهرة، لقد بلغت السابعة والستين واحتدَّ بها الشوق إلى بلدها ومسقط رأسها وبات جسدها يرتعش لمجرد فكرة أن ينتهي بها الأجل في بلاد غريبة رغم فخامتها..

ومنذ ذاك الوقت وتحديداً في شتاء ٢٠٢٧م، أصرَّ سليم على ألا تسكن حماته بمفردها في فيلا «الدقي»، وأثَّ لها جناحاً مريحاً أنيقاً لتقيم فيه، ووطأت بقدميها فيلا «الشروق» التي سجَّلها «سليم» باسم «نَوَّارة»... فكانت إقامتها معهم مصدر بهجتها وسعادتها، فصالح حفيدها صاحب روح مرحة وذكاء متقد، لا يبرِّحُ يضحك جدته ويداعبها كلما التقاها.. أما زوج ابنتها فقد أذابت العشرة ما بينهما من جليد، بل أنَّه سعى يطرُق قلبَ حماته بكل ودٍ وحبٍّ وأدب، حاول أن يُنسيها انطباعاتها القديم عنه، فلم تصدر منه كلمة واحدة جارحة أو تصرف وحيد قد يُساء فهمه أو تفسيره... فصار حبيبها الغالي وقد تحرَّر قلبُها من كل ضيقٍ أو غضبٍ كانت تحمله له في يومٍ من الأيام.. إنَّه الصَّفِّي العزيز؛ فلا تشرب قهوة المغرب دونه، ولا تتناول كوب الزبادي ليلاً إلا من يديه، يُلاعبها «الطَّاولَة» عادةً ومحبوسة، فإن هزَّمته يأخذها إلى تمشية خاصة حول الفيلا لنصف ساعة، لهما خلالها حديثٌ خاص، تتشبث حينها في ذراعه تتكأ عليه،



كعكازٍ أبنوسي أصيل، وإن هزمها يسألها أن تصنع له «الزلايا» حلوته المفضلة وتشرع عليها بودرة القرفة ومبشور جوز الهند وتغرقها في العسل.. وفي عيد ميلاده أرادت أن تهديه شيئاً خاصاً.. خاصاً جداً كمكائته عندها.. سألت «نوري» عن رأيها في أن تبتاع له كلباً، تعرف جيداً حبه الشديد لهم وتعلقه بهم دون غيرهم من الحيوانات الأليفة.. رفضت نوري الاقتراح ونصحت أمها بالتفكير في غيره... وبايجاز أخبرتها عن أزمة «سولي» مع الكلاب.. أزمته الحية جداً..

فلم يكن سليم كطفل مسموح له أبداً اقتناء أي حيوان أليف، فالبية الكبير يكره وجودها في السراي، ناقش معه الأمر مرة.. كانت مناقشة من طرف واحد غالباً ولم تستمر سوى دقيقتين.. انتهت إلى فرمان حازم ألزم الصغير بعدم اقتناء أي من تلك الجراء التي كان يلاعبها دوماً خارج سور الحديقة الخلفية للدوّار لكنه حين رحلت عنه نوّارة كانت حاجته شديدة لمن يواسيه ويشاركه التنفس تحت سقف واحد، قبل مشورة صديقه أسامة رَحِمَهُ اللهُ وزار ملجأً للكلاب وغادره مُصطحباً «بوتشي» والثمانية والثلاثين يوماً حصيلة كل أيام عمره.. عاشره وقاسمه كل شيء خمسة أعوام كاملة حتى انتزعه منه فيروس لعين



متناهي الصغر، عظيم الأثر... لقد ركبته الهم وغشاه الحزن.. اعتلّت صحته النفسية والجسدية وامتدّت أعراض حزنه واكتأبه إلى شهرين كاملين... كان الأمر بشعاً، قاسياً للغاية.. وصل للحد الذي ظهرت معه أعراض نوبة قلبية على سليم، احتجزه الطبيب حينها يومين كاملين تحت الملاحظة الشديدة... لم يكن الأمر أبداً سهلاً ولا هامشياً.. لقد كانت تجربة مُدمرة عاطفياً... لم يقدر بعدها على تكرارها ولم يجرؤ، فقد استمر حزنه وحداده على رفيقه الوفي لسنواتٍ وإن اختلف شكل الحِداد..

استوعبت «ماما ميرفت» سبب الرفض وراحت تبحث عن هدية لاثقة لا تُسبب ألماً، هداها تفكيرها أن تُخصّه بتولة عود كامبودي مُعتقة وُغليون فاخر من خشب الخيزران المخلوط بالعنبر.. لقد صنّع الغليون له خصيصةً كقطعة واحدة نُقش على مِيسَمها اسمه بالخط الكوفي..

باتت تؤمن به وبرأيه السديد ولا تقطع أمراً دون موافقته، فقد غزا قلبها بروحه النبيلة وبقلبه الفرات... ثقةً عمياء أولته إيّاها، وحين قرّرت بيع فيلا «الدقي» أوكلت الأمر إليه؛ فباعها بمبلغ خيالي لم تكن تتوقعه البتة.. وفي حياة عينها قسّمت ميراثها، فمنحت «نوري» ثلثه، وإلى «مالك» الثلث الثاني،



أمّا الثّالث الآخر فجعلته ودیعةً بنکیة تُستثمرُ عوائدها فی مشروع خیری أسمته «ویّاک» لسدادِ دیون الغارمین والغارمات.. استأمنت علیه ابتها وزوجها إلى قیام الساعة..

ولمّا استشعرت قرب نهايتها هاتفت ابنها تسأله الحضور بمعیة زوجته وابنته «ریّن».. فلم یمتنع عنها وزارها فی نفس الشهر، لكن حالة «سدرة» الصحیة حالت دونَ قدومها، كانت على وشك الولادةٍ ورفض طبیبها سفرها ونصحها بالتزام الراحة التامة، فحرصت على مُهاذفة حماتها یومیاً هي وصغیرتها عبر تطبیق «السكاي بی».. وتطبیق «بلیندر» الذی یُشیح لها رؤية المتصل بأبعاده الثلاثیة، فشكرت العجوزُ للتکنولوجیا جمیلَ صنیعها..

ولأنّه لا مهرب للمرء من مصیره، فقد قابلت «مامی میرفت» بارئها فی الثانیة والسبعین من العمر بعدما أصیبت بحمی مفاجئة استمرّت أربعین یومًا دونَ أنْ یصلَ الفریقُ الطبّی المشرف على حالتها إلى أسبابِ تلك الحرارة المرتفعة التي هاجمتها واستوطنت جسدھا فما تلبث تنخفض حتى تعاود الارتفاع ثانیةً وبشكل غیر مبررٍ، فرغم التقدم الطبّی والإمکانیات العالیة المتاحة وكل التدابیر والاحرازات الاحترازیة لم تفلح الجهود، تمّ فحوصها وبدقة من قبل طبیب مخ وأعصاب وطیب متخصص



في أمراض الدم والمناعة وطبيب آخر متخصص في السكتة الدماغية، الكل أجمع أنه لا سبب واضح لما يحدث، استمرت إقامتها في العناية المركزة شهراً حتى فارقت الحياة في حضن ابتها بينما سليم يُحَادِث الطبيب المشرف على حالتها... كان ذاك قرب نهايات عام ٢٠٣٢م..



أمّا «سليم ونوري» فقد سارا في الحياة كقنديلا بحر ملتصقين، يتمددان معاً وينكمشان معاً، يملآن فراغات بعضهما البعض بكل مرونة وبصورة غريزية، فلا شيء يضاهي حب امرأة لرجلها بعبوبه ومميزاته حتى النخاع، ولا شيء يُعادل حب رجل لامرأته بغيرتها وتقلباتها حتى الانغماس.. إنه عشقٌ دفعاً معاً ثمن خلوده من عقليهما وجنونهما وقلبيهما.. ففي حكايات الحب فصولٌ كثيرة، تفاصيل مملّة، تصرفات حمقاء، أحلام غبية ومناوشات وقحة.. لكن تلك الفصول مجتمعة هي ما تصنع للحب تاريخه الجميل وذُكره اللامعة.. ففي سنوات خلت بكى كلاهما وحيداً خوفاً من ضياع الآخر؛ فأبكاهما الله فرحاً بحلاوة اللقاء وأرضاها بالوصل مُجتمعين وكأنهما لم يحزنا يوماً..



(١٠)

روعة مصطفى عبد القادر أبو ستين

(المولودة في ١٧ - إبريل ١٩٨٩م)

جاءت إلى الدنيا بهيئة الطلعة، رائعة المنظر، عيناها واسعتان عسلتان تبهران القاصي والداني بروعة تكوينهما ولمعان بريقهما؛ فأطلقت عليها أمها اسم «روعة» وكلَّها قناعة ورضا بأنَّه «اسم على مُسمى»، وهي الثمرة الوحيدة لزواج والديها، ولِدَتْ في فيلا أنيقة في ألماظة بالقاهرة..

أمها «لولا رمزي» إحدى نجومات شارع الهرم في الثمانينات، اعتزلت الرقص بعد طلاقها من زوجها السياسي الشهير والذي ربطها به عقدُ زواج عُرفي شاعت الأقدار أن يكون مصطفى عبد القادر أحد الشهود عليه منتصف عام ١٩٨٣م، آنذاك كانت البداية حين انضم مصطفى سرًّا إلى جماعة الإخوان ثم جاهر بانتمائه بعدما اطمئن بأله واستقرَّ يقينٌ في قلبه أنَّه معهم وبهم سيكون له شأنٌ أعلى وأهم وهذا بيتُ القصيد، بعدها بعام تقريبًا عُيِّن سكرتيرًا في مكتبِ مرشد الإخوان وظلَّ على صلةٍ حميمة بالراقصة التائبة المُعتزلة والتي انخرطت في ترتيبِ دروسٍ دينية



في فيلتها لأحد مشاهير الساحة من المشايخ المُودرن مِمَّن يَرتدون
البِزَّاتِ الثمينة والبناطيل الجينز، واندمجت في برنامجٍ مُعدٍّ سلفاً
لاستقطاب واستتابة الفنانات المصريات وبخاصة الشهيراتِ
مِنْهُنَّ، وفي فيلتها ارتدت أربعٌ مِنْهُنَّ الحجاب، مُعلنات التوبة
والاعتزال.. لم يكن يعنيهَا اعتزالهنَّ ولا حجابهنَّ إنما شغفها
تبلورَ فيما تحصل عليه من مكافأةٍ ماليةٍ مُحترمة على كل
«راس»... وعن طريقها وطريق جماعته المُنظمة استطاع مصطفى
توطيد علاقته ببعض السياسيين والصحفيين ورجال المال،
وخلال عامين بزغ نجمه وعلا شأنه؛ فتزوج «لولا» طامعاً في
المزيد، وأسساً معاً شركة «الرابع لتوظيف الأموال» بتمويلٍ
إخواني سعودي، لكنَّه سرعان ما أنهى علاقته بهذه الشركة بعدما
فُطِنَ إلى إصرار الحكومة وتوجُّهاتها الأكيدة نحو الانقضاَضِ
على شركاتِ توظيف الأموال كافة؛ فأفلتَ «مصطفى» بما له من
حنكةٍ ودهاءٍ مِنَ الوقوع في الشَّرْكِ، وأعلن تصفية الشركة واتجه
بحصيلته «الخَمِيرَة كلها» كما سمَّاها نحو نشاطٍ آخر أرادَه
تجاريّاً بحثاً لعلاقةٍ له بالسياسة من قريبٍ أو بعيدٍ، وافقته
«لولا» على قراره قناعةً منها بأنَّه فعلاً موهوبٌ في هذا المجال،
واتجهها معاً إلى البحثِ عمَّا هو أأَمَنُ وأفضل، لا تُخالفه الرأي إن



تعلق الأمر بالمال والتجارة، بل تضع وعن ثقة كل علاقاتها وإمكاناتها رهن إشارته..

وبتلك الزيجة انقطعت العلاقة تمامًا بينه وبين أخيه «جعفر» كما قلت اتصالاته بأمة آمنة وشقيقته رحمة، وكان فيما سبق قد باع لأمة «السبعين فدان» كل نصيبه من أرض أبيه كما باع لمُسعد زوج توأمته رحمة نصيبه في سراي آل ستين، ذاك النصيب الذي اشتراه أخوهما «جعفر» فيما بعد حتى لا يكون لرجل غريب مقدار شبرٍ في سراي أبو ستين... سالت الأموال في يد «مصطفى» واشترى مَحْمَصَة بُن برازيلي في شارع الجيش، وبَعْدَ زواجه باع المحمصة وصَفَى شركة الرابع وشارك أحد أبناء عائلة «أبو شقرة» في مشروع ضخمة لتربية النعام وتصديره، ازدهرت مشروعاته وتعاضمت أمواله؛ فاشترى قطعة أرضٍ واسعة في «حي المأظة» وشيّد عليها فيلا ضخمة مهيبة على أحدث طراز لتنافس في حَجْمها وبهائها سراي أبو ستين ولو في خياله، وفي الذكرى الرابعة لميلاد وحيدته «روعة - ريكا» سجّل الفيلا باسمها، واستمر نجمه في الصعود واتسعت دائرة علاقاته ومعارفه، فانتخب عضوًا في مجلس الشعب ليزايل أخاه غير الشقيق «جعفر» تحت قبة البرلمان.. وكان ذاك أعظم الإنجازات في نظره!



لم يكن مصطفى أبداً مِمَّن يكثر ث لملامةٍ أو عتاب، لا يسمع النصّح ولا يميل إلى المشورة كدأب آل أبو ستين جميعهم، يُحرّكه دوماً غروره وكبريائه، أضمر كراهيته وازدراءه لأبيه ظاناً أَنَّهُ يُفْضَلُ عليه أخاه «جعفر»، تفشت الكراهية داخله وأفسدت عليه نفسه وساءت علاقته بأخيه، وكثيراً ما تشاجرا ولعلَّ حُبّه الأصيل لأمه أمانة وامتنانه الشديد لها ولِمَا خصّته به هو وتوأمته رحمة من رعاية وبذل وعطاء هو العامل الوحيد الذي منعه عن إلحاق الأذى بجعفر، يعمل لآمنة النابلسية ألفَ حساب حُبّاً لا خوفاً، ولولاها لنازَلَ أخاه في كل مضمارٍ حتّى آخر العمر..

أمّا «لولا رمزي» أو «لبية» فقد ولدت ونشأت في مدينة «البحيرة» لأبٍ كبير السن يعمل إماماً لزاوية صغيرة وأم جاهلة لا تفك الخط، تتقوّت من عملها «مَغْسِلة للموتى» تابعة لنفس الزاوية، فرّت «لبية» إلى القاهرة حين بلغت السادسة عشر هرباً من فقر مُدقّع لأسرة كبيرة العدد، ضئيلة الموارد، سبعة صغار يلتفون باكيين حول أم تكلّى لا حول لها ولا قوة تبكي رحيل زوجها الشيخ العليل الذي قُتل خطأ في عَرَكَةٍ بين عائلتين في شادر السمك..

طارَت «لبية» من السعادة حين وجدت عملاً يسد حاجتها ويُرّيح بالها، أي عمل لا يُهم، المهم أن تكسبَ مالاً تُرسل بعضه



إلى البقية الباقية من أسرتها في البحيرة، فقد غادر بعض أشقائها الواحد تلو الآخر إلى جهات غير معلومة وانقطعت أخبارهم بينما يُصارع الباقي منهم ظروفه الصّنكة، وفي غضون شهور قليلة تغيّرت مهنتها، فلم تُعدّ تغسل الكاسات ولا تنظف الصّالة والمسرح وتفرّش الطاولات بالمفارش الحمراء بل صارت هي نفسها ترقص لزبائن «البرجولة»، كازينو شعبي في شارع الهرم، تتمايل بجسدها الميّاس تؤدي رقصتها بليوننة، ثم تُجالس زبائن الصّالة تتعشى معهم وعلى حِسّها ومن أجل عينيها تُفتح زجاجات الويسكي والشمبانيا... أصبح لها يومية عمل ونصيب ثابت من «النقطة»، وهكذا تبدّلت من «لبية» بنت الشيخ الفاضل «عبد العزيز رمزي» إلى «لولا رمزي»..

وفي تطورٍ طبيعي كُبرت أحلامها وتمنّت أن تصبح «الأسطى البريمو» وأن تتخلص من سطوة «النبطشي»^(١) وعقد العمل الذي يُكبلها ويحصل به الكباريه على نصيب الأسد من «الأبيج»؛ فتزوجت «توفيق بيه» صاحب المحل، ولأنّها جميلة، صغيرة السن، حلوة اللسان، باختصار «دلوعة» استطاعت السيطرة على قلب الرجل الذي أُصيب بعد عامين من الزواج في حادث

(١) الشخص المسئول عن جذب الزبائن واستقطابهم للمحل كما أنّه مسئول عن تنظيم العمل و تقسيم الزبائن على فتيات الكباريه



سَيَّارَةً إصَابَةً بِالْغَةِ قَضَتْ عَلَى رَجُولَتِهِ؛ عَجَزَهُ الْجَنَسِيُّ حَطَمَهُ
تَمَامًا؛ فَأَصْبَحَ ضَعِيفًا ذَلِيلًا، لَا رَأْيَ لَهُ وَلَا كَلِمَةَ، لَا يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ
فِيهَا وَلَا يُنَاقِشُهَا فِي أَمْرٍ وَلَا يَرَا جَعَهَا فِي تَصَرُّفٍ خَشِيَةِ الْفُضِيحَةِ،
وَمَخَافَةٍ أَنْ تَهْجُرَهُ إِلَى غَيْرِهِ... ضَعْفُهُ جَعَلَهَا مُتَجَبِّرَةً مَتَمَادِيَةً،
وَخُنُوعَهُ أَحَالَهَا إِلَى طَاغِيَةٍ لَا قَلْبَ لَهَا!

مَاتَ «تَوْفِيقٌ» تَارِكًا ثَرْوَتَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي يَدِ «لَوْلَا» وَبَتَوَكِيلٍ عَامٍ
رَسْمِيٍّ خَصَّهَا بِهِ قَبِيلُ وَفَاتِهِ بَاعَتْ لِنَفْسِهَا الْكُبَارِيَةَ وَشَقَّةَ الزَّوْجِيَّةِ
وَاسْتَوْلَتْ بِالْكَامِلِ عَلَى رَصِيدِهِ فِي الْبَنْكِ، وَبَعْدَ انْتِهَاءِ مَرَامِ الْعِزَاءِ
وَفِي نَفْسِ يَوْمِ الْوَفَاةِ طَرَدَتْ شَقِيقَتَهُ الْكُبْرَى وَأَوْلَادَهَا الْيَتَامَى مِنْ
شَقَّةِ «الْمُنِيرَةِ»، شَقَّةٍ صَغِيرَةٍ تَحْمِيهِمْ مِنَ التَّسَكُّعِ فِي الشُّوَارِعِ،
لَمْ يَمْنَحْ الْقَدْرُ «تَوْفِيقًا» فُرْصَةً لِيُسَجِّلَهَا بِاسْمِ شَقِيقَتِهِ، لَكِنَّهَا
اسْتَبَقَتْ أَخْتًا غَيْرَ شَقِيقَةٍ لَهُ، إِنَّهَا «زَيْنَبٌ»، تِلْكَ الرِّشِيقَةُ الْمَايِعَةُ
الَّتِي لَمْ تَنْهَمْ «لَوْلَا» بِالْذَّلَةِ وَالسَّفَالَةِ رَغْمَ كُلِّ مَا فَعَلَتْ، بَلْ
سَارَعَتْ تَسْتَرْضِيهَا وَتَسْتَعِظُفُهَا لِتَبْقَى مَعَهَا فِي الْقَاهِرَةِ، فَكُلُّ
شَيْءٍ وَأَيُّ شَيْءٍ يَصْدُرُ مِنَ «لَوْلَا» لَا يُقَاسُ بِالْعَذَابِ الَّذِي عَاشَتْ
فِيهِ طَوَالَ سِنَوَاتٍ صَبَاهَا مَعَ زَوْجِ أُمِّهَا السَّكِيرِ الَّذِي قَاسَتْ فِي
كَنْفِهِ كُلَّ أَلْوَانِ الْمَهَانَةِ وَالذَّلِّ وَالْعَذَابِ حَتَّى اسْتَطَاعَتْ الْفِرَارَ مِنْهُ
إِلَى أَخِيهَا «تَوْفِيقٍ»، كُلُّ مَا قَدْ تَفَعَّلَهُ «لَوْلَا» بِهَا أَهْوَنُ مِثَّةٍ مَرَّةٍ مِنْ
عَوْدَتِهَا إِلَى «الْمَنْصُورَةِ» حَيْثُ أُمُّهَا وَذَاكَ الزَّنْدِيقُ الشَّرْسُ..



لم ينقض أسبوعٌ على موت توفيق حتى باعت «لولا» شقة
المُنيرة واصطحبت زينب للسكن معها... شهرٌ آخر وصارت زينب
«زيزي صبري» راقصة «كبارية البرجولة» الأجل والأفضل..



أحبت لولا زيزي، رأت فيها نفسها، نموذجٌ جديد لتعاسةٍ
أخرى، تعرف أنّ ما تحصلت عليه «زينب» المسكينة من الحياة
لا يزيد عمّا تحصّلت هي عليه قبلها... قصة «زيزي» هي نفسها
قصة «لولا» بإحداثياتٍ مختلفة... إنّها قصةٌ عشراتٍ أو مئاتٍ
وربّما آلافٍ من البنات يحملن في صدورهنّ عذاباتٍ ويقاسين في
حياتهن الولايات جراء ظروفٍ اجتماعية طاحنة مُهينة لا ناقة لهنّ
فيها ولا جَمَل... «زيزي» تُطابق «لولا»، بيضاء بضّة، لا تكفّ
عن الضحك والتمايل، يُدندنان الأغنيات ويتراقصان على أنغام
الموسيقى إذا ما جاشت الصدورُ بألم الذكرى أو فارت العقولُ
بنار الحنين إلى الموطن والأسرة وإلى ما فات!!

ومع الأيام تعلّقت كلتاهُما بالأخرى، وقد صارت شقة
«لولا» وفيما بعد فيلتها هي كل دنيا «زيزي» واستقرت فيه
نعيمًا مقيمًا، كثرت أموال «لولا» وتزوّجت السياسي المشهور
الذي أحبّت، تزوجته شهورًا زواجًا سرّيًا بعقدٍ عرفي، يأتي



إلى بيتها قبيل الفجر متخفياً؛ فتُسرع «زيزي» إلى غرفتها وتغلق عليها بابها، فمن غير المسموح لأحد أن يتجول في الفيلا إذا ما حضر سعادته، حتّى الخدم تمنحهم «لولا» إجازة مدفوعة الأجر يومها على أن يعود جميعهم عصر اليوم التالي بينما تقوم «زيزي» على خدمة وراحة الزوجين، ثم انتهت أيام العشق وتبخر الغزل والعسل وأصبحت «لولا» تضيق بتحكّمات زوجها وغيرته الشديدة عليها، في الوقت الذي لم يعد يمنحها نفس الهيام واللهفة، زادت عصبيته وتوجساته؛ سألها اعتزال الرقص فماطلته، كثر الشجار وطال الخصام ثم فاجأها بالطلاق، فهداها تفكيرها إلى الاعتزال لعلّها بذلك تستعيده، اعتزلت الرقص وهي على القمة فما تحقّقت رغبتها، فقد طار عصفورها ليُغرد على غصنٍ آخر، مفاجأة جديدة كانت في انتظارها بعد شهرين من الطلاق، فقد تزوّج سعادته بإعلامية مشهورة ترطن بالإنجليزية والفرنسية ولها برنامج أسبوعي كانت «لولا» تتابعه سابقاً بشغفٍ وإعجاب.... صدمتها فيه أربكتها وأتلفت أعصابها ولولا وجود «زيزي» بجوارها لانهارت «لولا» تماماً..

ثم بدأت علاقتها بمصطفى تأخذ مسلكاً آخر، اتحدت المصالحُ وتوافقت الرغباتُ وكان الزواج، بعده بأعوام ثلاث



جاءت الجميلة «روعة» إلى الحياة فكبرت معها أحلام الزوجين وراحا يخططان لكسب وتكديس أكبر قدرٍ من الأموال إيمانًا بأن المال وحده السيد الذي تنحني أمامه أعظم الهامات وتطأ طأله الرؤوس مهما علت الرقاب التي تحملها..

نشأت «روعة - ريكا» وتفتحت عيناها على أبٍ ذكي وأم أكثر ذكاءً، رأت في أمها أنثى جبارة، طاغية الشخصية استطاعت أن تمحو شخصية زوجها ببراعة ودون أدنى مقاومة منه، «مصطفى» ذلك الرجل الذي يهب واقفًا في البرلمان ليُلقي كلمته أو يتمخض ليُقدِّم استجوابًا لأحد الوزراء، ثم يُسرع متوجهًا إلى مزرعة النعام ليقف بنفسه على تطورات العمل وكشوفات التكاليف والأرباح، بعدها إلى مقر مكتبه الذي يلتقي فيه بأبناء دائرته، رجل تفوح منه رائحة القوة والحضور وفي منتهى النشاط، تتغير شخصيته وتبدل نبرة صوته، نظرة عينه بمجرد أن يدلف إلى البيت... تعودت روعة على ما تراه وما تسمعه، «ماما لولا» هي الكل فالكل و«بابا مصطفى» أمامها باهتٌ مُنكمشٌ تناديه بخلاعة باسم «ويصا»، فيسقط رنين اللفظ في صدر الصغيرة تاركًا صدى مؤلمًا وكأنه سكينٌ تنغرز في قلبها، تمنّت أن ترى والدها صلبًا قويًا في وجه «لولا»، تمنّت ألا تراه في ثوب «ويصا»..



وَعَتَ عَلَى الدُّنْيَا وَهِيَ تَرَاقِبُ تَصَرُّفَاتِ أَمْعَالِهَا الْمُتَنَاقِضَةِ،
امْرَأَةً فَاضِلَةً جَدًّا، مُحْجَبَةً وَقُورَةً جَدًّا أَمَامَ الْعَامَّةِ وَالضُّيُوفِ
وَالْغُرَبَاءِ، فَمَا أَنْ يَنْصَرِفُوا وَيَخْلُوا لَهَا الْجَوْحُ حَتَّى تَخْلَعَ عَنْهَا بُرْقَعَ
الْحَيَاءِ وَتَتَزَيَّنَ زِينَةً فَاقِعَةً، تَلَطِّخَ وَجْهَهَا الْأَبْيَضَ الْمَمْتَلِئَ فِي
فِتْنَةٍ بِمَسَاحِقِ التَّجْمِيلِ الْحُمْرَاءِ وَالْخَضْرَاءِ، ثُمَّ تَتَمَدَّدُ عَلَى كَنْبَةِ
الْأَنْتَرِيَةِ وَسَطِ صَالَةِ الدُّورِ الْعُلَوِيِّ مِنَ الْفَيْلَا وَقَدْ ارْتَدَّتْ قَمِيصُ
نَوْمٍ فَاقَعَ اللَّوْنُ يَكْشِفُ عَنْ ذُرَاعَيْهَا وَسَاقِيهَا وَصَدْرِهَا الشَّامِخِ
فِي كِبَرِيَاءٍ، لَا يُفَارِقُ لَيَّ الشَّيْثَةِ يَدَهَا، تَدْخِنُهَا بِشِرَاهَةٍ، لَا تَمْنَعُهَا
نَظَرَاتِ ابْتِنَاهَا نَحْوَهَا، وَبِصَوْتٍ يُجْلَجِلُ تَنَادِي: وَيَصَا... إِنْتَ فِينِ
يَا رَاجِلَ، الْحَبَرَ وَجُوجَ وَالنَّارِ وَلَعْتَ عَلَى الْآخِرِ؟!

فُتْسِرِعَ «زَيْزِي» لَتُمَسِّكَ كَفَ الصَّغِيرَةِ «رِيكَ» تَدْخِلُهَا إِلَى
غُرْفَتِهَا تَنْفِيذًا لِاتِّفَاقٍ مُسَبَّقٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَدَامَ «لُولَا»..

دَلَالُ «لُولَا» وَمَيُوعَتِهَا وَعَقْلِيَّتُهَا الْقَاصِرَةُ الْمَحْدُودَةُ فِي أُمُورِ
التَّرْبِيَةِ فَرَضَتْ حَاجِزًا مَنِيعًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ابْتِنَاهَا، وَفِي سَنَوَاتِهَا الْعَشْرِ
الْأُولَى الَّتِي عَاشَتْهَا مَعَ وَالِدَيْهَا لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِهَا أَنْ تَفْهَمَ أَوْ
تُفَسِّرَ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ، لَكِنَّهَا وَبِفَطَرَتِهَا السَّلِيمَةِ انْزَعَجَتْ وَشَعَرَتْ
بِالضُّيُوقِ وَأَصْحَحَتْ تَتَجَنَّبُ مَجَالِسَةَ وَالِدَيْهَا، تَنْحَصِرُ سَعَادَتُهَا فِي أَنْ
تَجْلِسَ عَلَى الْأَرْضِ دَاخِلَ خِيَمَتِهَا الَّتِي تُقِيمُهَا بِكَرْسِيِّ صَغِيرٍ



تغطيها بملاءة قطنية داكنة اللون، هناك تتنفس الصعداء في عالمها الهادئ ومساحتها الآمنة.. لا أحد بوسعه أن يقتحم عليها عالماً صغيراً دافئاً تراه هي رحباً ممطراً..

أمّا والدها فقد غرق في مشاكل العمل ومجاعة تجارتها وملاحقة أخيه «جعفر» في كل زاوية، فقد سيطرت على عقله وكيانه رغبة قاتلة في التفوق عليه، يُسارع إلى كل فرصة يُمكنه أن يسدّد بها ضربة موجعة لجعفر... خرج مصطفى من بر خيل لكنها لم تخرج منه، بنى لنفسه سجنًا دخله وأغلق الباب خلفه واحتفظ بالمفتاح في جيبه ثم نسى وجوده ورويدا رويدا انعدمت رغبته وذبلت قدرته على الخروج من سجن بناه هو لنفسه!.

وفي ١٩٨٤م عرف أن أخاه رُزق صبياً اسماه سليمان فتناحرت في صدره رغبتان، رؤية الصغير، حملة، هدهدته، إنه الامتداد الجديد لعائلة أبو ستين وفي اللحظة التالية ولدت خواطر أخرى في رأسه، ماذا لو مرض الصغير بمرض عضال، أو مات.... يااااااه، حينها سيحترق قلب جعفر وسيأكل الحزن كبده، يتمناها مصطفى لكنه لا يستطيع الدعاء بها، وليته يستطيع ليستريح قلبه!.

أحب مصطفى سليمان يوم وُلد وكرهه في ذات اليوم أيضاً، لكنّه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من ذلك..



وفي بدايات عام ١٩٩٩ م بدأ شعورٌ غريب يبتاب مصطفى، إذ اجتاحتته رغبةٌ عامرة في رؤية آمنة؛ فهاتفها مستئذناً للزيارة، فوجد منها ترحيباً شديداً رغم خشيةٍ أخفتها في صدرها من سوء تفاهم جديد أو مشاجرة جديدة ربّما تندلع بين الأخوين، لكنّها لم تستطع أن ترفض زيارة مصطفى؛ فقد كانت لهفتها عليها وشوقها له أكبر كثيراً من أي خشيةٍ أو ترقب، وكان اللقاء حاراً مفعماً بعواطف صادقة، أحزنه أن رأى أمه آمنة وقد ضَعُفَتْ وهزل بدنها رغم أنّها مازالت في قمة التركيز، ذهنها حاضر وذاكرتها قوية، سألها أن ترافقه إلى «القاهرة» سيرضها على أشهر وأمهر الأطباء، بل سيرسلها للخارج، لأوروبا إن إقتضى الأمر؛ فابتسمت تقول: هيعملوا إيه الأطبّه يا ولدي؟ هيزودوا عمري كام يوم ولا حتى كام سنة، الأمر لله يا نور عيني، متخافش عليّ..

اصطحب «لولا» معه وكان ذاك لقاءها الأول والأخير بالسيدة النابلسية..

وفي نفس الزيارة قابل سليم ابن أخيه جعفر، راقته لباقة الفتى وعذّب حديثه والأدب الجم الذي عامل به سليم عمه وزوجته، رافقه يتمشى تحت ظلال أشجار الحديقة الفارعة، يومها لالعبه الكرة وحديثه عن ابنته «روعة» وشقاوتها ولباقتها



وسرعة بديهتها، ورغم أنها في العاشرة من عمرها إلا أنها تنازله
الشطرنج رأساً برأس وتهزمه أحياناً، يومها مال سليمٌ بقلبه ناحية
عمّه، لم يشعر أنّه عدو، لم يجده مطابقاً لصورة الشرير التي
رُسمت في خياله رغمًا عنه، ورغم حدة ملامح مصطفى إلا أنّه لم
يكن يخلو من وسامةٍ زادت تلك الشعيرات البيضاء التي زحفت
نحو فوديه، وجده رجلاً ظريفاً، كثير المزاح، يُجيد إطلاق
النكات، له مهارةٌ فائقة في انتزاع الضحكات من القلب، يلمع
في عينيه شعاعٌ جميل كلما تحدث عن ابنته الأثيرة «ريكا»... لم
يصحبها يومها، ولم تطأ قدماها السراي لكن سليماً رسم لها
في عقله صورة مبهجة بريشة أبيها، عيناں واسعتان في لون العسل
وضفائر بُنية في لون البندق ملقاة على كتفينٍ مرمرتين، لكن
للأسف اختتمت الزيارة بمشادةٍ كلامية وقعت بين الأخوين حين
وصل جعفر إلى السراي وعلم بحضور «لولا» المتهتكة مع
زوجها، فرغم اعتزالها الرقص آنذاك إلا أنّها في نظره ليست أكثر
من راقصة كبارية تشمئز منها النفوس... نفس «جعفر» الأبية
تصادمت مع عناد أخيه واتسم تصرفهما معاً بقدرٍ كبير من الغباء
وقد قسا كل منهما على الآخر فأنتهيا إلى خصامٍ شديد وخرجت
«لولا» من السراي شبه مطرودة؛ فاستقرّ نفورٌ كبير في قلبها



تجاه أهل زوجها وأسرته خاصة «جعفر»، وأقسمت ألا تدخل له بيتاً بعد ذلك اليوم المشئوم... شد ما أحزن «مصطفى» حينها هو رفض «لولا» التام لاقتراح قدّمه لها لاحقاً في ساعة رضا، أراد أن يأخذ «روعة» إلى السراي في زيارة واحدة فقط تنفيذاً لرغبة وطلبٍ وضعتهما الحاجة آمنة أمانة في عنقه، سألته أن ترى وحيدته الغالية ولو لمرة واحدة فقط!

لكن رفض «لولا» كان قاطعاً، فلا يُمكن لصغيرتها أن تكون يوماً من هؤلاء ولا أن تُعاشِر هؤلاء، غضبها من «جعفر» وإهانته الجارحة لها كان أكبر وأضخم من أي رغبة أخرى، تراءى لمصطفى أن يُهادن زوجته حتى حين؛ فيكفيه خزيّاً أنّه لم يدافع عنها كما يجب حينَ تعرض «جعفر» لها أمامه وعلى مرأى ومسمع من خدم السراي! لقد اشترى ابن «جليلة» خاطر أمه «آمنة» ولم يلكم وحيدها فيُخرِصه..

وكان على مصطفى أن يعتذر بأكثر من طريقة..
خاتمٌ من الألماس الحُر ومائة ألف من الجنيهات في حساب «لولا» ورحلة قريبة إلى أمريكا كانت تتمناها..

وفي الأسبوع الأخير من أكتوبر ١٩٩٩م فرحت «لولا» بتذكرتي الطائرة وحزمت الحقائق وغمرتها سعادةٌ ونشوةٌ،



أخيراً استتحقق أمنيته وتطير إلى الولايات المتحدة، ستزور ديزني
وعلامة هوليوود، هناك لن ينشغل مصطفى عنها يوماً وستستمع
بالرحلة من أول يوم إلى آخر يوم، ولا مانع من عقد بعض
الصفقات التجارية، فالتجارة شطارة والشاطر يستغل أنصاف
الفرص.. آميات كثيرة وأمانى عريضة كتبها «لولا» في مُسودّة
حتّى أسماء بيوت الأزياء التي تنوي زيارتها وأسماء العطور
ومستحضرات التجميل التي ستشتريها سجّلتها في القائمة...
وعودٌ سكبتها في أذني صغيرتها بهدايا ولُعب، ستُعوضها برحلة
أسبوعين إلى راس البر أو مطروح في أجازة نصف العام، فحالياً لا
يمكنها السفر مع والديها؛ فالدراسة أهم كما أنّ صحتها ليست
على مايرام والأفضل بقاؤها في القاهرة في رعاية «يزي»..

حلّقت الطائرة بالزوجين عائدين إلى القاهرة وقد اعتراهما
شوقٌ غامر إلى صغيرةٍ وحيدةٍ كانت في إنتظار وصول والديها،
لكن الطائرة لم تحطُ عجلاتها حيثما تمت «ريكا»؛ فقبالة ساحل
ماساتشوستس الأمريكي بعدَ نحو ساعة من الإقلاع سقطت فجأة
ولأسباب مجهولة^(١)..

(١) توكلت على الله.. كانت الجملة التي برّر بها الأمريكيان سقوط الطائرة
المصرية بوينج ٧٦٧-٣٠٠ التابعة لمصر للطيران، والتي سقطت قبالة سواحل
ماساتشوستس بعد ساعة من إقلاعها من مطار جون كينيدي.
في ٣١ أكتوبر ١٩٩٩ قتل ٢١٧ راكباً كانوا على متن الطائرة بينما دلائل أخرى



عادت «ريكا» من مدرستها والتقت بوجه زيزي وقد تورّمت عيناها من البكاء وبحزنٍ شديد أخبرتها أنّها قد نجت من موتٍ محقق... لكنّها بين ليلةٍ وضحاها صارت يتيمة..

بكت روعة، ثم أخفت دموعها ومسحتها، ونظرت إلى «زيزي» في عجز حقيقي عن التصديق، ثم انفجرت تبكي بلا توقف..

في اليوم التالي صارت مريضة، عليلة لا تقو على النهوض من الفراش، ولا تستطيع الكلام، لا سبب عضوي وراء الأمر.. الحالة نفسية بحته وستنتهي بمرور الوقت، هذا ما قاله الطبيب لـ «زيزي» بعدما فحص الصغيرة التي تهدّل عودها وذبلت بشرتها واستحالت إلى اللون الأصفر الباهت... واستمرّت على هذا الحال أكثر من ثلاثة أسابيع..

إنّ كلّ شيءٍ يدفع «زيزي» إلى البحث والتنقيب عن أسرة اليتيمة الصغيرة وتسليمها لهم، لكن حديثاً جرى بينها وبين المرحومة «لولا» قبل السفر بأسابيع قليلة أوقفها، فدوّن سبب واضح فوجئت بها تستدعيها إلى غرفتها ثم تغلق الباب بالمفتاح وتعطيها ورقة صغيرة مدوّن بها اسم محاميها الخاص وهاتفه

أسقطت إدعاءات الأمريكيان وبرهنت على تعمدهم إسقاط الطائرة لوجود وفد عسكري من ٣٣ شخصية على متنها بالإضافة إلى ٣ علماء في الذرة و٧ من خبراء النفط.



وعنوان مكتبه، حديثٌ طويلٌ دار بينهما حول كراهية «لولا» المُطلقة لأهل زوجها ورفضها القاطع أن يواصل هؤلاء الجهلة تربية ابنتها إن حدث مكروه لا قدر الله، إنَّهم بشر رغم كل ثرائهم مازالوا يعيشون خلف الجدران، لازالت التقاليد البالية والعادات العفنة تحكم تصرفاتهم عامةً وتصرفاتهم تجاه الإناث خاصةً، تقاليدٌ أنانية بدائية تضع الأنثى في سجن صحراوي قميء لا ظل فيه ولا ظليل، هناك في برخيل ستُعير روعة بأمرها صباح مساء لذا فتحت «لولا» حساباً بنكيّاً باسم زيزي وربّت مع المحامي كافة الأمور التي تجعل روعة في مأمنٍ بعيداً عن عائلتها، تربيّاتٌ تحفظ للصغيرة أموالها حتى تكبر ويشد عودها دون أن يصل عمّها «الجلف» إلى جنيهِ واحدٍ من ثروتها..

لقد وضعت لولا «روعة» أمانةً في عنق «زيزي» دون أن تتوقف للحظة متسائلة هل تستطيع زيزي حمل هذه الأمانة؟ هل تقبل أن تحملها أصلاً؟! ما مدى خبرات زيزي وإلى أي مدى يصل وعيها لتقف هي دون غيرها على هذه المهمة الصعبة؟! لم يتوقع جعفر ولم يفكر ولو للحظة واحدة أن يكون أخوه وزوجته على متن الطائرة المنكوبة... لكنّه فوجئ بمكالماتٍ من بعض نواب البرلمان وبعض كبار برخيل يعزونه في الف قيد، فقد نُشرت قائمة بأسماء الضحايا في الصحف القومية..



متى يستطيع الإنسان أن ينسى دمه؟!

دمعت عينا جعفر وأخفى الأمر أسبوعاً عن آمنة، فقد كانت حالتها الصحية لا تسمح بأي انفعال.... ما كادت النابلسية تعرف حتى راحت تكرر: **إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون**، حتى مصطفى راح، أبكي مين وألا مين، حكمتك يارب!!

ثم التفتت صوب جعفر وبأنفاس متهدجة قالت: بنت أخوك كانت ويّاهم؟؟

فأجاب وقد فاجأه السؤال، كأنّ الصغيرة لم تخطر على باله قبلها: **ما عارفش يا أمّه**، اسمها مش في الجرنال.

: **تبقى لسه عايشه يا ولدي**، هاتھالي أشوفها وتكحل عيني بيها وتربى هنا مع ولدك سليم، سافر مصر ومترجعش غير بيها، البنّت لسه صغار واليتم نار يا جعفر متخليهاش تاكل كبد أخوك، هو راح خلاص لرحمة مولاه، لكن الباقي منه يخُصك يا ولدي.

وقف جعفر واجماً، كأنّه أصيب بسهم الله، ابنة مصطفى على قيد الحياة وعليه إحضارها، لن يتركها لأهل أمّها الراقصة يربونها على مياعتهم وكارهم، لن يتركها لأموّاج الخلاعة تلتهمها ويقف يتفرج مكتوف اليدين، في الأول والأخر اسمها فلانه بنت فلان ابن عبد القادر أبو ستين، لحمه وعرضه وما كان جعفر يوماً بمن يبيع عرضه..



في تلك الأثناء كانت «يزي» قد غادرت فيلا ألماظه، فقد تولى المحامي كل شيء يضمن تنفيذ توصيات المرحومة «لولا»... سكنت روعة شقة رحبة، كاملة الأثاث في العجوزة، تتحصل «يزي» من المحامي على مبلغ مالي مجزي جداً شهرياً يمكنها من الإنفاق على نفسها وعلى تلك اليتيمة الصغيرة، كما أوصت لها المرحومة براتب شهري ثابت تضاعف أربع مرات عما كانت تتحصل عليه وقت عيشتها في فيلا ألماظة... أمانةً توجب عليها حملها فحملتها راضية، تواصلت «يزي» مع أمها في المنصورة وبمساعدة المحامي استطاعت تخليصها من قضية تموين أنْهت فيها ظلماً بدلاً عن زوجها المفترى الذي سرعان ما لاذ بالفرار تاركاً مخبزه في يد ضبيانه، أما زوجته فقد ترك لها ورقة الطلاق لدى جارتها، أحضرت الفتاة والدتها التي شقَّ عليها المرض لتقيم معها في شقة العجوزة وتنهأ فيما تبقى لها من العمر..

هكذا فقد «جعفر» أثر ابنة أخيه، فما استطاع الوصول إليها رغم محاولات جادة صادقة بذلها مخلصاً وفيّاً لوعده قطعه للحاجة آمنة بالعثور على الفتاة الصغيرة!

استقبلت «يزي» مسئوليتها بقلب واجم، خائف من المستقبل، افتتحت بوتيكاً صغيراً للملابس النسائية يساعدها



على أن تتكسب عيشها وتحمل نفقتها ونفقات والدتها بعيداً عن المصروف الشهري الذي يمنحه المحامي لها رغم كونه كافياً يُغنيها للإيفاء بمتطلبات روعة والبيت، واجهت «زيزي» الأمر بشجاعةٍ وصبرٍ وشيئاً فشيئاً عرفت أسرارَ العمل وثبتت أقدامها فيه، وانتظمت مواردها..

مضت السنوات واستوت روعة في السابعة عشر من العمر وأنتهت دراستها الثانوية، تلك الدراسة التي كانت دوماً اهتمامها الأول، حريصة كل الحرص على مستواها ومجموعها وانتظام دراستها، وهبها المولى جمالاً لا تخطئه عينٌ كما وهبها القدرة على كسب حب الناس وثقتهم، لم تكن بالمغرورة، ولا العابثة اللاهية، دائماً ملجأً لزميلاتِها في أوقات ضيقهن فتنصحن بما تراه صواباً، أمّا الشباب من تلاميذ المدرسة والجيران فلم تعرف ميلاً نحوهم رغم تقرب الكثيرين منهم محاولين استمالتها، لكن كل المحاولات قابلتُ صدىً بمودةٍ وأدبٍ لا يقطع علاقات الجيرة أو الزمالة، لكنه صدىٌ يحزم يمنع الشاب من تكرار المحاولة بغيرِ مرارةٍ في النفس أو أي بذاءةٍ في التصرف... روعة، مخلوقة ناعمة تستطيع بابتسامة واحدة أن تجعل أفضل الرجال وأشجعهم يجثو على ركبتيه أمامها إن أرادت لكن قلبها كان موصداً كبابٍ قلعةٍ حصينة في انتظار أن يذكه بطلٌ أسطوري قادمٌ من بعيد..



وخلال السنوات السبع المارة كانت «يزي» قد غدت امرأة ناضجة استقرت عيشتها بعيداً عن كباريهات شارع الهرم؛ فاشترت من مالها الخاص شقةً في مدينة نصر وسيارة واطمنت إلى نقاء أموالها وخلوها من اختلاطِ بمالٍ قد أئتمنت عليه، وحدث أن أعجب بها طبيب شاب من عائلة محافظة رآها في ورشة الميكانيكي وتقدّم لخطبتها... ويا لفرط سعادة أمها حين علمت بالأمر..

: «ممدوح» شاب ممتاز ومن أسرة محترمة يا بنتي، طول عمري بدعي ربنا يوقف لك ولاد الحلال ويديكي على أد نيتك الطيبة، وأهو ربنا استجاب دعايا.

: أيوه يا ماما، بس «ممدوح» دكتور وأنا سببت التعليم من تانية ثانوي والبركة في اللي مايتسمى «طليقك» اللي سمّم عليا عيشتي وخالني أهرب من المدرسة ومنك ومن المنصورة كلها، إزاي بس عزيزاني أوافق أتعوز دكتور ممكن يعايرني في يوم من الأيام؟

: اسمعي يا زينب، إنت مش هتغشيه يا بنتي، هتقوليله على كل حاجة، وهو لو فعلاً رايدك وشاريكي هيتجوزك، ومش هيهمه حد.

: طب و«روعة»، تفتكري ممدوح هيرضى إنّا تفضل عايشة معانا؟ دحنا عايشين في خيرها يا ماما ولولاها كان زمني رجعت أرقص في الكباريهات!



: قوليله إنتِ بس وشوفي، واللي فيه الخير يقدمه ربنا،
ربِّك قادر على كل شيء.

خمسة أشهر كانت كافية لتغرق «زيزي» في غرام «ممدوح»
حتى أذنيها، صارت مشاعرها كلها معه، وأحلامها كلها به،
حب واستقرار، بيت وعائلة، سند وأمان، أشياء تدوم طوال العمر
وعدها بها، فالمشاعر لا تعرف الشهادات، والسعادة شيء نادر
وثمين يستحق المعاناة للحصول عليه..

وفي شقة «زيزي» تزوجا، وقد آمنت منذ اليوم الأول أن
إنجاح ذلك الزواج أو فشله هو أمر معقود عليها، وأنها لن تترك
للخصام أو الغضب فرصة لتعكير الجو، وأن على كل طرف أن
يضحى من أجل شريكه؛ فاستقرت مع زوجها في شقة مدينة نصر
لا تغادرها مادام هو فيها بينما تذهب إلى العجوزة حيث أمها
وروعة يوم الجمعة من بعد الصلاة إلى المغرب ثم تعود مُسرعة
بكل شوق إلى أحضان ممدوح، فلم تمض شهور حتى بدأت
تكتشف فيه عيوباً عديدة أهمها انطوائيته المبالغ فيها وكرهيته
لكل ما يخص عائلته، فلا يزورهم ولا يقبل بزيارتهم له، كما أن
عصبية الشديدة أدت إلى تأخره في الترقية في عمله، وعلاقاته بمن
حوله غالباً ما تسير على وترٍ مشدود..



يبد أن الأمل في مستقبل أفضل معه لم ينقطع لديها، فالحب أجدر أن نصبر لأجله، ففي أوقات هدوئه يكون رجلاً هامساً يكتنز كل الفرص لإسعادها؛ فأقبلت تحاول التكيف مع طباعه، تسارع إلى امتصاص غضبه واسترضاءه، ثم أخبرها نيته السفر إلى «الكويت»، أخيراً حصل على عقد عمل بمرتب كبير في مركز طبي عالمي في العاصمة، فرصة انتظرها وهابي تتحقق، ومن الغباء التضحية بها من أجل التزام زيزي تجاه روعة أو أمها أو أي من كان، فمن واجب الزوجة أن تحسن معاشرته زوجها وأن تراعي الله فيه وتكون حيثما يكون..

ورغم تناقض مشاعر «زيزي» فقد قبلت القيام بما طلبه منها «ممدوح»، فروح أخرى منه قد سكنت رحمها وستنحاز إلى كل ما في مصلحة وليدها القادم..

أهدرت زيزي فرصتها في البقاء مع أمها التي كانت تعيش آخر أيامها؛ فقد استراحت لفكرة أن تعود الحاجة إلى السكن مع شقيقتها وأولادها في المنصورة، أمّا «ريكا» فمن الطبيعي جداً أن تعود إلى أسرته الكبيرة العريقة، إلى بر خيل حيث السراي وساكنيها من عليّة القوم... رافقها المحامي إلى موطنها، ودّعها زيزي وعلى وجهها سكونٌ ووجوم!!



في العاشر من مايو ٢٠٠٧م عاد البدرُ إلى سماءه رغم أنه لم
يسطع بها يوماً..

: ايه الجمال ده؟! روعة وهي روعة فعلاً.

جمله صارت اعتيادية تسمعها الأنسة الشابتة كلما وطأت
بقدميها شبراً من بلدتها..

هناك التقت رجلاً لم تره من قبل يُقال أنه عمها، رجل طويل
ذو هيئة وقف ينتظرها على عتبة الباب الكبير للسراي ممسكاً
بعصا فخمة من الأبانوس، تركّزت نظراته صوبها؛ فاخرقت
جدار قلبها، له شاربٌ عريض، حاجبٌ أزج، بشرة دسمة، قامة
شامخة رغم السن، عيناّن تنضحان كبرياءً عنيداً تتراقص فيهما
دموع كثيفة يراوغ كي لا يظهرها!

في صحن السراي استقبلتها امرأة مصرية أصيلة تُشبه كثيراً
الحاجة فاطمة تعلبة التي جسّدت باقتدار العظيمة هدى سلطان
في «الوتد»، رائعة خيرى شلبي، المسلسل الذي عشقته «ريكا»
وتمنّت أن تُقابل يوماً امرأة مصرية بهذه الأصالة والقوة... عرفت
أنّها عمتها رحمة، توأم والدها... تهلّلت أسارير عمتها وراحت
تطلق الزغاريد فرحةً بعودة الطير الشريد إلى عشه أخيراً، عانقتها
عناقاً طويلاً حاراً وكأنّها تعرفها منذ المولد بينما جرجرت ونيسة
حقيبة الأنسة الثقيلة..



: أنا عمتك رحمة، توأم أبوكي الله يرحمه وأصغر منه بتلات
دجايج بس.

: أهلاً يا طنط.

: وااه.. طنط؟! جوليلي يا عمّة، طنط دى للأغراب يا
حببتي.. وأنا مش غريبة عنك.

عاودت تربت على ظهرها وتضمها بقوة وحب لا تعرف
روعة له سبباً، فرحمة امرأة ذات عواطف حارة جيّاشة!!

وفي غرفتها الواسعة راحت ترص ملابسها في أرفف
الدولاب، فاستأذنتها ونيسة في أن تقوم هي بالمهمة، فشكرتها
روعة قائلة: شكراً.. مفيش داعي تتعبي نفسك، أنا بحب أعمل
حاجتي بنفسي.

فطأطأت ونيسة رأسها معتذرة، ودفعاً لأي سوء تفاهم
اختارت روعة فستاناً أبيضاً من نوعية فاخرة كانت «زيزي»
قد اشترته لها في عيد ميلادها الأخير تزيينه بضع وردات حمراء
صغيرة، مع شريطٍ من الستان الأخضر يلتف عند خصره أهدهته إلى
ونيسة، كانت على يقين أنه سيعجبها، رأت ذلك جلياً في لمعة
عينها الكحيلتين حين وضعت الفستان بين يديها، ابتهجت ونيسة
وشكرتها بشدة... ليس فقط بسبب إعجابها الشديد بالفستان بل
لأنّها لمست روحاً طيباً وقلباً رقيقاً في صاحبه..



:ما شاء الله تبارك الله، قمر يابت يا ونيسة في الفستان، شكلك
بجى زي بنات مصر، عفارم عليها روعة، فعلاً عندها ذوق
وبتعرف تختار والأهم إنها بتعرف كيف تحب الناس فيها.

عبارةً قالتها رحمة حين رأت ونيسة مرتدية الفستان
الهدية، فتلك الأشياء الصغيرة التي لا نهتم بها ولا نلزم أنفسنا بها
قد تحوي لنا ولغيرنا سعادة نفتقدها في أوضح أمور حياتنا.. إن
جبرَ الخواطر عبادةً آمنت ريكاً بها وألزمت بها نفسها كمنهاجٍ
وسيرة حب وصدقةٍ عن والديها..



كانت روعة تعرف بعض عادات الصعيد وتقاليده، حصيلة ما
صَبَّته زيزي صَبًّا في أذنيها مما سمعته من الحاج مصطفى وحرمة
التي أطلقت العنان لخيالها تُصَرِّف فيه كراهيتها للمتغطر سين أمثال
جعفر ورحمة، حتى الحاجة آمنة لم تسلم من بعض حكايات كراهية
طالتها، ثم دارت الحياة دورتها فانتبهت روعة على كابوسٍ يُلْزمها
العودة إلى ديار أبيها مرغمة على وضع جديد، قبلته أو رفضته لا
فرق البتَّة، مجبرةً على ترحالٍ صار منهجها وقرآنها، بعضها ذبلَ
بموت والديها وبعضها مازال حيًّا يثابر، يجاهد ويستبسل..

فطنت «رحمة» أنَّ الفتاة اليتيمة العائدة غير مرتاحة لما آلت



إليه ظروفا وقدرها، تجيب بأدب شديد واقتضابٍ أشد على كل سؤال توجهه عمتها لها، تختفي في غرفتها معظم ساعات النهار حتى يعود عمّها في المساء فتلتقيه على مائدة العشاء دون حماس، كأنّه واجبٌ وفرض تؤديه باستسلام شديد ثم تسارع بالعودة إلى غرفتها تغلق بابها تقرأ أو تشاهد التلفاز، مازالت مهمومة صامته معظم الوقت حتى إن جلست في مجلسِ النساء الذي لا يخلو من الثرثرة والضحك وبعض النيمية، مجلسٍ ينعقد في القاعة العلوية حين تتوسط عمتها رحمة الكنب الكبيرة وبجوارها بعض الزائرات من صفوة القوم وكبرات البلدة وقد تشاركهن ونيسة الجلسة حيناً وفي حين آخر تكتفي بالتخديم عليهن، بينما ترسل رحمة في إصرار تطلب روعة لتعرف على هؤلاء النسوة، ويالفرحة عمتها حين تحضر ابنتها «منة» طالبة الطب من جامعتها في القاهرة لتمكث في السراي بضع أسابيع ثم لا تلبث أن تعود متعللة بأبحاث ودراسات إضافية تجريها فتنتشر معالم البراءة على محيا رحمة اللطيف فتُصدق حجة ابنتها وتبارك خطواتها واهتمامها المبالغ بدراستها ونبوغها... تعانقها عناقاً طويلاً حاراً قبل رحيلها وكأنّها تودعها ثم تسارع إلى قاعتها تبكيها بقية اليوم..

بمرور الوقت ألفت روعة المكان وناسه بيد أن أمر مستقبلها



كان يشغلها ويُقلق منامها، لكنّها تنفست الصعداء وغمرها ابتهاجٌ عميق حين أعلن «جعفر» موافقته على تقديمها للدراسة الجامعية، لكنّه اشترط أن تكون دراستها في إحدى جامعات الصعيد؛ فقد حفرت روعة بروحها الناعمة ورقتها البلمسية مكانًا خاصًا لها في قلبه، أضحت قادرة على إضحাকে، تشاغله بحديث سلس وتحاوره بعقل رزين لا يتوفّر لفتاة في عمرها، فسكنت نفسه، فلم تذكر أنّه يومًا رفض لها طلبًا أو نسي لها حاجة، أهداها جهاز فيديو تشاهد عليه أفلامها العربية والأجنبية المفضلة في نفس اليوم الذي أفصحت فيه عن ملل تُعانيه حين تشغل عنها ونيسة وتروح تُصرّف أعمالها في السراي، عرف أنّها تحب حبّات «سكر النبات البلورية» فصار يحضرها لها بنفسه كل مساء.. تغيّر كثيرًا عن الصورة التي رسمتها له في خيالها سابقًا، استطاعت بحنانها ولين طبعها أن تنفذ إليه، واستطاع هو باهتمامه الصادق أن ينفذ إليها... لم يملك أحدهما سببًا مقنعًا ليكراه الآخر أو يزدريه... فلا شيء سيغيّر تعرجات القدر التي قادتهما إلى نقطة التقاء!

فهمت «ريكا» شرط عمّها وقبّلته احترامًا؛ فالتحقت بكلية الآداب جامعة سوهاج لتدرس في قسم «الإعلام» بعدما خسرت فرصتها في التقديم للعام الجامعي السابق بسبب انتقالها من القاهرة إلى بر خيل..



طمأنها جعفر أنه حريص جدًا على أمر تعليمها وعلى كل ما يُحقّق لها السعادة، أمسك كفّها قائلاً: عروسة حلوة وزينة زيك مين يجدر يرفض لها طلب؟ إنتِ إهنة عشان تؤمري بس.

فابتسمت روعة شاكراً عمها؛ فإذا به ولأول مرة يضمها في حنان ووداعة وكأنّ زماناً مرّ دون أن يراها، في الحقيقة لم يكره جعفر أخاه بقدر كرهه الشديد لاندفاعه ورعونته وسوء اختياراته، فطن بفطرته أنّه لا ذنب للوافدة المسكينة في ماضٍ لم تعشه يوماً... وبالعشرة والقرب رأته روعة رجلاً زاهراً، يُخفي حنواً كبيراً خلف قناعٍ من اللامبالاة والجمود، قناع يرتديه برغبته أو دونها، ربّما يريد حماية نفسه من الوقوع في فخ العواطف المُخيب للآمال فيكسي نفسه بغطاء من القسوة والتعسف ليتغلب على حزنٍ ينام داخل صدره.. تعلم أنّه متزوّج وعلى ذمته امرأة اسكندرائية على الموضة، أربعة أشهر مضت على وجودها في السراي ولم تر «فاطيما» خلالها، ولم تسمع عمها يوماً يُحادثها في الهاتف أو يتحدث عنها، أفهمتها عمتها أنّه من الأفضل عدم السؤال حول هذا الأمر بالذات، فثمّة أمور يجب أن تظل مدفونة تحت السطح، فحظ عمها مع النساء مائل دائماً..

شهورٌ مضت وروعة تسمع اسم «سليم» يتردد بشكل يومي



في السراي، إمّا على لسان أبيه أو عمتها أو ونيسة، حتى أن بعض الزائرات يسألن عنه الحاجة رحمة في هدوء وبساطة، فتجيب أنّه بخير ثم ما تلبث أن تدعو على الغربّة وسنينها!

حدّثتها كثيراً عن زوجها الراحل مسعد، وعن بناتها هبة وأميرة وأزواجهما، بينما يمتلأ صوتها شغفاً حين تُحدّثها عن سليم، حينها يفوح الشوق من حروف حديثها.

«ونيسة» أيضاً تتحدّث أحياناً عنه، تجلس على طرف سرير الأنسة روعة ثم تُقدّم كلماتها بعبارّة «سيدي سليم»، تغمض عينيها وهي تحكي وكأنّها ترتب أفكارها وتستدعي ذكرياتها معه، فتحكي وتحكي وكأنّ سليمًا أمها وأبوها، كأنّه الشخص الوحيد المتبقي لها في العالم، تمتصّها فكرة الحديث عن سيدها سليم تمامًا فلا تستطيع الفكّ من تلك الفكرة الآسرة حتّى يطلع النهار فتتوقف عن البوح، بينما روعة مُلقاة على السرير تغوص في نوم عميق..

تعجّبت أن زارها ليلةً في المنام، إنّهُ وسيم، بشرته قمحية صافية، شفّته رفيعتان وأنفه مستقيم، عيانه واسعتان عميقتان بلون القهوة، ينضحان بُنيل الآمراء، قوامه مشدود شامخ في كبرياء يناطح الجبال وكتفاه عريضان... رجلٌ لم تقابله بعد وأصبح يزورها في المنام...! يا للغرابة!!... أفافت واعتدلت في جلستها،



تذكّرت والداها، فيلاً ألماظة، زيزي وأمها وشقة العجوزة،
 سبع سنوات من عمرها قضتها هناك، بكت محتضنة عروساً
 أهداها إيّاها والداها في عيد ميلادها الخامس، بكت غرفتها
 هناك بجدرانها المغطّاة بورق الحائط الأبيض المزركش بأوراق
 شجرٍ برتقالية وأخرى خضراء، بكت رائحة الكستنائي المشوي
 «أبو فروة» حين تُخالط حَبَّات المطر في شرفة غرفتها، بكت ألبوم
 صور يحفظ ذكريات عيد ميلادها الأول والثاني، لا تعرف لماذا
 كُتب عليها أن تفقد مَنْ تحبهم وتفقد معهم أمانها، وسكنتها؟،
 لا استقرار تعرفه، حقيبتها دوماً جاهزة مستعدة لترحالٍ جديد،
 ترحل عنها أشياءها الجميلة دفعة واحدة، إنَّ هُوةً أليّمت تسع
 حولها وتُتقِن اختطاف روحها فلا تجد منها ملاذاً ولا مفراً...
 تربت عمتها رحمة على كتفها تقول: اليتيم يا بنتي مهواش اللي
 مات عنه أبوه وأمّه، اليتيم صُح اللي معندوش حد يططب عليه ولا
 يدعيه، وكُده إنْت مش يتيمة يا غالية.. ويعلم ربي إني حبيتك صُح
 زي ما بحب بناتي ومعزتك من معزتهم والله.. ومش هجولك إنْت
 صرّت كيف عند عمك، ده مبيضحكش إلّا لَمَّا يشوفك يا جَلبي..



رحلت روعة إلى سوهاج حيث دراستها، يحمل عقلها



أحلامًا أكبر منها، اجتهدت وثابرت وقرّرت أن تلازم كتبها وتدفن فيها أحزانها وهواجسها، تعود إلى بر خيل في الأجازات تحمل الهدايا لعمّتها الشّهم وعمّتها الطيبة وونيسة رفيقتها وونيس لياليها السابقة، فلا يمر يومٌ أو يومان حتى يُجزَلَ لها جعفر العطاء ويمنحها ألفًا أو ألفين ثم يعاود يسألها عما ينقصها أو ما تحلم بامتلاكه فيصير حاضرًا بين يديها بسرعة تدهشها!

مرّت الشهور دون أن تصادف سليمًا في أي من إجازاتها سوى مرة وحيدة في الإجازة الصيفية بعد عامها الدراسي الأول.. كان ذلك في صيف ٢٠٠٩م، تعرف عليها في حديقة السراي، ناداها ببساطة وقدّم لها علبة شوكلاتة سويسرية معترًا أنّ الهدية ليست ثمينة، وأنّها لا ترقى إلى ما كان يتوجب عليه إحضاره لها بعد غيبته الطويلة في ألمانيا، تعلّل بخوفه من أن يشتري لها ما يروق له هو ويخالف ذوقها، أخبرها أنّه على أي حال لا يعتبر علبة الشوكولا هدية وأنّه سيصحبها إلى سوهاج لبيتاعها ما تنتقيه، خصّها بسرٍ وهو الذي يراها للمرة الأولى، ضيقه لأنّه لم يُحضر هدية مناسبة لونيسة أيضًا بعد تلك الغيبة الطويلة، خشي أن يبتاع لها ملابس فلا تكون على مقاسها، فهو لم يرها منذ أربع سنوات وعقله لا يُجارِيه ليتخيّل هيئتها بعد تلك المدة..



وجدته مثلها يحب التأمل والجلوس على سطح السراي،
يحس متعةً حين يمدد جسمه على شازلونج وضعه هناك، تطالع
عيونه السماء حتى ينتهي من تدخين سيجارته ثم يمضمض فمه
طويلاً ويضع به قطعة من العلكة قبل أن يعود أدراجه وينزل الى
السراي، سألته أن يحدثها عن ألمانيا، مدنها وشوارعها، أهلها
وثقافتها، دراسته وما الذي أعجبه أو لم يعجبه هناك!

أزعجها أن يخاصمه والده بسبب ما درسه، مرّرت له
تعاطفها معه، تفهم أن عمّها لا يقبل أن يخدعه أحد، أي أحد،
فما بالك إن خُدع من وحيد الذي أرسله ليدرس الهندسة فدرس
إدارة الأعمال، لمّا لم يُخبر أباه بما أراده ويتمسك برأيه بدلاً
من خديعة يسددها نحوه وهو الابن الأوحـد لرجلٍ عرفت حين
عاشته أنّه أب حنون رغم كل شيء..

أخبرها أنّ كل حوار بينه وبين أبيه يصير مبتوراً قبل أن يبدأ،
كلاهما يرى الدنيا من منظوره، يساوره إحساسٌ عجيب أن لا
حوار يُمكن أن يجمعهما معاً..

كانت عيونه شتوية تـبرق كلّما ابتسم، وروعة تعشق الشتاء..



همست رحمة لجعفر أن يزوّج روعة لسليم، تطلّع إليها



مندهشاً، فقد فطن إلى رغبتها السابقة في أن تزوجه «منة».. فما الذي دفعها لتغير رأيها؟!

:منة ملهاش غرض تتجوز دلوك، الطب واخذ عقلها كله،
إنما روعة لساها عود أخضر نشكله على هوانا، وماتنسا يا
خوي، ورثها كبير ومانرضاش حد براني يجي ياخذها وياخذ
اللي وراها وجدامها، حد براني منعرفش نواياه إيه، عفش وألا
زين، يطلع ابن حلال ولّا سَوّ يرويها الوليل، سليم أولى وأحج
وهي معاه تبجى في أمان.

هَزَّ جعفر رأسه تصديقاً على كلامها ثم قال بإعجاب: عين
العقل والله، عندك حَج.

اتفق الشقيقان على تلك الرغبة واتخذا منها عهداً سرياً
يُعلنان عنه في آوان مناسب، وقتذاك كان سليم ممتلئاً جداً بتجربة
ميرال، متعصباً لبُعدِه النهائي عن الحب وآهاته، مفعماً بخبطه
العملية لإنجاح مكتبه ووكالته الإعلانية التي أسَّسها بمالٍ ورثه
عن جدته... كاد أن يبيع جزءاً من إرثه لأحد كبار الصعيد فاتصل
الرجل بجعفر يستأذنه في شراء تلك الفدادين؛ فشكره العُمدة
على شهامته وفهمه للأصول ثم أسرع يُغاضب سليماً ويعنفه،
إلى هذا الحد صار مندفعاً وبلغ به الاستهتار والوقاحة أن يعرض



أرض أبو ستين للبيع؟ أي عارٍ قصد أو تعمّد أن يلحقه بوالده؟!
موجة غضب جديدة اجتاحتها وحنقٌ كبير استقرّ في عقله ضد وحيدته
بينما قلبه ينفطر حسرة على طيش الفتى الذي صار رجلاً، لكن
يبدو أنّها مسألة طبع أكثر من كونها عناد يمارسه الابن تجاه أبيه،
أيّا كان الدافع فلا طائل من التخمين، المهم الأرض، الطين،
الأفدنة، والسّمة..

تحرك جعفر واشترى تلك الأفدنة من ابنه فلا يجوز أن تخرج
ملكيتها إلى غيرهم، ثم سجّل نصف ما اشترى باسمه والنصف
الآخر سجّله باسم روعة، تأصل في نفسه وترسخت عقيدته أن
ما لروعة يؤول قطعاً لسليم وما لسليم سيصل حتماً إلى روعة!.



ثلاث أعوام أخرى مرّت، تخرّجت روعة وخلال دراستها
كانت قد التحقت بعدد لا بأس به من الدورات للتدرّب على
العمل في مجال الإعلام والتغطية الصحفية، وبعض كورسات
مهارات التحرير وكتابة الخبر، غدت في الثالثة والعشرين من
العمر، تتحسّس خطواتها الأولى الخجولة جدّاً في عالم الصحافة،
قرّرت استكمال الدراسة وقدمت للحصول على درجة الماجستير
في الصحافة والإعلام، وما عادت سوهاج بالنموذج المثالي
لأحلام تلك العصفورة الطموحة..



لم تكن فكرة أن تمارس روعة الصحافة في حد ذاتها خطيئة يرفضها جعفر أو يعاقبها عليها بقدر نفوره القوي من خطوات تستتبع ذلك بالضرورة... لقد وافت «رحمة» المنية، وتزوَّجت «ونيس» للمرة الثالثة وانتقلت لبيت «كمال النجار»، استقرَّ سليم تمامًا في القاهرة... ومُسحت «فاطيمة» نهائيًا من سجلات جعفر، وخلت الحياة على قلبه بسنواته الاثنين والسبعين إلَّا من «ريكا»، فكيف يتركها ترحل ببساطة عن عالمه لتستقر في القاهرة؟، تواجه برقتها وهدوء طبعها مجتمعًا صاحبًا، ذكوريًا شرسًا مثل مجتمع الصحافة ودائرة الإعلام المغلقة على أهل الوساطة..

ما قاله صفوت البرنس وغيره عن العمل الصفحي وضاوته ودهاليزه كثير ومقلق، جعل جعفر يؤمن عن قناعة أن محاولة روعة في ذلك المجال هي محاولة ناجحة للانتحار، روعة التي تبدو هادئة متصالحة مع وضعها ومع الجميع كيف ستُشاكس؟ كيف ستُشاغب؟، ينقصه أن يفهم أن هذا الهدوء وتلك السكينة في حقيقتهم حرب صامتة ضد كل شيء!

أرسل إلى سليم يستدعيه ليستشير في الأمر، كانت نفسه قد هدأت من ناحيته وتبحَّر الكثير من غضبه عليه، فقد أفلحت رحمة والأيام في الإجهاز على ذلك الغضب.



التقى سليم بروعة مجدداً وزادت قناعته بها وببسالتها وبشخصيتها الفريدة ذات النمط الهادئ دون ضعف، القوي دون إزعاج، رآها نابضة بالحياة دون صخب، جذابة بعفويتها وسرعة بديهتها التي سلبت انتباهه منذ انطلقت تُحدّثه عن ولعها بالصحافة وشغفها المجنون للعمل بها. لقد خلقت لتكتب فقط، لا يعينها ميراثها أو ممتلكاتها أو تلك الأفدنة التي سجّلها عمها باسمها، كانت الصحافة حاجة ملحة ورغبة حادة تنوق إلى ممارستها ولا تُجيد السيطرة عليها، تؤمن أنّ حروفها ومقالاتها وريبورتاجاتها الصحفية هي اللذة الوحيدة التي تنتظرها... لم يقاطعها سليم أو يجادلها في شيء، إنّها فتاة ترك أثراً لا يُنسى في حياة من تقابلهم، وبرغم قوتها وبراعة حديثها وقدرتها على إقناع الآخر كانت في حاجة ماسة لمن يساند حقها أمام عمها في تحقيق ما تريده؛ فقد أضحى جعفر شديد التعلق بها وربّما شديد الأنانية في التعامل معها..

أخذ سليم على عاتقه مسؤولية مساندتها في الحصول على حقّها المشروع، حادث أباه ليستجيب لرغبة محبوبته «ريكا»، إن كان يحبها حقاً فليُبرهن على ذلك، فقد توغل بها الأمر، ولا مناص من التسليم بحقها في التجربة أيّاً كانت النتائج..



استسلم جعفر لواقع أقنعه وحيده بقبوله راضيًا، ولو تدري روعة قيمة أن يقبل عمها من أجلها بما يكره لأحبته فوق الحب حُين وثلاث، فجعفر الذي يهوى السيطرة ويعشق القوة ويُدين بالتحكم يرضخ لرغبة تلك التي أضحت ابنته..

استأجر لها شقةً عصرية ذات أثاث حديث جذاب في المعادي، وجعل في خدمتها أرملة خمسينية مهذبة، خفيفة الحركة، تُجيد الطبخ وأعمال البيت، مُدربة على خدمة بيوت الأثرياء، أقامت السيدة معها إقامةً كاملة، لا تغادرها إلا لليلتين آخر كل شهر، وبمساعدة البرنس استطاع توظيفها في مجلة أسبوعية تابعة لمؤسسة صحفية كبيرة، وفي يومها الأول أخبرها رئيسها أن فرصتها الحقيقية تتمحور في التحاقها بالمجلة لا أكثر، فرصة عظيمة لا تتاح بسهولة لمئات من الكوادر الشابة وعليها أن تثبت قدميها بتميزها واجتهادها وتفردا..

سِتَّة أشهر من العمل الدؤوب الذي ينقطع بالكاد لساعات خمس تنامها روعة في سريرها وقد انكبَّت أوراقها على صدرها تغطيه، ثم وفي السادسة تمامًا تتجلى كشمسٍ حُرّة لا يقدر مخلوق على حجبها، ترتدي ملابسها الكاجوال، وتسارع إلى عملها تُحرّكها قوة عظيمة وإصرار أعظم على كتابة المزيد من التحقيقات



الصحفية الشائكة لتُبرهن استحقاقها لمكانتها، فمن غير المنطقي أن تظل تحقيقاتها الصحفية في المجلة تُنشر دون اسمها!

في تلك الشهور تقرب سليم من روعة أكثر بدافع من جعفر في البداية ليطمئن على ابنة أخيه خشيّة أن تلتهمها الحياة في القاهرة، ثم ما لبث أن أصبح القُرب بدافع من سليم نفسه... التقاها كثيراً في مقاهي وسط البلد، ساقية الصاوي، دار الأوبرا المصرية، رافقها بالصدفة حين زارت بيت السحيمي^(١) لتغطية تحقيقٍ تكتبه عنه، وفي كل لقاء كانا يتناقشان فيما تكتبه من تقارير تتميز بجرأة الفكرة والطرح، فيرفضها رئيسها بحجة أنها غير صالحة للنشر وفي الوقت ذاته لا ينكر عليها عبقريتها وحسّها الصحفي المتميز ويقسم لها أنها صحفية بالفطرة، ذكية، مجتهدة، لمّاحة، بيد أن مواضيعها لا بد أن تتغير لتواكب السياسة العامة للجريدة أولاً وللمجتمع ثانياً!

(١) بيت السحيمي أو بيت الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي هو بيت عربي ذو معمار شرقي متميز يقع في حارة الدرب الأصفر المتفرعة من شارع المعز لدين الله الفاطمي بحي الجمالية في قلب مدينة القاهرة. يتكون البيت من قسمين أحدهما قبلي والآخر بحري، أنشأ القسم القبلي الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨ م. وقد دَوَّن هذا التاريخ على طراز خشبي على أحد جدران البيت، أمّا القسم البحري فقد أنشأه الحاج إسماعيل بن إسماعيل شلبي سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧ م وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما بيتاً واحداً. عرف المنزل باسم بيت السحيمي نسبة إلى آخر من سكنه، وهو الشيخ محمد أمين السحيمي شيخ رواق الأتراك بالجامع الأزهر. وقد خضع البيت إلى عملية تجديد شاملة في حقبة التسعينيات،



شيئاً فشيئاً راحت روعة تستعمر سليم فكرياً، فشرعت قراءاته تتغير، واهتماماته تتبدل، شعر أمامها أنه سطحي التفكير رغم خبراته العملية، وإقامته في أوروبا لسنوات، عمله كصاحب ومدير لوكالةٍ إعلانية حققت نجاحاً مُرضياً في فترة ليست بالطويلة..

في تلك الفترة هاجم التشتت سليماً وصارت حياته تسبح في مسارات نساء ثلاث شديداً الاختلاف، توقُّ عميق يسحبه نحو شاطئ ميرال، حين خفي إليها وإلى تفاصيلهما معاً يقيده، فيصير عبداً مقيداً بسلاسل الذاكرة، فلا يقدر على حلّها، يبحث عنها على مواقع التواصل الاجتماعي فلا يلتقيها، يكاد ينهار تحت وطأة الشوق، أزمته تجلت في عدم قدرته على نسيان امرأةٍ خذلته فيها، بينما نوّارة تزداد توغلاً فيه وفي عالمه، سعادته تصير غامرة حين يلتقيها، ينقلب يومه رأساً على عقب إذا خاصمته وهي بالكاد تفعل، تدليلها له حنون كأم تدل وليدها، تشاغبه كابنة تشاغب أباه، يتحرر معها من كل شيء فلا يكبله شيء، حر تماماً مع امرأة مثله حرة تماماً، يذهله هذا التحرر، يربكه حيناً. ويخطفه حيناً، لكنه معها وبحضورها يشعر أنّه حيّ، لا يعتنق إلاّ ما يريد ولا يُقدّم على فعل إلا حين يشعره، قادرة وحدها على منحه حريته، إنّها امرأة لغز، ولغزها لذيذ مُحير، بينما يقضي



ساعات طويلة مع روعة، إمّا يلتقيها أو على الهاتف، تجمعهما الحياة بتساؤلاتها وشكوكها وفروضها وأحلامهما، ومحاولة وصول كل منهما إلى ما يريد، يشعر وكأنّه يغرق تدريجياً في سحر حضورها وقوة منطقها إن هي آمنت بشيء، حوارٌ تلو حوار، لقاءً بعد لقاء، اختلافٌ وتشابه، ليلٌ ونهار، مُشاكسةٌ وملاطفة، لم يكن من الصعب على فتاة كروعة أن تغرق كلياً في بحر رجل كسليم، رجلٌ عاملها بندية، أثارته إنسانيتها وفكرها أكثر ممّا أثاره جمالها وبهاء أنوثتها..

كانت المعضلة الكبرى حين طالبتّه نؤارة بالزواج منها، وطالبه جعفر بالزواج من روعة..

أعوامٌ مرّت منذ آخر لقاء جمعه بميرال، سنوات عاشها في ألم التيه وحزن الخذلان ومرارة الذكرى، عَشَّشت عناكب الحسرة في قلبه حين تركته دون وداع، دون تذكرة عودة... يتتابه الهلع بمجرد أن ينبض قلبه بحب أخرى، يخاف التوحد مع أخرى تُنسيه تلك الأصفهانية المتمددة فيه، وفي لحظة تهور أوجنون أو في انتفاضة حرّة واستفاقة رجاء أراد التورط في حكاية أخرى يفتك بها من ميرال، يخلع عن قلبه رداءها، إنّها كابوسه الجميل، وفي أحضانها كان عابر سبيل، وفي أحضان غيرها سيقم..



كاد يموت قهراً حين سلبت ميرال نفسها منه، لكنّه عاد حين أدرك أن العشق وعود وأن الوعود غباء!! لقد عجز عن تحقيق حلمه، فحان دوره ليحقق حلم غيره مادام بمقدوره أن يحققه، وأشد ما ألمه حينها هي نَوّارة وخبتها فيه!

أي تناقض يُعاني، يحاكم ميرال ويكره افتراقها عنه، يراه تراخٍ مقزز، ثم وبنفس التراخي يفارق هو نَوّارة!

ففي نوفمبر ٢٠١٢م، حقّق سليم لوالده حلمًا أَراده كثيرًا، ولم ييأس مِنْه أبدًا، لقد تزوّج روعة..

كان صعبًا عليه جدًّا أن يتزوج، لكنّه فعل..

لأول مرة يعانقه الحاج جعفر عناقًا عميقًا، ربت على كتفيه مُبارِكًا مهنئًا وقد انتشى وملاّته الفرحة وفاضت فأضفت على وجهه نورًا وإشراقًا اختفت معه بعض التجاعيد... وقف يستقبل المهنئينَ والمعازيم وقد انتصب ظهره وانفردت أكتافه وامتلات رثيته هواءً.... أقام الرجل لولده والعروس فرحين كبيرين، الأول في بر خيل حيث كثرت الذبائح وصواني اللحم والفتّة والكل مستمتع بالأهازيج والوزن المقفى والأبيات التي نُظمت خصيصًا في خصال وأفضال آل أبو ستين، بينما تتوسط العروس كوشة بيضاء كبيرة زُيّنت بورد الجوري الأحمر والنسوة تحلّقن حولها يشدين بأغنيات رائعة مِنَ الفلكولور الصعيدي المتميز..



«ونيسة» جاءت تُبارك وتهني، تبتسم هي والعروس في نفس التوقيت كلما التقت نظراتهما بفارق وحيد، روعة تبتسم فرحاً بينما ونيسة تبتسم ألماً، تتأمل المشهد مبتسمة، فيعود الزمن للوراء حين كانت هي وسليم يتسمان معاً في الخصى، تحت القش، يمرر سليم عوداً من القش على كف قدمها ثم ساقها ثم يرتفع أكثر إلى فخذها ويستمر يحركه مدغداً حتى تستلق المسكينة على ظهرها من فرط القشعريرة وتقبض على يده تقول: كفاية الله يخليك، هموت من الضحك. فيتوقف قائلاً: ضحكك حلوة أوي اضحكي كمان وعليّ صوتك بالضحكة متخافيش.

: خلاص بزيادة يا بيه، أخاف أموت.

: متخافيش يا ونيسة، محدش ييموت من الضحك!

تتذكر كل ذلك، آنذاك كانت سعيدة هائلة، تحب هي لعبة التذكر حين تنحشر في زوايا طفولتها فتعيد سليم إلى دائرتها، إلى مقامه الصحيح، حيث ينبغي أن يكون..

أمّا الفرح الثاني فوق بعد يومين من الفرح الأول، حفل بهيج في أفخم فنادق القاهرة، كل شيء حظي بتخطيط وعناية، كل شيء محسوب بالمليمتر، فخرج الحفل في أرقى صورة تليق بابن الأكابر وعروسته الفاتنة..



دخلت خالته «سهام» قاعة الفرح متأبطة ذراع زوجها الأستاذ حمدي الذي جاء ليقابل الحاج جعفر بيه للمرة الأولى، توجَّهًا مباشرةً إلى جعفر لتقديم المباركات والاعتذار عن عدم حضور فرح برخيل لشرخ أصاب قدم حمدي ومُنِعَ معه من الحركة لشهر، عاملهما الرجل بلطفٍ شديد متقبلاً اعتذارهما بروح متسامحة كانت فيما قبل قلماً تحضر إذا داس أحدهم له على طرف، أو تأخر عن تقديم واجب له، دعاهما إلى الكوشة حيث العروسين، سلَّم سليم على خالته بتحفظ ممزوج بالخجل، جاهد لأجل التغاضي عن إحساس بالغدر غالب نفسه، لقد غدر بنوري، نظرة عتابٍ تشع من عيني خالته رافقتها ابتسامة فاترة تكشف تألمها من غدره وصدمتها فيه، لحظة عابرة من عمر الفرح، ثم تجاوزت الخالة الوضع واحتضنته بعمق وباركت لروعة، العروس التي طلَّت كبدٍ أبيض بَرَّاق في فستان من الشيفون المرصَّع بحبَّات اللؤلؤ الحُر فزادها طهارةً على طهارتها، ثوب زفاف يماثلها في الرقة ويطابقها في الهدوء..

وفي نفس الليلة طار العصفوران إلى تايلاند لقضاء أسبوعيَّ غسل داخل جناح فندقٍ مُبهر تطل نافذته على شاطئ جزيرة «بوكيت»، يومانٍ وأرسلت روعة لعمها صورةً تجمعها بزوجها



وقد امتطيا فيلاً تايلاندياً أخذهما في رحلة ممتعة لن تغيب عن
ذاكرتهما داخل الغابات..

كان سليم مبتسماً في الصورة، بينما ظهرت روعة ضاحكة
فرحة في كل خلية من جسدها، بدت حيّة، غضة، طرية كحبة
تمر في صدر الواحة، جمعت شعرها إلى الراء وزينت رأسها
بعقد من زهور الأوركيد البيضاء، مميزة روعة، حورية بحر
تخوض تجربة زواج من رجل تزوّجها ليهداً، ليرضى، ليُخرس
كل ضوضاء داخله، لينجو بنفسه من حيرة تقتله وتمزق أوصاله..
سعادتها به كانت كبيرة، أكبر مما توقعت هي نفسها، تؤمن
روعة باستمرار الحب وخلوده، فما أن يجد المرء الحب فلن يقدر
شيء على انتزاعه أو التقليل منه، بل صار بديهيّاً، يكبر وينمو
وينعم المحبان بزهوره وثماره وظلاله..

الإخلاص أيضاً طبعي في الحب وهو الوجه الثاني من تلك
العملة، ومن البديهي أن يُخلص كل طرف للآخر ويكتفي به
دون أن يكون مطالباً بقول ذلك والقسم عليه، ربّما الحب هو ما
يجعلنا نتمسك بالحياة ونعافر فيها حتى بعد أن عرفناها واختبرنا
جزعنا من تقلباتها الحقيرة..

روعة واضحة إلى حد الشفافية، تُفصل يومها بامتياز،



موجودة دائماً في عملها إذا ما اقتضى ذلك، موجودة أيضاً مع سليم في كل الأوقات، تعشق مناقشته في كل ما يتعلق بحياتهما معاً، لا تحب أن تنفرد بقرار ولا تحبه أن يفعل، لا تُغرقه بتفاصيل كثيرة مملة لكنها لا تنفرد باختيار دون أن تتأكد أنه ملائم له، مريح ومُرضي، بعد عودتهما من تايلاند، انتقلا إلى شقة جديدة ذات طابقين (دوبلكس) وكانها فيلا صغيرة اشتراها الحاج جعفر في منيل الروضة هدية للعروسين وسجل ملكيتها مناصفةً بينهما قبل زفافهما بيومين، أراد أن يجمع بينهما بأكثر من طريقة، عقيدته التي ارتضاها، يريد هما أن يتقاسما كل شيء، فربما جمعت بينهما التفاصيل الكثيرة والخيوط المتشابكة فيؤمنان أنه لا انفصال ولا انفصام» وأن وحدتهما لقاء لا فراق بعده..

سألته: حبيبي، المعجون اللي بتحب تستعمله اسمه إيه؟

: أي معجون حبيبي، مش فارقة.

: متأكد إنها مش فارقة، أنا بحب المعجون يبقى بالسواك، إنت عارف إني بشرب نسكافية كتير ومش عايزة سناني تصُفّر.

: روعتي، هاتي المعجون اللي على مزاجك وأنا يشرفني استخدمه يا فندم.

لطيفة روعة في صباحاتها ومساءاتها، تمنح جميع من تقابلهم ابتسامة تؤمن أنها تُعينهم على الحياة..



انهمك سليم في وكالته الإعلانية، انغمس بها حتى أخمص قدميه، قدّرت روعة ذلك وهيأت له جواً منتجاً مشمراً والتفتت إلى كيائها الصحفي تُغذّيه بالجهد المتصاعد والتفكير المرتب، رغم أنّها مسالمة، يافعة قليلة التجارب إلّا أنّها كانت تملك روحاً قتالية وحساً صحفياً حقيقي يندر وجوده..

آمن بها رئيس التحرير، أدرك أنّ تبنيه لها يستحق، فراح يهباً لها فرصاً متوالية للإبداع والتميز، فانطلقت خطباتها الصحفية كالصاروخ دون أن تؤثر على حياتها الزوجية مع زوج انشغل هو الآخر في تحقيق ذاته والاستمتاع بنجاحاته، كانت «ريكا» وش السعد عليه، فقد حصل على عقد حصري لأكبر حملة إعلانية لأكبر مؤسّسة للحديد والصّلب، والخبطة الكبرى انفراده بدعايا تخص «النادي الأهلي»..

سألها سليم ذات مساء وكانا في شهرهما الخامس من الزواج، كان صادقاً في سؤاله ونيته: ريكا، إنّي مبسوطة معايا؟ وبفطرية شديدة أجابت: السعادة تَوْقَع مع يقين يا سليم.

قاطعها يقول: مش فاهم، قصدك إيه؟

قدّمت له كوب عصير مبتسمة: ماعملتلكش قهوة عشان الوقت اتأخر، وعملتلك العصير ده بنفسى مجبتوش جاهز.. ثمّ



تابعت تقول: يعني أنا بتوقع إني أفرح بأي تصرف بسيط وعفوي إنت بتعمله علشانني، فلَمَّا بتعمل أي موقف زي إنك مثلاً تعملني نسكافية الصبح وأنا لسه مقمتمش من السرير، بفرح فعلاً وبفرح بجد.

أدهشته إجابتها فقال: وبتفرحي بإيه كمان يا ريكا؟

لمعت عينها واعتدلت تقول: بفرح لَمَّا تقرألي شوية قبل ما أنام، بفرح لَمَّا تشويلي أبو فروه، بفرح جداً إنك بعد ما بيحصل بينا حاجة مبتدنيش ضهرك وتنام، بالعكس بتأخذني في حضنك وتفضل تلعب في شعري.

: دي كلُّها حاجات بسيطة يا ريكا، ده اللي بيفرحك فعلاً؟..
إنت قنوعة أوي يا جميل، ميفرحكيش مثلاً إني أجيبك هدية غالية أو أفاجئك بسفرة مكنتش على بالك؟.

سكنت لحظة وبجدية قالت: يمكن أنا قنوعة في الفرحة بس يا حبي، لكن صدَّقني زعلي بيبقى وحش أوي وكبير..
: طيب ما تنوريني الله يخليكي، إيه اللي ممكن يزعلك مني
عشان ما أعملوش؟

: اللي يزعلني بجد إني أحس إن وجودي في حياتك زي عدمه.. إنك تساويني بأي حد.

ما أجملها من حياة حين توقن أنك عند أحدهم كل الحياة،
يا ليتنا فقط نفهم..



مرَّ الأسبوعانِ الأخيرانِ من الشهر السابعِ لزوجهما بطيئاً على سليم، يُعاني وحدةً مُربعة منذ أنْ غادرته روعة إلى مدريد في بعثة صحفية هامة، يفقدها أو بالأحرى يفقدُ صُحبتهَا، لا يعرف ما الذي حدث له، ما عاد به مزاج ليزور خالته ويُنازل زوجها على رقعة الشطرنج، ولا راغب بالسفر بصحبة أسامة البرنس في رحلات سفاري، ولا غيَّة عنده لمجالسة الزملاء على القهوة بعد انتهاء العمل، حتَّى «روز الصياد» دعته أكثر من مرة للقاء في النادي أو خارجه فاعتذر، مكالمته كل أسبوع لشهد تكفيه ليطمئن على أحوالها ويقف على أخبار ياسين وزين، مُراسلات بريئة على فترات متباعدة تجري بينه وبين ونيسة حول قراءتها في كتاب والدته، أو عن أحوالها بشكل عام، مكالمته واحدة في عيد الفطر الأخير لم تدم أكثر من دقيقةٍ واحدة، فما عاد يلتقيها حين يسافر إلى السراي فقد رحلت مع زوجها إلى المنيا..

قفزت نَوَّارة إلى ذهنه مرَّات متكررة، لم يجرؤ على زيارتها ولا مكالمتها، يعتبرها لحظات جنون تداهمه فيقفز مبتعداً عنها، فمجرد التفكير في «نوري» يُربكه، ولا جرأة له ليوافقه هذا الارتباك الذي قد يزيد سير حياته تعقيداً، فربَّما لقاء واحد بها ولو مصادفة يقوده إلى شَرَك، فجعل يتحفظ في اختيار الأماكن التي يزورها تجنباً لِمَا قد يحدث..



ما زالت عمليات بحثه عن «ميرال» على الفيس بوك مستمرة، لكن حدة البحث وقوّته خبّأت قليلاً، سأل عنها «شهد»، أقسمت أنّها لا تعرف عنها شيئاً منذ آخر رسالة أرسلتها ميرال إليها في ٢٠١٠م، يبدو أنّها قد رحلت بالفعل إلى وجهة غير معلومة..

في غياب روعة ظلّت حالة من الركود والتخبط تجتاح سليماً حتى أنّه مهاتفة من رقم غير مُدوّن في ذاكرة جواله، مكالمة «د. مازن خطّاب» في السابعة من الصباح الثلاثين لنفس الشهر الذي غابت فيه روعة في سفرها يُخبره أن صبيّاً من صلبه جاء إلى الدنيا..

في الليلة العاشرة بعد هذا الصباح عادت روعة من غيبتها لتجد في انتظارها خيبة كبرى، وآهات كثيرة، وأنين عميق..

ارتعش جسدها مائة مرة في الثانية الواحدة وسليم يُخبرها بنفسه أنّه عاد لامرأة كان يواعدّها قبلها لأنّها وضعت له ابناً، كان مشحوناً بالمشاعر، ممتلئاً بالحيرة والتردد ومشاعر أخرى كثيرة، أقواها خشيته على روعة وخشيته من ردة فعلها..

انحبست الكلمات داخلها فلم تقو على النطق في البداية، ثم تداركت وجيعتها وقالت بانفعال: طلقني يا سليم.

: أطلقك، ليه كل ده؟! أنا متجوزتش عليكى غدر ولا خيانة، أنا بحاول أصلح غلط مش أنا اللي هدفك تمنه، لكن فيه طفل صغير مالوش ذنب هو اللي...



وقبل أن يكمل التفتت روعة إليه وقد انطفأت لمعة عينيها
قائلة: وأنا يا سليم، مفكرتش فيا؟ أنا ذنبي إيه؟ غلطتك دي
تخصك لوحدك متخصنيش، أنا عمري ما سألتك إذا كان ليك
علاقات قبلي وألا لا، لأنني مؤمنة إن اللي قبلي ميخصنيش ومش
بتاعي، ميصحش أسألك فيه ولا أحاسبك عليه، لكن من ساعة
ما بقيت جوزي ماقدرش أتغاضي، أطنش، أقبل وأعدي وأقول
معلش وماله وأكمل عادي وأقول وماله ما هو راجل وضل
راجل ولا ضل حيطه.

: روعة، أنا مقدرش أسيب ابني واتخلي عن أمه ...

: وأنا مش أناينة يا سليم ولا ندلة عشان أقولك سيب ابنك،
مقدرش أطلبها منك، لكن أقدر أنسحب أنا وأحافظ على اللي
باقي من كرامتي يابن عمي.



لم يتصور سليم ثورة روعة ولا جرأتها في الرفض، وجدها
عكس توقعه، لم تبد ضعيفة ولا مهزومة، لقد طلبت ما طلبت وقد
حزمت أمرها وكلما حاول مناقشتها كلما ازدادت تمسكاً بطلبها،
تحب سليم بمميزاته وعيوبه، فمن منا لا تسكنه عيوب؟!، تقبله
وتخلص له، لكنها رافضة لتصرفه ومنطقه، مكبلة هي بإخلاصها،



يُسيطر عليها توقعها إخلاص مماثل منه، هي له وحده دون غيره من الرجال، فمن المنطقي أن يكون هو أيضًا لها وحدها دون غيرها من النساء... ولا عجب في ذلك..

توقعته مثلها فصدمتها الحقيقة، لا تؤمن بالتعدّد ولا ترتضيه شريعة لقلبها ومنطقاً لحياتها، تهرب من كل النظريات التي تصدح بحق الزوج في الزواج من أخرى، لا تناقش الأمر من الناحية الدينية إنّما تناقشه بقدرتها هي عليه، بما تستطيعه وتقبله، لا ما تُجبر على قبوله... لا قدرة لها على ابتلاع ما ترفض، ولا قدرة لها أيضًا على الانزواء والبكاء على اللبن المسكوب، ولن تدفن رأسها في الرمال، إنّها أثنى شامخة رغم نعومتها، قادرة على أن تناضل من أجل حقوقها ومن أجل كرامتها وكيانها... يمكنها العيش دون حب لكن أبدًا لا يمكنها العيش دون كرامة... يقتلها أن تكون في مقارنة دائمة بأخرى تحت قوانين رخيصة تلزمها بالمنافسة..

لقد أهانها سليم وأساء إليها وصدف ما تؤمن به فترنّحت، بل أنّه تمادى وقطع وتين كرامتها حين وقف يشرح ويبرّر لها فعلته مقتنعًا بمنطقه وقراره، مدافعًا عن تصرفه يُجادلها بالأسباب، أن تكون له امرأة أخرى تسبقها فالأمر يخصّه ولا يعنيها، إما أن تشارك مع تلك المرأة أو غيرها فيه فلا، فتلك الشراكة تطعنها



في مقتل، إنها ليست أكثر من تاء مربوطة بخيطٍ ضعيفٍ مُعلّق في
أبجدية رجل لا يعرف كيف يحبها ولا كيف يحافظ عليها..
تزوجته لأنها تحبه، سكن في قلبها كشمس شتوية دافئة،
فأصبحت رؤيته تخلع عن ثغرها الجميل ابتسامته الخلابة،
غائبة هي عن الواقع، رافضة له، فالخيانة أمرٌ من العلقم،
فسليمها رجل مثل أي رجل، ينحاز لنفسه متمسكاً لحاله الأعدار
والمبررات، يحتفل بانتصاراته على أشلاء مشاعر من حوله من
النساء.. وذاك يقتلها ويتلع صبرها وهدوء بالها..

شهرٌ كامل حاول خلاله سليم استرضاءها على أمل أن تقبل
وترضخ للأمر الواقع لكن هيهات فقد جمعت كل أغراضه وما
يخصه في حقيبة كبيرة وأرسلتها مع السائق إلى مكتبه، فعلى قدر
الحب يكون الغضب، تدخّل جعفر يأمل في رأب الصدع ولملمة
شتات أحدث شرخاً يراه يتسع بين أقرب الأشخاص إلى قلبه،
لكن حزن روعة وتصميمها على موقفها أضعف حُبّه، فمال إلى
جانبها مشفقاً عليها خاصّة حين ثار قولونها عليها فأشقاها،
ولم تعد معدتها قادرة على الاحتفاظ بطعام مهما كان خفيفاً أو
قليلاً، وكأنّها تنقصها ثورة على ثورتها..

ارتاع جعفر على كُنته الأثيرة واقترح على ابنه أن يُطلق



«نَوَّارَة» التي تقترن في ذهنه بالتسبيب وقلة الحياء مع التزامه الكامل ماديًا ومعنويًا تجاه صالح، رفض سليم الاقتراح نهائيًا، فلن يهزم «نوري» مرتين، ولن يحرم ولده فرصته المتاحة ليكبر بشكل طبيعي بين والديه، أبدى استعدادًا تامًا للانتظار أكثر وأكثر حتى تهدأ روعة تمامًا، آنذاك سيناقشها حتى يصلًا معًا إلى حل وسط يُرضيها... منطقة أمانٍ تضمن لها كافة حقوقها وبالشكل اللائق المناسب لكرامتها وكبرائها ستسير الحياة شريطة ألا يُطالبه أحد تطليق «نَوَّارَة»..

مناوشات كادت تتطور جرت بين سليم وروعة، كانت ضيقة الصدر، متبرمة، تدفن في شرايينها غضبًا يحرقها.

هرعت إلى بر خيل ترجو عمَّها أن يتدخل لصالحها بينما يرجوها هو أن تترى، وعلى الطاولة أمامه وضعت تنازلها الكامل عن نصيبها في شقة «منيل الروضة»، شقة الزوجية. فما عادت تأمل من زوجها شيئًا، جرت دمعاتها تنساب على وجتيها كما تنساب الريح، مزق عمَّها تنازلها وقد تدفقت دماءؤه الحارة في عروقه ووعداها أن يُحقِّق لها رغبتها والحزن يعتصره... أقسم ألا ينزع منها شيئًا منحها إياه يومًا مهما كانت الأسباب..





ما أجملها من لحظة حين تكتشف المرأة أنها تحمل جنيناً من زوج تحبه، ينافس تلك اللحظة جمالاً وسمواً اللحظة التي تنقل له فيها الخبر السعيد، فتتألاً سماء وهما معاً بنفس النجوم، اللحظة الأولى عاشتها «ريكا» بمفردها حين اكتشفت فور عودتها من مدريد أنها ستصير أمّاً، أعجبها أن سليماً تجسّد داخلها وتعلّقت أمشاج جنينه بجدار رحمها كثمرة توت، أمّا اللحظة الثانية فكانت مُحيرة ومؤلمة لامرأة شديدة الحساسية كروعة، أمنيات مبهجة وأحلام عريضة كانت ستنقلها لزوجها عن جنينها فقط لو كانت قد علمت بحضوره داخلها قبل شهر واحد من الآن، ألا ليت الزمن توقّف عند تلك اللحظة..

عمّها جعفر هو الوحيد الذي أخبرته بحملها، كاد نبض قلبه أن يتوقف من فرط السعادة، سجد لله باكياً شاكرًا النعمة والفرحة التي جاءته في آخر العمر، حفيدٌ غالي سيصل قريباً، حفيد هو النصف الثاني من سليم وروعة معاً، حفيدٌ تجمّع فيه كل رجاء لآل أبو ستين..

تغيّرت عادات روعة وتبدّلت، أصبح يومها يسير كلياً في اتجاه جنينها، توقّفت عن شرب النسكافيه تماماً، عادتُها اليومية الأكثر شراسة على الإطلاق، فلم يكن لكوبها أن يفرغ منه على



امتداد ساعات اليوم، فصار قانونها واضحًا، «لا كافيين سيجري في عروقها حتى لا تزيد دقات قلب البيبي وحتى لا يأتي للدنيا بوزن منخفض»... استطعت الشاي الأخضر وارتضته بديلًا مؤقتًا لما له من باعٍ كثيف في تحفيز المناعة، كوبان من الحليب تحرص عليهما، وخمس لترات من الماء على الأقل يوميًا، فطورها بيضتان ومكعبٌ متوسط من الجُبْن القريش، وتبدأ غداها بطبق كبير من السلطة الخضراء متبوعًا بقطعةٍ من اللحم أو الدجاج المشوي، وتُنهي يومها بطبقٍ مماثل من الفاكهة والزبادي مساءً..

لا متعة عندها تضاهي متعتها في مراقبة الجنين ونموه، تحرُّكاته، خبطاته الخفيفة وتلك العنيفة نوعًا على مدار شهور الحمل، أشعة تليفزيونية شهرية تنتظر مواعيدها وكأنّها على موعد بلقاء... وفي شهرها الخامس عرفت أنّها تحمل أنثى، راحت تنظر للشاشة بعينين مختلفتين، تتأمل الملامح وتحقق بتركيز، تراقب تكوين ابنتها المدهش منتظرة إيّاها بشغف كبير، أنثى مثلها ستأتيها تلخّص حكايتها مع سليم، لقد تكوّن زوجها داخلها ليفرض عليها وجوده الدائم في حكايتها، فلا خلاص منه أبدًا، سيظل عالقًا بها سواء أحبّت ذلك أو كرهته!

يااااه، لقد عاشت طفولة مخدوشة، مازالت نفسها تحمل



ذكرى عميقة تربض داخلها، سنوات عشر عاشتها بين أبوين أحبينها أكثر مما تمت، لكنهما انشغلا عنها بالأموال والأعمال أكثر مما انبغى، سنوات سبع قضتها في المنصورة، حُفرت «زيزي» في ذاكرتها فلم تنسها يوماً، لكن الأخيرة هي التي لفظتها وأخرجتها من دائرة حياتها مكتفية بزوجها وحياتها معه، انتقلت بعدها إلى الصعيد صامته، منعزلة، غامضة غموضاً محبباً، نجحت عمتها في احتوائها ونجح عمّها في منحها استقراراً لم تحلم به، ونجح ابنه في الاستحواذ على قلبها، فتزوجته..

آلت إليها ممتلكاتها وميراثها الشاسع من أبويها لكنّها لم تستخدمه قط، تركته لعمها يُديره أمانةً مطمئنة لدمته وبراعته؛ فلم يخذلها الرجل، بل فعلها ابنه؛ فبعثرها..

لا تريد أن تستسلم للظروف وما فرض عليها فرضاً وتترك أمواج الحياة تدفعها في أعماق محيط أسود كئيب، ستغادر أزمتها وستسسى سليم وتحلق خارج حدود سجنه..

أحبّته فسجنها داخل تجربته، زوجة لرجل متزوج من أخرى، يعدها بتحري العدل، وقسمة العدل وشروط العدل، يتهج وتتنفخ أوداجه زهواً بتأرجحه كبندول ساعة بين امرأتين ستستमितان للحصول على نظرة رضا من سيدهما، فهل يُمكنها عقلها وقبله قلبها من قبول ذلك؟!



نصفُ رجلٍ، نصيبها من سليم نصفه، بينما قانون المنافسة يفرض عليها أن تكون امرأة كاملة وصلت إلى آخر مستويات الكمال والاستواء، امرأة تظل شهية ساخنة في كل حالاتها لتتحصل على حصتها من رجُلها!

ياله من تناقضٍ يحرقها، فروعة أكثر صلابة وقوة ممّا تظهر عليه، عزيزة عفيّة، ترأّر حين يُقارنها أحد بغيرها، تُغادر غير آسفة حين يحاول أحدهم تحجيمها أو التقليل منها..

مجرد التفكير يشعل فيها فتيل الغيرة فيلتهب.. مرّت شهور حملها بهدوء فقد حقّق لها سليم كل ما مطالبتها، عدا واحدٍ فقط.. «الطلاق»..

لم يوافق على تنازلها عن شقة الروضة بل سجّل نصيبه باسمها، ترك لها البيت مكتفياً بزيارتها مرة واحدة أسبوعياً، وفي كل مرة يحاول استرضاءها، يجازف بكرامته ويخاطر متسلحاً بالأمل، فتظل النتيجة سلبية..

وفي مرّة تجاسر، أراد أن يلمس جنينه، فوضع يده على بطنها التي تمدّدت؛ فارتعشت ونفضت يده عنها وانسحبت تغادر الغرفة، سحبها من مرفقها برفق، أجلسها على الأريكة فلم تقاوم، وجلس على الأرض أمامها وعيناه تنضحان رقة قائلاً:



صدقيني يا روعة، القدر هو اللي بيجمع ويفرق ويمشي الزمن
زي ماهو عايز، يمكن احنا اللي بنخلق البدايات لكن النهايات
دايمًا القدر هو اللي بيحددها واحنا بتنفذ بس.

ولأول مرة منذ شهور تنظر إلى عينيه مباشرة، شعرت بحرارة
تجتاحها، قالت: إنت أذنتي جامد يا سليم ومشكلي الحقيقية
إنني مش قادرة أتجاوز الأذى ده ولا قادرة أتجاوزك إنت كمان.
أردف يقول ملاطفًا: أقسم بالله إنني متعمدش أذكرك..
مثاليتك هي اللي أذكك وأذنتي وكبرياؤك عايز يقتل كل اللي بينا
وكل اللي جاي.

: اللي بينا!، هو فيه حاجة لسه بينا؟! ثم أنا مش مثالية زي
ما إنت فاكِر، ولا خيالية بطلب المستحيل، أنا مطلبتش غير علاقة
سوية فيها حب ووضوح وإخلاص وتكافؤ، علاقة تبقى قصة كاملة،
مش علاقة مريضة فيها خذلان وخسارة وكلها صراع وشد وجذب
يستنزف سنين عمرنا، وفي الآخر التفت جنبني ألاقيك بقيت ظل.
أردف في استهجان: ظل؟!

تابعت كلماتها وهي تنظر في عينيه: أيوه، مجرد ظل لراجل
كُنت بحبه، راجل كان لازم أقاومه أكثر من كده.. عارف، أنا
فكّرت كتير في اللي حصل ووصلت لحقيقة واحدة مفيش غيرها.



: وصلتني لإيه يا ترى؟

: إنك عمرك ما حبتني.

: روعة أنا...

: إنت إيه يا سليم؟ إنت فعلاً عمرك ما حبتني، عارف ليه؟
لأن اللي بيحب عمره ما يجرح، عمره ما يحرق بيده اللي بيحبه،
عمره ما يهد الجسور اللي بتربطه بحبيبه، إنت فعلاً عمرك ما
قولتهالي صريحة كده «روعة أنا بحبك».

يعرف سليم أنها محقة، لكنّه لم يجروّ أن يفكر جدّيّاً في
الانفصال عنها، صداقتهّا تقنعه وقربها يُريحه، يتمسّك بها كثيراً
فما عادت به طاقة على الفقد ولا قدرة على اعتياده، لكن روعة
تريده كلّ لها بتفاصيله الكثيرة وكيانه المبعثر هنا وهناك، تريده
كاملاً في دائرتها بينما لا دائرة خاصة له، يخشى الابتعاد عنها
ويخشى الحياة قُربها هي وحدها... فنوارة تشاركها فيه وميرال
نُقشت على قلبه بخط أحمر!

أمعقوّل ما يجري؟ من الصعب أن تستمر حياته بهذه
الطريقة ويظّل على هذا المنوال!!





شهور الحمل وأوجاع الحمل ونظامه هي أعظم دروس الصبر والحكمة، وتجربة الولادة تُتيح للنساء التجول في شوارع الألم والأمل معاً، رحلة الموت والحياة، رحلة الذهاب والعودة.. لا تنسى المرأة آلام المخاض التي تستشري في كل شبكتها العصبية وحين يشقيها الألم تُقسم أنها إن كُتبت لها النجاة فلن تُعيد تلك التجربة المريرة مرة أخرى لكنّها وبمجرد أن تندفئ بوليدها حتى تنسى وعدها ويتبخر قسمها وما تعود تذكر رائحة الموت التي استنشقتها حين كان الوجع يضرب أوصالها، فتُعيد الكرة ويعود بطنها ينتفخ من جديد بحلم جديد..

استيقظت روعة على صباح عادي من صباحات الحمل، تناولت فطورها واستعدت للذهاب إلى المجلة، وقفت في الشرفة في انتظار سائقها، راحت تفكر بجدية في نصيحة طبيبها، عليها أخذ أجازة من العمل والاسترخاء استعداداً للولادة الوشيكة، فشهرها التاسع ينتهي بعد تسعة أيام فقط..

تمنى أن تُغمض عينيها وتفتحهما على وليدتها فيستقر قلبها وتُبطل حُجة سليم، فقد أصرَّ على تأجيل الطلاق إلى ما بعد الوضع.. تحتاج إلى نهايةٍ تضعها لتجربة حب فاشل وزواج مرير، نهاية تُتيح لها النسيان والتعافي واستدراك سعادة تتمناها وترى أنها أبسط حقوقها الإنسانية..



لا تعرف إن كانت وليدتها ستفهم قرارها وتقدره أم أنها سترفضه وتلومها عليه؟ كل ما تعرفه أنها تريد أن تمنح طفلتها كل السعادة المرجوة والممكنة، فكيف ستمنحها ذلك دون أن تتجاوز خبيتها، دون أن تمحو ذاك الخائن من حياتها وكأنه لم يكن موجوداً بها من الأساس!!

انتشلتها رنة محمولها من أفكارها، لقد وصل السائق، حملت حقيبة يدها على كتفها وغادرت إلى المصعد..

وبمجرد أن دلفت داخل سيارتها حتى شعرت بألم يعيقها عن الجلوس بأريحية في السيارة، امرأة وحيدة تصارع ألماً يشتد ضراوة، طلبت من السائق توصيلها إلى أقرب مستشفى، فلن تتحمل مزيداً من الألم حتى تصل إلى طبييها في الدقي فقد رأت سائلاً ساخناً لزجاً يبلل ثوبها..

استقرت روعة في غرفتها في المستشفى وحيدة تماماً تحزنها وحدتها، لم تشأ أن تطلب عمّها فترعجه، فقد أقعدته وعكة صحية طارئة، لم ترغب في إخبار سليم، تكره أن يراها ضعيفة، متألّمة، تصرخ بكل ما فيها..

إحدى عشر ساعة مُرّة قضتها المسكينة مسجية على ظهرها تتلوى من شدة الألم، وحيدة تماماً تحزنها وحدتها وتنخر عظامها..



وفي مساء العشرين من أبريل ٢٠١٤م أنقذ الطبيب طفلة روعة التي تشابكت مع حبلها الشري فالتف جزء منه حولها لكنّها كانت كأمّها قوية مثابرة، مقاتلة من طراز فريد، قاومت وضعها ببسالة وانتصرت عليه..

كيف تجيء طفلة إلى هذه الحياة دون أن يُخبر أباهما بقدومها فيقف على باب غرفة الولادة ينتظر تشريفها؟!

تفوّه سليم بالكثير أمام والده حين علم بمولد ابنته من جدّها بعد أربعة أيام من ميلادها؟ لِمَا تُصر روعة على أن تعامله بهذا الصلف والتجبر؟ لِمَا لا تمنح نفسها وتمنحه هدنة أو فرصة جديدة؟ أسرع إلى شقتها يقبض صدره على غضبٍ كبير، واجهها بكل حق يضره وواجهته بكل ألم تحمله، تبادلا الاتهامات، تبادلا القسوة... نطق كلّ منهما في وجه الآخر بما يجرحه، أساءت إليه وأساء إليها، وفي علاقة كالزواج من الصعب أن تستمر بنفس النقاء إن حدثت الإساءة، إن حدث الانفجار.. ونضح كل إناء بما يحويه..

: أرجوك يا سليم، لتاني مرة بطلبها منك، طلقني.

: إنسي بقى يا روعة، إنسي نفسك شوية وبطلّي أناية، بقيتي أم، فكّري في بنتنا اللي من حقها تكبر بينا احنا الاتنين.. إنت مش مهمه وأنا مش مهم، البنّت أهم منا احنا الاتنين.



: نفس المنطق اللي اتجوزت بيه نوّارة صح؟، بتقنع نفسك
إنّك اتجوزتها عشان خاطر صالح، وفي الحقيقة إنت اتجوزتها
عشان نفسك، عشان إنت عايز كده، عايز تبقى سلطان زمانك
وعندك حرملك.

: ياربي، هو إنت مش عايزة تفهمي ولا تقدّري، كل همك
إني أركع أدامك وأقر واعترف إني مذنب، مش كده؟!

: لأ يا سليم، أنا مش عيزاك تركع ولا تعترف بحاجة، أنا عيزاك
بس تفهم إن المشكلة مش فيا ولا في نوّارة، المشكلة فيك إنت
كشخص، الموضوع مش إنك خدعتني واتجوزت عليا، المشكلة إني
معاك مبقتش حاسة بالأمان، مقدرش أدّيك ضهري وأنا متطمنة....
أنا موجوعة يا سليم، مخنوقة مش عارفة أتنفس، أنا مش قوية ولا
جامدة زي ما إنت فاكّر، أنا هشة وضعيفة من جُؤا، ولو فضلت معاك
واتعرّضت للتجربة دي تاني والموقف اللي إنت حاطتني فيه ده هقع،
مش هقدر آخذ ضربة كمان لأنها هتقضي عليا.

: مش عارفة تلاقيلي أي حاجة حلوة عملتها لك تتسندي
عليها؟ مش عارفة تنسي، مش عارفة تسامحي؟

: التسامح والنسيان دول قرار محتاج إرادة تنفذهم، وأنا
معاك بقيت جثة مفيهاش روح وملهاش قرار، يبقى أسامح إزاي؟
وانسي إزاي؟؟!



: خلاص يا روعة، هنفذ رغبتك وأطلقك، بس أرجوك
افتكري كويس إن مش أنا اللي بيعت وسيت عشان كرامتي
وكبريائي، وعشان مكتش قادر، أومكتش عارف ومش عايز
حتى أحاول... إنت طالق يا بنت عمي، طالق، يارب كده بقى
تعرفي تنفسي تاني، لكن بتي أنا مش هسيبها.



اختلفت حياة روعة بعد أن أصبحت أمًا، فمسئولية الصغيرة
لم تكن هيّنة، أدخلتها الأمومة عالمًا تجهله، وشغلتها «وعد»
عن تجربتها المتهالكة، فأدركت كيف تشغل النساء عن
تعاستهن بكائناتٍ صغيرة لطيفة ذات روائح ذكية..

انتهت شهور أجازتها الثلاث وصار لزامًا عودتها إلى المجلّة،
تخيرت كل السبل التي تحقق لطفاتها الراحة والأمان، فعهدت
بها إلى مربية أجنبية متخصصة تعاونها خادمتها الخمسينية،
واندفعت تستكمل مشوارها الصحفي بكل طاقة مختزلة داخلها
وكل توق إلى تحقيق مزيدٍ من الإنجازات، فالإنجاب لن يمنعها
عن تحقيق طموحاتها المهنية..

لم تحرم سليم من ابنته أبدًا، فمن أجل «وعد» ومن أجل
جدها جعفر سمحت لسليم بزيارتها في أي وقت ودون تعقيد،



مَجْرَدُ رِسَالَةٍ نَصِيَةٍ يَرْسِلُهَا عَلَى هَاتِفِهَا تَفِيدُ بِنِيَارَتِهِ قَبْلَهَا بِسَاعَةٍ،
اخْتَارَتْ رُوعَةَ سَعَادَتِهَا وَسَعَادَةَ صَغِيرَتِهَا فَوَضَعَتْ لِعِلَاقَتِهَا بِسَلِيمٍ
نَقْطَةَ نِهَآيَةٍ وَبَدَأَتْ سَطْرًا جَدِيدًا، كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ شَاقَةً كَانْتَزَاعِهَا
لِرَأْسِ فَأْسٍ رُشِقَتْ فِي سَاقٍ مَتِينٍ لَشَجَرَةٍ اسْتَوَائِيَّةٍ لَكِنَّهَا قَرَّرَتْ أَنْ
تُنْهِيَ كُلَّ مَا يَرْبِطُهَا بِرَجُلٍ سَحَقَ كِرَامَتِهَا وَتَسَاوَتْ عِنْدَهُ مَعَ غَيْرِهَا
مِنَ النِّسَاءِ... أَمَّا هُوَ فَكَلَّمَا صَادِفُهَا تَظَاهَرَ بِالْهَدْوِ الْمُغْلَفِ بِالْبُرُودِ
حِينًا وَبِالْإِمْبَالَةِ حِينًا آخَرَ، كَانَ وَاضِحًا أَنَّ مَجْرَدَ رُؤْيَتِهِ تَوَلَّمَهَا..

شَهْرٌ تَقْرِيبًا سَبْقَ مِيلَادِ وَعْدٍ، كَانَ اللَّهُ قَدْ مَنَّ عَلَيْهِ بِالْعُثُورِ عَلَى
ضَالَتِهِ، رَاسَلَتْهُ مِيرَالٌ عَلَى تَطْبِيقِ الْفَيْسِ بَوَكٍّ، فَصَارَ يُرَاسِلُهَا
وَتُرَاسِلُهُ بِعِبَارَاتٍ بَسِيطَةٍ لَكِنَّهَا صَادِقَةٍ، لَا تَخْلُو أَحَادِيثَهُ مِنَ
الذِّكْرِ، وَلَا تَطْرُقُ أَحَادِيثُهَا إِلَى مَا كَانَ، تَقْطَعُ الْمَحَادَثَةَ إِنْ
شَعُرَتْ أَنَّ الْأُمُورَ سَتَفَلَتْ مِنْهَا إِلَى مَا لَا تُحِبُّ، فَيَسَارِعُ سَلِيمٌ
إِلَى إِكْسَابِ جَمْلَتِهِ التَّالِيَةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَرَحِّ وَالتَّهْرِيجِ، وَهَكَذَا مَرَّةً
الْوَقْتُ دُونَ أَنْ يَخْبَرَهَا شَيْئًا عَنِ رُوعَةٍ أَوْ نَوَّارَةٍ أَوْ الْأَبْنَاءِ!!

أَمَّا جَعْفَرٌ فَقَدْ طَارَ لُبُّهُ بِحَفِيدَتِهِ «وَعْدٍ»، إِنَّهَا الْمَزِيْجُ الْفَرِيدُ
مِنْ حَبِيبِيهِ الْعَنِيدِينَ سَلِيمٍ وَرُوعَةٍ، وَفِي سَبُوعِهَا أَقَامَ عَقِيقَةً كَبِيرَةً
تُحْرَتُ فِيهَا الذَّبَائِحُ وَعُلِقَتِ الزِينَاتُ وَالْمَصَابِيحُ الْكَهْرَبَائِيَّةُ
الْمَلُونَةُ مِنْ مَدْخَلِ الْبَلَدَةِ إِلَى آخِرِ حُدُودِهَا، سَجَّلَ بِاسْمِهَا مَائَةَ



فَدَّانٍ مِنْ أَخْصَبِ الْأَرْضِي، غَمَرَهَا بِفَيْضِ مِنَ الْحُبِّ وَالْحَنَانِ،
وَكَلَّمَا كَبُرَتْ كَلَّمَا زَادَ التَّصَاقُافُ بِهَا حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَعِدْ يَكْتَفِي بِزِيَارَتِهِ
الشَّهْرِيَّةِ لَهَا؛ فَطَالَبَ رَوْعَةَ بِالْحَضُورِ إِلَى بَرْخِيلَ كَلَّمَا اسْتَطَاعَتْ،
فَلَمَّا اعْتَذَرَتْ بِحُجَّةِ الْعَمَلِ اسْتَأْذَنَهَا فِي أَنْ تُرْسَلَ الصَّغِيرَةُ
وَمَرَبِّيتُهَا إِلَى السَّرَايِ لِقَضَاءِ بَعْضِ الْأَسَابِيعِ مَعَهُ، وَمِنْ أَجْلِ
عَيُونِ قَمَرِهِ الْجَدِيدِ جَهَّزَ جَنَاحًا وَاسِعًا مَرِيحًا لِلْأَمِيرَةِ الصَّغِيرَةِ
زَوَّدَهُ بِالْمَكِيفَاتِ وَكَافَةِ الْأَجْهَظَةِ وَالْكَمَالِيَّاتِ لِيَلِيقَ بِالْأُمُورَةِ،
الْكُلِّ فِي السَّرَايِ فِي خِدْمَةِ الْأَمِيرَةِ «وَعَد»..



ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ وَنِصْفَ مَرَّتٍ عَلَى الطَّلَاقِ أَحْسَسَتْ رَوْعَةَ
خِلَالِهَا أَنَّ مَتَاعِبَ الدُّنْيَا كُلِّهَا تَذْهَبُ عَنْهَا تَدْرِيجِيًّا كَلَّمَا ابْتَعَدَتْ
عَنْ سَلِيمٍ، كَلَّمَا تَقَلَّصَتْ مَسَاحَةَ عِلَاقَتِهِمَا، كَلَّمَا اخْتَفَتْ مَشَارِيعَ
جَمْعَتِهِمَا مَعًا، اسْتَوْعَبَتْ أَنْ رَوَايَتَهَا مَعَهُ لَمْ تَكُنْ مِنْ رَوَايَاتِ
الْحُبِّ الْكَلَّاسِيكِةِ الَّتِي تَنْتَصِرُ فِيهَا الْمَرْأَةُ عَلَى الرَّجُلِ، فَيَجْثُو
أَمَامَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ مُعَلَّنًا عَوَاطِفَهُ، فِي رَوَايَتِهَا لَمْ تَحَقُقْ انْتِصَارًا،
بَلْ تَمَزَّقَتْ وَتَبَعَثَرَتْ، وَعَلَيْهَا وَحْدَهَا جَمْعُ بَعَثَرَتِهَا وَتَشْكِيلُ
كِيَانِهَا مِنْ جَدِيدٍ، رَبَّمَا خَسِرَتْ وَانْهَزَمَتْ رُؤْيَتُهَا؛ لِأَنَّهَا عَرَفَتْهُ فِي
تِلْكَ الْفَتْرَةِ الطَّائِشَةِ الْمَعْلَقَةِ بَيْنَ الشَّبَابِ السَّادِجِ وَالْبُلُوغِ النَّاضِجِ،



لم تكن تفهم شيئاً عن الحب وتشابكات المشاعر، كانا صديقين
وكان الأفضل أن يستمر على هذا الوضع، فياليت خطواتهما لم
تتداخل عند نقطة التقاء..

تحس في أعماقها بشعورٍ قاتم غريب كلما طلب منها سليم
أن يصحب صغيرتهما إلى حيث أخيها، ترفض بشدة وتشدّد،
وتغيب عنها صفاتها الهادئة الملائكية، فيها ودها سليم لفترة
ثم ما يلبث أن يعاود يطالبها بقبول الأمر الواقع، فلن يجاريها في
حفر تلك المسافة التي تريدها بين صغيريه، يُذكرها أن بإمكانه
القيام بما يريد دون انتظارٍ لموافقتها؛ فيزداد شعورها قتامة ويزداد
رفضها ويتجمد الموقف..

بينما صوت عمها يئنّ في أذنيها: متحرميش بتتك من أخوها،
ده الأخ عضد وسند يا بنت أخوي.

تعاود روعة تفكر في الأمر ثم ترفضه، تكره أن تغادر دفء عمها،
لكنّها تحتقر ضعفها إن سمحت لسليم بالانتصار عليها ثانية..

وخلال تلك السنوات خاضت معارك كثيرة كي تنسأه؛
فركّزت مجهوداتها العملية وحقّقت الكثير من التطورات المهنية
وبزغ نجمها؛ التحقت بجمعيات التطوع والخدمة المجتمعية؛
فاستقالت من المجلة الأسبوعية التي كانت قد بدأت فيها



مشوارها الصحفي، أسبوعان بعدها وتم تعيينها في قسم الاتصال والإعلام في مكتب منظمة اليونسكو بالقاهرة، شهور أخرى ثم غمرتها الفرحة حين صدر أمر بنقلها إلى مكتب المنظمة في الأردن، فزارت عمَّها في فيلا «شهد» وكان آنذاك قد نقل إقامته بصفة نهائية إلى القاهرة واستقرَّ في جناحه الخاص تُمرِّضه ونيسة، قابلتها هناك بألفه حقيقيَّة وشوق صادق، علمت حينها بكل ما جرى مع تلك الريفية الطيبة من هجرٍ وترملٍ، سمعت حكايتها وباركت قرارها بعدم انتزاع ابتها من مدرستها الداخلية الرفيعة، يالها من سنوات حزينة ضاعفت عمق مأساتها؛ فشجبت وظهر على ملامحها الأسى الدائم، ورغم رابطة صادقة جمعتها بروعة في سنوات مضت إلا أنَّها لم تخبرها قط بما كان في نفسها تجاه سليم بيه، وبما كان يدور بينهما في أيَّام السعادة- «أيام القش والمطر».. وعلى انفرادٍ استمع جعفر لابنة أخيه ولمَّا جاءت تحمله من أخبار توجعه، لقد صار شيخاً كبيراً تجري عليه أحكام الزمن دون أن يملك حيالها رفضاً أو مقاومة، أنها حديثها متحاشية النظر إلى عينيه، وبكل حنين التفت إليها قائلاً: متبعديش يا بنت أخوي، ربنا يعلم إنك بنتي أني، ده إنتِ يا روعة الشمس اللي بتدفيني في آواخر أيَّامي، وحياتي من غيرك خلا، أنا كبرت يا بنتي ومحتاجك جنبي.



: أبقى جنبك يا عمي وأنا تعبانة؟

: لساك مجروحة يا بنتي؟

: أووي.. وهفضل مجروحة طول ما أنا هنا، طول ما أنا قريبة، عايزة أبعد وأجدد روحي واستعيد نفسي اللي تاهت مني وأرجعلك أحسن وأحسن وأبقى حاجة تتشرف بيها فعلاً.

: طيب «وعد» هتخديها معاكي؟

: طبعاً يا عمي، مقدرش أفارقها ولا أتحرّم منها ولا أحرّمها مني.

: لكن تجدري تحريمها من أبوها وتحريمه منيها ويبجي ده جزء من العجّاب، صُح؟

: لا والله يا عمي، عمري ما فكرت بالطريقة دي، ولا ده غرضي، كل الحكاية إن البنت لسه صغيرة، يادوب تمّت أربع سنين، ومحتاجاني أنا أكثر ماهي محتاجة باباها، وسليم ما شاء الله عليه بيسافر كثير، وبيروح ويبجي عشان شغله ويقدر يزورها في أي وقت.

: بصي يا بنت أخوي، مكنتش عايز أفكرك بحاجة تزعلك، لكن ما باليد حيلة، وإنّ صغار اتحرمتي من أبوك وأمك غصب عنك، مكنش بخطرّك ولا بمزاجك، وجربتي اليّسم وناره، فماتاجيش إنّ بكيفك وببيدك تحرمي بتك من أبوها وخيره، تحريمها من عمّتها، من عيلتها، وتنزعها من أرضها وهي لسه عود أخضر وراور وتزرعيها في أرض غريبة.



: يا عمي أنا مقصدتش كل ده، حضرتك عارف أنا بحبك
أدييه، وعارف برده إني مش شريرة أوي كده، إديني فرصة أبني
نفسي من جديد وأربي وعد زي ما أنا عايزة.

اقتربت منه وانحت تُقبّل رأسه ثم قالت: أرجوك متزعزعلش
منّي وحاول تفهمني، هبعثلك وعد النهاردة مع السوّاق عشان
تسلم عليك.

أسرعت تغادر، فإذا به يُناديها بصوت متهدج قائلاً: اللُجَا
نصيب يا بنت أخوي، ربنا معاك.

ودون وداعٍ سليم طارت إلى عمّان، لم ترغب في منحه فرصة
للاعتراض أو المساومة، فرحيلها فرصة ذهبية لا إشارة مرور
حمراء ستوقفها.

وفي حي «الشميساني»، أحد أحياء عمان الراقية، سكنت فيلا
صغيرة بديعة مكسوة بالأحجار الصخرية من الخارج، منمقة
الأثاث جداً من الداخل، تحيطها حديقة صغيرة لكنّها خلاّبة،
ترافقها مربية إنجليزية وخادمة فلسطينية، وفي مشروع دعم الإعلام
في الأردن تسلّمت عملها وانصرفت إلى واقعها تقلب صفحاته
بروح جادة تبحث عن كيان جديد وسعادة لا يجروء أحد على
انتزاعها منها.



وبسبب دعم الحاج جعفر لروعة رغم انزعاجه الشديد من رحيلها التزم ولده الصمت ولم يشأ أن تسوء علاقته بطليقته وأم طفلته أكثر ممّا وصلت إليه، ولم يرغب في منازعتها حضانة الصغيرة، مراعيًا صلة القرابة ورابطة الدم التي تجمعهما رغم اعتراضه على سلوك روعة تجاهه وتجاهلها المستمر لوجوده في حياة صغيرتهما «وعد»، إلّا أنّ غضبه الحقيقي منها لم تعرفه إلّا شهداً التي راحت توأسيه وتشجعه على الصبر والسفر لزيارة ابنته قدر ما يستطيع، فعمل بنصيحتها وأخفى حزنه عن أبيه حتى لا تتدهور صحته، ومضى يدّعي الانشغال والتشاغل بعمله وبنوارة وابنها عن ملاحقة روعة ومحاسبتها على كل ما أغضبه منها متغافلاً عمّا تفعل لا ناسياً له..

وفي أوائل ٢٠١٩م انضمت روعة إلى جمعية خيرية عريقة تعني بالخدمات التنموية، وبنشاطها المميز وأفكارها المتجددة سرعان ما صارت من قيادات الصف الأول للجمعية، الأمر الذي ساعدها على القيام بطوفانٍ من المشاريع البناءة، كل أخبارها ومسايعها كانت تصل أولاً بأول إلى عمّها فتُسعده ويستمر يدعو لها رغم غصّة بقيت تسكن قلبه جراء انفصالها عن وحيدة، يلومها بينه وبين نفسه على إصرارها على الطلاق وتمسّكها بكل



ما يفصلها عن مدارات سليم، ماذا لو رضيت، قبلت، بقيت...
أليس من حق الرجل أن يتزوج هذه وتلك؟؟؟، وفي جلسة
مصارحة جمعته بوحيده قبيل وفاته، لاحظ سليم حزناً أغرق أباه
حين تحدّث عن روعة، أعلن جعفر وقد صار على حافة النهاية عن
مرارة دفينة في نفسه سببها بُعد حفيدته الأثيرة عنه في لياليه الأخيرة،
يعرف أنّ موعد رحيله قد دنا وأن عمره قد انقضى، فرّت دمة من
عينيه حاول إجهاضها ففشل، خلع نظارته ومسح زجاجها في كم
ثوبه وأعاد ارتدائها، جاهد ليسيّط على ألمه قائلاً لولده: إيجي
هاتلي ولدك صالح بكرة، عايز أشوفه والعب معاه شوي.

أجاب سليم وقد علقت غصّة في حلقه: حاضر يابا، أنا كنت
هجيبة النهاردة، بس نوّارة قالت إنه دافي شوية، فمرضناش نخرّجه
أحسن يتعب أكثر.

: خير ما عملت، على فكرة مرتك زينة، طيبة وروحها حلوة،
ولو إنت مش مبسوط معاها وعاوز تتجوز تالت مش هتجولك
لأ... تعرف ليه؟

: ليه يا حاج؟

: كنها بتحبك صُح، واللي بيعب حد بيعب يريحه حتى
لو كان على حساب نفسه.



: إِنْتَ يَا وَالِدِي اللّٰهِ بِتَقُول كده؟!

: أَيُوْه آنِي، لَأَنِّي دِلُوكْ مَفَارِجْ دَنِيْتِي، وَجَرِيْب مِّنْ آخِرَتِي،
بَيْنِي وَبَيْنَهَا شَبْرٌ أَوْ شَبْرِيْن.

: مَتَقَوْلْشْ كَدِه يَا حَاج، إِنْتَ صَحْتَكْ زِي الْفُلِّ وَاللّٰهُ، إِنْتَ بَسْ
زَعْلَانْ وَمَتَأَثَّرْ بِمَوْتِ وَنِيْسَةِ اللّٰهِ يَرْحَمُهَا لَكِنْ إِنْتَ...

: اِسْمَعْنِي زَيْن يَا وَلَدِي، مَتَزَلَمَشْ نَوَّارَةَ وَتَاخُدْ أَهْلِي سَنِيْن
عَمْرَهَا وَتَرْحَلْ عَنْهَا، الظلم عَفْشْ وَأَخْرَةَ الظَّالِمِ وَحَشَّة، شَوْفْ
إِنْتَ عَايِزْ إِيَّاهُ مِنْهَا وَجُوْلَهَا، وَلَوْنِّي مَتَأَكَّدْ إِنْكَ بِتَحِبُّهَا وَبَتَمُوْتْ
فِيهَا كَمَا بَسْ بِتَكَابِرْ عَشَانْ مَشْ شَايَفْ إِلَّا نَفْسُكَ.

: عِنْدَكَ حَقٌّ يَا بُوْيَا، أَنَا نَفْسِي مَشْ فَاهِمْ نَفْسِي، أَحْيَانًا بِحَسْ إِنْ
مَشَاعِرِي مَعَهَا عَادِيَّة، وَإِنِّهَا مَشْ فَارِقَةٌ مَعَايَا، مَرَاتِي وَأُمُّ ابْنِي وَبَسْ
وَأَحْيَانًا بَبْقَى مَتَأَكَّدْ إِنْني بِتَحِبُّهَا وَبِمَوْتِ فِيهَا وَمَقْدَرُشْ اسْتَعْنَى عَنْهَا.

: دِهَ الشَّيْطَانُ يِلْعَبُ بِعَجَلِكَ وَبِرُوحِكَ، أَطْرُدْ شَيْطَانَكَ
وَصَلِّحْ غَلَطَكَ جَبَلٌ مَا يَكْبُرُ وَيِلْعَكُ جَوَاهُ، وَتَصْحَى تَلَاجِيْهَا
فَرَّتْ مِنْكَ لِرَأْجُلٍ غَيْرِكَ... مَفِيْشْ أَبْرَكَ مِنْ إِنْ الرَّاغِلْ يَلْحَقْ نَفْسَهُ
بِنَفْسِهِ وَيَصْلَحْ الْغَلَطَ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ أَنَا النَّهَارْدَةِ الصَّبْحِ صَلَّحْتُ غَلَطَةَ
عَمَلْتَهَا مِنْ خَمْسِ سَنِيْن، سَاعَتَهَا يَمْكُنْ كُنْتُ مَشْ فَاهِمٌ أَوْ بِكَابِرْ
أَوْ غَفْلَانْ، مَشْ مَهْمٌ، الْمَهْمُ إِنْني فَهَمْتُ جَبَلٌ مَا جَابِلْ وَجْهَ كَرِيْمٍ.



: غلطة إيه يابا، خير؟

: أختك الله يكرمها جابتلي موظف الشهر العجاري لحد
أهنه، وكتبت لصالح خمسين فدّان كمان لجل ما يبجي زيه زي
أخته وعد، مش عايز أكون ظالمه ولا مجصّر في حقه.

: متشغلش بالك يا حاج بالعيال، أنا براعي فيهم العدل من
وهما صغيرين، محدّش فيهم هياخد مني أكثر من الثاني.
: اللي ياخدوه منك كوم واللي يوصلهم مني كوم ثاني يا ابن
إلهام.

: ليه كده يا حاج، أنا زعلتك في حاجة؟ مبتقوليش يابن إلهام
إلا لو إنت زعلان مني.

: لا يا سليم، لا يا ولدي، أنا راضي عنك وعشان أكده بجولك
يابن إلهام.

ابتسم سليم وسرّه ذاك الحديث الودود الطيب الذي
جمعه بوالده، لقد تغيّرت طريقتهم في الحديث معاً، اختفت
همهمات الاعتراض وصيحات الاستنكار الناتجة عن السير في
الاتجاهات المضادة غالباً، لم يكن يعلم أنّ روح جعفر تحتضر
وأن دفتر عمره قد انقضت أوراقه، فلا صباح جديد ستشهده
عيناه... استقبل سليم وفاة والده بشجاعة أهله للوقوف صلباً



منتصبًا يتقبَّل العزاء فيه في سرادق كبيرٍ أقيم وسط برخيل،
جاءه طوفانٌ من المعزين من كل حدبٍ وصوب، شيء لم يره من
قبل ولم يتصوره.... كان الحاجُّ الكبير كثيرَ المنحِ واسعِ العطاء
دون إسرافٍ أو تقطير، يعرف لمن يمنح ومتى يمنح ولمن يمنع
ومتى يمنع، بسخاءٍ يُعطي أحد مزارعي أرضه وفي اللحظة التالية
وبمنتهى الحزم يأمر رجاله بتأديبٍ آخر... هالةٌ لا يفسرها سوى
أنَّ أباه كان رجلًا عظيمًا يفقه فلسفة خاصة به وحده، لم يعرف
ولده قوانينها أو نظرياتها، لم يتجاوب مع معطياتها ولم يمنح نفسه
وقتًا لاستيعابها، فلسفةٌ مغايرة لم يجرؤ أحد على مقاطعتها، لا
تعني بالضرورة أنَّ جعفرًا كان دومًا على صواب، ونفسُ الفلسفة
لا تعني أبدًا أنَّه دومًا كان على خطأ..

وحين انفرد سليم بنفسه في غرفة والده في السراي، تحطَّمت
قلاع مقاومته؛ بكى والده بكاءً مُرًّا، علا صوت نحيبه، دخلت عليه
أخته تواسيه وقد تورَّمت عيناها، فها لها منظره، احتضنته بقوة
واستقرَّ رأسه التي أظلمت بسُحب الحزن على صدرها، بقيت
تضمه وتربت على كتفيه فغشيته غيبوبة حنانٍ دافق كانت حاجته
إليها عظيمة، إلى هذا الحد كان مُحبًّا لأبيه؟! عجبًا لحب كان
مختلفًا لسنوات طويلة خلفَ جدرانِ الشقاق وعافت النفوس عن



الإفصاح عنه أو ربّما نزع الموت ورقةً التوت التي غطّته ببرودٍ
كثيفٍ لسنوات..

حضرت روعة عزاء عمّها، فالتقت سليمان، شعرت بضعفه
وعمق حزنه، تعجّبت من ضعفٍ استكثرت عليه، راوغتها
الكلمات؛ فلم تعرف كيف السبيل إلى مواساته وهي ملكومة مثله،
مرّة أخرى يجمعها القدر به في لوحةٍ واحدة، لكنّها لوحةٌ سوداء
حزينة... رحل والدها الروحي دون وداع يليق بحجم مشاعرها
نحوه وبعظيم خسارتها فيه..

أربعٌ وعشرون ساعة فقط قضتها في مصر رتلت فيها دعاءً
طاهراً عذباً من أجل فقيدها الغالي «جعفر أبو ستين»..



عامانٍ آخرانٍ من العمل الدؤوب واصلت فيهما روعة
انطلاقاتها المميزة، ثمّ وفي ٢٠٢١م تولّت رئاسة الجمعية التنموية
وبالإجماع، رافعة شعار «الجماعة في خدمة الفرد ما دام الفرد في
خدمة الجماعة»..

أصبحت روعة امرأة ناضجة صلبة ذات علم وخبرة، بارعة في
احتواء من حولها فحظيت بحب رفيقاتها وزميلاتها في الجمعية،
أمّا «وعد» فكانت أحبّ إليها من نفسها، تغمرها بالقبلات صباح



مساءً، وتُنصت لحكاياتها عن المدرسة والرفيقات ومحادثاتها الهاتفية لوالدها، مناقشتها الدائمة معه حول أمورها، تُرسلها روعة إلى الفندق الذي ينزل فيه بمجرد أن تحط قدماه الأردن..
نما مشروعاتها التنموي ووصلت أخباره للملكة رانيا؛ فزارت الجمعية في إطار تفقدها لعددٍ من المشروعات التنموية البارزة، أشادت الملكة بمجهودات روعة وتفردا وصارت من القريبات لجلالته، بعدها بفترة أسندت إليها الإشراف على بعض مشروعات الجمعية الأردنية للتنمية البشرية، ثم منحتها الجنسية وجواز سفرٍ دبلوماسي تقديرًا لمجهوداتها المخلصة..
وفي إحدى منتديات الجمعية عرفته رجلاً أنيقاً في بذلته السوداء، ساحراً في هيئته، راقياً في تحيته، يندر وجود مثيل له، يكبرها ببضعة أشهر، يملك من الذكاء واللباقة ما يجعله لافتاً للنظر جداً... وسرعان ما نمت بينهما علاقة راقية اندمجا فيها دون تكلف؛ فقطعا وعوداً كثيرة معاً، وصارت أنهارهما كلها تجري في اتجاه واحد يجمعهما ببساطة؛ فلم تعد لذكرى الماضي مكاناً في حاضرهما، وراحا يرسمان معاً خطوطاً عريضة لمستقبل يسمو بوجودهما سوياً..

إنَّه الشريف خالد بن طلال، ينتسب إلى العائلة الهاشمية،



يتقلد منصب سفير بلاده في كندا، قبلها عمل أستاذاً للعلوم السياسية والتاريخ في بعض جامعات الأردن وعدداً لا بأس به من المنصّات الدولية.

كان ذكياً مُتقفاً معطاءً بالقدر الذي تحتاجه امرأة بجناحين كروعة، عيناه لامعتان، ضحكته رنانة وابتسامته كفيلة بإدخال السرور إلى قلبها بالحدّ الذي يجعلها تُعد حقيبتها في نفس الساعة التي طلبها فيها للزواج لترحل معه إلى جزيرة «مورانو»، تربط حول عنقها وشاحاً أيضاً لجذته الكبيرة تفوح منه رائحة البخور الأصيلة ونسمات العراقة الذكية، أهداه لها صباح عقد القران في مسجد «أبو درويش» على جبل الأشرفية في عمّان، وفي المساء رحلا معاً إلى البندقية ليشرق هناك صباح زواجهما الأول..

أحبّها خالد من النظرة الأولى وهو الذي لم يكن قلبها يلتفت إلى النساء، رآها ملاكاً نزل من السماء تحمل في يدها باقة من ورود الجنة، اقتحمت قلبه دون استئذان لتصيبه بتعويذة عشق جعلت قلبه ينبض كال مسحور، أرادت أن تقصّ على مسامعه فصول حكايتها فصلاً تلو الآخر؛ فرفض، فتحت عينيها في حيرة مندهشة لما لا يراوده فضولٌ ليعرف عنها؟! فأجابها: مهما كان اللي راح تقوليه ما بيعينيني، اللي يهمني بحق هو إنتِ أميرتي..

وحدكِ كافية جداً.



بلعت ريقها وقد أذهلتها جملته؛ فقالت: الأفضل أنك
تعرف كل القصة قبل أي ارتباط، وتأخذ قرارك وإن عارف كل
حاجه عني من الأول..

أخذ كفها اليمنى بين يديه، وضعها على قلبه قائلاً: لوما
شاركيني حياتي الجاية، هاد المسكين راح يتوقف..
فكان الزواج في ديسمبر ٢٠٢٢م..

غضب سليم حين علم أن روعة تزوجت وسافرت إلى
مورانو لقضاء شهر عسل تاركةً وحيدتهما في عمان ترعاها مربيتهما
الإنجليزية وتقوم على خدمتها السيدة الفلبينية ويصحبها إلى
مدرستها سائقها الباكستاني!!

استقبل الخبر بنفورٍ وارتباك، فمنذ الطلاق ترك لروعة زمام
أمرور وعد مطمئناً إلى أمومتها وحسن تدبيرها، لم يواجه مشكلة
واحدة بهذا الشأن، رآها دومًا نغم الأم رغم مسؤولياتها الكثيرة
وتشعب مشغولياتها إلا أنها أبداً ما قصّرت في واجبها المقدس
نحو أميرتهما المدللة..

تحير بحثاً عن طريقة جديدة يعامل بها طليقته بعد زواجها
المفاجئ، أخذه التفكير، فياتراه كيف سيحل تلك الأزمة الناتجة
عن وضع روعة الجديد؟



لا شيءَ في الدنيا أقسى من ديسمبر لذلك العام، ففيه
أيضًا خُطِبت «نَوَّارة» إلى رجل آخر..



أي شركٍ أوقعيني فيه يا روعة؟ سؤال تردَّد في ذهن سليم
كثيرًا، يكاد عقله أن يفتت من التفكير، ليس هو بالأب الذي
يحرّم ابنته على صغر سنّها من أمّها وليس هو بالرجل الذي يبتلع
هزيمته ويقبل أن تربي ابنته في كنف زوج أمّها، ولا هو أيضًا من
يمرّر حيرته ويقبل الدنيّة ويهرع بصغيرته إلى دادة لتربّيها، ولن
يتزوج مجددًا ليأتي بمن تُربي له ابنته، فقد حرّم جسده على
النساء دون «نوري»، لا زوج الأم ولا زوجة أب بالبوابة السحرية
التي تمرّ منها وعد إلى سنوات الشباب..

استقرَّ قاعًا في حيرته يفتش عن حل مثالي لمأزق توجّب
عليه المرور به بينما حملت وعد حقيبتها ولحقت بأمّها وزوجها
«أنكل خالد» في «أوتاوا»..

وحين احتفلت العروس بذكرى ميلادها الرابع والثلاثين
(أول عيد ميلاد لها بعد الزواج) سجدت تتضرع إلى الله أن يحفظ
عليها جنينًا وهبه لها من رجل تعلقت روحها به فكان لها خير
جزاء، وأفضل عوض عن كل حزنٍ أهلكها فيما سبق.. إنَّ خالدًا



رجلٌ صنَّعَ مِن أَجْلِهَا، حتَّى أَفْكَارُهُ وَأَهْوَاؤُهُ لَمْ تَبْحَثْ فِيهَا رُوعَةً
عَنْ شَيْءٍ يَطَابِقُهَا.. فَكَلَّهَا كَانَتْ تُطَابِقُهَا، فَأَتَى الزَّوْجَ عَلَى طَبَقٍ
مِنْ ذَهَبٍ وَكَأَنَّ الْحِظَّ قَدْ طَرَقَ بِأَبْهَا فِي لَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ..

فَإِنَّ أَفْضَلَ الْأَمْنِيَّاتِ هِيَ أَنْ نَجِدَ مَنْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْكُنَ إِلَيْهِ
وَبِهِ، مَنْ نَبْدَأُ مَعَهُ فَنَنْتَهِيَ مَعَهُ، مَنْ يَصِيرُ لَنَا مَعَهُ أَهْدَافٌ وَأَحْلَامٌ
وَذِكْرِيَّاتٌ، دُونَ أَنْ نَعَانِيَ خِذْلَانًا عَانِيَنَاهُ سَابِقًا..

لَقَدْ وَجَدْتُ رُوعَةً فِي زَوْجِهَا الْأُرْدَنِيِّ الشَّرِيفِ كُلِّ مَا تَمَنَّتْهُ
وَكُلِّ مَا احْتَأَجَّتْهُ دُونَ أَنْ تَعَانِيَ صَعُوبَةَ اللُّجُوءِ أَوْ مَتَاهَةَ الْقَرَارِ،
إِنَّهُ رَجُلٌ بَقِيَ كَمَا عَرَفْتَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ دُونَ تَقْلِبَاتٍ عَاطْفِيَّةٍ أَوْ أُخْرَى
مَزَاجِيَّةٍ، فَظَلَّتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ كَمَا لَوْ أَنََّّهُ الْوَحِيدَ الَّذِي خُلِقَتْ لَهُ وَمِنْ
أَجْلِهِ، تُوقِظُهُ كُلَّ صَبَاحٍ عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَاتِ السَّاحِرَةِ بِصَوْتِ
السَّتِ أَمْ كَلْثُومَ: «وَقَابِلَتُكَ إِنَّتَ لِقَيْتِكَ بِتَغْيِيرِ كُلِّ حَيَاتِي، مَعْرِفَشِ
إِزَايَ أَنَا حَبِيتُكَ، مَعْرِفَشِ إِزَايَ يَا حَيَاتِي، مِنْ هَمْسَةٍ حَبٍ لِقَيْتِي
بِحُبٍّ وَأَدُوبٍ فِي الْحُبِّ وَصَبْحٍ وَلَيْلٍ عَلَى بَابِهِ»...مَقْطَعٌ سَاحِرٌ
مِنْ كَلِمَاتِ مَرْسِي جَمِيلٍ عَزِيزٍ لِرَأْتَعَةِ «سِيرَةِ الْحُبِّ» مِنْ أَلْحَانِ
الْمُتَمَكِّنِ بَلِيغِ حَمْدِي، أَحَبَّتْ رُوعَةً أَمْ كَلْثُومَ وَأَدْرَكَتْ لِمَا
أَسْمُوها «السَّتِ»..

احتفلا بعيد زواجهما الأول بالقرب من مهد توأمهما



«هيا وشيما»، وبمرور الوقت هدأت الأحوال بين سليم وروعة واطمن إلى حسن خلق زوجها ونبل أصله، فترك وعدًا إلى أمها؛ فاستقرت معها في كندا طوال مدة عمل خالد هناك، فلا يمر عام أو أقل حتى يذهب سليم إلى زيارتها وحين بلغت الخامسة عشر سألها أن تزوره هي في موطنها، فكل الفرص متاحة لها لتعرف وطنها الحقيقي وتقابل أخاها صالح وعمتها شهد..

فجاءته مشرقة اللون، رقيقة القسما، مريحة الروح، رشيقة القد، وقد صارت تحمل بقايا طفولتها البريئة مجتمعة في شقاوة عينيها بينما هدير جمالها البهي يشير إلى شباب فاتن مثير ستنعم به تلك الفراشة المرفرفة..

استقبلها في المطار بصحبة زوجته وصالح الذي أبدا استعدادًا طيبًا للرفقة والتقبل، فحديث والده عن أخته لا ينقطع، ووصايا «نؤارة» له بحسن استقبالها يتردد في عقله وكيانه، لقاءها به كان ودودًا دون كلفة، فصار يرافقها أينما ذهبت في مصر، يتجولان في شوارعها وأحياءها ويتنقلان بين مدنها وشواطئها، زارا كل المعالم الأثرية في القاهرة والأسكندرية، أسبوع في الغردقة وآخر في مرسى علم، ثم رافق سليم أبناءه إلى الأقصر وأسوان، فتقوت علاقته بفتاته وجرت بينهما صداقة راقية وحدث إرادتهما في أن



يكون لهما ذكريات تجمعهما معاً، وبفضولٍ وحماسة استمتع الأخوانِ باكتشافهما لبعضهم البعض دون أن يلتفتا خلفهما، كانا طفلين في لعبهما، مراهقين في جنونهما، راشدين في حواراتهما عن المستقبل والأمنيات والأحلام..

«سليم وشهد»، «صالح ووعد»... وكأنَّ التاريخ يُعيد نفسه، إنَّ أحداثه كروية لها شكل الدائرة المغلقة تتجدد وتكرر تلقائياً بصيغ متشابهة، فلا فراق يبقى ولا لقاء يدوم..

انتهت أجازة وعد ولزم عليها العودة إلى أوتاوا ومنها إلى فيينا، فقد صدر مرسوم ملكي بتحريك السفراء وتمَّ نقل خالد بن طلال إلى النمسا، أزمةٌ جديدة ظهرت في الأفق، فقد كره سليم تنقُّل فئاته بين البلاد وتمنى أن تستقر معه، بيد أنَّها كانت قد تشبعت بحب السفر والتنقل ورأته انطلاقاً يوفر لها الاحتكاك والتجربة الآمنة وهما روح الخبرة والتعلم وذلك يقودها قطعاً لتحقيق تطلعها في اتساع المعرفة واكتساب المهارات واللغات... تعشق أمها وتحب «أونكل خالد» وتأسرها حكاياته التاريخية التي يحدثهم عنها كلما جلس إليها هي وأخواتها صباحات كل أحد..

لقد أحبَّت وعدُّ أخاها صالحاً ووجدت فيه صديقاً تتحدث معه بشفافية، بينما امتلأ صدر صالح بقناعة تامة أنَّه بحاجة إلى



أن يستشعر أخوته لوعده، صحيح أنه ليس أخاها الوحيد فقد رُزقت أمَّها بـ «سيف» وقبله «شيماء وهيا»، لكنَّه الأُوحد الذي يطابقها في الاسم والأصل والمنشأ، فكلاهما حفيد آل أبو ستين وكلاهما يملك تلك الجينات العنيفة في رقَّتْها، الرقيقة في عُنفها..



وفي النمسا تابعت حياة روعة مع زوجها والأبناء واختارتها اليونسكو سفيرةً للنوايا الحسنة بعدما سطع اسمها كناشطة إنسانية، ورغم حجم مسؤولياتها التي اتسعت وتشعبت إلا أنَّها تابعت دراساتها العليا في مجال العلوم الدولية وحصلت على الدكتوراة، حقَّقت كل ما أرادت، كل ما سعت إليه، يدعمها زوجها دون أن يضيقَ لحظةً بأحلامها واهتماماتها وشغفها..

وفي أثناء ذلك استعادت صلتها بيزي واستمرَّت بينهما مراسلات الواتس آب بصفة شبه دورية لسنوات، ثم تمَّ الاستغناء عن خدمات د. ممدوح وإنهاء تعاقدته في الكويت، عاد بعدها إلى القاهرة يفتش عن مستشفى استثماري كبير ليعمل به، رافضاً استخراج ما تحت البلاطة وممارسة العمل بماله الخاص بحجة جهله بالإدارة وخشيته الشديدة من المغامرة بثروته حقَّقها بغربته، كانت زيزي قد ضاقت بعناده وبخله وفضاظة طبعه فقرَّرت بعد



وفاة والدتها وفي لحظة جنون أن تطلب الطلاق، ثارت ثورة عارمة حين غادر زوجها سرادق العزاء متعللاً بصداق مفاجئ وإرهاق أصابه بسبب إصرارها على السفر إلى المنصورة لتقف على غسل أمها والصلاة عليها في المسجد الذي اعتادت السيدة الصلاة فيه، أصرت على السفر فجزأ التشهد بعينيها تنفيذ الوصية، ربما كانت تلك الأزيمة هي القشة التي قسمت ظهر البعير، فطاعتها العمياء له لم تكفل لها السلام وصبرها الرحيب على تصرُّفاته لم يحقق لها الأمان المنشود، فلا شيء في الوجود يستحق أن تدفن المرأة من أجله نفسها مع رجل يهوى تحطيمها..

اكتوت بنار أنانيته وانطوائه، أوجعها بخله وطمعه في تكديس الآلاف دون أن يفكر ولو مرة أن يكتب لها شقة من الشقق التي راح يشتريها في أنحاء القاهرة، شاليه في العجمي وشقتان في مرسى مطروح وثلاث محلات تجارية في عابدين وخمس سيارات أجرة، حصيلة سنوات الغربة وتحويشة العمر، اقترحت عليه أن يكتب بعض ما يملك بأسماء الأبناء، رفض الاقتراح بحجة أنهم مازالوا صغاراً يأخذون منه المصروف ولا داعي لإشراكهم في البنس وتفتيح أعينهم على المال والتجارة فينصرفوا تدريجياً عن دراستهم وسندهم الحقيقي في الحياة «الشهادة الجامعية»، كلمة يرددها بخواءٍ دون أن يعيها فعلاً!



منازعات وقضايا استمرت شهوراً في المحاكم وكان من الممكن أن تستمر لسنوات، لكن زيزي حصلت بالفعل على ورقة طلاقها حين تنازلت بكامل إرادتها عن حقوقها المادية من مؤخر صداق ونفقة وخلافه، وخرجت من بيت الزوجية بغرفة النوم المهجورة من سنوات وبأدوات المطبخ وطقم الصيني!!... فلا يوجد أثمن من حريتها وسنوات عمرها القادمة، أمّا الأبناء فقد تخرج كبيرها «محمد» من أكاديمية الشرطة وتتابع خطواته المهنية بنجاح يحرسه والد خطيبته، لواء الشرطة المتقاعد... أمّا «جمانة» آخر العنقود، فكل الفرص أمامها متاحة للالتحاق بإحدى الجامعات خارج مصر، هكذا تنتهي كل الخيوط التي تربطها بممدوح الذي لا يملّ من الوقوف وسط الشقة وأمام الأبناء رافعاً رأسه كمنتصرٍ في حرب حامداً الله أنّه أتمّ رسالته وعلم كبيره أحسن تعليم، فلا شيء آخر للفتى عنده ولا حسنة أخرى يمكنه تقديمها لمحمد، عليه الاعتماد على نفسه كلياً لإتمام مشروع زواجه إن أراد... «محمد وجمانة» من أجلهما هما فقط تحملت «زيزي» جبلاً من الهمّ والعُزلة والنكد، تمضي بها الحياة عسيرة تفض بصبرها اشتباكاً بعد اشتباك يجري بينها وبين ذاتٍ سألتها الخلاص كثيراً من زيجتها ذات الأسنان الحادة



المشرشرة، فكانت تُسَكِّنُها ببعضِ المُخدرِ مِنَ الأمثال والأقوال المأثورة، «ضل راجل ولا ضل حيلة» و«اليوت ياما ييجرى فيها» و«مفیش بیت بیخلا من النكد» وغيره وغيره!

بعد طلاقها سرعان ما انقطعت العلاقة بينها وبين أهله؛ فشعرت بالوحدة وتسرّب اليأس إلى عقلها فراسلت روعة تطلب مشورتها ونصحها، وشدّ ما فرحت حين أرسلت لها تدعوها للسفر إلى النمسا وقد يسّر لها «خالد» كافة الإجراءات..

لم تخيّب روعة ظنّها ولم تبخل عليها، ليس فقط بالمشورة بل بالدعم والمساندة وسرعة الاستجابة، حطّمت زيزي القيود التي فرضتها عليها عشرتها لزوج خيّب أملها فيه، عانت معه الأمرين في الغرب؛ فلم يحمّد لها صنيعها ولم تجدّ ما يربطها بالبقاء في مصر فرحّبت بعرض «ريكا»، وجدته مناسباً جداً لوضعها الجديد، هكذا دخلت زيزي إلى عالم روعة من جديد وقد تبادلتا الأدوار، فحفيدة أبو ستين تؤمن بعقيدتها الخالصة عن تجربتها الإنسانية «إنَّ بمقدارِ الحب نُعطي»، فلم يكن من الجائز أبداً أن تخذل زيزي حتى لو كان خذلاً نأ تافهاً... فبعد زيزي عن عينها لم يمح معزتها في قلب روعة... تلك الأنثى الرائعة التي صارت صعبة الكسر، يسبقُ اسمها ألقاباً رنانة تستحقّها بينما يقف خالدٌ ليُصَفِّقَ لها انبهاراً..



اعتادت زيزي وابنتها ملازمة روعة، فتعهد خالد بتذليل العقبات والتحقت جمانة بجامعة دولية واندمجت «زيزي- زينب» في عالم روعة فما عادت ذابلة، بل تهيأت لها أسباب المجد والثقافة والثراء وعززت موقعها في مشروعات «ريكا» الخيرية؛ فشعرت بالرفعة والرضا عن نفسها..

وفي إحدى زيارات العائلة إلى الأردن تعرّفت جمانة على قريب لخالد، ضابط شاب في القوّات الخاصة، وتمّ الزواج واستقرّت العروس في بلاد زوجها، وعادت زيزي إلى ملازمة روعة إلى أن جاءها رجاء صريح من ابنتها تدعوها إلى السفر إلى عمّان والإقامة معها بشكل نهائي، فقد وهبها الله من التوائم ثلاثاً، وما أشد حاجتها إلى أمهاً وملازمتها... فاستجابت زيزي لرغبة ابنتها ورحلت إلى الأردن وغرقت في حياة الأحفاد حتّى قمت رأسها..

وفي ٢٠٣٤م أنهى خالد تنقله وحياته الدبلوماسية واستقال برغبته الكاملة من العمل الدولي وانتصر إلى عمله استاذاً متفرغاً للعلوم السياسية في جامعة «سلفورد» في مدينة مانشستر بإنجلترا، يمضي وقت فراغه في مزرعة صغيرة اشتراها في الريف الإنجليزي يمارس الزراعة، هوايته التي جنبها لسنوات، هناك يقضي الأيام مستمتعاً بنباتاته الخضراء وأزهاره الملونة الممزوجة ببعضها البعض لتشكل لوحةً فنية رائعة التصميم والابتكار من إخراج رفيقته الحسنة «روعة»..



بينما واصلت بنت أبو ستين حياتها الدؤوب، فكانت عميمة الخير، نقية النية، تتبرع ببساطة بمئات الآلاف من الدولارات أو الجنيهات الإسترلينية لتُحيي نفساً أو تجنبها شقاء الحياة.. وبمرور الزمن صار المدُّ قوياً بينها وبين ابنة عمِّها «شهد»، وانتصرت العواطف على عوامل البُعد والجمود حين تبرَّعت «ريكا» بمبلغ ضخم للمركز الطبيّ الخيري الذي شيّدته شهد لعلاج غير القادرين، كما ساعدتها في شراء وحداتٍ حديثة متطورة للغسيل الكلوي وجهازٍ باهظ الثمن للرنين المغناطيسي، فقد جمع حبُّ الخير بينَ قلبيهما، فلم ينطو كل فرع على نفسه إنَّما نمت شجرة آل ستين بكل أثرٍ طيبٍ، وفي المركز الخيري ذاته أقامت روعة وبمالها الخاص جناحاً كامل المجانية لعلاج حالاتٍ وضحايا الحروق، أسمته جناح الحاج «جعفر أبو ستين»..

هكذا لم يعد يربطها بابن العم والصديق الذي أخطأت جدًّا يوم نقلته إلى خانة الحبيب ثم الزوج رابط غير أنَّه والد ابنتها، ما عادت ذكرى سليم تؤلمها أو تؤرِّق حياتها، ما عاد اسمه الذي يشاركها نصف اسمها يزعجها، ففي زمنٍ ماضٍ اعتقدت أنَّ المسافةَ بينهما قصيرةٌ جدًّا غير قابلة للتمدد والانتساع، لكنهما افترقا بلا جهد، ودون أدنى مقاومة، فراقٌ يخالف قوانين الفيزياء والمد والجزر، ما أسهل الهدم وما أسرعه، ما عادت



له في نفسها بقايا مشاعر تدافع عنه، لقد نسيته، بل تمادت في نسيانه، لقاؤها بخالدٍ لم يكن صدفة، فلا صُدِفَ تنتظر صاحبها، إنّما هو رسالة قدرية فهمتها روعة في وقتها، واستجابت بكامل حواسها إلى قدرها الجميل ونصفها الأصيل، معه لم يعرف قلبها تجاعيد الألم ولا مرارة الحرمان..

فرحت روعة وزوجها بالأبناء، فرغم ترحالهم وتنقلهم من مكانٍ إلى آخرٍ إلا أنّهم شدّدوا في المحافظة على وحدة الأسرة وصلابة روابطها، فمضت طيورهم تعرف الطريق إلى ما تريد، حقّقت «وعد» غايتها، وسافر «سيف» إلى مونتريال بكندا ليدرس الطيران المدني، وتخصّصت «شيماء» كطبيبة ماهرة في أمراض الدم، واحتذت «هيا» بوالدها فسارت على خطاها وتسلّمت عملها في منظمة اليونسكو خلفاً لروعة التي استقالت حين بلغت الستين لتتفرغ نهائياً لكتابة مذكراتها، لازمت خالدًا في عزلته في الريف الإنجليزي... خالدٌ الذي أصبح هو وما يتعلق به كل سعادتها وفرحها وبهجتها، فحينما أراد الله أن يتولى قلبها أرسل لها ذاك الشريف، إنّه رجلٌ بطعم الأمان..

فلا يُقاس الحبُّ بما تراه من محبوبك أمام عينيك بل بما تجد عنده من فهمٍ وتقديرٍ ووفاءٍ..



(١١)

وعد سليم جعفر أبو ستين

(المولودة في ٢٠ إبريل ٢٠١٤م)

ولدت في إحدى المستشفيات الخاصة في «مَيل الروضة» قبل موعدها بتسعة أيام فقط، الابنة الوحيدة لسليم من بنت عمّه «روعة» ونتاج زواج لم يدم أكثر من سبعة أشهر، جاءت إلى الدنيا تحمل لون الورد الأحمر على خديها، وبعينين رائعتين ورثتهما عن جدتها النابلسية الكبيرة «آمنة»، إنَّها أجمل ما وقعت عليه عينا جدها «جعفر»، ففيها يجرى دم سليم ممتازاً بدم روعة..

حين نبضت عروقها خارج جسد أمها، كانت لم تحصل بعد على طلاقها من زوج خدعها وتزوج عليها بأخرى كرهتها إلى أبعد حد، فظلت صامدةً ثابرةً، تعاني وحدها آلام مخاضٍ عنيف استمرَّ قرابة النصف يوم، فقد تشربَّ وجدانها بغضبٍ لم تستطع تجاوزه حينها، فعاندت نفسها ولم تهاتف عمَّها أو زوجها ولم يحضر أحدٌ منهما ولادة كريمتها..

رسخت في نفسها أحقيتها في فتاتها دون أبيها؛ فلم يعرف سليم مولد ابنته إلا بعد أيامٍ أربع، وسرعان ما امتصَّ «جعفر»



غضبَ ابنه وأقسم عليه ألا يُغاضب زوجته وألا يقسو عليها أو يُعَاتبها، إنَّها نفساء عانت الكثير وحرقة الدم ستؤخرُ تعافِها وستعقُدُ اللبن في صدرِها؛ فلا تجد زهرتهما ما يرويهما ويُرطب جوفها، رجاء ألا يقع بينه وبين «ريكا» ما يزيد الطين بلَّةً، فزارها يُمنِّي نفسه برؤية ابنته، استقبلته ببرودٍ وتهكمٍ أثاره، فلامها ولا مته وعَاتبها وعَاتبته، وكادت الأمور تتطور بينهما أكثر لولا أدركهما بكاء الصغيرة وكأنَّها تستجير، أصرَّت «روعة» على الطلاق الذي هوَّ ن عليها وطأة خديعة زوجها وخذلانه لها، وفي الليلة العاشرة من ميلاد وحيدتهما زارها «سليم» برفقة المأذون و«أسامة البرنس» وسائقها الخاص، ونالت ما أرادت في غياب عمها «جعفر» الذي أصر على عدم الحضور، فقسيمة الطلاق تلك كانت أبغض ما يُمكن أن يجري قلمه عليه..

حين أتمَّت «وعد» الأسبوعين أقام لها «جعفر» عقيقةً ضخمة ومنحها مائة من الفدادين الخصبة واستمرَّت الذبائح أسبوعاً احتفالاً بقدموها، تزوره الرضيعة في بر خيل بصحبة روعة ويزورها في القاهرة قدر استطاعته ولا يبيت إلا في غرفتها، وبمرور الشهور بات من المقبول أن تحضر الرضيعة إلى العزبة برفقة مربيتها الإنجليزية لتقضي أسبوعاً مع جدها وأبيها،



ينصرف حينها «سليم» عن كل شيء عداها ويقضي ساعاتٍ طوال أثناء اليوم في قاعتها العلوية الفخمة المكيفة يراها ويداعبها وعلى ساقيه يمددُها ويروح يحركُها مُمرجًا، يدغدغُ قدميها الرقيقتين... يُقبلُها مرارًا حتى تزعجها شعيراتُ لحيته فتبكي، عندها فقط يتوقف..

فرغم كل ما كان في نفس روعةٍ من ألم إلا أنها حرصت وبشدة على أن تمنح وحيدتها الغالية حقَّها في أبيها، وألا تنازعها فيه أنثى أخرى، نوّارة أو غيرها..

فقرَّب سليم من صغيرته ورغبته فيها ولهفته عليها أضحت أعظم مميزاته في نظر روعة؛ فاشتدت حرصها على أن تبني بينهما جسرًا صلبًا متينًا يحقق غرضها، لا من أجل ابن عمها بل من أجل أغلى الثمار وأشهاها..

ظلَّت الأحوال تجري على ذاك النحو حتَّى قرَّرت «روعة» السفر إلى عمّان، ساعية إلى كل فرصةٍ تمنحها حياةً جديدة، وفي إبريل ٢٠١٨م وفي فيلا حي «الشميساني» احتفلت «وعد» بعيد ميلادها الرابع دون أبيها، احتفلت به مع أمها وزميلاتها في المدرسة البريطانية التي ألحقتها بها روعة بعد فحصٍ وتدقيقٍ.. لم تنسَ الصغيرة مشهدَ وداعها لجدها الكبير، العجوز الذي



التصق بها يُقبلها وقد بلَّل وجهها الملائكي بدموع عينيه، لم تكن تعي حجم مأساته لكن قلبها الصغير انفطر عليه، وراحت تجر جُر قدميها حين جاءت مربيتها لتصحبها إلى السيارة، فما أثقل الوداع على القلوب البريئة..

لقد أدركت ببقاء طفولتها أنها المرة الأخيرة، وأنَّ تلك هي قُبلات الوداع..

بعدها بعام وخمسة أشهر قفزت مسرعة تُجهز حقيبتها راغبة في العودة مع أمها إلى مصر، لكن «روعة» اشفت على صغيرتها من مشهد كئيب لوداع جدها العزيز، إنَّ الأمر شديد الكآبة، شديد السواد، لن يتحمَّله قلبٌ عصفورها الرقيقة، فلم تطل غيبتها هناك، يوم بليلة شاع فيه بكاء وصراخ المفجوعين من أهالي برخيل وما حولها من قرى ونجوع في كبيرهم وسيدهم الحاج «جعفر»..

لكن أمها تجاوزت أنانيتها وغضبها حين علمت بإصابة والد ابنتها بطلقات نارية أو شكت أن تحرم صغيرتها أباهما، كان زواجها منه أكبر أخطائها وأفدح جرائمها في حق ذاتها، لكنَّها لن تسمح أن تسدَّد «وعد» عنها ثمن ذلك، وإلى القاهرة عادت الصغيرة في مارس ٢٠٢٠م لتدعم رجلاً التصق اسمها باسمه... التقت بزوجة أبيها مصادفةً فارتبطت في ذاكرتها بأبنتها الهادئة وجمالها المُرهق، ثم مضيا في طريقين لا تجمعهما نقاط التقاء..



عام تلى الواقعة ثم جُنَّ جنونٌ حنينه إلى صغيرته فزارها في «عمّان» وفي بهو فندق «الفورسيزون» حيث نزل احتفلا سوياً بعيد ميلادها السابع بينما بعض آخر منه في «ليون» بفرنسا... تعجّب سليم من القدر وأفعاله التي راحت تحرمه كلّ من تشاق نفسه إليهم، يؤلمه ذلك الحزن الثائر في صدره، كاذبٌ هو إن قال أنّه بخير وأحباؤه بعيدون كل البعد عن ناظريه، يقطع آلاف الأميال ويقضي الساعات طيراناً ليراهم، ربما لأيام أو بضع ساعات ثم ينقلبُ عائداً، لا يستطيع إدعاء امتلاكه لشيء يخصهم، إنّه لا يمتلك سوى حلمه أن يكون حقاً على خريطة الشوق الخاصة بهم..

لكنّه استدرك واقعه وتنبّه إلى أنّه ولشهرٍ واحدٍ فقط سيستحوذ على «وعد» كاملة، بصباحها المشرق وليلها المضيء، وسرعان ما استردّ همّته وراح يُدخل على قلبها السرور وبكل طاقته يقاوم حزناً أو لوعةً قد يطفوان على سطح مشاعره حتى لا تتأثر غاليتيه بصمته أو سُهاده... طافاً معاً أجمل وأعرق معالم الأردن؛ فزارا «معبد هرقل»، «جبل نيبو» في مدينة «مأدبا» وتجوّلاً طويلاً في «شارع الرينبو»... جاءته «دودي» مولعة بالتاريخ وحكاياته القديمة كـ «ميرا» التي انتهت حكايته معها منذ سنوات لكنّها



بقيت في تاريخه كورقة شجر خريفية ذات لونٍ برتقالي.. ارتحلا إلى مدينةٍ تتنفس تاريخاً «البتراء»، وطافا في «قصر البنت» و«مسرح البتراء» و«القاعة الجنائزية»..

أدرك «سليم» أنَّ أبوتَه لتلك الجميلة المرححة، ذات الروح الناعمة هو أجمل الأقدار، إنَّ لها طاقةً عذبة تُغيّر من مزاجه، فلا يُمكن أن يعتلَّ خاطره في حضورها، إنَّها تبعث على الارتياح... فمجرد التفكير فيها كان كفيلاً ليوهم عقل أباهَا بأنَّ كل شيء في فمه ذو مذاق سكري، أنثى تؤمن بالسعادة وتحرّضه عليها..

الأوقات السعيدة تمر بسرعة البرق، غادرها أبوها عائداً إلى القاهرة بعدما أوصلها إلى فيلا «الشميساني» وكلَّها إحساسات ذاخرة بين حناياها عن أبيها الوسيم جدًّا، الراقى جدًّا، الحنون جدًّا جدًّا، عشرات من الأسئلة تدور في عقلها، كيف لم تتحمل أمَّها نزوة طرأت على رجلٍ مثله وسارعت تطلب الانفصال؟! لامت «وعد» نفسها فيما بعد على ما عاتبت به «روعة» في خيالها، باتت تخشى نفسها، راجية ألا تفلت منها كلمة عتابٍ واحدة ولا نظرة استفهامٍ واحدة، لكن وجدانها استمرَّ في أمنيته، إنَّها تلهف أن يعودَ والديها الأعمام إلى وصلٍ ما انقطع بينهما من سنوات! إنَّها أضعف من أن تقاوم أمنيتهَا؛ فراحت تتحسس إمكانية



حدوثها حتى تراءى الشريف «خالد بن طلال» أمام عينيها فحُفِر في قلبها استحالة عودة والديها إلى نفس العُش.. آمنت بحق «روعة» في أن تحيا سعيدةً، تتربّع منفردة على قلب رجلٍ يخبرها دومًا أنَّها رزقه ومستقره وكنزه الغالي..

ومن واقع قلبه وبعظمة جلال مشاعره النبيلة استمد «أونكل خالد» طاقته وراح يتقرَّب من «دودي» وياله من بارع، فقد أدرك أنَّ رجلاً مثله لن يقف عاجزاً عن احتواء طفلةٍ بريئة في السابعة من عمرها، إنَّه رجلٌ أحبَّ امرأةً وابنتها معاً دون أن يتساءل عن نصيبه من حبيبته، فروعة ووعده وجهان لعملةٍ واحدةٍ استقرَّت في قلبه، فلم يكف يوماً عن بث مشاعره تجاههما معاً، فلمَّا تم زواجه بروعة لم تعان وعده مرارةً ولا شقاءً، بل راحت تنهل من عذب مشاعرٍ جياشة أحاطها بها «أونكل خالد»، يجمعها به دائماً حديثٌ مشتركٍ وتفاهمٌ مرضٍ، وحين أنجبت له روعة الولد والبنات استمر يمنح «وعد» من الحب والمشاعر ما كان يمنحها ولم يعرف قلبه التفرقة بينها وبين عزيزتيه «هيا وشيما» وابنه «سيف»..

فكان دومًا يجالسهم يحكي ويحكي، يسمعهم ويسمعونه، متفاخرًا دومًا أنَّ «دودي» بكريته الغالية، وهو من درَّبها على ركوب الدراجات الهوائية لتُشبع غرامها بالمغامرة رغم اعتراض



«روعة» في البداية، لكنها لم تجد بأسًا في ذلك طالما يُدربها عليه «خالد» نفسه..



وفي ٢٠٢٩م زارت «وعد» مصر ملية دعوة والدها الذي استقبلها في المطار بصحبة زوجته «نوّارة» وابنها «صالح»، انبهرت «نوري» بجمال الفتاة ومرحها، ورأت «وعد» أنّ سنوات البُعد نحتت على ملامح زوجة أبيها التي التقتها صدفة في المستشفى منذ تسع سنوات نضوجًا شامخًا زادها جمالاً..

عادت «وعد» لتلقي زوجة أبيها بمبادئ مختلفة وقناعات كبيرة، صارت أكثر إيمانًا بحق «نوري» في حياة هائلة سعيدة تجمعها بسليم كتلك التي جمعت بين «روعة» و«خالد»، جاءت تختزن داخلها طاقة جبارة وأمنيات رحبة تسعى بإخلاص نحو صداقة عميقة ومشاعر حلوة تجمعها بالدها وعائلته الصغيرة..

وإلى الغردقة رافقت أباهما وصالحًا بينما اعتذرت «نوري» عن السفر لوعكة شديدة أصابت والدتها جعلتها تستوطن الفراش على مضض، بعده إلى مرسى علم ثم أسبوعين في الأقصر وأسوان..

وفي بيت «نوّارة» قضت وعد خمسة أسابيع بعد جولتها السياحية في أرجاء مصر، شعرت أنّها في بيتها تمامًا، صارت



تعرف مكان كل شيء، وكل شيء في البيت يعرفها، «بوتشي» أيضًا أبدى مشاعرًا جيّاشة تجاه المُراهقة اللطيفة، فثمّة صداقة سريعة ربطت بينهما، وعلى مائدة الإفطار صارت تمنحه سندوتشًا من الجُبْن الكريمي، وعند الظهيرة كانت تقف خصيصًا لتُعد له وجبته الأساسية، «قطع الدجاج المقطعة المنقوعة مع لقيمات الخبز في حسائها»..

«نوري وصالح» لم يعودا أغرابًا بالنسبة لها، بل صارا صديقين قريبين، بصحبتهما لا تشعر بغربةٍ ولا تعاني نقصًا، عمّتها «شهد» أيضًا صارت ضلعًا ثالثًا لا يغيب كثيرًا عن اجتماعات العائلة، لم تنس «دودي» شرائح الكعك التي تزودها بها عمتها دومًا كلّما رأتها..

سافرت مغادرة وقد صار لها في مصر أهلٌ تبغي مودتهم وتحرص عليها..

حكاياتها معهم وذكرياتُها في مصر كانت كنزًا تستند إليه إذا ما استبدّ بها الشوق لهم..



وإلى فيينا انتقلت مع أمها وزوجها والأبناء وهناك تفتّح شبابُها ولا حظت مناورات الحب والغرام التي ظهرت على



أختها «هيا» في وقت مبكر مع مَنْ حولها من الصبية، إنها أنثى تستسهل المشاعر بينما انشغلت «وعد» بصناعة نفسها ومستقبلها، تتخذ قراراتها بهدوءٍ يميل إلى البطء، لكنها ما أن تعقد العزم على شيءٍ إلا وسعت جاهدة لتحقيقه، ومن جامعة «فيينا» حصلت على البكالوريوس في الاقتصاد والماجستير في «التسويق الإعلامي»، ثم أعلنت عن رغبتها في الانتقال إلى لندن لدراسة «الصحافة المرئية» في جامعة «وستمنستر»... تلقت «روعة» الخبر بحزنٍ منبعه عدم رغبتها في مفارقةِ ابنتها إلا أن مساندة خالد لها امتصت حزنها قبل أن يعظم ويتفاقم... شجّع «سليم» وحيدته على تنفيذ ما أرادته مؤمناً بحقها الكامل في تقرير مستقبلها على النحو الذي تريد، تعهدا بالرعاية، وفي لندن التقاها... رافقها خطوة بخطوة حتى تمّ اعتماد أوراقها وسدّد لها مصروفاتها الدراسية، فتح لها حساباً بنكيّاً ليودّع لها عبره كل ما تحتاج إليه، اطمئن إلى إقامتها في بيتٍ للطلاب المغتربين ولم يهمل أي فرصة تجمعهُ بها..

كانت تلميذة نجبية فذة، تسأل أساتذتها في كل صغيرة وكبيرة، لا تترك معلومةً تعبرها دون أن تفهمها وتهضمها وتزيد عليها بالقراءة والبحث والتمحيص؛ فأنت دراسات الأكاديمية



في زمنٍ قياسيٍ وبتفوقٍ لفت إليها الأنظار، وإلى جانب الدراسة راحت تدرس اللغتين الإيطالية والإسبانية لتتسع دائرة ما تتقنه من لغات لتصيرَ خمسًا... وبسرعة البرق التحقت بالعمل في إحدى القنوات الفضائية اللامعة في مجال «السينما والفنون»..

كلُّ شيءٍ كان يُمهّد طريقها لتطرق باب الشهرة، كلُّ شيءٍ كان يدفعها لتبقى في لندن، ارتاح بال «سليم» إلى ما حقّقته ابنته من نجاح يفخر به ومضى يشجعها على مواصلة طريقها، كذلك لم تجد من «روعة» اعتراضًا، فقد استوعبت طموح فئاتها ونشاطها ورأته تميزًا تستحقّ عليه الدعم..

عامانٍ ثم انتقلت «وعد» إلى هوليوود دون أن تشعر أنّها بحاجة لتكونَ برفقة أحدهم، في تلك الأثناء كانت «هيا» قد تزوّجت من ابن عمها «غسان» الذي أحبّته منذ دراستها الثانوية وانهمكت تعاون «روعة» في عملها، و«شيما» قد أنهت دراسة الطب وراحت تواصل أبحاثها في أمراض الدم الوراثية وتزوّجت طبيباً أردنياً حديث التخرج مثلها وراحا يكافحان معاً في الدراسة والزواج والأبحاث، وإلى الأردن رحلت مع «هتّان» وقد تشبّعاً برغبتهما النضرة في خدمة الوطن، أمّا «سيف» فقد استقرّ في «مونتريال» يراوغ أحلام والديه في تزويجه، وعلى الشاطئ الآخر



من عروقتها كان «صالح» قد عشق كرة القدم وتدرّج في النادي الأهلي المصري من فريق الأشبال ومروراً بفريق الشباب ثم الفريق الأول منذ كان في الثانية عشر من العمر وغداً لاعباً فريد الأسلوب، مؤثر الحضور، جاء كتوقعات متابعيه من مُحللي الكرة وعشاقها، فكان له من اسمه الكثير، «صالح سليم» الأسطورة..

وفي ٢٠٤٠م كانت وعد قد اعتادت حياتها في هوليوود، وما عاد نقاش يجري بينها وبين «روعة» تحاول خلاله إقناعها بالعودة إلى مانشستر حيث استقرت مع «خالد»، إن دودي أنثى مُحلقة بجناح من أمل وآخر من عقيدة، فلا حدود لأحلامها ولا لقدراتها ولا موطن لقلبها، فأسرتها كبيرة مترامية في بلاد كثيرة، لكل منهم حكاية وغاية، أمّا هي فتعيش عمرها برشاقة، لا يعينها إلا أن تحلق بحرية فوق كل سماء، تُجيد جداً السيطرة على حياتها، فجاءت هواياتها حادة تمتزج بخطورة لا تتناسب مع رقتها لكنها تتفق جداً مع روحها المغامرة الجريئة، صارت بارعة في قيادة الدراجات الهوائية، كما أدمنت سباق السيارات وأتقنته..

مهووسة بالحياة تجيد التحكم في أحزانها إلى الحد الذي يدفعها لتسخر منها فتدمع عيناها من الضحك..

سارت على نهج أبيها في حب الناس والتمتع بمساعدتهم



بل وخدمتهم أيضًا، وسارت على منهج أمها متقنة لعبادة جبر الخواطر، تتحين الفرص لتؤدي الجبر بتلقائية تُحسد عليها... التقت «حُسنه» وزوجها «د. فيصل»، زارتهما في مسكنهما تحمل لحُسنه مودةً زرعها فيها حديث «سليم» عنها وعن والدتها «ونيسه»، رفيقة الطفولة وصديقة المراهقة، استقبلتها «حُسنه» بترحابٍ كبيرٍ وحُبٍ أكبر جاء كنتاجٍ طبيعي لكل جميل قدّمه لها «بابا سليم»، ورغم أنّها واصلت حياتها مشغولة بأبحاثها وقفزاتها العملية إلا أنّها كانت من أشد الناس حرصًا على لقاءات تجري بانتظام مع «بنت الغالي» كما تُسميها، فلا يفوتها فرصة قد تجمعها بسليم أو ابنته إلا واستغلتها مهما كانت الظروف..

وإلى ليفربول طارت لتلتقي أخاها صالح وإفدًا للنادي كمحترفٍ، تناولا العشاء في أحد المطاعم حين جاءته رسالة تمعن النظر فيها وراح يفرك عينيه غير مصدقٍ، فسحبت منه الهاتف لتطالع الرسالة... سألته بدهشة: إنْتَ تعرف «مينا منصور» يا صابا ومتقوليش؟!

ضحك «صابا» بطريقته المرحّة وقال: طبعًا يا بنتي، هو أنا أي حد، قولي هو اللي يعرفني!!



اعتدلت في جلستها وقالت بجدية: لأبعد قولي، إنتو أصحاب؟ يعني تقدر تساعدني أقابله؟

أجابها وقد لمعت نظرتَه فخرًا بينما انشغل يدفع الطعام الصيني الحار في فمه: تحبي تقابليه إمتى يا قمر؟

: أي وقت يناسبه، أنا حاولت أقابله الصيف اللي فات لمّا جيت إنجلند بس فشلت، سمعت إنه تترك وميقابلش أي صحفي ولا مُقدّم برامج بسهولة.

: تترك على الناس كلّها إلّا أنت يا قمر، هاخذك تقابليه، بس بشرط.

اعتدلت أكثر وقد تنبّهت كل حواسها وقالت: مستعدة لأي شرط، بس إنت تؤمر.

أجابها في حزم ضاحك قائلاً: متقابليهوش وإنت لابسة أحمر كده بتبقي فراولة عايزة تتاكلي أكل، وأنا بحب مينا أه، صاحبي وحبيبي أه، لكن يعاكسك أو يبصلك بصة مش هي هضربه وتبقي كده ضيّعتي مستقبلي ومستقبله لأنني مش هسيب فيه حتة جنب الثانية.

فتابت بشقاوة: أنا بحب الأصفر، ألبس أصفر؟
فاقترب منها قائلاً: هتبقي مانجاية برضه وهضربُه،
إلبي أسود.



فضربته على كفه وتابعت: إنت عارف إني مباحش الأسود،
وتعالى قولي هنا، لَمَّا انتوا أصحاب اتخضّيت ليه لَمَّا بعثلك رسالة؟
: بغض النظر عن القفش اللي إنت عملتيه ده، أنا استغربت
لأنه مباحش التشات ولَمَّا بيعوز حد بيتصل بيه على طول.
سحبت فاتورة الحساب من يده وهي تقول: هعزمك أنا المرة
دي واعتبره عربون.
: ميضّرش ما أنا ياما عزمتك واحنا في مصر، سدّدي من اللي
عليك يا حلوة.



«مينا منصور» لاعب الكرة الدولي الشهير الذي جاء كامتداد
للعالمي «محمد صلاح»، من مواليد حلوان، سكن القاهرة مع
والديه قبل أن يبلغ الثالثة حين تعيّن والده «د. أحمد منصور»
أستاذًا مساعدًا لعلم المصريات «ايجبتولوجي» بقسم الآثار في
كلية الآداب جامعة القاهرة؛ فاستأجرت العائلة شقةً مريحة في
منطقة «القللي»، وكان الحب قد جمع بين والديه، فاحتجّت
والدته «جهاد» على ثراء أسرتها غير مبالية بما خطّطوه لها من
زواج مُرتّب الأركان يربطها بابن خالتها العائد من الخليج بعد
غربة جاوزت العشر سنوات، أنهى حبيبها مشكلاته مع أسرتها



بشكلٍ ودي؛ فقد وهبه الله حلاوة اللسان وشدة البيان، وافقه والدها ومال إلى جهته وبعد مشادة كلامية بينه وبين زوجته تلاها خصام دام شهراً ونصف سلّمت السيدة بعدها بقرار زوجها وعلى مضضٍ قبلت بالمُعيد المبتدئ زوجاً لكريمتها.. انتهت مراسم الفرح وصعدت «جهاد» إلى شقة الزوجية لتجد أمامها حقيقة سفرٍ سوداء أخبرها حارس العقار أنّ والدتها قد أرسلتها ظهيرة يوم الزفاف، توقّعت «العروس» أن تجد فيها بعض الفساتين والثياب الزاهية فربّما تكون قد نسيت بعض شوارها، لكنّها صُغت مجرد أن فتحت الحقيبة... لقد جُمع لها في تلك الحقيبة كل ما كان يخصّها في بيت والديها، كل ذكريات طفولتها وصباها، صمتت لحظات وعريسها يقرأ رسالة حماته، لقد قطعت المرأة كلّ ما بينها وبين ابنتها الشابة، لا شيء سوى أنّها رفضت «عريس الغفلة»، قصير القامة، كثير المال الذي يتشاجر دومًا بطريقة عشوائية مع مَنْ يعتقد أنّهم دونه..

وبعيداً عن بيت والديها توطّدت علاقتها بزوجها المُحب الذي اختارته ودفعت ثمن اختيارها له في أول ليالي زواجهما. لم تكن وحدتها ومقاطعة أسرتها الكاملة لها كابوساً وانتهى بمرور الأيام كما ظنّ زوجها إنّما حقيقة استمرّت طويلاً دفعته



لقبول انتقالها إلى القاهرة حين لاحت الفرصة الثمينة... أمّا والدها فقد رحل عن الدنيا بعد أسبوعين فقط من زيارته لها في الصباحية، جاءها مبتسمًا يبارك ويهنّي، ساخرًا من موقف أمّها والعائلة، وعدها بإصلاح ما فسد، احتضنها وترك لها مبلغ «النقطة» على طاولة السفرة ورحل بلا رجعة..

أحبّت «جهاد» زوجها جدًا وحاولت أن تتماسك بعد صدمة رحيل والدها... وضعت طفلها في ٢٠١٠م بعد عام من الزواج، استقبلته في سبتمبر دائم التغير، فجاء مماثلًا لشهر ميلاده، مشرق الروح، شمس القلب، هادئ البال، أصرّ والده على تسميته «مينا» لشديد إعجابه بالملك الفرعوني «مينا»، أراد أن تربطه بالفرعون العظيم موضوع رسالة الماجستير خاصته صلة رحم ودم، وكنوعٍ من التفاؤل بوجه الصبي..

في شوارع القللي وشبرا ومحيط وسط البلد كبر الفتى  والشمس مرسومةً بحياءٍ على ملامحه الهادئة، عيناه يملؤها الشغف بالساحرة المستديرة، وتفكيره في «الخطيب» و«حسن شحاته» و«بركات» و«حسام حسن» و«عماد متعب» و«الكابيتانو الغالي» و«الماجيكو أبو تريكة» و«مو صلاح» يسيطر عليه، اختفت جدران غرفته خلف ما غطّاها من صورٍ لكبار اللاعبين



على مختلف الأجيال... لم تستهويه دراسة الطب أو الهندسة ولا حتى علوم الكمبيوتر والإدارة، فقد انصرف همه إلى الرياضة وما يستلزمها من تدريباتٍ ولياقةٍ وصلاح أخلاق..

وفي طفولته اعتاد ألا يسأله الناس عن ديانتِه، فاسمه وحده يكفيهم، ولا سيَّما أنَّه التحق صغيراً بحضانة «أم النور» لصاحبته مدام «إيريني» ولم يلتحق بـ «الصراط المستقيم»، دار الحضانة المقابلة لدار المدام ذات الأصول الأرمانية، إنَّها فقط على الناحية الأخرى من نفس الشارع، لم يفهم أحدٌ تلك الرابطة الإنسانية التي جمعت بين «جهاد» والسيدة الفاضلة.... إنَّها تسكن الشقة المُقابلة للعروسين وقد أَلَمها كثيراً وحدة العروس الشابة ومعيشتها بعيداً عن أهلها وذويها خاصة بعدما انشغل الزوج في الدراسات العليا وقلَّت أوقاته مع زوجته دون إرادته؛ فراحَت تواسيها وتطل عليها وتشملها بكل عناية وتحفِّي بها احتفاءً خاصاً فتُعِدُّ لها صنوفها المفضلة من الطعام، لقد علَّمتها كيف تطهو الملوخية وتلف أصابع المحشي وتجهز المكرونة بالبشاميل وتصنع الحلويات والمربى... أمَّا «جهاد» فقد تجلَّى اهتمامها بجاراتها النشيطة ذات اليدين المعروقتين وزادت التصاقاً بها... إن «طنط إيريني» أحَن خلق الله عليها؛



لقد لمست فيها حناناً يفوق الوصف، وما كان أشد احتياجها للحنان والاحتواء، جهاداً أيضاً كانت مشفقة على جارتها البيضاء شاحبة الوجه من سكونها وحيدة في شقتها بعدما رحل عنها الزوج منذ سنوات ولم تكن رُزقت منه لا بالبنين ولا البنات، مبهورة هي بها، تستمع إليها وكأنها تستقبل مفتاحاً سرياً يفتح لها أبواباً من الراحة والأمان كانت دائماً مغلقة أمامها، كلتاهما تفرغ من وحدتها أمام الأخرى، لقد وحدتهما الحاجة وربطت بينهما بحبل سري تشدهما به إلى صُرة وجودهما معاً، فكان من الطبيعي والمنطقي جداً أن تعهد لأمها الروحية برعاية وحيدها، فألحقته بدار الحضانة التي افتتحتها «إيريني» لتقضي على إحساسها بالفراغ ولتستمد منها رغبتها في الحياة بعدما جفّت منابع شبابها..

أمّا «مينا» فقد وجد في «مدام إيريني» خير جدّة له، يتحدث معها أحاديثاً تطول، تجري فيها الكلمات بطلاقة على لسانه وبانسيابية وبشفافية غير معهودتان مع غيرها، يخرج معها إلى المحلات والسينما وإلى أي مكان يخطر لهما على بال، جعلته مُحِبّاً للموسيقى مُقبلاً عليها، علّمته كيف يسمع، كيف يحس، كيف يعزف على البيانو ألحاناً ينطق من روعتها الحَجَر...



أفرغت فيه السيدة أمومتها وحولتها إلى واقع ملموس.... وإلى الكنيسة أيضًا صار يرافقها في بعض زيارات أيام الأحد كما يرافق أباه د. منصور إلى صلاة الجمعة كل أسبوع... فأدرك بقلبه وعقله أن الرب واحد ولو اختلفت أشكال العبادة... فلا شيء يُنصف الإنسان إلا إنسانيته... لم يكن من عادته أن يذكر اسمه متبوعًا بتوضيح ديانته حتى يوضح لأحدهم الأمر إلا حين يُعلق الطرف الآخر على الاسم، أو حين يُسأل الفتى مباشرة عن ديانته، فالاسم لم يكن يُثير في عقله معنى دينيًا، ولم يكن يعنيه أن يُحسب بين المسلمين أو بين المسيحيين، فما كانت الديانة يومًا مشكلة في حياته... ولطالما ردّد أنه قبطي مستجيبًا لدروس والده التي ألفاها بعذوبة على عقله البريء، فكلنا أقباط مصر، مسلميها ومسيحيها مادامت دماؤنا مصرية وأصولنا فرعونية.. استهزأ به أحد معلّميهِ حين كان تلميذًا في الصف الثالث الابتدائي، وقف يومها المعلم يُعاتب الفتى على اسمه ويحاسبه، وكأنّه هو من اختاره لنفسه، تهكّم عليه وطرده خارج الفصل، رجع «مينا» إلى البيت باكيًا شاكّيًا لوالديه ما عاناه من سخرية وتنمر، وفي ردة فعل طبيعية أصرّ والده أن يصحبه في اليوم التالي إلى مدرسته، فلا شيء يُنصف الفتى سوى



أن ينصفه مدير المدرسة شخصياً وهو في الأصل أستاذ لمادة الدراسات الاجتماعية، وفي طابور الصباح وقف المدير يُلقي على التلاميذ كلمة مبسطة شرح فيها دون إسهاب معنى كلمة «قبطي».. انتشى «مينا» واستشعر الفرح وراح يُعيد على زملائه ما فهمه من والده..

قبطي وجمعها قبط، ماهي إلا صورة مختصرة من لفظ «إيجبتوس» وهي كلمة أطلقها البيزنطيون على أهل مصر وسكانها ولا علاقة لها بتحديد الدين، فالقبطية قومية وعرقية مرادفة لكلمة مصري، فكل مصري قبطي والعكس صحيح.. مضى الأمر وانشغل بعدها الفتى بهوايته التي صارت عشقه الأثير وعاش سنواته بين الملاعب المصرية وانضم إلى أحد أندية الدرجة الثانية وقبل أن يكمل عامه الثاني حتى عرفته الكواليس الرياضية بشكل جيد جداً واقترب بشدة من الانضمام لنادٍ كبير إلا أنه أصيب بضربة قدرية قصفت به بعيداً عن السعادة..

فجأة اختفت البهجة من حياته وحل محلها سواد طاعن أفقده الرغبة في الحياة، فاللموت هيبة لا تضاهيها هيبة، فلقد سكت صوت والدته للأبد، بلا أي مقدمات ودون سابق مرض، سكنته كآبة وانعزل في غرفته لا يبرحها إلا لزيارة الحمام، يعيش



مسترجعاً لكل ذكرى جمعته بأمه مسكوناً بصدى ضحكتها التي غابت... أهده «طنط إيريني» سجادة صلاة جديدة وسألته أن يُصلي، دعتَه لزيارة الحسين والسيدة نفيسة وأم المساكين، أصرت أن يتناولوا غداءهما في السيدة زينب ثم يتجولان معاً في شارع «زين العابدين»، يومها أحبها أكثر، أحبّ تسامحها وبياض قلبها، بالأحرى أحبّ إيمانها..

وفي نفس العام وفي إحدى زياراته لحضانة «إيريني» حين انتابتها نزلٌ باردٌ حادة مصحوبة بسعالٍ شديدٍ أقعدها عن العمل، عرض عليها «مينا» أن يُصرف أمور الحضانة ويُتابع الدار لحين تعافيتها، كان في العشرين من عمره عندما التقاها..

«رنا كامل»- تسعة عشر عاماً-، طالبة في المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، تسكن في «شارع شيكولاني»... هكذا قدّمت نفسها له، خطّت الحضانة على أمل حصولها على وظيفة خلال الأجازة الصيفية تُبدّد بها الملل، خاصة وأنها من بيتٍ مُحافظ، شديد الرقابة على بناته؛ فلا يكاد يُسمح لإحداهن بالخروج إلّا للدراسة أو العمل شريطة أن تنتهي ساعات الدوام قبل السادسة مساءً، التقت عيناه بعينيها اللامعتين ووجهها الخمري وشعرها الأسود المنسدل على كتفيها كوشاحٍ من



الليل، أبدت استعدادها لقبول أي وظيفة، المهم أن تعمل، المهم أن تجد سبباً لخروجها بصفة منتظمة حتى لا تخنقها الحبسة، احترمها «مينا» وأشفق عليها، تعجب من تشدد أسرتها وإسرافهم في ذلك ..

ذلك التشدد الذي لا يتناسب كلياً مع العصر والزمن والتقويم في النتيجة، إنه العام الثلاثين بعد الألفين !!

انشغلت «رنا» في الأسابيع التي تلت استلامها الوظيفة، لقد عهدت لها مدام إيريني بإدارة الحضانة استجابةً لرجاء جارها الشاب الطيب، وخلال ذلك انتقل «مينا» إلى نادي وادي دجلة بعد تعرُّ مفوضاته مع النادي الكبير الذي رأى فيه لاعباً متخادلاً، لا يُعتمد عليه، لقد فقد النادي رغبته في اللاعب حين احتجب عن الناس والتمرين واللعب الفترة التي أعقبت وفاة والدته .. لم يكن اسمها يوحي بديانتها، ولم تكن تُعلّق صليباً في رقبتها، ولم تطلب الأحد كأجازة أسبوعية، ولم تذكر أمامه ولو مرة واحدة أنها ذاهبة للكنيسة !.

اتصل بينهما الحديث سهلاً ودوداً صافياً كعين ماءٍ نضرة تجري في سلاسة، أحبّها وأحبّته، وظنّ كلاهما أنّه على دين الآخر، وفي شهرين صارت حياتهما كلّها تدور حول ذلك



الحب، وما أقوى وأعنف الحب الذي يطرق القلوب في مثل هذا العمر، إنَّه بداية تقويم جديد عامر بالحيوية، روحه الشوق وغايته الوصل ..

فبعد أن عرفها لم يعد شيء في الكون يُخيفه سوى أن يخسرها ..

وبعد أن عرفته لم يعد شيء في الكون يهتمها سوى أن تكون له .. إلى أن قادتهما الصدفة وبكل بساطة إلى معرفة الحقيقة الموجهة... كان الأحد ويومها سألته إيريبي أن يمر عليها ليصطحبها إلى الكنيسة، فصداعٌ حقيق يُقسِم ألا يُفارق جمجمتها، ضغطها عالٍ لكنَّها في حاجة ماسة لحضور القداس، لقد زارها زوجها المقدس «جورج» في المنام ولم يكن على مايرام، ستذهب للكنيسة وستصلي من أجله وتلقائية قالت: متأخرش عليا، عايزة أبقى هناك عشرة بالضبط، رنا هتبقى هناك من بدري، وعايزين نرجع الحضانة قبل الظهر عشان صاحبته اللي قاعدة مكانها هتمشي على الساعة واحدة.

فأجاب مبتسمًا: طيب ليه تجيوا إيمان تقعد مكان رنا مدام أنا هوديكي وأرجعك يا إينو يبقى إيه لزوم رنا تقابلك هناك؟
يا حبيبي، رنا كده كده رايحة، بقالها كثير عايزة تصلي في الكنيسة وتعرف.



نظر إليها بدھشة قائلاً: هي رنا مسيحية؟
 فقالت وهي تكذب حدسها: هو انت كنت فاكرها مسلمة؟
 فأجابها ببراءة: أيوه.
 ردت باستنكار: بقالكو شهرين تعرفوا بعض ومعرفتش
 ولا هي قالتلك؟!
 ارتعشت ابتسامة غريبة على شفتيه وهز رأسه نافيًا،
 فأردفت: تلاقيها هي كمان فكراك مسيحي زيها.
 : يعني إيه؟ مش ممكن!
 : مش ممكن ليه؟ لو كنت انت مسيحي تبقى هي مسلمة!



كانت المواجهة مؤلمة، فالإكتشاف خطير وصادم، كلاهما
 حاول تجاهل الإكتشاف الخطير الذي أربكهما، فلم يستطيعا..
 لم يخطر على باله أبدًا أن يوضح ديانتته، ولم يخطر على
 بالها أبدًا أنه مسلم، لم يكن شيئٌ كهذا يهمه من قبل، إنه قبطني
 على أية حال، الآن عرف وفهم وأدرك أن اسمه يخدع الناس من
 حوله، أنه هو نفسه أكبر خديعة وأخطر مأزق!!
 لقد قضّ الألم مضجعه وأكثر ما شغله وأوجع قلبه هو أن



تظن «رنا» أنه خدعها وتلاعب بقلبها وبمشاعرها، والموت أهون عنده من أن يفعلها..

ديانتها لا تعنيه، فقرها وبساطة حالها لا يهمه، لا يكثر لكل ذلك، فكرة واحدة ترعبه، بل تقتله... أن يخسرها، أن تصير زوجة لغيره..

في الصباح قابلها، لامته ولم يلمها، أقسم لها أن لا مجال للخداع في قلبه ولم يخطر على باله أن يخدع، اعترف بالحب لكنه صار جريمة، سألته أن ينساها، فالأفضل والأسلم لكليهما أن يتحملا عذاب حرمانهما من بعضهما البعض على أن يتعرضا معاً لعذاب أكبر، فمئات من قصص الحب شُطبت، ومُزقت قلوب أصحابها من أجل الدين، إنه أسمى موت!

لكن حبه لها كان كبيراً، أكبر من تجربته وخبرته، نصحته «إيريني» أن ينسى، سألته أن يتحرر من عواطفه ويرى الموقف على حقيقته، فالأمر ليس عادياً والمأزق خطر والفارق بينه وبين رنا أصعب من أن يتجاهله، كان شيئاً غريباً على قلبي اعتادا الخفقان كل باسم الآخر أن يُقتلا في نفس التوقيت..

أخبره والده أن «رنا كامل» لا تناسبه دينياً، وأن ذاك الاختلاف هو الأزمة الكبرى التي لا يمكن تجاوزها ولن يتمكن



أحد من الخلاص منها إذا وقع فيها، صحيحٌ أن الإسلام يُبيح له الزواج بها لكن مسيحيتها لا تُبيح لها الزواج به، إنها قضية لا حل لها مهما أمطرت السماء من معجزات..

إنَّ يداً ثَقِيلَةً سَتُحَكِّمُ قبضتها حول عُنُقِ جَهِمَا، ولأول مرة يستوعب «مينا» أن الدينَ ليس واحداً، لكن الحبَّ جعله يتمسك بسرَابِ الإمكانية، وبوْهِمِ المعجزة..

تَقَدَّمَ لأسرتها طالباً يدها؛ فقامت القيامة ولم تقعد، طرده والدها وهَدَّده بالقتل إنَّ حادث ابنته أو قابلها ولو صدفة... وفي نفس اللحظة سمع الجميع صوت ارتطام «رنا» بالأرض، لقد أُغْمِيَ عليها فسقطت..

خشي «مينا» عليها كثيراً من تلك الحرب التي دَقَّ بيديه طبولها، لم يُخَفِّه تهديد الأستاذ «كامل مرقص» له بالقتل قدر ما أُرعبه تهديده بقتل ابنته والتخلص من عارها، لقد أعلنها أمامه، أمسك الكتاب المقدس ووضع على عينيه يقول: هموتك وأموتها وأرمني جثتها لكِ لِكَلابِ السكك تنهشها، باسم الصليب لعملها ومبهررش.

وفي الخفاء قابلها، جاءت هزيلة، وقد إسودَّ ما تحت عينيها، يرتجف جسدها بشدة، وتتلعث الكلمات على شفثيها، طالبتة



أن ينساها وللأبد، صُعب تماماً كما صعق يعقوب حين سمع بمقتل يوسف، حاول استيعاب الموقف فلا قيمة للحياة بدونها، لم يستطع الكلام بينما نزلت دمعاته، نظر حوله محاولاً جمع الكلمات من الهواء ثم قال: وهتقدري تعيشي من غيري؟
لم تجبه بكلماتٍ، بل قذفت بنفسها بين أحضانه، تعانقا بحرارة تكفي لإشعال غابة..

كره الأديان واختلافها، فلولا هذا الاختلاف لما كانت الفرقة، كان ساذجاً حين ظن أن البشر سواء، ضرره والده أيما ضرر حين أفهمه وغرس في نفسه أن المصريين سواء ماداموا جميعهم أقباطاً...هاهو الدين الآن يحرمه من يحب ويُلزمها أن تلقى بنفسها في أحضان آخر فقط لأنه من نفس دينها..

لم يرها بعدها ولم يكلمها، أربعون يوماً مرّت ثقيلة ثم عرف بزواجها، أخبرته «إيريني» وقد رُسمت الجديّة على ملامحها تحاول دفعه إلى نسيانها والالتفات إلى مستقبله وتمارينه وما ينتظره من مجدٍ وعدها أن يحققه، زارته «إيمان» صديقة رنا المقربة، أخبرته أن أسرتها أرسلتها إلى دير في «سانت كاترين»، اختفت هناك وبعيداً عن الجميع، مُنعت عنها الزيارة والمكالمات الهاتفية، فزيارتها للدير كانت في منتهى الخصوصية، ثم عادت



تُخبر الجميع أنها بخير وأنَّ ما جرى ليس أكثر من سحابة صيفٍ عابرة مرَّت بسلام... لقد وافقت بالفعل وبمحض إرادتها على الزواج من «أمجد صموئيل» وفي أسرع وقت، حاولت «إيمان» وفعلت كل ما في وسعها لتُشيعها عن قرارها ففشلت، تزوّجت «رنا» الابن الأكبر لتاجر ذهب وصاحب صاغة كبيرة في الغورية..

صار «مينا» عاجزاً عن الأمل والحياة، عن التنفس والاستمرار، فزواجها وغيابها عن عالمه دفعة واحدة أفسدت الأشياء من حوله، كيف رحلت عنه؟ كيف تركته؟ كيف تكون لغيره؟!

أظلمت الدنيا في عينيه وراح يفتش ويسعى لكل فرصة نجاة، شهوّر ولاحت له فرصة الاحتراف في أحد أندية الدرجة الثانية في إيطاليا، لم يناقش بنود العقد ولم تهمة التفاصيل، جمع كل ما استطاع من حنينٍ وإلى مدينة «باليرمو» رحل متجاهلاً وحدة أبيه دونه، متغافلاً عن اشتياقه لطنط «إيريني»، اشتياقُ نبتٍ في قلبه قبل أن يسافر بائساً، قانعاً ببؤسه!

«طنط إيريني» إنها سيدة مصرية تشبه كل شيء جميل أصيل في مصر، وجهه أراد حفره على جدار القلب والروح..

عامان ثم لَحِق «د. أحمد منصور» بولده الذي صار لاعباً محترفاً في نادي «سان جيرمان» بباريس، ثلاثة أعوام ثم استقر



الأب وابنه في لندن، فقد غدا مينا لاعباً هاماً في فريق «توتنهام» بينما انضم «د. منصور» لهيئة التدريس في إحدى جامعات لندن كأستاذٍ متخصصٍ في علم فريد يهواه الغرب ويؤمنه جيداً، تزوج الرجل من إنجليزية حسنة تدعى «شارون»، تعمل في الصناعات الدوائية، شقراءٌ تصغره بخمسة عشر عاماً، رُزق منها بابنةٌ كالبدور... «آيلا»، فتجدد شبابه وازدهرت ثمار عمره وصارت فرحته فرحتين..

ومرات كثيرة سأل «مينا» طنط «إيريني» أن تزوره، أخبرها أنه سيحجز لها تذكرة الطيران وسيستقبلها في المطار، فعلتها مرة واحدة فقط ولم تكررهما، فقد اعتلت صحتها وضعفت قواها، أصبحت حركتها صعبة، تسير في تؤدة تمسك عكازاً لا يفارقها حتى فارقتة هي وإلى ملكوت السموات تنيحت..



كل ذلك عرفته وعد عن اللاعب العالمي من أخيها، لطالما ظنت أنه لا شيء ينقصه في هذه الحياة، مرغوبٌ هو من الكثيرات، بينها وبين حالها لطالما تعجبت وتساءلت، كيف لشابٍ مصري لا تفتأ كبرى المجلات والوكالات الإعلانية تضع صورته على مجلاتها ومنتجاتها الدعائية، كيف له أن يقضي في أوروبا عشرة



أعوامٍ دون أن يرتبط اسمه ولو مرة واحدة أو مرتين بأنثى؟ لم تتوقع يوماً أن يكون جرحه بهذا العمق، يبدو أن الألم يحرك إبداعنا ويمهّد لنا الطريق إلى التميز والعبقريّة... لقد جمعت عنه الكثير من المعلومات الصيف الماضي على أمل أن تنجح في إجراء مقابلة معه، ممّا جمعت عرفت أنّه مُسالِم جدّاً، هادئٌ لا يأتي بأيّ تصرفٍ منافٍ للفطرة الإنسانية، لكن نغمة الإخلاص التي سيطرت على قلبه وعواطفه استوقفتها كثيراً، ياترى هل تجاوز ألمه أم أنّه مازال قابلاً في دواخله، تحركه تجربته وتؤثره ذكرياته؟!

جفاها النوم؛ فقد رتّب لها «صالح» لقاءً مع صديقه الذي غدا أهم لاعبي «تشيلسي» على الإطلاق، ستلقاه صباح الغد، ظلّت تفكر فيما سيكون عليه اللقاء، حاولت طرد كل الأفكار السلبية التي تبعث في نفسها القلق، كان القمر حاضراً الكمال والنجوم تزين السماء بطريقة ساحرة، لطالما أرادت أن تمسك النجوم بيديها، هي الأنثى التي إن رغبت في شيء حقّقته، مثابرة، مراوغة في رقعة، رقيقة في ثبات..

وإلى فيلته دلفت يحمل وجهها الصغير ابتسامةً نهار مشرق، وُضعت الكاميرات وُضبطت الإضاءة، ناقشت الأسئلة مع فريق الإعداد، ناقشتها مرة أخرى مع مدير أعمال اللاعب الشهير، لم



يكن «مينا» في استقبالها ولم تره لمدة أحسّتها طويلة، وحين أعلن مخرج البرنامج أنّ كل شيء جاهز ظهر النجم، كانت ممسكة بخصلة من شعرها البني الطويل تعبت بها وهي تُراجع على الأسئلة للمرّة الأخيرة قبل التسجيل..

جلس أمامها، حيّاها مبتسمًا في اقتضابٍ، لقد رأت واستضافت الكثيرين من نجوم الكرة والفن والموسيقى، الرسّامين والكتّاب على اختلاف جنسياتهم ومستوى إبداعهم، لم يشغلها أحدّهم كما يشغلها ذلك الهادئ، قليل الكلام، راحت تفكر فيما يتواجد داخله، عقله، دماغه، كل تلك التلايف وكل الأفكار التي تسري فيها..

كانت إجاباته آليّة إلى الحد الذي أغضبها، أرادت أن تستفزه، أن تُثير عقله ليتوهج بريق شخصيته؛ بادرت تسأله سؤالاً لم يكن مسجلًا في عريضة الإعداد... وبابتسامة هادئة واثقة قالت: رغم الشهرة العريضة والنجاح اللي حضرتك حقّقته في أوروبا متجوزتش ليه؟؟ ياترى فيه قصة وراء عزوفك عن الجواز؟؟

وكأنّها اقتحمت حياته عنوة، أربكه سؤالها الذي لمعت معه عينها خبثًا، فبرغم نعمتها ورقتها البادية جدًّا عليها إلّا أنّها بدت له أنثى مناضلة، ذات جذور عميقة، لا تعرف الاستسلام..



رفض الإجابة على سؤالها، قطع تسجيل اللقاء معترضاً، نادى سكرتيره ثم التفت إليها قائلاً: أنا أكيدت على فريق الإعداد بتاعك ميكونش فيه أي أسئلة شخصية ولولا إنك صاحبة «صالح سليم» مكنتيش دخلتي هنا من الأول، أنا كده هلغي التسجيل معاك.

لم تفعل «وعد» رغم سخافة كلامه، أدركت أنها انتصرت؛ فلم تلمه على تصرفه ولا كلماته، كانت أكثر ثباتاً، فقط أرادت أن توضح له أمراً التبس عليه، وبنفس النبوة الهادئة قالت: مش مفروض حضرتك تفعل كده، ده مش كويس على صحتك، بعذر لو كنت ضايقتك، لكن أنا حبيت أعرف جمهورك عليك أكثر، بس تقريباً أنا لمست سلك عريان.. آسفة مرة ثانية، وبالمناسبة أنا «وعد سليم».

نظر إليها مستفهماً، فأردفت: أنا أخت صالح مش صاحبتة.

ثم تركته وانسحبت، راحت تناقش بعض الأفكار مع مخرجها وفريق الإعداد، ومن شرفة فيلته وقف يتأملها، إن ابتسامتها لا تفارقها حتى وهي ترفع كوب مشروبها إلى فمها، وجهها قمري يشع نوراً... بينما طفت بعض ذكرياته على السطح وراح يعاتب نفسه، إنه رجل ضعيف الهمّة، لا يفهم حتى الآن



مدى حماقته، مدى تفاؤله حين طرق باب السيد «مرقص» يطلب ابنته للزواج..

انتهت فترة الاستراحة، اتفق المخرج وسكرتير النجم على الالتزام المطلق بالأسئلة الموضوعية... لا مفاجآت ولا خروج عن النص... عادت وعدت إلى كرسيها تتفحص أسئلتها ترفع عن عينيها خصلات شعرها كلما سقطت، جلس أمامها وقد استجمع أطراف نفسه، بادرها وبنبرة هادئة نوعاً: مفيش أسئلة شخصية من فضلك. أومأت رأسها موافقة، قالت: ديل.



: مكنش مفروض تعملي كده، إنت بالذات مينفعش تعملي كده، لإني حاكيلك كل حاجة.

جملة استقبلها بها «صالح» عند عودتها من اللقاء، يبدو أن صديقه لم يطق صبراً وهاتفه معاتباً.

: بالراحة يا صا صا، أنا هفهمك، أنا مقصدتش أضايقه والله، بس هو قاعد منشئ ويبجاوب عليا بتناكه استفرطني، فحببت أحركه شوية وأقدّمه للجمهور بشكل مختلف عن النمط اللي اتعودوا يشوفوه بيه، عشانه وعشان ظهوره في الميديا يبقى له زهوة كده مايقاش تكرر للقاءات فاتت.. دي كل الحكاية، واعتذرتله والمفروض إن الموضوع خلص، يكلمك يشكليك ليه؟



:هو متّصلش ومشتكاش... ده «جيمي» السكرتير بتاعه هو اللي كلّمني يحكي لي.

يومها ظل «مينا» يجري بسرعة في المضممار المخصص لذلك حول فيلته الأنيقة، لا يعرف ما الذي أصابه ذلك اليوم، شعر بروحه تتفاقم وكأنّها تناضل لتترك جسمه، لقد نكأت المذيعة الحسنة الجرح، ثم صبّت عليه كحولاً طبيّاً ألهب إحساسه بالألم، على كل حال لقد أفرغ بعضاً من أكوام الحزن المتركمة في أعماقه، ربّما لم يستطع أن يجيب سؤالها علناً لكنه أجابه بينه وبين حاله عشرات المرات، لم تكن أبداً قصة حب، سمها قصة وهم، خيال، أو قصة خيبة، لقد نسي «رنا كامل»، إنّها فقط آثار الطعنة، آثار الخيبة، أحسّ بانقباض في معدته، فركض أكثر، شعر بدافع قوي ورغبة فورية لأنّ يهاثفها، يهاثف «وعد سليم»، تلك المشاكسة العفية..

بسهولة حصل على رقم هاتفها الخاص وبنفس السهولة لمس أيقونة الاتصال.

لم يرغب في استخدام تطبيق «بليندر» فربّما أزعجتها جرأته فترفض استقبال مكالمته... ورغم أنّها المرة الأولى التي يهاثفها ولم يكن قبلها معتاداً على سماع صوتها عبر الجوّال،



لكنّه أحسّ أنّها لم تكن هي من أجابته، إنّها صديقتها، استفسر عن «وعد» فعرف أنّها غادرت إلى «مونريال» صباح اليوم في زيارتها السنوية لأخيها «سيف» وفي غمرة عجلتها نسيت هاتفها المحمول، تحرّج «مينا» أن يسألها عن رقم آخر يتواصل من خلاله مع غايته، لكن صديقتها وبحسها الأنثوي فهمت همّهمته فقالت: إذا تحب تكلمها على رقم «سيف» أخوها ممكن أديهولك.

وكأنّها بالفعل تقول له «اتصل بها»، لا يدري ما الذي وضع «وعد سليم» على قائمة اهتماماته، لكنه شعر بنشوة؟! ومن غرفته أخرج جيمي سكرتيره، أغلق التلفاز وراح يفكر في هذا الاندفاع، ما الدافع الذي يحركه ليلاحق أنثى وهو الكاره لأي مغامرة، فهل يجازف بمعتقداته؟ لا يعقل أن يفعلها. يومان وانتهت قدرته على التحكم بالحيرة المتلاطمة داخله، لا يعرف ما الذي يدفعه نحوها، إنّها تثير عقله بذكائها وقوة حضورها وجراتها الدافئة، هاتف «صالح» يسأله عنها..

: سافرت عند سيف أخوها يعمل عملية وراحت تزوره.

مينا مستفهماً: مقولتليش قبل كده إن عندك أخ يا ابني؟!

وبمرحه المعتاد قال صالح: أنا قولت أخوها مش أخونا،



إنت العربي بتاعك بالاظ  إيه؟! ده أخوها مِن مامتها يا «ميو».

: طب يا عم الظريف، إنجز، هي هترجع إمتى؟

وبجدية غير معهوده مِن صالح أجاب: معرفش والله... بس خير؟، عايز «دودي» في إيه؟ هي اعتذرتلك والموضوع مفروض يخلص على كده.

: هي اعتذرتلي وأنا كمان عايز أعتذرلها، كنت سخيِف جدًّا معاها.

إنَّه رجل لا تلفت انتباهه إلَّا الذكيَّات، الذكيَّة وحدها كانت قادرة على إثارة اهتمامه وفضوله، لقد جعلت نسيانها أمرًا يستحيل الحدوث..

رقم أخيها في مونتريال صار بحوزته وللمرة العاشرة يُنهي المكالمه قبل أن يبدأها، لماذا كل هذه الصعوبة؟ ما الذي حدث كي تستقر «وعد» في ذاكرته لهذا الحد؟.

إنَّها فريدة، سريعة البديهة، لا يمكنك تجاهل مرورها في حياتك ببساطة، تناول رشفةً مِن كوب الينسون، استرخي أمام حمَّام السباحة، مدَّد جسده، استرجع الماضي، تذكَّر حين فتح عينيه لضياء الشمس لأول مرة بعد أن كان في غيبوبةٍ إرادية، احتجب في غرفته أسبوعًا بعد زواج «رنا»، كان كثيف الذقن،



بجواره «طنط إيريني» تقرأ الكتاب المقدس بينما يقرأ والده
«د.منصور» القرآن في الصالة..



وفي مونتريال التقت «وعد» بأخيها «سيف» و«روعة»
و«خالد»، لقد حضر الجميع على عجلة ليطمئنوا على صحة
الكابتن الطيّار، كانت الجراحة بسيطة لتصحيح عيب هيكلي في
عظمة الأنف، الألفة والحميمية سيطرتا على الجو العائلي،
وانتهز الشاب الوسيم حضور والديه وأخته الكبرى ليُقدم
للجميع فتاته الحلوة «رُبى بشير أرسلان»، اسم عائلتها
وحده علامة بارزة في السياسة والتاريخ اللبناني، هي نفسها
لاعبة تنس وبطلة مصنّفة عالمياً، تُعرف بأنّها خليفة الخارقة
الروسية «ماريا شارابوفا»، تعرّف عليها بشكل شخصي في
قاعة دروس الكمان، حين لحّت عليه هوايته فلم يستطع أن
يتجاهلها، استجاب لنصيحة «دودي»، لِمَا لا يجمع بين عمله
وهوايته بدلاً ما أن يظل يحوم حول ما يفتقده، إنّها جذابة
جداً، طبعها هادئ رغم نشاطها الرياضي وشهرتها العالمية
وحضورها القوي في الملعب، خلّقها دمث وحيويّتها فوّاحة،
لقد تخلّت عن خوض بطولةٍ دولية للتنس تجري في الأرجنتين



لتبقى معه قبل وأثناء الجراحة رغم بساطتها المتناهية... لقد أثار ذلك جنون والديها ومدرّبيها لكنّها لم تهتم، رأت أنّ المواجهة أفضل حل، وأعلنتها صريحة دون تردد، «ستزوج الرجل الذي اختارته فور تعافيه»... لذا استغل «سيف» نبأ الجراحة ليُحضر والديه إلى حيثُ العروس، فقد غلب الحبُّ مراوغته وهروبه السابق من الزواج ومسئوليّاته..

طالت غيبة «وعد» في مونتريال وانتهز «سليم ونوّارة» الفرصة وإلى هناك انتقلا، فلم يطاوعهما القلب على التغافل عن وجود «الغالية» في إجازة دون الاستفادة من ذلك بلقائها ولو أسبوعاً أو أسبوعين..

«دودي» إنّها الأثيرة وستظل في عينيه صغيرة حتى إن تكرر مش جلدها واشتعل رأسها شيئاً، إن ما بين «نوري» و«وعد» يجري دائماً في سلام وتحت مظلة حانية صنعها الحب والإيثار وحسن الظن، أودع «سليم» قدراً من الدفء في قلب وحيدته تجاه زوجة أبيها واستثمرت «نوري» بفطرتها الطيبة الودودة المُحبة إلى كل ما ينتهي لسليم كلّ الفرص وأنصاف الفرص لتنسج عالماً من التسامح والمحبّة حول كل ما يخصها ويخص عيشتها مع الرجل الذي أحبّت؛ فاقتحمت قلوب نساءه كافة، خالته سهام سابقاً، أخته شهد، وابنته وعد..



وفي مونتريال غدت وعد تسير بالتوازي على خطي والديها،
فتلتقي «روعة وخالد» يوماً وتلتقي «سليم ونوارة» في اليوم الذي
يليه، كان من الطبيعي أن يزور «سليم» سيفاً وفي ركن هادئ من
كافيتريا المستشفى قابل «ابنة العم»، إنها رائعة على الدوام، اختفى
الشقاق والعتاب وغابت الخيبة والخذلان عن المشهد، فكلاهما
قد وجد ضالته، كلاهما لم تحطمه الحياة، صدم لكنه لم ينهزم،
فنحنُ لا نختار من نحب ولا نخلق الحب في نفوسنا..

فعلاقتنا مع الناس كأوراق الشجر، منها ما يسقط ولا
يعود، ومنها ما يبقى ويثمر... وياله من مسكين من لا يستطيع
الاستيقاظ من حلم لم يعد حلمه لتستيقظ روحه حلمًا آخر
خيط على مقاس روحه، فإن لذة الحب وروعه أنه يعيد ترتيب
نفوسنا ويصحح مسار رؤيتنا، فقبله يكون الكون كله في حالة
ركود وبه يصحو..



أحبت وعد زوج أمها منذ صغرها وتضاعف حبها له حين
استقبل والدها بود واحترام، فجرى اللقاء سلساً، فلا حساسيات
حادة جرت بينهما ولا كراهية باردة حلقت في الأجواء، فلم
يسمح أحدهما لنفسه يوماً أن يضع «دودي» على المحك، وما



كان من الجائز أبداً أن يضعها في علاقة مريضة يهاجم فيها كلُّ منهما الآخر على الدوام أو يُغْلَف أحدهما سخريته من الآخر بغلاف من النكات السمجة، يُجيد كلُّ منهما رسم حُب الحياة في عينيها، كانا في أشد الحرص على النجاة بها من صراع لا معنى له، فمضت تحقِّق إنجازاً وراء إنجاز، وتندمج أكثر وأكثر في عالمها الذي صنعتها قناعاتها دون تدخلٍ سافر من أحد..

وفي إحدى حدائق مدينة مونتريال القديمة تمَّ الاحتفال بزفاف «سيف الهاشمي ورُبى أرسلان» وتمَّ إبلاغ جميع أفراد العائلة، ومن لندن جاءت شقيقته «هيا» وزوجها ابن العم «غسان»، ومن «عمّان» حضرت شقيقته «شيماء» وزوجها الطبيب «هتّان»، وعاشت العائلة واقعاً من العواطف الدفينة، تراءى لروعة أن تدعو «سليم ونوّارة» إلى حفل الزفاف كرامةً لخاطر بكريتها مادام وجود ابن عمها وزوجته قد صادف ميعاد الحفل، استقبلهما «الشريف خالد» بحفاوةٍ تتناسب مع أصله وسمعته، فجاء ذلك مناسبةً تماماً لما تمنَّته «دودي» في نفسها، وإلى الحفل أيضاً حضر «صالح» تلبية لدعوة أرسلتها له أخته، فقد وافق موعد الزواج بالمصادفة فترة توقف للدوري الإنجليزي، وأمام كاميرات التصوير التقى رافداً آل أبو ستين «روعة وسليم»



بعائلتيهما، فكان لقاؤهما سالمًا من الشوائب، قادمًا من بئر
الوجدان كقطوفٍ دانية أثمرت لشجرة الحنين..



منذ انتقال «صالح سليم أبو ستين» إلى الدوري الإنجليزي
توطدت علاقته بابن بلده «ميناً منصور» والذي سبقه إلى
الاحتراف بسنوات، إنَّهما لاعبانِ فذانِ انتهت إليهما أعين
الوسط الرياضي ليُسجل كلاهما علامةً فارقة باسمه في الملاعب
الدولية، أحدهما مهاجم باسل والآخر صانع ألعاب ثاقب
النظر، وعلى رقعة المستطيل الأخضر يتنافسانِ بضراوة، فما يلثما
أن يتعانقانِ بمجرد أن تُنهي صافرة الحَكَم أحداث المباراة..

ازداد الارتباط متانةً فصار أحدهما يزور الآخر بصفة يومية،
يحتسيان القهوة صباحًا ثم يتوجه كلُّ منهما إلى تدريبه، يلتقيانِ
ثانية بعد الظهرية يتناولانِ الغداء ثم ينصرفانِ إلى قضاء بقية
الوقت حسب رؤية يومية تتجدد تبعًا للظروف؛ فاكسب «صالح»
من رفيقه عادةً القراءة التي أهملها سابقًا مكثفياً بمتابعة الأخبار
عبر وسائل التكنولوجيا المختلفة، وتضاعفت حيوية «ميناً»
باقتراحه من صديقه وافر الطاقة والحركة... وكان لقرار سفر
«صالح» إلى مونتريال صَدًا مُقلِّقًا على نفس صاحبه خاصةً مع



فترة توقف الدوري واشتدت الوحدة ألماً على نفس ابن منصور حين بلغه نبأ وفاة «رنا» بعد تعرضها لحادثٍ سيرٍ نتج عنه كسر بقاع الجمجمة وكدمات مخية ونزيف داخلي شديد، استمرت في غيوبتها ثلاثة عشر يوماً، لم تُبدَ خلالها أي استجابةٍ عدا بعض التشنجات التي فسرها الطبيب بأنها لا شعورية، وفي الثامنة والعشرين من عمرها رحلت المسكينة تاركةً صبيين في عمر الزهور، وفي نفس العام تزوج «أمجد» من إحدى قريباته..

لمس «صالح» ألم صاحبه؛ فدعاه إلى «مونترال»... سبعة أسابيع كانت قد مضت على لقاءه بوعده، لم تجر خلالها بينهما أي محادثات هاتفية أو إلكترونية رغم احتفاظ «مينا» بالرقم الذي منحه صديقتها له..

وإلى الغداء دعاه «صالح» واتفقا على الموعد والمكان، وبخبطٍ حالم سأله أن يأتي برفقة أخته إن وافقت هي على الصُحبة؛ فما زال ضميره لا يشعر بالراحة ويدفعه للاعتذار الذي باخ بعد أن طالت المدة، كان في أمس الحاجة لأن يلقاها، وفي انتظارها أراد وحدةً وسكوناً؛ فأغلق محموله بعد مكالمةٍ أخيرة أكد فيها على «صالح» المكان والموعد والصُحبة، ارتدى نظارته الشمسية العريضة، إنها سوداء تخفيه عن العالم..



التقيا مجدداً، كان الجو ماطرًا ولم يكن في حوزته مظلة،
 رآها قادمة من بعيد تتأبط ذراع أخيها، كانت ترتدي بلوزة بيضاء
 وبنطلون جينز صارخ الزرقة ومعطفًا أسودًا يصل إلى ركبتيهما،
 تحيط عنقها الطويل بوشاح أحمر، وتغطي شعرها بقبعة صوفية
 حمراء من نسيج الوشاح نفسه، كأنها زهرة ربيعية فاتنة بللها
 مطرٌ موسمي... وجد نفسه يتسم لا إرادياً، إنَّ إشراقاً حقيقياً
 يتجلى في طلعتها..

لم تتحدث وعد يومها عن لقائهما السابق ولم تكن
 متحاملة عليه نهائياً، إنَّ اعتذاره لها لم يشغلها فلم تتوقف عنده
 ولو للحظة، لاحظ ولعها بالفضة والأحجار الكريمة، أدهشته
 ثقافتها الواسعة وعقلها الصاحب بالأحداث، العامر بالأدب،
 الزاهر بالفن والشعر والموسيقى، وكل ما هو جميل، تركته
 يتأملها، يتفحصها، يراقبها وكأنَّ غايته أن يحفظها ويحفظ
 تفاصيلها، أسماها يومها «أنثى الورد» فقد ملأ أريجها روحه،
 ومن هنا ومنذ ذلك اللقاء بدأت بينهما حكاية غرام..

طالت الصحبة ودامت شهراً، شغلته باهتماماتها الثقافية
 الواسعة، آراءها الثورية في هدوء وطبعها المريح رغم تمسكها
 برأيها، وسيطرتها الدائمة على مجرى الحديث، أصبح مشدوداً



لها، مشدوها بها، تهتز أعماقه فرحاً كلما التقاها، يشعر بغربة في كل ما حوله إن هي فارقتة، يفتردها بشدة كلما غابت، تأتيه دوماً كغيمة باردة لا شيء يُثير رعداً..

معها عرف الأمان والسكينة والبهجة، مشاعر هجرته وهجرها منذ زمنٍ طال، معها عرف «العشق»..

لقد أدرك حكمة القدر في أن يُفقدَه حباً كاد يُفلقه نصفين، حبٌ اغتالته يد الحياة فأفسدت في عينيه كل متع الدنيا، القدر نفسه يُصالحه من جديد، فيفتح عيناه ليرى الدنيا وتشع نفسه بالنشوة واللذة والسمو..

لقد واصل حياته دون أشخاصٍ لم يكن يقدر على مجرد تخيل حياته من دونهم، هاهو يثق بإحساسه من جديد ويستمتع به..

يالا غرابة الدنيا وتناقضها، إنها نفس الحروف، الألف واللام والحاء والباء، فيها حبٌ وحربٌ، نارٌ وثلجٌ، شهيقٌ وزفيرٌ، موتٌ وحياةٌ..

جرت الأيامُ وحن موعِدُ الرحيل، توجَّب عليهما العودة كلٌّ إلى عمله وعالمه، ورغم أعوامه الثلاثين شعر كما لو كان تلميذاً غراً مطالباً بالانتقال من مدرسة يحبها إلى أخرى لا يهواها، ففكرةُ الفراق وحدها تُخفيه، فبات قلبه يخفق بشدة، لم يكن ضرورياً



أن يقول شيئاً فقد أفصحت ملامحه عن ضيقه الشديد، «وعد»
أيضاً كانت منزعجة، لكنّها لم تكن على هذا النحو من الضيق،
كان تقيّمها للأمر مختلفاً، فلا داعي للكآبة ولا حاجة للحزن..
حبيبي متزعلش أوي كده، مش لازم نبقي مع بعض في نفس
المكان عشان نحس بالأمان والسعادة.

: إزّاي وأنا حتى مابعرفش أفطر إلّا وإنّ معايا.

: مانا هبقى معاك برده، رسالة الصبح، صورة حلوة، ابتسامة،
مكالمة، فويس ماسدج. وبعدين هو «البليندر» مش شغال عندك
ولا إيه؟

: «دودي» إنّ خلّيتي لحياتي طعم ولون، بقيت في عيني شكل
تاني، الساعة في غيابك يوم، إزّاي عيزاني أكون في مكان وإنّ في
مكان عادي كده من غير ما أتضايق؟!

: حبيبي، أنا عيزاك دايماً مبسوط، متفائل، عيزاك تفضل
أحسن لاعب، عايزة إجوان كثير، عيزاك مَرَكِز، عايزة أبقى في
حياتك طاقة أمل، مش عايزة أبقى عقبة توقف عندها.

كانت عيناها لامعتين بفتنة لا تقاوم، أي جنون ذلك الذي
يعيشه، إنّ غيابها عنه مستبعدٌ تماماً؛ فلمّا لا يطلبها للزواج؟!

جاءها في المساء الذي يسبق سفره بعينين صارختين



راجيتين، نقل إليها رغبته واقتراحه، أنصت إليه بانتباه بينما تحاول بمرحٍ عفوي أن تمتص لوعته واندفاعه، طلبت منه تنحية عرض الزواج جانباً حتى حين، فالأمرُ قدرِي، لا يمكن التصرف فيه بهذا القدر من الاندفاع والتسرع، فثمّة أمور كثيرة تدور حولهما ولا بد من التفكير فيها، اقتربت منه وعلى رُكبتيه جلست، احتضنته كما تحتضن الأم ابنها الغاضب الفزع، لمست بكفها وجهه وقالت: مفيش حاجه هتبعدنا عن بعض غير لو احنا اخترنا ده.. مينفعش ناخذ قرار مصيري زي الجواز بالسرعة دي ولا بالاندفاع ده.

:اسمعي كويس حبيتي، أنا مش خايف إنك تسيبيني لكن مش متحمل فكرة إنك تفارقيني لحظة.

:إنت عاطفي أوي حبيبي وعواطفك حامية وتغلبك. وأنا شخصية بطيئة في قراراتها، والاستعجال بيربكني.. بحب أحسب كل خطوة قبل ما أعملها.



رأت «وعد» أن الزواجَ تغَيّرُ كُلِّي في مجرى الحياة يلزمه خطط استراتيجية لكيانين مستقلين سيتقلان بمحض إرادتهما، لحياة مشتركة تشابك فيها خطوطهما وتعانق فيها قراراتهما،



بل أن الزواج معركة بلا عدو، فمنافسك فيها حبيبك الذي تريده
أن يقع في أسرك دون أن يُطالبك يوماً بالرحيل، وكلّما استعد
الطرفان للمعركة جيّداً كلّما زادت وتضاعفت فرصتهما في
نجاح محقق يُسعدهما، هي ومن أحبّت في حاجةٍ إلى الصبر،
الروية، الشجاعة لتخيّر الوقت المناسب للزواج..

وإلى القاهرة توجّهت، وفي قلب «سليم» وعقله أفرغت
كل ما في نفسها دون أن تفكر أو ترتب ما تقول..

سرح بأفكاره بعيداً عنها، يوم كان يراقبها وهي تنطق أول
كلماتها، تخطو أول خطواتها، ولولا اختلافه مع «روعة»
وطلاقها منه لِمَا كانت فتاته الغالية تركته يوماً ولا كان غياب
بينهما قد مر!!

لم يكن وجودها في حياته عادياً ولو للحظة واحدة، إنّه
يُقدّسها ويؤمن أن سعادتها أثمن واجباته..

نظر إليها ملياً يبحث فيها عن شيء يُشبهه، يشاق أن
يتشابهها، أن يتطابقا..

دوماً كان يسعى لإبهارها، إرضائها، إسعادها والأهم
منهم، سعيه الدؤوب لاحتوائها..

داوم على مراسلتها صباحاً؛ فداومت على مراسلته مساءً..



يحادثها بالصوت والصورة؛ فرسمت وجهه وتفننت في رسم عينيه بمجرد أن أتقنت الرسم..

قضى عمره محاولاً منع أسباب بكائها وإزالة توتراتها وتعزيز ثقتها بنفسها، وفي صحبته ومعه تمارس كل الفوضى الممكنة التي تمنعها روعة عن ممارستها، فكان سراجاً أنيقاً لمراهقتها ولمحة عُلا لشبابها وعقل شاسع الأبعاد لطموحها، فكانت ابنة تحب أباهاً حباً لو غطّاه ليلٌ عتيماً لَبَقِي واضحاً وضوح الشمس..

وللحق لقد خشي عليها جداً من الحب وعذاباتهِ، من التجربة وآلامها، ومن النتائج وتبعاتها..

على الرغم من كل الحب الذي يكنّه لنوّارة، وعلى الرغم من انتهاء قصته مع ميرال نهائياً إلا أنه يشعر في أعماقه ذكرى تُثير مجسّات التخوف لديه من أن يعاني فلذات كبده ما عانى..

إن ابتته يافعة، طموحة، مرحة، لا يمكنها أن تقاوم حمم الفشل أو الخيبة والخذلان..

إن لها أحلامها وحاضرها لامعٌ، ينتظرها مستقبل باهر يخاف «سليم» جداً أن يتعقّد وتتعرقل حياتها بسبب ذلك الـ«مينا»..



يدرك أن تخوفاته لا تشفع له أن يسألها ألا تُحب، ألا
تخوض التجربة، ألا تختار..

لقد كان يوماً من شهداء الحب وضحايا الغدر، ولفترة
طويلة عانى شتاً ونزف خيبة وقطر الماء، يذكر جيداً كيف
كان؟، كيف تاه؟، وكيف عانى؟.

لكنه ورغم حيرته لم يُخَيِّب ظن ابنته، سافر معها إلى
لندن.

فالأبُّ أولُ قدوة، وأولُ بطل، وأولُ حبيب، إنه الحب الذي
لا يخيب أبداً.



وفي إحدى كافيتريات منطقة «فولهام» حيث يقع نادي
«تشيلسي» قابل «سليم» من سافر خصيصاً لمقابلته، تحدثا
بتحفظ في البداية ثم ما لبث الحديث أن تدفق بينهما عن الوطن
وذكرياته، وبغفوية راح «مينا» يذكر شوارع «القللي» ووسط
البلد، حكاياته النادرة مع اسمه، بالإضافة لكل جميل قاله عن
«طنط إيريني» وشقتها الصغيرة ذات الشرفة الخلفية التي تطل
على تكعيبية عنب وشجرة مانجو وأخرى لليوسفي، حكى عن
تفوقه الرياضي وشغفه بالكرة، حينها تجسدت صورة «صالح»



أمام عيني سليم لما وجد من تشابه كبير بين ابنه وصاحبه في هذا المضممار، تحدث وبحنين حي عن والديه وما وجد بينهما من حب وتضحية أضفى على البيت نسمات زكية من السلام والبهجة، ف«ماما جهاد» رغم انتمائها لأسرة ميسورة الحال نوعاً لكنها كانت تفتقر السلام في بيت والديها فاشتد حرصها على توفير ذلك السلام لزوجها وابنها، أمّا «شارون» زوجة أبيه فلم ير منها خيراً ولا شراً، لكن من الإنصاف أن يعترف لها باختلاف كبير إلى الأفضل طراً على صحة والده ومزاجه ورؤيته للعالم منذ تزوجها، أمّا «أيلا» فهي أجمل ما في تلك الزيجة كلها، أيلا عطية المولى..

إنَّ انتقاله إلى مأوى خاص وانفصاله الكلي عن بيت والده لم يكن كرهاً لأبيه ولا لزوجته، بل لرغبة تامة في نفسه أن يعزل، ومع الزمن صارت علاقته بأبيه وبيته في أضيق الحدود، يزور «أيلا» يلاعبها وتلاعبه، يشرب الشاي مع د. منصور، يحيي «شارون» بأدبٍ إن صادفها وسرعان ما يرجع إلى بيته وصومعته..

أمّا «وعد» فقصته معها شيء آخر، لازال يذكر تفاصيل لقائهما الأول، إنها موشومة في ذاكرته، ما أغباه! كيف ضايقها يومها بسخافته وصمته الزائد وتجاهله أحياناً لما تحاول أن تستخرجه منه من كلمات!.



سأله «سليم» مباشرة عن ماضي قلبه، لقد أتم الثلاثين من عمره، لابد أن عواطفه تحرّكت قبل تحركها في اتجاه ابتته، إنّه الحديث المنتظر؛ فليُفصح..

وبكل صدقٍ أخبره «مينا» حكايته، قبل «دودي» كان يرى أن الحياة خلقت لتُعاقِبنا، دومًا تسلُب مِنّا ما نُحب لتعطينا شيئًا آخر قد نحبّه وقد لا نحبّه، هو تحديدًا سلبته الحياة أمه، و«حبيبته» و«طنط إيريني» لتعطيه المال والشهرة، البعض رحل عمدًا والبعض خطفه الموت، لا فرق!

إصراره على الزواج بوعد واستعجاله الأمر كما تصفه هي في حقيقته تخوّف، خشية... إنّه في سباقٍ محموم مع التعاسة.. أشعل سليم سيجارته وارشف من قهوته وتابع يتأمل ملامح ذلك الشاب المتألم، مازال هناك طعمٌ للمرارة في كلامه، ينتظر «مينا» جواب «سليم» على حديثه، بينما الأسئلة تتراكم في ذهنه، هل سيوافق الرجل؟ هل بإمكانه إقناع فتاته بالموافقة؟ ما مدى قناعة سليم بما قال؟!

لا يملك مايمكّنه أن يقنعهما به غير عواطفه، يعرف أنّه سيكون موغلًا بالافتقاد إن رفضت.

تعدّدت اللقاءات وتكرّرت وفي الشرفة المطلة على حديقة فيلّته صبّ القهوة بنفسه لمن يحترق شوقًا ليكون حماه..



شكره «سليم» على حسن تصرفه وذوقه، وضع فنجانہ جانباً وقال: إنت عارف إيه أسعد يوم في حياة أي أب؟؟
وبأدب أجابه مينا قائلاً: أفكر إنه يوم ما بنته تتجوز يا عمي.
وبنفس الهدوء تابع سليم وصوته يقطر عذوبة: لأ يا ابني،
يوم ما بنته تلاقي الرجل اللي يحبها ويدلعها زي ما باباها بيحبها
وبيدلعها، اللي ممكن يموت علشانها رغم إنه عارف كويس إن
مفيش راجل هيخلي بنته ملكة غيره بس بيفضل عمره كله يستنى
الراجل ده.

:وأنا أحلفك يا عمي وأوعدك إني هحطها في عينيا وأقل
عليها وازعل نفسي قبل ما أزعلها.

: اسمعني يا مينا قبل ما تحلف وتوعد عشان ماتتورطش في
شيء ممكن متقدرش عليه.
:إتفضل حضرتك..

وببحة حُسنٍ وشجنٍ قال: في يومٍ من الأيام حبيت وغرقت
في الحب من ساسي لراسي وافتكرت إني لقيت حب العمر وإن دي
الست اللي سعادتي بين أيديها، وفجأةً صحت ملقتهاش، بقيت
من غيرها تايه، ناقصني كل شيء.. ماشي في الدنيا زي ما أكون
منوم مغناطيسيًا.. في الوقت ده قابلت «نوري» وبقي لينا مع بعض



حكاية فصولها كثير واستمرت سنين، عذبتها.. وجرحتها
وخذلتها.. وكأني بنتقم فيها من الحب ومن الدنيا ومن حبيتي اللي
سابتني من غير مايكون ليا أي ذنب ولا أي فرصة معاها.. أيامي مع
نؤارة كانت عُمر من الظلم والانتظار رغم إنَّها حبتي بكل ما فيها،
وأنا بكابر وبعاند، وفاكر إنِّي مبجهاش بس مستمتع جدًا بحبها
ليا، رغم إنني بعتل في نفسي كل نبضة حب تجاهها لغاية برضه
ما صحيت في يوم لقيتها مش عيزاني، رفضاني وبتوسّع المسافة
اللي بيني وبينها، سابتني وسابت الدنيا سوده في عينا والمرة دي
بجد كنت هموت، أنا مش عايز «وعد» تعيش اللي عاشته نؤارة
أبدًا، سيب الزمن يأكدلنا ويأكدك إن قلبك خالص مخلص كله
لبنتي وبس، ساعتها محدش يستاهلها غيرك.



لم يخسر سليم إيمانه بالحب لكنّه أراد أن يضمّن لابنة قلبه
كل الحب الذي تستحقّه، لم يكن راغبًا أن تربط حياتها برجل ربّما
مازال يحمل رحيق أنثى غائبة، فوعد عنده بنصف نساء الدنيا،
بل هي بجمعهم، شجّع ابنته على قرارها ونصحها بالتروي قدر
الاستطاعة، فتأججت القناعة في داخلها إلى ما قرّرتّه، وإلى
«هوليوود» عادت تمارس حياتها وعملها بهمة ونشاط... فلم



يكن الحب في نظرها يومًا أمرًا سهلاً، أمّا «مينا» فقد استسلم لقرارها محاولاً الاقتناع بمبدأها، إنّها أنثى لا تندم ولا تخاف ولا تراجع عن قراراتها، ومع انطلاق الدوري الإنجليزي آنذاك صارت الأجواء مضطربة بعض الشيء فلقد تجدّدت عليه إصابة كان قد شُفي منها، لكن في قانون المستديرة لا وجود للشفقة والسلامة من الإصابات، نفس تلك الإصابة العنيفة حرّمته الانضمام لمنتخب بلاده..

الإصابة منعت من نزول الملاعب وممارسة ما يعشقه، ابتعاده عن اللعب وعن حبيبته كاد يفقده عقله لولا إصرار والده على انتقاله للسكنى معهم على الأقل في فترة تعبه، حالة الاسترخاء والسكون جعلته في مواجهة ضارية مع نفسه وأفكاره ومشاعره، فراح يقرأ أكثر ويتأمل أكثر وأكثر، كيف يمكنه أن يفهم حبيبته ويقنعها بحاجته الماسة لها ولوجودها بجانبه، إنّها دومًا مستعدة جدًا للعمل والمستقبل وتعزيز المكانة، فلما لا تكون مستعدة أيضًا للزواج؟!

ناقش والده؛ فاتهمه بالأنانية المفرطة التي تُهيء له أن يطالب فتاته بإنهاء عالمها صاحب النجاح لتأتي إلى عالمه ومعه تفكر من جديد فيما يمكنها عمله وتقديمه!! نبّهه إلى خطورة تلك الأنانية على مستقبل علاقته بأنثى ناضجة، مهووسة بالحياة



والانطلاق كوعد أبو ستين، إنه يتابعها على مواقع التواصل ويتابع برنامجها الأشهر في التلفزيون الأمريكي، تثور بالأفكار ولا تهدأ حتى تُحقق أفكارها وطموحاتها على أرض الواقع..

تشكك «د. منصور» في توق ابنه للزواج والاستقرار، أهو بدافع من الحب والخوف من غياب من يحب عن عالمه أم أنه توق محموم تحركه أنانية مفرطة؟ وبصدق أبوي قال لابنه: احنا مبوصلش للسعادة بإننا نحقق اللي عايزينه وقت ما نحب، السعادة كمان ممكن تكون في إننا نحقق للي بنحبهم اللي هم عايزينه ونسبيلهم مساحة يتنفسوا ويحلموا ويطيروا ويحققوا اللي هم نفسهم فيه، حاول تفهم حبيبتك وتفهم مخها وتستوعب شخصيتها وتحترم رغباتها وإنت مقتنع إن ده حقها مش تفضل منك.



استقرت حالة من السكون بين الحبيين، لم يستطع «مينا» أن يفهم جموح أفكارها وتخوفاتها من الزواج ولم تستطع «وعد» أن تستوعب غليان مشاعره وثورة حاجته إلى قربها، وباحتراس صارا يتعاملان، هي تجاهد لإحراز السيطرة على الوضع ودرأ أي خلاف قبل بدايته متظاهرة بالهدوء، بينما هو أيضًا يجاهد للسيطرة على أفكاره ومخاوفه التي تزيد كلما اتسعت بينهما فجوة الاختلاف..



هي تسبقه دومًا إلى الحياة في كل صباح وهو الذي يستيقظ
دومًا على خوف كل يوم..

هاتفها يقول: إذا أنتِ مش هتقدري تكوني معايا وأنا مصاب،
فعلى الأقل اسمحيلي أجيلك أنا وأبقى معاكِ منين ما تكوني.

تباطأت جميع الأحاسيس داخلها، راحت تبحث عن
كلماتٍ مناسبةٍ لتخيرها كما لو كانت تتصرف عبر نفقٍ ضيق تحت
قدميها، تخشى أن تغضبه كلماتها، وقالت: مين، إزاي هتيجي
وإنت مصاب، النادي مش هيسمحلِك، حتى لو عرفت تيجي،
إزاي هتبقى معايا وهعرف أشوف شغلي.

: أد كده وجودي معاكِ بيزعجك!!

: هو ده اللي كنت عامله حسابه، هتزعل وتفهمني غلط.
وبلهجة هادئة حاول بها التراجع عن موقفه: طيب قوليلي
إيه الصبح؟

وبمرحها المعتاد قالت: أنا بجهّز عشر حلقات من برنامج
جديد واخد كل وقتي، هتعذب جدًّا وهضايق أوي لو إنت هنا
ومش عارفة أشوفك، يرضيك تعذبني؟ ينفع يعني؟.
وباستسلام قال: طبعًا ميرضنيش حبييتي.



: خلاص، يبقى أول ما أخلص الحلقات هاجيلك ونقضي
سوا أسبوعين قبل ما أبدأ التصوير، بحبك.

: بحبك يا أجمل ديكتاتورة.

فقط أرادها أن تعرف جيداً أن وجودها يُشكّل فارقاً عظيماً في
قلبه، في توازنه، وفي خطواته، في استقامته واستقراره، وليس في يومه
فقط، إنه معها يستطيع أن يتحدث عن أتفه فكرة تخطر على باله، وأن
يتحدث في أي شيء وكل شيء، من أعظم الأمور شأنًا كتصاريف
العبادة إلى أقل الأمور شأنًا، كمقاسِ حذائه الذي تغير!

اجتاحه فرح لفكرة وجودهما معاً ولو لفترة قصيرة، بينما
تسارعت نبضات قلبها وهي تفكر، سألت نفسها: ياترى فعلاً
هنقدر نستمر مع بعض؟! كانت تخشى أن يفرقهما شيء خفي
وتصير حكايتهما مجرد ذكرى..

انتهت فترة الإعداد وفي الليلة التالية وصلت إلى لندن
والتقت «مينا» في حالة لم ترضها، كان اليأس من شفاء إصابته
قد تملّكه، حاولت قدر جهدها أن تبدّد توتره الذي كان يثور فيها
كلّما اقترحت عليه أن يعتزل، مجرد الاقتراح يوقظ كل أحزانه ومع
ذلك ظلّت تحاول... إنَّ ذلك الوسيم الرقيق الذي تُحب، يستحق
الأفضل ومن أجله وأجل اسمه وسمعته الكروية عليه أن يفكر في



بدائل تجدد توقّه إلى الحياة، عليه ألا ينظر إلى الدنيا من خلال منظور ضيق الأفق، فلم يكن مينا مثل أي شخص عرفته يوماً، إنّ به شيء يُذكرها بأحب الرجال إلى قلبها، يُذكرها بأبيها، فيه نفس عنفوانه ونفس سلامه ورقته، زمجرته وغضبه الطفولية وحمقته الطاغية إذا فشل في تبرير فكرة مقتنع هو بها ويعاديه من يحاوره، وعد أيضاً فيها من سليم الكثير، مُجازفة مثله، تقدّس عقلها وقلبها أكثر مما تقدّس عقيدتها، عنيدة كروعة، مثابرة كأُمّها إلى أبعد حد، تُحب... نعم لكنّها تحتاج إلى مساحةٍ أكبر تشارك فيها حبّيتها دون أن تفلت الدفّة من يدها..

نزلت في شقة «صالح» وإلى حانةٍ منزوية في أحد أطراف لندن اصطحبها، كانت الحانة صغيرة المساحة، والطاولات فيها قليلة العدد، لكن الجوّ العام دافئ والديكورات خشبية تراصت في تناسق وجمال مما جعل «حانة لاكي داي» تبدو وكأنها معرض صغير لمعروضاتٍ فنية متنوعة، وعلى طاولة خشبية في الركن أجلسها أخوها واستأذنها لبضع دقائق، فتح باباً صغيراً على مصرعيه ودخل إلى ممر ضيق مظلم حيث غرفة استراحة العملاء... التزمت وعد بمكانها بينما تتجول عيناها في المكان، تتسابق الأسئلة داخلها عمّا يمكن أن يربط رجلاً



كصالح - رياضي شديد العناية بصحته وبلياقته البدنية، يميل إلى التدين - بهذا المكان؟! اعتذرت عن تناول المشروب الفلكلوري المُتبع تقديمه هناك واكتفت بطلب قَدَحٍ من الشاي وبعض الخبز المحمص، لكن ما دعاها للابتهاج هو ظهور صالح سريعاً برفقة حسناء ذات شعر طويل أصفر في لون الزبدة، بشرتها في بياض الحليب، شفتاها شديداً الحُمرة..

إنَّها «هارلين» أيرلندية كاثوليكية كانت تسكن مع والديها وشقيقاتها الست في بلدة صغيرة في أقصى شمال أيرلندا حتى قُتل والدها على يد جماعة إجرامية من مغتصبي الأرض؛ فاضطرت والدتها للهرب ببناتها إلى «بلفاست»، وفي أحد الفنادق هناك انتظم عملها ضمن فريق خدمة الغرف ثم تزوّجت من رجل وقور بسيط الحال ذو سمعة طيبة يعمل كفرد أمن وحراسة في متحف «أولستر»، كان أرملاً لا ولد له، أحبَّها وأعانها على تربية قططها، ثم اتجهت الشقيقات كلٌّ إلى حيث أرادت لنفسها؛ وإلى لندن جاءت «هارلين» لتدرس الدراما والنقد فغلبتها هوايتها وقَدَّمت عملها الروائي الأول لكنَّه لم يلق النجاح الذي تمَنَّته، اضطرتها الظروف والحياة الباهظة في لندن للعمل في تلك الحانة..

التقت بالفتى الأسمر، المصري ساحر الكرة «صالو»،



كما يدعوهُ الإنجليز حين عرَضَ عليها الأصدقاء تذكراً للمباراة النهائية الدوري الماضي، وبعد خروجها مِنَ المباراة وانصراف الأصدقاء، اتجهت نحو موقف الحافلات لكنها فوجئت بتعرض «أندرو» لها يحمل سكيناً مشرّساً ذا نصلٍ لامع، إِنَّهُ خطبها السابق، الذي دفعته الظروف القاسية التي عانتها عند قدومها إلى عاصمة الضباب إلى قبول خطبته، ثم ما لبثت أن اكتشفت سوء طبعه وشذوذ أخلاقه وهي المتدنية بطبعها، إِنَّهُ مقامر سكير، لا يتورع عن ضربها، بل وتمزيقها إرباً إرباً إن استبد به الغضب أو غاب عقله من كثرة الشرب..

لم تكن حافلة المنتخب قد تحركت بعد حين لمح «صالو» عربيداً أرعناً يُرعب فتاةً بيضاء كزهرة «الفانيليا»، شعر بدافع قوي وفوري للتدخل، غادر الحافلة ليقفَ بين الفتاة ومُرعبها في أقل من دقيقتين ويُسقط السكين أرضاً ثم يتبادل اللكمات مع ذلك المختل حتّى حضرت شرطة النجدة..

إِنَّهُ نوع من الرجال لا يُمكنك سوى الالتفات إليه، تعددت اللقاءات واشتعلت شرارة الحب وانتشرت كالنار في الهشيم، إِنَّهُ «صالح سليم» الفرس العربي الأصيل، كريم الخلق، الشاب المتألق اللامع المرح جداً، ذو الجرأة والأدب والذي لم يستغل أبداً المشهد في صالحه..



أسمائها «فتاة الفانيليا»، يُقدَّرها كثيرًا ويعوِّضها عن افتقادها للدِّفء والرعاية، لم يمض وقتٌ طویل حتَّى عرض عليها الزواج وزار أسرتها في «بلفاست» وتقدَّم لها أمامهم بشكل رسمي، لكنَّه كان شديد الحرص على أن يُعرفها على أخته الوحيدة التي لم يفتأ يذكرها ويحكي عنها لمحبوبته..

وكان «صالح» وُلِدَ من جديد، لأول مرة يكون لعينه ذلك البريق، إنَّهما رهيبتانِ برموشهما الطويلة التي أخذها من «نوّارة»..

والى القاهرة اصطحب فتاته لتلتقي والديه، شعورٌ امتزج بالفرح والخوف احتلَّ نّوّارة، فابنها الغالي اختار زوجته ويسألها أن تقبلها وتضمها إلى صدرها تبارك وتهنيء، فماذا لو أنَّ اختياره خاطئ؟ إنَّه كالجبل مثل أبيه، لن يتزحزح وسيقفُ في وجه الناس حوله إن بغى شيئاً وعارضوه... إنَّ قصة الحب المرسومة في عينيه تدعوها أن تقبل، أن توافق. كم تمنَّت أن يتزوج وحيدها وابن عمرها كله من مصرية مثله، لها نفس عاداته وتقاليده، نفس الفكر، والأفضل أن يكون لها نفس المستوى الاجتماعي والمادي حتَّى لا يرتطم في عنفٍ بالاختلافات فتصير حياتهما جحيماً لا يُطاق، إنَّه نضجُ الأمومة وخبرةُ السنون التي



جعلتها تدرس المسألة على ذلك النحو، ربّما لم تكن سعيدة بهذا الاختيار لكنها قبلته مبتسمة..

بينما لم يجد سليم ما يمنعه من قبول رغبة ابنه وقراره، فلم يكن يوماً حَجَرَ عثرة، ولا رياحاً قاسية تمنع «صالح» أو «وعد» من تحقيق أمل أراداه لنفسيهما، فقد عانى هو نفسه غياب شمس الألفة عن علاقته بوالده، أرهقته تلك السكك التي أغلقت بينهما وظلّ السواد يظلل جميع أركان الوجود بينهما كنتاج طبيعي لكل خلافٍ طالهما وكل اختلافٍ بينهما نشب ونما؛ فعمّ الصمت وخلا الوجدان إلّا من تهديدات الوجود..



ثمانية أشهر وُلّت، وأوشك أن ينتهي عام ٢٠٤١م، وأخيراً حصل «صالحو» على ما أراد، زفافٌ كلاسيكي بسيط جرت أحداثه في حديقة بيت العائلة في «بلفاست» تنفيذًا لرغبة العروس وبحضور من استطاع الحضور من شقيقاتها... تعرّفت عائلتها على والد العريس ووالدته وأخته، وصبيحة يوم الزفاف حضر إليه صديقه «ميو» أيضًا، جاهد اللعبان الشهير ان ليُخفيا جهة سفرهما عن أعين البرايضا، تعليمات أمنية مشددة صدرت من «صالح» لشركة حراساتٍ خاصة تولّت المهمة حتى لا تستطيع عدسات



الكاميرات التقاط أي صور للحفل، رغبت «هارلين» جداً في زفاف هادئ خاص يخلو من تطفل الإعلام وتنبؤات الصحافة، فكان لها ما أرادت، ثم بعد أكثر من أسبوعين وصل العروسان إلى مصر لينعما معاً برحلة غسل قصيرة إلى مدن سيناء... كانت مجرد فكرة طرحتها «هارلين» أمام زوجها، لكنه كان شديد الحرص على تحقيقها قبل انصرام الشهر الأول من الزواج..

وبقبلها استدلت «نوري» على حب رقيق كبير استقر في نفس «هارلين» لصالو، فاطمأنت لها وراحت تلاطفها وتقوي علاقتها بها... منحتها عقداً ماسياً، باهظ الثمن، مميز التصميم، ولم تعد تخيفها تصوراتها ولا هواجسها السابقة نحو الزيجة.. وما أن عاد «صالح» بزوجته إلى أوروبا حتى وقع ذلك الحادث التراجيدي الذي توفي فيه زوج عمته «زين زيدان» ولا ارتباطاته الكروية لم يستطع الحضور إلى مصر سوى ليوم واحد فقط حيث تمت مراسم الدفن..

بينما انشغل «سليم» بشهد وما أصابها من اكتئاب وحزن، تتسائل عن كينونة تلك المرأة التي كانت تشارك زوجها رحلة عودته من شرم الشيخ ليلاً، انقلبت حياة وحيدته رأساً على عقب، فقد أتهم منتج ومخرج برنامجها الأخير في فضيحة



أخلاقية وقضية رشوة وفساد مالي ربطت بين أسمائهما وأسماء بعض الشخصيات السياسية في أمريكا، حامت الشبهات وطالت التحقيقات كل من تعامل معهما وتناولت الصحف على كثير ممن شملتهم التحقيقات ونهشت في أعراضهم، حملة تشهير واسعة كجزء من تصفية حسابات قذرة راح ضحيتها القناة الفضائية والكثيرون ممن عملوا فيها لأنّها وبساطة تابعة لمؤسسة المنتج بصفته المتهم الرئيسي في الأحداث يعاونه مخرج برامجه..

لأول مرة تُوضع «وعد سليم» في دائرة الشك وتخضع لتحقيقات مكثفة حول أمر لاهلاقة لها به نهائياً، بكاؤها لم يكن عادياً، لم يكن بكاءً بقدر كونه اختناقاً وقرفاً من كل شيء... لم تشعر بنفسها إلا وهي تهاتف أحب الرجال إلى قلبها، تهاتف سليم..

وإليها ذهب، كانت تشعر بكل ضجيج العالم يملؤها، سألته سؤالاً لم يكن قادراً على إجابته: ليه؟ ليه يا بابي يحصل معايا كده؟؟ شغلي واسمي وسمعتي كل ده بينهار أدامي في يوم وليلة من غير ما يكون ليا أي ذنب؟!

عرف «ميناً» ما جرى من سليم باقتضاب، وإليها أيضاً سافر يحمل أنفاسه المتسارعة، يريد أن يركل المسافات والأمال التي بينهما لتتلاشى في غمضة عين..



«صالح وهارلين»، «سيف ورُبي»، «روعة وخالد»،
«سليم ونوري» الكل وبمنتهى الحب تجمّع حولها، حول
شمسٍ وضياءٍ عائلة أبو ستين، «وعد سليم»..

وفي عينيها رأى جميعهم الغضبَ والقهر، الألمَ والمرار،
إنَّ لهبَ الاتهام وألسته تحرقها والمقالات الصحفية المزيفة
تجلدها والتحقيقات الشائكة تخنقها..

وبعينين يملأهما العتبُ قابلها «مينا»... فرأى عينيها
تبذلان بالأسى، ثم سقطت على الكرسي تُخفي وجهها بيديها
باكية... ليس ضعفاً إنّما ألماً وخيبة..

فبعد أربع سنوات تقريباً من نجاح باهر وشهرة متلاّلة
ينتهي كل شيء في غمضة عين!

: كان نفسي أكون أول واحد يجي على بالك في الأزمة دي.

: أنا مكلمتش حد غير بابي يا مينا، أنا متعودتش أبين ضعفي
لأي مخلوق في الدنيا مهما كان بس هو أبويا.. الوحيد اللي ممكن
أضعف قدامه.. وارجوك ماتحاسبنيش على أي حاجه دلوقت أنا
حاسة اني بموت.

: بعد الشر عنك حبيبتى، انشالله أنا.

لم تكن قادرة على فعل شيء، رمت نفسها بين ذراعيه،



ضَمَّهَا بِشَدَّةٍ، تَشَبَّثَ بِهِ فَضَمَّهَا أَكْثَرَ مُتَجَاهِلًا مِّنْ حَوْلِهِ، أَغْلَقَتْ عَيْنَيْهَا وَهَدَّأَتْ أَنْفَاسَهَا وَسَادَ بَيْنَهُمَا صَمْتُ جَمِيلٍ ..

استمرت التحقيقات فترة طالت عما توقعه الجميع، ثم انتهت إلى براءةٍ خالصةٍ نالتها وعد، لم تتمكن المحكمة إلا أن تعاملها بكل احترامٍ ولطف، كانت ضمن عدد قليلٍ مِمَّنْ لم يتورطوا في أي إجراءٍ غير قانوني، وبالرغم من كل تقاريرها الممتازة وخبرتها المهنية السابقة وبالرغم أيضًا من كل العروض المميزة التي تلقتَّها عقب غلق ملف القضية نهائيًا بالنسبة لها، إلا أنَّها قرَّرت أخذ إجازةٍ طويلةٍ نوعًا من العمل والتواجد في دائرة الضوء وارتحلت عن لندن وانجلترا كُلَّهَا، وإلى القاهرة جاءت لا تغادر فيلا والدها إلا بصحبته أو بصحبة نوري التي راحت تهتم بدودي وكأنَّها فتاة صغيرة فقدت ضحكاتها وأخذت على عاتقها مسؤولية إعادة البسمة والبهجة لهذا الوجه الذابل، في تلك الأثناء كانت شهد قد سافرت إلى برلين لزيارة ياسين وأهل بيته ..

تقاربٌ شديد وعلاقةٌ صارت أقوى استقرَّت وتوطدت بين وعد ونوري، ففتحت لها قلبها وأطلعتها على حيرتها بشأن زواجها المتوقع من «ميو»، لم تنكر «وعد» حبَّها له ولا قلَّلت من رغبتها في الزواج به عاجلاً وليس آجلاً، لكنَّها وبأمانة شديدة



خشيت أن تُسقط عليه تخطيطها وعدم استقرارها النفسي بسبب حيرة تملكها وقلق اعترها تجاه مستقبلها العملي.

أخبرت نَوَّارة عن رأي روعة في الأمر، لم تكن علاقتها بأمِّها يوماً علاقة تقليدية كتلك التي تجمع بين أم وابنتها، كانت علاقتهم أقرب إلى النديّة منها إلى الحاجة والاحتياج، فأُمُّها ممسوسة بالتملك، مشاعرها الجياشة تدفعها دون إرادتها إلى اقتناءٍ شديدٍ لما ولِمَن تُحب، تحنو على كل من حولها، تحبهم وتدلّهم ولا ترفض لهم طلباً إذا ما سايروها وكأنّها في سباقٍ محموم مع مجهول تُجاهده حتى لا يبتزع منها ذلك المجهول شيئاً أو أحداً تحبه، فإذا ما قاوم أحدهم أو أفصح عن رغبةٍ تخالف رغبتها تغض الطرف عنه في بادئ الأمر لعله يتراجع، ثم تناقشه إن أراد وبصدق حقيقي تحاول إقناعه وإثناؤه عن رأيه وبصبر لا ينفذ بسهولة تضعه نصب عينيها في جهادٍ خالص ماتزال وراءه حتى تخرجه عن رأيه ليعود سابحاً في فلكها... تشبه في ذلك الأمر وإلى حدٍ كبير عمَّها «جعفر»، لكن حبَّها لخالد وزواجها منه خلَّصها من بعض ذاك العند وبعض ذاك التملك..

قاومت روعة كثيراً رغبة وعد في الانتقال للعيش مع سليم، وفي فترة ما وصل بينهما الخلاف إلى مرحلة الالعودة لولا



امتصاص خالد لتلك الريح العَكِرة، فأثرت وعد أن تكتم رغبتها حتّى لا تزيد الفرق اتساعاً بينها وبين والدتها، فبرغم وجود خالد في حياة أمها وهو رجل قد أسعد قلبها وأخلص لها وأخلصت له وغرقت فيه حتى شعر رأسها، إلّا أنّ شبحاً من الممرارة كان يجتاحها حين تتحدث عن «سليم»... مرارة خفية لم تنقص يوماً، أو هكذا أحسّت وعد، فرضيت أن تتنازل عن رغبتها في العيش في كنف أبيها مكرمه وعزاؤها إلّا تجرح أمها وألّا تنكأ جرحها..

أمّا سليم فكان لها معه شأن آخر، سألتها أن تستقر في وطنها، وأن تتجاهل ما حدث وألّا تسمح لنفسها بالسباحة في بحر دَنَسٍ من الهواجس؛ حتى لا تحاصرها أمواج الخيبة وألّا تنظر لأُمور الحياة بنظرة سوداء، عليها أن تقف منتصبة على قدميها وتواجه أزمته بكل جسارة، فلا داعي للاختناق، دعاها لتتنفس ليزهر العالم ويثمر، ضمّها إلى صدره بقوة وقال: لو الدنيا مدتكيش اللي إنتِ عيزاه مدي إنتِ يدك وخديه.

وراح يرقبها من الحُزن لا من الحسد..

وإلى روعة عادت بعد أسابيع قضتها في بيت سليم تدرك تمام الإدراك حاجتها إلى حضنها، أفهمتها أمها وبمنتهى الحنان أنّ الحياة ما هي إلّا مجازفاتٍ وراء مجازفات، خطط متغيرة،



نتائج مفاجئة، خسائر تتلو مكاسب ومكاسب تسبقها خسائر، كل شيء خاضع للتجربة والتغير، المهم ألا تخشى الخسارة أبداً فالكل مُعرضٌ لها... الأهم ألا تفكر كثيراً فيما خسرت وألا تُخيفها التجربة..

وطوال الفترة السابقة لم يتطرق «مينا» لموضوع الزواج، افتقاد الرؤية الواضحة نحو موعد زفافهما لم يعد يعنيه، فُضِّل أن تصلَّ وعد بنفسيها إلى الوقت الذي تراه مناسباً، تفهّم حاجتها إلى التفكير ولملمة شتاتها وإعادة تكوين ما تريد تكوينه، أعجبه أنها تشعر بالارتياح لقربه وبتحسنٍ عام في مزاجها كلما حدثته، صار يكفيها أن تسمع حديثه حتى وإن كان ما يقوله ليس هاماً على الدوام، يتبادل الضحكات معها حتى تتورد خدودها وتعود عيناها تلمعُ ببريقٍ ساطع افتقدته منذ زمن، بيد أن مباريات دوري أبطال أوروبا منعتَه عن زيارتها أو اللحاق بها في مصر، فلما عادت إلى «مانشستر» حيث روعة صار الأمر هيناً..

استمرَّت اللقاءات وتعدّدت الزيارات حتى انضم «ميو» وبشكل كامل إلى معسكر فريقه قبل انطلاق بطولة هامة وغالية، طلبت منه «دودي» أن يهدأ بالألمين ناحيتها ورجته بحرارة ألا يتحامل على نفسه إذا استشعر تجدد الألم في موضع الإصابة..



وقد صدق قولها وكأنّها كانت على علم بما ستأتي به الأيام،
فباقتضاب صارم منع الطبيب اللاعب الماهر من اللعب نهائياً،
فقد صارت إصابته مزمنة، ولا مفر من الاعتزال..

يومها غادر «مينا» الملعب وقد ترك قلبه ومشاعره هناك،
يتحسس خطواته بمساعدة الفريق الطبي، باتت أيامه في المشفى
تشابه، فلم يعد يميز منها شيئاً، فلطالما خشي فكرة الغياب
والبعد والمسافات وهاهو اليوم كُتب عليه الابتعاد نهائياً عن
الكرة والبدء من جديد في حقل آخر..

وإلى جانبه كانت وعد، تدعّمه، تقويه، تبث الأمل في قلبه..
شعرت بأنّ قوة خفية تدفعهما نحو الزواج، ولتحقق
مباهج السعادة في قلب من تُحب، وراحت تطلق العنان لخيالها
نحو مستقبل مشرق مرسوم بنبضات قلبها، نحو أمنيات ناعمة تبدأ
بها صباحاتها الوردية مع من تحب..

لم يُخيب «مينا» ظنّها به أبداً، فقد صمد رغم قسوة
الحدث، وصار في أقصى حالات الواقعية متقبلاً ما طاله ولم
يعد مكسوراً، فقد مضى شهرٌ كامل وتماثل للشفاء وصرّح له
الطبيب بالمغادرة..

سرت في جسده رعشة خفيفة ما أن أخبرته وعد بمرح مغرور
وغنج ناعم بأنّ الوقت قد حان ليكونا معاً دائماً وأبداً..



أزاح شعرها عن عينيها بينما لمعت عيناه ببريق هيام قائلاً:
أخيراً؟؟ ياريتني كنت اتصابت من زمان، لو كنت أعرف إنك
هتجوزيني لما أعتزل كنت اعتزلت من سنتين فاتوا.

ابتسمت وقد علا وجهها شروقاً قائلة: يا سلام؟!

أخذ وجهها بين يديه، واقترب، فقالت وعيونها تتجول في
المكان حولهم: ميو، احنا في المستشفى.

أنساه ملمس بشرتها الزمان والمكان، فقبلها وروحه تسكب
في شرايينها عشقاً، بينما تتعبد عيناه في عينيها شوقاً..

وفي العشرين من أبريل ٢٠٤٣م على شاطئ بحيرة كومو^(١) في
إيطاليا تزوج الحبيبان في حفل ساحر مهيب حضره المقربون
والأصدقاء من كل حدب وصوب، آمناً أن الحب وحده كفيل
بأن يمنحنا الاستقرار، قادرٌ على أن يعوضنا عما انتزعتنا الحياة
منّا عنوة، إنها امرأة جاءت لتخلد في وجدانه، وهو رجل خلق
ليستعمر كيائها..

(١) بحيرة كومو (بالإيطالية Lago di Como) هي بحيرة جليدية في لومبارديا
بإيطاليا. وتبلغ مساحتها ١٤٦ كيلومتر مربع، مما يجعلها ثالث أكبر بحيرة
في إيطاليا.. هي الآن نقطة جذب سياحي شهير جداً والتي تضم العديد من
الأحجار الكريمة والفنية والثقافية. ضفاف البحيرة شهيرة بالفلل والقصور
العديدة مثل فيلا أولمو و فيلا كارلوتا ويملك عدد من أثرياء مشاهير العالم
منازل على ضفاف كومو باعتبارها من أجمل بحيرات إيطاليا..



فلا غربة ولا شتات، لا بُعد ولا ابتعاد حينما نصادف
أنصافنا التائهة.



وفي القاهرة بدأت حياتهما، يتقلبان في نعيمٍ فخيمٍ في قصرٍ
شديد الجمال والأناقة، اجتمع به عدد وافر من التحف والأنتيكات
التي لا تُقدر بثمن، واصطفّت فيه جدرانٌ من الأحجار الكريمة
والرخام وقطع الجرانيت الأصلي، لوحات باهرة من الفسيفساء
طرزّت بأيدي ماهرة خصيصًا لتُعلق على حوائط البهو الرحيب
للقصر ليُخيل للرائي أنّه في متحف أثري ذي ذوقٍ شديد
وأناقة راقية، وجد «مينا» غايته في أكاديمية دولية تختص بكل
علوم الكرة من تدريب وتمارين واستراتيجيات لعب ولياقة بدنية،
شوقه إلى اللعب لم يكن يفارقه؛ فأصبح يُنشط نفسه ويُنفّث عن
ميله باللعب مع طلاب ومدرّبي ورؤاد أكاديميته التي اشتهرت
وذاع صيتها وبعد أقل من عامين أفتتح فرعًا آخر لها في «مدريد»
ثم فرعًا ثالثًا في «فلورنسا»، وهكذا تابعت الأفرع وتعدّدت
وظلّت شهرته وصيته وسامانِ غاليانِ يزينان اسمه وسمعته...
وهكذا اكتشف «مينا» طبيعته الجديدة، فلطالما آمن أنّه لا
يصلح لشيء سوى لعب الكرة... الكرة فقط هي دينته وواقعه



الذي لم يتبدل، لم يُكشر عن أنيابه، إنها رقعة الآمنة وأنها وحدها التي أدت أن يكون هو ذاك الشخص الذي عليه الآن، لكنه وبوجع التجربة ومن رحم الألم عرف أن الإنسان عالمٌ كبير مملوء بالكنوز والأسرار والمواهب، لا ينتمي إلى رقعة واحدة فقط، وأن المحنة وحدها تُعيد صياغته وضبطه وتكوينه..

أمّا «وعد» فقد أسّس لها سليم وكالةً فضائية كاملة، اندرج تحتها عدد من القنوات المتخصصة، حظيت جميعها بأعلى مقاييس الجودة الخاصة بالعمل الفني والإعلامي، واستطاعت بما لها من حضورٍ ورؤية وكيان أن تمدّ فوقهم مظلةً سيطرتها ونالت ما كانت تستحقه من نجاح وشهرة وتميز عن استحقاقٍ وبانفرادٍ تحسد عليه، وفي عملها أثبتت جدارةً ووعياً، ودائماً ما كانت أفكارها وأطروحاتها تسبق عصرها، وفي الآونة الأخيرة من حياة عمّتها «شهد» لازمتها، فازت بقلبها ورضاها وعهدت إليها بنصف تركتها..

شهد الجميع على حرارة قلب «مينا» تجاه زوجته وتأصل رغبته في أن يشارك والدها تكاليف مجمع القنوات الفضائية، حاول كثيراً إقناعه بالأمر إلا أن «سليم» تمسّك بتحملة منفرداً كل التكاليف، ورغم أن كليهما لا يحتاج أموال الآخر إلا أنه لم



يغب عنهما حرصهما الشديد على ضمان توفير كل ما قد يحتاجه المشروع من إمكانيات مادية أو بشرية، والحق أن كِبَر المشروع وتميزه دَلَّ على مهارة وعد الرصينة ومواهبها الحاذقة في إدارة العمل من الناحية المالية والإدارية وليس من الناحية الفنيّة فقط، ساعدها كثيرًا في ذلك والدها بما له من خبرة تراكمية وعلاقات واسعة خلال سنوات عمله في وكالته الإعلانية، وعقب مرور زمن انضم إليها «صالح» بعد اعتزاله كرة القدم بسنوات مارس خلالها التدريب وعمل كمدير للكرة في قطاع الناشئين في «النادي الأهلي» قبل أن يستقيل ولازمه تفكير عميق حول الواقع حوله، عواطف وأفكار متضاربة جالت بعقله، ساعده أبوه برأيه ومشورته ليختار طريقه... مضى يدرس التسويق والعمل الإداري ويوثق علاقاته بكبار المستشارين الإعلاميين وكبار رجال المال والأعمال، وبسرعة استوعب الحياة التي اختارها واعتبرها وطنه ومعشوقته الثانية بعد الكرة ووهبها إخلاصه وأنفق فيها بقية سنوات شبابه وعمره؛ فاستوت إمبراطورية «دابلوي إس» علامة فارقة في تاريخ العمل الإعلامي..



لم تكثرث «هارلين» كثيرًا الثراء زوجها وعائلته وانصرفت



إلى عالمها الأدبي، كتبها وأوراقها ومسوداتها تحتل كل ركنٍ من أركان بيتها... تكتب وتكتب بلا توقف وبلا يأس وكأنّها تدندن لحناً جميلاً حزيناً دافئاً، جاهدت لتحسّن ذلك اللحن... بدت دوماً أنثى تعرف تفسيراً لكل شيء وعلى مهل لمست النجاح وراحت رواياتها تحقق أعلى المبيعات في أوروبا وأمريكا، وترجمت بعض أعمالها إلى العربية... لكن الشوق يوجع والحنين يخون، فبعد عيد زواجها الثامن أخبرت «صالح» رغبته في العودة إلى وطنها، تلك الرغبة وقفت عثرة بينها وبينه، فلم تتسع لها المسافة الفاصلة بينهما، حملت حقائبها وعادت مع صغارهما «وسيم» و«جاسمين» إلى «بلفاست»... سألتها «صالح» أن تبقى، رجاها وقد احتضنها بعنف فقالت: أنت تُحبني حد الاختناق، صدّقني حبيبي لقد قاومت كثيراً ذلك الانقلاب داخلي فلم أستطع!!

استمرت سنواته بعد ذلك تمر وتكُثر في زياراتٍ ورحلاتٍ سفر ما بين القاهرة ولندن وبلفاست، فقد يرشف القهوة مع أبيه صباحاً ويتناول الغداء مع أخته وزوجها ظهرًا ثم يتسكع في اللون الأخضر الطافي في عيني زوجته ليلاً، أدرك أنّه يلزمه خطوة واحدة ليكون معها بشكل دائم، لكنّها خطوة عاقة لا يستطيع أن يخطوها، إنّها أكبر من إمكانيته.



ظَلَّ «مينا» و«وعد» زوجين منفردين بلا أطفال حتى احتفلا بعيد زواجهما السادس، سنواتٌ كانت كافية بالنسبة لدودي لتحس بتأهبها لاستقبال ثمرة ذلك الارتباط الذي شعرت به أنَّها امتلكت الدنيا بما فيها، في البداية قاومت فكرة الإنجاب... ترسَّخ في عقلها واستوت قناعتها إلى حاجتهما الماسة كزوجين إلى الاستقرار النفسي والتعامل بعقلانيةٍ وهدوءٍ خالٍ من أي انفعال أو اندفاع إلى تحقيق اجتياز حقيقي على كافة المستويات، احتاجا إلى فترة كانت بالفعل طويلة لإثبات نفسيهما في مجال عملهما رغم الثراء الفاحش، لم ترغب أن تُشعر نفسها أو تُشعر زوجها أن الزواج والبيت والمسئولية مع بداية حياة عملية شائكة متشعبة المآزق الأكبر في حياتهما، وبوعي كامل رضح «مينا» لعقيدتها واستطاع أن يكون زوجاً محباً واعياً يليقُ بها كما تمنى والدها، ولَمَّا حان الوقتُ المناسب ولاحت الفرصةُ صُدما بعدم قدرة زوجها على الإنجاب..

وفي ليلةٍ شوقٍ وصراحةٍ سألتها أن تتركه وتنجو بنفسها من قدره البائس، أخبرها أنه في كل مرة يصفى للحياة ويصافحها بنية خالصةٍ وبنفسٍ صافيةٍ ويفتح ذراعيه لها يستقبل أحداثها بأمل، في كل مرة كانت الدنيا تخونه، تصفعه، تمنحه لتمنعه... تعامله بشراسةٍ حانيةٍ وبحنانٍ صلد، لماذا؟ حقاً لا يعرف!!



وبحنائها المفرط كانت تمسح رأسه وتقبل جبينه وتخبره
دوماً أنه أفضل كنوزها وأعلى أبنائها ولا قدرة لها على العيش
بدونه ولا رغبة، ولو خيروها بينه وبين كل أطفال العالم
لاختارته دون لحظة تفكيرٍ واحدة..

إنها امرأة ثرية فيأضة يزيد معها كل شيء، زادت رغبته
في الحياة وزاد تمسكه بها وبسعادته واستشرى أمله واشتعل
وطاف يُجرب كل شيء قد يمنحه طفلاً منها..

كانت حاجتهما إلى طفل يلخصهما معاً حاجةً متقدمة،
تراكمت عليهما بمرور السنوات، فإمكان الأزيمة أن تلمم كل
ما تبقى من رجاءٍ داخل الإنسان وتكتبه على حافة قلبه ليقرأه
لسانه بلغة لا يفهمها سوى خالقه..

هرعا إلى خالقهما مع خطوة الأخذ بالأسباب، متفقين على
ألا يخيفهما شيء وعلى ألا يقحما نفسيهما في معمعة الممكن
والمستحيل؛ فسعادتهما كنزٌ ثمين وغاية عظيمة، فربما تكون أول
السطر خيبة وأوسطه رجاء أما آخره فإمّا استجابة أو ادخار..

تأصلت الرابطة وزادت قرباً ومتانةً بين «سليم» وزوج
ابنته، ولطالما شدَّ على قلبه قبل يده كلما هلت على نفسه رياح
اليأس من أمل يداعب قلبه ورجاء ينمو بين جنباته أو كلما قلَّت
عزيمته في تناول الأدوية ومتابعة الفحوصات، احترم خصوصيته



وحساسية الأمر ولم يرغب أبداً في أن يزيده وجعاً، فالكلام في ذلك المجال كان يوجعه بشدة..

حتى مَنْ الله تعالى عليهما بتوأم جميل، تشرّبت القلوب رحيقَ حبهما بتوقٍ وشغف... حظيَ الجميلانِ «إيما وسليم» بنفسِ العشقِ والمنزلة التي حظيت بها أمهما في قلب الجميع.. لقد استوطنا في قلبِ ونفسِ جدهما «سليم أبو ستين» فصار لا يأكل إلا ما يريدانِ أكله ولا يفعل إلا ما يريدانِ القيام به... وكأنَّهما عمرٌ جديدٌ عامرٌ بالرغبةِ العامرةِ قُدِّرَ له أن يعيشه بشمسٍ جديدة، ينظر إليهما ملياً متعجباً: كيف تناسخت روحه ثم قُسمت بينهما وفيهما؟!

إنَّهما البراءة التي لم يكن قد عاشها، تجربةٌ إنسانية لا يمكن أن نضعَ لها قوانين أو وصايا، فالأحفادُ وحدهم يعطونا أعماراً فوق أعمارنا وحُبهم هو الحب الوحيد الذي لا نكتفي منه أبداً..

فالأحفادُ كالأشياءِ الحميمة التي لا نكتبها ولا نقرأها ولا نقولها لكننا نحتاجها بشدة، نتوق لها بشدة، نلقاها بغرام ولا نكتفي منها مهما طال اللقاء..





الفهرس

- الإهداء ٧
- التهيئة ٩
- (١) آمنة فايق النابلسي ١٣
- (٢) رحمة عبد القادر جعفر أبو ستين ٥١
- (٣) إلهام سعيد محبوب ٨٠
- (٤) سهام سعيد محبوب ١٢٠
- (٥) شهد جعفر عبد القادر أبو ستين ١٤٨
- (٦) فاطيما تمام حفني ١٩٨
- (٧) ونيسة بيومي السيد ٢٤٣
- (٨) ميرال اختر شيرعزيزي ٢٩٥
- (٩) نؤارة إبراهيم خليل ٣٧٨
- (١٠) روعة مصطفى عبد القادر أبو ستين ٥٤٢
- (١١) وعد سليم جعفر أبو ستين ٦٣٣